



عالم الفكر

الجلد العشرون - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩

الأُسْدِيَّة



«مجلة عالم الفكر» قواعد النشر بالمجلة

(١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث ونزّهه بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين . ١٢٠ ألف كلمة ، ١٦٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطباعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام - الكويت - ص ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

رئيس التحرير : محمد يوسف الرومي
مستشارة التحرير : د. نورة صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩ م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الإعلام - الكويت ص. ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

الألسنية

- الدكتور أحمد خالص ٥
الدكتور عبدالرحمن ايوب ٢٥
الدكتور يحيى أحمد ٦٩
الدكتور سعد صفر ٩٩
الدكتور عادل الفخوري ١٤١
الدكتور أحمد الخوي ١٦٧

التعريف : المصطلح الأسلي العربي
تحليل صيغة التكلم
الاجزاء الوظيفية ودورها في تحليل اللغة
الدراسة الإحصائية للأسلوب
الانتماء في النصوص اللغوية
عائلة السنية في الاحلال ..

...

مطالعات

- الدكتور أحمد محمد الدوي ١٨٩

صور من تطور لغة الشعر العربي
الحديث عن طريق الجواز

...

من الشرق والغرب

- الدكتور بنيسى بوجلة ٢١٩

السياق التاريخي والثقافي للشعر العربي
الإفريقي - الأمريكي

...

صدر حديث

- تأليف : الدكتور نيل علي
عرض وتحليل : الدكتور علي صبري فرغلي ٢٥٥
تأليف : Michael Elabbady
عرض وتحليل : الدكتور فهد الناصر ٢٧٩

اللغة العربية والحاسوب
بيرواوية الخدمات الجساعية

مجلس الإدارة

- د. محمد يوسف الرومي (رئيساً)
- د. نوريّة صالح الرومي
- د. رشاد حمود الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشعوط

للدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تنقلها للنشر

المحرر الضيف لمحور العدد
الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر

المحرر الضيف لعدد
(الألسنية)

هو الأستاذ الدكتور / أحمد مختار عمر
 أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
 والمعار حالياً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة
 الكويت والحائز على جائزة ووسام صدام للدراسات
 اللغوية ١٩٨٩ م .

التحريد

إذا كانت كتابة العلوم باللغة العربية تعاني من مشكلة نقص المعروض من مصطلحات عربية ، ومن تفضيل كثير من المؤلفين الكتابة بغير العربية .. فإن الكتابة الألسنية باللغة العربية تعاني من مشكلتين حادتين هما :

أولاً : كثرة ما تقلقه المطابع كل عام من كتابات باللغة العربية ، وما يصحبها من إدخال مصطلحات جديدة كل يوم دون أن تتوافر لها شروط المصطلح ، مما خلق مجالات كثيرة للتعارض والتصادم بين هذه المصطلحات واستخدامها بعضهم مع بعض .

ثانياً : تشابك الفترة الزمنية للدراسات القديمة والحديثة وامتدادها عبر مئات السنين ، مما أدى إلى اشتداد الصراع بين أنصار المصطلح القديم والمصطلح الجديد واختلاط المفاهيم ، ونشوء نوع من الاحتكاك بين من يسمون بالتراثيين ، ومن يسمون بالتجديدين .

لهذا كانت مصطلحات العلوم تعاني من مشكلة التحريد ، فإن مصطلحات الألسنية تعاني من مشكلة التوحيد . وإذا كان العلميون يشكون من اتخاذ لغة غير العربية أداة للتعبير ، فإن الألسنيين يشكون من استخدام لغة عربية لم ترق في تميراتها المتخصصة إلى مستوى « المصطلح » . ولولا أن كثيرين عن يقدمون المفاهيم الأجنبية في لفظ عربي يقرنون المصطلح العربي بنظيره الأجنبي لنعض فهم المصطلح العربي على الكثيرين ، ولكان هذا المصطلح حاصل تفريق لا تجميع ، وما كان هناك حد أدنى من الاتصال بين الألسني فطر عربي والألسني فطر عربي آخر ، بل الألسني وآخر في داخل القطر الواحد .

المصطلح الألسني لعربي وضبط المنهجية :

أحمد مختار عمر

الأستاذ بكلية الآداب - قسم اللغة العربية

وإذا كان صحيحا ما يقال عن ولادة علم جديد أو اتجاه جديد ، في الستينيات ، في حقل الدراسات اللغوية العربية استحق أن يميز باسم خاص به وهو « الألسنية » فإن التسليم بهذا القول يقتضي أولا بيان حدود العلم وإنشاء شبكة من المصطلحات له تساعد على ضبط مفاهيمه وتصنيف ظواهره .

وإذا كان أول مظهر من مظاهر اكتمال العلوم واستقلالها وتكامل وصيحتها الفني - كما يقول المسدي - هو إفرادها لثبته الاصطلاحي الخاص بها ، فإن الدراسة الألسنية العربية ما تزال بعيدة عن تحقيق هذه الغاية ، وما يزال التأليف المعجمي في مصطلحاتها الخبيثة في طور التكوين مقارنة بما صدر ويصدر من معاجم وموسوعات بغير اللغة العربية^(١) .

والحديث عن مشكلات المصطلح الألسني العربي حديث متمعد الجوانب متشعب الأطراف ، ولذا لا يستطيع كاتب أن يلم بها في عجالة كهذه ، وإنما عليه أن يثتار ما يراه أهم جوانبها .

وقد رأيت في هذا التمهيد أن أركز على جوانب أربعة هي :

- ١ - مصطلح « الألسنية » .
- ٢ - واقع المصطلح الألسني العربي .
- ٣ - الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح .
- ٤ - وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح .

مصطلح الألسية :

راجعت في الأعمام الأخيرة مصطلحات ثلاثة تنافست للظفر بحق الإطلاق على حقل الدراسات اللغوية الحديثة وهي : « علم اللغة » ، و « اللسانيات » ، و « الألسنية » . وقد اخترنا مصطلح « الألسنية » لنطلقه على هذا العدد الخاص من « عالم الفكر » رغم أنه ليس أكثر الألفاظ الثلاثة^(٢) شيوعا بلحمة أسباب منها :

(١) قرأنا ما صدر من معاجم باللغة العربية - على سبيل المثال - يسلين واثنين صدرا باللغة الإنجليزية أحدهما : *A Grand Dictionary of Phonetics* الذي أصدرته الجمعية الصوتية اليابانية عام ١٩٨١ بعد أن أصدرت معجما مماثلا باليابانية عام ١٩٦٦ . وقد أنشئت الجمعية عشرين سنة في جمع مصطلحات المعجم واختارت من بين مائة ألفي جمعا تحرا من اثنين وعشرين ألف مصطلح شتمتها هذا المعجم .

لما فصل الأمر الذي لفت به سواد في مجال تركيب اللغة وتطورها واستعمالها أو في المجالات التطبيقية الأخرى الصلة بمشكلات الأفراد والمجتمعات .

(٢) مازال مصطلح « علم اللغة » هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعا رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين الآخرين .

فيسهل الفاعلة البايوجرافية التي حصرت للدراسات الألسنية التي تتناول اللغة العربية ، القرارة وبجملته والفكر العربي و (العدد الخاص بالألسنية ١٩٧٩) والتي انضمت على بعضه وحسن بهد وكثافتا نشر منطحتها في السنوات العشرين السابقة لصدور هذا العدد نجد كلمة « لغة » قد ترددت ثلاثا ولأكثر مرة ، في حين ترددت كلمتا : « لسان » و « ألسنية » خمس مرات فقط .

ويجلى عشرين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث - التي ولدت عليها - ويصل عددها إلى نحو عشرين كتابا ويصاحبه نجد النتيجة كما يأتي :

علم اللغة : ٢٥ عنوان .

ألسنية : ١٠ عنوان .

لسانيات : ٥ عنوان .

وبعد أقل من ذلك عشرين عنوان أخرى مثل : علم اللسان - الدراسات اللسانية - البحث اللغوي .

أولاً : إن مصطلح « علم اللغة » قد مرّ بمراحل كثيرة ، وتقلبت عليه مناهج متعددة قديمة وحديثة ، فصار في حاجة إلى وصف توضيحي لتحديد مجاله أو منهجه ، كأن يقال : علم اللغة الحديث ، علم اللغة العام .

كذلك ، يختلط مصطلح « علم اللغة » كثيرا ، وبخاصة في مجال الاصطلاح الجامعي بمصطلح آخر هو « فقه اللغة » ، مع الفارق الكبير بينهما .

ثانياً : إن مصطلح « علم اللغة » يلتبس في ذهن الكثيرين بتعليم اللغة ، وأن مصطلح « اللغوي » يلتبس بالمفهوم العام للفظ ، وهو الشخص الذي يتقن عدة لغات أجنبية . وقد حدث هذا الالتباس حتى بالنسبة لمقابله الإنجليزي Linguist الذي يفهمه الكثيرون على أنه من يتقن عدة لغات ، ولهذا ظهر المصطلح الجديد Linguistician ليكون خاصا بعلم اللغة ، وإن لم يكتب لهذا المصطلح الرواج بعد .

ثالثاً : إن كلمة « لغة » لم تكن تستخدم في الاستعمال القديم بمعناها المعروف الآن ، وإنما كانت تستخدم بمعنى المهجّة . ولم ترد كلمة « لغة » في القرآن الكريم إطلاقاً ، وإنما وردت كلمة « لسان » (وجميعها ألسنة) للدلالة على جملة معانيها :

- ١ - « آله الكلام » : « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفهتين » (البلد ٩) .
 - ٢ - « اللّغة » ، بمعنى رصد الكلمات والقواعد التي تملكه الجماعات اللغوية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (إبراهيم ٤) .
 - ٣ - « الكلام » ، بمعنى الاستعمال الفردي للغة : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم » (المائدة ٧٨) .
 - ٤ - « الأسلوب » ، بمعنى الخاصّة الفرديّة للمتكلّم : « وأنشأ هارون هو وأصحح مني لساناً ، فأرسله معي ردءاً » (القصص ٣٤) .
- ومعنى هذا أن كلمة « لسان » أكثر شمولية واستيعاباً من كلمة « لغة » .

رابعاً : إن كلمة « لسان » تعد من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية . وقد ترددت في فهرست ابن النديم بمعنى لغة في مثل قوله : « اللسان العربي ، اللسان السرياني ، اللسان اليوناني . . في حين أن كلمة « لغة » يونانية الأصل . (علم اللغة العربية لحجازي ص ٣١٠ وما بعدها) .

خامساً : إن إطلاق اسم علم الدراسات اللغوية مشتمل على كلمة « لسان » إطلاقاً قديماً ، عكس ما يتوهمه الكثيرون . فقد أطلق الفارابي في « إحصاء العلوم » على العلوم اللغوية اسم « علوم اللسان » ، وأطلق أبو حيان النحوي على علوم اللغة مصطلح « علوم اللسان العربي » . وتابعه ابن خلدون في هذا فعقد في مقدمته فصلاً بعنوان « في علوم اللسان العربي » .

وحتى في العصر الحديث كان استخدام « علم اللسان » ، و « الألسنة » أسبق في الوجود من مصطلح « علم اللغة » .

وقد نشر الأب مرمجي الدومينيكي عدة أبحاث حملت اسم « الألسنة » نشر أولها في مدينة القدس عام ١٩٣٧ باسم « المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنة السامية » . وترجم الدكتور محمد مندور بحثاً لأنطوان ماويه تحت اسم « علم اللسان » ، ونشر ذلك عام ١٩٤٦ كفصل في كتاب بعنوان « منهج البحث في اللغة والأدب » .

وهكذا حسنا الأمر بالنسبة للاختيار بين مصطلحي « لغة » و « لسان » ، ولكن بقي حسم الأمر بالنسبة لمصطلحي « اللسانيات » و « الألسنة » .

من الواضح - بادي ذي بدء - أن كلا من المصطلحين قد كتبت له السيادة في منطقة عربية دون أخرى . فإذا كان مصطلح « علم اللغة » قد شاع في معظم بلدان المشرق العربي ، فإن مصطلح « الألسنة » قد شاع في لبنان^(٣) بالذات ، ومصطلح « اللسانيات » أصبح هو الشائع الآن في بلدان المغرب العربي ، وبخاصة بعد أن اتخذت ندوة « اللسانيات واللغة العربية » (الملتقى الثالث للسانيات - تونس ١٩٧٨) توصية باستخدام مصطلح « اللسانيات » اسماً لهذا العلم ، بدلاً من مصطلح « الألسنة » . وأخذ اللغويون التونسيون والمغاربة يلتزمون في معظم ما ينشرونه أو يقيمونه من ندوات^(٤) ، كما روج له بعض اللغويين السوريين^(٥) .

فلماذا نقبلنا مصطلح « الألسنة » على « اللسانيات » ؟ واخترناه عنواناً لهذا العدد الخاص ؟

هناك جملة اعتبارات كانت في الذهن عند اختيار هذا المصطلح ، أهمها :

أولاً : إن علم اللغة الحديث لا يختص بلغة معينة ، وإنما يدرس أي لغة ، ويحلل أي مستوى داخل اللغة الواحدة . فمعنى الجمعية ملحوظ في وتليفة هذا العلم ، ولذا يناسبه لفظ الجمع « ألسن » لا المفرد « لسان » .

(٣) ما ظهر من ذلك الألسنة ولغة الطفل لجورج كلاس ، والألسنة العربية (جزءان) لربيعون طحان ، والألسنة (ثلاثة أجزاء) لبيال زكريا ، والألسنة والتعدد الألسنة لغوس أبو تاهجر ، ديوانه الألسنة الحديثة لغري بولس .

(٤) ما ظهر من ذلك في المغرب : الإنشوية في اللسانيات ، والتندرة الدولية الأولى لجمعية اللسانيات ، ومجلة تكامل للغة ، مدخلات من اللسانيات . وفي الجزائر : مجلة اللسانيات ، وعماضون في اللسانيات الحديثة . وفي تونس : لغوس اللسانيات ، والملتقى الثالث للسانيات ، واللسانيات واللغة العربية ، واللسانيات من خلال النصوص . ومع ذلك تذهب الكتاب المغربية إلى أكثر من مصطلح ، فاستعملوا إلى جانب « اللسانيات » : « الألسنة » مثل « مفتاح الألسنة » (تونس ١٩٨١) ، و « دروس في الألسنة واللغة » (تونس ١٩٨٥) . ولذا لا حاجة لنا إقوله لشخص من أن مصطلح الألسنة لم يعد يستعمل عند التونسيين بعد عام ١٩٧٨ (لغوس اللسانيات ، ص ٧٠) . كما استخدموا كذلك علم اللسان ، والفكر اللساني ، والمصطلحات اللغوية (الأخير في كتاب صدر ١٩٨٧) ، وعلم اللغة (في كتابين صدرتا عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٥) . وللسني نفسه في مقال : الفكر العربي والألسنة (١٩٧٨) استخدم مصطلحات : علوم اللسان ، الألسنة ، البحث اللساني ، علوم اللغة ، الدراسة اللغوية ، الدراسات الألسنة .

(٥) نظار : مارون الوعر . تحليلاً فلسفياً في علم اللسانيات الحديث ، (١٩٨٨) .

ثانياً : أنه لم يعد هناك حرج في النسب إلى جمع التكسير على لفظه بعد أن أقر جميع اللغة العربية بالقاهرة ذلك ، وبخاصة حين يكون الجمع اسماً لعلم من العلوم . وقد بدأ نسب إلى علم الأصول ، فقبل « أصولي » ، وإلى الأخبار فقول « أخباري » .

ثالثاً : أن التصرف في لفظ « السنّة » أسهل من التصرف في لفظ « لسانيات » فحين نأخذ الصفة من الأول نقول : دراسات السنّة ، وحين نتحدث عن المشتغل بهذا العلم نقول : لسانی ، بإبقاء الجمع على حاله . ولكن إذا أردنا أن نأخذ الوصف من « اللسانيات » فلا نقول - وليس من المستغنى أن نقول - « دراسات لسانيات » ، ولا « لسانيات » ، ولذا يراد بالجمع إلى مفردة عادة فيقال « لسانية » ، و « لسانی » .

رابعاً : أن اللبس الذي يحدث عند استخدام المصطلح « لغوي » وعدم القطع ما إذا كان نسبة إلى « اللغة » أو « علم اللغة » ، والذي فضلنا - من أجله - ترك هذا المصطلح ، يحدث نفسه إذا استخدمنا لفظ « لسانيات » . فحين النسبة منقول : « لسانی » فلا بدري أي نسبة إلى « اللسان » أم إلى « اللسانيات » .

ولكن هذا المحذور يزول باستخدام كلمة « السنّة » اسماً للعلم . فحين النسبة إلى الجمع « لسانی » يكون المراد النسبة إلى العلم . أما إذا نسبنا إلى المفرد فقلنا « لسانی » فتكون النسبة إلى « اللسان » بمعنى « اللغة » لا بمعنى العلم الذي يدرس اللغة^(٦٦) .

والعلم المصطلح اللساني العربي :

هناك نوعان اثنان من المصادر يمكن من خلالها دراسة واقع المصطلح اللساني العربي :

أولها الكتب المؤلفة في بعض مباحث العلم ، وبخاصة تلك التي تتعامل مع مفاهيم غربية جديدة ، لها في لغتها مصطلحاتها الخاصة التي يراد التعبير عنها بمصطلح عربي .

وثانيها ما ألف من معاجم أو مسارد لهذه المصطلحات ، وهي في معظمها تتخذ المصطلح الأجنبي أو المفهوم الأجنبي منطلقاً للإشارة إلى عربي . ولا عكس

(٦٦) من الغريب أن يكون لشد المقادير من المصطلح « لسانيات » هذه الشدة الغرض من المصطلح « لغويات » على أساس أن اللفظ الأخير من معنى في تركيبة على صيغة الفصحى « لغوي » ، أصبح من المفرد ثم كالمفرد اسماء مصطلحات للعلم . سميت به وينسب إليه إذا من غير الاستغناء لشخصي « لغوي » أو « لغويات » (السند) لغويات اللسانيات ص ٦٩ .
وقد بدأ ما تعدد في المصطلح « لغويات » ونسجده بالضرورة على المصطلح « لسانيات » . يرد من غير الاستغناء أن يقال « لسانی » ، أو « لسانية » . وإذا كان السند قد خضع من هذا المحذور من طرفي النسب وأحد الصلة من المفرد « لسانی » . فليس « لسانی » يمكن أن يجعل نفس الشيء مع « لغويات » .

وإذا كان محمد رشاد الحمزاوي قد جمع بين المصدرين في عمل واحد هو كتابه « المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية » فإن عمله هذا يعد - من ناحية - قطرة في بحر ، كما يعد - من ناحية أخرى - عملاً ثرائياً دخل ذمة التاريخ . فقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧ ، واعتمد على مؤلفات يعود بعضها إلى الخمسينيات ، ومعظمها إلى الستينيات ، مسطفاً بذلك عشر سنوات هامة من تاريخ الألسنية . ولم يدخل المؤلف - مع الأسف - على كتابه أي إضافة أو تعديل أو تصويب في طبعته الثانية عام ١٩٨٧ في حين أن البحث الألسني العالمي يقفز كل يوم قفزات هائلة ، ويقدم تصورات ومفاهيم جديدة تجعل أي بحث أو عمل مسحيّ في الألسنية متخلفاً خلال بضعة سنوات .

ولعل أهم معاجم للمصطلحات الألسنية المتعددة اللغة التي صدرت في الثلاثين سنة الأخيرة - إلى جانب معجم الحمزاوي هي :

١ - مجموعة المصطلحات اللغوية ، التي بدأ يجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضعها عام ١٩٦٢ ، ووردت ضمن مجموعات المصطلحات العلمية والفنية في أجزاء كثيرة متتابعة . وهو المعجم الوحيد الذي ظهر بجهود هيئة علمية حتى الآن . ولكنه - مع الأسف - شديد القصور ، وواضح الجمود بعد هجرة لعدة سنوات ، وعدم تزويده بالمصطلحات المستجدة أولاً فلولاً .

٢ - معجم علوم اللغة ، الذي أعده عبد الرسول شاتي ونشرته مجلة اللسان العربي عام ١٩٧٧ في المجلد الخامس عشر - الجزء الثاني .

٣ - معجم علم اللغة النظري ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٢ .

٤ - معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، من إعداد نخبة من اللغويين العرب ، وقد صدر عام ١٩٨٣ .

٥ - قاموس اللسانيات ، من إعداد عبد السلام المسدي ، وقد صدر عام ١٩٨٤ .

٦ - معجم علم اللغة التطبيقي ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٦ .

وعيب منظم هذه المعاجم اكتشّفها بمجرد ذكر المصطلح الأجنبي ومقابله العربي ، دون تعرضها لشرح المصطلح وتحديد مفهومه ، كما يعيبها جميعاً أنها قاصرة غير مستوعبة ، وأنها تمثل اجتهادات شخصية لأصحابها ، ولا تخضع لمهجية مضبوطة ، وأنها يتقصها التجديد من آن لآخر .

ولنبداً بمصطلحات عبد القادر الفاسي الفهري في أبحاثه وكتبه فنلاحظ عليها أنها تتسم بالابتكار ، والتوسع في التعريب ، وإدخال صيغ ومشتقات غير مألوقة في لغة « الألسنية » ، ومن ذلك :

- استخدام مصطلح « التأسيس » في مقابل : nominalisation
- و « المكون الصوتي » في مقابل phonological Component
- و « الموضوع » في مقابل : topicalisation
- و « النفس لسانيات »
- و « السيكولسانيات » - في مقابل psycholinguistics
- و « التيسير » في مقابل focalisation
- و « تركيب مُبَار » في مقابل focused construction
- و « ميتا متغير » في مقابل metavariable

أما رشاد الحمزاوي فهو أكثر جرأة من الفهري من ناحية ، وأكثر ذاتية في حك المصطلح من ناحية ثانية ، وأقل اطرادا مع نفسه في استخدامه للمصطلح من ناحية ثالثة مع أنه يعتبر نفسه من المنظرين في مجال المصطلح بعامه ، والمصطلح اللغوي بخاصة :

● فهو يطلق على علم الدلالة : السيميّة .

● ويستخدم « علم اللغة النفساني » ، بدلا من « النفس » .

● ويبقى المصطلح الأجنبي كما هو - دون حتى محاولة تعريبه وإخضاعه للصياغة العربية - فيستخدم مصطلحات مثل : « إيستمولوجيا » ، و « إبلاتيف » ، و « أكوستيكي » ، و « جراماطيقا » ، و « دياكرون » ، و « فوناتيكي » ، و « برادجاني » ، و « ستجماني » و « سامبولوجيا » .. وغير ذلك .

● ولا يلتزم بمقابل واحد للمصطلح الأجنبي فكلمة accent يقابلها « بالنبر » ، و « النبرة » ، و « الضغط » . وكلمة synchronic يقابلها مرة بكلمة « متزامن » ، ومرة « أفقي » . و bilabial عنده : « شفوي » ، و « شفتاني » ، و « بين الشفتين » و phoneme عنده مرة « صوتم » ، ومرة « فونيم » .

● وهو في معظم حالاته لا يربط الألفاظ المترادفة ، ولا يستخدم نظام الإحالة .

● وقد يجابه الترتيق في المقابل العربي الذي يستخدمه . فمصطلح affricate يقابله بلفظ « شديد » والصواب مقابلته بأحد مصطلحات ثلاثة يستخدمها الأكسيون وهي « مزجي » ، « مركب » ، « شديد رخو » . ومصطلح assimilation يقابله مرة بلفظ « إدغام » ، ومرة بلفظ « تماثل » . والصحيح مقابلته بلفظ « عاتلة » .

ونعرض الآن بعض المصطلحات اللغوية متبعين إياها في عدد من المصادر العربية لنرى مدى الاضطراب في صوغها ، والتباين في عرضها :

١ - المصطلح Phoneme ويرتبط به مصطلحان آخران هما allophone و phone تباينت فيها المقابلات العربية على

النحو التالي :

| المصدر | Phone | allophone | phoneme |
|-------------------------------|----------------------------|----------------------|--|
| دراسة الصوت اللغوي | فون | ألفون | ١ - فونيم |
| قاموس اللسانيات | صوت | صوتهم تعامل | ٢ - صوتم |
| دروس في علم أصوات العربية | — | — | ٣ - صوت / صوتم |
| معجم علم اللغة النظري | صوت لغوي / صوت كلامي | ألفون / متغير صوت | ٤ - فونيم / فونيمية / صوتم / صوت مجرد |
| معجم مصطلحات علم اللغة الحديث | صوت كلامي | ألفون | ٥ - فونيم |
| المصطلح اللسان | — | بد صوتية | ٦ - صوتية |
| مفاتيح الألسنة | — | — | ٧ - صوتم |
| مجلة الفكر العربي | — | — | ٨ - مستصوت / فونيم / لافظ |

وأقترح الاكتفاء بمصطلحات المصدر الأول لوضوح العلاقة اللفظية بينها ، ولسهولة تصريفها ، ولأنها أصبحت مصطلحات عالمية تستخدمها اللغات الأوروبية . أما إطلاق « صوت » على الفونيم فيعبئه التباسه بمصطلحين آخرين هما Sound, Phone . أما فونيمية وصوتية فيالتباس بصيغة التشبؤ الموسيقية ، فضلا عن صعوبة نطقها . أما للمصطلح « صوت مجرد » فيعبئه كونه ثنائيا .

٢ - المصطلح morpheme ، ويرتبط به مصطلحان آخرون ، هما allomorph و morph تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالى :

| المصدر | morph | allomorph | morpheme |
|-------------------------------|-------|------------------------|---|
| أسس علم اللغة | مورف | الومورف | ١ - مورفيم |
| قاموس اللسانيات | تشكل | شكلم | ٢ - صيغم |
| معجم مصطلحات علم اللغة الحديث | مورف | الومورف | ٣ - مورفيم / وحدة صرفية |
| معجم علم اللغة النظرى | مورف | الومورف متغير دلالي | ٤ - مورفيم / مورفيم / صرفية مجردة / صرفية |
| المصطلح اللسان | - | بد صرفية | ٥ - صرفية |

وأفضل هذه المصطلحات المجموعة الأولى لأنه يمكن ربطها بعضها ببعض ، ولسهولة تصريفها .
والمسمى الذى استعمل « صيغم » في مقابل المورفيم جاء الى المورف والالومورف واستخدم لفظين من مادة أخرى .

٣ - المصطلح bilabial ويعنى الصوت الذى تشترك في نطقه الشفتان وضعت له المقابلات العربية الآتية :
شفتان - شفوى - من بين الشفتين - شفوى ثنائى - شفوى مزدوج . والمصطلح الأول أدقها ، وبخاصة بعد أن أجاز جمع اللغة العربية النسب الى الثنى على لفظه . أما الثانى فينبى أن يخصص لمقابلة المصطلح Labial وأما المصطلحات الباقية فيعيها تعدد ألفاظها .

٤ - المصطلح Lexeme وضعت له المقابلات العربية : وحدة معجمية - لكسيم - مفردة - مفردة مجردة - مُأَصِّل - معجمية . وأفضلها اللفظ العربى .

٥ - المصطلح synchronic وضعت له المقابلات العربية : متزامن - تزامنى - وصفى - متعاصر - متوافق - آنى - ثابت - سنكرونى - مستقر - أبقى . وأفضلها المصطلحان الأولان ، لغزابة اللفظ العربى .

٦ - المصطلح diachronic ويستعمل عادة في مقابل المصطلح السابق للدلالة على تعدد الأزمنة . وقد استعمل له المصطلحات : تطورى - تعاقبى - متعاقب - تاريخى - زمانى . وأفضلها التعاقبى الذى يتلاءم مع تزامنى من ناحية ، ولا يلتبس بغيره من ناحية أخرى .

الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح :

إذا أردنا أن نرصد هذه الاتجاهات وجذناها عموطة بالارتجالية من ناحية ، والتحكم من ناحية ثانية ، وعدم الانضباط من ناحية ثالثة . وهي سمات أدت إلى خلق كثير من المشكلات أمام المصطلح الألسني وكادت توصله إلى حال يفقد فيها هويته ، ويتخلل عن أحسن خصائصه ، وهو ضرورة نثائه على الاتفاق أو الاصطلاح بين المشتغلين باللغة وعلومها . وأهم هذه المشكلات ما يأتي :

أولاً : ما انحدر إلى المصطلحات الألسنية الحديثة من مشكلات عن المصطلحات القديمة التي لم يراع في وضعها المواصفات الضرورية ، فجاءت مختلفة من عدة جهات مثل :

- أ - استعمال المصطلح في أكثر من مفهوم ، كإطلاق « الناقص » على الفعل الذي لا يكتفى بمرفوعه ، وعلى المعتل الآخر ، وإطلاق « ذوات الثلاثة » على الأجوف ، وعلى الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف أصول .
- ب - إطلاق أكثر من مصطلح على المفهوم الواحد مثل « الواقع » على « المتعدي » ، و « الخفض » على « الجبر » ، و « التثنية » على « الصفة » ، و « العماد » على « ضمير الفصل » .
- ج - طول المصطلح وتكونه من عدة كلمات ، ويظهر هذا بوضوح في كتب التراث الأولى .

ثانياً : ما يتحملته المصطلح الألسني العربي الحديث من مشكلات تتعلق بالمصطلح العلمي بوجه عام مثل :

أ - تعدد جهات وضع المصطلح (المجامع والميقات) دون تنسيق حقيقي بينها (رغم وجود ما يسمى بمكتب تنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط) ، واختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلح ، وميل معظمهم إلى الفردية .

فمجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد أن يجدد وسائل وضع المصطلح يعطى أفضلية لوسيلتين اثنتين هما :

- ١ - اللفظ العربي على العرب القديم إلا إذا اشتهر العرب .
- ٢ - المصطلح العربي القديم على الجديد إلا إذا اشاع الجديد .

وكلتا الوسيلتين يمكن تحقيقهما عن طريق الاشتقاق أو المجاز . ثم نجد يعطى كذلك أفضلية للترجمة الحرفية حين لا يمكن وضع المصطلح الجديد في كلمة واحدة . وهذا يساوي بين الوسيلتين الداخلية والخارجية في الأفضلية .

ولكنه يعد من باب الضرورة العلمية الالتجاء إلى الوسيلتين الآتيتين :

- ١ - إدخال ألفاظ أصحجية على طريقة العرب في تعريبهم .
- ٢ - اللجوء إلى التحت .

(مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما ص ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ ، وشوقي ضيف : مجمع اللغة العربية في خمسين عام ص ١٢٨) .

والمجمع العلمي العراقي يتعصب للفظ العربي لدرجة أنه كان يمتار اللفظ الغامض ويفضله على الواضح كإطلاقه الجابية على الخزان ، والنوسق على الحمونه ، والإزقال على السرعة ، والكظام على الحشو ، والواجبة على المكبس ، والسدام على القداحة ، والواجبة على آلة التخريم ، والجسوة على الصلاية (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ٨) .

ولكنه رغم سلوكه هذا ، وفضيله اللفظ العربي على الأجنبي (مطلوب ص ٥ ، ٩) ، ودعوته الى تجنب النحت والتعريب ما أمكن (مطلوب ص ١٠) ، نجده يلجأ الى التعريب كثيراً ، وإلى الملقق أحيانا كما في اللاتياتي ، واللاتمدي ، واللاتخطي ، واللاتمنطقي ، واللاتشكلي (مطلوب ص ٦ ، ٧) . ورغم نصحه باختيار المصطلح ذي اللفظ الواحد كان يستعمل بعض السوايق على وزن فعل كالفُرط ، والحط ، والسيق ، واللحن ، والبعد . (مطلوب ص ٩) .

ولكن في نفس الوقت هناك آلسنيون ممن يشاركون بجهودهم في وضع المصطلح يسلكون طرقا مخالفة :

١ - فزرى عبد السلام المسدي يهاجم إحياء الألفاظ القديمة وإطلاقها على متصور مستحدث قائلا : « وكثيرا ما يتجاذب الميراث الاصطلاحي ذوى النظر فينزعون صوب إحياء اللفظ واستخدامه في غير معناه الدقيق . . فإذا بالمدلول اللسان يتوارى حينما خلف المفهوم النحوي ، ويتسلل أحيانا أخرى وعليه مسحة من الغيباب نتم صوره الاصطلاحية ، فتلابس القضايا ، ويمسر جسم الجدل بين المختصين » (قاموس اللسانيات ص ٥٥ ، ٥٦) .

٢ - ونرى عبد القادر الفهرى كذلك يجدر من استخدام المقابلات العربية الواردة في التراث لأن هذا يخلق توها بصدق المصطلح العربي « على ما يصدق عليه المصطلح الغربى نتيجة إسقاطات ظرفية أو ذاتية يقوم بها المترجم ، وينتهى الى إيجاد مناسبات غير قائمة » (المصطلح اللسان ص ١٤٤) . ويلح على فكرته هذه حين يقول في توضيح منهجه : « تمهيننا بقدر الامكان - استعمال المصطلح المتوفر القديم للتعبير عن المصطلح الداخل ، لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثل المفهوم الجديد والحل على السواء . ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم وتحصيله إذا كان موظفا ، لأن هذا يؤدي الى مشترك لفظي غير مرغوب فيه ، بالإضافة الى سوء الفهم » (السابق ص ١٤٥) .

وعلى عكس المجامع اللغوية نراه يشجع التعريب « لصعوبة الانتقال من لغة الى لغة باستخدام الرصيد المصطلحي الداخل فقط . فتعريب الثقافة العلمية يقتضى اللجوء الى ما أسميناه المصطلح الخارجي » (السابق ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو لهذا يدعو الى تطوير اللغة العربية مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصبح والمفاهيم (السابق ص ١٤٢) .

٣ - وعمل نسق ما قال الفهري تجد محمد رشاد الحمزاوي يهاجم اللجوء الى الترجمة قاتلاً : « وتزداد القضية تشعباً عندما ننظر الى الأساليب الفنية التي ترجمت بها هذه المصطلحات . . ولابد أن نشير في هذا الصدد إلى أن كل الترجمات لا تبنى فنياتها وعياً علمياً مركزاً » . كما أن اللجوء الى الترجمة - في نظره - يثير قضية المطابقة بين المصطلح اللغوي والواقع ، وقضية الترادف بين اللغات . (مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٤ ، ٢٦٥) . ويرى أن اللجوء الى الترجمة لن يؤدى أكله « إلا إذا استقلت اللغة المترجم إليها بنظرياتها ، وأصبح لها من الزاد الاصطلاحي الذي يوفر لها التكثيف والتحويل والإسقاط » (السابق ص ٢٦٧) .

ب - عدم الدقة عند وضع المصطلح نتيجة عدم الدقة في فهم ما يعبر عنه . ومن ذلك عدم التفرقة بين المصطلحين الإنجليز *nasality* و *nasalization* مع أن الأول يعني تسرب الهواء كلياً من خلال فتحة الأنف ، والثاني يعني تسرب الهواء من الأنف مع استمرار تسريه من الفم (وذلك كما يحدث في نطق بعض العلال) . وقد استخدم المدققون لأول مصطلح الأنفية ، ولثاني مصطلح التأنيف (دراسة الصوت اللغوي ص ١٠٢ ، ١٠٣) . ومثل هذا يقال عن الفرق بين الغاري *palatal* والمغفور *palatalized* . فالأول ينطق عن طريق نطق مفرد في عنقطة الغار ، والثاني ينطق باجتماع النطق الغاري مع نطق آخر معين . ويمكن - على ضوء هذا - التفريق كذلك بين الصوت الطبقي *velar* والطبقي *velarized* والصوت المهموس والمهمّس ، والصوت المجهور والمجهّر .

ج - ترك حرية وضع المصطلحات للأفراد كل بحسب اجتهاده ، وعمل قدر قربه أو بعده من التراث العربى . وغير مثال لذلك المصطلح *phoneme* الذى وضع له في العربية المقابلات الآتية : فونيم صوتيم - صوتم - فونيمية - صوت مجرد - مستصوت - لفظ - لافظ . ويلاحظ في هذه المصطلحات تنوع طريقة وضعها بين التعريب الكامل والتعريب الناقص والترجمة الحرفية والترجمة الواسعة والتفسير (انظر المسدى : قاموس اللسانيات ص ٧٦ ، ٨٣ ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

د - الخلط بين المصطلح ، والشرح أو التفسير كإطلاق بعضهم « الوحدة الصوتية » على الفونيم ، و « الوحدة الصربية » على المورفيم ، وبعضهم « علم تأصيل الكلمات » أو « علم تاريخ الكلمات » على ما يقابل المصطلح الانجليزي *etymology* . وأفضل من هذا إما تعريب الكلمة أو استخدام مصطلح « التأنيل » (المسدى ص ٨٤ و ٢٢٣ ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث ص ٢٤) .

ثالثاً : ما ينتقل الى اللغة العربية من مشكلات تتعلق باللغة أو اللغات المتقولة عنها المصطلح . ومن أمثلة ذلك المصطلحان الانجليزيان *phonetics* ، *phonology* . فمثل الرغم من كثرة ترددهما في علم اللغة الانجليزي فإننا نجد لهما عدداً من التفسيرات التي توقع الباحث في حيرة وارباك :

أ - فقد استعمل دي سوسير اللفظ *phonetics* للدلالة على ذلك الفرع من العلم التاريخي الذي يميل الأحداث والتغيرات والتطورات عبر السنين ، وعده من أجل ذلك جزءاً أساسياً من الأسس في حين حدد مجال الـ *phonology* بدراسة العملية اليكانيكية للنطق ، وعده من أجل ذلك علماً مساعداً للأسس .

ب - أما مدرسة براغ فتستعمل مصطلح phonology في عكس ما استعمله فيه دي سوسير ، إذ تريد به ذلك الفرع من الأسنسية الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية . ولذلك نجد أنها تعتبر الفونولوجي فرعاً من الأسنسية . أما الفوناتكس فقد أخرجه معظم رجالها من الأسنسية ، واعتبروه علماً خالصاً من علوم الطبيعة يقدم يد المساعدة للأسنسية .

ج - واستعملت الأسنسية الأمريكية والانجليزية مصطلح فونولوجي لعشرات السنين في معنى « تاريخ الأصوات » ودراسة التغيرات والتحولات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها . وهو حيثئذ يكون مرادفاً لما يسمى historical phonetics أو diachronic phonetics أما المصطلح فونتكس فقد استعمل في معنى العلم الذي يدرس الأصوات الكلامية ويصنفها ويحللها من غير إشارة إلى تطورها التاريخي . وإنما فقط بالإشارة إلى كيفية إنتاجها ، وانتقالها ، واستقبالها .

وعلى هذا فالفرعان يبدآن من صميم الأسنسية ، وإن دخل الأول تحت فروع الأسنسية التاريخية ، والثاني تحت فروع الأسنسية الوصفية .

د - ومن الأسنسين من رفض الفصل بين ما يسمى فونتكس وما يسمى فونولوجي لأن أبحاث كل منهما تعتمد على الآخرى ، ووضع الاثنيتين تحت المصطلح فونتكس أو تحت المصطلح فونولوجي .

هـ - ومن أجل هذا اللبس ظهر المصطلحان الجديدان phonemics و phonematics ، كبديلين للمصطلح فونولوجي .

و - ومعظم الأسنسين الآن على تخصيص الفونولوجي للدراسة التي تصف وتصنف النظام الصوتي للغة معينة . أما المصطلح فونتكس فيقتصر على دراسة أصوات الكلام مستقلة عن تقابلات نماذجها ، وعن مجموعاتها في لغة معينة ، ودون نظر إلى وظائفها اللغوية ، أو حتى معرفة اللغة التي تنتمي إليها . وهم قليلاً ما يستعملون الآن المصطلح فونيميكس ونادراً ما يستعملون المصطلح فونيماتكس .

وقد انتقل الخلاف في مفهوم المصطلحين إلى اللغة العربية فاستعملها الأسنسيون العرب كل حسب دراسته ومدرسته الأسنسية . كما امتد الخلاف ليشمل كيفية التمييز عن مفهوم كل باللغة العربية ففهم من أبقى للمصطلح فوناتكس وعربه إلى « فوناتيكا » ، ومنهم من عربه عنه بالمصطلح « الصوتيات » ، أو « علم الأصوات » أو « علم الأصوات اللغوية » أو « علم الأصوات العام » . وحدث نفس الشيء بالنسبة للمصطلح فونولوجي ، ففهم من أبقاه وعربه إلى « فونولوجيا » ، ومنهم من عربه عنه بالمصطلح « علم الفونيمات » ، أو « علم الأصوات » ، أو « علم الأصوات التاريخي » ، أو « علم الأصوات التنظيمي » ، أو « علم وظائف الأصوات » ، أو « علم التشكيل الصوتي » ، أو « علم الأصوات التشكيل » أو « الصوتية » (دراية الصوت اللغوي من ٤٥ - ٤٨) ، وقاموس اللسانيات ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

وأيضا : كثرة ما تقذف به المطبعة كل يوم من أبحاث ودراسات ألسنية متعددة النواحي والمشارب ، وامتلاء الساحة الألسنية العالمية بالمفاهيم والمصطلحات التي تتزاحم وتتداير . وقد أدى توافر النظريات الألسنية ، وما أنشأته من مصطلحات ، وما استحدثته من مفاهيم جديدة تحتاج الى مصطلحات للتعبير عنها - أدى الى حدوث تراكمات في المفاهيم والمصطلحات التي يتعين نقلها الى اللغة العربية ، مما أظهر المصطلح الألسني العربي بمظهر العاجز عن مواكبة النشاط الألسني العالمي ، واستدعى العجلة في تدارك ما فات ، مما سبب كثيرا من الإرباكات وأدى الى عدد من السليبيات من أبرزها :

أ - اعتماد كثير من المصطلحات الألسنية العربية الحديثة على التعريب أو الترجمة الحرفية ، وبهذا انتقلت مشكلات التعريب والترجمة الى دائرة المصطلح الألسني .

تصنيف المفاهيم يختلف من لغة الى لغة ، ومن ثقافة الى أخرى . ومن الصعب الحصول على لفظ مطابق في لغة ما للفظ آخر ، مما يضع المراقيل أمام الترجمة الدقيقة . والترجمة تقتضي تطويع اللغة مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم ، وهو ما لا يتوفر بسهولة في لغتنا . وترجمة المصطلح الى العربية تقتضي وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي ، وهو ما قد يتمتد الحصول عليه في شكل كلمة واحدة إذا كان المصطلح الأجنبي يكتسب جزءا من معناه عن طريق ما التفتيح به من سوابق أو لواحق ، وقد يضطر هذا المترجم الى استخدام لفظين مما يجعل المصطلح صعب التصريف ، قليلا في الاستعمال .

أما التعريب فيقودنا الى الغلف بمحيط غريب نوعا ما داخل محيطنا ، وبمفاهيم مجسدة في ألفاظ لغات أخرى ضمن مفاهيمنا ، وهو ما قد يفر عن الذوق العربي . وإن كان مما يخفف من هذا الغور إعطاء اللفظ المعرب الصيغة العربية ، والنطق به على مناهج المعرب .

والتعريب يقتضي كذلك تماثلا أو تشابها بين اللغتين في الأنساق الصوتية والصرفية وهو ما لا يكاد يتوفر بالنسبة للغتنا . فالإنجليزية مثلا تشتمل على أصوات ليست في العربية ، وكذا العكس . والإنجليزية تتألف بين جدر ولاهقة أو سابقة للحصول على مفردة جديدة دون تغيير يذكر في البنية الداخلية للجذر في حين أن العربية لغة اشتقاقية تحدث غالبا تغييرا في صيغة الجذر أو أصل الاشتقاق للحصول على صيغة جديدة (الفهري : المصطلح اللساني ص ١٤٢) .

ويقترح عبد القادر الفهري لاحتكام مشكلة الترجمة البدء بمعاينة الحقول الدلالية في كل من اللغتين ، وإقامة ما يمكن إقامته من مناسبات ، وفرض ما ليس له مقابل في اللغة الهدف واحتاج الى الوضع والتوليد . ويرى أن تتبع الحقول الدلالية في اللغتين قد يساعد على تلاقى اضطراب الترجمة ، ويضرب لذلك مثلا بالمصطلح Sign الذي يترجم الى رمز ، علامة ، إشارة ، دليل . فلو نظرنا الى أسرة Sign لوجدنا Symbol من جهة ، و signifier و signified من جهة أخرى . ونحن نحدث دي سوسير من الـ sign يبين أنه اعتباطي في حين أن الـ Symbol توجد فيه العلاقة بين الدال والمذلول . فالأقرب أن يترجم Symbol الى « رمز » وأن يترجم Sign الى « دليل » باستعمال نفس المادة المعجمية التي اشتق منها

الدالّ Signifier، والمندلول Signified والدلالة signification. أما «علامة» فالأقرب أن تكون ترجمة لكلمة mark. وأما إشارة فتقابل demonstrative (السابق ص ١٤٣).

ومع الاعتراف بمشروعية التعريب كوسيلة من وسائل وضع المصطلح العربي، فإن كثيرا من اللغويين يربون منه، وخصوصا إذا كان اللفظ المعرب عما تنفر منه الأذن العربية مثل استعمال المصطلحات homonymy و polysony و Syntagmatic وغيرها (انظر الحمزاوي: مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٣، ٢٦٤).

كما أن منهم من ينظر إلى التعريب كوسيلة مرحلية ينبغي أن تعقبها وسيلة أخرى كالترجمة أو التعريب الجزئي، كما حدث لمصطلح فونيم الذي فضل بعضهم عليه فيما بعد «الصوتيم» أو «الصوتيم»، وفضل بعضهم «الصوت» المجرد، أو «الوحدة الصوتية» أو «المستصوت».

ب - عدم وضع ترتيب لطرق صوغ المصطلح، وترك الحبل على الغارب لكل مجتهد يسلك الطريق الذي يريد، ويفضل الوسيلة التي يميل إليها. فإلى جانب الترجمة والتعريب اللذين سبق الحديث عنها نجد طرقا أخرى مثل:

• النحت الذي يتم عن طريق مزج عنصرين أوليين على الأقل، أو نتيجة لصق أو تركيب خارجي. وطبيعي أن يؤدي استعمال النحت إلى ظهور صيغ جديدة لا تنضوي تحت أي من الموازين الصرفية أو الاشتقاقية، ولا يقف طولها عند حد.

• الاشتقاق الذي يعد من أكبر خصائص اللغة العربية، والذي يكسبها طواعية داخلية تمكنها من تلبية كثير من الحاجات الدلالية والمتطلبات المصطلحية. وطاعة الاشتقاق في صوغ المصطلحات لا تنتهي، لأن الاستعمال قلما يستغنى كل الاحتمالات الممكنة.

• المجاز، وهو إحدى طاقات الحركة الدلالية في كل اللغات، وهو خير معين على استيعاب المدلولات الجديدة دون إدخال أجسام غريبة في اللغة العربية، ودون إقحام بعض الوسائل التي لا تتلاءم مع طبيعتها. ويستطيع المجاز أن يجد أمام ألفاظ اللغة جسورا وقتية تتحول عليها من دلالة الوضع الأول، إلى دلالة الوضع الطارئ (انظر: المسدي: قاموس اللسانيات ص ٢٩ - ٤٥).

وسائل ضبط المبهجة وتوحيد المصطلح:

ربما كان من أكثر المشتغلين بتأصيل المصطلح الأساسي ورسم حدوده اثنان، هما عبدالقادر الفاسي الفهري، وعبد رشاد الحمزاوي. ولكن ما قدماه في النهاية لا يعدوان يكون خطوة على الطريق، وبعضه قد أثبت الواقع العملي عدم ملاءمته.

ومن أهم ما وضعه الفهري من أسس:

١ - اللجوء إلى وسائل التوليد المختلفة سواء منها ما يختص المعنى فقط (المجاز والتضمين)، أو ما يخص المبنى فقط (المعرب)، أو ما يخص المبنى والمعنى (الاشتقاق والنحت والتركيب والترجمة والتعريب الجزئي...).

٢ - اليلد بالاشتقاق والاستفادة من معاني الصيغ والأوزان .

٣ - استخدام النحت قليلا مثل نقل السابقة allo إلى « بَدْ » مختصرة من « بديلة » كما في allophone التي اقترح لها : بَدْ صوت (= بديلة صوتية) و allomorph التي اقترح لها : بَدْ صرفية (= بديلة صرفية) .

٤ - اللجوء إلى العرب حين يستعصى إيجاد مقابل عربي مقنع كما في كلمة acoustics التي اقترح لها : أكوستيات .

٥ - تفضيل التعريب الجزئي على التعريب الكلي ، لأنه أخف على اللسان من النحت والتزيك أحيانا مثل : metalanguage التي اقترح لها : ميتالغة ، و psycholinguistics التي اقترح لها : سيكولسانيات .

٦ - إجازة النسب إلى المثني والجمع مثل bilabial التي استعمل مقابلا لها : شفطاني ، و bilateral التي استعمل مقابلا لها : جانياني ، و dental التي استعمل مقابلا لها : أسناني . وعلى هذا يقاس في bilingual : لُفْثَانِي .

٧ - الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن .

(المصطلح اللساني ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

وأما الحمدزاوي فقد طرح تصوره من خلال كتاب له بعنوان « المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنظيمها » نشره عام ١٩٨٦ . وإذا كان الكتاب هاما في تاريخ المصطلح العلمي ، وفي تناوله لقرارات المجامع والميثاق والمؤتمرات حول منهجيات المصطلحات العلمية ، فهو لم يبلور رأيا نهائيا يمكن أن يكون مرشدا لكل من يشتغلون بوضع المصطلح ، ولم ينته إلى مبادئ تصلح قانونا يلتزم به الجميع . ومع ذلك فإن ما وضعه من قواعد سماها « مبادئ التمثيط » يعد جليدا ومفيدا . وسنشير إلى بعض آرائه حول التمثيط فيما بعد .

وفي تصوري أن ضبط العلم عن طريق ضبط مصطلحاته يمكن أن يتم باتباع الخطوات الآتية :

أولا : إنشاء مركز للمصطلحات اللسانية مزود بأحدث الأجهزة التي تساعد على التخزين والتصنيف والاستدعاء .

ويتبع المركز فريق عمل يجيد كل عضويه إحدى اللغات الأوروبية إلى جانب العربية ، ويتم من طريقه مسح المصطلحات الأكاديمية المستعملة خلال العشرين سنة الأخيرة في اللغات الأربع : العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية ، مع تحديد مفهوم كل مصطلح تحليدا دقيقا . ويتم عملية المسح من طريقين :

أ - المؤلفات ، من خلال قوائم المصطلحات الملحقة بها .

ب - معاجم المصطلحات والموسوعات الأكاديمية .

وبوأكب هذه العملية عملية أخرى في التراث اللساني العربي بهدف حصر المصطلحات اللسانية التراثية ، وتحديد مقاصدها ، وترتيب هذه المصطلحات في قوائم تارة ، وحسب مجالاتها اللغوية تارة أخرى حتى يسهل الرجوع إليها عند وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي .

وما أظن أن هذه الغاية يمكن تحقيقها في ظل المجامع اللغوية القائمة التي يتوزع مجهودها المصطلحي بين مختلف

العلوم والفنون ، والتي يقصص معظمها الكفاءات اللغوية المتنوعة التخصصي سواء على مستوى أجهزة التحضير أو الإعداد أو المتابعة ، أو على مستوى البت وإصدار القرار . كما يعيب أمثال هذه المجامع إبقاها البيئي ، وحركتها المتشدة ، وعجزها عن متابعة سيل المصطلحات والمفاهيم التي ينهمر علينا في كل يوم دون رصد أو متابعة ، فضلا عن دراسته ووضع المقابلات العربية له . وقد كان بطء المجامع الشديد هو السبب الأساسي في فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات الشخصية ، وإفساح المجال أمام الأفراد ليصلوا في الميدان ويجولوا ، ثم تدخلت بواحث السبق ، وحب الريادة فأفسدت أي محاولة للتنسيق . ولم يكن من المعقول أن نطلب من الباحثين أن يكفوا عن القراءة والبحث والتأليف والتعريب حتى يتلقوا الإذن من المجمع اللغوي (أو للمجامع اللغوية) . ولهذا تواردت الاجتهادات دون ضابط أو رابط ، ولم تنجح القرارات التي تصدرها المجامع في توحيد المصطلح ، مثل القرار الذي أصدره المجمع العلمي العراقي عام ١٩٧٧ أن يكون هو المرجع الوحيد في وضع المصطلحات (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ١٥) فظل هذا القرار صرخة في واد أو نفخة في رمد .

ثانيا : أن يدعي جميع المشتغلين بالألسنية الحديثة ، والمتصلين بمنابها الأجنبية إلى تزويد المركز بكل ما يصادفهم من مفاهيم جديدة ومصطلحات ، ومناشدة المؤلفين والباحثين منهم التزام وضع المصطلح الأجنبي إلى جوار ما يستعملونه من مقابل عربي ، وإعداد قوائم في آخر بحوثهم تضم المصطلح الأجنبي ، ومقابلته العربي حتى تسهل متابعة هذه المصطلحات ودراساتها .

ثالثا : احتفاظ المركز ببقائه بأسياه وعناوين الألسنيين العرب ، وإيجاد جسور اتصال معهم ، بدلا من ترك الأمور لمجرد الصدفة . وسيحقق هذا الاقتراح غاية أخرى وهي عقد ما أنبت من صلات بين الأجيال المتتابعة ، وبين علماء الأقطار العربية ، مما سيقبل من الفجوة الموجودة بينهم ويزيل الجفوة التي تحكم علاقاتهم العلمية بعضهم مع بعض .

رابعا : العمل على تأليف معاجم متنوعة للمصطلحات الألسنية تبقى على منهجية واضحة ويتعاون جميع الألسنيين العرب . وفي تصوري أننا في هذه المرحلة - نحتاج الى ثلاثة أنواع من المعاجم :

- ١ - معجم أحادي اللغة يجمع بين المصطلح العربي والتعريف به .
- ٢ - معجم ثنائي أو ثلاثي اللغة ، يبدأ بالمصطلح الأجنبي ، ويضع مقابله مصطلحا عربيا واحدا مختاره الألسنيون بناء على منهجية المعجم ، ومن يئ المفاهيم والمصطلحات التي ثبتت واستقرت .
- ٣ - معجم كالسابق ، ولكنه لا يكتفي بمصطلح عربي واحد ، وإنما يمشد أمام المصطلح الأجنبي كل ما ورد في مؤلفات الألسنيين من مقابلات .

ويمكن أن يكون المعجم الثاني بمثابة المرشد أو الدستور لجميع المؤلفين في الألسنية ، على أمل أن يلتزموا بمصطلحاته في كل ما يكتبون . أما المعجم الثالث فيكون بمثابة الدليل للقراء الذين قد يصادفهم في قراءاتهم مصطلحات متعددة ، ولا يفطنون إلى ترادفها أو تقاربها ، ولا يتنبهون إلى الرابطة التي تجمع بينها .

خامساً : اتخاذ المعجم الثاني الذي سبق اقتراحه معياراً للاستخدام ، بعد وضع الأسس والأولويات التي سيتم بمقتضاها اختيار مصطلح واحد من بين جميع مرادفاته ، أو وضع مصطلح بديل في حال عدم وفاء المصطلحات المستخلصة بالفرض .

سادساً : يجب أن يتم فرز المصطلحات الأساسية على مراحل ثلاث ، على النحو التالي :

١ - استبعاد المصطلحات التي تحقق الشروط الآتية :

أ - ألا يكون للفظ معنى آخر في ميدان الألفية بمعنى ألا يكون من المشترك اللفظي .

ب - أن يكون اللفظ قليل الحروف سهل النطق به .

ج - أن يكون اللفظ سهل التصريف ، طيماً في التوليد والاشتقاق . واستبعاد ما سوى ذلك .

٢ - ويتم في المرحلة الثانية فرز المصطلحات التي حققت الشروط السابقة بناء على الأولويات التالية (وهي مستمدة من قرارات ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة - الرباط ١٩٨١) :

أ - وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي .

ب - استخدام المصطلح في التراث العلمي العربي ، وإلا فيتم توليده عن أحد الطرق الآتية بالترتيب : الاشتقاق - المجاز - النحت - التصريف .

ج - الألفاظ غير العربية يبدأ منها بما عُرِبَ أي خضع للنمط العربي ، ووافق شكله الصيغة العربية .

٣ - فإذا أفرز تطبيق المعايير السابقة أكثر من مصطلح للمفهوم الواحد أخضعنا المصطلحات المترادفة لمبادئ التنميط الآتية (وهي مأخوذة من كتاب المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها لمحمد رشاد الحمزاوي) :

أ - رواج المصطلح بين المستعملين له من التخصصيين . ويتم ذلك عن طريق الإحصاء وترتيب الألفاظ حسب شيوع استعمالها ترتيباً تنازلياً . وهو ما يفترض أن يكون قد سبق إعداده من خلال عمليات المسح المشار إليها في بند أولاً .

ب - ملاءمة المصطلح ، فيفضل ما قلّت ميادين استعماله على ما توزع على ميادين كثيرة .

ج - توافر الحافزية ، أي ما يحفز المستعمل على اختياره ، إما لصيغته البسيطة أو لتركيبه الصرفي الواضح ، أو لعدم غرابته ، أو لموافقته لأنماط التجمعات الصوتية العربية .

ويعد : فإذا كان من العسير فرض منهجية إجبارية على العلماء فإن من الممكن البدء بالاتفاق على الخطوط الرئيسية ، والدعوة إلى الثاني قبل طرح المصطلح للاستعمال . ولعل قرار المجمع العلمي العراقي بعدم تثبيت مصطلح إلا بعد ستة أشهر على تاريخ نشره يفيدنا في هذا الخصوص .

ويجب ألا ننسى أن أهم معيار لقياس نجاح المصطلح هو مدى شيوعه وتقبله بين أبناء المهنة الواحدة . فلا فائدة من مصطلح يظل حبيس الأدراج . وكما رأينا من مصطلحات تقرها المجامع دون أن يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص .

مراجع البحث

- ١ - باي (ماريو) :
أسس علم اللغة - ترجمة أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ط ثلاثة ١٩٨٧ م .
- ٢ - حجازي (محمود فهمي) :
علم اللغة العربية - وكالة المطبوعات بالكويت د . ت .
- ٣ - الحمزاوي (محمد رشاد) :
مشاكل وضع المصطلحات اللغوية - ندوة اللسانيات واللغة العربية - نشر المطبعة الثقافية بتونس ١٩٨١ م .
- ٤ - الحمزاوي (محمد رشاد) :
المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية .
١ - ط أولى - حوليات الجامعة التونسية ١٩٧٧ م .
ب - ط ثانية - الدلو التونسية للنشر ١٩٨٧ م .
- ٥ - الحمزاوي (محمود رشاد) :
المبجبة العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنظيمها - دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٦ م .
- ٦ - الحولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة التطبيقي - مكتبة لبنان ١٩٨٦ م .
- ٧ - الحولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة النظري - مكتبة لبنان ١٩٨٢ م .
- ٨ - شالي (هيدالرسول) :
معجم علوم اللغة - مجلة اللسان العربي - مجلد ١٥ جزء ٢ عام ١٩٧٧ م .
- ٩ - ضيف (شوقي) :
معجم اللغة العربية في خمسين عاما - أول ١٩٨٤ .
- ١٠ - حمير (أحمد مختار) :
دراسة الصوت اللغوي - عالم الكتب - ط ثلاثة ١٩٨٥ م .
- ١١ - المهري (هيدالقادر القاضي) :
المصطلح اللساني - الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات - سلسلة اللسانيات عدد ٦ عام ١٩٨٦ م .
- ١٢ - كاتيتير (جان) :
دروس في علم أصوات العربية - ترجمة صالح القرمادي - تونس ١٩٦٦ م .
- ١٣ - معجم اللغة العربية بالقاهرة :
مجموعة القراءات العلمية في خمسين عاما - القاهرة ١٩٨٤ م .
- ١٤ - المسلي (هيدالسلام) :
قاموس اللسانيات - الدار العربية للكتاب ١٩٨٤ م .
- ١٥ - مطلوب (أحمد) :
جهود المعجم العلمي العراقي في وضع المصطلحات - الملتقى الدولي الثالث للسانيات تونس ١٩٨٥ م .
- ١٦ - معهد الإلهام العربي :
مجلة الفكر العربي (عدد خاص عن الألفية) - بيروت ١٩٧٩ م .

١٧ - اللفظي الثالث للسانيات :

اللسانيات واللغة العربية - تونس ١٩٧٨ م .

١٨ - موتان (جورج) :

مفاتيح الألسنية - ترجمة الطوب البكوش - تونس ١٩٨١ م .

١٩ - نخبة من اللغويين العرب :

معجم مصطلحات علم اللغة الحديث - مكتبة لبنان ١٩٨٣ م .

Crystal (David) :

The Cambridge Encyclopedia of language, Cambridge, 1988.

The Phonetic Society of Japan : A Grand Dictionary of Phonetics, Japan, 1961

- ٢٠

- ٢١

التفاهم اللغوي عملية متعددة المراحل تشمل الإنتاج ، والانتقال والاستقبال . والإنتاج والاستقبال عمليتان فسيولوجيتان يساهم في الأولى المخ وجهاز النطق وفي الثانية المخ وجهاز السمع . أما عملية النقل فعملية فيزيائية تعتمد على الوسط الذي ينتقل فيه الكلام وهل هو الهواء مثلا أو سلك التليفون .

أولا .. الإنتاج

عمل المخ :

يقوم المخ بعمله بواسطة الجهاز العصبي ، وهو يتكون من عدد كبير من الخلايا العصبية التي يسمى كل منها باسم النيورون *neurone* إلى جانب عدد كبير من الحويصلات العصبية التي تربط بين المخ والعضلات المحركة للأعضاء الكلامية . وفي داخل الخلية العصبية يحدث تفاعل كيميائي بين العناصر المكونة لها ينتج تيارا كهربائيا - كالذي يحدث في بطارية السيارة بين الحامض والمعدن الموصلة - وتحمل الحويصلات العصبية التيار إلى العضلات فتسبب حركة أعضاء الكلام ، ولابد لإنتاج تيار كهربائي كاف لتحريك عضلة ما من تعاون عدد كبير من الخلايا المتجاورة ، يطلق عليها اسم (وحدة تحريك *motor unit*) وتنتج فيها تيارا يساوي ضغطه $\frac{1}{2}$ فولت أي جزءا من ١٧٠٠ جزء من ضغط التيار الذي يمر بالمصباح الكهربائي .

التخطيط والأوتوماتية :

يخطط المخ للعملية الكلامية باعتبارها كلا لا يتجزأ . وهذه العملية معقدة تتطلب توجيه ، ومراقبة ، عدد كبير جدا من العضلات وتصبح سلوكها . ويفضل القدرة المسماة بالأوتوماتية ، يمكن للمخ السيطرة عليها . ونحن نعتبر عملية تناول الشاي عملية واحدة مع أنها في السواقع عمليات متعددة من فتح الأصابع وتحريك اليد في اتجاه الكوب

تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية

عبد الرحمن أبووب

أستاذ في قسم اللغة العربية - جامعة الكويت سابقا .

والقبض عليه ورفعته وتحريك اليد في اتجاه القم وشطف الشاي . . الخ . ويفضل كثرة المزاولة بنقل المخ كل هذه الأعمال وراقبها في نفس الوقت الذي يشرف فيه على عملية المحادثة^(١) كما أننا نشاهد أن للتدرب على الكتابة بالآلة الكاتبة ينظر إلى موضع كل حرف ويمرر إصبعه نحوه ويضبط على المفتاح بنسبة معينة من القوة ولكنه بعد أن يتم تدريسه يقوم بهذه الأعمال دون نظر إلى موضع الحرف . وترجع هذه الكفاية إلى التدريب الطويل الذي يحقق ما يسمى بأتمتة الأداء .

وعندما يحاول شخص نطق العبارة (التلمينة) تقرأ في كتاب (فإن على المخ القيام بالعمليات الآتية :

- أ - التحليل التركيبي (التحري والصرفي) للعبارة .
- ب - توجيه العضلات لتحريك كل من الأعضاء الصوتية على نحو معين .
- ج - مراقبة حركة كل عضو وتصحيحها إذا ما وقع في خطأ .

أ - التحليل التركيبي :

تعتبر القواعد النحوية والصرفية المدونة في الكتب صورة خارجية لنظام ميكولوجي إدراكي عند أبناء اللغة ، يسميه شومسكي بالقدرة اللغوية competence^(٢) وقد يكون من المسلم به أن الطفل الصغير لا يستطيع تمييز الحال من التمييز ، ولكنه يستطيع ولا شك إدراك الخطأ الذي يقع فيه أجنبي يتعلم العربية . ويفضل القدرة اللغوية الكامنة في الحكم ، يستطيع المخ أن يخطط لترتيب الكلمات من سواكن وحركات معينة وأن يكون الجملة من كلمات ترتب على نحو معين^(٣) . وقبل نطق العبارة المذكورة يتحتم على المخ الوصول إلى الأحكام التالية التركيبية :

١ - التلمينة تقرأ في كتاب = جملة إستاذية خبرية .

٢ - الجملة = مسند إليه + مسند .

= (تعريف + اسم + تائيث) + مسند

= (تعريف + اسم + تائيث) + (فعل + تائيث) + مكمل

= (تعريف + اسم + تائيث) + (فعل + تائيث) + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلمينة + فعل + تائيث + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلمينة + تقرأ + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلمينة + تقرأ + في + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلمينة + تقرأ + في + كتاب .

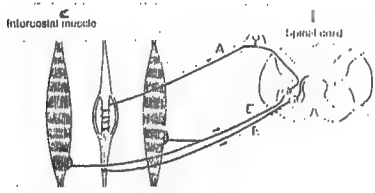
(١) لغال من مرجع ٥ ص ٧٢

(٢) مرجع ٢

(٣) مرجع ١٠ ص ٧١

ب - التوجيه والمتابعة :

ينتقل المخ بعد هذا إلى توجيه العضلات للقيام بحركات معينة ، ومراقبة أدائها في نفس الوقت بواسطة عملية الإرجاع feed back^(١) ، فيصدر المخ تعليماته إلى العضلات بالتحرك في ضوء الرصيد المخزن فيه من خبرات كلامية سابقة موزعة في الآلاف بل والملايين من خلاياه . وفي نفس الوقت تتم عملية الإرجاع بواسطة مستشعرات sensors موزعة في بنية العضلات المتحركة . وتتصل هذه المستشعرات بدورها بالمخ بواسطة خيوط الاستشعار العصبية فتنتقل إليه صورة لما يحدث فيها .



شكل (١)

الرسم يمثل (١)

١ - قطاعا من انقباض الشوك .

٢ - عضلة في الحجاب الحاجز ، الجزء الأوسط من عملية الإرجاع والبرهان الآتين والأبريقان بالحركة .

٣ - المحرط العصبية الحقة للذات الكهربائية .

٤ - المحرط العصبية التي تقوم بإرسال رسالة الإرجاع

ويصدر المخ أمره لكل عضلة من عضلات العضو بتحريكه على نحو يحدث العملية الأدائية الخاصة بالعضو من أول العبارة إلى آخرها ، ولتأكد بين حركته وحركات الأعضاء الأخرى لإنتاج الأثر الإدراكي الذي يمكن السامع والتكلم من تقسيم العبارة إلى أجزاء يطلق عليها الأصوات (أ ، ت ، ل ، الخ) .

وقد شبهنا في مكان آخر الحدث اللغوي بفطيرة مكونة من رقائق يرص بعضها فوق بعض ، ثم تقسم إلى قطع تتكون كل منها من جزء من الرقيقة العليا وجزء من التي تحتها والتي تحتها وهكذا .

ويجب أن نلاحظ أن الصوت ينتج من عمليات بعضها أساسي يوجد فيه في كل موقع ، مثل فتح عر الأنف عند النطق بالميم وليس اللسان الأسنان مع الذال ، وبعضها مجرد استمرار لحركة العضو الذي قام بها لنطق الصوت السابق ، وليس من الضروري أن توجد في كل موقع ، وذلك كالتقاء اللسان مع اللثة عند النطق بالميم لجوارتها للام ، وتلك الصفة لا توجد عند نطق الميم بعد فتحة مثلاً في مثل (لام) .

وتتطلب هذه العمليات المتوالية والمتعددة تحريك عدد كبير من العضلات . ويفضل الأوتوماتية ، وهي قدرة نحصل عليها بالتدريب في مرحلة الطفولة ، يقوم المخ بهذه العمليات المعقدة بآلية فورية مع مراقبة كل عضلة وتصحيح عملها إذا لزم هذا ، كما يراقب مركز المراقبة سفن القضاء ويصحح ملوها^(٢) .

انظر الشكل (٣)

عمل الأعضاء الصوتية :

نتيجة للنشاط العصبي الذي يقوم به المخ تتحرك الأعضاء الصوتية لإنتاج العبارة ، وتتلخص عملياتها فيما يأتي :

١ - إنتاج الزفير بضغط الحجاب الحاجز على الرئتين وطرده إلى خارج الجسم عن طريق الممرات والفراغات النطقية .

٢ - تدخل الحنجرة بفعل عر الهواء قفلاً تاماً لإنتاج الهزمة أو بالانفتاح الجزئي لإنتاج الهمس أو الانفتاح القليل مع التوتر لإنتاج الجهر .

٣ - تدخل المريء بالانقباض والتراخي فوق منطقة الحنجرة لإنتاج المين والحاء والهاء .

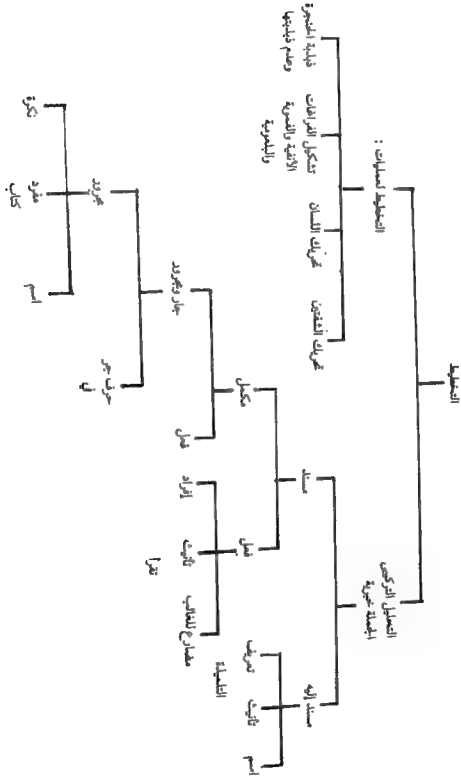
٤ - تدخل اللهاة لفتح عر القم لإنتاج الأصوات القموية أو عر الأنف لإنتاج الأصوات الأنفية .

٥ - حركات اللسان وموقعه من القم وقربه من بعض أجزاء سقف القم لإنتاج الحركات أو التلامس معها لإنتاج بعض السواكن .

٦ - حركة الشفتين بالتلامس أو الانفراج أو الاستدارة لإنتاج الميم والباء والواو والمساهمة في إنتاج الحركات . .

الخ .

وقد كان الوصف الصوتي قديماً ، من عهد الهنود وسيبويه ، وحتى منتصف هذا القرن يعتمد على وصف الحركات العضوية عند إنتاج كل صوت . ثم حدث تطور في معارف اللغويين ، بعد أن ساهم الفيزيائيون وعلماء الأعصاب والتشريح في دراسة الكلام فدخل إلى الوصف العضوي للأصوات الوصف الفيزيائي لما يحدث أثناء انتقال الصوت إلى السامع . واستفاد اللغويون كذلك من الأجهزة التي يستعملها الفيزيائيون وعلماء التشريح والأعصاب .



شكل (٣)

ضغط الهواء وقياسه (٢):

يعتبر ضغط الهواء من العناصر الهامة في إنتاج الصوت . ولا يكون الضغط ثابتاً خلال العملية الصوتية كلها بل إنه يتفاوت قوة وضعفاً ، كما يحدث في البالون المطاطي الذي ينتهي بزمارة يمر الهواء بها فتحدث الصوت . ولو فرض أن ضغطنا على جسم البالون ضغطات متوالية فلنأخذ نسمع دفعات متوالية مختلفة القوة . وهذا ما يحدث عند خروج الهواء من الرئة ، حيث يقوم الحجاب الحاجز بإحداث اختلافات في مدى الضغط الواقع على الرئة . وتتفاوت الضغط بين نوع من الأصوات ونوع آخر ، فيكون قويا مع الأصوات الانجابية والاحتكاكية للمهوسمة ، وقليلاً مع الأصوات الانجابية والاحتكاكية المجهورة وأقل في بقية الأصوات . كما يقسم الضغط - بواسطة النبضات التي أشرنا إليها - الحدث اللغوي إلى مقاطع يتفاوت ضغطها ويطلق على هذه الظاهرة اسم (النبر) .

وتعتمد قوة الضغط على عنصرين : كمية الهواء وكيفية انسيابه . أما كمية الهواء في عملية الزفير فإذا ما تبلغ خمسة لترات تحتفظ منها الرئتان بمقدار $\frac{1}{2}$ لتر حتى لا تلتصق جدرانها . أما الكمية الباقية فيكون ضغطها عادة ١٦٠ جراماً تستهلك منها العملية الكلامية ما بين ٣ ، ١٥ جراماً . ومنها تستهلك ذبذبة الأوتار الصوتية ما يعادل جرامين . أما الانسياب فإنه يزيد أو يقل حسب اتساع أو ضيق المر الذي يسير فيه الهواء وما يحدث فيه من تدخلات . وهناك قوانين رياضية يمكن بواسطتها الوصول إلى مقدار الضغط بواسطة حجم الهواء وانسيابه كماً وشكلاً . ويمكن قياس ضغط الصوت اللغوي باستعمال جهاز يسمى راسم الانسياب pneumotachograph يوصل بحاسوب يتصل في نهايته الأخرى براسم ذبذبات oscilloscope فتظهر على شاشته الخطوط البيانية المثلثة لحجم الهواء وانسيابه وضغطه . ويوجد إلى جانب هذا الجهاز مقاييس أخرى لمعرفة مقدار الضغط في الفم والأنف .

انظر شكل (٤)

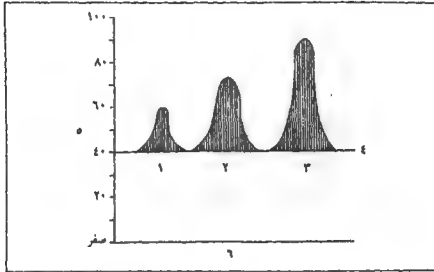
وقد وجد بالتجربة أن ضغط الهواء المستعمل في النطق يختلف تبعاً للجنس والسن .

انظر شكل (٥)

سقف الحنك :

يرتفع اللسان بمختلف أجزائه في اتجاه سقف الحنك لإنتاج أنواع من الأصوات هي المجهورة والرخوة (أي التي يتلامس منها اللسان مع الجزء الرخو من سقف الحنك) والصلبة والثقوية . وقد كان موضع اللسان يحدد من قبل بواسطة صناعة سقف حنك صناعي للتكلم يغطي ببطانة من مسحوق الطباشير ويوضع منطقاً على سقف الحنك ثم ينطق التكلم بكلمة فيها صوت واحد يلمس فيه اللسان السقف ، فتتطبع صورة التقائهما بمسح الطباشير . وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية أخيراً إلى جهاز دقيق يسمى (الراسم الكهربائي لسقف الحنك) electropalatograph وهذا الجهاز يتكون من سقف حنك صناعي مثبت فيه عدد من الرؤوس الإلكترونية الموصلة بأسلاك إلى شاشة عرض بها عدد من المصابيح يتصل كل منها بأحد الرؤوس . وعندما يلمس اللسان جزءاً من سقف الحنك تضيء المصابيح المتصلة بالأجزاء التي يلتقي بها . ويقوم الجهاز برسم صور متوالية لتلامس اللسان مع السقف ، وبذلك يمكن الحصول على سلسلة من الصور تمثل ما يحدث في العبارة كلها لا في صوت واحد فقط ويمكن اختزان هذه الصور في ذاكرة حاسب متصل بالجهاز واستدعاؤها لدراستها عند الحاجة ، كما يمكن طبع هذه الصور متوالية حسب حركات اللسان .

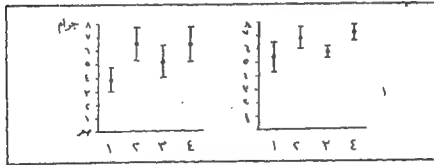
انظر الشكل (٦)



شكل (٤)

كمية الهواء اللازمة عند التنفس والمحاكاة والصباح

- ١ - الكمية عند التنفس.
- ٢ - الكمية عند المحاكاة.
- ٣ - الكمية عند الصباح.
- ٤ - مستوى وضع الراحة.
- ٥ - الخط البياني الممثل للكمية الكلية التي يمكن أن توجد في الرئة (الخط الراسي).
- ٦ - الخط المبين لنوع النشاط الرتوي.

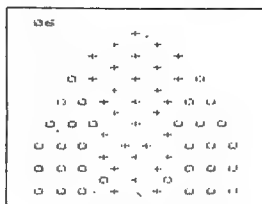


شكل (٥)

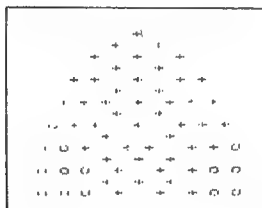
مقارنة بين نطق الرجال والنساء

الشكل (١) على اليمين يمثل نطق النساء والشكل (٢) على اليسار يمثل نطق الرجال والخط الراسي في الشكلين (١) و (٢) لقياس ضغط الهواء داخل القم بالجرام. والخط الأفقي فيها لبيان نوع الصوت كما يلي:

- ١ - انفجاري مجهور.
- ٢ - انفجاري مهموس.
- ٣ - احتكاكي مجهور.
- ٤ - احتكاكي مهموس.



في المصرية - بيع (فعل أمر)



في المصرية - يوم (مصدر)

شکل (۶)

مقارنة بين وضع اللسان عند النطق بالحركة (ى ي) والحركة (ى ي سى عا) وذلك في الكلمتين المصريتين مع (تعل أمر) ومع (مصدر).

ويستفاد من هذا الجهاز في علاج هيوب الكلام ، وخاصة هيوب تكوين سقف الفم .
مشاهدة العمليات العضلية لأعضاء النطق :

لا يكتفي علماء الأصوات للماصرون بوصف النشاط الظاهري للعضو ، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى وصف حركات العضلات التي تكونه أو التي تتحكم في حركته . وهم يستفيدون في ذلك بملد من الأجهزة أهمها :

أولاً : المجهر المحيطي :

وهو جهاز مصنوع من خيوط زجاجية شفافة ومرنة ، من حزمتين إحداها تنقل الضوء إلى جزء معين من فراغات النطق الداخلية من مصدر خارجي (كالبطارية) والأخرى تنقل الصورة الممتلئة لحركة الأعضاء داخل الفراغات إلى الخارج . ويسمك الأولى ٩/٦٠ ملليمتر والثانية ١/٦ ملليمتر ، أي أن سمك الجزأين معاً يعادل ثلاثة أجزاء من ألف جزء من المستمتر . وتنتهي حزمة الضوء بمصباح وحزمة الصور بملدسة تنقل الصورة إلى مرآة خارجية . وتخرج الحزمتان من خلال الفراغ الأنفي حتى تصلا إلى مقربة من اللهاة مثلاً ، أو إلى مسافة أكبر حتى تصلا إلى البلعوم أو إلى منطقة الحنجرة . ومن هذه الأوضاع الثلاثة يمكن مشاهدة حركات اللهاة عند إنتاج الأصوات الأنفية والقصوية ونشاط البلعوم عند النطق بالحاء والعين والهاء ونشاط الحنجرة عند النطق بالهمزة أو عند إحداث صفة الجهر . ومن الممكن توصيل الجهاز بألة تصوير سينمائية وجهاز تسجيل صوت حتى يمكن تسجيل أداء العضو أو الأعضاء صوتياً وحركياً للرجوع له عند الحاجة .

ثانياً - جهاز التصوير بأشعة اكس :

ويستعمل هذا الجهاز لتصوير حركات الأعضاء الداخلية من خارج الجسم . والجهاز من ثلاثة أجزاء : مولد أشعة اكس ، ومستقبل للأشعة ، وحاسوب يجمع بين المعلومات الصادرة من المستقبل وألة أجهزة أخرى كأجهزة قياس الضغط مثلاً . واستعداداً لعملية التصوير تقوم بالعمليات الآتية :

أ - يثبت عدد من الرؤوس المشعة محيط كل منها ٣ ملليمتر تقريباً ، اثنتان على كل من اللسان والفك الأسفل والشفنتين ، ومله هي الأجزاء المتحركة في الفم والواحدة بين الشفتين الأماميتين في الفك الأعلى أو على عظمة الفم وهما جزءان ثابتان .

ب - تصور منطقة الفم والأسنان والشفنتين قبل النطق ويظهر الرؤوس المشعة كلها بما فيها التي فوق الأجزاء الثابتة والتي فوق الأجزاء المتحركة .

ج - تصور حركات الأعضاء خلال الكلام بسرعة قدرها ١٤٠ إطاراً في الثانية لفترة ست ثوان فتتحرك الرؤوس المشعة المثبتة على الأعضاء المتحركة .

د - تنقل الصور المتوالية إلى شاشة واسم الذبذبات كما تنقل الصور الثابتة (ب) لمقارنة مقدار حركة الأعضاء كما يمكن طبع فيلم إيجابي من الفيلم السلي للرجوع إليه عند الحاجة . ويستفاد من هذا الجهاز فيما يلي :

أ - بيان حركات اللسان بالنسبة لسقف الفم في تنقل الحركات البسيطة والمركبة .

ب - بيان المواقع الدقيقة لانتقاء اللسان بمختلف مناطق سقف الحنك عند إنتاج السواكن اللفوية كالكاكاف والحاء والعين والصلبة كالياء والجيم والشين، والثغوية كالنون واللام، والأسنانية والثغوية كالياء والغاء والواو .

ج - بيان تأثير الحركات والسواكن للتجاوزة بعضها ببعض من حيث تعديل مخارجها نتيجة للتجاوز .

ثالثاً - الراسم الكهر وعضلي : electromyograph :

يتكون هذا الجهاز من عدد من الرؤوس الإلكترونية تلتصق على عضلات العضو المتحرك ، وتتصل هذه الرؤوس بواسطة أسلاك دقيقة بجهاز تضخيم amplifier وظيفته تقوية التيار الكهربائي الصادر عن الخلايا العصبية . ويوصل جهاز التضخيم بسن stylus يتذبذب بتأثير الذبذبات ويرسمها على ورقة حساسة للاحتفاظ بسجل لشكل الذبذبات وقوتها . ويمكن الاكتفاء بمشاهدة الذبذبات دون تسجيل ينقل صورة الذبذبات إلى راسم الذبذبات لرؤيتها على شاشته .

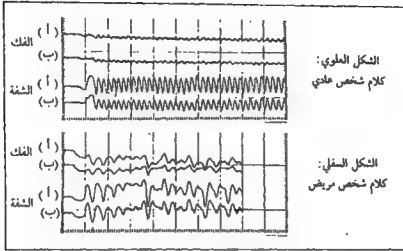
ولما كانت النتائج التي نحصل عليها بواسطة هذا الجهاز تبين عمل العضلات المكونة للعضو لا حركة العضو كله ، فإنه لا بد أن تربط حركة العضلة (لا العضو) بالإيماءات cues الكلامية عند حركة العضلة نفسها . وهذا العمل يتطلب ملاحظة إشارات الكترونية لا حصر لها ، ولهذا يتحتم استعمال حاسوب للقيام بهذا العمل واختزان النتائج التي نصل إليها . ومن الممكن الاستفادة من هذا الجهاز في بيان الفروق الدقيقة في عملية نطق العبارات المشابهة .

رصد هيوب الكلام :

لعل الفائدة العظمى من هذه الأجهزة وخاصة الأخير منها هي استعمالها في الكشف عن أسباب هيوب الكلام ، وهل هي راجعة إلى عدم قيام العضو بعمله كما ينبغي أو لمرض في إحدى عضلاته أو إلى اختلال في إنتاج الطاقة الكهربائية من وحدات التحريك في اللحن . وإليها يلي صورة تبين الفرق بين كلام شخص عادي وبين كلام شخص مريض بمرض الأتاكسيا ، وهو مرض يصيب بعض مناطق اللحن وينتج عنه عجز المريض عن تحريك العضلات المناسبة لتحريك الشفتين واللسان إلى مواضعها اللازمة للنطق بالأصوات . ولهذا فإن هذا المريض ينطق آباء مياً فيقول (ناب) عندما يريد أن يقول (نام) ، كما يسبب هذا المرض العجز عند استعمال الأصابع في كتابة هذه الحروف بدقة .

انظر الشكل (٧)

كل ما سبق وسائل مساعدة للوصول إلى وصف خرجي وأدائي دقيق للأصوات وعدم الاكتفاء بما كان يحدث من قبل من وصفها بالمشاهدة أو الإحساس فكان التدخل وكيفية إلى جانب صفة الجهر أو الخف .



شكل (٧)

يظهر الشكل اضطراب حركات عضلات الفك والشفة عند كلام الشخص المريض (الشكل السفلي) بمقارنتها بكلام الشخص السليم

التحليل الصوتي للكلام : Phonemic Analysis

قد يظن أن الوصف الدقيق للعمليات العضوية عند الكلام أمر كافٍ في دراسة الصوت اللغوي . ولكن هذا غير صحيح . والسبب في هذا أن أحكام المخ لا تتطابق تماماً مع نتائج هذه العمليات العضوية . وقد يعتبر المخ صوتين مختلفين من ناحية الأداء والخصائص السمعية أما واحد كما قد يعتبر أمراً واحداً من هاتين الناحيتين أمرين مختلفين وذلك بسبب وقوعها في محيطين لغويين مختلفين . وما نقوله هنا طريقة أخرى للتعبير عما يسمى في علم طرق البحث بالتجريد وهو تجاهل بعض الصفات الواقعة للشيء حتى يمكن وضعه مع سواء تحت نفس النوع . ونحن ندرك أن لفظ رجل ، يعني نوعاً من المخلوقات . . . يشمل أفراداً يختلفون في الواقع الخارجي ، منهم القصير والطويل والأبيض والأسود والصحيح والسقيم . وحتى يمكن جمع هذه الأنواع المختلفة مادياً في مفهوم واحد يختار المخ بعض الصفات المميزة المشتركة بينهم وسيلة للتصنيف ويتجاهل الصفات الفردية الأخرى . وتعتبر عملية التجريد ضرورة للتفاهم الإنساني ، حيث لا يمكن أن يخصص (اسم) لكل فرد من أفراد الرجال لاختلافه من ناحية أو أخرى عن الآخرين . والذي يحدث في هذا المثال يحدث بالنسبة للأصوات اللغوية . ولهذا نحتم أن نقوم بتحليل سلوك الأصوات إلى جانب تحليل صفاتها المادية . وتحليل سلوكها هو ما يسمى بعلم الصوتيات أو النظم السلوكية الصوتية .

لنأخذ مثلاً الوحدة التي نسميها النون ، ومستجد من أفرادها الصوت الأخير في (إن) في العبارة (إن أنت) أو في العبارة (إن بات) أو في العبارة (إن وعد) أو في العبارة (إن يكن) وفي العبارة الأولى تكون النون صوتاً لثوياً أنفياً . أما في الثانية فلها صوت أنفي شفوي ثنائي (كالليم) وفي الثالثة صوت أنفي شفوي مستدير (واو أنفية) وفي الرابعة

صوت أنفي صلب (ياء أنفية) وهكذا . ورغم هذا الاختلاف المادي بين كل حالة وأخرى فإننا نضع هذه الأصوات كلها تحت وحدة نوعية نسميها النون . وهذه الوحدة تسمى الصوتيم Phoneme .

ويشمل التحليل الصوتيمي أو الوظيفي الصوتي ، حصر المجموعات الصوتية الممكنة وغير الممكنة . ففي العربية يمكن أن تلي الهاء العین في مثل « أعهد » ولكن لا يمكن أن تلي العین الهاء أو الحاء دون توسط حركة . كما يشمل الآثار الصوتية الناتجة عن الانفعال كالرضاء أو الغضب . والتحليل الصوتيمي كما نرى لا يعتمد على الأجهزة بل هو تحليل يعتمد على اعتبارات سلوكية غير مادية . ويرى البعض أن ما يكشف عنه التحليل الصوتيمي هو الصورة الداخلية للموهبة اللغوية Competence التي توجد لدى أبناء لغة ما ، والتي هي الأساس الذي يعتمد عليه إنتاج الكلام وإدراكه .

ثانياً - الانتقال

كان علماء الفيزياء .. يخلطون الصوت الإنساني وغير الإنساني بتطبيق نظرية فوريير ، وهو عالم عاش في القرن التاسع عشر . وكان ذلك يقتضي إجراء قياسات وحسابات تستغرق بعض الوقت .

وأثناء الحرب العالمية الثانية احتاج الحلفاء إلى طريقة سريعة لتحليل الأصوات التي يحملها الجو والبحر للتعرف على مواقع أسلحة العدو . وقد تم ذلك بفضل جهود الفيزيائيين في سلاح البحرية الأمريكي ، الذين اخترعوا جهازاً أطلقوا عليه اسم جهاز التحليل الطيفي Spectrograph . وقد تطور هذا الجهاز خلال نصف القرن الحالي وأصبح أهم وسيلة للبحث العلمي في مجال الدراسات الصوتية الطبيعية والإنسانية . وكان على رأس المهتمين بهذه الدراسات شركات التليفونات ، وخاصة شركة بيل الأمريكية ، وذلك لتحسين الاتصالات الهاتفية . وتعتبر أبحاثها من أول الأبحاث الرائدة في هذا المجال . وقد وجد الفيزيائيون أن دراسة الصوت الإنساني تختلف عن دراسة الصوت الطبيعي من ناحيتين ، أولاً ما أن الأصوات الانسانية تخضع في إنتاجها وإدراكها للعادات الفعلية للتكلم والسامع ، وبالتالي فإن الإنجليزي مثلاً يسمع العین العربية فيظن أنها من الحركات ، وقد يخلط بين المهزة والعین والحاء والهاء ، والطاء والتاء . وأما الناحية الثانية فهي أن الأذن الإنسانية لا تسمع الأصوات بالطريقة التي تستقبلها بها الأجهزة ، بل إنها قد تنتهي إلى الحكم بأن صوتين مختلفين فيزيائياً صوت لغوي واحد ، وأنها قد تحكم على وجود فرق بين صوتين ، دون أن يؤيد وجود هذا الفرق الواقع المادي الذي تبيته الأجهزة . ولهذا فقد كان على الفيزيائيين دراسة علم الأصوات اللغوية واتخاذهم من وسائل البحث في دراسة الصوت اللغوي ، وقد أضافوا بذلك إلى دراسة الأصوات اللغوية خبرة جديدة لم يكن علماء اللغة قد استفادوا منها . وكان أهم هذه الإضافات الاهتمام بدراسة مرحلة انتقال الصوت بعد إنتاجه وقبل أن يصل إلى أذن السامع .

الموجات الصوتية :

ينتج الصوت الإنساني وغير الإنساني نتيجة اهتزاز ذرات جسم ما بتأثير قوة ما . وتنتقل هذه الاهتزازات أو الدليبات من ذرات الجسم المهتز إلى ذرات الهواء أو ذرات سلك التليفون أو طبقات الجو الأثيرية فتنتشر بدورها .

وتشبه حركة المرات حركة كرة البليارد تتلحرج بتأثير ضربة اللاعب حتى تصل إلى نهاية الطاولة فتصدم حافتها فترتد في الاتجاه الآخر . ولو فرض أنها قد صدمت في طريقها كرة أخرى . فإنها تحركها في نفس الاتجاه حتى تصدم الثانية كرة أخرى فتغير اتجاهها وهكذا . وتعتبر الدرجة الواحدة نظيراً للذبذبة ، أما الدرجات المتوالية فإنها تناظر الموجة الصوتية .

وتوصف الذبذبة بتحديد أمرين ، الزمن الذي تستغرقه ويسمى (الفترة period) والبعد بين نقطة بدء الحركة ونقطة ارتدادها ويسمى اتساع الذبذبة amplitude وتوصف الموجة بعدد الذبذبات التي تكونها في الثانية ويسمى بدرجة الموجة frequency ومتوسط اتساع ذبذباتها وهو يسمى اتساع الموجة .

التوزيع المنتظم والتوزيع العشوائي^(٧) :

لو سلطنا قوة ما على تحريك عدد من الكرات الصغيرة للمساء على سطح أملس ، وكانت الكرات بنفس الشكل والوزن ، فإنها تتحرك في نفس الاتجاه وبففس السرعة ، أي أنها تنتج درجات متماثلة . ولو سلطنا القوة على تحريك كرات مختلفة الشكل بعضها كامل الاستدارة وبعضها منحرف ، أو مختلفة الوزن لاختلاف مادتها مع تساوي أحجامها ، أو مختلفة الحجم مع اتحاد المادة ، فإن حركات الكرات ستختلف في السرعة والاتجاه . وستكون النتيجة في الحالة الأولى حدوث درجات منتظمة أما في الحالة الثانية فإن الدرجات لن تكون منتظمة . وذلك لأن الكرة الثقيلة تستهلك قدرأ من الطاقة يزيد على ما تستهلكه الكرة الخفيفة . ويوصف توزيع الطاقة بالتساوي بأنه توزيع منتظم ويوصف التوزيع غير المتساوي بأنه عشوائي . وما يحدث في هذا المثال يحدث عند إنتاج الصوت ، فعندما توزع الطاقة بين الموجات المنتجة للصوت توزيعاً متساوياً ، يكون الصوت على شكل نغمة . أما إذا كان التوزيع عشوائياً فإن الصوت الناتج يكون ضجيجاً أبيض white noise . ومثاله الصوت الناتج عن فرك اليدين أو خفيف الأشجار .

النغمات التوافقية وغير التوافقية :

من خبرتنا السماعية ما نلاحظه أحياناً عندما نسمع مجموعة من دق الطبول . ويكون بين الدقات دقات صادرة عن طبل كبير تتوالى على أبعاد زمنية متساوية وطويلة نسبياً ، ودقات صادرة عن طبل أصغر تتوالى على أزمان متساوية ولكن كل دقتين منه تحدثان في نفس الوقت الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر ، ودقات صادرة عن طبل ثالث مهمل أربع دقات في الزمن الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر . يطلق على الطبل الأكبر في اللهجة المصرية (ماسك الرحلة) ووظيفته تقسيم زمن العزف إلى وحدات متساوية تحدث مرة كل $\frac{1}{4}$ ثانية مثلاً . وفي خلال الرحلة يثق الطبل الثاني دقتين والطبل الثالث أربع دقات . وتكون النتيجة وجود تداخل زمني من دقات الطبول الثلاثة بحيث تحدث الدقة الثانية من الطبل الأول والدقة الثالثة من الطبل الثاني والدقة الخامسة من الطبل الثالث في نفس اللحظة .

(٧) ص ١١ إلى ١٤ من البحث ملخص من مرجع ١ ص ٢١٥ إلى ٢٣٦

يحدث مثل هذا في حركات الذبذبات المكونة للموجة الصوتية ، وتسمى الموجة في هذه الحالة موجة مركبة ، عل نقبض الموجة البسيطة التي تحتل دقة طبل واحدة وتوصف هذه الموجة أيضاً بأنها توافقية لأنها تحدث من عدد من الموجات التي تتداخل ذبذباتها زمنياً كما رأيت .

ولو حدث أن اختلفت دقات الطبول فلم تنسجم زمنياً فإنها توصف بالنشاز أو عدم التوافق . والموجات الصوتية المركبة قد توصف كذلك بالنشاز إذا لم تنسجم أو لم تتوافق ذبذباتها .

والأصوات الإنسانية تنتج عن موجات متوافقة وعن موجات غير متوافقة من النوع الذي أطلقنا عليه من قبل اسم الضججة البيضاء . وعملية التحليل الفيزيائي للصوت تقوم بوصف الموجات التوافقية وغير التوافقية التي تحدث الشعور الوجداني المسمى بالسماع . ويستعان على هذا الوصف بتطبيق بعض الخصائص الطبيعية المشاهدة . ومن هذه :

الرنين resonance :

الرنين ظاهرة تصادفها كثيراً في حياتنا اليومية ، كما لو أنتجنا صوتاً ما وقرنا مصدر الصوت من فراغ مقفول فإننا نلاحظ اختلافاً في شعورنا بالصوت ، كما يحدث عندما نغني في وسط طلق أو في فراغ صغير مقفول . وقد كشفت التجربة من أن شكل الفراغ وحجمه بالإضافة إلى المادة التي يتكون منها تؤثر في نوع الصوت ، ولهذا تبنى صالات العزف الموسيقي على شكل معين وتغطى بطبقات من مواد معينة تسمى بالمواد العازلة أي التي تمنع زنون الصوت غير المنتظم .

وقد كشفت التجارب عن أن لكل جسم طاقة رنينية معينة ، وأن الجسم الرنان يمكن أن يكتسب الصوت من جسم آخر مماثلة في طاقته الرنينية كما في التجربة الآتية :

١ - نطرق شوكة رنانة ترددها ١٠٠ ذبذبة في الثانية ونسمع صوتاً ناتجاً عن هذه الذبذبات .

٢ - نقر شوكة رنانة أخرى طاقتها الرنينية ١٠٠ ذبذبة في الثانية كذلك - نقر بها من الشوكة الأخرى التي تصدر النغمة ، ونستجد أن الشوكة الثانية تبدأ في الذبذبة وإصدار الصوت دون أن تطرق .

معنى هذا أن الشوكة التي لم تطرق اكتسبت الرنين من الشوكة المطروقة لأنها تماثلها في الطاقة الرنينية .

الترشيح Filtering :

لو فرض أن طرفنا شوكة تصدر نغمة توافقية مكونة من موجات تردد إحداهما ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ د/ث وقرنا منها شوكة تصدر نغمة بسيطة ترددها ١٠٠ د/ث ، فإننا نلاحظ أن الشوكة الثانية ستردد ولو فرض أن أوقفنا الشوكة الأولى باللمس أو أبعدناها من الغرفة ، فإننا نلاحظ أن الشوكة الثانية تستمر في الاهتزاز عددة نغمة ترددها ١٠٠ د/ث وهي نغمة اكتسبتها من الموجة المركبة التي أصدرتها الشوكة الأولى .

يقال في هذه الحالة بأننا قد رشحنا من الموجة المركبة إحدى موجاتها التوافقية وهي التي تصدرها الشوكة الثانية .

ولو فرض أننا أننا بثلاث شوكة زناة درجات ترددها ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ذ/ث وعرضناها للتردد الناتج عن الشوكة الأولى فإن كلا من هلم الشوكة مستحدثت موجة مناسبة لدرجتها أي أننا سنحصل على ثلاث موجات إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث . أي أننا قد وصلنا إلى تحليل الموجة المركبة الصادرة عن الشوكة الأولى إلى النغمات التوافقية التي تكونها . وهذا النوع من الترشيح يسمى بالترشيح المركب على العكس من النوع الأول الذي يسمى بالترشيح البسيط .

الطوية والاستهلاك :

لو فرض أن أصدرنا نغمة من آلة موسيقية ولتكن كمثالاً مثلاً فإن هذه النغمة ستكون ذات قوة خاصة . ولو فرض أن عزفنا آلتين أو ثلاث آلات لإصدار نفس النغمة في نفس الوقت فإنا لن نسمع ثلاث نغمات منفصلة بل سنسمع نغمة واحدة قوتها ضعف أو ثلاثة أمثال النغمة الأولى . ويقال في هذه الحالة بأننا قمنا بتقوية النغمة الأولى .

وكما يمكن تقوية النغمات يمكن استهلاكها كما يتضح من التجربة الآتية :

١ - أصدر صغيراً من بين شفتيك بالتفخ .

٢ - قرب وهاء كثيراً نسبياً من شفتيك .

٣ - ستلاحظ عند وصول الوعاء إلى بعد معين من شفتيك أن الصغير ينعدم .

السبب في هذا أن الوعاء قد كون غرفة رنين لا تتناسب مع الصغير في الدرجة . ويقال في هذه الحالة بأن الموجة الصوتية أو الصغير قد استهلك .

الصوت الانساني :

هذه الظواهر الطبيعية تلعب دورها في إنتاج الصوت الإنساني ، فعندما يمر الهواء المتدفق من الرئتين خلال الأوتار الصوتية يحدث ترددات أو ذبذبات عديدة ، ويختلفة في الفترة والاتساع ، وبالتالي تحدث مجموعة لا تحصى من الموجات الصوتية ، تنفذ إلى الفراغات العليا فيما فوق الحنجرة . وخلال مرورها بكل فراغ تتدمج الموجات التي لا تتوافق مع تردد الغرفة ، وتتقوى بواسطة الرنين تلك التي يتوافق بعضها وبعض مكونة نغمات حنجرية تعرف بالجهير . وللنغمات المركبة الحنجرية خصائص معينة تتعلق بتوزيع الطاقة بين مكوناتها ودرجاتها واتساعها ، كما ترى في الجدول التالي الذي يبين هذه الأمور بالنسبة لنغمة غنائية .

| طائقتها | اتساعها | درجتها | الموجة التوافقية الموجة الأولى (الأساس) |
|---------|--------------------|--------|--|
| ١,٠٠٠ | ١,١٠٠ | ١٠٠ | الموجة ٥ |
| ,٩٦٧ | ,٩٧٣ | ٥٠٠ | ١٠ |
| ,٨٧٦ | ,٩٣٥ | ١٠٠٠ | ١٥ |
| ,٧٣٧ | ,٨٥٨ | ١٥٠٠ | ٢٠ |
| ,٥٧٣ | ,٧٥٧ | ٢٠٠٠ | ٢٢ |
| ,٥٠٦ | ,٧١١ | ٢٢٠٠ | ٢٥ |
| ,٤٠٥ | ,٦٣٦ | ٢٥٠٠ | ٣٠ |
| ,٢٥٥ | ,٥٠٥ | ٣٠٠٠ | ٣٥ |
| ,١٣٥ | ,٣٦٨ | ٣٥٠٠ | ٤٠ |
| ,٠٥٥ | ,٢٣٤ | ٤٠٠٠ | ٤٥ |
| ,٠١٢ | ,١٠٣ | ٤٥٠٠ | ٥٠ |
| — | — | ٥٠٠٠ | ٥٥ |
| ,٠٠٨ | ,٠٨٩ | ٥٥٠٠ | |
| | إلخ ^(٨) | | |

ونلاحظ أن الموجة الخمسين قد استهلكت ، أي أنها كانت موجودة بعد فراغ الحنجرة مباشرة ولكنها انعدمت عند مرورها بأحد الفراغات الذي لا تتوافق معه في التردد .

ويستمر توزيع الطاقة بعد الموجة المتعلمة ويزيد بالتدرج ثم يقل ثانية حتى يتعلم مع موجة أخرى ثم يبدأ في الزيادة التدريجية ثم النقص التدريجي حتى يتعلم وهكذا .

وللى جانب هذه الصفة الإنتاجية الخاصة بالصوت الحنجري الإنساني فإن هناك صفة سماعية أخرى لهذا الصوت ، تتعلق بإحساس الأذن به . ولو فرض أننا أنتجنا نغمة بواسطة ضبط مقداره ١٠ وحدات ثم ضاعفنا هذا الضبط إلى مرتين ثم ثلاث مرات ثم أربع مرات وهكذا ، فإن جهاز الاستقبال الآلي ، سيسجل أصواتاً قوتها متضاعفة بنسبة تضاعف الضبط أما الأذن الإنسانية فاتها لا تشعر باختلاف قوة الأصوات بنسبة مضاعفات الضبط بل بنسبة لوغاريتمية كما ترى فيما يلي :

١ - التسجيل الآلي :

| مقدار الضغط | قوة الصوت |
|-------------|-------------------------------|
| ١٠ وحدات | ١٠ وحدات |
| ٢٠ وحدة | ٢٠ وحدة (١٠ + ١٠) |
| ٣٠ وحدة | ٣٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠) |
| ٤٠ وحدة | ٤٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠ + ١٠) |

الخ

٢ - الإحساس السمعي :

| مقدار الضغط | قوة الإحساس بالصوت |
|-------------|----------------------------------|
| ١٠ وحدات | ١٠ وحدات |
| ٢٠ وحدة | ١٠٠ وحدة (١٠ × ١٠) |
| ٣٠ وحدة | ١٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠) |
| ٤٠ وحدة | ١٠٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠) |

الخ

ولهذا نحتج على علماء الفيزياء ابتكار مقياس للإحساس السمعي بالصوت يختلف عن المقياس الآلي لقوة الصوت
سموه بالديسيل Decibel .

باجيت والتحليل الطيفي للحركات :

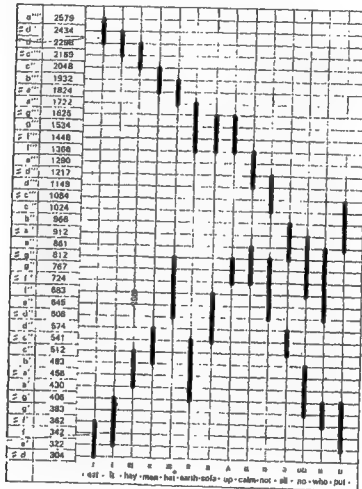
تتكون الحركة من عنصرين ، الجهر وهو ناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية ، واندفاع الهواء في الحركات العليا من أعضاء النطق وما يجعله ذلك من رنين في هذه الحركات . ومن الطبعي أن يكون هدف التحليل الفيزيائي للحركات شاملا لمعنيين العنصرين . ولعل من أولى محاولات هذا التحليل دراسة قام بها العالم الانجليزي ر. س. باجيت (R.S. Pages)^(٩) الذي كان يتمتع بجانب معارفه الصوتية بقدرة على الفناء ودقة السمع .

وقد فصل باجيت بين عنصر الجهر وعنصر الرنين الناتج في فراغات المجر العلوي أي ما فوق الحنجرة إلى الشفتين ، عند نطق الحركات في الإنجليزية البريطانية دون جهر . وقد لاحظ أن كل حركة تتكون من جزئين من الموجات المتوافقة : أحدهما مرتفعة الدرجة تتراوح ذبذبات الموجات التي تكونها بين ٦٠٨ ، ٢٥٩٠ د/ث ، والثانية منخفضة الدرجة وتتراوح ذبذبات الموجات المكونة لها بين ٣٠٤ ، ٩١٢ د/ث . وكانت الحزمة المرتفعة الدرجة أكثر وضوحا في السمع من الثانية ، كما كانت الحزمة المنخفضة أشبه بمحاولة الصغير بالغم مع الفشل في إنتاجه . ولاحظ كذلك أن الحزمة العليا لا تتأثر بمدى فتح الفم بل بحركة اللسان إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى الأمام أو إلى الخلف . ومن

(٩) تعليمات للمرج رقم ٢ ، وانظر فيها مرفع ٥ من ١٧٦

تحليل صليبة التكلم ويظهر تنكيبه الصليبية

هذا استنتج أن الحزمة العليا تتأثر بغرف الرنين الأمامية ، أي الغرف الصموية التي تشكلها حركات اللسان ، ولذا أسماها بالحزمة الأمامية . أما الحزمة السفلى ، فقد انتهت إلى أنها ناتجة عن رنين الغرفة المستدة من منطقة ما فوق الحنجرة حتى الشفتين ، ولذا فلانها تتأثر بفتح الفم ضيقاً واتساعاً وقد سمي هذه بالحزمة الخلفية وقد سجل نتائج بحثه في الجدول التالي .



شكل (٨)

الشكل يمثل

- ١ - الأصوات الفردية للحزمة التكريرية الأولى في ١٤ حركة إنجليزية - المجموعة الأولى .
- ٢ - الأصوات الفردية للحزمة التكريرية الثانية في نفس الحركات في ١ - المجموعة الثانية .

ونعبد هنا أن باجيت يتحدث عن حزمتين من الموجات تتكون كل منهما من مجموعة من الموجات المتوافقة ، كما يلاحظ وجود فراغ يفصل بين الحزمة الدنيا والحزمة العليا . وهذا الفراغ يزيد أو يقل حسب نوع الحركة . وسيمر بك صورة لتحليل طيفي استعمل فيه الراسم الطيفي يوضح هذه النقطة الأخيرة (انظر الشكل رقم ١٠ ص ٤٦) .

بعد هذا نطق باجيت بنفس الحركات مجهورة ، وبذا أضاف عنصر النغمة الحنجرية إلى أثر غرقي الرنين الأمامية والخلفية . وقد وجد أن إضافة النغمة الحنجرية تؤثر على درجة حزم بعض الحركات دون الأخرى . مثال ذلك الحركة /o/ التي ظلت درجة حزمتها العليا ١٥٤٢ ذ/ث وحزمتها السفلى ٤٠٦ ذ/ث عند الجهر كما كانت عند الهمس . وذلك على العكس من الحركة /a/ في calm التي تغيرت درجة كل من حزمتها عند الجهر عما كانت عليه عند الهمس . بعد هذا صنع باجيت غرفة من طين الصلصال مفتوحة الطرفين رتبها ١٠٢٤ ذ/ث ووضع هذه الغرفة ملاصقة لشفتيه ونطق بنفس الحركات فوجد أن وجودها يؤثر على نوع الحركات بالنحو التالي :

١ - الحركة الطويلة في الكلمة calm (مثل صار في العربية) سمعت كما لو كانت الحركة الطويلة في الكلمة awe (مثل طور في المصرية) .

٢ - الحركة في hat (مثل بات) سمعت كما لو كانت حركة calm (صار) .

٣ - الحركة في up سمعت كما لو كانت الحركة في get .

الخ

معنى هذا أن من الحركات ما يتأثر بوجود غرفة الرنين الثالثة أي أنها تتكون من ثلاث حزم ومنها ما لا يتأثر أي أنها تتكون من حزمتين .

جهاز الراسم الطيفي Spectrograph (١٠) :

يتكون هذا الجهاز من :

١ - وحدة تسجيل الصوت ، وهي أسطوانة معدنية يحيطها مغنط يسجل عليها نص وفي مركزها يثبت عمود يديره بقوة موتور عند التسجيل أو السماع .

٢ - ميكروفون للتسجيل وآلة لمحو النص إذا أريد ذلك .

٣ - وحدة تحليل الصوت وهي مجموعة من المرشحات تمر بها الموجات المكونة للرسالة .

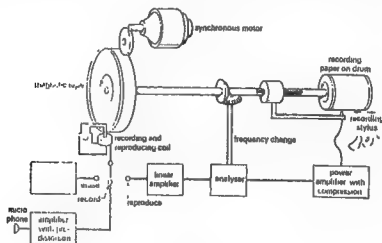
٤ - أسطوانة أخرى تلف عليها ورقة حساسة وهي مثبتة في نفس العمود الذي ثبتت فيها أسطوانة التسجيل بحيث تدوران معاً .

(١٠) الرسم من :

٥ - حامل إبره تسجيل Stylus يتحرك بواسطة حلزون مغنوني وهذه الإبرة متصلة بتيار كهربائي يحدث شرارة عند ملامستها ورقة التسجيل أثناء دورانها فتُرسَم عليها خطوطاً متوالية .

بعد تسجيل النص يدور الموتور فيحرك الأسطوانتين وحازون الإبرة وعمر الصوت بالمرشحات فيعزل أحدها الموجة السفلى وينقلها إلى الإبرة فتتذبذب بنفس شكل ذبذبات الموجة .

ويسبب الشرائط الناتجة من التباين تحدث الإبرة خطأ على ورقة التسجيل يمثل الموجة المرشحة . وتدور الأسطوانة مرة ثانية وثالثة ورابعة ويتم ترشيح الموجات واحدة واحدة وترسم على الورقة الحساسة . وبعد وصول الإبرة إلى نهاية الحلزون يتوقف الجهاز ونحصل على رسم طيفي للنص .



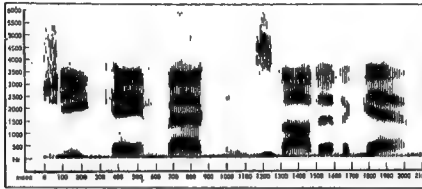
شكل (٩)
رسم التخطيطي لجهاز الراسم الطبقي

أود قبل أن استمر في الحديث أن أوضح مفهوم عدد من المصطلحات قد وردت أو سترد خلال الحديث عن الرسوم الطيفية .

١ - موجة الأساس ، وهي موجة بسيطة من مكونات موجة مركبة وهي أقل المكونات درجة ، وإن كانت أكثرها استعمالاً للطاقة (انظر الجدول ص ٤١) . وتكون درجة كل من المكونات الأخرى من مضاعفات درجتها . وفي الجدول المشار إليه رأيت أن درجة موجة الأساس ١٠٠ د/ث ودرجات المكونات من مضاعفات هذا العدد (٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ الخ) .

٢ - الحزمة التكوينية Formant ، وقد يطلق عليها اختصاراً لفظ الحزمة ، وهي مجموعة من الموجات التوافقية ذات درجات متقاربة في عدد اللبليبات ، وتظهر في الرسم الطيفي كما لو كانت خطأً مريضاً (انظر الشكل ١٠) . ويفصل كل حزمة عن الآخر ثلثيها فراغ يظهر في صورة بياض في الرسم الطيفي . وتوجد الحزم التكوينية واضحة في

في الشكل ثمانية رسوم طبقية لحركات في كلمات إنجليزية بريطانية تتكون من مقطع واحد يبدأ بالصوت /h/ وينتهي بالصوت /d/ وهي whod hood, hawed, hod, head, had, hid, head. وهي في الرسم من اليسار لليمين والرسوم الممثلة للكلمات الأربع الأولى في أعلى الشكل والممثلة للأربع التالية في أسفله. ويلاحظ أن بعد الحزيم بعضها عن بعض (الناتج عن اختلاف درجتها) يختلف من حركة إلى أخرى وسنرى ذلك بمقارنة الرسوم الطيفية في الشكل السابق .



شكل (١١)

رسم طيفي للمباراة الانجليزية (اعلم) (She came back and started again)

يظهر في الشكل الحزيم الطيفي للسكان في she (ش) على اليسار بين درجة ٢٥٠٠ ، ٥٣٠٠ ذ/ث والحزيم الطيفي للسكن /s/ في started وهو بين ٣٥٠٠ ، ٥٥٠٠ ذ/ث^(١١).

انظر الشكل (١٢)

مثل تحليل طيفي للجملة الانجليزية Pat sad or mad فإرسم مرة بالحزيم الواسع^(١٢) وهو يظهر الحزيم بوضوح ومرة أخرى بالحزيم الضيق وهو يظهر مكونات الحزيم .

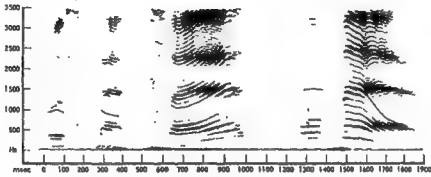
دلالات الحزيم التكوينية :

تساعدنا الحزيم التكوينية في عدد من الأمور :

١ - التمييز بين الحركات بعضها وبعض ، وذلك بملاحظة عدد الحزيم ويمد بعضها عن بعض ودرجة الحزيم الترددي لكل منها . انظر شكل ١١ ص ٤٧ ومقارنة الرسم الطيفي للحركة /i/ وهو الأول من اليسار في الجزء العلوي بالرسم الطيفي للحركة /u/ وهو الأخير إلى اليمين في الجزء السفلي ، نلاحظ الفرق في البعد بين الحزمتين في الحركتين ، كما نلاحظ أن درجة الحزيم في /i/ بين ١٧٠٠ ، ٢٠٠٠ ذ/ث أما في /u/ فإنه بين ٤٥٠ ، ٩٠٠ ذ/ث .

(١١) مرجع ١ ص ٢٧٢

(١٢) المرجع السابق ص ٢٣٩



شكل (١٢)

تحليل طبقي للمبارة الانجليزية (to Pal and or sand) باستعمال الحزام الواسع (الجزء العلوي)
والحزام الضيق (الجزء السفلي)

٢ - التمييز بين المتكلمين في الجلس والسن :

ثبت من اختبار السماع الذي أجراه بيترسون وبارني وجود فرق واضح بين حزمتي التكوين في نفس الحركة عندما ينطقها رجل عنها عندما ينطقها صبي أو امرأة . وستلخص فيما يلي الفرق الذي يلاحظ بينهم في نطق الحركة /١/ .

| نطق الرجل | موجة الأساس | الحزمة الأولى | الثانية | الثالثة |
|-----------|-------------|---------------|---------|---------|
| ١٣٥ | ٣٩٠ | ١٩٩٠ | ٣٠١٠ | |
| ٢٣٢ | ٤٣٠ | ٢٤٨ | ٣٠٧٠ | |
| ٢٦٩ | ٥٣٠ | ٢٧٣٠ | ٣٦٠٠ | |

٣ - المساعدة على التعرف على نوع الساكن المجاور للحركة ، وهو ما نعرضه هنا بالتفصيل :

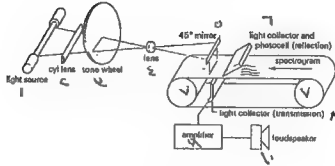
خرج الساكن وأثره في الحركة المجاورة :

يؤثر خروج الساكن في غرفة الرنين التي تمر بها الحركة المجاورة له وذلك لأنها تنتقل من الوضع الذي كانت عليه مع الساكن إلى الوضع المطلوب للحركة ، على ثلاث مراحل .

- ١ - مرحلة الاستقرار عند النطق بالساكن .
- ٢ - مرحلة الانتقال من شكلها مع الساكن إلى شكلها مع الحركة .
- ٣ - مرحلة الاستقرار في شكلها مع الحركة .

تجربة كوبر وزملائه (١٣) :

استعمل في هذه التجربة جهاز إعادة النطق :



شكل (١٣)

ويتكون الجهاز كما يظهر في الرسم من اليسار إلى اليمين عما يأتي :

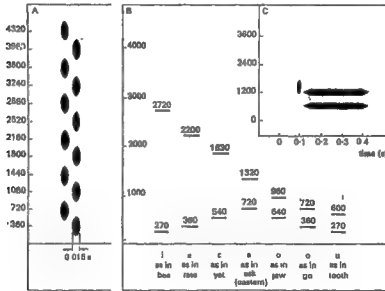
- ١ - مصدر ضوئي .
- ٢ - عدسة ضوئية طويلة ومستديرة .
- ٣ - عجلة نغمية .
- ٤ - عدسة .
- ٥ - مرآة مثبتة بزاوية قدرها ٤٥° .
- ٦ - جامع للضوء وخلفية ضوئية عاكسة photocell .
- ٧ - أسطوانتين متباعدتين تلف حولهما ورقة مرسوم عليها طيف .
- ٨ - جامع ضوئي ناقل .
- ٩ - مضخم صوتي .
- ١٠ - سماعة .

وعند عمل الجهاز تلف ورقة الرسم الطيفي على شكل حزام يصل بين الأسطوانتين (رقم ٧) . ويلودان الأسطوانتين تنعكس الصورة الطيفية بفضل الضوء الصادر من المصدر (رقم ١) وتمر بجامع الصوت والخلية الضوئية (٦) فتقوم بتحليل الصورة الطيفية إلى موجات ضوئية وترسلها إلى العجلة النغمية (٣) فتحول الموجات الضوئية إلى موجات صوتية ترسلها للمضخم (٩) والسماعة (١٠) فتصدر الصوت .

الآثار الطيفية للسواكن الانفجارية :

أ - الانفجارية المهيوسة

المعروف أن الساكن الانفجاري المهيوس يتكون من انجاس وانفجار دون جهر . وبالتالي فإنه لا يظهر في الرسم الطيفي إلا بعد الانفجار الذي يليه ضجة بيضاء ويعداها الحزمتان التكوينيتان لكل حركة كما ترى في الشكل :



شكل (١٤)

يتكون الشكل من ثلاثة أجزاء A , B , C .

الجزء الأيسر A وفيه خط رأسي على اليسار مرقم عليه عدد الذبذبات في الثانية من صفر إلى ٤٣٢٠ وقد وزعت من أسفل إلى أعلى ، على أبعاد متساوية يفصل بين كل منها والتي تليها ٣٦٠ درجة . وعلى هذا الخط توجد ١٢ نقطة سوداء ستة إلى اليسار وستة إلى اليمين وضعت على شكل عمودين لسهولة تمييز بعضها عن بعض . وهذه تمثل حزام انفجار الساكن .

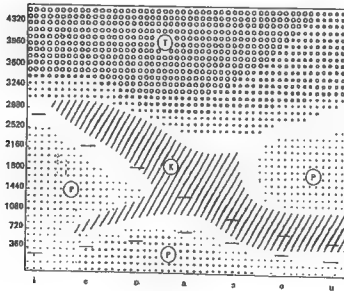
والجزء الأيمن B ويتكون من خط رأسي على اليسار لقياس عدد اللبذبات وخط أفقي سفلي كتبت تحته الحركات المعيارية السبع وكتبت تحت كل منها كلمة إنجليزية أمريكية تحتوي على الحركة . وفوق كل حركة بعد الخط الأفقي السفلي يوجد خطان فوق كل منهما رقم يبين الأسفل درجة الحزمة التكوينية الأولى والأعلى درجة الحزمة الثانية للحركة (مثلاً u ٢٧٠ - ٦٠٠ ، O ٣٦٠ ، ٧٢٠ الخ) .

والجزء C ، عبارة عن مربع في الركن العلوي من اليمين ويتكون من خط رأسي لقياس عدد اللبذبات وخط أفقي لقياس الزمن . ودخلت المربع يوجد خطان أفقيان الأسفل يمثل الحزمة الأولى والأعلى يمثل الحزمة الثانية . وعلى اليسار من المخطط توجد نقطة سوداء تمثل الانفجار . وهذا الجزء مثال لأحد الرسوم الطيفية التي رسمها يدوياً الباحثون لإجراء التجربة . رسم الباحثون باليد عدداً من الأطياف يتكون كل منها من الحزمتين الأولى والثانية لكل من الحركات المعيارية السبع . ويلاحظ أن هذه الأطياف ليست نتيجة لتحليل نطق واقعي بل مجرد رسوم مبسطة لموضع الحزمتين في كل حركة . ووضعوا كل رسم في جهاز إعادة النطق وأدير الجهاز أمام عدد من السامعين الذين طلب إليهم تدوين ما يسمعون كتابياً . وقد كانت النتيجة كما يلي :

١ - سمع انفجار وبعده فترة صمت ثم سمعت بعد ذلك حركة .

٢ - وجد أن الذي يحدد نوع الانفجار هو موضع الحزمة الثانية بالنسبة للخط العمودي أي لقياس عدد اللبذبات .

٣ - خلصت نتائج السماع في الشكل التالي :



شكل (١٥)

الشكل على هيئة مربع عموده الأيسر لقياس اللبذبات وهو مدرج من صفر إلى ٤٣٢٠ والخط الأسفل الأقي كُتب تحته رموز الحركات . وفي داخل المربع يوجد خطان فوق كل حركة : الأسفل للحزمة الأولى والأعلى للثانية . وفي المربع توجد ثلاث مناطق إحداها مظلمة يرسم دوائر صغيرة وقد كُتب فيها الرمز (٢) وثانيها مظلمة بخطوط مائلة وكُتب في وسطها الرمز (K) وثالثها مظلمة بنقط وهي موزعة إلى اليسار واليمين وإلى أسفل منطقة (K) وكُتب في كل من مناطق توزيعها الرمز (P) . وإليك بعض الأمثلة لبيان كيفية الاستفادة منه .

١ - الحركة /i/ ، حزمته الأولى في حدود ٣٠٠ ذ/ث فإذا كانت الثانية في المنطقة المحصورة بين ٧٢٠ / ٢٥٢٠ سمع الانفجار /p/ . وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع الانفجار /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٢ - الحركة /e/ الحزمة الأولى ٣٦٠ ذ/ث تقريباً ، وإذا كانت الثانية بين ٧٢٠ ، ٢٠٠٠ سمع الانفجار /p/ وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٣ - الحركة /u/ الحزمة الأولى ترددها ٣٤٠ ذ/ث . وإذا كانت الثانية بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ١٤٤٠ ، ٢٤٠٠ سمع /P/ وإذا كانت بين ٣٢٤٠ ، ٤٣٢٠ سمع /t/ . وهكذا

ونود أن نعيد ملاحظتين سبقت الإشارة إليهما :

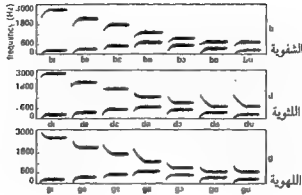
- ١ - ليست هذه الأطياف نتيجة تحليل نطق واقعي بل مجرد رسم يلدو مبسط لصور طيفية .
- ٢ - الانفجار الذي يسمع ليس نتيجة نطق واقعي بل هو ظاهرة طبيعية سمعية لدرجة الحزمة الثانية للحركات .

ب - الانفجارية المجهرية :

في بحث آخر رسم الباحثون الأطياف السابقة مع تعديلات :

- ١ - التخلص من الفراغ الذي يفصل بين الانفجار والحركة .

٢ - رسم شكل الانتقال بين درجة الانفجار ودرجة الحركة التالية له . ولما كان الانتقال لا يظهر إلا في الحزمة الثانية ، ولما كانت درجة جهر الانفجار أقل من درجة جهر الحركة ، فإنها تظهر في الحزمة الأولى وحدها التي لا تختلف كثيراً عن درجة الحزمة الأولى في الحركة . وهذا الفرق يظهر في انتقال صاعد في كل الحالات . أما الحزمة الثانية للحركة فإنها قد تكون مستوية أو صاعدة أو هابطة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٦)

بعد ذلك وضع كل من الرسوم الطيفية للمصطنعة في جهاز إعادة النطق وسمعها عدد من المساعدين وسجلوا ماسمعهو فخرجوا بالأحكام التالية .

١ - إذا كان انتقال الحزمة الثانية هابطا سمع الانفجار /g/ .

٢ - إذا كان انتقال الحزمة الثانية صاعدا من درجة ١٩٠٠ إلى درجة ٣٠٠٠ ذ/ث أو من درجة ١٨٠٠ إلى درجة ١٩٠٠ ذ/ث أو كان مستويا (على الشكل الذى تراه في الصندوق الأوسط من شكل ١٨) ، فإن الذى يسمع هو الانفجار /d/ .

٣ - إذا كان الانتقال صاعدا (على النحو الذى تراه في الصندوق العلوى) كان الانفجار المسموع /b/ .

ج - الأصوات الأنفية والحنفية^(١٤)

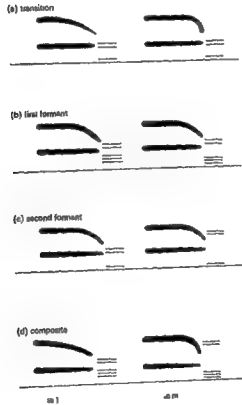
لوحظ فيما سبق أن درجة الحزمة الثانية تختلف باختلاف مخرج الساكن الذى يشبه الانفجار أى باختلاف الصفة من شغوية إلى ثنوية إلى لثوية إلى لثوية . ولما كانت السواكن الأنفية تتميز بعضها عن بعض بالشغوية /m/ أو الثنوية /n/ أو اللهوية /ŋ/ (نج) فقد امتد البحث ليشمل هذه السواكن أيضا . وبالتالي أعدوا الرسوم الطيفية السابقة مع تعديلات :
١ - إزاله النقط السوداء للمثله للانفجار لأن السواكن الأنفية ليست انفجارية .

٢ - إضافة خطوط أخرى تمثل الحزم التكوينية في هذه السواكن لأنها مجهورة ، ثم أعدوا اختبارات السماع فانتهوا إلى الحكم التالي :

تظل الحزمتان الأولى والثانية في كل حركة كما كانت عليه مع الانجاسات المجهورة مع فرق في شكل الانتقال ، ومع وجود حزمتين للسواكن الأنفية تختلف باختلاف الحركة المجاورة .

د - السواكن الجانبية (اللام والراء) :

وجد أنها تشبه السواكن الأنفية في وجود حزمتين إضافيتين يختلف وضعهما مع السواكن الجانبية عنه مع الأنفيات ، وذلك بالنسبة لحزمتي الحركة المجاورة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٧)

في الشكل مجموعة من الرسوم الطيفية الممثل للحركة للعبارة الرابعة (نوع من الفتحة) : أربعة تلي فيها الميم الحركة ، وهي المجموعة اليمنى وأربعة تلي فيها اللام الحركة وهي المجموعة اليسرى . ويظهر في الشكل ما يأتي :

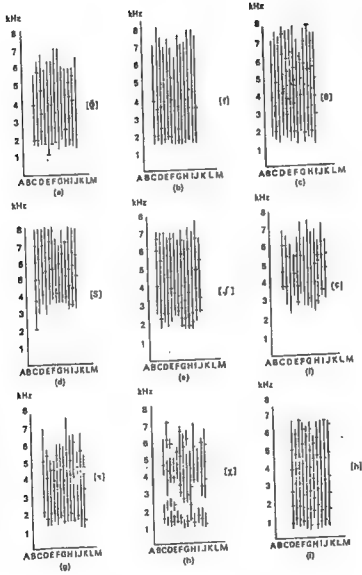
- ١ - الزوج الأعلى (a) . ويكون الرسم الطيفي للام والميم متشابهين مع فرق واحد هو أن الانتقال إلى الميم أشد انحداراً من الانتقال إلى اللام .
- ٢ - الزوج الأوسط (b) ويكون فيه الانحدار مع اللام أكثر من الانحدار إلى الميم مع زيادة عدد موجات الحزمة الأولى عن الثانية وانخفاضها مع الميم وارتفاعها مع اللام .
- ٣ - الزوج الأوسط (c) ويكون الانحدار متماثلاً في حالتي اللام والميم ولكن الحزمة الثانية مع اللام تكون بين الحزمتين الأولى والثانية للمحرك أما مع الميم فإنها تكون فوق الحزمة الثانية للحركة . أما الحزمة الأولى فتكون فيها أقل من الحالة (b) .
- ٤ - الزوج الأسفل (d) عبارة عن مجموع الصفات الموجودة في الانتقال وشكل وعلاقة الحزمة الأولى والثانية للام والميم .

٥ - السواكن الاحتكاكية^(١٥)

قلنا من قبل إن توزيع الطاقة بين الموجات التي تمثل الاحتكاكات توزيع عشوائي وأنه نتيجة لهذا لا تظهر حزم لهذه السواكن كذلك التي تظهر مع الحركات والسواكن المجهورة . والأمر الوحيد الذي نتعرف به على السواكن الاحتكاكية في الرسوم الطيفية هو وجود حزام ترددي غير منظم يختلف مدى درجته باختلاف الصوت الاحتكاكي . وللوصول لهذه النتيجة أجرى البحث التالي :

اختار الباحث تسعة من الأصوات الاحتكاكية هي الفاء الشفوية الشائيه / ϕ / ، / ϵ / ، / θ / ، / s / والشين / f / والكاف الشينية / C / والحاء الأمعية / X / والحاء الخلفية / bc / ، / b / . وكلف ١٣٠ من طلاب مدرسين على الدراسات الصوتية ينطق هذه السواكن مع إطلاتها ، ثم رسم رسماً طيفياً لكل من الأصوات المنطوقة بواسطة الراسم الطيفي فظهرت مناطق التردد الخاصة بهذه الأصوات . ثم رصد الحد الأعلى والحد الأدنى لحزام التردد مع كل صوت ، وسجل نتائج ذلك بالنسبة لكل متكلم وفي الشكل رقم ١١ ص (٢٣) ترى مثالا لحزام التردد في الشين والسين ، في العبارة الإنجليزية *She came back and started again* . ومراجعة الشكل المذكور نلاحظ وجود حزام ترددي على اليسار يبدأ من ٢٣٠٠ ذ/ث وينتهي عند ٥٥٠٠ ذ/ث . وهو يمثل الشين في *she* ، كما نلاحظ وجود حزام آخر تردده بين ٣٧٠٠ ، ٥٦٠٠ ذ/ث وهو الذي يمثل السين في *Started* .

وفى على الرسوم البيانية التي تبين المجال الترددي لأحزمة هذه السواكن كما نلاحظها كل من الطلاب .



شكل (١٨) (١٩)



6Y

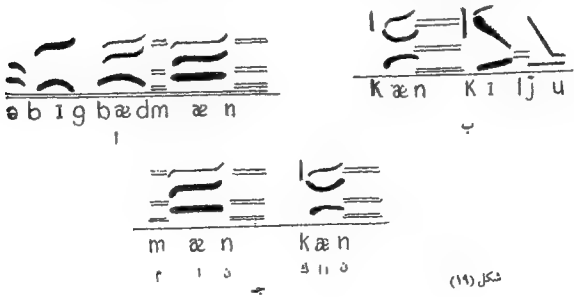
انتبهنا من الوصف الطيفي لأنواع الأصوات ، ولكن هذا لايعنى تمام التحليل الطيفي للحدث اللغوي كله ، فهناك العلام الطيفية للنبر والنغم والصفات الخاصة كالضخيم العارض للصوت . وليس هنا مجال لشرح كل هذه الأمور .

التحليل والتركيب :

مرت بك أمثلة لتحليل العبارات إلى موجات صوتية ، بعضها يمثل حركات وبعضها يمثل انفجاريات مهموسة أو مجهورة أو أنثيات أو احتكاكيات . والرسوم الطيفية التي قدمت إليك في الأشكال ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، تمثل تحليلا لعبارات قد نطقت فعلا ثم حول كل نطق إلى رسم طيفي أما الأشكال ١٤ - ١٩ ، فإنها لا تمثل أحداثا لغوية واقعة ، بل منطوقات مصطنعة ألبا بواسطة إنتاج موجات تكون رسوما طيفية تمثال الرسوم التي نحصل عليها إذا ما حملنا المنطوقات الفعلية .

وقد تمكن المهندسون من الاستعانة تطبيقيا من عمليتي تحليل الأحداث اللغوية وتركيبها تركيبا اصطناعيا . وقبل أن أقدم للقارئ أمثلة لهذه التطبيقات أود أن أذكره ببعض التعليقات السابقة لتوضيح ما أقول .

لنأخذ مثلا الأبحاث التي لحصنها بالصفحات من (٢٦ إلى ٣٣) . وستلاحظ أن التجارب قد أجريت على رسوم طيفية مصطنعة . وقد كان كل رسم طيفي تمثيلا مبسطا للتحليل الواقعي لأحداث لغوية عرف منها الباحثون أشكال الموجات التي تتكون كل صوت ودرجاتها . وعينوا بالاختبارات السمعية الموجات التي يمكن التخلص منها دون تأثير في درجة الإلهام والموجات التي يتحتم المحافظة عليها للاحتفاظ بدرجة مقبولة من الإلهام . ثم صنعوا الرسوم الطيفية محتفظين بالموجات الأساسية ومتخلصين من الموجات ثانوية الأهمية . بعد هذا ، أنتجوا الموجات التي تعينها الرسوم المصطنعة فحصلوا على كلام مصطنع .



شكل (١٩)

أ - العبارة الإنجليزية a big bad man (١٦)

ب - العبارة الإنجليزية can kill you

ج - العبارة العربية « من كان » مكتوبة من اليسار لليمين .

في الجزء العلوي من الشكل رسم طيفي مصطنع للعبارة الإنجليزية التالية : a big bad man ورسم آخر مصطنع للعبارة Can kill you ، وقد اقتطعنا للمقطع الأخير من العبارة الأولى ووضعناه قبل المقطع الأول من العبارة الثانية / Can / فحصلنا على رسم طيفي مصطنع يمكن أن يقبل باعتباره ممثلاً للعبارة العربية (من كان) . وعلى هذا الفرض تجري مناقشتنا التالية .

أولاً - جهاز القراءة (١٧) :

قبل قيام الحرب العالمية الثانية كانت شركة بيل للتليفونات تجري أبحاثاً لتحسين الاتصالات الهاتفية والإقلال من تكاليفها . ووصل الخبراء إلى أنه من الممكن اختصار الحزم التكوينية للمجهورات والأحزمة الترددية للاحتكاك إلى عدد قليل من الموجات الأساسية الضرورية للإفهام وبالتالي فقد تصوروا أن السلك الذي يحمل رسالة واحدة بكل موجاتها يمكن أن يحمل عشرات رسائل ملخصة . وهذا يقلل تكاليف مد الخطوط عبر الأطلنطي إلى العشر . وأبتكروا جهازاً سموه Vocoder (وهي كلمة مركبة من Voice ، coder أي مصنف الصوت) .

وكان الجهاز يتكون من جزأين الأول يحلل الصوت والثاني يتخلص من الموجات غير ذات الأهمية ويصنع من الموجات الهامة صورة طيفية للرسالة . ومن هذه الصورة الطيفية يعاد تركيب الرسالة بعد تلخيص موجاتها بإنتاج موجات صوتية مصطنعة تمثل الرسالة الطيفية ونجحت العملية نظرياً ، ولكن الرسالة التي تم الحصول عليها لم تكن تامة الوضوح فعدل عن المشروع . وخلال الحرب استغل الحلفاء هذا الجهاز للاستماع على المواصلات الهاتفية للعدو . ويقال إن إسرائيل قد حصلت من أمريكا سنة ١٩٦٧ على أحد هذه الأجهزة . واستمعت إلى المحادثات الهاتفية من القادة العرب .

وبعد الحرب استغل هذا الجهاز في تطوير جهاز يقوم بترجمة النصوص المكتوبة للمكفوفين وذلك بإضافة وحدة لتصوير الرسالة المكتوبة وتحويلها لرسالة مسموعة على النحو الآتي .

لنفرض أن العبارة هي : (من كان) في هذه الحالة سيحدث مايلي :

١ - يقوم جهاز التصوير بنقل الشكل الكتابي إلى حاسوب يخزن ذاكرته صوراً عليه هي :

أ - الشكل الكتابي ومايعادله من أصوات .

(من) = م + ا + ن كان = ك + ا + ن .

ب - الأصوات وما تتألف منه من موجات وهي في هذا المثال كما يلي :

م = نغمة مستوية درجتها ٢٥٠ + مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ا = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية إلى ٢٣٠٠ .

ن = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

يلاحظ أن الذي يميز النون الميم هو الحزمة الثانية من الحركة (فتحة) حيث إنها تبدأ من نقطة أعلى من الحزمة الثانية للميم وترتفع حتى تستوى في درجة الاستقرار ثم ترتفع إلى اتجاه الحزمة الثالثة للنون (انظر شكل الحزمة الثانية في « من » و « كان ») .

ك = حزام في شكل خط رأسي يعله فراغ .

الفحة الطرية = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية في اتجاه الحزمة الثالثة للنون التي تليها .

النون = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + حزمة مستوية درجتها ٢٥٠٠ + حزمة مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ج - يصدر الحاسوب أمراً للجهاز إنتاج الموجات الآلى لإنتاج الموجات السابقة على الشكل الذى وصفناه .

د - تنتقل هذه الموجات إلى جهاز تضخيم amplifier .

هـ - تنتقل من جهاز التضخيم إلى سماعة فيسمع للكفوف الجملة المكتوبة .

ثانياً - إنتاج الكلام الاصطناعى^(١٨)

ليست محاولة إنتاج الكلام الاصطناعى محاولة جديدة ، بل إنها ترجع إلى مايزيد عن قرنين من الزمان ، ففي سنة ١٧٨٠ نال العالم الروسى كراتزنشتاين Kratzenstein جائزة أكاديمية العلوم في مدينة سانت بيتر سبرج (ستالينجراد الآن) لأنه كان أول شخص أنتج الحركات / a / ، / i / ، / u / ميكانيكياً . وقد صنع لتحقيق هذا العمل مزمارة من البوص وصله بأنايب قامت بعملية ترشيح الصوت الناتج عن مزمارة البوص . وفي سنة ١٨٤٨ قام يوهانس مولر بمحاولة ثانية لإنتاج الصوت الاصطناعى ، وذلك بأن أخذ حنجرة شخص ميت وشدها على فوهة أنبوبة وثبت خيوطاً في خضاريفها ، بحيث يمكن تحريكها كما تتحرك عند الكلام ثم دفع تياراً هوائياً عبر الأوتار الصوتية فانتج حركات . وفي سنة ١٩٥٦ قام فان دن برج Van den Berg بمحاولة أخرى مستعملاً وسائل تقنية حديثة ، ومستفيداً من النظريات الرياضيه المتعلقة بالحركة والضغط ، فصنع مائلاً للحنجرة من الجبس ، ومرر تياراً هوائياً خلال فتحاتها فانتج أصواتاً تماثل الحركات اللغوية . ومع أن مثل هذه المحاولات لم تنتج عبارات اصطناعية كاملة فإنها قد فتحت الباب أمام محاولات أكثر شمولاً ، نذكر فيما يلى عدداً منها :

(١٨) مرجع ١ ص ٢١٦ ويليها

لتوضيح هذه النظرية نتحدث عن عمل الإرسال الإذاعي (بالراديو) وسنلاحظ أن أول ما يحدث ، (قبل بدء الإذاعة) صدور صغير مستمر ، هذا الصغير يسمى بالموجة الحامل ، وهي التي تعين درجة الموجة التي يتم عليها الإرسال الإذاعي ، ثم يضاف إلى هذه الموجة عزف الكمان مثلا ، وهذا العزف يمثل العنصر الثاني وهو الرسالة . أما العنصر الثالث وهو المنظم فيمثله الميكروفون ، وهو يتلقى الحامل والرسالة ويعزجها معا وبهذا تتم العملية الإذاعية .

وفي الكلام الطبيعي يحدث عن طرد الزفير إلى الخارج حدوث الموجة الحامل ، ويتدخل الأوتار الصوتية والغرف الرنينية العليا ، أي ما فوق الحنجرة تحدث الرسالة أما الجهاز المنظم modulator الذي يمزج الحامل فإنه نفس الجهاز الذي يصدر الرسالة أي الأعضاء الصوتية من الحنجرة إلى فتحة الفم والأنف .

وقد تمت محاولة لإنتاج الأصوات اللثوية الإنسانية بإحداث الموجة الحامل والموجات الممثلة للرسالة وإمرارها بمنظم كالميكروفون لزجها . وقد تمت هذه التجربة في إصدار الأصوات الإنسانية بنجاح ما . ولكنها لم تكن وسيلة عملية يمكن تطبيقها بسهولة .

نظرية الأطياف والحزم والأحزمة :

وقد تعرضنا فيما سبق لمفهوم هذه المصطلحات الثلاثة ، وانتهينا إلى أنه من الممكن تعيين الصفات الصوتية العضوية الأدائية بما يقابلها من صفات طيفية على النحو الآتي :

- الحركات وتعين كل حركة درجة الحزمة التكوينية الأولى والثانية والثالثة (انظر للمثال ص ٢٤) .

- السواكن الانفعالية ويعينها الحزام الطيفي ودرجته (انظر للمثال ص ٢٦ - ٢٨)

- السواكن الشفوية ويعينها الانتقال الصاعد للحزمة الثانية من الحركة المجاورة لها .

- السواكن اللثوية ويعينها صعود طفيف في الحزمة الثانية للحركة التالية لها إذا كانت / i / أو / e / أو استواء في هذه الحزمة إذا كانت الحركة ' e ' (في مثل سبب العربية) أو هبوط مع بقية الحركات المعيارية الأربع الباقية / a / ، / o / ، / u / ، / ɔ / .

- السواكن الملهوية ويعينها هبوط في الحزمة الثانية من الحركة التالية لها ويظهر كل هذا بمراجعة الشكل ص ٢٩ .

- السواكن الأنفية ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية كالتي توجد في الحركات الأولى في نطاق ٢٥٠ والثانية ٢٥٠٠ والثالثة ٣٢٥٠ ذ/ث

- السواكن الجانبية - ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية درجاتها ٢٥٠ ، ١٢٠٠ ، ٢٤٠٠ ذ/ث

الخ

ومادام من الممكن تحديد الخصائص والصفات الطيفية لكل صوت فإنه من الممكن بالتالي رسم تحليل طيفي يمثل المقطع الذي يوجد فيه الصوت . وتكون الخطوة التالية القيام برسم طيفي يمثل العبارة كلها . وقد مر بك وصف عمل جهاز إعادة النطق ، ومن الممكن استغلال هذا الجهاز لنطق العبارة التي يمثلها الرسم الطيفي كما سبق أن رأيت .

وباختراع الحاسوب ، أمكن إنتاج الأصوات من الرسوم الطيفية بسرعة مذهلة ، يسرت عملية إنتاج الكلام الاصطناعي والاستفادة منه في الأجهزة العلمية والمنزلية كالساعة الناطقة والسيارة التي تدار أجهزتها بإصدار الأوامر الكلامية أو التي تنقل إليك بكلام اصطناعي أخبار العواطف التي تكون قد حدثت في الطريق الذي تسلكه عند السفر .

محاولة تجزئة الكلام الطبيعي : splicing

من المحاولات التي جرت لإنتاج الكلام الاصطناعي تسجيل أصوات اللغة منفردة دون إجراء تحليل طيفي لها ، فتسجيل صوت / م / وصوت / ا / (فتحة) وصوت / ن / وصوت / ك / وصوت / هـ / ، فإذا أردنا إنتاج اللفظ (كان) وضعنا في الجهاز تسجيل الكاف ثم الفتحه الطويلة ثم النون ، وإن أردنا إنتاج (كائن) وضعنا تسجيل الكاف وبعده تسجيل الفتحه ثم تسجيل الحزمة ثم الفتحه ثم النون ، وهكذا . وكانت النتيجة غير مرضية لأننا لا نسمع كلمات بل أصواتا منفصلة .

وسبب هذا أن الكاف قبل الفتحه لا تمثل الكاف بعد الكسرة ، كما أن الفتحه بعد الميم لا تمثل الفتحه قبل النون وهكذا ، ولهذا جرت محاولة أخرى سجلت فيها عبارات كاملة كثيرة العدد ، ثم قسم الشريط إلى أجزاء (بالقص) بحيث يمثل كل جزء صوتا واحدا في موضع معين ، في الأول أو الآخر أو الوسط قبل كل صوت وبعده كل صوت يمكن أن يباوره . وبالتالي فإنه لن يكون لدينا تسجيل واحد للكاف بل عدد كبير يمثل جميع مواقعها وتجاوراتها . وقد قدر أننا نحتاج على الأقل إلى ٨٠٠٠ تسجيل دون أن ندخل في الاعتبار ، التبر والنغم الذي يصحب الصوت .

وحق تصوره صعبه تحقيق هذه الطريقة سنعرض المثال التالي :

١ - إذا كان لدينا الحرفان ب ، م فإن التجمعات الممكنة اثنان هما ب م ، م ب

٢ - إذا كان لدينا ثلاثة أحرف ، ب ، م ، هـ فإن التجمعات ستكون ، ب م هـ ، م هـ ب ، هـ ب م ، ب هـ م ، م هـ ب ، هـ م ب ، أى ستة تجمعات .

٣ - إذا كان لدينا أربعة أحرف ، أى ب م هـ د فإن التجمعات ستبلغ ٢٤ تجمعاً وهكذا .

هل تتصور العدد الهائل من تجمعات إذا أحرينا هذه العملية بين أصوات تبلغ ٨٠٠٠ صوت .

وهكذا كان من غير الممكن تطبيق هذه الطريقة في إنتاج الكلام المصطنع . ثم اخترع الحاسوب وتطور تقدمه حتى صار من الممكن إجراء ما يبلغ مليون عملية تجميع في الدقيقة ، وبالتالي لم يكن من العسير استعماله في حصر تجمعات الآلاف الثمانية المذكورة . وهذه الطريقة ميزة أخرى ، حيث إنها لا تحتاج للبحث المعمل الصوت وهو معقد وطويل . ويكتفى للقيام بعملية التسجيل والتقسيم ، إعداد النصوص الكافية واستعمال الآلات لإجراء تقسيمها بعد تكبير الشريط المسجل وتقسيمه بالقص . ثم اختزان أجزاء النصوص في ذاكرة الحاسوب ، واستدعائها في التجمعات التي نريدها والتي تكون العبارة التي نريد إنتاجها اصطناعياً .

كما أن هذه الطريقة تمتاز على طريقته التحليل والتلخيص الطيفي بأنها لا تتخلص من أية موجات ثانوية بل احتفظت باللفظ كما سجل في الواقع .

ثالثاً - البصمات الصوتية :

مر بك أثناء المناقشة جدول بعد شكل ١٢ ص (٧٤) وهو يمثل الفرق بين نطق رجل وامرأة وطفل للحركة /i/ ومر بك أيضاً الشكل ١٨ ص (٣٢ ، ٣٣) والتعليق عليه الذي قارنا فيه بين الحزام الترددي للسین والشين كما نطقه شخصان رمزنا لهما بالحرفين (أ) ، (ب) . ومقارنة هذين الشكلين يتضح لك وجود فروق في الصور الطيفية للصوتيات عندما ينطقها شخص عنها عندما ينطقها آخر . وليس هذا قاصراً على الحركة /i/ أو الساكنين س ، ش ، بل هو أمر عام يشمل جميع الأصوات اللغوية التي ينطقها الإنسان .

وعلى أساس هذه النظرية قيل بوجود مايسمى بالبصمات الصوتية أي الخصائص الطيفية التي توجد ولا تختلف في نطق شخص ما لأى تعبير لغوى . وعمل المهندس الذى يصمم جهازاً يقوم بهذا العمل أن يزداد الجهاز بوحدة تحليل طيفي ، تخزن الصور الطيفية للعبارة التي تحملها في ذاكرة حاسوب ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

ولنفرض أن لصدا دخل مع زميل له إلى أحد البنوك لسرقة خزائنه وكان بالخزانة جهاز تسجيل . وعندما تبادل اللص الحديث مع زميله سجلت إحدى عباراته . وأثناء المحاكمة يسمع القاضي النص المسجل ويذاكر الجهاز فيحلله

تحليلاً طيفياً ، يُخزن في الذاكرة ثم يكلف المتهم بنطق العبارة نفسها ويُدَار الجهاز مرة ثانية فيُسجَل مناطق به المتهم وعمله تحليلياً طيفياً كذلك ثم تُجرى عملية ملائمة *matching* يقارن فيها بين الصورتين الطيفيتين ، فإذا كانتا متطابقتين ، فلن يكون هناك مجال للشك في أن المتهم قد ارتكب جريمة السرقة .

تعرضت في الأمثلة السابقة للنظرية الصوتية اللغوية التي يمكن ، بل والتي طبقت فعلاً تطبيقاً عملياً ، أما كيفية التنفيذ الهندسي للأجهزة فهو أمر ليس لديّ الكفاية أو المعرفة الكافية لوصفه .

ثالثاً - الاستقبال :

يتضم النضام بين أنواع الحيوان المختلفة بصيحات معدودة العدد كالتميم عن الخوف أو الجوع أو الرغبة الجنسية . أما النضام الإنساني فانه غني بالافتكارات والانفعالات بفضل تعدد أصوات اللغة في صفاتها وطرق تجميعها في كلمات لا حصر لمفهوماتها .

وقد ذكرنا من قبل أن النغمات عالية الدرجة ، ووصفة خاصة الحزمة التكوينية الثانية والثالثة ، هي التي تعين نوع الحركة وتساعد على تعيين السواكن الانفجارية والأنفية والجانبية ، وأن السواكن الاحتكاكية تتميز بوجود حزام ترددي عالي الدرجة . وكل هذا يشير إلى أن الدرجات النغمية العالية ذات قيمة تفاهية كبرى . وهذا يفسر قدرة الجهاز السمعي الإنساني على سماع النغمات العالية بأكثر مما عرفناه عن قدرة حيوان كالغزل مثلاً ، إذ يبلغ المدى السمعي عند الغزل ما بين ١٧ إلى ١٠,٠٠٠ ذ/ث بينما يبلغ عند الإنسان من ٣٠ إلى ١٥,٠٠٠ ذ/ث بل وقد يصل لدى بعض الناس إلى ٢٠,٠٠٠ ذ/ث .

ومن المعروف أن النغمات ذات الذبذبات الدنيا يمكن أن تخترق الحواجز أما ذات الذبذبات العليا فلن تستطيع باختصاص الحواجز لها . ولهذا زيد سكان الغابات وخاصة تلك التي تتعرض للاقتراض بوسيلة لإدراك الأصوات ذات الذبذبات السفلى كخطوات الحيوانات المتفرس الحشرة قبل الهجوم على فريسته . وهذه الوسيلة هي شكل يوق الأذن ، حيث يكون كالأنبوبة الطويلة المفتوحة من طرفها وأحد جوانبها إلى جانب قرب الأذنين إحداهما من الأخرى والقدرة على تحريكها في اتجاهات معينة مما يمكنها من تكبير الصوت وتخليد مكان مصدره .^(١٩)

ورغم هذا الفرق بين كل من وظيفة اللغة ومدى الإدراك السمعي عند الإنسان والحيوان ، فقد وجد الباحثون أن معرفة النشاط الإدراكي الداخلي عند الإنسان لن يتم إلا بدراسة هذا النشاط عند الحيوانات . وذلك لأن التجربة المباشرة قد تؤدي إلى الموت أو إلى إصابة المخ بإصابة دائمة لا علاج لها . وقد لوحظ أن نوعاً من الضفادع يسمى بالضفدع الثور *Bullfrog* يصدر صيحات شبيهة بالحركة / i / (الكسرة) وأن هذه الصيحة مركبة من حزمتين تشبهان الحزمة الأولى والثانية في هذه الحركة وأن الموجة الأساسية لهذه الصيحة هي ١٠٠ ذ/ث تليها موجات توافقيه درجاتها مضاعفات

لهذا العدد أى ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٥٠٠ الخ وقام الباحثون برسم يدوى للصوت الطيفية لهذه الصيحات وأسمعت لأنواع أخرى من الضفادع فلم تستجيب لها . ثم عرضت على هذه الضفادع واستجابت لها كما لو كانت صادرة عن فرد حي من أفرادها . وكان على الباحثين أن يعرفوا ما إذا كان غمها يحترى على مراكز إدراكية هذه الأصوات فوضعوا رؤ وسا إلكترونية صغيرة على أجزاء من غمها بعد شح رأسها وعرضوها لسماع الأصوات فحدثت ردود فعل كهربائية في بعض خلايا المخ المعينة . وقد وجد أن هذه الخلايا لا تستجيب إلا لموجات توافقية متحلة في عدد الذبذبات مع هذه الصيحات وهكذا انتهوا إلى وجود مراكز عضوية في المخ وظيفتها استقبال الصوت وإدراكه .

النظرية الآلية (Motor Theory) (٢٠) :

تقول هذه النظرية بأننا ندرك الأصوات بنفس الطريقة التى نتتجها بها ، ونحن نشاهد أن بعض الناس يحركون أعضاهم المنطقية عند قراءة نص ما . ويرى أصحاب هذه النظرية أن هذه الظاهرة تطبيق واضح لنظريتهم ، ويقولون بأننا حين نسمع صوتا ما نقوم أعضائنا الصوتية بنفس العمليات التى تتم لإنتاج هذا الصوت ، بأداء دقيق لا يكاد يدرك . ويقارن المخ بين نشاط الأعضاء الصوتية هذا وبين الصور المخزنة فيه عن صور النشاط العضوى اللغوى المختلفة حتى يلام بينه وبين واحدة من الصور المخزنة فيتم الإدراك . ومثل هذه العملية هو ما يحدث في جهاز الحاسوب عند قيامه باسترجاع المعلومات استنادا للوصول إلى حكم معين .

ويرفض بعض من يقول بهذه النظرية قيام الأعضاء الصوتية بأية عمليات تمهيدا لإدراك الصوت المسموع ويرون أن الجهاز الإدراكى الإنسانى شبيه بالجهاز الإدراكى عند الثور الضفدع . أما وسيلتهم إلى إثبات هذا الرأى أو ترجيحهم على الأقل ، فهى افتراض أن ملكة الإدراك عند الإنسان تمثل تطورا بيولوجيا عن ملكة قديمة كانت عند الأم الأصل لأنواع الثديية . وتدل الدراسات المقارنة التى قام بها نيجوس في كتابه *Negus, comparative anatomy of the Larynx* ، على أن الحنجرة في الحيوانات الأرضية (فسيأعدا الحشرات) من أبسط أنواعها إلى أرقاها أى إلى الحيوانات كانت تستعمل في إنتاج أصوات مركبة الموجات مكوناتها موجة أساسية وحزم تكوينيه وأن الموجة الأساسية تنتج عن تذبذب جهاز نغضى (كالحنجرة عند الإنسان) وأن المكونات التوافقية تحدث عن عمليات الترشيع والتقوية ، تماما كما يحدث عند إنتاج الصوت الإنسان وهم يفتنون النظر إلى أن جميع الحيوانات الثديية كالقط والكلاب مزودة بجهاز ادراكى مركزه بعض خلايا المخ وظيفته الاستجابة الكهروفيزيائية للموجات الصوتية . وهم يتصورون أن عمل هذا الجهاز يتم بالملامعة بين الصوت الذى يسمعه والخبرات الصوتية المخزنة في المخ وانه بواسطة هذه الملامعة يحكم المخ بأن الصوت المسموع من هذا النوع أو ذاك ، تماما كما يحدث في جهاز الحاسوب عندما يراجع المخزن أى حتى يصل إلى الحكم على نوع شئ ما . ومع هذا فهناك فرق جوهري بين عمليتي الاختزان والمراجعة عند الإنسان والحيوان . وسبب هذا الفرق ، أن صيحات الحيوان محدودة في عددها ودلالاتها ولهذا يمكن اختزلها باعتبارها من نفس النوع مهما كان موطن الحيوان أو ظروفه المعيشية .

أما الإنسان فإن الكلام الذي يصدر عنه يحتوي على رموز ودلالات لا تكاد تحصى ، كما أنه يختلف حسب موقع الشخص وطبقته الاجتماعية ومستواه الثقافي الخ . ولهذا فإن عملية الاختزان والاستدعاء أكثر تعقيداً عند الإنسان منها عند الحيوان ، حتى ولو كانت متحدة في الأصل التطوري .

التصنيف encoding والحكم decoding :

لا يتخزن الصوت الإنسان في الذاكرة بذاته ، بل بنوعه . ونود أن نذكر القارئ بما قلناه من قبل عن عملية التجريد التي نجريها في الدراسات الصوتية . وتقتضى هذه العملية تجاهل الفروق الفردية والتركيز على صفات النوع في كل موقع من المواقع (٢١) وقد مثلنا لذلك بالأصوات المختلفة التي نصنفها تحت وحدة / ن / رغم اختلافها من ناحية الأداء بل والتحليل الطيفي .

ويقوم جهاز إدراك المفاهيم والرموز وتخزينها بتصنيف الرموز على هذا النحو . والسؤال الهام هو ما إذا كان الجهاز يخزن الأصوات أو المقاطع أو الكلمات .

الثابت أن الأذن حين تتلقى رسالة صوتية تقوم بعملية عكسية لتلك التي تحدث في الحنجرة والفراغات العليا في جهاز النطق . وهذه العملية الأدائية تتخلص من العديد من الموجات الصادرة عن عمليات الزفير في منطقة أسفل الحنجرة ، وذلك بدفعها إلى الفراغات العليا التي تقوم بعملية ترشيح وتقوية يحدث عنها الصوت اللغوي المركب من حزم أو أحزمة طيفية . أما الأذن فلها تقوم بتحليل هذه الحزم إلى الموجات المكونة لها ، حيث تمر كل موجة بالشعيرات السمعية الحساسة في الجزء المسمى بالقوقعة ، فتظهر الشعيرة التي توافق في الدرجة الموجة وينتج من ذلك تيار كهربائي تنقله الحويوط العصبية إلى خلايا المخ لاخزانه .

ولكن القيام بعملية التحليل هذه لا يعني أن الأصوات ، أو الموجات التي تكونها نخزن باعتبارها وحدات منفصلة مما يمارونها بل إنها تمثل أفراداً الجنس صوتي (صوتي) يحدد اختيار الفرد منها المحيط الصوتي المحيط به . ولناخذ مثالا لتوضيح ما نقول : الفتحة الطويلة التي نسميها بالألف توجد في عدد من مجموعات التجاور منها :

١ - في اللفظ (أمام) يوجد ، ساكن أنفي شفوي + ألف + أنفي شفوي .

في اللفظ (أمان) يوجد ، ساكن أنفي شفوي + ألف + أنفي لثوي .

في اللفظ (لام) يوجد ، ساكن لثوي جانبي + ألف + أنفي شفوي .

(٢١) راجع ص ٨ من هذا البحث .

في اللفظ (إياه) يوجد ساكن أنفى شقوى + ألف + حنجرى انفجارى .

في اللفظ « حنان » يوجد ساكن أنفى لثوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (نام) يوجد أنفى لثوى + ألف + أنفى شقوى .

في اللفظ (آناه) يوجد أنفى لثوى + ألف + حنجرى انفجارى .

في اللفظ (لأن) يوجد لثوى جاتى + ألف + لثوى أنفى

وفي كل نموذج من النماذج المذكورة توجد في الألف صفات خاصه يفرضها المحيط الصوتى الذى توجد فيه ، وبالتالي فإن تحليلها الطيفى سيختلف في كل نموذج عنه في النموذج الآخر . ولهذا فإن الخيوط العصبية لن تنقل نموذجاً طيفياً واحداً ، بل مستقل في حالة المثال السابق ثمانية أشكال طيفية يختص كل منها بأحد النماذج المذكورة .

وبنفس هذه الطريقة يتم اختزان المعلومات في الحاسوب . وعندما يسمع الشخص لفظ (لام) مثلاً فإن الشعيرات العصبية مستقلة إلى المخ صورة طيفية معينة فيراجع المخ مخزناته من الصور الطيفية حتى يجد الصورة المختزنة الملائمة لها في الشكل الطيفى فيحكم بأن هذه الرسالة تمثل الكلمة (لام) . المثال السابق يوضح أن عملية الاختزان تتم مع عملية تصنيف ما تختزن وأن عملية الإدراك تتم بالوصول إلى الحكم بعد مراجعه النماذج المختزنة وملائمة الرسالة لواحد منها . ويجب أن نذكر هنا بأن هذه النظرية لا تزال محل الجدل وأن الأبحاث لا تزال جارية لكشف هذا السر المخبى .



أ - المراجع العربي :

- ١ - عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، القاهرة ١٩٦٨ .
٢ - عبد الرحمن أيوب : الكلام : إنتاجه ومعالجه . نشر جامعة الكويت ١٩٨٤ .

ب - المراجع الانجليزية :

- (3) 'CHOMSKY. N. The Formal Nature of Language APP. A. in Biological Foundations of Language, U.S.A., 1967.
- (4) LENNEBERG E.H. Biological Foundations of Language, U.S.A., 1978.
- (5) LIEBERMAN P. The Biology and Evolution of Language, U.S.A., 1984.
- (6) LURIA. A.R. The Working Brain, Penguin Books. U.K. 1973.
- (7) PAGET. R.S. Vowel Resonances, International Phonetic Association, 1922.
- (8) STEVENS. P. Spectra of Fricative Noise in Human Speech, Speech and Sound, Vol. 3, 1960, PP 32-49.
- (9) — Journal of the Acoustical Society of America, U.S.A.
- (a) P. COOPER F.S. et al. Some Experiments on the Perception of Synthetic Speech Sounds, Vol. 24, 1952, PP 597-606.
- (b) U. DELATTRE. P.C. et al. Acoustic Locs and Transitional Cues for Consonants, Vol. 27, 1955, PP 769-773.
- (c) PETERSON. G.E. and BARNEY. H.L. Control Methods used in a Study of the Vowels., Vol. 24, 1952, PP 175-84.

مقدمة :

حينما يبرز الاتجاه التوليدي Transformational Grammar على مسرح الدراسات اللغوية في منتصف الخمسينيات ، فإن ذلك كان إيذاناً بتحول جذري في مسرح الدراسات اللغوية . لقد عمل هذا الاتجاه على تأسيس مميزات جديدة في البحث اللغوي . وهذه المميزات على اختلاف تفاصيلها يجمعها إطار فلسفي واحد حاول شومسكي Chomsky (صاحب الاتجاه) ومن بعده تلاميذه ومريدهو تأسيسها بعمق . وهذا الإطار يتناول اللغة على أنها نشاط عقلي . يقول شومسكي (Chomsky 1965:4) :

« ان النظرية اللغوية نظرية عقلانية ، حيث انها تعنى باكتشاف الحقيقة العقلية الكامنة تحت السلوك الفعل » .

لقد تغيرت جوانب كثيرة في نظرية النحو التحويل ، وغير شومسكي نفسه الكثير من أفكاره ، وطور جانباً آخر منها ضمن تفاصيل تتخذ سمات منطقية أو سيكولوجية . ولكن الإطار الفلسفي العام للنظرية بقي ثابتاً ، ألا وهو أن طبيعة اللغة هي نفسها طبيعة العقل . ويستتبع ذلك أن هدف الدراسة اللغوية ضمن هذا الاتجاه ينحصر في صياغة النماذج الشكلية للمعبر عن الفدرات العقلية لمستعمل اللغة . وهذه المهمة ممكنة في كل حالة لأن التكلم يستعمل في لغة عدداً عدداً من التراكيب . ودراسة هذه التراكيب المستعملة بالفعل يكون بالامكان التوصل الى مجموعة متناهية من الاحكام التي تصف السلوك اللغوي الصحيح للمتكلم . والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المثبتة منها هو الذي يمكن المتكلم من أنتاج جل لانهائية لها (من الناحية المنطقية على الأقل) . وهذه

الاتجاه الرظيفي ودوره في تحليل اللغة

يحيى أحمد

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الكويت

القواعد نفسها هي التي تمكن المتحدث من الحكم على الجمل التي يسمها أو يقرؤها ، فيرفض ما لا يتفق منها مع قواعد اللغة . وهي التي تعينه على فهم الجمل الجديدة التي يسمها أو يقرؤها لأول مرة . وهي التي تساعد على فهم الجمل الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية في تمثل اللغة .

وقد اهتم الاتجاه التحويلي بإبراز العلاقة بين اللغة والعقل في جانبين آخرين : الأول هو ماسمى بالمظاهر العالمية للغة ، ويمثل هذا الجانب - من جملة أمور أخرى - في الجهاز الفطري الكامن في الانسان والذي يمكنه من اكتساب اللغة . ويمثل الجانب الثاني في فكرة البناء العميق . فها دامت اللغة هي عمل العقل ، فمعنى ذلك أن هناك دائما عوامل تكمن تحتها . هذه العوامل هي عبارة عن الأشكال اللغوية المجردة المخزنة في عقل الإنسان . ومن المعروف أن هذه الأشكال اللغوية تجمعها قوانين هدفها الربط بين الصوت والمعنى . وقد أعطيت القواعد التحويلية - transformational rules مطلق الصلاحيات لأجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة إلى بنائها السطحي : الشكل المنطوق أو المكتوب .

إن الذي يحسننا من هذه المقدمة هو أن نخلص إلى أن نظرية النحو التحويلي قد جعلت النحو عملية ميكانيكية تتحقق عناصره بشكل آلي حينما تنبع القواعد الموضوعية لإبتداء تلك العملية . ولم تعط النظرية أى تبرير وظيفي لحدوث التحويلات في مراحل مختلفة من توليد الجملة . لقد أخرجت من الاعتبار الظروف النفسية التي يكون فيها التكلم ، كما أهملت إصمالة تاما مسألة السياق الذي يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقلي .

وقد برزت نظريات واتجاهات لغوية متعددة تحاول أن تفسر طبيعة اللغة من زوايا مختلفة . ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفي الذي ينف على الطرف النقيض للاتجاه التحويلي . وتستولي في هذه الدراسة بيان أسس الاتجاه الوظيفي ونظريته البراهمية إلى اللغة ، مع التركيز على جانب يبدو مهما لنا ألا وهو انعكاس النظرة الوظيفية على كيفية تحليل اللغة . ولذلك فقد حرصت على أن أضمن المقالة الجانب التحليلي حتى لا يكون السرد مجرد حديث نظري . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية اضطررت إلى استخدام مجموعة مصطلحات عربية هي في أغلبها ترجمات مقترحة منى شخصيا ، ولذلك رأيت من المناسب أن أردف كل مصطلح عربي بمرادفه الأجنبي لكي يكون القارئ المتخصص على بينة بالأفكار التي أعتمدت عليها .

والبحت يبدأ بتعريف الاتجاه الوظيفي وبيان خصائصه المميزة ، ثم يعرض للمدارس الوظيفية المعاصرة مبيهاً منهاجها وأفكارها من خلال تطبيقها على اللغة العربية في حدود ما تسمح به الساحة . وأخيرا يتوقف عند التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي :

ما هو المقصود بالاتجاه الوظيفي ؟

الاتجاه الوظيفي مدرسة من مدارس الفكر اللغوي المعاصر ، وهو يعنى بكيفية استخدام اللغة وبالقمية الاتصالية للغة^(١) . فاللغة في نظر هذا الاتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل الى أهداف وغايات . وإذا أردنا أن نبحت عن صبغة منهجية يمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفي فإن ذلك يتمثل في السؤال التالي : لماذا نستعمل اللغة ؟ وقد لاحظنا فيما سطرناه في المقدمة أن المد اللغوي الذي اكتسح حفل الدراسات اللغوية في الستينيات والذي يتمثل في نظرية شومسكي العقلانية قد اهتم بمجموعة العلاقات الرياضية المفسرة لميكانيكية اللغة ، وليس بوظيفة اللغة في البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعاني .

والجانب الوظيفي للغة ليس شيئا منفصلا عن النظام اللغوي نفسه . فتداخل الأدوار roles والمشاركين participants في النظام النحوي حسب نمط معين (كما سيمر بنا) في كل لغة مرتبط ارتباطا مباشرا بالوظيفة التي تؤديها الجمل في السياقات المختلفة . ويزيد هاليدي (Halliday 1973:23) هذه النقطة توضيحا بقوله :

« إذا كان بإمكاننا أن نغير مستوى الرسمية formality في كلامنا أو كتابتنا ، أو أن نتنقل بحرية من نمط سياتي معين إلى نمط آخر ، فستعمل اللغة تارة لتخطيط نشاط منظم ، وتارة لإلقاء محاضرة عامة ، وتارة لتعبير شئون الأولاد ، فلأن طبيعة اللغة على شكلة بحيث إن جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقاتها الاستيعابية الكلية » .

وبذلك فإن الاتجاه الوظيفي يربط بين النظام اللغوي وكيفية توظيف هذا النظام لإداء المعاني . ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر .

المظهر الأول الخيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة في الأبنية والتركيب المختلفة الموجودة في لغته . أن كل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة لأنه يمكن التكلم من تنظيم كتل المعلومات طبقا لظروف الكلام . فالجمل التالية مثلا :

- ١ - استقبلت الأوساط الأدبية نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٢ - استقبل نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٣ - الأوساط الأدبية استقبلت نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٤ - نجيب محفوظ استقبل نبأ حصوله على جائزة نوبل ببالغ السرور .

تؤدي وظائف مختلفة لأن كل واحدة منها تقترب بسياق مختلف وتستعمل في ظروف مختلفة . وانطلاقا من هذا الفهم ، فإن هذه الجمل الأربع لا تعتبر مترادفة لأن كل واحدة منها تركز على جانب معين من الحدث ، وبذلك فإن لكل

(١) كريد من التفاصيل لفر هاليدي (Halliday (1973: 22

واحدة منها قوة تعبيرية متميزة مستمدة من الدور الذي يؤديه كل أسلوب في الحياة الاجتماعية . ولنتذكر هنا أن الاتجاه التحويل يعتبر الجمل (٢) و (٣) و (٤) مجرد صياغات تعبيرية متفرعة عن الجملة الرئيسية ، ويمكن التوصل إليها بتطبيق القواعد التحويلية على الجملة رقم (١) . وأما التأويل الدلالى الذى يرتبط بهذه الجمل فهو واحد في جميع الأحوال .

المظهر الثالث هو أن جلور اللغة تمتد الى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها . فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة : التراث والمعادن والتقاليد . ان الظواهر الاجتماعية التى يرتبط بها الفرد بحكم انتمائه الى مجتمع متفرض عليه سلوكا لغويا معينا . ويظهر ذلك بوضوح في أساليب التخاطب التى يتبعها الفرد في المواقف المختلفة . فالتحدث الى رئيس الدولة وإلى زميل في العمل وإلى فراش في دائرة العمل لا يتخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة ، وإنما نجد أن الأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن الكلام يعكس الحلفية الاجتماعية والثقافية للفرد . ولذلك فوصفنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدب أو كلام وقح يعتبر وصفا جماليا أخلاقيا نابها من اعتقاداتنا الاجتماعية . ان البنية الاجتماعية تنعكس في التركيب اللغوية التى نستعملها . ونجد هذا الانعكاس كذلك في المصطلحات الدالة على صلة القرابة وفي مصطلحات الألوان والتعبيرات المشتقة منها . ونجدها فوق كل ذلك في المستويات الأسلوبية registers . واللكنة التى يتحدث بها الشخص تعكس مظهرها اجتماعيا . حينما نسمع لكنة الصعيدى وهو يتحدث باللهجة المصرية ، أو لكنة البدوى وهو يتحدث باللهجة الكويتية نستطيع أن نفرق مباشرة أن هذا الشخص ينتمى الى شريحة اجتماعية معينة . والتفهم كذلك يرتبط بهذا الجانب ارتباطا واضحا ، بحيث إنه بإمكاننا أن نتعرف على الفئة الاجتماعية التى ينتمى إليها الشخص وذلك من خلال طريقة تحدثه .

المظهر الثالث تضافر العناصر ، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تساهم في أداء الفكرة التى يريد المتكلم توصيلها . والأمر هنا يشبه عمل السلك الكهربائى . فالسلك الكهربائى الواحد يتكون من مجموعة أسلاك شعيرية دقيقة . ولا نستطيع عندئذ أن نقول ان سلكا بعينه من هذه الأسلاك الدقيقة مسئول عن توصيل الكهرباء . فهذه الوظيفة تقوم بها هذه الأسلاك الدقيقة كلها مجتمعة . وهكذا الأمر بالنسبة للغة . فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغوى بأداء الوظيفة . فالرحلة الصوتية - مثلا - تستطيع أن تؤدى وظيفة من خلال وحدات صوتية أخرى تشكل الكلمة ذات الدلالة المفيدة في المعجم ، والكلمة بدورها تؤدى وظيفتها ضمن نظام نحوى .

إذن فالالاتجاه الوظيفى يتميز من بين الاتجاهات الأخرى في الدراسات اللغوية بأنه يربط اللغة بالوظيفة التى تؤدىها من جانب ، وبالبيئة الاجتماعية وتضافر العناصر من جانب آخر . والتحليل اللغوى الوظيفى يكون من منظور يهدف الى بيان الوظائف التى تؤدىها اللغة في البيئة اللغوية . أما الإطار النظرى الذى يتم من خلاله التحليل فهو مصمم لأداء هذا الغرض العام . ولذلك لا يحفل الوظيفيون بجدلية النظرية اللغوية وإلى أى حد تتمثل فيها الكفاية الوصفية de-scriptive adequacy والغاية التفسيرية explanatory adequacy فالنظرية ليست هدفا وإنما هى إطار يتم من خلاله الكشف عن الخيارات المتاحة أمام المتكلم . يقول هاليدى في مقلمة كتابه « مقلمة في النحو الوظيفى » (Halliday 1985:19) :

« إننا لسنا بحاجة إلى نظرية متخصصة إلى حد كبير بحيث يستطيع المرء أن يفعل القليل بها » .

ويقول في الصفحة الثامنة من المقدمة نفسها :

« إن الكلام المنطوق يحتاج إلى شكل مرن وليس إلى بناء جامد من التمثيل الشكل » .

ونجد هذا المحي واضحا عند لغوي مدرسة براغ الذين أجروا تحليلاتهم من خلال « مفاهيم وظيفية » وليس من خلال نظرية بالمعنى الذي نجده عند التحويليين أو البنائيين الأمريكيين . ونجد أكثر وضوحا عند المتأخرين من الوظيفيين أمثال دل هايمز Del Hymes الذي نلاحظ على منهجه أنه عبارة عن مقترحات إجرائية أكثر مما هو نظرية .

المدارس الوظيفية المعاصرة :

توجد ضمن الاتجاه الوظيفي العام مدارس متعددة ، تختلف في تناوُلها للمظاهر المدروسة من حيث عمق التحليل ومن حيث التركيز على التفاصيل المتعلقة بالظاهرة . وعلى الرغم من التباعد الزماني والفضائي بين هذه المدارس إلا أنه يجمعها تصور واحد تجاه طبيعة اللغة : فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة وللتأثير على الآخرين .

وسأحاول فيما يلي أن أقدم للقارئ العربي صورة شاملة لمضمون أفكار المدارس الوظيفية . وسيجد القارئ أن بعض الأفكار التي سيرد ذكرها من الممكن تتبع جذورها في الفكر البلاغي العربي أو مقارنتها بأفكار البلاغيين العرب الناجين . ولكن الهدف المرسوم لهذه المقالة يجعلني أجتنب الخوض في هذا الجانب .

مدرسة براغ :

في حوالي سنة ١٩١١ ألقى ماثيسوس Mathesius (١٨٨٢ - ١٩٤٥) محاضرة مهمة حول اسماءه (ب) خصيصا للغة (characterology of language) وقد قال باكسون عن هذه المحاضرة إنها لو كانت قد أُلقيت في مكان آخر غير براغ ، في موسكو مثلا ، لأحدثت ثورة حقيقية في الدراسات اللغوية عندئذ (٣) ولذلك لم تكن أفكار ماثيسوس معروفة لدى الأوساط اللغوية حتى انعقد الاجتماع الأول للمدرسة براغ في أكتوبر ١٩٢٦ ، وكان ذلك بمثابة من ماثيسوس نفسه . وبعد انتهاء جلسات الاجتماع ، اتفق المجتمعون على الالتقاء بصفة دورية ضمن « حلقة براغ اللغوية » . وابتداء من هذه الفترة تجمع حول ماثيسوس مجموعة من المهتمين بالدراسات اللغوية . وقد عرف هذا التجمع فيما بعد باسم (مدرسة براغ) .

(٢) انظر لي تلك (1966: 5) vachek .

وقد ضم التجمع عددا من اللغويين الأوكرانيين والألمان والروس والسلافيين ممن لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا . فالتسمية إذن لا تشير إلى المحلية ، ولكنها تستخدم مستخدما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التي تميزت بها هذه المدرسة في التحليل اللغوي ألا وهي النظرة الوظيفية .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تأثر نشاط مدرسة براغ تأثرا بالغا ، حيث أغلقت القوات الألمانية التي احتلت تشيكوسلوفاكيا جميع الجامعات فيها . وشهد عام ١٩٣٩ موت أحد أبرز أفراد المجموعة وهو ترويتسكوى^(٣) . وفي تلك الفترة ونتيجة لظروف الحرب ، اضطر رومان ياكسيون أن يهرب من الحكم النازي ، فرحل إلى الدنمارك ، ثم النرويج وأخيرا حط الرحال في الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل نهاية الحرب بفترة قصيرة ، أي في الثاني عشر من أبريل ١٩٤٥ توفى مؤسس المدرسة ورائدها الأول مائيسوس . وأدت كل هذه الأمور إلى تشتت أفراد المدرسة .

ويعد استتباب الأوضاع وفي بداية الخمسينيات حاولت الأوساط الأكاديمية في بعض الجامعات التشيكية إحياء المذهب لمدرسة براغ ولكن من خلال مسميات جديدة مثل (الرابطة اللغوية) Linguistic Association و (جماعة علم اللغة الوظيفي) The Group for Functional Linguistics وقد ضمت هذه التجمعات أفرادا نشيطين واصلوا الكتابة ضمن الإطار الفكري للمدرسة ، وأعادوا نشر النورية المشهورة التي كانت تصدر باسم المدرسة والمسمى « Travaux de Linguistique de Prague » .

« إن السمة البارزة للغوي مدرسة براغ هي نظرتهم إلى اللغة في إطار الوظيفية . وأعطى بذلك ليس فقط أنهم نظروا إلى اللغة ككل على أنها تستخدم غرضا ، فهذه حقيقة معروفة وهي وحدها لا تميزهم عن غيرهم . بل القصد أيضا أنهم كانوا يحللون اللغة المعنية من خلال وجهة نظر تهدف إلى أن تبين لنا الوظائف الخاصة التي تؤديها الأبنية المختلفة في استخدام اللغة ككل . وهذه النظرة عيّزت مدرسة براغ تميزا واضحا عن معاصريهم من اللغويين الأمريكيين (وتميزهم بوضوح كذلك عن التحوليين) الذين نظروا إلى النحو على أنه يتكون من مجموعة من العناصر » . (Sampson 1980:103) .

من معالم مدرسة براغ المهمة اهتمامها بقضية المعنى . ولكي نعرف أهمية هذا الجانب فإنه من المفيد أن نذكر في هذا السياق أن الاتجاه البنائي المتمثل في كتابات بلومفيلد وغيره من اللغويين الأمريكيين ، قد ربط المعنى بعنصري المثير ورد الفعل . أي أن تحليل المعنى يكون بأن نبين نوع المثير الذي يولد رد فعل معنا والمتمثل في العبارات التي ينطق بها المتكلم ، وأن نبين رد الفعل السلوكي الذي يحدثه المتكلم باعتباره مثيرا . فمستعمل اللغة قد يمثل عنصر الاستجابة أو

(٣) نيكولاي ترويتسكوي Trubetzkoy (١٨٩٠ - ١٩٣٨) واحد من أعضاء مدرسة براغ الذين لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا ، فهو ينتمي إلى أسرة من علماء روسيا . كان والده أسكنا للغة ، وأصبح مهترا بجامعة موسكو . وقد درس ترويتسكوي اللغات الهندية - الأوروبية ، وأصبح تدريجيا تدرّس في جامعة موسكو عام ١٩١٦ . وسجنا بدلت الفكرة البنائية ، هرب الأمير ترويتسكوي إلى روسيا ، ثم بعد ذلك إلى فيينا حيث أسست إليه رئاسة قسم الدراسات السلافية في جامعة فيينا عام ١٩٢٢ . ثم أصبح بعد ذلك عضوا في مدرسة براغ (تبعه براغ من فيينا سنة ١٩٣٠ م) . وفي ترويتسكوي في فيينا حتى توفي في عام ١٩٣٨ أثر فزا قلبية ، وذلك نتيجة لاستجواب قوات الجيوش له ، حيث كُفّ ترويتسكوي من مناصبه الفقية . انظر (Sampson 1980: 107) .

رد الفعل حينها يكون متلقيا ، وقد يمثل عنصر المثير حينها يكون مرسلا . ان اتخاذ الاتجاه البنائي لهذا الإطار النفسى الضيق للتفسير الدلالي كان بسبب تأثره بأفكار مذهب من مذاهب علم النفس يعرف بالسلوكية Behaviourism ، وهو مذهب يفسر السلوك الإنسانى حسب الأفعال الظاهرة والتي هي عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية في البيئة . ويذهب الى أن خصوصيات ومحتويات العقل يمكن النفاذ إليها عن طريق الاستبطان . ولذلك فإن قضية المعنى تشكل نقطة ضعف في الاتجاه البنائى ، ولم تعط حقها من الاهتمام .

والملاحظ أن تحليل مدرسة براغ للمعنى لم يتخذ معنى المنطق الوضعى أو المنحى التجريدى الذى يفصل المعنى عن الاستعمال اللغوى ، وإنما اتخذ منحى وظيفيا . وهذا واضح في أن ماسموه بالمحتوى الدلالي semantic content يرتبط من جانب بمستويات لغوية أخرى كاللستوى النحوى والمستوى الأسلوبى ، ومن جانب آخر بحقائق العالم الخارجى ، بما في ذلك مشاعرنا تجاه هذا العالم . (راجع 1966:34 Vachek) فهناك حقيقة مهمة حول عملية الاتصال اللغوى ينبنى أن نذكرها ألا وهي أن المتكلم حينها يوجه خطابه الى السمع فإنه لا يريد فقط أن ينقل إليه بعض الحقائق ، ولكنه يريد أيضا أن ينقل إليه مشاعره تجاه الحقائق . إن العبارات المنطوقة تكون دائما مغلفة بمشاعر الفرد . وذلك بحكم انتمائه الى بيئة اجتماعية تروج فيها شتى المعطيات والتشعيرات . وقد فهم لنمو مدرسة براغ أن ربط محتوى الكلمة بالحقائق الخارجية يمثل وظيفة اللغة في المجتمع . وسنجد أن مدرسة لندن قد وظفت هذه الفكرة توظيفا مثاليا من خلال نظرية سياق الحال .

التطور الوظيفي للجملة :

سأعرض فيما يلي بتفصيل أكثر للنهج الوظيفي لمدرسة براغ من خلال التحدث عن مجالات الدراسة اللغوية التى ساهمت فيها مدرسة براغ مساهمات مميزة : النحو والدلالة^(١) .

تعتبر مقالات ماثيوسوس في تحليل الأبنية التركيبية للانجليزية والتشبيكية نقطة البداية لنمط من التحليل سماه ماثيوسوس نفسه « التطور الوظيفي للجملة » .

Functional Sentence Perspective ولكي نتضح لنا طبيعة هذا المصطلح ، فإنه من المفيد أن نذكر هنا أن اللغة في منظور مدرسة براغ لها ثلاثة مستويات هي :

١ - المستوى النحوى (ويندرج فيه الصرف كذلك) .

٢ - المستوى الدلالي .

٣ - المستوى الكلامي Organisation of utterance .

(١) لن يتسع المجال هنا للمطرق الى الأفكار الوظيفية لمدرسة براغ حول الوحدة الصوتية واللامع الصوتية للبيئة . ويمكننا القول أن أحد تلميذة جيدة لبعض تلك الجوانب لي

كتاب (أحمد خمار عمر . ١٩٧٦) .

والمستوى الأخير يبين كيف يتفاعل المستوى النحوي والمستوى الدلالي في عملية الاتصال اللغوي^(٥) . وضمن نطاق هذا المستوى الثالث برزت فكرة المنظور الوظيفي للجملة . ويقوم هذا التحليل على أساس القيمة الاتصالية للغة . ان اللغة تستخدم كوسيلة تعبيرية تأثيرية . وهي ليست شيئاً مجرداً عن الواقع الذي توجد فيه ، بل ان وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع . والمنظور الوظيفي للجملة ينظر الى الجملة على أنها تتكون من شقين : الأول ويسمى المسند theme ، والثاني ويسمى للمسد إليه^(٦) rheme .

والأمثلة التالية توضح كلا من الشقين :

| و المال والبئون | | ؤية الحياة الدنيا | |
|-----------------|-------------|-------------------|-------|
| المسند | | المسند اليه | |
| يمكن | أعني | من الدفاع عن | للتهم |
| المسند | المسند اليه | | |
| يريد | الله | بكم | اليسر |
| المسند | المسند اليه | | |

ويأت المسند - في الغالب - أولاً ثم يعقبه المسند اليه . هذا هو الترتيب المتبع حينما يكون نسق الجملة عابداً . والنسق المحايد هو الترتيب المتألف لأجزاء الجملة في الاستعمال العادي ، أي الاستعمال الذي يراود به مجرد الاختبار أو الاسناد . أما حينما يريد المتكلم أن يجلب انتباه السامع الى عنصر معين في الجملة ، أو أنه يريد التركيز على عنصر معين لأنه يمثل في نظره زبدة الحديث اللغوي ، فإنه يلجأ عندئذ الى غرق هذا النسق الطبيعي .

| و الله | | يدعو الى | |
|--------|-------------|------------|------|
| المسند | | دار السلام | |
| أعبرك | أعبرن | بذلك | بذلك |
| المسند | المسند اليه | | |

(جواباً للسؤال : من أعبرك بذلك ؟) .

(٥) راجع في ذلك مقال داتش (1966: 225) Dimes . وهل الرمز من الاسم للغة الى دله للمعنىات لأن في معنى منها لا يمكن فصله عن بقية المعنىات ، لأن اللغة ذات طبيعة معقدة . ولكن لثمي وراغ فسر بأن تحديد للمعنىات ضروري للبحث من حقائق اللغة .
(٦) استعملني اصطلاح المسند والمسند اليه مستجماً من حيث الاستعمال وليس للمعنى مع استعمال سيويه لها . فلي الجملة الاسمية يختار الجند مسندا والمجر مسندا اليه : (لايتبدأ مسند والمجر عليه مسند اليه) (الكتاب ٧٨ / ٢) . وفي الجملة الفعلية يكون الفعل مسندا والمفعول مسندا اليه . ولقد أن كنت نظر الفارابي الى أمرين يمتثلان بهذين المصطلحين . الأول : أن جوهر النحوة استعملوها على خلاف ما أشار اليه سيويه . الثاني أن سيويه ومن جاء بعده من النحاة قد استعملوا المصطلحين للإشارة الى اعتبارات نحوية ، ولكن استعمالهما هنا للإشارة الى شيئين (١) عنصر المعلومات في الجملة (ب) معنى ما للوحدة من ديدانية في الاتصال اللغوي . وسيورد شرح ذلك في نص المقالة . انظر كذلك لمخافة رقم (٨) .

وفيا يل مثالان توضيحيان آخران يعبران عن فكرة واحدة ، لكن الفرق بينها هو في مجال التركيز ، وسنجد أن توزيع المسند - المسند اليه يعكس هذا الفرق :

| وصل | الولد الرياضي الصبي | الى البلاد ليلة أمس |
|--------|---------------------|---------------------|
| المسند | المسند إليه | |

(جوابا للسؤال / ماهي أخبار الولد الرياضية ؟)

| وصل | الولد الرياضي الصبي | الى البلاد ليلة أمس . |
|--------|---------------------|-----------------------|
| المسند | المسند إليه | |

(جوابا للسؤال : أي ولد وصل الى البلاد ليلة أمس ؟)

إن تحديد موضع المسند في الترتيب المحايد ينبع من الحقيقة المعروفة وهي أن المرء يبدأ كلامه بالمعلومات المعروفة لدى المتكلم أو التي سبقت الإشارة إليها أو التمهيد لها في السياق . ثم يضيف بعد ذلك للمعلومات الجديدة التي يظن أنها كفيلة بإثراء القارئ أو السامع . ولكن مفهوم المسند والمسند إليه لا ينحصر في هذا النطاق من الفهم الابتدائي . فالواقع أن اللغويين الذين جاءوا بعد ماثيوس قد طوروا هذا المفهوم . ومن أبرز هؤلاء اللغويين جان فرباس Jan Firbas . يتخذ فرباس « المنظور الوظيفي للجملة » أساسا للتحليل ويحدده بوضوح (Firbas 1959:39) على النحو التالي : « المقصود بالمنظور الوظيفي للجملة هو ترتيب عناصر الجملة بالنظر إليها في ضوء السياق الفعلي » . ويقدم مفهوما وظيفيا جديدا يسميه « دينامية الاتصال » Communicative dynamism ، وهي خاصة من خاصيات الاتصال تتجلى في سياق تنمية المعلومات التي يراد التعبير عنها^(٧) . ذلك أنه في عملية الاتصال اللغوي تتعدد العناصر التي تدخل في تكوين الجملة ، وهذه العناصر لها امكانية متفاوتة في إثراء معلومات المستمع : فبعضها يجتري على معلومات يعرفها المستمع بالفعل (أو يمكن استعادتها من خلال السياق) ، وبعضها يجتري على معلومات جديدة . وحينما ننظر إليها من هذه الزاوية نجد أن قدرتها على تحريك الحدث الكلامي متفاوتة ، وهذا انعكاس للطبيعة الديناميكية لعملية الاتصال اللغوي .

وطبقا لمفهوم « دينامية الاتصال » فإن هناك ثلاث وحدات وظيفية في الجملة : المسند وهو ينقل أقل درجة من دينامية الاتصال . المسند إليه وهو ينقل أعلى درجة من دينامية الاتصال . وبعد هاتين الوحدتين أو قبلها أو بينها تأتي الوحدة الانتقالية ، transition وتكون غالبا من العناصر الإضافية (الظرف ، الحال) أو العناصر التي نحتاج إليها

(٧) راجع فرباس من المقاميل ملحة فرباس (Firbas 1971) ص ١٣٦ لما يحد .

لاستقامة الجملة نحوياً (أدوات النسخ ، أدوات الشرط الخ)^(٨) . وهنا نرى أن تحديد المسند - المسند إليه يكون على أساس وظيفتها في الاتصال اللغوي ، بينما التحديد السابق كان يرتبط بينها بشكل ما بعنصر المعلومات . ولكي نتكهن من تحديد هذه الوحدات في الجملة ، فإنّه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الثلاثة التالية :

- ١ - نبيق الجملة ، أى كيفية ترتيب الأجزاء فيها .
- ٢ - السياق العام للحدث اللغوي .
- ٣ - السياق الدلالي الخاص للجملة (البنية الدلالية) .

وهذا يبين لنا أن ديناميّة الاتصال ليست نظاماً منفصلاً ، ولكنها وليدة عدة عوامل مجتمعة . والجمل التالية توضح هذه الوحدات :

السياق : أين رمى الفراش الأوراق ؟

| الجملة : في سلة المهملات | رمى | الفراش | الأوراق |
|--------------------------|------|--------|-----------|
| مسند إليه | وحدة | مسند | مسند إليه |
| انتقالية | | | |

السياق : هل جميع الناس ظالمون ؟

| الجملة : والظلم | من شيم النفوس | فإن تجد |
|-----------------|---------------|---------------|
| مسند | مسند إليه | وحدة انتقالية |

| الجملة : لا يظلم | للملة | ذا عفة |
|------------------|---------------|-----------|
| (المتني) | وحدة انتقالية | مسند إليه |

السياق : هل تصدق أنني نسيت أن أغلق باب شقتي ليلة أمس ؟
- وماذا حدث ؟

الجملة : دخلت قطة صغيرة داخل المطبخ .
المسند إليه

(٨) لقد وضعت في الحاشية رقم (٨) أن مصطلحي المسند والمسند إليه سيستخدمان بمفهوم جديد . ولكي لا يكون هناك لبس في ذهن القارئ، لفتي أن أكثر أن البلاطين العرب يقسمون الجملة الفعلية إلى ركبتين أساسيتين : المسند (وعنده الفعل) والمسند إليه (وعنده الفاعل) . ويقسمون الجملة الاسمية كذلك إلى ركبتين : المسند إليه (وعنده المبتدأ) والمسند (وعنده الخبر) . وقد استخدم البلاطون العرب مصطلح (صغلة الاسد) للتعبير عن كل ما عدا المسند والمسند إليه . أي أن البلاطين العرب يربطون في الفرمعة بين المسند والمسند إليه والتركيب النحوي لعناصر الجملة (بين المسند إليه وتركبه فاعلاً ، وبين المسند وتركبه مفعلاً ومفعلاً) . ولكن الواضح من استعمالنا هذا أن هذا الربط غير ممكن ، لأن ترتيب المسند - المسند إليه والترتيب التصوري مستويان مختلفان من التسلسل في تظاير الواقع .

ولكن معنا النظر في هذه الجمل الثلاث لوجدنا أن تعيين عناصر دينامية الاتصال يتحدد على أساس السياق . فالسياق هو الذي يحدد لنا ما إذا كان أحد عناصر الجملة شيئا معلوما أو شيئا جديدا هو عبارة عن الإضافة التي يريد المتكلم أن يوصلها إلى السامع . ولو أعدنا قراءة الجملة الأخيرة لوجدنا أنها تشكل بأكملها للمعلومة الجديدة التي يريد المتكلم أن يثير السامع بها . ولذلك فكل العناصر فيها تحمل درجات عالية من دينامية الاتصال . وهنا نجد أن الحقائق الخارجة عن الأطار التركيبي للغة لها دخل في التعرف على المعنى .

وفي الجمل المتعدية نجد أن « المفعول به » يمثل الهدف أو نتيجة الحدث (الذي يعبر عنه فعل الجملة) ، ولذلك فالمفعول به يحمل - في الظروف العادية - درجة من الدينامية هي أعلى من درجة الفعل . وتعليل ذلك أنه من وجهة النظر الوظيفية فإن الهدف (أو النتيجة غير المعروفة) يعتبر أهم من الحدث نفسه .

ومن عناصر السياق الدلالي الخاص للجملة في المنظور الوظيفي استخدام أداة التعريف . فالكلمة المعرفة بأداة التعريف غالبا ما تحمل درجة متدنية من الدينامية وذلك على افتراض أن أداة التعريف تشير إلى شيء معهود أو معروف لدى المستمع . فحينئذ نقول :

وصلت الرسالة أمس
مسند

ونسند إلى (الرسالة) وظيفة المسند . فهذا يعني أن المتكلم كان قد أتى على ذكر الرسالة في فترة سابقة ، أي أنها تشير إلى شيء معلوم . ولكن هذه ليست وظيفة ثابتة لأداة التعريف ، وأغنى أنها لا تستخدم دائما بهذه الكيفية . فمع تضافر العوامل الدلالية والسياقية فإن أداة التعريف قد تقترب بالمسند إليه وذلك على نحو ما هو موضح في المثالين التاليين :

السياق : هل جميع الطلبة الذين تدرّسهم حاليا ضعفاء في اللغة ؟

| الجملة : كلا الطالب المستجد | على وجه الخصوص | يعاني من ضعف في اللغة |
|-----------------------------|----------------|-----------------------|
| المسند إليه | المسند | وحدة انتقالية |

السياق : أين ضاع قلمك ؟

| الجملة : ضاع | قلمي | في المكتبة |
|---------------|------|------------|
| وحدة انتقالية | مسند | مسند إليه |

فالمسند إليه هنا يقترب بما يشكل المعلومة الجديدة في الرسالة اللغوية وذلك على الرغم من ارتباط هذا المسند إليه بأداة التعريف . على أنه من الواضح ، كما اتبه إلى ذلك فرباس (Firbas 1966:248) أن الوظيفة الأساسية لأداة

التعريف هي أن تبين أن الاسم معروف من حيث الإشارة ، وهي لا تستطيع وحدها أن تحمل الاسم أكثر دينامية . وإذا وجدنا اسماً معروفاً يؤدي وظيفة المسند إليه فهذا راجع إلى وجود عوامل أخرى والتي يعتبر السياق من أهمها .

لقد رأينا كيف يساهم نسق الجملة من جانب والسياق من جانب آخر في توضيح عناصر دينامية الاتصال . وحينما نتعامل مع الجملة بهذه الكيفية فإن بالامكان التعرف على تركيبة المعلومات ومنهجية توالفها بشكل أكثر تفصيلاً . من الممكن عندئذ أن نتحدث عن « المسند الصريح » Theme proper ، وهو المنصر الذي يجعل أدنى درجة من درجات الدينامية . « والمسند إليه الصريح » retheme proper ، وهو يجعل أعلى درجة من درجات الدينامية . (انظر مقالة فرباس 1971 Firbas) . وفي الجملة التالية نجد أن الضمير يعود إلى شيء معروف قد سبق ذكره في السياق ، ولذلك فقدورته على إثراء معلومات القاريء ضئيلة جداً ، ويصنّف في سلم الدينامية على أنه مسند صريح . .

السياق : أين وجدت المحفظة ؟

| الجملة : وجدتها | في الطريق |
|-----------------|-----------|
| مسند صريح | مسند إليه |

أما في الجملة التالية فهناك عنصران يحملان دينامية عالية ، ولكن الواضح أن أحدهما أكثر فعالية من حيث أهميته في الحدث اللغوي .

السياق : من الذي أيد صحة تلك الأنباء ؟

| الجملة : (أيد صحة تلك الأنباء) | مصدر دبلوماسي عربي | رفع المستوى |
|----------------------------------|--------------------|----------------|
| مسند | مسند إليه | مسند إليه صريح |

إن الصورة التي رسمناها حتى الآن توضح لنا أن توزيع درجات دينامية الاتصال في الجملة هو حصيلة تضافر ثلاثة عوامل هي : السياق ، نسق الجملة ، والبنية الدلالية . أما المجال الذي تتوزع خلاله دينامية الاتصال فهو الحدث الكلامي بأكمله . وقد يقتضي ذلك تقسيم الكلام إلى فقرات والفقرات إلى جمل وهكذا (راجع : 1971 Firbas) (138)

وقد يتبادر إلى الذهن أن تحليل فرباس تحليل ذوقي انطباعي وليس تحليلاً مبنياً على قواعد مقننة . والواقع أن فرباس ، شأنه شأن سائر لغويي مدرسة براغ ، لم يكن يميل إلى التفتين الجامد للمظاهر الوظيفية للغة . والواضح في مسلك مدرسة براغ أنها لم تتحمل بالتفتين أو بجعل الدراسة اللغوية دراسة علمية ، كما كان الشأن لدى المدرسة الأمريكية . فقد كان اهتمام مدرسة براغ منصبا بوجه خاص على الكيفية التي تزود بها اللغة المتكلم بعدد من الأساليب والطرائق التعبيرية مناسبة لطروف اجتماعية مختلفة (راجع : 1980: 27 Sampson) . والجانب الانطباعي أو

الشخصي أمر لا مفر منه في التعامل مع لغة النص ، أو اللغة التي نستعملها كوسيلة اتصال ، لأن مجال التحليل في هذه الحالة أوسع من مجال تحليل الجملة نحويًا . ومع ذلك فإن فرياس لم يترك الأمر للذوق وحده ، بل إن زودنا بالجوانب النظرية الكثيفة بمساعدتنا في تحديد العناصر التي تساهم في تشكيل الجمل أثناء عملية الاتصال .

مدرسة لندن :

إن الجانب الواضح الذي يميز مدرسة لندن هو تأثير الاعتبارات العملية في سير الدراسات اللغوية في بداياتها الأولى . فقد كانت حدود الامبراطورية البريطانية تشمل مساحات شاسعة من المستعمرات في آسيا وأفريقيا . وقد استدعى هذا الوضع التفكير في كيفية وصف أصوات اللغة الانجليزية وقواعدها لكي يسهل على الأجانب تعلمها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد كانت لتلك المستعمرات لغاتها المحلية الخاصة بها ، بل إن بعض المستعمرات كانت تسود فيها أكثر من ثلاث لغات رئيسية . وبرزت نتيجة لذلك مسألة إيجاد طرق لكتابة اللغات وشرح قواعدها ، وخاصة اللغات المحلية واللغات غير المدونة على نطاق واسع . ومن اللافت للنظر أن مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية School of Oriental and African Studies ، وهي كلية من كليات جامعة لندن ، أنشئت عام ١٩١٦ لخدمة الامبراطورية البريطانية في دراسة لغات المستعمرات وثقافتها وتدريبها لرجال الحكومة . ومن هذا المنطلق فإن دراسة اللغويين الانجليز للغات الأفريقية والآسيوية تختلف عن دراسة اللغويين الأمريكيين للغات الهندية - الأمريكية ، وذلك ليس فقط في أسلوب الدراسة والمصطلحات المستعملة ، ولكن أيضا في الهدف العام للدراسة . فاللغات الأفريقية والآسيوية لم تكن على وشك الانقراض كما كانت كذلك اللغات الهندية - الأمريكية . ولذلك فلم تكن هناك ضغوط تستدعي لأن يفكر اللغويون الانجليز في ابتداء وسائل اجرائية لتدوين اللغات بوصفها قبل أن تفرس . وذلك يعني ، كما أشار سامبسون (215 : Sampson 1980) ، أنه بينما شعر الوصفيون الأمريكيون بالحاجة الى تطوير وسائل استكشاف آلية للغات التي كانوا يصفونها ، فإنه كان يمكن فريث وزملائه أن ينشغلوا ببناء جوانب نظرية .

وفي مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية تطورت الدراسات اللغوية ونمت على يدي فريث J.R.Firth (١٨٤٥ - ١٩١٢) والذين تعلموا على يديه أو عملوا معه . وكان فريث قد عين في عام ١٩٤٤ أستاذًا لعلم اللغة العام في تلك الكلية . ويعد بذلك أول أستاذ يعين في هذا المنصب في الجامعات البريطانية . وقد تركزت كتابات فريث في المعنى والأصوات . أما من جماعه بعد فريث ، أو الذين يطلق عليهم « الفريثيون الجدد » neo Firthians فقد توسعوا في هذين الجانبين وتطرقوا كذلك الى مجال المفردات والنحو ، كما سيمر بنا . وقد اتخذت كتاباتهم النحوي الوظيفي الذي أصبح سمة للمدرسة لندن ، وتقبل ذلك في مظاهر عديدة من التحليل اللغوي . ومستوقف في البداية عند دراسة المعنى .

المعنى وسياق الحال

نظر فريث الى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة ، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة ، ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع . فالجمل نكتسب دلالاتها في

النهاية من خلال ملابسات الأحداث ، أي من خلال سياق الحال^(٩) context of situation . ولذلك فقد اقترح فيرث أن « تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية » (Firth 1950 : 181) . وفي هذا الجانب يبدو أن فيرث بأفكار المايونفسكي واضحا . ولتوضيح هذه النقطة ، يستحسن أن نعرض للأفكار الناضجة التي طرحها المايونفسكي والتي مهدت السبيل أمام فيرث ليؤصل نظريته في المعنى .

كان المايونفسكي Malinowsky (البولندي الأصل) أستاذ الأنثروبولوجيا في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وقد سافر في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى الجزر المحيطة باستراليا في المحيط الباسيفيكي لأجراء بحوث ميدانية عن أهالي جزر تروبريانند . Trobriand وفي أثناء تسجيل ملاحظاته وجد أنه من الصعب ترجمة ما يقوله أهالي تلك الجزيرة من عبارات وبجمل ترجمة حرفية إلى اللغة الانجليزية . ووجد أن تلك الصعوبة تزداد حينما يصل الأمر إلى الحديث عن عادات وتقاليد خاصة بأهالي تلك الجزيرة . وفي محاولته لحل تلك المشكلة خرج بملاحظات نشرها في كتاب يعد من أمتع كتب الرحلات (الحداثات الساحلية وسحرها) . Coral Gardens and Their Magic . وهذه الملاحظات هي التي أرست مبادئه نظرية سياق الحال في وصف المعنى .

خلاصة كلام المايونفسكي حول هذا الموضوع أن معنى الجملة يتحدد في السياق المعين الذي ترد فيه . والسياس الذي قصده المايونفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع ، حيث أنه كان يكتب كائنوبولوجي . ولكن المايونفسكي لم يتوسع في الحديث عن السياق وكيف يمكن تناوله ضمن نظرية لتحليل المعنى ، لأن المايونفسكي لم يكن مهتما بصياغة نظرية لغوية .

اقتبس فيرث من المايونفسكي فكرة أهمية دراسة اللغة في إطار سياق معين ، وأعطى لهذه الفكرة أبعادا أعمق ، فقد جعلها تخطيطا تنظيميا مجردا abstract construct ، وحصرها في مجال اللغة بعد أن كانت فكرة عامة تفس النواحي الثقافية في المجتمع . وقد مر بنا أن فيرث ينظر إلى اللغة على أنها عملية اجتماعية أو نشاط اجتماعي . أي أن نظرية فيرث اللغوية تقوم على أساس ارتباط اللغة بالفرد والمجتمع . ولذلك فإن فكرة سياق الحال أصبحت تبنى عند فيرث دراسة اللغة كأداة اجتماعية ، أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة .

ولكي يتم تحليل معنى الجملة حسب مقتضيات « سياق الحال » ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية (راجع : 182 : Firth 1950) :

١ - الحقائق المتعلقة بالشاركين في الحدث اللغوي ، كان نذكر مثلا ما إذا كان المشاركون طفلا أو رجلا ناضجا ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، أو امرأة . ويندرج تحت هذا العنوان الخلفية الثقافية للمتكلمين .

(٩) راجع كذلك (٢٢) جمان ١٩٧٣ : ٣٣٧ لما بعد) حيث عرضت الفكرة مع ملاحظتها بطرق اللغويين العرب .

٢ - الأحداث اللغوية نفسها ، أي العبارات المنطوقة بالفعل وكتيحية نطق الجملة أو الجمل من حيث التنغيم والنبر الخلفي ، وما يصاحب هذه الأحداث اللغوية من مظاهر لغوية غير منطوقة ، كحركة اليدين وتعابير الوجه .

٣ - الأمور المادية التي لها صلة مباشرة بالحدث اللغوي relevant objects .

٤ - أثر العبارات اللغوية المنطوقة فعلا (أي ما يستتبع النطق من سلوك اعتمادا على العبارات المنطوقة) فقد تؤثر جملة ما على أحد السامعين ، ولكن لا تترك نفس الأثر في سامع آخر لاختلاف العادات والتقاليد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : كيف يمكن تحديد ماله صلة بالسياق ، وخاصة الأمور المادية ذات الصلة المباشرة بالحدث اللغوي ؟ هذا السؤال كثيرا ما يطرحه منتقدو نظرية سياق الحال . فمثلا تقول الدكتور ديدري ولسون (D.Wilson : op.cit) ، أستاذة علم الدلالة في جامعة لندن (الكلية الجامعية) : ان بإمكان المرء أن يعد قوائم عديدة لما يمكن أن يشكل الأمور المادية بجملة من قبيل « أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن » . والقوائم تشمل أمورا مثل ما يلي :

« هذه الغرفة التي تعد جزءا من بناء قديم في الكلية الجامعية .

هذه الغرفة المملوكة لجامعة لندن .

هذه الغرفة التي تقع في لندن . الخ . . . »

والواقع أن نظرية سياق الحال لا تعنى بأعداد قوائم عن الظروف المادية ، فأعداد مثل هذه القوائم أمر في غاية الصعوبة . هذا علاوة على أن أية قائمة لن تكون متكاملة في الظروف الطبيعية . ولكن الفكرة ترتكز على مبدأ « الاختيار » Selectivity ، أو الصلة المباشرة ، حيث إنه في كل حدث لغوي تكون هناك عناصر معينة نستطيع أن نختارها على أنها ذات صلة بموضوع الجملة . ولناخذ كمثال توضيحي الجملة التي أوردتها ولسون ، ونضمها في السياق التالية :

الكهربائي : آسف للمقاطعة . يجب أن نقوم ببعض الإصلاحات الاضطرارية على موزع مكيف هذه الغرفة .

المحاضر : حاول أن تجرب ذلك فيما بعد ، من فضلك . أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن .

الكهربائي : مع الأسف أن الانتظار غير ممكن ، فقد أخبرني رئيس المهندسين أن المحول الرئيسي في كلية الآداب في الشويخ سيفصل آليا لو لم تقم بالإصلاحات حالا .

من الواضح من خلال هذا السياق أن الأمور المادية التي لها صلة بالجملة هي وجود جهاز تكييف في قاعة المحاضرة يسبب خللاً للموزع . أما الأمور المادية الأخرى من قبيل أن الغرفة لها ستائر مصنوعة من قماش وليس من معدن ، وأن فيها مقاعد طويلة وليس مقاعد صغيرة متصلة ، وأن هناك بيوت عنكبوت في زواياها الخ . . فهي لا شك ليست ذات صلة مباشرة بالحدث اللغوي . وكما قال هاليداي (Halliday 1978 : 29) فإنه « من المهم أن نقيّد فكرة « السياق » ، وذلك بأن نضيف لها كلمة « ذات صلة » relevant ، لأن سياق الحال لا يعني كل صغيرة وكبيرة في المحيط المادي ، كذلك التي قد تظهر فيها إذا كنا نسجل بالصوت والصورة حدثاً كلامياً مع كل المشاهد والأصوات المحيطة به . انه يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل » .

وللتصور مشهداً آخر . طالب يدخل قاعة المحاضرة متأخراً عن موعد المحاضرة بعشرين دقيقة ولا يبادر أسأته بالاعتذار بل يتجه مباشرة إلى مقعد فارغ فيجلس فيه . يقطع الأستاذ محاضرتة ويقول له : « صباح الخير » (بنغمة صاعدة - هابطة في النهاية ، مع مد للقطع الطويل في الخير) . ان الظروف المادية المحيطة بهذه العبارة (وصول الطالب متأخراً) والتنظيم المستعمل ، تدل على أن الأستاذ يريد أن يلوم الطالب على التأخير وليس أن يلقي عليه نغمة الصباح . أما بقية الأمور المادية ، مثل شكل الطالب ونوع لباسه فلا علاقة لها بهذا الحدث اللغوي .

وقد أثار بعض الباحثين اعتراضاً نظرياً آخر حول مفهوم سياق الحال في تحليل المعنى ، وذلك على أساس أن عناصر السياق الأربعة (التي ذكرناها فيما مضى) تعطى انطباعات خاطئة بأن تلك الحقائق يمكن استعمالها بشكل منهجي حينما نصف كيف يضيي الأفراد التفسير الدلالي على الجمل (50 : 1968 Langendoen) وأن هذا النقد يتعامل مع فكرة السياق بعقلية المدرسة التحويلية - التوليدية التي تفسر الاستعمال اللغوي على أنه نتيجة مراحل توليدية وتحولية متتالية . ولكن الانعاج الوظيفي لا يفصل المعنى عن تركيب الجملة . بمعنى أن التكلم لا ينطق بالجملة عارية أولاً ثم يكسيها ثوب المعنى في مرحلة تالية (كما يرى التحويليون) . ولكن المعنى ينشأ في الظرف المناسب وفي لحظة الخلق اللغوي ، أي في لحظة تفاعل المرء مع الحدث . يقول هاليداي (Halliday 1978 : 33) :

« ان السياق جزء من التخطيط الكلي . . . ليس هناك انفصال بين ماذا نقول وكيف نقول ، اللغة إنما تكون لغة عن طريق الاستعمال في سياق الحال . وكل ما فيها مرتبط بالسياق » .

ان جزءاً كبيراً من معاني المفردات والجمل المستعملة يعتمد على الخبرة المشتركة ما بين المتكلم والمخاطب . ولذلك فنحن نحتاج إلى سياق الحال ليس فقط لكي نتمكن من معرفة مدى ملاءمة الكلام أو اللغة المستعملة في هذا الظرف أو ذاك ، ولكن أيضاً لكي نستطيع أن نفهم الأساليب اللغوية والمستويات اللغوية register وطبيعة اللغة نفسها .

وقد طور هالندي فكرة السياق في دراساته عن الترابط اللغوي cohesion وتحليل النصوص text analysis ، فاقترح أسلوباً آخر لتحديد العناصر السياقية التي تلعب دوراً في بيان معنى النص . وهذا الأسلوب يوظف ثلاثة مصطلحات على وجه التحديد هي :

الحقل : Field وهو المجال الطبيعي (الاجتماعي) الذي يكون مسرحاً للنص ، فيشمل بذلك النشاطات المختلفة ، والأهداف الخاصة التي تستعمل اللغة من أجل تحقيقها .

التوجهات Tenor ويشمل العلاقات ما بين المشاركين في الحدث اللغوي : وضع كل مشارك والدور الذي يؤديه كل مشارك .

النمط Mode وهو الوسيلة اللغوية المتبعة في النص (أو الحدث اللغوي) . ويشمل الأسلوب اللغوي والوسائط البلاغية .

ويحرص هالندي على تأكيد فكرة مهمة وهي أن هذه العناصر لا ينبغي أن تعامل على أنها أنواع من الاستعمال اللغوي ، ولكنها إطار نظري لتمثيل السياق الاجتماعي الذي يستطيع المتكلم من خلاله أداء المعاني .

ونحاول فيما يلي أن نوضح هذه المصطلحات ونفك من خلال تحليل النص التالي^(١٠) .

حكاية أحقيين

« حكى أن أحقين اصطحبها في طريق فقال أحدهما للآخر : تعال نتمنّ على الله ، فإن الطريق تقطع بالحدث . فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبتها ولحمها وصفوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها إلى غنمك حتى لا تترك منها شيئاً . قال : ويحك ، أهذا من حق الصبحة وحرمة العشرة ؟ فتصايحا وتخاصماً ، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق . ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما . وطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما . فأنزل الزقون وفتحهما حتى سال العسل على التراب . ثم قال : صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحقين » .

(١٠) هذا التحليل لا ينبغي الخلط لتساقط المقدمات وتفرعها ، انه يركز فقط على العناصر السياقية المرتبطة بتفسير النص

(المستطرف في كل فن مستظرف)

| المحتوى الدلالي | المحتوى السياقي | |
|---|--|----------|
| توضيح الأدوار وأنواع المشاركين . أشياء مادية لها صلة مباشرة بالقصة . | أحمان يسيران في طريق ينشأ بينهما نزاع وتشابهك بالأيدي بسبب سوء الظن . شيخ معه حمار وعليه جرتان من حسل | الحقل |
| فعل أمر ، ثم جملة تقريرية مؤكدة . جملة تقريرية مثبتة . جمل مثبتة ، مقطوعة (حدث متداخل) جملة استهامية بنقمة صاعدة جمل ما ضوية مترابطة بأدوات العطف التي تقيد تسلسل الأحداث . الصمت أثناء انزال الزئبق القيام بفعل غير لغوي قبل التفوه بالجملة وذلك بقصد توضيح معناها . | رغبة أحد الطرفين في تزجية الوقت أثناء السير . ثنيات خيالية بهدف المداعبة تثير نزاعا حقيقيا . التصايح وتبادل الاتهامات التشابك بالأيدي نتيجة لسوء التفسير التوقف عن السراك والمواقفة على الاحتكام شيخ يبدي موافقة على حل المشكلة بفتح الجرتين واسالة الحسل | التوجهات |
| تعال نتمن على الله (طلب) أنا أتمنى . . . (توكيد الذات) ويحك (لوم وتقريع) أهذا من حق الصحة وحرمة العشرة ؟ (استفهام استنكاري) و صب الله دمي مثل هذا الحسل ان لم تكونا أحقين و (جملة مركبة ذات وحدتين نغميتين) أدوات الربط والمطف وضمائر التكلم والإشارة . | تكيف الجمل وفقا للأهداف طريقة التكلم الاستعانة بالقيم الأخلاقية والدينية ترابط النص | النمط |

مستويات التحليل اللغوي

إن النمط الوظيفي الذي نجده عند مدرسة لندن يتعامل مع أربعة مستويات في التحليل اللغوي تمثل الأنظمة المختلفة في اللغة . وقبل أن نتعرف على هذه المستويات ، يستحسن أن نتوقف عند مصطلحين مهمين أوردهما فيرث بثلاثين الأساس الفكري لهذا التحليل . يرى فيرث أن لغة محورية : محور النظام system ويمثله العلاقات الرأسية paradigmatic relations ، أي ثوابت اللغة ، مثل مباني التقسيم في النظام الصرفي . ومحور البناء structure ويمثله العلاقات الأفقية syntagmatic relations التي تتميز بالتجديد ، مثل الجمل المختلفة في اللغة . ومن النظام اللغوي يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة لعمل العناصر . فالأبنية اللغوية في شكلها الصحيح - هي انعكاس للنظام بما فيه من قواعد مؤسمة . ولا يمكن أن نفهم عنصرا معناه عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ارتباط . ويوضح فيرث هذا الارتباط بالترميز الشكلي لكيفية كتابة المصطلحين باللغة الانجليزية على النحو التالي :



ويمكن دراسة النظام والبناء على عدد من المستويات نذكرها باختصار فيما يلي :

المستوى الصوتي

لقد اعتبر فيرث أن النظام الصوتي للغة يتألف من عدة أنظمة polysystemic ، وليس من نظام أحادي monosystemic المتمثل في سرد الوحدات الصوتية (الفونيمات) على أساس توزيعها الخطي . ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطريزات الصوتية prosodic features التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال ، كالمظاهر التي تصادفها في حالتي الوقف والوصل مثلا .

وطبقا للتحليل التطريزي prosodic analysis ، فإن الوحدات الصوتية والمقاطع المحددة يمكن أن تدخل ضمن العلاقات الرأسية ، أما العلاقات التي قد تتولد ما بين المقاطع والوحدات الصوتية في الكلام المتصل فانها تدخل ضمن العلاقات الأفقية .

مستوى المفردات ، في المستوى المفرداتي نجد أن مفهوم « التساوي » collocation يعكس فكرة البناء^(١١) . والتساوي في صياغاته المبكرة كان يعني الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات . أي تصاحب الكلمة مع كلمة أو

(١١) « التساوي » ترجمة مقترحة من المصطلح الذي استعمله فيرث ومن بعده هالدي وأغرون . وقد أورده غلام حسان (١٩٧٣) هذا المصطلح وترجمه « بالتضام » . ولكن فرحة والنظام (ص ٢١٦) لا يضمن المعنى الأصلي للمصطلح ، فهو يستعمل « التضام » كمصطلح عام تتدرج تحته المفردتان : « التساوي » و« النظام » . فإزد من التفاصيل حول مفهوم « التساوي » في الاتحاد اللغوي وجميع مقالاته (أحمد ١٩٨٤)

كلمات أخرى ، أو رفقة الكلمة أو جوبرتها لكلمات أخرى في السياق الطبيعي ، مثل : كذبة إبريل ، حلت أهلا ، صلاة التراويح ، لم ينس بمنت شفة (بالثني دائما ، أي أننا لا نقول : نيس بمنت شفة) شاي ثقيل (ولكن لا نقول : شاي قوي) . وقد تطور المفهوم فأصبح يعني إلى جانب ذلك : دخول الكلمة في سياق مقبول مع كلمة أو كلمات أخرى ، فالفعل (أطلق) مثلا يمكن أن يتساق مع العناصر التالية :

- أطلق لحيته (جعلها تنمو)
- أطلق ساقيه للريح (ولي هاريا)
- أطلق له الجبل على الغاوب (ترك له حرية التصرف)
- أطلق الذواء بطنه (سهله ومشاه)
- أطلق عليه أسيا غريبا (سماه باسم غريب)

إلى آخر ذلك من تساوقات . ولكن (أطلق) لا تتساق مع (محاضرة) في قولنا : (أطلق محاضرة) معنى ألقى محاضرة .

والبواضح من هذه الأمثلة المحلوذة أن التساق يمكن استخلاصه من العلاقات الأفقية ما بين الكلمات ، وليس من الربط بين الكلمات وفاهيمها (راجع Firth 1951:1961) .

المستوى النحوي ، ويتضمن تركيب الجملة (النحو وتركيب الكلمة) (الصرف) . في هذا المستوى يعتبر مفهوم « الانتظام » colligation معبرا عن البناء . والانتظام هو التجاور الطبيعي للعناصر النحوية والصرفية بحيث يؤدي هذا التجاور إلى تلازمها في الاستعمال . فمثلا أداة النفي (لم) تنتظم مع الفعل الماضي فتقلب الصيغة إلى المضارع . وضمائر النصب المتصلة تنتظم مع الفعل المتعدي دائما . والفعل رغب يجب أن ينتظم إما مع (في) أو مع (عن) . وطبيعي أن هذا النمط من الانتظام يكون مسئولاً عن جزء من المعنى النحوي .

المستوى الدلالي ، وقد مر بنا أن فكرة سياق الحال ضرورية لفهم المعنى . ولكن الجانب الواضح في اتجاه مدرسة لندن أن المعنى لا يؤتى ولا يبنغي قصر تحليله على المستوى الدلالي فحسب ، بل أن جميع المستويات تتضافر لإداء المعنى . فهناك معنى على المستوى النحوي ، وهناك معنى على المستوى اللفظي وهكذا . وحول هذه الفكرة يقول فيرث (Firth 1951 b: 227) :

« الأشكال اللغوية لها معنى على المستوى النحوي واللفظي . وهذا المعنى تحلده أنماط الأنظمة النحوية التي تنام للغة . إن حالة الرفع في لغة ذات أربع حالات اعرابية سيكون لها بهذا المفهوم معنى مختلف عن حالة الرفع في نظام ثنائي أو نظام له أربع عشرة حالة اعرابية مثلا » .

ويستلزم فيرث في توضيح هذه اللفظة قائلا :

« ان المفرد في نظام لغوي ثنائي العدد له معنى نحوي يختلف عن المفرد في نظام ثلاثي العدد (كاللغة العربية . المترجم) . أو رياضي العدد كاللغة الفيجية Fijian التي تفرق رسميا بين المفرد والمثنى والجمع القليل والجمع الكثير » .

ونجد كذلك أن فكرة التحليل الصوتي التطريزي تهدف ، من جهة أشياء ، الى بيان طلال المعاني في سياق الاستعمال . ولذلك نجد أن فيرث يكرر في مواطن كثيرة من كتاباته أن دراسة اللغة هي بالدرجة الأولى دراسة للمعنى . وهذا التفكير يتخذ منحى واضحا ومحددا عند هالدي الذي ينظر الى اللغة على أنها نوع من السلوك الدلالي المحتمل meaning potential . والمقصود بالسلوك الدلالي المحتمل هو ما يستطيع المرء أن يؤدبه أو يفعله باللغة (Halli-day 1973: 51) .

والإبداع اللغوي creativity عندئذ لا يكمن ، كما يرى التحويليون في قدرة المتكلم على توليد أو خلق جمل جديدة ، وإنما يكمن في قدرة المتكلم على خلق معان جديدة . وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه شومسكي العقلاني واتجاه هالدي الوظيفي . فعل حين ينظر شومسكي الى اللغة على أنها شيء نعرفه ، ينظر هالدي الى اللغة على أنها شيء نفعله . ويفسر هالدي ظاهرة اكتساب الطفل للغة الأم بأنها تطوي على تعلم لاستعمالات اللغة في الظروف الاجتماعية المختلفة ، وللمعاني المرتبطة بهذه الاستعمالات . والتركييب والكلمات والأصوات عبارة عن الوسائل والأطر التي تتحقق عن طريقها احتمالات المعاني . (راجع أيضا Halliday op. cit) .

النحو النظامي

يعتبر النحو النظامي systemic grammar من أكثر الاتجاهات النظرية تكاملا عند مدرسة لندن . وقد وضع أسسه النظرية البروفيسور مايكل هالدي ، ثم توسع أتباعه ومرتدوه في التطبيقات والتشريع .^(١٢) والنحو النظامي مبني على أساس تعدد وظائف اللغة multiple function . وهذا المبدأ ينمكس على النظام اللغوي ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوي يؤدي وظيفة مختلفة . وهذا يعني أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره . هذه الوسائل ليست في الواقع سوى الاستعمالات الفعلية للنظام اللغوي . ومن ثم فانه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاستعمالات التي من الممكن أن يبدأ بها مستعمل اللغة تكون في حدود الامكانيات اللغوية الموجودة في اللغة . هذه الامكانيات هي عبارة عن خصوصيات كل لغة .

هذا التركيز على الجانب الوظيفي للغة من قبل النحو النظامي ، يجعل المهمة الرئيسية التي ينبغي الاضطلاع بها منذ البداية هي تصنيف هذه الوظائف الرئيسية ضمن نظام نحوي يعكس بالدرجة الأولى تلك الاستعمالات . والنظام

(١٢) انظر حول هذه النظرية بحث دافيد باتلر (Butler 1989) .

النحوي الذي قدمه هالدي عبارة عن شبكة ضخمة من العلاقات المتداخلة لأنه مبني على وظائف اللغة كما تصورها .
وليس من الممكن استيعاب النظام بأكمله في هذه المقالة ، ولذلك فساكتفي بتوضيح الصورة من خلال التطرق لفكرة
التعدي وال لزوم في اللغة .

ان نمط التعدي وال لزوم عند هالدي يتمثل في العلاقات التي يمكن تسميتها ما بين «النشاط» process type
«والمشاركين» participants .

لنقرأ الجمل التالية :

- ١ - بكى الطفل .
- ٢ - أركض في المساء .
- ٣ - انفجر الوضع الأمني في لبنان .
- ٤ - مرض عميد الكلية في بداية الفصل الدراسي .

نحتوي كل جملة من الجمل السابقة على عنصرين :

(أ) نشاط يمثل الفعل .

(ب) ومشارك واحد هو عبارة عن الاسم سواء أكان عاقلاً أم مجاداً . وإذا تأملنا الأمثلة السابقة لتتعرف على نوع
النشاط فيها ، فسنجد أن المثالين (١) و (٢) يدلان على حركة action ، بينما المثالان (٣) و (٤) يبينان حدثاً event .
والمشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حركة يسمى « عامل » actor^(١٣) . أما المشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على
حدث فنسميه « متأثر » patient .

وحينما يقتصر النشاط على العامل أو المتأثر فهو « نشاط قاصر » عندئذ non-directed action ، أما حينما ينطلق
النشاط من العامل ولا يتوقف عنده بل يتجاوز إلى عنصر ثان في الجملة فهو نشاط مجاوز directed action ، كما في
الأمثلة التالية :

- ٥ - كتبت الطالبة المستجدة بحثاً جيداً .
- ٦ - شرح المعلم الدرس .

(١٣) أي النظام بالعامل أو النشاط . وقد تجت استخدام المصطلح المتبع (فاعل) وذلك بهدف توضيح لتقديم الجملة . وعلى من القول أن هذا المصطلح معناه الجديد لا
يمت بآية صلة المصطلح العامل للتعريف في النمو العربي ، والذي يقصد به العنصر النحوي أو الظاهر الذي ينسب في جلب المعلومات الإعرابية الظاهرة أو الخفية على أواخر
الكلمات .

وهذا العنصر الثاني يطلق عليه مصطلح اهدف goal لأنه عبارة عن نتيجة النشاط أو أثر النشاط الذي قام به العامل . ونجد في بعض التراكيب أن ما يمثل نتيجة النشاط هو عبارة عن مشارك نطلق عليه مصطلح الطرف ، كما في الأمثلة التالية :

٧ - أشار الأستاذ إلى السبورة .

٨ - غرد العصفر فوق الشجرة .

٩ - جلس التلميذ على الكرسي .

والآن دعونا نقرأ الأمثلة التالية :

١٠ - يكلف الكتاب عشرين ديناراً .

١١ - يشبه زيد أباه .

١٢ - يملك علي سيارتين .

١٣ - بدت الفتاة سعيلاً .

إن الأفعال في هذه الأمثلة تشبه النوع الثاني من أنواع النشاط (أي النشاط المجاوز) والأعراب الشكلي الظاهري يعامل (٥ - ٦) و (١٠ - ١٣) معاملة واحدة ولكن الأمر بالنسبة للجمل الأخيرة (١٠ - ١٣) يختلف . فنحن نرى أن النشاط في تلك الأمثلة (أي الفعل) ليس حركة وليس حدثاً ، ولكنه يعبر عن وضع من الأوضاع state ، ولذلك فهو فعل وضع stative verb . أما الاسم المرفوع الذي يأتي بعد أفعال الوضع فلا يقوم بعمل ولا يتأثر به ، ومن ثم فلا يصح أن نطلق عليه مصطلح العامل . وبالتعمق في وظيفة تجعله عبارة عن شيء يتصف بالحقيقة التي يرد ذكرها في النشاط (المذكور قبله) . ومن ثم فنستنتج له دوراً نسميه « متصف » . أما الاسم المنصوب في تلك التراكيب فالظاهر من وظيفته العامة أنه يبين الشيء الذي انصف به المتصف ، ولذلك فنسميه وصفاً . وقد يكون الوصف عدداً وقد يكون اسماً صريحاً .

ونجد أيضاً في اللغة العربية جملاً من قبيل ما يلي :

١٤ - أعطى ابنه مبلغاً من المال .

١٥ - منح المدير مكافئته أجلاً مرضية .

١٦ - أهدى زوجته خاتماً من اللؤلؤ .

إن الأفعال في هذه الجمل أفعال حركة ، والنشاط فيها بطبيعة الحال من النوع المجاوز . ولكننا هنا بازاءه نوع يختلف من النشاط . فالحركة التي تصدر من العامل ذات بعلين . فهي من جانب تؤثر في شيء (غالباً ما يكون عاقلاً) ، وهي من جانب آخر تبين الأثر الذي ترك في هذا الشيء نتيجة للنشاط . وهذا يعني أن هناك مشتركين اثنين

(غير العامل) في هذا النوع من الجمل . ولو أعدنا قراءة الجمل السابقة (١٤ - ١٦) بدقة فسنجد أن المشارك الأول منها عبارة عن شيء أو عنصر استفاد من العمل الذي صدر من العامل . أما الثاني فهو الشيء المستفاد ، أي أنه مجرد أثر أو نتيجة للنشاط . وتبعاً لهذه الوظائف فنسمي الأول « مستفيد » beneficiary ، ونسمي الثاني « هدف » ، والتسمية الثانية تعمد من الوظائف التي مرت بنا قبل قليل .

| منح | المدير | سكرتيرته | أجازة | مرضية |
|------|--------|----------|-------|-------|
| نشاط | عامل | مستفيد | هدف | صفة |

مجاوز

ونجد في الجدول التالي تلميحاً لأنواع النشاط والمشاركين التي ذكرنا نماذج لها في هذا العرض الموجز .

| نوع النشاط | المشاركون |
|--|--|
| حدث « مرض » | الفاعل = متأثر « حميد الكلية » |
| حركة (نشاط قاصر) « أركض » | الفاعل = عامل « أنا » |
| حركة « نشاط مجاوز » « شرح » « غرد » | المعلم } العصفور } الفاعل = عامل |
| وضع « يكلف » « يشبه » | الكتاب } زيد } الفاعل = متصف |
| حركة (نشاط مجاوز) « منح » | الفاعل = عامل « المدير » |
| | المفعول به = مستفيد « سكرتيرته » المفعول به = هدف « أجازة » |

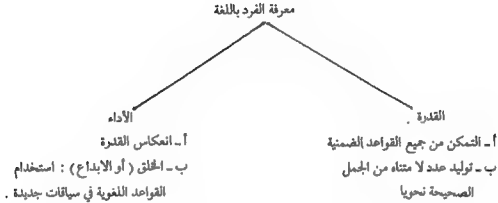
هذه مجموعة محددة من الجمل المستعملة في اللغة العربية ، والقصد منها هو رسم صورة توضيحية لكيفية تداخل الأدوار والمشاركين في النحو النظامي . ولو كان المجال يسمح بالاستطراد لوسّعنا من حجم الأمثلة لمعالج جميع أخرى من الأدوار والمشاركين^(١٤) . ولكن هذه الأمثلة المحددة تعتبر بعد ذاتها كافية لتوصلنا الى الخلاصة التي نريد التوصل اليها هنا . إن النحو النظامي يلقي ذلك التقسيم الحاسم للأفعال الى لازم ومتعد ، والذي ينبثق من أسس صرفية ، ويعتبر التمدي والازوم من وظيفة الجملة بأكملها ، لأن الوظائف اللغوية تؤتى عن طريق الجملة المتكاملة . ويكون تحديد الأدوار ونوعية المشاركين على أساس وظيفتها الدلالية في الجملة . ولذلك فانه يجب أن نعتبر « العامل » و « الهدف » وغيرهما من الأدوار الوظيفية على أنها وظائف دلالية وليست وظائف نحوية . ومن الواضح بعد ذلك أن نرى هالدي يحاول أن يقيم نظاما نحويا على أسس دلالية وظيفية ، لأنه يعتقد أن نحو كل لغة مصمم بكونه معينة لتمكين المستعمل من أداء المعاني المختلفة . والحقيقة الواضحة عندئذ أنه حينما نكتب نحو لغة ما فالتأنيب عن وسائل أداء تلك اللغة للمعاني .

لكن هذا النمط من التحليل الذي يعول على وظيفة الجملة في التعبير تعويلا تاما لا يخلو من صعوبات . وقد صرحت مارغريت بري (Berry 1982: 77) ، وهي من أقطاب هذا الاتجاه ، بأنه من السهل أن نفكر في أمثلة حيث يتداخل ما نظنه نظامين ضمن نظام واحد . وهي تقصد أن تحليل وظيفة المشارك على وجه الدقة قد لا يكون أمرا سهلا في بعض الحالات . فمثلا حينما نقول : « تزوج المدير سكرتيرته » فهل نصف (المدير) في هذا المثال على أنه « عامل » أو « مستفيد » ؟ هناك من الباحثين المعاصرين (Schlesinger 1989: 193) من اقترح أن يكون تعيين عضوية المشارك في مثل هذه الحالات مسألة درجات . أي أنه علينا أن نقلب الأمر على وجهه وندخل اعتبارات السياق حتى نستطيع أن نرجح وظيفة على أخرى غيرها .

الوظيفية عند هائمز

إن النمط الوظيفي الذي اقترحه هائمز Hymes يعتبر في جوهره رد فعل للجيار العقلاني الذي نشره شومسكي وأتباعه منذ منتصف الستينات . لقد قصر شومسكي معرفة الفرد بلغته على الملكية اللفظية التي سماها « القدرة » competence ، والجانب التنفيذي الذي سماه « الأداء » performance . والقدرة تمثل في تمكن الفرد من القواعد الضمنية underlying rules التي يلجأ الى استعمالها أثناء الأداء . أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة (Chomsky 1965: 4) ، على نحو ما هو موضح في الشكل التالي :

(١٤) أنظر مصطلح لفظي (١٩٧٦) حول الجمل التي تتكس طوبويا نعتيا .



والأمر اللافت للنظر في هذا التعريف أن شومسكي يرى أن معرفة الفرد بلغته تنحصر في الملكة النحوية التي يتمتع بها هذا الفرد والتي تمكنه من توليد الجمل الجديدة . لقد توقف هاوزر عند هذه النقطة على وجه التحديد ، ورأى أن تعريف شومسكي للقدرة اللغوية تعريف ضيق لا يناسب الطبيعة الاجتماعية للغة . ومن ثم فقد اقترح أن تستبدل بفكرة « القدرة على الاتصال » *communicative competence* ان اللغة وسيلة اتصال في المجتمع ، ومن ثم فإن أي حديث عن قدرة المرء على اللغة ينبغي أن يربط باستعمال اللغة في بيئة ثقافية - حضارية معينة . ويرى هاوزر (Hymes 1971: 281 ff.) أن قدرة المرء على اللغة لها أربعة مظاهر تتبع كلها من استعمال اللغة :

أ - الى أي حد يكون الشيء ممكنا possible (نحويا) . وهذا المظهر يشير الى امكانيات اللغة وانفتاحها .

ب - الى أي حد يكون الشيء معقولا feasible استنادا الى وسائل التنفيذ المتاحة . والتركيز هنا على الجوانب النفسية التي نستخدمها في تنفيذنا للغة ، مثل الذاكرة والتخطيط الذهني للكلام ، والفهم الخ .

ج - الى أي حد يكون الشيء مناسبا appropriate وذلك ضمن السياق الذي يستعمل فيه هذا الشيء . وهذا يشير الى فكرة الاستعمالات اللغوية *language registers* والأساليب اللغوية *styles* التي يلجأ مستخدم اللغة اليها في الظروف المختلفة متخذاً لكل حالة ما يناسبها من مفردات وطريقة تعبير ، مع مراعاة الأعراف والتقاليد الاجتماعية .

د - الى أي حد يكون الشيء قد أنجز (من حيث الأداء) . أي ماذا نطق المتكلم من عبارات وجمل وماذا يستمع هذا النطق من سلوك . وهذا المظهر يتكلم عن عواري التكلم والتلقي في آن واحد : ماذا يستطيع أن يقوله الفرد كمتكلم ، وماذا يستطيع أن يتقبله كمتلقي .

والصورة النهائية التي يمكن أن نخرج بها بعد قراءتنا لهذه المظاهر الأربعة هي أن مفهوم « القدرة » لم يعد مقصورا على المعرفة البحتة بقواعد اللغة وتوليد عدد لا متناه من الجمل ، وإنما أدخلت فيه اعتبارات وظيفية جعلته يشمل أموراً أخرى من بينها .

أولاً : أنه يفسح المجال لعنصر النية أو القصد في التعبير . فقد يستعمل المتكلم في موقف ما جملة تبدو من حصيلته مفرداتها أنها جارحة أو تنطوي على إهانة ، ولكن المتكلم يقصد بها المزاح أو الدعاية في ذلك الظرف . وذلك كأن يقول أحدهما لصديق أو زميل له في العمل رآه لثوه قد صعد السلم وهو يتنفس بقوة : « هكذا العجائز » ، حينما يصعدون على السلم يلهثون ، ويحتاجون إلى ساعة لالتقاط أنفاسهم » . ولذلك فإن الأمور متضطربة لو أن المستمع حمل الكلام بحمل الجلد .

ثانياً : أنه يصرح بوجود مهارات أخرى عديدة يتمتع بها المتكلم والمتلقي بحكم كونها أفراداً في بيئة اجتماعية - ثقافية معينة ، مثلاً مهارة الاستماع وإظهار الكياسة والأدب ، والرغبة في الإبقاء على مودة زمالة العمل وغيرها .

ثالثاً : أنه يؤكد على أهمية التقاليد الاجتماعية والأعراف والموروثات الشعبية في استعمالات اللغة وفهمنا وتحليلنا لها .

والملاحظ في اتجاه هائز أنه لا يقترح نموذجاً لغوياً يمكننا من الاستفادة من هذه الملامح الاتصالية في التحليل ، كالذي وجدناه مثلاً عند مدرسة براغ ومدرسة لندن . ولذلك فإن النموذج الوظيفي الذي يقدمه عبارة عن مقترحات عملية في الجانب الدلالي حل وجه المخصوص . ومن الممكن توظيف النموذج في مجال تحليل النص text analysis . وفي هذا المجال نجد أن آراء هائز تلتقي مع آراء هاليندي التقاء واضحاً .

التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي

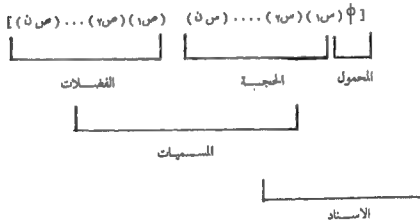
اتخذ الاتجاه الوظيفي منعطفاً واضحاً عند اللغويين الغربيين في جامعات هولندا وألمانيا وبلجيكا واليابان وغيرها . وهذا الاتجاه الجديد يجمع بين المرتكزات النظرية للاتجاه الوظيفي والتي ذكرناها في بداية بحثنا هذا ، وبين المنطق الصوري . لكن الواضح أن الاتجاه الوظيفي في شكله المطور والذي يسميه أصحابه بالنحو الوظيفي Functional Grammar ، يتعامل مع ثلاثة مستويات في التحليل ، لكل واحد منها مجاله ومصطلحاته . يرى « سايون دك » (Dik 1978: 13) . وهو أحد أبرز منظري هذا الاتجاه وكتابه ، أن جملة مثل « أكل محمد التفاحة » يمكن أن تحلل على ثلاثة مستويات مختلفة :

| | | | |
|------------------------|---------|---------|----------|
| ١ - المستوى النحوي | فعل | فاعل | مفعول به |
| ٢ - المستوى الدلالي | فعل | عامل | هدف |
| ٣ - المستوى البراغماتي | مستند | متمم | |
| | (theme) | (tail) | |
| أو : | موضوع | بؤرة | |
| | (topic) | (focus) | |

وهناك من الوظيفيين المعاصرين من يكتفي بمستويين اثنين : مستوى يمثل التمثيل النحوي والدلالي للعناصر-*rep-resentational level* ، ومستوى يمثل العناصر المشاركة في الحديث اللغوي *interpersonal level* (انظر Hengeveld 1989: 128).

والجملة في « النحو الوظيفي » عبارة عن إسناد *predication* ، وهذا الاسناد يتكون من عدد من المسميات *Terms* التي هي عبارة عن تعبيرات *expressions* لها خاصية الإشارة ، أي مسميات يمكن أن تستعمل للإشارة إلى موجودات في العالم . ونحن نستطيع أن نتوصل إلى الاسناد وذلك بأن نملأ ما يمثل خانة المحمول *predicate* (وهو يبين العلاقة ما بين الموجودات أو خصائص الموجودات) وأن نملأ ما يمثل خانة الحجبة *argument* (التي هي عبارة عن المسميات التي تستبدل بها المتغيرات) . ثم بعد ذلك تأتي الفضلات أو المكملات *stelites* (أي ما ليس بعملة مثل الحال والتمييز والصفة ...) .

ويمكن توضيح المصطلحات بالشكل التالي :



(راجع Dik 1978: 15, 26) .

وفي هذا الشكل يمثل (س١ ... س٢) متغيرات يمكن تعيين وظيفتها الدلالية . ولتعيين الوظائف الدلالية فإن الجملة تقدم في « النحو الوظيفي » على شكل اطار اسنادي *predicate frame* . والمثال التالي يوضح هذا الجانب :

| | | | |
|--|---------|---------|--------------|
| نوع (س١ : انسان (س٢) (س٣ : ذو حية (س٤)) | | | |
| فعل | عامل | هدف | مستلم |
| نوع | الاستاذ | الأوراق | على التلاميذ |

ولنأخذ فيها يلي مثالاً توضيحياً آخر :

| | | |
|---|---------------|----------------|
| غثاال (س ^١ : انسان (س ^١) (س ^٢ : انسان (س ^٢) | | |
| فعل | عامل | هدف |
| اغثاال | جنود الاغثاال | شااين فلسطينين |

وهكذا فلذلك جملة اطار اسنادي مصمم لبيان وظيفتها . وفي هذا الاطار الاسنادي يتم استبدال المتغيرات بمسميات تتفق في خصائصها الاختيارية selectional restriction مع المحمول . أي أن الاطار الاسنادي الثاني لا يصلح لتحليل جملة مثل (اغثال الظلم فكري) لأن العامل والهدف كليهما أسماء مجردة . ونجد في بعض الكتابات المعاصرة أن هذه المتغيرات يتم استبدال قيمها برمز منطقية على مستوى التمثيل الشكلي (Hengeveld 1989: 131) .

ولعل القاريء يلاحظ أن هذا النمط الوظيفي في شكله المطور يختلف عما قدمت المدارس الوظيفية السابقة من تحليل غير معقد مستمد من الاستعمال المباشر وليس من تطبيق المنطق . ولم يكن الوظيفيون المتقدمون يفتقون عند الوظيفة الذهنية في اللغة إلا بقدر ما تعكس قضية تخطيط المرء للغة . فنقطة الخلاف إذن بين المجموعتين هي أن الوظيفيين يحملون اللغة من خلال مصطلحات دلالية تدل دلالة مباشرة على وظيفة الجملة . بينما الوظيفيون الجدد يرون أن الوظيفة يمكن إبرازها بالاسناد المنطقي . ولكن الجميع يتفقون حول فكرة عامة تجعل الاتجاه الوظيفي متميزاً من بين الاتجاهات اللغوية الأخرى ، وهذه الفكرة تتمثل في أن اللغة أداة اتصال في الحياة الاجتماعية ، وأن الفوائد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم في اللغة . وحينها نصف اللغة فائناً يجب أن نصفها من خلال وظيفتها في البيئة الاجتماعية التي تؤدي فيها تلك اللغة وظيفتها .

وقد أخذت الدراسات الوظيفية في السنوات الخمس الأخيرة تركز على المجالات المتعلقة بالأسلوب والمستويات اللغوية وأسس الترابط في النص cohesion ، وذلك من خلال تحليل النصوص text analysis وهذا المصطلح يطلق على الدراسة الوظيفية لمكونات النص اللغوي سواء أكان هذا النص عبارة عن عمل أدبي مطبوع written text ، أم كان مجرد نص منطوق oral text . ولكن نظراً لأن اختلاف نوعي النص (المكتوب والمنطوق) يثير قضايا تفصيلية مختلفة ، فقد انفردت اللغة المستعملة في الحوار والمناقشات بمصطلح خاص يدل دلالة مباشرة على نوع الدراسة ، وهذا المصطلح هو « تحليل المحادثة » discourse analysis وفي هذا المجال يكون التركيز على ظواهر تبرز في لغة الكلام خاصة ، مثل التبرير والتفخيم ، والتقسيم القطعي للكلمات ، وإيقاع الكلام ، وتقسيم الكلام إلى وحدات لغوية حسب المعلومات التي يريد المتكلم التعبير عنها .

المراجع

- أحمد خنار عمر (١٩٧٦) «دراسة الصوت اللغوي» . عالم الكتب ، القاهرة .
- تمام حسان (١٩٧٣) «اللغة العربية معناها ومبناها» . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- مصطفى لطفي (١٩٧٦) «اللغة العربية في إطارها الاجتماعي» . معهد الإنماء العربي ، بيروت .
- يحيى أحمد (١٩٨١) «المعنى بين الاتجاه التجريبي والاتجاه الوظيفي» . المجلة العربية للمعلوم الإنسانية ، المجلد الرابع ، ص ٥١ - ٧٠ .
- Berry, M. (1982) 'Review of Halliday 1978' *Nottingham Linguistic Circular*, No. 11, pp. 64-94.
- Butler, Chris S. (1989) 'Systemic models: Unity, diversity and change.' *Word* 40 pp. 1-35.
- Chomsky, N. (1965) 'Aspects of the Theory of Syntax' MIT Press Cambridge, Mass.
- Danes, F. (1966) 'A Three-Level Approach to Syntax' *TLP* 1m pp. 225-240.
- Dikm Simon C. (1978) 'Functional Grammar' North-Holland Publishing Company, Nether Lands.
- Firbas, J. (1959) 'Thoughts on the Communicative Function of the Verb in English, German and Czech' *BSE* 1, pp. 39-63.
- Firbas, J. (1966) 'Non-Thematic Subjects in Contemporary English' *TLP* 2, pp. 239-254.
- Firbas, J. (1971) 'On the Concept of Communicative Dynamism in the Theory of Functional Sentence Perspective' *Shornik Praci Filosofické Fakulty Brněské University A* 19, pp. 135-144.
- Firth, J.R. (1950) 'Personality and Language in Society' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1951a) 'Models of Meaning' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1951b) 'General Linguistics and Descriptive Grammar.' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1957) 'Papers in Linguistics 1934-1951' Oxford University Press.
- Halliday, M.A.K. (1973) 'Exploration in the Functions of Language' Edward Arnold.
- Halliday, M.A.K. (1978) 'Language as Social Semiotic.' Edward Arnold.
- Halliday, M.A.K. (1985) 'An Introduction to Functional Grammar' Edward Arnold.
- Hengeveld, K. (1989) 'Layers and Operators in Functional Grammar,' *JL*, 25, No. 1, pp. 127-157.
- Hymes, D. (1971) 'On Communicative Competence.' in: J.B. Pride and J. Holmes (eds), *Sociolinguistics* Harmondsworth: Penguin Books.
- Langendoen, D.T. (1968) 'The London School of Linguistics.' Cambridge, Mass; MIT Press.
- Sampson, G. (1980) 'Schools of Linguistics' Hutchinson; London.
- Schlesinger, I.M. (1989) 'Instruments as Agents: On the Nature of Semantic Relations.' *JL*, 25 No. 1, pp. 189-210.
- Vachek, J. (1966) 'The Linguistic School of Prague.' Indiana University Press.
- Wilson, D. (1978) 'Introduction to Semantics. Lecture Notes.' Department of Linguistics and Phonetics U.C.

فاتحة البحث :

يقول الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) في (الاتقان) : (وقال الحلبي في كامله :) (اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : العدد ليس يعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه ^(١) . وقد سبقت مقالة الزعفراني هذه في حق طائفة من العلماء اشتغلت بتتبع بعض المؤشرات الكمية في الأسلوب القرآني . ولكنها - على تقديرها - تكاد تكون تغييراً عن شكوك مترادفة يطرحها كثير من المعاصرين في جنوى لمعالجة الإحصائية للأساليب ^(٢) . وتستند هذه الشكوك إلى بدعية تبدو ظاهرة الصديق ، فقد لحظ أن جمهور أئمة النقاد من لندن لرُسْطُولِي العصر الحديث عالجوا باقتدار أخطر مشكلات النص الأدبي دون أن يحسوا حاجة ملحة تلجئهم إلى اصطناع الطرق الإحصائية والاستدلال بتائجها . بل إن المقاربة الإحصائية لم تحظ عند عدد من أصنام اللسانيين المحدثين مثل موسيور ويلومفيلد وتشومسكي بنصيب ملحوظ من العناية . عل أن ذلك لم ينعكس على هؤلاء الأعلام ، ولم يؤخر منزلتهم بين أهل العلم . وإذا كان الدرس الأدبي واللساني كلاهما قد كان ولم يكن إحصاء فإما وجه الضرورة إذن في اصطناعه ضرورياً من ضروب القُتْيارية للمظاهرة اللسانية بسلامة ، والأصولية خاصة ؟

الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والإجراء الوظيفية

سعد صليحي

أستاذ مشارك بكلية التربية الأساسية - الكويت

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ت. عبد أبو القحليل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١ / ٢٤١ .

(٢) انظر : حل سبيل المثال لا الحصر : صلاح لعل ، علم الأسلوب : مبادئ وأثره ، كتاب الخفي الأدبي النقاد - ج ١ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .
وشفيح السيد : الاتجاه الأسلوب في النقد الأدبي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

والحق أن هذا الاعتراض القديم الجديد يعتضد أيضاً بظهور عدد وافر من الإشكالات المعرفية والمهيجة التي أثارها الظاهرة الأسلوبية نفسها ، وما تزال تردّد في أدبيات هذا العلم دوغما جواب حاسم . وحسبنا هنا أن نشير إلى رؤى وس من هذه المسائل : فحداً الأسلوب ؟ ، وهل يعرف بالإضافة إلى النشيء بوصفه اختباراً ؟ أم إلى ذات الرسالة بوصفها شفرة لغوية ؟ أم إلى المتلقى بوصفه مجموعة من المثيرات والمنهيات التي تستدعي انفعالات ومواقف وأحكاماً معينة ؟^(٣) وهل ثمة مشروعية معرفية لاختصاص ظاهرة الأسلوب بعلم قائم برأسه بحيث يكون من العلوم المتجاذبة الاختصاص interdisciplinary ؟ أم أن دراسة الأسلوب ينبغي أن تكون فرعاً من علم آخر ؟ وإذا صحّ الفرض الأخير فأي العلوم في هذه العلاقة يكون أصيلاً وأياً يكون تابعاً ؟ وكيف تتحدد العلاقة بين الأصل والتابع ؟

ويقتل الخلاف حول هذه المسائل المهيجة إلى معسكر اللسانيين مع اتفاق جمهورهم على اعتبار ظاهرة الأسلوب موضوعاً من موضوعات العلوم اللسانية ، وذلك حين ينظرون في أمر العلاقة بين الدرس الأسلوبى والدرس اللساني ، هل هي علاقة فرع بأصل ؟^(٤) أم أن كليهما أصل بنفسه ؟ وما كان المكون الأسلوبى من بنية النص ، أثره ينتشر على كافة مستويات التحليل الصوتية والصرفية والنحوية ما على يقول شاتمان S. Chatman أم أنه مستوى قائم بنفسه على قول جالبرين Galperin ؟^(٥) هل أن المدارس اللسانية تتفاوتت تفاوتاً كبيراً في مدى ما توليه من عناية لدراسة ظاهرة الأسلوب ، وفي تحديد موضع المكون الأسلوبى من ثنائيات كثيرة اشتهرت بين النقاد اللسانيين ، مثل ثنائية الشكل والمضمون ، وثنائية النمط والانحراف (أو الأصل والعدل) ، وثنائية النطق والتدوين ، وثنائية لغة الفكر ولغة اللسان ، وثنائية اللغة والكلام ، وثنائية الجملة وما وراء الجملة . وهو اختلاف ينتج آثاراً بعيدة المدى على المستويات النظرية والتطبيقية وإجراءات التحليل . وثمة أيضاً مسألة تتعلق بالخيار الأسلوبى ، أهو خيار يتم فيه التشكيل الأسلوبى عن وحي واختيار وإرادة من النشيء أم أنه عملية خاضعة للغة بوصفها من المعطيات التاريخية القاهرة والمهيمنة على عملية الإبداع^(٦) .

تلکم السلسلة التي لا نهاية لها من الخلافات لم تحسم بعد ، ولا نتوقع لها حتماً قريباً . إنها أسئلة تكاد تكون أبدية ،

(٣) أدت هذه اللقطة إلى تقسيم الأسلوبيات إلى أسلوبيات تنميرية ، وأسلوبيات تأثيرية وأساليب موضوعية . وانظر حرمياً بشكل مفصّل لهذه الاتجاهات وغيرها في :

1-H. F. Piets, "Concepts of style : A Classification and a Critical Approach". *Language and Style*, Vol. no 4, Fall, 1977, PP. 268-9.

2- W. O. Hendricks, "The Notion of Style", *Language and Style*, Vol. V111, No. 1, Winter, PP. 35-41.

(٤) حول العلاقة بين الأسلوبيات واللسانيات انظر :

Nils Erik Enkvist, "Linguistic Stylistics" Mouton, 1973, PP. 16-17.

(٥) نرش حلمان الريان بالفضل في :

Nils Erik Enkvist "On the place of Style in Some linguistic theories" in *Literary style : Asymptotum* ed. S. Chatman, Oxford Univ. Press, 1971, PP. 52-3.

(٦) الفري الأخير هو رولان بارت وفريد من الفضل في نظر :

Roland Barthes, "Style and its Image", in *Literary Style*, Op. cit, P. 8.

ولمّا عبد الله صبيح : (١) الأسلوبية اللغوية أو الشعرية (٢) مجلة فصول - مج ٥ ، ع ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٨٩ .

وستظل دائماً محاور للحوار والخلاف بين أهل العلم . وكل هذه الخلافات وإرد على أصل قضية الأسلوب بما هو ظاهرة ، وعلى قضية الأسلوبيات بما هي علم أو مجال معرفي متعين . ومن البدهي أن قضية المعالجة الإحصائية للأسلوب لن تكون بمنجى من تأثير هذه الخلافات سواء من جهة المفهوم أو الإجراء أو الوظيفة ، بل من جهة الحاجة إليها أصلاً .

وإذا كان من الصعب أن يُستوفى القول في جميع ما سبق من قضايا ، إذ يفضي بنا ذلك إلى الخروج عن أصل الغاية التي نصبت لهذه الدراسة = وكان من المحالات المنهجية أيضاً أن نعرض عنها بالكلية في هذا المقام ؛ لوثاقة العلاقة القائمة بينها وبين سلسلة التصورات المنهجية والتحليلية التي تشكل قوام البحث - لذلك كان سؤا الأمر هو أن نستفرغ الوسع في استصفاء ما يتصل من هذه المعضلات الخلاقية بقضية الدراسة الإحصائية للأسلوب اتصالاً مباشراً ، وفي إرجاء الحديث المفصل حول الفروع والجزئيات ، مع الإشارة إليها في مظانها ، ليستقيم لنا البحث في أمر الإحصاء الأسلوبي من حيث المفهوم والإجراء والوظيفة . وهذه الثلاثة المحاور تقع تحتها منظومة المشكلات النظرية والتطبيقية التي يثيرها الدرس الإحصائي للأسلوب . وتشكل في الوقت نفسه البنية الأساسية لهذا البحث على الوجه التالي :

١ - مبحث المفهوم ، ويشمل :

- ١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي .
- ١ - ٢ - ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي .

٢ - مبحث الإجراء ، ويشمل :

- ٢ - ١ - المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية .
- ٢ - ٢ - التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية (أسلوبيات المقال) .
- ٢ - ٣ - أسلوبيات المقام .
- ٢ - ٤ - التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام / المعنى / المقال .
- ٢ - ٥ - التشخيص الأسلوبي .
- ٢ - ٦ - للمعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص .
- ٢ - ٧ - النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي .
- ٢ - ٨ - إطار عمل لتحليل الإحصائي الأسلوبي .

٣ - مبحث الوظيفة ، ويشمل :

- ٣ - ١ - مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي .
- ٣ - ٢ - مجالات تطبيقه

٣ - ٣ - أنماط المقاييس الأسلوبية .

٣ - ٤ - مبدأ شمولية المقاييس الأسلوبية .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية ، والمعالجة الإحصائية :

وفي ما يلي يعالج البحث هذه المسائل على الترتيب السابق ذكره .

١ - مبحث المفهوم

١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبية :

لا شك أن ظواهر السلوك اللغوي لدى أي جماعة لغوية إما تصنف ، في بعض مستوياتها الاتصالية على الأقل وفي بنية شفرتها ، بالوحدة والتجانس ، لأنها لو لم تكن كذلك لاستحال التواصل بين المتكلمين بها . وأول الشروط لتحقيق التضام أن يكون المرسل والمستقبل كلاهما على علم بالشفرة المشتركة ، وتحققها الفيزيقي من حيث رموزها ، وعلاماتها ، وقواعد تأليفها ، ومفاتيح حلها .

بيد أن التنوع في تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة تشهد بها الملاحظة ، ويصدقها العلم ، فالسلوك اللغوي يتباين تبايناً ظاهراً بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، حتى إن التجارب المختبرية لتقطع بأن الفرد الواحد لا يكرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى في ظرفين مختلفين ، وهكذا تتنازع السلوك اللغوي عوامل جغرافية محلية ، وانتهازات اجتماعية موحدة Group affiliations وانتهازات اجتماعية متعارضة Cross affiliations في خطوط ودوائر متداخلة ومتقاطعة حتى يبلغ التنوع مداه ، مُشكِّلاً ما اصطلح على تسميته بلهجة الفرد Idiolect ، وهي مجموعة السمات المميزة للسلوك اللغوي عند فرد بعينه في جماعة لغوية بعينها .

هذا التنوع في إطار الوحدة هو ما حاولت النظرية اللسانية الحديثة تفسيره من خلال ثنائية اللغة والكلام / Langue / Parole عند سوسور ، أو ثنائية الكفاءة والأداء Competence/Performance عند تشومسكي على خلاف بين الثنائيين في المنطق الفلسفي ، ومن ثم في الإجراءات التحليلية والغايات^(٧) . غير أن النظرية اللسانية الحديثة قامت في الأساس على افتراض الوحدة والتجانس ، وصرفت عنايتها في المقام الأول إلى دراسة ما هو عام ومشترك في إطار ما سمي باللسانيات التقريرية deterministic linguistics ، وشغلت دراسة التنوعات والفرق للمحل الثاني من الاهتمام ، واضطلعت به مجموعة من العلوم تدخل ضمن ما يسمى باللسانيات الاحتمالية Probabilistic linguistics . وإلى هذه

(٧) سند صراح : دراسة لغوية إحصائية ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٨) من الأعمال النسبية والفلسفية لنظرية تشومسكي انظر : جيون لوز : نظرية تشومسكي للغة ترجمة حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٧ - ٢١٠ ، وص ٢٤٧ - ٢٥١ ، ويعد صمد خليل : أداة القياس في الفيزيقي ، ط ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦٩ ، ص ١٧ - ٢٢٠ ، وجون سرك : تشومسكي والثورة اللغوية ، مجلة الفكر العربي ، ١٩٨٤ ، ١/٨٩ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

المجموعة من العلوم تنتمي الأسلوبيات اللسانية Linguistics وتنوع مباحث الأسلوبيات اللسانية المعاصرة اتجاهان أو مدرستان متناحستان ، هما بحسب تصنيف بير جيرو Pierre Guiraud : مدرسة الأسلوبيات التقليدية Tra-ditional Stylistics التي وضع أصولها بالي Bally ، ومدرسة الأسلوبيات الحديثة new Stylistics التي اشتقها جاكوبسون Jacobson من الاتجاه البنوي لمدرسة براغ . وتتفق المدرستان على تعريف الأسلوب بأنه الصيغة المميزة للنص . غير أن الطائفة الأولى تبحث عن مصدر تعريفاتها في دراسة الخواص الأسلوبية للنظام (أو الشفرة) The Code على حين تلتزمه الطائفة الثانية في وصف البني الداخلية للرسالة (The message)^(٩) .

ونحن اذا اعتبرنا الصيغة المقترحة للأسلوبيات اللسانية عند بالي ومدرسته من جهة ، ثم عند جاكوبسون ومن نبع نهجه من جهة أخرى ، ثم اعتبرنا كذلك العوامل الاجتماعية والنفسانية الفاعلة في تشكيل الرسالة - أدركنا ما عليه موقف الأسلوبيات اللسانية من تعقد ، فهي دراسة تتقاطع مع اللسانيات التقريرية (بوصفها إطاراً مرجعياً لوصف التنوعات حتى داخل النظام نفسه) ، وتكملها في آن معاً . كذلك تتقاطع هذه الدراسة مع اللسانيات الاجتماعية (في مبحث محددات المقام ، وفي تحديد الإطار المرجعي للتنوع الاجتماعي) ، ومع اللسانيات النفسية (في مبني الشخصية والنمو) ، ومع النقد الأدبي (في معالجة النص الأدبي ، الذي هو من أعظم التنوعات اللغوية تميزاً) . ويمتاز الدرس الأسلوبي من كل علم من هذه العلوم جيماً بخصوصية تحدده مجال بحثه ، فهو يفرق (اللسانيات التقريرية) باحتفائه بمبدأ التنوع ، وهو لا يلتصق من اللسانيات الاجتماعية إلا بعض الأطر المرجعية المعنية على التصنيف ، وهو يبرز اللسانيات النفسية يختص بالسلوك اللغوي - السوي عادة - دون سائر أنواع السلوك البشري الأخرى . وهو يبرز النقد الأدبي إنما ينصرف إلى السلوك اللغوي في النص ، وإلى التشخيص بالأصالة والتقوم بالتيمة ، وهو إذا عالج في النص جوانب أخرى مما يعم الناقد إخالص فليس إلا من خلال المكون اللغوي وما يتصل ببنية من قضايا - وهي - لحسن الحظ - كثيرة وخطيرة .

وموجز القول أن الدرس الأسلوبي يتم بدراسة مظهر هام من مظاهر التنوع في السلوك اللغوي ، ويتتبع بذلك إلى (اللسانيات الاجتماعية) ، على حين تقوم (اللسانيات التقريرية) على إهمال مبدأ التنوع واقتراف الوحدة والتجانس والمثالية في ظروف التواصل اللغوي . وعن هذا يعبر تشومسكي بأوضح عبارة إذ يقول :

(إن النظرية اللسانية مُعَيَّنة ، أولاً وقبل كل شيء بإنسان مثالي في سلوكه اللغوي ، تكلماً وسماعاً ، يعيش في جماعة لغوية متجانسة تمام التجانس . وهو عارف بلغته تمام المعرفة ، ولا يتخضع في تطبيقه هذه المعرفة أثناء أدائه اللغوي الفعلي لتلك الظروف التي لا صلة لها بالجانب النحوي ، مثل محدودية الذاكرة ، والإرتباك ، والمواضع التي تتوزع اهتمامه واتباعه ، ولما يمكن ارتكابه من أخطاء عشوائية أو مميزة .

Pierre Guiraud, "Insistence and Trausivity of Stylistic Criteria", in *Literary style : A symposium*, op cit. P. 16. (٩)

ذلك هو الموقف - كما يبدو لي - لدى مؤسسي اللسانيات العامة الحديثة . ولم يطرأ بعد من الأسباب المقنعة ما أدى إلى تعديل هذا الموقف^(١٠) .

ذلكم الفرد المثالي في سلوكه اللغوي ، وتلك الجماعة اللغوية المتجانسة التي تمارس التواصل اللغوي في ظروف مثالية ليس إلا فرضاً نظرياً تنطلق منه مباحث النظرية اللسانية . وإذن فقد كتب على اللسانيات الاحتمالية ، ومن بينها الأساليب اللسانية لمواجهة مشكلة التنوع اللغوي ، أو - بعبارة أخرى - امتحان فروض (اللسانيات النظرية) ، وتكملة نواقصها ، والإسهام في معالجة أوجه القصور في النظرية اللسانية الحديثة .

من هنا تبرز وثيقة العلاقة بين المدرس الأسلوبي وأهمية المعالجة الإحصائية لظاهرة الأسلوب ، بل بين (اللسانيات الاحتمالية) في مجملها والإحصاء ، فيما دام التنوع هو موضوع الدراسة فلا بد من روية لغويين informants يتم اختيارهم من الجماعة اللغوية ويتحقق في سلوكهم التنوع ، ولا بد من اختيار عينات من النصوص تمثل المجتمع الإحصائي Statistical Population إذا لم يتيسر دراسة المجتمع نفسه . وهو الأمر الغالب دأباً ، ولم يكن بدّ كذلك من إقامة الاختيار ، سواء للعينات أو الرواة ، على أساس يضمن دقة النتائج وسلامة الأحكام ، ومن وسائل علمية يمتحن بها ثبات هذه الأحكام وصحتها . فإذا كان موقف الدراسات اللسانية بنوعها حيال الاستعانة بالمعالجة الإحصائية للمادة اللغوية الحافلة بمظاهر التنوع والاختلاف ؟

يقرر فرانك آنشين Frank Anshen أن الدراسات اللسانية قد سلكت حيال اعتبار التنوع ومعالجته إحصائياً واحداً من مسالك ثلاثة :

أما المسلك الأول فهو تجاهل التنوع ، والاعتراف بأن كل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية المعنية هو متكلم مثالي بالضرورة ، ومن ثم له الحق في أن يكون المتحدث الوحيد باسم جماعته في هذا المجال ، إذ هي بدورها جماعة مثالية متجانسة في سلوكها اللغوي ولما كان هذا التجانس لا وجود له على الحقيقة = وكانت دراسة التنوع اللغوي مرادة في ذاتها لأهيتها النظرية ، ولأنها قوام علوم لسانية بأسرها - وجدنا آنشين يطلق على هذا الاتجاه تسمية لا تخلو من مسخرفة ، إذ يسميه اتجاه (عدّ عن ذا) (ignore it !) .

وأما ثانيها فقد توسطت بين الأمور ، وطالب بتقييد المادة المدروسة بالبيئة والمقام . وإن كان ذلك قد جرى على نحو غامض لا يمكن الاطمئنان إلى أسسه وإجراءاته ونتائجه .

وأما ثالثها فقد أثر اللجوء إلى المعالجة الإحصائية لضبط طرق اختيار الرواة والعينات ضبطاً علمياً ، وبحول البيانات غير الرقمية إلى بيانات رقمية ، وبخبر الصلوق والثبات في النتائج ، ويستكنه الدلالات الإحصائية للأرقام^(١١) .

ولا شك أن المسلك الأخير هو الحل العلمي المنهجي لمعالجة ظاهرة التنوع اللغوي على نحو علمي منضبط ، بل إن أهمية الإحصاء قد ثبتت لكثير من علوم اللسانيات التقريرية مثل اللسانيات التاريخية على سبيل المثال^(١٢) . أما في الأسلوبيات اللسانية فالحاجة إليه أشد إلحاحاً ، لأنها لا تقارب السلوك اللغوي بما هو ظاهرة متنوعة فصب ، بل تقاربه أيضاً بما هو استعمال لغوي متميز بالقياس إلى غيره . وبذلك يتجاوز اللجوء إلى الإحصاء هنا دائرة الجواز إلى دائرة التنبؤ . بل إلى دائرة الوجوب إذا أريد للتشخيص الأسلوبي وللأحكام النقدية الناتجة عنه أن تناط جميعها بأوصاف ظاهرة منضبطة .

١ - ٢ - ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي

ثمة مفاهيم تكتسب بشيوعها في الاستعمال العام وضوحاً زائفاً ، حتى إذا ما رازها العلماء واختبروها ، وتلاشتها المدارس العلمية على اختلاف أصولها ومنهجها وإجراءاتها البحثية تكشف أمرها عن قدر لا يستهان به من الغموض والتعقيد . وإلى هذا الصنف من المفاهيم ينتمي مصطلح (الأسلوب) ، سواء في مصنفات اللسانيين أو النقاد^(١٣) . وتحرير هذا المفهوم جدير بأن يكون مطلباً علمياً لذاته . بيد أن التزام البحث بقضية المعالجة الإحصائية للأسلوب سوف يضطرنا إلى أن نقبل نوعاً من الحد هو إلى التفسير أقرب منه إلى التعريف ، فعليه اللسان والنقاد - على وجه الإجمال - يرون في الأسلوب واحداً من مجليات التنوع في السلوك القولي . إلا أن ماصدقات هذا التنوع من اللساني أوسع منها عند الناقد . ووفق ما بين الرجلين هو فرق في الغاية تتبعه سلسلة من الفروق ، فغاية اللساني هو الكشف عن أسرار الظاهرة اللسانية ، وما سوى ذلك من غايات هو عنده تالٍ وتَبِع . وغاية الناقد هو قراءة العمل الأدبي وتفسيره وتقويمه ، وما سوى ذلك عنده من الغايات تالٍ وتَبِع وينشأ من ذلك أن النص الأدبي هو واحد من مظاهر استخدام اللغة التي يوليها اللساني عنايته في بحث الأسلوب من منظوره الخاص . أما الناقد فالتص الأدبي فُرُكُل بضاعته ، والموضع الوحيد لتأمله ونظره . ويدهي أن المكون الأسلوبي اللساني هو بالنسبة إليه واحد من مكونات أخرى ، لا يكمل عمله إلا بالوقوف

(١١) Frank Asenon, "Statistics for Linguists", Newbury House publishers, U.S.A., 1978, PP. 2-3.

(١٢) من الإحصائيات للمسمية في اللسانيات التاريخية نظر .

-Milka Ivic, "Trends in Linguistics" Trans. by Muriel Heppell, 2nd Printing, Mouton, 1970 PP. 219-220.

-D. L. Osmited, "Lesiostatistics as" Proc "of Genetic Relationship", Anthropological Linguistics", Vol. 3, No. 4, PP. 9-14.

-H. A. Gleason, Jr., "Counting and Calculating for Historical Reconstruction", Anth. Linguistics, Vol. 1. No. 2, PP. 11-32.

(١٣) من مفهوم الأسلوب نظر : سمد مصلح . المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣ - ٢٦ .

عليه ، ويتنقص عمله بالوقوف عنده . تلك هي المنطقة التي يتقاطع عندها عمل اللساني والناقد ، ثم يتجاوزها كل منهما ماضياً إلى غايته ، إنها منطقة الوصف والتشخيص ، وسنعود إلى هذه القضية بفضل بيان في فقرة قادمة . وحسبنا هنا أن نشير إلى سعة ماصدقات مفهوم (الأسلوب) في البحث اللساني ، فهو إذا أضيف إلى فرد كان أسلوباً فردياً ، وإذا أضيف إلى فئة من فئات المجتمع كان أسلوباً فئوياً ، وإذا أضيف إلى عصر بعينه كان أسلوباً مميزاً لحقبة من حقب تاريخ اللغة ، وإذا أضيف إلى جنس من أجناس القول كان أسلوباً نثرياً أو شعرياً أو قصصياً أو مسرحياً ، وإذا أضيف إلى الوسيلة الناقلة كان أسلوباً صنفياً أو إذاعياً أو مكتوباً أو مقروءاً . وإن الفارق لواجب في هذا العرض المختصر أمرين : سعة ماصدقات المفهوم عند اللساني والقياس إليه عند الناقد ، وتقاطع الاهتمامات بين اللساني والناقد على اختلاف الوسائل والغايات بينهما .

ويمكن أن نتلمس مجال المعالجة الإحصائية بين تعريفين شهيرين من تعاريف (الأسلوب) .

الأول : تعريف يجد الأسلوب بأنه مفارقة departure (أو انحراف deviation)^(١١) عن النموذج آتبع من القول ينظر إليه على أنه معيار norm . وبالمقارنة بينهما يقع التمييز بين (النص المقارن) و (النص - النمط) . ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

والثاني : تعريف يجد الأسلوب بأنه اختيار Choice أو انتقاء Selection يقوم به المنشيء لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة .

إن هذين التعريفين - وإن كان لهما من طابع البساطة ما يكاد يبلغ مبلغ البداهة - يثيران من الإشكالات النظرية أو المنهجية أكثر مما يجلان ، فأولها يقتضي معرفة بخصائص التعبير الأصيل (أو النمطي) (أو المعتاد) ليكون في الامكان قياس التعبير المعدول deviant إليه . وهو أمر لا يمكن أن يكون موضع اتفاق أو إجماع ، كما أن السبيل إليه صعبة متوعدة المسالك . وثانيها يلزمنا معرفة قائمة الأبدال المتاحة ، تلك التي يُعْمَلُ المنشيء فيها فكره بالاختيار والاستبعاد . والأسئلة التي يطرحها هذا التعريف كثيرة متشعبة ، لعل من أهمها : هل لعل هذه القائمة وجود بالفعل ؟ وهل من المسور التوصل إلى صياغتها ولو على وجه التقريب ؟ ثم ماذا عن طبيعة هذا الاختيار : أتراه يتم من المنشيء عن وعي ولقصد ؟ أم أنه يتم بطريقة جبرية لا سيطرة حقيقية عليها للمنشيء ؟^(١٢)

(١١) انظر مثلاً ما روت لهذا الموضوع في المرجع السابق ذكره P. 7 وأيضاً عند تسجيلان يعرفان في حواشي له بعنوان :

"The Place of Style in the Structure of the Text", in *Literary style: A Symposium* Op. Cit, PP. 30-1.

(١٢) لمة دراستان مدعان في طريقة (الاختيار) هنا :

-Louis T. Millic, "Rhetorical Choice and stylistic option", in *Literary Style*, Op. cit, PP. 77-88.

-Jane R. Walpole, "Style as Option" in *College Composition and Communication*, Vol. XXXI, No. 2, 1980, PP. 205-212.

بيد أن من المثير حقاً أن هذه الإشكالات هي التي تفتح الباب لتدخل المعالجة الإحصائية للأسلوب على نحو يمكن أن يفيد في تحرير كثير من التصورات النظرية والإجراءات البحثية . وهو ما سيعرض له هذا البحث فيما بعد . ونبادر هنا إلى تأكيد أن ما بين التعريفين من وجوه التكامل هو أوسع من وجوه الاختلاف أو التناقض . ويرجع التعريف الثاني نظيره من الوجهة العملية - فيما نرى - لأمر ، منها أولاً : أن الاختيار أمر تصدقه تجربة الأدباء فيما يكتبون . وثانياً : لأن القول بأن الأسلوب هو تعبير معنوي عن أصل معتاد يمكن أن يؤدي إلى القول بأن كل تعبير جاء على الأصل دون عدول هو خلوم من الجمال . وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه . وثالثاً : لأن الانحراف عن النمط ومفارقته يمكن أن يعد شكلاً من أشكال الاختيار ومحصلة له . ورابعاً : لأن مفهوم الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة الأسلوبية وضم شتاتها في منظومة بحثية واحدة ، ذلك أن الاختيار امر يفترض أن يقرم به المنشيء على كافة مستويات التواصل بدرجات متفارقة . ومن ثم فهو ليس محض اختيار لغوي وحسب ، بل هو محكوم من جهة بإمكانات المقال ، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام Context of situation . وتشمل مقتضيات المقام عوامل كثيرة ، منها مصدر الخطاب ، والمقصود بالخطاب ، وموضوعه ، والوسيلة المعتمدة في الإبلاغ ، وجنس الخطاب ، والعلاقة بين مصدر الخطاب والمقصود به ، والحضور الذهني أو العيني للمخاطب ، والسر الذي يجري عليه وقائع الخطاب ، وغير ذلك كثير مما ستعرض له في حينه .

وأياً ما كان المفهوم الذي يعتمد أساساً للتحليل ، فثمة أمران نحسبهما موضع اتفاق بين الدارسين :

أولهما : أن الأسلوب مفهوم احتمالي في جوهره . وهو هذه الصفة مستحق لأن يكون موضوعاً للمعالجة الإحصائية إذا شئنا إحكام الوصف والتشخيص .

وثانيهما : أن الأسلوب بمصادقاته المختلفة لا يمكن تحليله تحليلاً شافياً إلا في ضوء التحليل الشامل للغة المعنية ، ذلك أن هذا التحليل الشامل هو بمثابة تحديد لخلفية الصورة (أو الأرضية) The background التي تبرز بالقياس إليها الشكل The foreground ، فلا بد من قياس المتنوع إلى المتجانس ، والخاص إلى العام ، يقول هالداي Halliday : (إذا كان لعالم اللسان أن يأمل في الإسهام في تحليل الأدب الإنجليزي ، فإن عليه أولاً أن ينتج وصفاً شاملاً لإنجليزية العصر على كل المستويات)^(١٦) .

وإذا كان الوصف الشامل للغة هو الأساس للمعتبر لفحص الظاهرة الأسلوبية فإن التشخيص الإحصائي للأسلوب لا يمكن أن يستغني فيه أوبه عن التشخيص الإحصائي لباني اللغة ، وذلك في إطار الظاهرة المدروسة على أقل

(١٦) M-A. K. Halliday, "The Linguistic Study of Literary Texts", Proceedings of the Ninth International Congress of Linguists, ed. Huruode Luot, The Hangue, 1964, P. 302.

تقدير . ومن هنا تنشأ علاقة وثيقة بين الساتيات الإحصائية والأسلوبيات الإحصائية ، بحيث تتولى الأولى بيان الخصائص المشتركة في الاستعمالات اللغوية وتقوم الأخرى بالدراسة الدالة للخصوصيات والفروق . أما حين يتعذر وجود الوصف أو الإحصاء الشامل - كما هو الحال في العربية - فإن قصارنا أن نفيس انحرافاً إلى انحراف ، أو اختياراً إلى اختيار . وسيلنا إلى ذلك هي المقارنة بين الخصائص الأسلوبية لأكثر من نص عند منشيء واحد ، أو عند أكثر من منشيء ، أو في نوع بعينه من النصوص عند عدد من المنشئين ، أو في جزء من أجزاء نص بعينه إلى غيره من أجزاء النص ، أو في مدونة كاملة .

٢ - مبحث الإحصاء

٢ - ١ - المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية :

٢ - ١ - ١ - تعريف : تعني المتغيرات الأسلوبية Stylistic Variables مجموعة السمات اللغوية (بالمفهوم الأوسع لهذا المصطلح) ، التي يعمل فيها المنشيء بالاختيار أو الاستبعاد ، وبالتكثيف أو التخفيف ، وبتابع طرق مختلفة في التوزيع ليشكل بها النص ، ويحتشد تصبح المتغيرات الأسلوبية خصائص مميزة Stylistic features أو موازئ Dis Criminations ، ومن ثم ينبغي التمييز بين مفهوم المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية ، من حيث إن المتغيرات الأسلوبية هي مادة غفل متاحة من جهة الإمكان العقلي على الأقل أمام جميع المنشئين ، ليعمل فيها كل منهم بما سبق بيانه من طرق لتكون في النص خصائص أسلوبية . وإذن يكون المتغير خاصة أسلوبية بالقوة ، تتحول في النص إلى خاصية أسلوبية بالفعل .

٢ - ١ - ٢ - أنواع المتغيرات الأسلوبية

المدخل الأساسي لتصنيف المتغيرات الأسلوبية هو الواسطة الناقلة المستخدمة في الرسالة اللغوية (أو النص) ، فللإلقاء والأداء الشفهي أساليب تفارق أساليب النص المسطر على الأوراق . ويمكن تصنيف المتغيرات الأسلوبية إجرائياً وتبعاً لذلك إلى متغيرات شكلية وصوتية وصرفية وتركيبية ودلالية . ونود هنا أن نورد ملاحظ ثلاثة :

أولها : أن المتغيرات الشكلية تنصرف معظمها إلى النص الملون ، وتعالج الصورة الطباعية أو التدوينية التي يظهر بها النص على الورق ، ومظاهر التشكيل الجمالي للحروف بما هي كم فيزيقي يدرك بالبصر . ولا ينبغي ذلك أن يكون لهذه التشكيلات الجمالية أبعاد أخرى على المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي .

ثانيها : أن المتغيرات الأسلوبية مختلف أنواعها يمكن اعتبارها على مستويين : مستوى الجملة في ما نطلق عليه مصطلح (نحو الجملة) Sentence Grammar ومستوى النص في ما اصطلاح على تسميته (نحو النص) (١٧) Text Grammar .

(١٧) لبنان القصود من ملين للمطالعين انار :

Teun A. Von Dijk, "Some Aspects of Text Grammar: A Study in Theoretical Linguistics and Poetics", Mouton, The Hague, 1972, PP. 10-12.

-Wilbur Pickering, "A Frame Work for Discourse Analysis", Summer Institute of Linguistics, Publication No. 64, 1980, P. 5

ثالثها : أن ما ذكر من أنواع المتغيرات هنا إنما ذكر على سبيل التمثيل لا على جهة الاستقصاء والخصر . وقد سوغ ذكرها أنها من أكثر المتغيرات سيورة في البحث الأسلوبي ، وهي أطوعها للمعالجة الإحصائية ، وفي ما يلي قائمة بالمتغيرات الأسلوبية المختارة :

أولاً : من المتغيرات الشكلية :

- (١) الشكليات التي تميز الشعر من النثر (قصة البيت إلى شطرين) .
- (٢) توزيع الأبيات (الأسطر) على الصفحة .
- (٣) الأشكال الهندسية البهيمة .
- (٤) نظام الفراغات على الصفحة .
- (٥) فنون البديع القائمة على التصحيف والتحريف .
- (٦) طول الكلمة (مقياساً بعدد الحروف) .
- (٧) طول الجملة (مقياساً بعدد الكلمات بحسبان الكلمة كما فيزيقياً متصلاً مسبوقاً وملحوقاً بفراغ)^(١٨) .
- (٨) أنواع من الجناس (المركب والتشابه) .
- (٩) علامات الترقيم^(١٩) .

ثانياً : من المتغيرات الصوتية :

- (١) التوزيع النسبي لفئات الفونيمات^(٢٠) .
- (٢) أنواع المقاطع (المفتوحة / المغلقة)^(٢١) .
- (٣) التشاكل المقطعي isosyllabism^(٢٢) .
- (٤) الكلمات الموحدة onomatopoeic .

(١٨) هذا للمبرر لتحديد الكلمة هو للمبرر لاختلاف به إحصائياً بالنسبة للصورس المقربة . وقد حول عليه كاتب هذا البحث في دراسة خاصة تتوخى المقربات (انظر حاشية رقم ٢٤) . وأيضاً :

-Jan Helbich, "Statistical Methods on Evaluating Words for Indexing Purposes" in Prague Studies in Mathematical Linguistics Academia, Prague, 1972, No. 4, P. 66.

(١٩) علامات الترقيم هي أحد الفعرات التي يمكن استبدالها في لباس أسلوبية طول الجملة بنوعها . انظر :

George A. Miller, "Language and Communication", New York, Toronto, London, 1963, PP. 126-7.

(٢٠) قلت بعض البحوث باستخدام مقياس كاي ٢ في دراسة توزيع فونيمات الصوتيات في خمس مسلمات بعلية انظر :

Mary C. Bateson, "Structural Continuity in Poetry", Mouton. 1970, PP. 60-67.

(٢١) يرى بعض العلماء ارتباطاً بين حسن الجرس في الشعر وشيوع المقاطع المفتوحة انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، القاهرة ، الانوار للنسرة ، ١٩٦٥ ، ط ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢٢) عن التشاكل للعظمي انظر :

A. W. DeGroot, "Phonetics in its Relation to Aesthetics", in Manual of Phonetics, ed. B. Malcomberg, Amsterdam, 1968, P. 538.

- (٥) أنساق نبر الكلمات Word-Stress (أو أشكال الوزن العروضي) .
- (٦) قافية الصدارة alliteration .
- (٧) الجناس بأنواعه (التام والناقص) .
- (٨) السجع .
- (٩) نظم التفعيلة ومنها :
- (أ) القافية التامة True rhyme (ويراعى فيها التطابق التام) .
- (ب) لزوم ما لا يلزم .
- (ج) القافية البصرية eye rhyme (وتقوم على التطابق في الرسم الكتابي دون النطق) .
- (د) القافية الناقصة half rhyme (وتقوم على التشابه لا التطابق في النطق ، ومنها ما يسمى بمصطلح العروضيين بالإكفاء والإجازة والسند بأنواعه) (٢٣) .
- (هـ) القافية السمعية ear rhyme (ويراعى فيها تطابق الانطباع السمعي دون الرسم الكتابي) .
- (١٠) القلب .
- (١١) تشاكل البدايات anaphora .
- (١٢) التشريع .
- (١٣) طول الكلمة (مقبسا بعدد المقاطع أو الفونيمات) .
- (١٤) تماثل الصوائت assonance .
- (١٥) تماثل الصوائت Consonance .
- (١٦) انسجام الصوائت Vowel harmony .
- (١٧) حسن الوقع euphony . وترتبط بالشيوع النسبي لفئات معينة من الأصوات وهي الصوائت ، والصوائت الرنانة resonants الألفية والجانبية والترددية وأنصاف الصوائت في مقابل الفئات الأخرى : الاحتماسيات والاحتكاكيات . كذلك يرتبط حسن الوقع - كما أسلفنا بالشيوع النسبي للمقاطع المفتوحة في مقابل المقاطع المغلقة) .
- (١٨) تقابل السمات الفارقة distinctive features .
- (١٩) التخاليف الصوتي dissonance .
- ثالثاً : من المفاهيم الصرفية :**
- (١) أقسام الكلم : (الاسم ، الفعل ، الصفة ، الظرف .

(٢٣) عربيت ظاهرة الناقصة والتامة باستفاضة في :

من - مويدي : الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ - ١٩٧٠ : تطور أشكاله وموضوعه ونظمه الأدب العربي ، ترجمة شبيب السيد وسعد مصارع ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٥ - ٢٢٦ .

(٢) الصيغ الصرفية . (الأفعال ، الجموع ، المصادر ، المشتقات) .

(٣) مبتكرات الصيغ .

رابعاً : من المتغيرات التركيبية :

(١) المركبات النحوية : (المركب الجري / النظري / النتمي / البدلي / العطف) .

(٢) أنواع الجمل : (اسمية / فعلية ، بسيطة / مركبة / معقدة ، إنشائية / ، خبرية) .

(٣) التنافر والتعقيد التركيبي .

(٤) جميع مباحث علم المعاني في البلاغة العربية .

(٥) المجاز بالحلف (من مباحث علم البيان) .

(٦) البعد التركيبي من المقابلة .

(٧) البعد التركيبي من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل (بالمصطلح البلاغي) .

(٨) فنون بلاغية من مباحث علم البيان والبدیع مثل :

(التضويف ، والمكس ، واللف والنشر ، والابتداء والتخلص والانتهاء ، والجمع والتفريق والتقسيم ، ورد الأفعال

على الصدور ، وغير ذلك)

(٩) الصحة النحوية grammaticality .

(١٠) الجواز النحوي acceptability .

خامساً : من المتغيرات الدلالية :

(١) الوحدات المعجمية lexemes .

(٢) السجل المعجمي register .

(٣) المفردات القديمة archaism .

(٤) المفردات الدخيلة .

(٥) التركيز والتشتت في توزيع المفردات .

(٦) المولك .

(٧) تنوع المفردات^(٢٤) .

(٨) الثروة اللفظية^(٢٥) .

(٢٤) انظر : محمد صليح : قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب . دراسة تطبيقية على نفاذ من كتابات الشاعر العراقي عبد حسين ، مجلة كلية الآداب والعلوم

الاسكانية ، جامعة لللك عبد العزيز ، مج ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٤٩ - ١٦٩ .

(٢٥) صاغ المفردة الخاصة بياس الفرة اللغوية بيرجرو . ونظر نقلاً هذه المفردة وتطبيقاتها في :

Marie Tesitelova "On The SO-Called Vocabulary Richness", in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, 1972, No. 3, PP. 104-115.

- (٩) البعد الدلالي للاستعارة (بأنواعها : التجريدية / الإحيائية animation التشخيصية Personification) .
 (١٠) البعد الدلالي للتشبيه والمجاز المرسل والكنائية .
 (١١) فنون بديعة في التراث البلاغي مثل : الطباق ، والتنديج ، ومراعاة النظر ، وإيحاء التناسب ، والإحصاء ، والمشاكلة ، والرجوع ، والتورية ، والاستخدام ، والتجريد ، والمبالغة ، والتبليغ ، والإغراق والغلو ، والتشويق والعكس . . الخ) .

سادساً : من متغيرات ما فوق الجملة^(٢٦)

- (١) طول الفقرات وتوزيعها .
 (٢) هرمية البنية المنطقية للنص .
 (٣) افتتاح النص أو انغلاقه^(٢٧) .
 (٤) هرمية البنية النحوية : (الكلمة ← المركب ← العبارة ← الجملة ← الفقرة) .
 (٥) الربط بين الجمل .
 (٦) التوافق والتخالف في مباني الجمل .
 (٧) وسائل السبك Cohesion (صوتية / حرفية / تركيبية / معجمية) .
 (٨) المعلومات المقدمة given information^(٢٨) .
 (٩) معدل ورود المعلومات rate of information^(٢٨) .
 (١٠) الالتفات (على مستوى النص) pronominalisation .

تلكم الأنواع من المتغيرات الأسلوبية ذكرت هنا لا قصداً إلى الحصر . ويمكن القول - على وجه الإجمال - إن أي خاصية لغوية مائزة distinctive أو فائضة redundant^(٢٩) هي متغير أسلوبى بالفعل وخاصية أسلوبية بالقوة . وهي بذلك قابلة لأن تكون موضوعاً للمعالجة الإحصائية الأسلوبية بهدف التشخيص الأسلوبى للنص ، أو للكشف عن أنواع التشكيل الأسلوبى الذى خضعت له من قبل المنشئ .

(٢٦) لغة غلاف في تحديد الوحدة الحاملة للأسلوب : أي الجملة أم ما فوق الجملة . ومن التكاليف بالآراء ويتشابه إيمان أنظر :

R. Ohmann, "Literature as Sentences" in *Essays on the Language of Literature*, eds. S. Chatman and S. Levin, Boston, 1967, PP. 232-3.

على حين يرى أ. جود السبائيت شخص بمعنى الجملة وتفرده الأسلوبات بمعنى ما فوق الجملة . انظر :

A. Hill, "Essays in Literary Analysis", Austin, Texas, 1965, P. 69.

(٢٧) افتتاح النص أو اختلاطه ، إحدى الخصائص الأسلوبية التي يعزل عليها بعض الباحثين لتمييز الفرق ما بين لغة الشئ ولغة الرسل . انظر :

Thomas J. Farrell, "The Female and Male Modes of Rhetoric", *College English*, Vol. 40, No. 8, April, 1979, PP. 909-910.

W. Longacre, *Op. Cit.*, PP. 71-74 and 79-81.

(٢٨)

(٢٩) للتمييز بين الخواص المائزة والمبالغة يدرجها في التشكيل الأسلوبى انظر :

A. W. Degroot, *Op. Cit.*, PP. 537-8.

٢ - ١ : المتغيرات الأسلوبية والطرز النحوي :

تشتمل قائمة المتغيرات الأسلوبية على تصورات ومصطلحات لسانية ، وعلى مفاهيم يكثر استخدامها في البلاغة المدرسية . ومعلوم أن التعاريف التي تساق لأكثر هذه التصورات ، وتوظيف ما هو معروف منها في التحليل الأسلوبي إنما يختلف باختلاف المدارس والاتجاهات اللسانية ، فكثير منها ليس موضع اتفاق وإجماع ؛ ضرورة أن هذه المدارس يخالف بعضها عن بعض في المنطلق الفلسفي والغاية ومناهج التحليل وإجراءاته .

وتطرح هذه الحقيقة البحثية على القائم بالتحليل الأسلوبي ضرورة تحديد الطراز النحوي grammatical model الذي يعتمد أساساً لتحديد مفاهيمه ، ومن ثم لتحديد المنهج وإجراءات التحليل وطرق القياس . وقد جهل فضيلة هذا الأمر - على أهميته البالغة - كثير من الذين عالجوا بعض مسائل تاريخ العربية أو بنيتها أو ظواهرها الأسلوبية ، حين استخدموا هذه المصطلحات ملقن إياها ملقن للمصطلحات ، على توهم وضوح مفاهيمها واستقرارها وثباتها . وليس هذا الظن صواباً بإطلاق . ولا يتسع المجال هنا لتتبع أشهر الطرز النحوية واستعراض علاقتها بالدراسة الأسلوبية بعامة والإحصائية منها بخاصة . بيد أننا هنا نعيد ما سبق أن أشرنا إليه في موضع آخر من أن (الطرز النحوية جميعها - بما في ذلك الطراز التقليدي - كلها قابل من حيث المبدأ لأن تشكل أساساً منهجياً للبحث الأسلوبي)^(٣٠) . هذا وإن كان من الطبيعي أن تتفاوت الطرز في مدى كفاءتها ووفائها بمتطلبات الوصف الدقيق للخصائص الأسلوبية .

٢ - ٢ : أساليبيات المقال :

يقصد بأساليبيات المقال التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية Stylization أو بعبارة أخرى - تنظيم السمات اللغوية في النص على نحو يتحول به من مجرد كونها بنوداً في قائمة المتغيرات إلى خصائص أسلوبية مائزة للنص .

وينبغي هنا إيراد عدد من الملاحظات الهامة :

الأول : أن قائمة المتغيرات الأسلوبية التي سبق إيرادها هي محصلة رصد وتأمل لعدد غير قليل من الدراسات الأسلوبية . وقد يكتب بعضها الصفة الجامعة Universal بحيث يمكن أن تصادف في اللغات على اختلافها ، وقد يكون لبعضها طابع من الخصوصية يجعله وقفاً على لغة معينة . كما أن أهمية بعضها قد متفاوتة من لغة إلى لغة بحسب خصائص بنيتها وقوانينها .

الثاني : أن هذه القائمة ليست جامعة ولا مائنة ، ولا يبعد أن يجتهد مجتهد فيضيف إليها ، أو ينقص منها ، أو يعدل من العلاقات بين وحداتها بما يؤيده إليه تأمله للنصوص واجتهاده في رصد خصائصها .

الثالث : من المحال أن يستخمد منشئ واحد لا في نص واحد ولا في مجموعة من النصوص جميع المتغيرات الأسلوبية التي سبق ذكرها . وإنما يتحقق التشكيل الأسلوبي باختيار عدد منها يتم استخدامه نماذج الأساليب^(٣١) .

(٣٠) - سعد مصلوح - الأسلوب - ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣١) - هذا خلافاً لما يتصوره بعض الباحثين من إمكان ذلك بل وعبه . فإثر صلاح لفظ : (لا يمكن الوصول إل نتيجة ملئة دون حصر شامل لكل الحواصص في جلة النص)

(علم الأسلوب ، ص ٣٠٦) . ونظراً على هذه القفلة في :

سعد مصلوح - دراسات نقدية في السلاسل العربية للمصاحفة ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٨٩ م ، ص ٦٥ - ٦٦ .

الرابع : إن التشكيل الأسلوبي عملية مركبة تتم في تسيج متشابهة معقد على جميع المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية في آن معاً .

الخامس : أن تعتمد عملية التشكيل الأسلوبي يقابلها صعوبة عائلية من جانب الباحث عند محاولته فك تداخلات التسيج . وتشخيص الخصائص المائزة ، واستكناه دلالاتها .

السادس : أن المستويات السابق ذكرها تتفاوت في مدى طواعيتها للتشكيل الأسلوبي . وتحتمل المتغيرات الدلالية قمة القابلية للتشكيل ، يليها المتغيرات الصرفية والتركيبية . أما المتغيرات الصوتية فهي أكثر خضوعاً لنظام اللغة ، ومن هنا تبدو مهمة الشاعر في التشكيل الأسلوبي صعبة بالقياس إلى غيره من النشئين ، وبها يتفاوت الشعراء في قدراتهم وخصائص شاعرهم .

السابع : أن القول بقيام نص ما على متغيرات أسلوية معينة لا ينبغي إمكان وقوع أبدأها أو نقائصها من المتغيرات في النص نفسه ، أو في غيره من نصوص للنشئ الواحد . وإلغا الفصيل في تقويم دورها في التشكيل الأسلوبي هو لدرجة الشبروع وطرق التوزيع .

الثامن : أن الاختيار ، والشبروع ، والتوزيع ، هي العوامل الثلاثة التي تحدد متضارفة التشكيل النهائي لأسلوب النص . وبها تتحقق مقارنة النص للمعيار المعتاد .

هذه الملاحظ الثمانية هي أهم ما ينبغي اعتباره عند النظر في شأن المتغيرات الأسلوية والطريقة التي تتحول بها من مجرد قائمة صباه إلى خصائص أسلوية فاعلة في التشكيل الأسلوبي للنص . بقي أن نقرر أن جميع ما سبق لإبراده مما هو واقع تحت تسمية المتغيرات الأسلوية إنما يمثل القسم الأول في عملية التشكيل الأسلوبي ، ونعني به القسم المقالي . وهذه الحقيقة تفتح باب القول في أمر القسم الثاني وهو القسم المقامي . وكلا القسمين يرتبط بالآخر أوثق ارتباط في هذا الصدد . ومن ثم كان لا بد أن نتخذ من مفهوم المقام ومحدداته context parameters موضوعاً للفقرة التالية .

٢ - ٣ : أسلوبيات المقام :

من جوامع الكلم التي تتردد في كتب السلف مقولتان ، أولاهما : (لكل مقام مقال) والأخرى : (البلاغة هي موافقة الكلام لمقتضى الحال) . وقد اكتسبت هاتان المقولتان في القديم والحديث طابعاً تعليمياً . ولكنها تقرران من الوجهة العلمية مبدأً تطبق على صحتة جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية خاصة والإنسانية عامة ، ألا وهو وجود علاقة لا يمكن تجاهلها - تنظيراً أو تحليلاً - بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي . ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلاً من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومون إلا به . وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال^(٣٢) .

(٣٢) انظر : السيوطي : المرجع السابق ذكره ، ج ١ / ص ١٠٧ - ١١٠ . وقد ناقش هذه المسألة أيضاً : طام حسان . انظر : العربية معانها ومعناها ، الجزء المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب . ولقد سبق الإشارة إلى أن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب ، بل تحكمها كذلك كمعدلات المقام . ونعني بها الخصائص التي تتحدد الطرف الاجتماعي - للمادي الذي سبق في إطاره الكلام ؛ سواء أكان منظوقا أم مكتوبا Socio-physical envelope .

والعلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر ، فكما أن المقال دليل على المقام ، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال . ونظّل العلاقة الجدلية قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية (فحين يتكلم زيد إلى عمرو يكون عمرو متعبها لاستنباط الطريقة التي صنف بها زيد مقام الكلام ، أي أنه - على سبيل المثال - سيلفظ نظرة زيد إلى مستوى الألفة بينهما أو إلى ما ألزم زيد نفسه باتباعه أثناء الكلام من التاديب اللائق . وسيؤذي ذلك إلى تأثير مرتد ، أي أن الأفكار التي كونها زيد حول ما استنبطه عمرو من أفكار عنه تؤثر على نظرة عمرو إليه ، كما تؤثر أيضا على تصنيفه هو - أي زيد - لمقام الكلام مع عمرو ، ومن ثم تؤثر على أسلوبه^(٣٣) .

وهكذا يتبين لنا أن العلاقة التي تحكم المقام والمقال - في الموقف الحي - ليست بالبساطة التي تبدو بها بادي النظر .

على أن ثمة جانبا آخر يزيد من تعقد تلك العلاقة ، ذلك أن ثمة فنونا من القول والكتابة كالأمراض والتوبيخ والسخرية وغيرها تعتمد في تشكيلاتها الأسلوبية وفي بلوغ غايتها من التأثير والإبلاغ على المقارفة القائمة بين أجزاء المقال^(٣٤) ، أو المقارفة القائمة بين المقال والمقام^(٣٥) . وما ينشأ عن هذه المقارفات من خللان للتوقع يتحقق به التأثير الأسلوبي المراد . ومن ثم فإن العلاقة بينهما في هذا الصدد يراد لها أن تخالف قصدا من المؤلف والمتوقع ، على نحو لا يتحقق الغرض من المقال إلا به ، وهو غلط من العلاقة العكسية غير المباشرة لا يقل أهمية في هذا المجال عن العلاقة الإيجابية المباشرة بين القولتين .

وبالنظر إلى ما تتمتع به فكرة المقام من أهمية محورية في عملية التشكيل الأسلوبي - على النحو الذي سلف بيانه - وبالنظر إلى أن اعتبار كمعدلات المقام وإدخالها في المعادلة الإحصائية لتشخيص الأساليب يواجه الأسلوبيات الإحصائية بتحدٍّ حقيقي ينذر مثله في التشخيص الإحصائي لأسلوبيات المقال - نقول : نظرا لما تقدم كان لزاما أن نعرض بالبيان هذه المحددات والكيفية التي يمكن أن تكون بها موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية .

ثمة محاولات مختلفة بذلها مشغلون بعلوم اللسان والدراسات الاجتماعية لوضع صيغة جامعة لمحددات المقام تكون لها القابلية للتطبيق عند تصنيف المقامات والمقالات في مختلف اللغات . ولا شك أن الفروق الثقافية بين الجامعات الكبرى والجامعات الصغرى واختلاف المقامات في تفاصيلها الدقيقة ذات التأثير المحتمل على تشكيل الأسلوب - كل أولئك يجعل مهمة وضع التصنيف الجامع لمحددات المقام أمرا لا ينقاد للباحثين في يسر . ومن ثم ، لا

N. Enkvist, *Linguistic Stylistics*, P. 63.

(٣٣)

(٣٤) مثله قوله تعالى : « فبشرهم بذياب الهم » آل عمران : ٢١ « إذا ما قرئت قوله تعالى : « وبشر الصابرين » (البقرة : ١٥٥) .

(٣٥) مثله قوله تعالى : « قد أتت الذئب الكريم » (النمل : ٤٩) « إذا ما قرئت بقوله تعالى : « فلو قرأ قرآن تزيّنكم إلا علينا » (النازعات : ٣٠) .

وجود لصيغة نهائية أو مثالية من هذا النوع . وعلى من يستخدم أيا من هذه الصيغ المقترحة أن يعيد النظر فيها لاستيفاء ما يراه ناقصا ، واستبعاد العناصر غير ذات التأثير على الظاهرة موضوع الدراسة .

ولعل النموذج الذي اقترحه دافيد كريستال D.Crystal وديريك دافي D.Davy من أكثر نماذج محددات المقام بساطة وشمولا وقابلية للتطبيق في مجال تشخيص الأساليب ، ويتخذ هذا النموذج الشكل التالي (٣٦) :

(أ) محددات التفرد individuality

- اللهجة

- العصر

(ب) محددات الخطاب

- واسطة الاتصال medium

(كتابية ، كلام شفهي)

(واسطة بسيطة / واسطة مركبة)

- المشاركة participation

- (أداء فردي ، حوار)

(مشاركة بسيطة / مشاركة مركبة)

(ج) محددات المجال province

مثال : لغة المبادأة ، الإعلان ، القانون . . . الخ .

(د) محددات المواقف الاجتماعي

وتتصل بالمكانة الاجتماعية النسبية للمشاركين في عملية الاتصال من حيث الرسمية ، والتأديب ، والقراءة ، وعلاقات العمل .

(هـ) المحددات الشكلية modality

وتشمل ما يوجد من فروق في صيغة الاتصال كالرسائل ، وبطاقات البريد ، والملاحظات والبرقيات ، والتقارير والمقالات العلمية ، والمتون الدراسية .

(و) العوارض الشخصية singularity

وتختلف عما يتدرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة ويمكن استخدامها في التلاعب أو المناورة . ويتم إتحادها في الموقف لإحداث تقابل لغوي محدد (ومثلها أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقة الراقية أو لكونه أصمعية) . أما عوامل التفرد فتمتاز بالديموم والثبات .

٢ - ٤ : التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام/ المعنى/ المقال :

عالج هذا البحث فيما مضى من فقرات جانب التغيرات الأسلوبية المقالة ، وجانب عدادات المقام ، مقترحا أحد النماذج التي أثبتت كفاءتها في هذا الصدد ، ونعني به نموذج كريستال ودافي على ما سبق بيانه .

يبد أن عملية التشكيل الأسلوبي لا يمكن حصرها في ثنائية المقال والمقام ، ذلك أن هذا الحصر إنما يغفل الضلع الثالث من مثلث التشكيل الأسلوبي وهو جانب (المعنى) أو (المكون الدلالي) ، كما يغفل الإشارة إلى الآلية mechanisms التي تتحول بها المعاني الى (نظم نحوية) ثم إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) وتمثل تلك الآلية في وظائف اللغة Language Functions ، وقد تولى هالدياي تحديد دور (المكون الدلالي) و (وظائف اللغة) في تشكيل الخصاص المائزة للمقال ، وقدم صيغة لهذه العلاقة تستحق التوقف عندها بشيء من البيان^(٣٧) .

يبرز هالدياي ما بين وظائف اللغة عند الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة ، وما يطرأ على هذه الوظائف من تطور بنمو الطفل وانتقاله إلى مرحلة النضج . ويرى هالدياي أن الوظائف اللغوية عند الطفل مرتبطة بحاجاته ارتباطا مباشرا . ومن ثم نرى لديه شكلا لغويا واحدا يتكرر كلما أراد التعبير عن حاجة بعينها دون اعتبار للأبدال الأخرى المتاحة . وبذلك يمكن القول إن النظام اللغوي عند الطفل في طفولته المبكرة يتشكل من مجموعة من التروقات المشروطة والمقيدة تقيدا مباشرا بالمواقف والمقامات ، أي أن ما يريد الطفل أن يعبر عنه هو الذي يحدد التركيب اللغوي لتحديدا مباشرا .

وخلال المسار الذي يقطعه الطفل نحو النضج تتوارى الوظائف المتعددة تدريجيا ليحل محلها نظام وظيفي هو الأمعنى في الرمزية والتجريد وإن كان أبسط في التركيب من سابقه . ويتشكل هذا النظام من ثلاث وظائف كبرى macrofunctions هي : الوظيفة التصورية ideational ، أو الوظيفة التفاعلية interpersonal والوظيفة النصية textual .

يشمل جوهر (الوظيفة التصورية) في التعبير عن التجربة وما يتضمنه الموقف من تقديم للأحداث والأشخاص والأفكار ، ومن جوانب عاطفية تأثيرية . ويؤخذ من ذلك أن هذه الوظيفة معنية بالتعبير عن التجربة تعبيرا يشمل العمليات التي تجري داخل نفس الإنسان وخارجها ، أي يشمل الظواهر القائمة في العالم الخارجي وظواهر الوعي البشري ، كما يشمل العلاقات المنطقية التي يمكن استنباطها من هذه الظواهر .

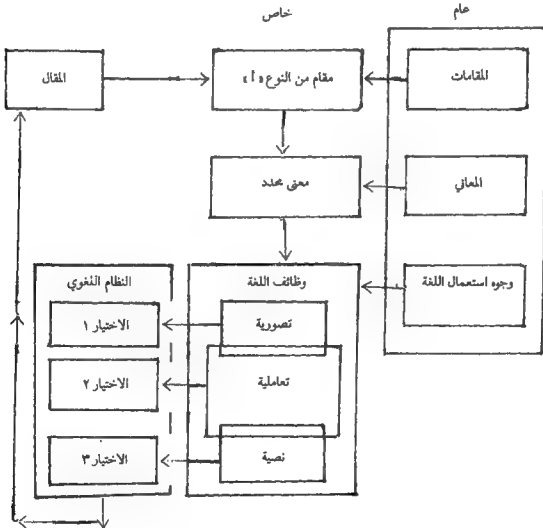
وتعبر (الوظيفة التفاعلية) عن دور المتكلم في مقام الكلام ، وما يلزم به نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين . وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسخها ، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية ، وتتشكل وتقوى شخصية الفرد ، إذ إن تمكنه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها .

(٣٧) أخذنا هذا العرض الفصل نظرية هالدياي من :

roger T. Bell, "Sociolinguistics, Goals, Approaches, and Problems", London, 1976, PP. 84-7.

أما (الوظيفة النصية) فتخصص ببناء الحدث اللغوي أي (المقال) ، وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ، ولقوانين النحو ، ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها .

وتتكامل هذه الوظائف الثلاث الكبرى لتقوم ، من خلال نظرية نحوية قائمة للغة معينة ، بإقامة علاقات مفصلية بين (المكون الدلالي) من جهة ، وكل من المكونين (الاجتماعي) و (اللغوي) من جهة أخرى . ويرى هاليداي أن (الدلالة) تمثل مستوى تركيبيا وسيطا بين أوجه الاستعمال الاجتماعية للغة والأشكال اللغوية ، أي أنه إذا غاب هذا العنصر الدلالي الحاسم فإن أي شكل لغوي يمكن أن يعبر به عن أي وجه من وجوه استعمال اللغة . ومن ثم تكون الوظائف الكبرى للغة - كما سبق البيان - آلية تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ، ثم في نهاية الأمر إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) . وفي الشكل التالي تمثيل للعلاقة بين العناصر المكونة لثلاثية التشكيل الأسلوبي : المقام والمعنى والمقال .



ونحاول الآن أن نلتصم في الشكل السابق توضيحاً للآليات والعلاقات المتضمنة في عملية التشكيل الأسلوبي .
ولنبداً قراءة الشكل من اليمين :

يبدأ الشكل في أقصى اليمين بما هو عام من مقامات ومعان واستعمالات للغة . ويعتمد التكلم أو المنشئ إلى هذا العام فيقوم بعزل عدد محدود من مجموع المقامات الممكنة (وقد اكتفى الرسم بالاشارة إلى مقام واحد منها على صيبل التمثيل وأطلق عليه تسمية المقام «ا») . ثم يقوم باختيار ما يناسب المقام المختار من المعاني ، وكذلك باختيار وجه واحد من وجوه الاستعمالات اللغوية الممكنة يناسب ما وقع عليه اختياره من مقام ومعنى . وهذه الاختيارات الثلاثة تتحدد الوظائف اللغوية ودورها . ويدخل جميع ما وقع عليه اختيار المنشئ في دائرة ماهو « خاص » ، ثم إن كل وظيفة من الوظائف الثلاث تتطلب إجراء اختيارات معينة من مجموع النظام اللغوي للغة المعنية . ومن مجموع ذلك كله يتشكل المقال الذي يتم تشكيله وصياغته للتعبير عن مقام بعينه .

ونعود الآن إلى نموذج كريستال ودافي لتعرف - من خلال استطلاع الشكل السابق - تلك العلاقة القائمة بينه وبين نموذج هالدياي . ويحتل سبطين لنا أن نموذج كريستال ودافي وما شاكله يحتل في شكل هالدياي المربع الأول عما هو « عام » ، وأن أعماله محدثاته في تشكيل مقام بعينه يحتل المربع الأول عما هو « خاص » . وأنه باستخدام كلا النموذجين تكامل العناصر اللازمة لوصف عملية التشكيل الأسلوبي بمناصرها الثلاثة : المقام والمعنى والمقال .

بقيت كلمة أخيرة تتعلق بإعمال نموذج كريستال ودافي في تحديد المقامات ؛ فيعوض أوصاف المقام قد تلازم بحيث يمكن بالنص على وجود أحدها حجب أوصاف أخرى بطريق التضمن ، أو استبعاد أوصاف أخرى بطريق التناقض ، أي أن بعض الأوصاف قد يتضمن - أو قد ينفي - بالضرورة أوصافاً أخرى . ويوجب هذا على الباحث أن يقوم بتنظيم محدثات المقام بحيث يقتصر على المحدثات الأساسية دون حشو ، وفضول ، فلا يضيف إليها ماهو معلوم وجوده بالضرورة ، أو ماهو معلوم غيابه بالضرورة . هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ، ويستكشف فيه المقام من خلال المقال (٣٨) . ولعل حاجتنا إلى هذين الأمرين جد ملحة لاسيما عند الدراسة الدلالية والأسلوبية للنصوص المدونة في تراثنا القديم .

٢ - ٥ : التشخيص الأسلوبي :

فرق ما بين التشكيل الأسلوبي Stylization - وهو ما سبق الحديث عنه - والتشخيص الأسلوبي Stylistic diagnosis الذي هو موضوع هذا المطلب هو أن الأول عمل تركيبي يقوم به اللغوي ، أما الثاني فنشاط تحليلي يقوم به الباحث . وهدف الأول إنتاج النص أما هدف الثاني فهو الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص . ومادة الأول هي المتغيرات الأسلوبية أما مادة الثاني فالتصورات والإجراءات المنهجية . وكما يقوم التشكيل الأسلوبي على محاور الاختيار والتوزيع والشروع فلا بد أن يقابل ذلك من جهة الباحث عمل يكشف به عن أجدر المتغيرات الأسلوبية بأن تكون

(٣٨) انظر نموذجاً لاستكشاف المقام من خلال المقال في :

Deborah Schiffrin, "Discovering the Context of an Utterance", Linguistics, Vol. 25, 1987, PP. 11-32.

خصائص أسلوبية مائزة للنص ، أي تلك التي يمكن أن توصف بأنها اختيارات للمنشئ ، وعن درجات شيوع هذه الاختيارات وإغماط توزيعها .

وإذا كانت تقنيات المعالجة الإحصائية من الكفاءة بحيث تعين الباحث على الكشف عن درجات الشيوع وإغماط التوزيع فإن التقطع باختيارات معينة للمنشئ أمر هو من الصعوبة بمكان . وثمة حالات نادرة - بالنسبة لأدباء العربية - يصرح فيها المنشئ باختياره قولاً أو كتابة . كما أن من الممكن في حالات أخرى الاستدلال بمسودات النصوص التي أعمل فيها المنشئ قلمه بالاستبصار والاستبعاد^(٣٩) . على أن الباحث في غيبة مسودات النصوص - وهو الظرف الغالب - لا يمكنه أن يعثر على دليل مباشر يحدد الخصائص المستبعدة ، علماً بأن الاستبعاد له في ميزان التشخيص الأسلوبى مالاتساق من أهمية . وإذن فليس أمام الباحث إلا طريق افتراض الفروض واختبارها على ما سيأتي بيانه .

ويهدف التشخيص الأسلوبى الإحصائي إلى تحقيق غايات ثلاث تدرج هرمياً على النحو التالي :

- (١) الوصف الإحصائي الأسلوبى للنص للكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة فيه .
- (٢) التحليل الإحصائي للنص .
- (٣) الحكم التقويى ، أو ما يمكن الاصطلاح على تسميته (نوع الأسلوب) .

وترجع خاصية التدرج والهرمية بين هذه الغايات إلى أن الوصف أساس لا غنى عنه في التحليل ، وأن كليهما أساس لا غنى عنه في الحكم والتقويم . ولندرس الأسلوب دراسة إحصائية أن يستبعد الغاية التقويمية بالكلية وأن ينعى في عمله بالوصف والتحليل ، إما لأن الحكم والتقويم خارجان عن مهمة البحث (كما في البحوث المادفة إلى الكشف عن المؤلف المجهول^(٤٠) ، أو ترجيح نسبة نص ما إلى منشئ بعينه من بين عدد من الاحتمالات البديلة) . وإما لأن الوصف والتحليل قد لا يؤيدان إلى حكم تقويى يطمئن الباحث إليه . ويحصل من ذلك أن الغايتين الأولىين متلازمان غالباً . أما الغاية الثالثة فغير لازمة على وجه الضرورة . أما الأبحاث التي تتبنا تمييز نوع الأساليب فلا مندوحة لها من التوغل في مجال الحكم التقويى شريطة أن تسلم مقدمات الوصف والتحليل إلى حكم موضوعي منوط بأوصاف ظاهرة منضبطة .

وتستظم إجراءات التشخيص الأسلوبى في مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة الفرض وفيها يحدد الباحث المتغيرات الأسلوبية التي يرجع مسئوليتها عن التميز الأسلوبى للنص المدروس اعتقاداً على خبرته وإطلاعه على ما سبق من دراسات ، أو على وضع استجابات عدد من المتلقين موضع الاختبار .

(٣٩) انظر :

- مصطفى سوب : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥١-٢٧٧ .

- حسين موسى : الإبداع في الفن والعلم ، عالم للفكر ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٨-١٧٢ .

(٤٠) انظر :

سعد نصر : تحقيق نسبة النص إلى المؤلف : دراسة أسلوبية إحصائية في التلخيص والتدوين من شعر شوقي ، مجلة بصور ، ج ٣ ، ع ١ ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٨-١٧٢ .

الثانية : مرحلة اختبار الفروض . وتقوم على معالجة النص للمدرّوس إحصائياً بهدف إثبات صحة الفروض أو بطلانها . وتشتمل هذه المرحلة على جانبين : أولاً جانب الوصف الإحصائي ، والثاني جانب التحليل الإحصائي . وسنخصص هذه المرحلة ببيان فيه شيء من التفصيل ، إذ هي الغاية الأساسية من هذا البحث .

الثالثة : مرحلة الاستنتاج . وهي الثمرة المرجوة من وضع الفروض واختبارها .

٢ - ٦ - المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص

أشرنا في غير هذا البحث إلى أن كثيراً من الدراسات والرسائل الجامعية التي اعتمدت الوسيلة الإحصائية لمعالجة النصوص ، ولاسيما نصوص الأدب لم تأخذ من الإحصاء إلا وظيفته البدائية الأولى ، ونعني بها وظيفة العد ، أو الحصر Counting^(١) ، وهذه الوظيفة - وإن كانت من أساسيات العمل الإحصائي - ليست إحصاء Statistics بالمفهوم العلمي المنتج ، فلقد تجاوزت وظيفة الإحصاء عملية الحصر والعد لإجمالي الأفراد وأقسام الكلام وأنواع الجمل وغير ذلك ، لتعطي مزيداً من البيانات القابلة للتوظيف في مجال الكشف عن أدق خواص النص على كافة المستويات التحليلية المختلفة . ليست الغاية إذن هي الحصول على أرقام مطلقة عارية من الدلالة ، ولكنها الوصول إلى الأرقام والبيانات النسبية القادرة على إنتاج مقارنات دالة .

وإذا كانت مرحلة اختبار الفروض هي المرحلة التي يتجلى فيها دور المعالجة الإحصائية للنصوص فإن ذلك لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة هامة ، وهي أن التدخل الإحصائي يبدأ مع مرحلة وضع الفروض وربما قبلها . إننا في الدرس الإحصائي أمام أحد خيارين : فإما أن نخضع للفحص مادة تمثل مجتمعاً إحصائياً كاملاً Statistical population ، كديوان شعر ، أو عمل أدبي برمته ، أو مدونة كاملة . وإما أن نستفي من ذلك - مختارين أو مجبرين - باختيار عينات Samples يشترط بها أن تكون جيلة التمثيل للمجتمع الإحصائي المطلوب دراسته . واختيار العينات - وهو الظرف السائد - مطلب له ضوابطه وقواعده في بحث العينات والاحتمالات ؛ حيث تتحدد خصائص العينة وحجمها بالنسبة للمدونة أو المجتمع الإحصائي . ومن هنا فإن الإحصاء يبدأ غالباً قبل مرحلة الوصف والتحليل ، أي عند اختيار العينات المدروسة . وعلى الباحث الذي تلجئه ظروف بحثه إلى اصطناع المعالجة الإحصائية وليس له بها سابق خبرة كافية - أن يناقش مع بعض المتخصصين في الإحصاء مسائلتين مبدئيتين :

أولاهما : تحديد نوع العينة وحجمها ، فالخلف العلمي الدقيق لهذه المسألة يوفر على الباحث وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً قد يضيعهما بلا جدوى ، كما يستغل الباحث من مناهات أخرى به أن يتجنبها من أول الطريق .

الثانية : هي اختيار أساليب المعالجة الإحصائية المناسبة لاختبار فروضه ولنوع العينة وحجمها .

(١) سمى مصطلح : (الأسلوب ...) ، ص ٧ ، وأيضاً :

عزت عمود (المقالي : مقدمة في طرق الإحصاء الاجتماعي ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٧ - ٤) .

ويتصل بما سبق أوهام تشيع في بعض الدراسات الإنسانية التي تستخدم المعالجة الإحصائية ؛ منها ما سبق أن ذكرنا من الخلط البين بين العدد والإحصاء ، ومنها : الاعتقاد بأن الخطأ في اختيار نوع العينة الجيدة التمثيل يعوضه زيادة حجم العينة . والحق أن الأمر على النقيض تماماً ، فزيادة حجم العينة إذا بقي على خطأ في اختيار نوعها يزيد من فرص لفساد النتائج . ومنها : الاعتقاد بأن هذا النوع من الدراسات إنما يتفاضل بحسب ما تتماز به الطرق الإحصائية المختارة من دقة . والحق أن مقياس التفاضل هو موافقة الطرق المستخلصة لطبيعة البيانات العددية الخاصة بالمعالجة^(٤٧) .

وليس ينتظر من مثل هذا البحث تقديم تعريف مفصل بالطرق الإحصائية الممكن استخدامها في دراسة الأسلوب ، فمكان ذلك هو متون الإحصاء . لكن ذلك لا يعني من محاولة لإضاعة هذه الطرق على نحو يزيل الوحشة القائمة بين كثير من النقاد واللسانيين وهذا الأسلوب المنضبط في معالجة النصوص .

ومادم مفهوم الدرس الإحصائي للأسلوب يتضمن بالضرورة مفهوم المقارنة بين أكثر من متغير أسلوب في نص واحد ، أو بين متغير واحد في أكثر من نص ، أو بين أكثر من متغير في أكثر من نص - فإن هذا المفهوم يستدعي طرقاً إحصائية معينة تفيد في تحقيق التشخيص الأسلوبي سواء على مستوى وصف النص أو على مستوى تحليله .

نبدأ الآن أولاً بتحديد لأهم الطرق الإحصائية المستخلصة في الوصف . ثم نتبي بما يستخدم منها في التحليل أو الاستدلال (الإحصائي . وتشمل طرق الوصف إمكانات كثيرة أهمها وأكثرها شيوعاً في الإحصاء الأسلوبي (والسالي) ما يلي :

أولاً : مقاييس الوصف الإحصائي :

(١) قياس كثافة المتغير الأسلوبي density

ومثاله قياس كثافة نوع معين من أنواع الجمل (الاسمي / الفعلي / السيط المركب / المعقد / الإنشائي / الخبري) . ويتمتع بقسمة عدد الجمل من النوع المراد قياسه على المجموع الكلي لعدد العمل المكونة النص^(٤٨) . ومن ذلك في العربية قياس كثافة المجاز density of metaphor بقسمة عدد المركبات المجازية على العدد الكلي للمركبات اللفظية المجازية وغير المجازية collocations في النص^(٤٩) .

(٢) قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين ratio

وذلك بقسمة تكرارات أحدهما على تكرارات الآخر . ومن ذلك قياس نسبة الأفعال إلى الصفات (معامل بوزمان)^(٥٠) ، أو نسبة الجمل البسيطة إلى المركبة ، أو نسبة المركبات المجازية إلى الحقيقية .

(٤٧) (فؤاد بهي السيد : علم النص الإحصائي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٦٤ .

(٤٨) انظر : Curtis W-Hayes, "A study in Prose Style, Edward Gibbon and Ernest Hemingway", in Statistics and Stylistics, ed. L. Dolezel and R.W. Bailey, New York, 1969, PP. 80-81.

(٤٩) انظر : سعد مصلوح . في تشخيص الأسلوب الإحصائي للاستدلال : دراسة تطبيقية للمعادن على أشعار البارودي ودوني والغنصي ، مجلة الحياة الثقافية ، تونس ، ٤٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ، وما بعدها .

(٥٠) سعد مصلوح : (الأسلوب ...) ، ص ٦١-٦٢ .

(٣) قياس النزعة المركزية للمتغيرات Central tendencies

(وبيان ذلك أن تميز نص أو منشئ ما باستخدام جمل طويلة مثلاً لا يعنى اعتماد الجمل القصيرة ، بل كل مايعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبية الى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة بتكرارات أقل . وهكذا الأمر في رصد الخواص الأسلوبية الأخرى) وأهم مقاييس النزعة المركزية . الوسط الحسابي arithmetic mean ، والوسيط median ، والنموال mode والوسط الهندسي geometrical mean^(١٧)

(٤) قياس تشتت بيانات المتغيرات dispersion

حين تتفق النصوص في نزعة مركزية واحدة فإن ثمة احتمالات لإمكان التمييز بينها باستخدام مقاييس التشتت ، أى قياس الدرجة التي تنتجها البيانات الرقمية للانتشار حول قيمة وسطى . ومن أهم مقاييس التشتت : المدى range ، والتباين variance والانحراف المعياري standard deviation^(١٨)

(٥) قياس التوزيع الاحتمالي للمتغيرات probabilistic distribution

ويقصد به قياس تكرارات متغير أسلوبى ما (وليكن المتغير A) بوصفه واحداً من أبدال متاحة (وليكن A ، ب ، ج . . . ن) في ارتباطه بمقام معين . وسياق مناقشة النموذج الرياضى الذى يمكن الاحتكام إليه في وصف الأسلوب عند تعدد الاحتمالات .

(٦) قياس معامل الارتباط بين المتغيرات .

ومثاله قياس ارتباط الحدوث بين متغيرين أسلوبيين (كالارتباط بين طول الجملة والبساطة أو التركيب فيها) ، أو بين متغيرات أسلوبية معينة ومتغيرات المقام (كالارتباط بين طول الجملة واختلاف الوسط الناقل media ، أو بينه وبين اختلاف شكل النص بين البرقية والرسالة البريدية) ، أو بين المتغيرات الأسلوبية والأحكام النقدية التقويمية (كالارتباط بين طول الجملة أو تنوع المقدرات والحكم بصعوبة الأسلوب)^(١٩) .

ثانياً طرق الاستدلال الإحصائى .

بينا - فيما سلف - أهم طرق الوصف الإحصائى وأكثرها شيوعاً في الدراسة الإحصائية للأسلوب . وقد يكون الوصف كافياً بذاته ليشكل أساساً مقنعاً لاختيار المتغير الأسلوبى أو العلاقة بين المتغيرات ، وتحديد أهميتها في التشخيص الأسلوبى لنص ما ، إما بالاعتراف بها سمة مائزة للنص ، وإما باستبعادها واعتبارها من السمات الفائضة redundant features . وأمثلة الحالات التي يكتفى فيها بالوصف الإحصائى هى تلك التي يجري فيها الوصف على المجموع

(١٧) المرجع السابق : ٤٥ .

(١٨)

F. Anshen, Op. Cit, PP. 17-18.

(١٩) استخدم ل : دلهيول معامل الارتباط في التشخيص الأسلوبى للعلاقة بين طول الجملة وطول الكلمة في نصوص اللغة التشيكية . وقد ثبت وجود معامل ارتباط عالٍ بينها

إلا في الشعر . انظر :

I. Dolzcel, "A Framework of Statistical Analysis of Style", in "Statistics and Stylistics", Op. Cit, PP. 19-20.

الإحصائي . أما عند اللجوء إلى فحص عينات من المجتمع الإحصائي فقد تنشأ الحاجة إلى استجلاء الدلالة الإحصائية للبيانات المستخرجة من العينات بغية استنتاج المميزات الرئيسة للأصل (أو المجتمع الإحصائي) ، وحينئذ ينحو الباحث (نحو التعميم العلمي للظاهرة التي يبحثها ، ويهدف إلى استنتاج خواصها الإحصائية في صورتها العامة . ولذا يسمى هذا النحو الاستدلال الإحصائي ، لأنه يستدل على الخواص الإحصائية للأصل من الخواص الإحصائية لإحدى عيناته أو بعضها ، أي أنه يستنبط صفات الكل من الجزء أو الأجزاء التي تنطوي تحت إطاره . . . والمشكلة لاكتف عند هذا الحد ، بل نتعد في جوهرها إلى الكشف عن مدى صحة ذلك الاستنتاج ودلالته الإحصائية ، فنستطيع أن نلوك مدى ثقتنا في تعميم نتائج الأبحاث المختلفة التي تقوم بإجرائها) (١٩) .

وجدير بالذكر هنا أن بعض ما سلف بيانه من طرق الوصف الإحصائي صالِح للاستخدام في مجال الاستدلال الإحصائي . ومن أهمها قياس التباين والانحراف المعياري ومعامل الارتباط . ويقي أن نعرض لمقياس يعتمد عليه اعتمادا كبيرا في اختبار الدلالة الإحصائية أسلوبينا ولغوينا ، وهو مقياس كاي^٢

(١) مقياس كاي^٢ : Chi-Square (٥٠)

يعتبر مقياس كاي^٢ من مقاييس التوزيعات الحرة التي لا تعتمد على شكل التوزيع التكراري ، ويكثر استخدامه في البحوث الأسلوبية واللغوية الإحصائية لاختبار دلالة التكرارات على المستوى الفيزيقي ، وإن كانت إمكانات استخدامه أوسع من ذلك بكثير . وتقوم فكرة للمقياس على اختبار دلالة الارتباط بين ظاهرة ما والبيانات العددية المتصلة بتوزيعها . (مثال ذلك : الارتباط بين جنس المتكلم ذكرا أو أنثى واشتمال الكلام على ظواهر صوتية أو تركيبية أو أسلوبية معينة) . ونحن - في هذه المسألة بين فرضين : إما أن الارتباط بين جنس المتكلم وهذه الظواهر هو ارتباط متعمد ويسمى هذا الفرض : فرض العلم أو الفرض الصفري *null hypothesis* وإما أن يكون ثمة ارتباط دال بين الآخرين . ويقوم المقياس باختبار فرض العلم . وينشأ عن رفض فرض العلم . قبول الفرض البديل (أي إثبات وجود العلاقة) ، كما أن عكس ذلك أيضا صحيح . ويتم الاختبار بإدخال التوزيع الفعلي (أو التوزيع المشاهد) للظواهر مع التوزيع المتوقع لها في معادلة وهي : إيجاد ناتج طرح رقم التوزيع الفعلي من رقم التوزيع المتوقع ، ثم تربيع ناتج الطرح وقسمته على الرقم المتوقع . ويتم هذه العملية بالنسبة لكل خانة من خانات الجدول ، ثم نقوم بإيجاد المجموع الكلي لنواتج هذه العملية في جميع خانات الجدول .

وتقدم لنا المعادلة السابقة طريقة حساب مقياس كاي^٢ . أما حساب دلالة المقياس (أي حساب المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العلم) فيلزم له حساب درجة الحرية *degree of freedom* . (وهي حاصل ضرب عدد الصفوف الأفقية في جدول التوزيع المعنى باستثناء الصف الخاص بالمجموع الكلي مطروحا منه واحد صحيح \times عدد

(٤٩) نواز البهي السيد : المرجع السابق ذكره ، ص ٤١٢ - ٤١٣ .

(٥٠) انظر :

وإن تطبيقه في العربية انظر :

- احمد طلعت سليمان : معادلة القس والجهر بالعالي في المضاعفات الحرة : دراسة إحصائية ، للجنة العربية للعلوم الإنسانية ، ج ٩ ، ع ٣٤ ، ربيع ١٩٨٩ م ، ص ٢٦ .

الأعمدة الرأسية للجدول باستثناء عمود المجموع الكلي ، مطروحا منه واحد صحيح . وثمة جداول إحصائية جاهزة متحد المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العلم (أى إثبات العلاقة) مع كل درجة من درجات الحرية .

(٧) مقياس النسبة المخرجة z -score (٥١)

يقيد هذا المقياس في إجراء حساب مباشر لدلالة فرق المتوسطات ، أى لتحديد ما إذا كان الفرق بين متوسطي مجموعتين من القيم كافيا لاعتباره دالا من الوجهة الإحصائية أم لا . ويتطلب هذا المقياس معرفة مائتين :

(أ) متوسط القيم في المجموعتين المتينتين .

(ب) عدد المشاهدات في كل مجموعة .

(ج) حساب درجة التباين Variance لكل مجموعة (مربع الانحراف المعياري) .

أما المعادلة الخاصة به فتكون بإيجاز : الفرق بين متوسطي قيم المجموعتين ثم قسمته على الجذر التربيعي لحاصل جمع (درجة تباين المجموعة الأولى مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها + درجة تباين المجموعة الثانية مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها) .

تلزم هي أهم الطرق الإحصائية المتبعة عند اللسانيين والأسلوبيين في معالجة النصوص اللغوية . وننتقل الآن الى التعريف بمفهوم النموذج الرياضى في التشخيص الأسلوبى وأنواعه .

٧ = ٢ . النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبى :

يكثر ظهور المعادلات الرياضية في الدراسات الإحصائية للأسلوب ، مما يشكل حاجزا نفسيا بين كثير من المهتمين بأمر النص اللغوى - والأدبى خاصة - وهذا النوع من الدرس العلمى ، وربما كان للألفة في ذلك دخل كبير . وقد أخصت هذه الفقرة لمناقشة فكرة النماذج الرياضية المستخدمة في التشخيص الأسلوبى mathematical models وأنواعها ، وكيثبات استخدامها في فحص الأساليب .

يقصد بالنموذج الرياضى الصياغة التجريدية للعلاقة القائمة بين المتغيرات الأسلوبية على النحو الذى تشكل به خاصية أسلوبية مائزة . بذلك يكون النموذج الرياضى صياغة للمقياس الأسلوبى في شكل معادلة رياضية تلخص العلاقة بين المتغيرات الأسلوبية في المقياس . وينشأ مما سبق توقع اختلاف الهياكل الرياضية الأسلوبية بحسب حفظها من التجريد أو البساطة ، فأبسط النماذج هو ما كان خاصا بالكشف عن خاصية أسلوبية واحدة . أما حين يضبط النموذج العلاقة بين أكثر من خاصية أسلوبية فمن المتوقع أن تكون المعادلة أشد تركيبا حتى إذا افترضنا وحدة المقام . أما إذا اختلفت مواصفات المقام ، واختلفت ، تبعاً لذلك ، عدد الخصائص المقصورة وعلاقتها ببعضها البعض من جهة ، وعلاقتها بالمقام من جهة أخرى ، فحينئذ يكون على النموذج أن يغطى في سلم التركيب درجة أعلى من سابقيه .

وتتنوع النماذج الرياضية المستخدمة في فحص الأسلوب باعتبار آخر ، ونعني به تعدد فروع الرياضيات نفسها . وقد حلدها هـ . ب . آدموندسون P. Edmundson . H فسلكها في نوعين رئيسيين هما : النماذج الحتمية - deterministic tic models ، والنماذج الاختيارية stochastic models . وتشمل النماذج الحتمية بحسب تصنيف آدموندسون : (٤١)

(١) النماذج الهندسية geometric models وتمثلها بحوث هيردان Herdan (٤٢).

(٢) النماذج التحليلية analytic models وتمثلها بحوث زيف Zipf (٤٣)

(٣) النماذج المنطقية Logical models ومن دعاها لويس ميليك Louis Milic (٤٤) .

(٤) النماذج الجبرية algebraic models ومنها دراسات هايس Hayes (٤٥)

أما النماذج الاختيارية فتشمل :

(١) النماذج الاحتمالية probabilistic models

(٢) النماذج الإحصائية Statistic Models

ويمثل هذين الاتجاهين أودن يول O. Yule ، ولوبوموار دوليجر L. Dolzel .

ويرى د . د . تالتير D.R. Tallentire أنه لا بأس باعتبار هذا التصنيف أساساً للنظر . بيد أنه أورد عليه ملاحظتين :

أولها : (أن هذه الأنواع ليست متقطعة الصلة بعضها ببعض كما يوحي بذلك الرسم التوضيحي الذي قدمه آدموندسون ، فالتنطق والتحليل أساسيان لنماذج الاحتمالات والنماذج الإحصائية ، كما أن هذين النوعين يعتبران فرعاً واحداً من فروع الرياضيات) .

(٤٢)

D. R. Tallentire, "Mathematical Modelling in Stylistics, its extent and General Limitations", in : Computer in Literary and Linguistic Research, ed. R. A. Wisbey, Univ. of Cambridge, 1971, P. 118.

(٤٣) يتبنى المنظر الذي يقترحه هيردان إلى الهندسة الإسقاطية Projective Geometry وهي فرع من فروع الهندسة التي جاءت لتعبر الهندسة الإقليدية من الجبال التي حصرتها نفسها فيه ، وهو دراسة للسطوح للسرية ، ودراسة الأبعاد الثلاثة الصارمة : الطول والعرض والارتفاع ، وهو ما يعرف بنقطة المنظور . يرى هيردان أن التناظر الهندسي المنطوق في (الخط) و (الخط) يمكن وصفها على القريب بتناظر (النقط) و (النقطة) في Type-Token ، دراسة اللغة . أما تالتير فيرى أن التناظر الهندسي يبراز النماذج الرياضية اتصالاً بالأساليب . انظر : D. R. Tallentire, Op. Cit. PP. 120-121.

وانظر تطبيقاً لهذه التناظر الرياضية في دراسة كتاب هذا البحث من تنوع المقاربات عند الراعي والطلد وله حسين ككتيب هذا البحث (مرجع سبق ذكره الحاشية ٢١) .

Milka Ivic, Op. Cit. PP. 217-218.

(٤٤) يحقق التناظر المنطقي - كما يتصوره لويس ميليك بإيجاز - عملية اختصار القرائني للجملة بفرع من الباحث إلى أبسط صيغة تكون عارية من كل ما يمكن أن يمدح حليلة أسلوبية . ثم نحري مقاربة هذه الصورة للجملة بالجملة الواردة معاً في النص . ولذا تكون الصورة للجملة بنية القرائنية أصبحت صيغتها صيغة منطقية وتسمى بالجملة - الفقرة Kernel Sentence أو جملة ما قبل تنسيق Pro-Stylized وانظر مزيد من التفصيل : سعد معلوف : (الأسلوب ...) ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤٥) من فروع الدراسات دلالة على العهد هايس دراسته للأساليب ، فثمة عند جيرون وهنسوي (انظر صفحة رقم ٤٣) .

والملاحظ الثاني فواء أن كل فرع من الفروع الستة يمد الدراسات الأسلوبية بنموذج محدد . وهذا لا ينفي إمكانية استخدام توليفات من هذه النماذج الأساسية في دراسة المشكلة الواحدة . وقد أنجزت دراسات ناجحة باستخدام مزيج من هذه النماذج (٤٧) .

وتتفاوت النماذج الحتمية بأنواعها المختلفة : الهندسية والتحليلية والمنطقية والجبرية في قدرتها على استيعاب العلاقات في التشخيص الأسلوبى ، فاعلمها عطاء وشيوعا النموذجان الهندسى والتحليل ، ولا كذلك المنطقي والجبري ، فهنا - بهذا الترتيب - أكثرها شيوعا . ويستفاد مما سبق أمور :

أولها : أن مفهوم النموذج الرياضى في التشخيص الأسلوبى أهم من مفهوم النموذج الإحصائى الاحتمالى ، أو أن التشخيص الإحصائى الاحتمالى هو واحد من عدة نماذج رياضية ممكنة التطبيق في مجال التشخيص الأسلوبى . (ويلاحظ هنا أننا اعتبرنا النموذجين الإحصائى والاحتمالى بحسب تصنيف أرموندسون نموذجاً واحداً) .

ثانيها : أن موضوع هذا البحث يوجب علينا أن نصرف اهتمامنا الأصيل الى معالجة النموذج الرياضى الاختيارى . أما النماذج الرياضية الحتمية فمجالها هو دراسة التشخيص الأسلوبى بإطلاق ، وليس خصوص التشخيص الأسلوبى الإحصائى .

ثالثها : أن الملاحظ السابق - وإن كان صحيحا بوجه عام - يرد عليه استثناء يما يتصل بالنموذج الجبرى ، لأسباب : منها قدرته على حصر التنوعات اللغوية التى تشكل قائمة الاختيار ، أو لمحدد مجال الاحتمالات التى يمكن تصنيفها الى : (تعبير - نمط) و (تنوعات انحراف) . كما أن ثمة صلة نحوية بين النموذج الجبرى والأنحاء الجبرية ، ولأسباب النحو التوليدى التحويل . وسنرى حين نعرض لمشروع دوليجيل في التشخيص الأسلوبى الإحصائى احتفاده الشديد بمقولات النحو التحويل ، وإيمانه بقدرتها على تزويد النظرية الأسلوبية الإحصائية بما يمكنها من أداء مهمتها على الوجه المأمول . لذلك كان من المفيد - فيما نرى - أن نعرض بشيء من التفصيل للنموذج الرياضى الجبرى من بين النماذج الحتمية وتفصيل أشد للنموذج الإحصائى الاحتمالى إذ هو المقصود بالأصالة .

أولا النموذج الجبرى .

الأنحاء الجبرية - ومن بينها الطراز التوليدى التحويل - وثيقة الصلة بالرياضيات من جهة ، وبالتعلق من جهة أخرى ، إذ إن قوامه هو استخدام نماذج شكلية (أوسورية) في اللسانيات النظرية وفي الوصف التحليلي لتراكيب اللغة . وعلى الرغم من أن استخدام الصياغة الشكلية ينحى غالبا قضية التنوعات الراجعة إلى تمايز الأفراد واختلاف المقامات . فقد أثبت النحو التوليدى قدرة على استيعاب التنوعات من خلال استخدامه لمقررات التوليد والتحويل . وترجع أهميته في هذا المجال إلى اهتمامه بالمستوى التركيبى (أى مستوى النظم) Syntactic level ، وهو مستوى يحظى بعناية الأسلوبيين الذين يقدمون الإشارات التركيبية على الخيارات المعجمية في تشخيص الأساليب . وقد وجد هؤلاء

ضالتيهم . في كثير من مقولات التحويلين مثل مقولة الكفاءة والأداء / Competence performance ، ومقولة البنية الباطنة والبنية الظاهرة deep/ surface structure بالإضافة إلى الإجراء التحليلي التمثيلي في قواعد التحويل transformational rules . وكان في ذلك عون لهم على تمييز الفروق بين الأساليب بطريقة علمية مضبوطة .

ولقد دفعت الحاجة إلى تطويع قواعد التحويل للدرس الأسلوبي بعض العلماء مثل وليم لايف W. Labov إلى القول بوجود التمييز بين نوعين من القواعد ، أولها القواعد الملزمة (أو مانثور تسميته قواعد الوجوب Categorical rules) والقواعد الاختيارية (ونسميها قواعد الجواز Variable rules) ورأى أن الحاجة ماسة إلى نوع من التحليل النحوي تعمل فيه القواعد في نسبة مئوية معينة من الحالات وتختلف عن العمل في الحالات الباقية . ويلحظ اينكيفست Enkvist أن اقتراح لايف قد أطلع الباحثين على مثال للكيفية التي يمكن بها تزويد النحو التحويل بقواعد تقيس الاحتمالات قياسا كميا . وما هوذا تلخيص للمعادلة الرياضية الإحصائية التي اقترحها لايف .

يبدأ لايف فيلاحظ أن القواعد السالدة في النحو التحويل تتخذ صيغة عامة هي :

$$X \rightarrow Y/A-B$$

وتفسير ذلك أنه حيثما ترد X في الوسط A-B فإن كتابتها تعاد لتصبح Y . ولاتعمل القاعدة إلا إذا توافر هذا الشرط وتسمى مثل هذه القواعد بالتعليمات الوجوبية Categorical instructions نبيد أننا إذا أدخلنا في التحليل قواعد جوازية optional rules - على نحو ما فعل تشومسكي في تصوره الأول الذي نشره عام ١٩٥٧ - أمكننا أن نتجنب الوقوع في تلك المشكلة العويصة ، مشكلة تحديد ظروف الأعمال والإهمال بالنسبة للقاعدة . ويرى لايف أن الحل الأمثل هو إدخال قواعد للتنوع Variable rules تتضمن كمية محددة يرمز إليها بالرمز ϕ وتشير هذه الكمية إلى التمثيل النسبي للحالات التي تنطبق عليها القاعدة ، بحيث تكون هذه الحالات جزءا من تركيب القاعدة نفسها . وهذا التمثيل النسبي هو نسبة الحالات التي تنطبق عليها القاعدة بالفعل بالنسبة إلى المجموع الكلي للجمل أو الأحداث الكلامية التي يمكن أن تنطبق عليها القاعدة بالشروط التي حددتها للوسط ، إذا افترضنا أنها من القواعد الوجوبية .

وتتدرج قيمة ϕ في قواعد التنوع بين الصفر والواحد الصحيح . أما في القواعد الوجوبية فليس لها إلا قيمة ثابتة هي الواحد الصحيح . وتأخذ قاعدة التنوع الاحتمالي شكل المعادلة الآتية :

$$\phi = 1 - \beta$$

حيث تمثل ϕ المداخلات المتغيرة التي تتضمنها المعادلة ، تلك التي ترسم حدود تطبيقها . وكلما زادت قيمة ϕ ضاق مجال العمل بالنسبة للقاعدة ، أو - بعبارة أخرى - قلت نسبة الحالات التي تنطبق عليها القاعدة . وحين تتعدد عوامل المداخلات بتعدد الرموز المقابل لها في للمعادلة على هذا النحو

$$(\phi = 1 - \beta_1 - \beta_2 - \dots - \beta_n) \quad (K_n = X - K_1 - K_2 - \dots - K_n)$$

ويمثل K_1, K_2, \dots, K_n ثوابت يجرى تحديدها بالاختيار الأميريقي .

أما الرموزان $X - \sim$ فيمثلان أوزان هذه العوامل .

وقد صممت المعادلة بحيث إذا اشتملت بعض فقرات الجمل المدروسة على أحد الثوابت المرجحة أدى ذلك إلى نقص قيمة K_0 . وهكذا يتسع مجال تطبيق القاعدة بتناقص قيود تطبيقها وزيادة قيمة ϕ .

وحين نعطى الثوابت المختلفة قيما تتحدد في ضوء اختبار المادة ودراستها ينبغي ترتيب الثوابت في تسلسل هرمي . ويقوم معيار الترتيب على أساس البند بالقيّد (أي العامل الثابت) الذي يحوز الوزن الأكبر ، ثم الذي يليه . . . وهكذا .

وبخلاصة القول أن استخدام النماذج الجبرية التي نمذنا بها قواعد التحويل يمكن أن تتم بطريقتين مختلفتان بساعة وتركيبا ، في الأولى يجري إحصاء تكرارات استخدام النشء لقاعدة معينة أو للمجموعة من القواعد . ومن المتوقع أن يتفاوت المنشئون في إظهارهم قواعد معينة على غيرها ، مما يشكل سمة أسلوبية نحوية يمكن اعتمادها في المقاربة الأسلوبية . أما الطريقة الثانية فهو مركبة نسبيا ، إذ تقوم على تزويد النحو نفسه بنوع من قواعد التنوع يختلف عن قواعد الوجوب والجواز في النحو التحويلي التقليدي .

ثانيا : النموذج الإحصائي الاحتمالي .

هذا النوع من النماذج الرياضية هو أقدمها فيما نرى على تقديم النموذج الموفق الذي يمكن الباحث من التعبير الصوري عن تميز الأساليب باهتبارات مختلفة . وتكاد ترقى هذه الفقرة إلى أن تكون موضع اتفاق بين أكثر الدارسين لظاهرة الأسلوب ، إذ هو أكثرها انسجاما مع طبيعة هذه الظاهرة . ولعل في ماسلف من حثيث عن الأساس النظري للإحصاء الأسلوبى ومفاهيم الأسلوب ما يعزز صحة هذا الرأي ويثبت صوابه .

وحين نذكر النماذج الإحصائية الاحتمالية في الدرس الأسلوبى تبرز جهود عالين من أعلام هذا الاتجاه هما أودلى يول ولويوموار دوليجيل . وقد صاغ أولهما واحدا من أهم المقاييس وأكثرها حساسية في مجال تمييز البصمة الأسلوبية ، وهو ما أصبح يعرف بخاصية يول Yule's Characteristic^(٥٨) . أما ثاني الرجلين فكان من بين جهوده دراسة مفصلة أرادها أن تكون (إطار عمل لتحليل الإحصائي الأسلوبى) A Framework of Statistical Analysis of Style ، وقد توافرت لهذه الدراسة ميزة الدقة والشمول على نحو يجعل منها مشروعا بحثيا يمكن - في حالة استيعابه - أن يكون منطلقا للبحث في كافة مجالات الإحصاء الأسلوبى ، ولتناقشة ما يثيره من قضايا ومشكلات . وفي مايل عرض لمشروع دوليجيل حاولنا أن نستوفى فيه الدقة والتبسيط في آن معا .

(٥٨) ناك إحصائية التي استخدمها كاتب هذا البحث في دراسته للتعريفات للجوراة (النظر حالية ٤٠) . وتوجد مناقشة مفصلة لخاصية يول في مقال بالائل لاندال

(بالروسية) ، واستخدم لما في تحقيق نسبة نص من نصروس القرن التاسع عشر .

Pavel Vásk : "Metodůi ustáevleniya Spornogo avtáevstva" (Methods of Determination of Disputed Authorship), in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, No. 3, 1972, PP. 143-161.

٢ - ٨ إطار عمل لتحليل الإحصائي الأسلوبى (مشروع دوليجيل)^(٥٩)

٢ - ٨ - ١ . الأسلوب مفهوم احتمالى

تقوم النظرية الإحصائية للأسلوب - عند دوليجيل - على أساس مقولة بسيطة هي أن (الأسلوب مفهوم احتمالى) . ويمتاز المفهوم الإحصائى بسمتين أساسيتين :

الأولى : أنه في عالم الاحتمالات لا يتوقف وقوع الظاهرة (أ) على وجود الشرط (س) ، بحيث توجد بوجوده وتعتمد بالاعتماد . لكن الذى يقال هو أن الظاهرة (أ) تقع في وجود الشرط (س) باحتمال معين ، أى أن وجود الشرط (س) لا يمنع معه وقوع الظاهر (أ) أو (ب) أو (ج) . . الخ . ولكن تختلف درجات الاحتمال . وهذا هو الأمر القابل للقياس الإحصائى ، ويسمى بالتوزيع الاحتمالى Probability distribution .

والسمة الثانية للمفهوم الاحتمالى هي أن التوزيع الاحتمالى يصف توقع حدوث الظاهرة في مجتمع إحصائى مثالى . لكننا نستطيع - عمليا - أن نكتفى بملاحظة وقوع الظاهرة بعينات ممثلة للمجتمع الإحصائى . ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جميع العينات أن تتجانس تجانسا تاما في توزيع الظاهرة المدروسة . فالمشاهد بالتجربة أن قيم الاحتمالات تتأرجح حول قيمة معينة تأرجحا غير ذى دلالة من الناحية الإحصائية . وهنا يتجلى التوزيع الاحتمالى (الذى سبقته الإشارة إليه في السمة الأولى) في شكل آخر يسمى بالتوزيع التكرارى للمعينة Sample frequency distribution .

ويرى دوليجيل أن ثمة براهين قوية على أن كلتا هاتين السمتين تتجلى في الخواص الأسلوبية للنصوص . وينشأ عن تقرير الصفة الاحتمالية للظواهر الأسلوبية وجوب تحديد الصفة العامة للأسلوب على أساس من درجة الحضور (أو الغياب) لأشكال معينة من التعبير ، لأن هذه الأشكال هي نتيجة لإشارات المنشئ أكثر من كونها نتيجة عادات ثابتة . إن العادات الثابتة تؤدى إما إلى الاستعمال المطلق وإما إلى الكبت المطلق لبعض أشكال التعبير . وهذا الأمر غير وارد في الأسلوب . ولذلك كان من الأرجح أن ننظر إلى الأسلوب على أنه نتاج إختيار لا أنه نتيجة عادات ثوابت . وإذن فالسمات الأسلوبية هي الانجهاات وليست عادات .

على أن القياس الإحصائى قادر على تحديد الدلالة الإحصائية لتأرجح قيم المعينات حول القيمة الاحتمالية ، أى أنه قادر على التوصل إلى القرار الصحيح : إما بإهمال التأرجح واعتباره غير ذى قيمة وإما بالاعتداد به . من ثم يمكن بالقياس الإحصائى الكشف عن الانجهاات الأسلوبية المستقرة Stylistic Stability المخفية وراء التارجمات الظاهرة . ونستظهر بما سبق أمرين هاميين :

أولهما : اعتبار الخواص الأسلوبية الانجهاات لاعادات .

(٥٩) هذا معنى إطار العمل الذى اقترحه دوليجيل للكيفية التى تصاغ بها معادلة رياضية لتشخيص الخصائص الأسلوبية للنص في علاقتها بخصائصه بطنى ، وفي علاقتها بالنظم ، مع إضفاء كل خاصية وزنها الحافى في المعادلة .

L. Dolezel, "A Framework for the Statistical Analysis of Style", in *Statistics and Stylistics*, Op.Cit, PP. 57-65.

والثالث أنها اتجاهات مستقرة تختص وراء ما يبدو من تأرجح لقيمتها في العينات . والتسليم بهذين الأمرين - عند دوليجيل - يمكن أن يجعل من المعالجة الإحصائية نظرية أسلوية تمتاز بالكفاءة ، وليس مجرد مظهر ثانوي من مظاهر النظرية الأسلوية لكنه يقرر أن الطريق إلى تحقيق ذلك ما يزال طويلا ، وأن مشروعه هذا ليس إلا خطوة على الطريق .

ويبرز دوليجيل في مشروعه أهمية ثنائية الكفاءة/ الأداء في إمداد النظرية الأسلوية بالخلفية العامة المناسبة لتفسير التنوع الأسلوي . وهو يعد عمليات التشكيل الأسلوي مكونا أساسيا من مكونات مقولة (الأداء) . أما مقولة (الكفاءة) فإنها تشكل خلفية ضرورية لأي نظرية أسلوية . ومن خلال بعض الملاحظات النقدية التي يقدمها على نظرية (الأداء) يحدد لنا الشروط المتوقعة في أي خطط كامل للأداء ، فيرى أن على هذا المخطط :

(١) أن يفسر السمات البراجماتية للسلوك اللغوي .

(٢) أن يفسر الفروق الجوهرية بين النصوص .

إن على هذا المخطط - بعبارة أخرى - أن يعطي وصفا لعملية التشكيل الأسلوي *Style - Formation Process* التي يتجلى فيها تأثير السمات البراجماتية من جهة ، كما أنه مسئول - من جهة أخرى - عن كشف الفروق الأسلوية بين النصوص .

٢ - ٨ - ٢ - عملية الاختيار .

عملية الاختيار هي مكون أساس من مكونات عملية التشكيل الأسلوي . وهي في جوهرها ، اختيار شكل تعبيري واحد من بين مجموعة أبدال متاحة ويكون الاختيار في أبسط حالاته بين بدلين . أما في الحالات المعقدة فيكون الاختيار بين عدد كبير من الأبدال .

ويتحكم عملية الاختيار عوامل برجماتية يمكن تصنيفها إلى نوعين :

(١) عامل ذاتي : *subjective* ويشمل الإشارات اللغوية للمتكلم ، وطابع تفكيره ، ومهاراته الأسلوية .

(٢) عامل موضوعي : *Objective* ويشكله المقام *Context* (بأوسع مفهومات هذا المصطلح) . وهذا العامل مستقل عن المتكلم ، وإن كان يمارس تأثيره من خلاله . ويشمل العوامل المتبطة بالاتصال اللغوي . مثل شكل اللغة : منطوقة أو مكتوبة ، وشكل الخطاب : فردي أم حوار ، وجنس القول . . إلى غير ذلك من العوامل وكلا هذين النوعين من العوامل البراجماتية جازر دائما أثناء إنتاج النص . ويمكن - نظريا - استبعاد ثلاثة احتمالات للعلاقة بين العوامل الذاتية والموضوعية في تشكيل الأسلوب .

الاحتمال الأول : قد يخضع الاختيار عند الناشئ إلى تأثيراته الخاصة ، وينحى تماما اثر المقام (العامل الموضوعي) . ويمكن التمثيل لهذا النمط بشاعر تسيطر خواصه الأسلوية المميزة على جميع قصائده في جميع

الموضوعات . ويعني هذا هيمنة العامل الدائى عنه وتنحية العامل الموضوعى . ويسمى هذا النمط من المنشئين :
(المنشئ المتحرر من المقام) Context - Free Speaker .

الاحتمال الثانى : أن يكتب المنشئ إثاراته الفردية كبتا تاما ، ويخضع تمام الحضور لما يحليه المقام . ويمكن التمثيل لذلك بكتابات الأجهزة الإدارية وكتاب الدواوين ، حيث يسود العامل الموضوعى وينحى العامل الدائى تنحية تامة . ويسمى مثل هذا (المنشئ الخاضع للمقام) Context - Bound Speaker .

الاحتمال الثالث : أن يضبط المنشئ اختياراته تبعا لما يتطلبه المقام . وهو العامل الموضوعى الذى يتجاوز الفرد Supra U individuui context ولكنه يحتفظ فى الوقت نفسه بفرده . وخصوصيته التى تميزه عن غيره من المنشئين ومثل هذا المنشئ يسمى المنشئ الحساس للمقام context u Sensitive Speaker إذ هو يخضع اختياراته . . . الخ

والنمط الثالث هو أكثر الأنماط شيوعا ، ومثاله المنشئ الذى يحتفظ بخصوصياته الأسلوبية ، وهو - مع ذلك - ينوع ما بين أسلوبه منظوقا ومكتوبا . والملاحظ أن المنشئ الواحد لا يلزم نمطا واحدا من الأنماط الثلاثة بل قد يراوح أسلوبه بينها جميعا ويمكن القول بأن هذا النوع من الأسلوب هو حصيلته تدافع قوتين : العوامل الذاتية والصوامل الموضوعية . وهما تعملان فى اتجاهين متضادين ، وتحاولان السيطرة على المسافة الاتصالية فى لغات البشر .

٢ = ٨ = ٣ . البنية الإحصائية للنص

تحدد البنية الإحصائية للنص بمجموع الخواص التى تثبت له بالقياس . ويمكن أن تصاغ المعادلة العامة للبنية الإحصائية للنص كما يلى : ص = خ_١ ، خ_٢ ، . . . ، خ_٣ ، خ_٤ ، . . .

حيث ص = نص ، خ = خاصية ، (. . .) وتشير الى جميع خواص النص التى تم فحصها . ويطلق على هذه المعادلة :

المعادلة المبدئية للنص Elementary - Text Formula وهى معادلة معينة نظرا لما نتوقعه من عدم تجانس القياسات الإحصائية للخواص المختلفة ، وهو ما يجعل من جمعها فى معادلة واحدة مشكلة إحصائية تتطلب حلا . وحين ندخل فى الاعتبار التصنيف المقامى القائم على أساس ما هو موجود من العوامل البراجماتية المؤثرة فى إنتاج النص يتحصل لنا أن مجموع نصوص لغة ما (ويرمز لها بالرمز : ص (ل) ، حيث ل = لغة ، ص = نص) يمكن تصنيفها باعتبارين :

١ - الأول : أن تصنف تبعا للعوامل الذاتية . ويتبع لنا هذا التصنيف ص (ك) .

حيث ص = نص ، و (ك) = منشئ أو متكلم يعينه مع تنوع المقامات . ويصبح مذلول ص (ك) هو مجموعة النصوص التى يتجهها منشئ معينه بقطع النظر عن اختلاف المقامات .

الاهتبار الثاني : أن تصنف تبعاً للعوامل الموضوعية . ويتبع لنا هذا التصنيف ص (ق) ، حيث (ق) = مقام بعينه . ويصبح مدلول الرمز ص (ق) هو مجموعة النصوص التي تنتج في مقام معين يقطع النظر عن اختلاف المنشئين .

ولما كانت الجهة منفكة بين التصنيفين فإنه يحصل لنا باجتماعها ص (ك ق) ، أي مجموعة النصوص التي ينتجها منشئ معين في مقام معين . ومن الطبيعي أن نتوقع خلط بعض المجموعات من هذا النوع ، ضرورة أن المنشئ المعين لا يتوقع منه أن يكتب في جميع المقامات .

وقد تساءل : كيف يجد الباحث العوامل الذاتية والموضوعية التي يتم على أساسها تصنيف مجموع نصوص اللغة : ص (ل) . والجواب أن هذه العوامل يمكن تحديدها إمبيريقياً ، فالتصنيف البراجماتي هو إطار تجريبي إمبيريقى للتحليل الإحصائي يمكن تحديده دون أن نعرف شيئاً عن البنية الإحصائية للنصوص . وتتحول النصوص بعد تحديدها على هذا الأساس البراجماتي إلى مجتمعات إحصائية . وبذلك يمكن استخدامها لتحديد الخصائص الإحصائية للنصوص .

ولقد سبق لنا الحديث عن المعادلة المبدئية للنص ، ووصفناها بأنها معنية مع بيان لحثيات هذا الحكم . ومن ثم لم يكن بد من تهيئ هذه المعادلة . وأول مراحل هذا التهيئ أن نحذف منها بعض الخصائص التي تعوق عملية التشخيص الإحصائي للنص . ولدينا - عادة - نوعان من هذه الخصائص :

الأول : خصائص مافوق الأسلوب Supra - Stylistic Features

ويقصد بها بعض الخصائص التي تتجاوز الخيارات الأسلوبية ، وتفرض نفسها على جميع المنشئين فلا تنقاد للتشكيل الأسلوبية . وليس لهذا النوع من الخصائص اللغوية ما يؤهله ليشكل سمات مائزة بين الأساليب . وينتمزله بالرمز (خ - ل) ، حيث خ = خاصية ول = لغة .

ومثل هذه الخصائص - وإن لم تكن مادة للتشكيل الأسلوبية - هي خلفية ضرورية لإدراك الفروق الأسلوبية بين النصوص . وإلى هذا النوع نعزى الفونيمات والجرانيمات (أي وحدات نظام الهجاء) .

الثاني : خصائص ما دون الأسلوب Sub - Stylistic Features

ويندرج تحت هذا المفهوم خصائص يثبت من فحص ص (ك ق) أنها تتسم بعدم الثبات non-stationary ، أو أنها تتأرجح تاريخياً ذا دلالة إحصائية . وتمثل هذه الخصائص تحديداً حقيقياً للنظرية الإحصائية في دراسة الأسلوب . ولأمر أمام الباحث من عزل هذا النوع واستيعاده ، لكي تستقيم البنية الإحصائية للنص .

وحين يتم عزل هذين النوعين من الخصائص غير الأسلوبية يصبح من الممكن إجراء أولى خطوات تهيئ المعادلة المبدئية للنص ، حيث تحصل لنا : المعادلة المبدئية لأسلوب النص elementary text - Style formula . ولا يسمح

بدخول المعادلة إلا للمتغيرات الأسلوبية التي يثبت بالفحص الإحصائي أنها سمات أسلوبية . وصيغة هذه المعادلة هي :

ص = (خ^١، خ^٢، ...، خ^ن) . حيث خ^ص = خاصية أسلوبية ، أما ١ ، ٢ ، ... ، ن فهي مجموع الخواص الأسلوبية بما فيها الخواص التي ترتبط بخواص سبق ورودها ارتباطاً على وجه اللزوم .

وتتجه الخطوة التالية في تهذيب المعادلة إلى استبعاد الخواص التابعة ، أي المتضمنة في خواص أخرى على وجه التلازم ، واستبقاء الخواص الأسلوبية الأساسية والمستقلة دون غيرها . ونتج هذه الخطوة : المعادلة المخفضة لأسلوب النص reduced text - style Formula ، وهي :

ص = (خ^١، خ^٢، ...، خ^ن) ، حيث تساوى خ^١ في هذه المعادلة خاصية أسلوبية مستقلة (وحيث يكون عدد الخواص المستقلة ن أصغر من مجموع الخواص المستقلة والتابعة) .

٢ - ٨ - ٤ . مادة الفحص والفروض

على الباحث أن يجري فحصه الإحصائي على ثلاث النصوص من النوع ص (ك ق) ، أي نصوص منشء معين في مقام محدد . ويرمز إلى المجموع الكلي للنصوص ص (ك ق) بالرمز ص (ق) ، ويعني مجموع ثلثات النصوص في مقام محدد بقطع النظر عن اختلاف المنشئين . وتشكل ص (ق) المدونة الأساسية للمادة التي تخضع للفحص بهدف تحديد البنية الإحصائية للنصوص . وثمة إجمالان متعارضان يمكن أن يؤدي إلى أحدهما فحص التجانس في (خ) (أي الخواص الأسلوبية المستقلة) . ولكل منهما تفسيره :

أولهما : أن تتأرجح قيم (خ) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق) من المدونة ص (ق) تأرجحاً ذا دلالة إحصائية . وحيث يمكن اعتبارها خواص مستقرة في نصوص منشء معين بحيث تميزه تميزاً واضحاً عن غيره من المنشئين ، أي أنها خاصة أسلوبية ذاتية . ومترمز لهذه الخواص بالرمز (ش - خ) حيث ش = شخصية .

ثانيها : أن تتأرجح قيم (خ) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق) من المدونة ص (ق) تأرجحاً غير ذي دلالة إحصائية ، أي أن (خ) تبدو متجانسة في جميع المدونة . وحيث ينبغي أن تعزى (خ) إلى الخواص الأسلوبية

الموضوعية objective stylistic characteristics لأنها خواص تتجاوز الفرد - supra-individual وسيكون رمزها (ض - خ) ، حيث ض = موضوعية :

على أن ثمة احتمالاً ثالثاً هو أن تتجانس (خ) في أسلوب بعض المنشئين دون بعض ، مع افتراض وحدة المقام (ق) . ويفسر دوليبيجل هذا الاحتمال بأنه تشابه في أسلوب الأفراد أكثر من كونه خواص أسلوبية موضوعية .

وتعذر إلى فحص الخواص الأسلوبية الذاتية (ش - خ) من جنيد لكي تحدد مكانها ذاتياً خالصاً ، وما كان ذاتياً موضوعياً (ش - ض - خ) ، وذلك بتعريضها للاختبارين التاليين :

الثاني: بحسب الباحث متوسط قيمة (ش-خ) في الموديتين (ق) و (د) ثم يرى هل تختلف القيمتان اختلافاً دالاً ؟ وإذا كان الجواب عن السؤالين السابقين بالإيجاب فإن الخواص الذاتية المميزة لتلك ذاتية خالصة ، بل هي خواص ذاتية موضوعية (ش-ص-خ) في آن معا . فهي ذاتية باعتبار تأرجح قيمها الدال خلال المودنة ، مما يعنى إبتاعا لدى المنشئ الواحد واختلافها عند سائر المنشئين . وهي موضوعية بحكم اختلاف مسافة تأرجح قيمها أو اختلاف متوسط قيمة التأرجح باختلاف المقام . أما الخواص التي لا تأتي متطلبات الاختيارين السابقين فتكون ذاتية خالصة (ش-خ) . وهكذا يتحصل لنا ما سبق ثلاثة أنواع من الخواص الأسلوبية هي :

- (١٣) خواص أسلوبية موضوعية خالصة (فـ - خ)

ومن هذه الأنواع تشكل الصورة الأخيرة لمعادلة التشخيص الإحصائي للأسلوب ، ونعني بها :

Specified text - Style Formula المعادلة المحددة لأسلوب النص

وتتخذ الصيغة الآتية :

[illegible]

خ ... فـ (خ - فـ)
م + ۶ ۵

وتعني هذه المعادلة ببساطة أن الخواص المحددة لأسلوب النص (ص) تساوي مجموع الخواص الأسلوبية المستقلة (لا التابعة) بأنواعها الثلاثة: اللذان (ش-خ ... ش-خ) ، والذي للموضوعي (ش-ص ... ش-ص) ، والموضوعي (ص-خ ... ص-خ) .

وتتميز المعادلة الموحدة لأسلوب النص بأنها تمثل النص تمثيلا شكليا باستخدام منظومات من مكوناته المستقلة المتنوعة . كما أنها تعبر عن الدرجة التي تسهم بها المكونات الذاتية والموضوعية في تشكيل النص ، وما يتبعها مع كل منها من وزن خاص . كذلك تظهر لنا هذه المعادلة أسلوب النص في هيئة بنية إحصائية مركبة . وهكذا يمكن تشخيص أسلوب النص إحصائيا بتجزئته إلى عدد محدد من المكونات الأسلوبية الموصفة القابلة للقياس الدقيق . وعمل هذا

الإنجاز في رأى دوليجيل أهم إسهام يقدمه المفهوم الإحصائي لنظرية الأسلوب . وجدير بالذكر أن صفة الذاتية والموضوعية في المعادلة لاتحددها الخواص اللغوية ، بل العوامل البراجماتية المتحركة في توليدها .

٢-٨-٥ . خلاصة

يخلص لنا مما سبق :

أولا : أن التوصل الى المعادلة القادرة على تشخيص البنية الإحصائية لأسلوب النص قد مر بالمراحل الآتية :

- (١) المعادلة المبدئية للنص .
- (٢) المعادلة المبدئية لأسلوب النص .
- (٣) المعادلة المختصرة لأسلوب النص .
- (٤) المعادلة المحددة لأسلوب النص .

ثانيا : أن المعادلة المحددة لأسلوب النص تنتزع بحسب العوامل الذاتية والموضوعية التي تحكم الاختيار من البدائل .

ثالثا : أن الاختيار من بين مجموعة الأبدال المتاحة إذا كان محكوما بالعوامل الذاتية الخالصة كانت صيغة المعادلة هي :

$$\text{ص} = (\text{ش} - \text{خ} , \text{ش} - \text{خ} , \dots , \text{ش} - \text{خ})$$

رابعا : إذا كان الاختيار محكوما بالعوامل الموضوعية الخالصة فإن المعادلة تكون كما يلي :

$$\text{ص} = (\text{ص} - \text{خ} , \text{ص} - \text{خ} , \dots , \text{ص} - \text{خ})$$

خامسا : إذا كان الاختيار محكوما بعوامل ذاتية موضوعية كانت صيغة المعادلة :

$$\text{ص} = (\text{ش} - \text{ص} , \text{خ} - \text{ش} , \text{ص} - \text{خ} , \dots , \text{ش} - \text{ص})$$

سادسا : أن الحالات الثلاثة السابقة تفترض وجود نصوص متجانسة تجانسا تاما . وهذا استثناء . أما الغالب فهو أن تتألف النصوص من الأنواع الثلاثة السابقة وتغير عن ذلك المعادلة المركبة التي سبق إيرادها .

سابعا : يبيننا دوليجيل - في ختام مشروعه - الى مشكلة هامة فحواها أن الخواص الأسلوبية المتطابقة لغويا قد تختلف طبيعتها الإحصائية باختلاف النصوص أو باختلاف أنواع النصوص ، فقد يكون طول الجملة خاصة ذاتية في نص ، وموضوعية في نص آخر ، وذاتية موضوعية في نص ثالث . وينشأ عن ذلك اختلاف وظيفة الخاصية في عملية التشخيص . إنها في النص الأول صالحة لأن تكون مميزا لأسلوب التشيؤ الفرد ، وفي الثاني لا تصلح ألبتة لهذه الوظيفة . أما حين تكون الخاصية ذاتية - موضوعية فإن صلاحيتها لتمييز فردية الأسلوب تكون مقيدة بمنطق معينة ، أى أنها لا تكون مميزا إلا في حدود مقام واحد ثابت . وهذه المشكلة - عند دوليجيل - من أكبر المشكلات التي تواجه النظرية الإحصائية في التحليل الأسلوبى صعبة وخطرا ، ولم تلق حتى الآن ماهى جدية به من اهتمام .

ثامنا : قد يتخذ من هذا التمارض المثير للدهشة في التفسيرات المتنوعة للخصائص الأسلوبية دليل على وجود نقص في النظرية . غير أن النقص في النظرية ليس هو وحده المستلزم عما يشيع في نتائج الأسلوبيات الإحصائية من مظاهر التردد والتناقض . ذلك أن التفسيرات ذات طابع افتراضي ظاهر . كما أن الحساب الدقيق لهذه المادة صعب بسبب العلاقة المعقدة بين (النص - العينة) و (النص - المجتمع) .

يضاف الى ذلك أن وضع حدود مرضية للمجتمع الإحصائي للنص (أو المجتمعات) هو مهمة معقدة ، لأن المجتمعات الإحصائية هي بالنسبة لدراسة النصوص مجموعات مفتوحة ، أي لا يمكن وقوعها تحت حصر .
وأخيرا : يقرر دوليجيل أن الأمل معقود على استخدام الحاسوب للتوسع في معالجة مجموعات كبيرة ومتكاملة - وبها تتمكن من الاختبار العلمي للفروض الأساسية في نظرية الأسلوبيات الإحصائية . ولابد من تقبّل الجهود في هذا الاتجاه ليكتسب هذا الدرس صفة المنهج العلمي الحديث عن جدارة .

٣ - مبحث الوظيفة

٣ - ١ . المقياس الأسلوبي الإحصائي

نحاول هذا البحث الثالث أن نستوفى أنحاء التقسيم المقترح لهذه الدراسة ببيان للكميات والمجالات التي يمكن بها ولبيها توظيف الإحصاء في دراسة الظاهرة الأسلوبية . ونحسب أن أول ما ينبغي البدء به هنا هو بيان مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي ، واستخداماته ، ومجالات تطبيقه .

المقياس الأسلوبي الإحصائي هو : (صيغة شكلية تؤسس علاقة بين المتغيرات أو الخصائص وما يتنازع به النص من ظهوه من النصوص ، أو ما يستدعيه من أحكام ونعوت) .

٣ - ٢ . مجالات تطبيقه .

وينشأ مما سبق وجود وجهين لاستخدام المقياس الأسلوبي :

أولها : تأسيس علاقة بين المتغيرات الأسلوبية بهدف الكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة ، (وهو الهدف الوصفي)

ثانيها : تأسيس علاقة بين الخصائص الأسلوبية المائزة بهدف الكشف عن نموت الأسلوب . (وهو الهدف التفرعي) ، كلا المبدئين واقع في مجال التشخيص الأسلوبي ، إلا أن أولها ينصرف الى تشخيص الأساليب ، والثانيها ينصرف الى تشخيص نموت الأساليب .

ويشكل كلا هذين الاستخدامين بابا وأساسا يهدف منه الباحثون الى ميدان عريض ، ويستشرفون فيها أفاقا رحبة للبحث الأسلوبي . وتوسع مجالات التطبيق والإفادة من المقاييس الأسلوبية الإحصائية لتشمل :

(١) في اللسانيات الاجتماعية : Sociolinguistics : قضايا الاستعمال الاجتماعي للغة ، والسجل المعنوي

register ، وتحليل الخطاب discourse Analysis ، ومقاييم اللغة Pragmatics of language

(٢) وفي اللسانيات التاريخية : *historical linguistics* : قضايا نمايز الأساليب باعتبار العصر ، والتغير التاريخي للأساليب *dynamic Stylistics* وفحص الوثائق التاريخية للغوية .

(٣) وفي اللسانيات النفسية قضايا اللغة والفكر ، واللغة والشخصية ، والعقلانية والانفعالية ، ومبحث الإبداع .

(٤) وفي اللسانيات الأدبية : قضايا نمايز أساليب الأفراد ، والكشف عن المؤلف المجهول ، وتصحيح نسبة النصوص ، وتحقيق قضايا الانتحال والوضع والتقليد ، وتمييز نعوت الأساليب ، وتشخيص العلاقة بين المنشئ وشخصياته الروائية أو المسرحية ، وأنماط اللغة الأدبية ، والترتيب التاريخي لأعمال المنشئين ، وبحث الأنواع الأدبية ، وجماليات التشكيل اللغوي للنص الأدبي .

(٥) وفي الدراسات التربوية : قضايا المعجم الأساسي ، والثروة اللفظية ، وقابلية النصوص للقراءة *readability* ، والتشويق والإثارة في تشكيل لغة النصوص التعليمية .

هذا إلى مجالات أخرى كثيرة في علم الاجتماع ، وعلم الثقافات ، وعلم المعلومات ، والسميائيات ، وعلوم الإعلام نوردها لا على وجه الحصر وإنما لنشير بها إلى ما ينتظر الأسلوبيات الإحصائية من مهمات جسام في جميع ميادين الدراسات الإنسانية على تنوعها ورحابتها .

٣-٢ . أنماط المقاييس الأسلوبية .

تعدد أنماط المقاييس الأسلوبية بحسب المبدأ الذي تستند إليه . ومن الأهمية بمكان أن نحدد هذه الأنماط ، فذلك أنسب المداخل لمناقشة قضية كثر حوها الجدال واختلطت فيها الأوراق ، ونعني بها مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى ، ومدى شرعية افتراض المقاييس وتجاوزها حدود اللغة التي استنبطت فيها إلى غيرها من لغات البشر . وسنعود إلى ذلك في مايلي من حديث .

ويمكن أن نستظهر مبادئ أربعة تقوم على أساسها الاستدلال بالمقاييس الأسلوبية الإحصائية .

(١) مبدأ رياضى : وإليه تنتمى المقاييس الأسلوبية التي تقوم على حساب العلاقة بين الكميات في صيغة معادلة رياضية ، ومنها حساب التباين ، والانحراف المعياري ، والارتباط ، وكاى^٢ ، والنسبة المخرجة وسائر طرق الاستدلال الإحصائي .

(٢) مبدأ لغوي : يقوم على الكشف عن الدلالة اللغوية للعلاقة بين المتغيرات الأسلوبية المقالية ، ومنه مقاييس طول الجملة ، وأنواعها ، والمقاييس المعجمية وغير ذلك مما يقيس الشيع والتوزيع لتغيرات المقال .

(٣) مبدأ منطقي : وهو حساب رياضي للمتغيرات الأسلوبية يستمد حجته من موافقة لبديهيات المنطق . ومن هذه المقاييس قياس تنوع المفردات *Vocabulary diversification* الذى استنبطه ت . م . جونسون T.M. Joneston . وقد أقامه على أساس من رد مجموع مفردات الكلمات التي يتشكل منها النص *Tokens* إلى الأنماط الأساسية بعد حذف جميع تكراراتها *Types* ، ثم قياس التنوع بطرق ذات دلالات مختلفة بحساب النسبة بين المجموع الكلى للكلمات وأنماطها .

(٤) مبدأ نفساني : وأكثر المقاييس التي تقوم على مبدأ نفساني تستمد أساسها من الفروض العلمية في الدراسات النفسانية . وإلى هذا النمط ينتمي معامل بوزمان Buzemann's Coefficient لقياس درجات الانفعالية والعقلانية في الأسلوب عن طريق حساب النسبة بين الأفعال والصفات ، وقد أرحى بفكرة المقياس له ما لاحظته من دراساته في اللسانيات النفسانية للغة الأطفال ، إذ لاحظ غلبة الأفعال على الصفات فيها يمكنه من قمع ، وتغير هذه النسبة باتجاهها نحو الانخفاض بنمو الطفل ونضوج قدراته وملكوته الفكرية والإدراكية . وهكذا تشكل هذا الفرض العلمي في إطار البحوث النفسانية . وجرى اختياره فأسفر عن إمكانات طيبة في قياس درجة الاستقرار العاطفي ، وقياس أنماط الشخصية ، وحفظها من الانفعالية والعقلانية .

ولقد كانت هذه الملاحظة العلمية منطلق بوزمان لوضع هذا المقياس الأسلوبى ، ومنطلق من جهاموا بعده لتطويعه . وأصبح ممكنا به اختبار الفوارق الأسلوبية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وبين الأسلوب العلمى والأدبى ، وبين الشعرية والنثرية ، وبين لغة الفرد ولغة الحوار ، وبين لغة الرجال ولغة النساء ، وبين لغة الصغار ولغة الكبار ، ولغة الأنواع الأدبية ، وقياس الخط الدرامى في القصة والمسرحية والرواية (٣١) .

٣ - ٣ . مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى :

نعود هنا - في ضوء ما تقدم - لمناقشة مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى بمحاولة للإجابة عن هذا السؤال الهام : إلى أى مدى يجوز للغات أن تتعارض المقاييس الأسلوبية لها بينها ، وإلى حجية تكون للمقياس إذا جاوزنا به حدود اللغة التى استنبط فيها إلى غيرها من لغات البشر ؟ (ومن الغيبيات تلك المقاييس أن تتحول إلى كليات معرفية مهما اختلفت الألسنة التى تجرى عليها ؟ أمقيس من الطبع أن نخبر الجهاز الإجراءى أولا ؟ بل أليس ينبغي أن نعمل على استنباط هذا الجهاز من صلب المدونة التى تنقلها مناطا لبحثنا التطبيقي ؟) (٣٢) .

ولأن هذه التساؤلات تتردد في غير موضوع ومن غير باحث فإنها - ولاشك - مستحقة لأن تكون موضع اعتبار . وعلمنا - لدى مناقشتها - أن ننبه إلى أنها لا ترد إلا على النمط الأخير من المقاييس ، إذ إن حجية المقاييس القائمة على المبدأ الرياضى أو المنطقى ثابتة في كل لسان ، كما أن حجية المقياس القائم على مبدأ لغوى في إطار اللغة الواحدة ليست موضع خلاف . من هنا كان حظ المحاولة التي بذلت لإعمال معامل بوزمان وتطبيقه على اللغة العربية من النقد والمناقشة موفورا . وقد كان من كاتب هذه السطور رد مفصل في غير هذا المكان على ما أثر من ملاحظات وحسبنا هنا أن نقول : إن مثل هذا المقياس إذا كان قد استنبط من لغة بعينها فإن ذلك يمنحه شرعية الفرض العلمى الذى يبقى قابلا للإثبات أو النفي بحسب ما يؤدى إليه الجهد التطبيقي . وقد أثبتت الدراسات التى أجريتها عليه في الألمانية والانجليزية والفرنسية

(٦٠) انظر : محمد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٥٩ و ٦٠ و ٦٣ و ٦٥ .

(٦١) من رسالة كريمة لفضاها كاتب هذا البحث من الدكتور عبد السلام اللسخي طويته في ١٠/٤/١٩٨٤م . يمكن حل إشكالات معامل بوزمان في الشخص الأسلوبى .

وتريب من ذلك ما ورد في :

صلاح لغزل : علم الأسلوب : مباحث وأجرامه ، ص ٣٦٩ . وانظر ردنا لنا عليه في : دراسات لغوية في اللسانيات العربية المعاصرة ، ص ٧٦ - ٧٨ .

لما السائرون فقد دلف كثير منهم إلى رؤية هذه التجربة وأكد أهميتها . وانظر في ذلك عرضاً بإسناد وإلقاء للتصديق في : دارن الوعر : دراسات لسانية تطبيقية ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٣ - ٢٠٠ وقد قسمته لفراف وصية نظري في (إلهيات الشعرية وسيلها) .

صدقه وقلّته على أن يكون مؤشراً كاشفاً لأنواع الأساليب . ولم تكن درجة صدقه على العربية بأقل منها في غيرها من اللغات .

يبد أن الاجتزاء الأساسي - في هذا المقام - إنما ينصرف إلى المتغيرات اللغوية الأسلوبية الداخلة في الكميات المقيسة ، إذ ينبغي تعديدها تحديداً قاطعاً وثاقياً لكل ليس . ومن ثم كان لابد من تكيف المفاهيم من هذه الوجهة لتكون صالحة للتطبيق وعقيدة للغاية المتوخلة بها . إن هذه المتغيرات . وإن اتفقت في طبيعتها اللسانية العامة (صوتية كانت أو صرفية أو تركيبية أو دلالية) هي تصورات ذات ماصدقات مختلفة باختلاف النظم اللغوية المعينة ، ومن ثم تتوقع اختلاف حدود القوانين وأنواع المورفيمات والجمل والحقول الدلالية من لغة إلى لغة ، كما تتوقع أيضاً اختلاف الثيوب والتعقيد وأجراءات الوصف باختلاف الطرز النحوية . ومن هنا كان تحرير مفاهيمها وتحديد ماصدقاتها وعلاقتها النظامية ضرورة منهجية لا ترخص فيها . بيد أن اختلاف هذه المفاهيم ، ونقصانية البيانات والاستعمالات الأسلوبية في لغة ما لا ينفي ما للظاهرة الأسلوبية من طبيعة لسانية عامة ، وهي بذلك إحدى الجوامع اللسانية - Linguistic Universals التي لا تخلو منها لغة ، ولا تختص بها إحداها دون سائرهما .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية والمعالجة الإحصائية

لعل استيعاب الآفاق الوحية التي تعد بها المعالجة الإحصائية ، به الحاسوبية (١٢) ، لنصوص اللغة تقضي بنا إلى ضرورة وضعها في سياق موضوعها من المصوم العلمية للباحث العربي المعاصر . ولأنك أن رصد ما تم إنجازه في هذا المقام ربما كان أبسر مثالا من تعداد المجالات التي تتطلع العربية إلى اقتحامها والإفادة منها . (١٣) :

بيد أننا نشير هنا إلى عدة مجالات تمثل بالنسبة لجمهور الباحثين أبعداً تستعصى على التحقيق إلا باستنفار الجهود وتضافر المؤسسات العلمية القادرة على التخطيط والمتابعة والإنجاز .

أولها : إنجاز وصف دقيق للعربية المعاصرة على اختلاف تنوعاتها الإقليمية ، والاجتماعية .

وثانيها : إنجاز المعجم التاريخي للعربية .

وثالثها : إنجاز الأطلس اللساني العربي .

ورابعها : الإسهام الجاد من اللسانيين في صياغة نظرية نقدية تستوفي أشراف العلمية والموضوعية في دراسة النص الأدبي بأجناسه المختلفة .

وفي كل ما تقدم نحسب أن إعمال المعالجة الإحصائية والحاسوبية في دراسة نصوص العربية قديمها وحديثها هو أمر لا يمكن تجاهله بحال .

(١٢) لا بد أن نرى هنا مكتب بيل على : اللغة العربية والحاسوب ، (القاهرة ، دار تعريب ، ١٩٨٨) - وهو دراسة تحتاج إلى طبعة لسانية جادة . وقد لورد المؤلف في حاشية كتابه لدية بيوت مكرمة في مجال اللسانيات الحاسوبية مطبقة على اللغة العربية (ص ٥٣٩ - ٥٥٠) .

(١٣) قطع معهد الخرجم الأدبي للغة العربية (قطاع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) شوطاً في إنجاز مشروع الدراسات الإحصائية على اللغة العربية . وكان لكتيب البحث شرف الإشراف على بعض مراحله . ولكن ضعف الإمكانات ورضخاته المشروع قلقت طاقاً دون إتمامه . وانظر لكتيب البحث . ومؤلفات لغوية إحصائية في حقلين الصحافة العربية : مصر - ليبيا - السودان) ، في (دراسات إحصائية لمتطابقة في العربية المعاصرة) ، الخرجم ، ١٩٨٥ ، ص ١ - ٣٣ .

مثلاً ان اللزوم المنطقي logical implication هو محور علم المعاني، كذلك الاقتضاء impicature هو من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم التداول Pragmatics. وبالرغم من التقارب بين هاتين العمليتين، إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت غرابيس Grice، وأضح هذا المفهوم، الى اشتقاق مصطلح جديد من المصطلح «implicate» ذاته وتخصيص عملية الاستدلال التي تجري في التداول اللفظي باسم الـ implicate تمييزاً لها عن الـ implication المتعارف عليها.

في التراث العربي، أي في كتب المنطق والأصول والبلاغة، تستعمل نفس لفظة «اللزوم» أو «الاستلزام» للدلالة بتوجع عام على أية واسطة من عمليتي الاستدلال المذكورتين، دون تفرقة^(١). انهاء، نظراً للاختلاف الجوهرى بينهما، أخذنا بمصطلح «الاقتضاء» المستعمل في أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم غرابيس، للدلالة على الاستدلال. التداولي، وحصرنا لفظة «اللزوم» بالاستدلال المنطقي وحده.

خلافًا للزوم، يستند الاقتضاء إلى مبادئ عامة تقع خارج تنظيم اللغة وتهدف إلى الاتصال القائم على التعاون. ومع ذلك فللاقتضاء تأثير فعال على بنية اللغة ذاتها.

الاقتضاء في التداول السائى

عادل فاخوري

الأستاذ بقسم الفلسفة - جامعة الكويت

من أهم مميزات الاقتضاء، أنه يقدم تفسيراً صريحاً لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة. فبالنسبة للمثل :

أ: كم الساعة ؟

ب: لقد أذن العصر .

(١) هكذا يقال مثلاً ويلزم من كل حراب أسود أن يحترق الدخان سوداء بمعنى اللزوم أو الاستلزام المنطقي . وكذلك يقال مثلاً أن تقول أريدت الجريسة في الظلمة هو لازم فلكه تقول وأنت الجريسة في الظلمة ، بمعنى اللزوم التداولي .

لا يستطيع علم المعاني وحده أن يمدنا إلا بالتوضيح الآتي على الأكثر :

أ : أنا أرغب أن تقول لي (كم الساعة ؟)

ب : لقد (أذن العصر) في وقت سابق لاستفسارك.

لكن من المظاهر، لكل من يتكلم العربية، أن الجواب بهذا التخاطب يتجاوز بكثير المنطوق الحرفي. فالحوار يقصد بالتفصيل :

أ : أرغب أن تقول لي (كم الساعة) بحسب التوقيت المحلي المتعارف عليه دولياً، في اللحظة التي أتكلم فيها معك الآن، إذا كان باستطاعتك ذلك.

ب : بالحقيقة أنا لا أعرف الوقت الدقيق الآن، لكنني أستطيع أن أفيدك بخبريمتك من أن تستنتج الوقت على وجه التقريب وهو (أن أذان العصر قد مضى) منذ فترة وجيزة.

ولا ريب أن هذا المقصود التفصيلي بالذات، أي الاستخبار عن الوقت الدقيق ومحاولة إفادة المعلومات على قدر المستطاع، لا يمكن الوصول إليه كلياً بواسطة علم المعاني، بل لابد من اللجوء إلى الاقتضاء التخاطبي لسد الثغرة الحاصلة بين القول حرفياً وبين ما يتلخّص المستمع.

ومن فوائد الاقتضاء كذلك أنه قادر على إحداث تبسيط في بنية الأوصاف الدلالية semantic description، كما في مضمون هذه الأوصاف. فإذا ما قارنا بين المثالين الآتيين.

١ - فتح سميكة البيسي وشربها دفعة واحدة.

٢ - بيروت عاصمة لبنان والقاهرة عاصمة مصر.

نجد أن معنى واو المطلق في المثال الأول يشار جزئياً معناها في المثال الثاني. فالواو في (١) تدل على التعقيب بحيث أنه من الصعب تصور عكس الترتيب الزمني، إذ قولنا :

شرب سميكة البيسي دفعة واحدة وفتحها :

يبدو غير معقول. بينما في (٢) لا تفيد الواو أكثر من مطلق الاشتراك والجمع، أي تِلْها المعنى الذي يحلله جدول الصديق لرابط الوصل (٨)، وهو صديق المركب فقط عند صدق الطرفين :

| ب | ج | ب ٨ ج |
|---|---|-------|
| ص | ص | ص |
| ص | ك | ك |
| ك | ص | ك |
| ك | ك | ك |

وبالتالي، فإن عكس ترتيب الطرفين لا يغير شيئاً في المعنى . فقولنا:

القاهرة عاصمة مصر وبيروت عاصمة لبنان

لا يختلف مع قولنا في المثل (٢) . لأن تقييم (ج ٨ ب) هو مرادف لتقييم (ب ٨ ج) كما يستبان من الجدول الآتي :

| ب | ج | ج ٨ ب |
|---|---|-------|
| ص | ص | ص |
| ص | ك | ك |
| ك | ص | ك |
| ك | ك | ك |

أمام هذه الإشكالات، لا يجد علم المعاني من حل سوى الادعاء بأن الواو يشوبها الالتباس، إذ تحتل عدة معاني مختلفة، أو الزعم أن معاني الكلّيات هي بنوع عام غامضة ومضطربة تتقلب مع تغير السياق والتركيب. لكن في الحالة الأولى، يلزمه تشعب المعاني حتى بالنسبة لأبسط الكلّيات. فمثلاً عند اعتبار الجمليتين:

التعلم أبيض

التعلم أبيض وأحمر وأزرق

يضطر علم المعاني لأن يضيئ كل مرة حل كلمة « أبيض » معنى مختلفاً فهي في الجملة الأولى تعني «كليا أبيض» وفي الثانية «جزئياً أبيض».

وفي الحالة الأخرى، أي عند الزعم أن المعاني في اللغات الطبيعية غير مستقرة، يمجّز هذا العلم عن كيفية تحديد معنى الكلمة المتغير، عند كل وقوع لها.

أما مفهوم الاقتصاد فهو بلاشك يقدم الحل الأنسب، إذ يقرر أن الفاظ اللغة الطبيعية أنها تنزع إلى المعاني الموحدة الثابتة، لكن من طبيعة هذا الكنه الدلالي أن تتعلق به غالباً لواحق متغيرة يقتضيها السياق وفقاً لقواعد معينة.

وأخيراً، من ميزات الاقتصاد، بالإضافة إلى ما سبق، أنه استناداً إلى غند قليل من المباني، « قادر على تفسير كثير من الأمور التي تبدو في غاية التناقض والتباعد.

المعنى غير الطبيعي

من الواضح أنه عند تلفظ ما، غالباً ما نستطيع أن نستدل على توابع مختلفة، لكن هذه التوابع ليست واقعة جميعاً تحت المعنى المقصود بإلاجه، أي المعنى المقصود به أن يدرك أنه مقصود، وهو ما يسميه غرايس « المعنى غير الطبيعي » *non-natural meaning*. وسنذكر تلك الاستدلالات التي أطلقنا عليها اسم «القتضيات» *implicature* هي

من المعاني التي يراد إيلاؤها على النحو المذكور، وهي بالتالي، إلى جانب القول *what is said* أو المنطوق، تشكل القسم الثاني للمعنى غير الطبيعي. لذلك كان لابد من ربط نظرية الاقتضاء بنظرية المعنى غير الطبيعي.

تتمحور نظرية الاتصال^(١) عند غرايس H.P.Grice حول ما يخصه باسم « المعنى غير الطبيعي » أو « الدلالة غير الطبيعية » *non-natural meaning*. وبالاختصار « المعنى غ ط » أو « الدلالة غ ط » *meaning no*. لتعنين هذا المفهوم وتمييزه عما عداه يستعرض غرايس مختلف الاستعمالات التي تتقبلها لفظة « meaning » في التداول العادي.

فالتمييز العام الذي ينطلق منه هو التفرقة بين الاستعمال الذي يحتمل القصد والاستعمال الذي لا يحتمله.

هكذا مثلاً في العبارات الآتية :

الغيوم تعني أو تدل على المطر
الاحمرار يعني أو يدل على الخجل
تقطيب الحاجبين يعني أو يدل على الاستياء

تكون الدلالة طبيعية، من حيث أن الأمور الدالة، أي الغيوم والاحمرار وتقطيب الحاجبين، لم تحدث قصداً من قبل شخص ما، للدلالة على المطر والخجل والاستياء على التوالي، بل إن دلالتها تعود لحدود علاقة علية بين الدال والمدلول. ومن الواضح أنه في هذا الاستعمال لا تنطوي كلمة « معنى » أو كلمة ودلالة على القصد البتة.

بينما في أمثلة أخرى، كأن يتكلف أحدهم تقطيب حاجبيه ليدل على استيائه، أو يلوح بيده لالغاء التحية على صديق، أو في أثناء التخاطب المجهود، لاشك أن الدلالة مقصودة من قبل المرسل. فالتلويح مثلاً هو فعل قام به المرسل قصداً لإبلاغ صديقه التحية.

بين الدلالات التي تحتمل القصد يميز غرايس عدة أنواع تختلف ما بينها باختلاف موقف المتلقي من القصد الدلالي بالذات.

ففي بعض الحالات، كما في حال ترك أحدهم بيته مضياء عند غيابه لإيهام السارق بوجوده فيه، أو كما في حال تصمد تقطيب الحاجبين لأظهار الاستياء، لا يد قصداً المرسل حتى يتحقق، أن يبقى خفياً عن المتلقي. فدراية المتلقي بقصد المرسل تتضارب ولاشك مع تحقيق هذا القصد. فلكي يعني البيت المضياء للسارق أنه ليس خالياً، من الضروري أن يكون السارق جاهلاً بأن صاحب البيت أنها تركه مضياء ليقصد بذلك عدم خلو البيت. فإن عرف

(٢) حله الطريقة معروفة في هذه مقالات نشرها غرايس خلال فترة من الزمن تزيد على عشر سنوات.
راجع :

Meaning, philosophical Review, Vol. 66. 1957

Utterer's Meaning, sentence - Meaning and Word Meaning, Foundations of Language, Vol 4, 1968.

Utterer's Meaning and Intentions, philosophical Review, Vol. 78, 1969.

(٣) كلمة « meaning » الانكليزية قد تأتي بالمعنى بكلمة دسمة، أو بكلمة دلالة، دون فرق لكن. الاستعمال الدلالي لكلمة « meaning » يقرها بالأحرى من كلمة دلالة، ذلك لتفهم إمام. بهذا لفظة دسمة، أملى إلى الاستعمال في الطابع القصدي.

السارق قصد صاحب البيت فشل تحقيق القصد. وكذلك بالنسبة لتعطيل الحاجين، إذ متى أدرك المتلقي قصد المرسل بطلان أن يدل التعطيل على المعنى الطبيعي أي الإستهاء.

إلى جانب هذا النمط من الدلالة المقصدية، ثمة نمط آخر حيث الدراية بالقصد لا تتناقى مع تحقق الدلالة. لنفترض مثلاً أني ناولت صديقاً لي صورة فوتوغرافية تمثل امرأته في أحضان رجل ما، قاصداً بذلك الدلالة على أن امرأته تخونه، فلاحظ أن قصدي يتحقق إذا ما أدرك الصديق أن هذه الصورة تعني أن امرأته تخونه، وهو يتحقق حتى وإن ذرى الصديق قصدي أن أعني له ذلك بعرض الصورة عليه. انما، في هذا المثل، مع أن دراية المتلقي بقصد المرسل لا تتناقى مع تحقق القصد، إلا أنها غير منوطة به: فدراية القصد ليست شرطاً ضرورياً لتحقيقه. فلو وقع صديقي صدفة على الصورة دون علمي، أو لو أنني تصرفتها بشكل يستطيع معه ملاحظتها، دون أن أظهر له قصدي بالدلالة على خيانة امرأته، فإني سيدرك بلا ريب الرسالة التي تحملها الصورة^(٦).

بالنسبة لفئة من الدلالة المقصدية لا يكفي حتى تصيح، أن لا تتناقى دراية المتلقي بقصد المرسل مع تحقق قصد الدلالة، بل لابد من الدراية لتحقيق القصد المذكور. فلا يستطيع المرسل أن يبلغ شيئاً إلى المتلقي إلا إذا استطاع أن يبينه قصده بالدلالة على ذلك. هذه الفئة من الدلالة المقصدية هي ما يخصصها غرايس باسم «الدلالة غير الطبيعية». وهكذا مثلاً، إذا التفتيت بشخص ما في الشارع ولوحث له يدي أو قلت له «مرحبا» فإني بذلك أقصد إلغاء التحية عليه. لكن قصدي هذا لن يتحقق إلا إذا ذرى الشخص به. فحالما يدرك المتلقي قصدي يتحقق هذا القصد، وبالعكس أي أنه إن لم يدرك به فلن يتحقق. إذ أن دراية قصد الدلالة غير الطبيعية هو شرط لابد منه لتحقيق القصد. بهذا الصدد يقول سورل «إن للاتصال بين الناس خصائص حجبية ينفرد بها عن سائر أنماط السلوك الإنساني. ومن عجيب تلك الخصائص أنه إذا حاولت أن أقول شيئاً لشخص ما، فحالما يدري أنني أحاول أن أقول له شيئاً، ويدري ما أحاول أن أقوله له بالضبط، أكون «عند توفر بعض الشروط» قد نجحت في إبلاغه ذلك. بل إنه طالما يدري أنني أحاول أن أقول له شيئاً، ولم يدرك ما أحاول أن أقوله له، فإني أكون لم أنجح كلياً بإبلاغه ذلك^(٧)». أو وفقاً لتعبير غرايس: «أن تدل على شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه. فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد.

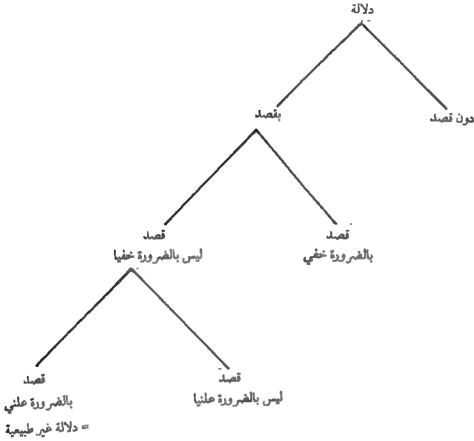
من هذا التحليل يتبين لنا أن خصوصية الانعكاس هي خصوصية جوهرية للاتصال المقصدي. فحتى يحصل الاتصال المقصدي بالمعنى الحصري للكلمة، لا يكفي أن يتم توصيل المحتوى بشكل مقصدي، بل لابد بالإضافة إلى ذلك أن يُقصد توصيل أن هذا المحتوى قد أريد توصيله بشكل مقصدي. ففعل التوصيل ينعكس على ذاته ويشكل جزءاً مما يجري توصيله^(٨).

(٦) أغلب الدلالات الاجتماعية هي حادة من هذا النمط، مثل لومته الأبناء لخللة على لكثرة أو الغيبة (تو الجفران) أو على لظا أو حمل ما وظيف المسرة أو الرضاخ، ودخل القاء وصداق بعض الأضياف الخاصة بطبقة اجتماعية (فيان سايرو روزر روس).

(٧) Speech Acts, P. 47

(٨) لكن هذا لا يعني أن توصيل المعنى وتوصيل هذا التوصيل هما متماثلان متطابقان. وإلا وجب لي كل فعل دلالي غير طبيعي أن يكون عند المرسل قصد أول الدلالة على المعنى اللساني، وقصد ثان الدلالة على القصد الأول، وقصد ثالث للدلالة على الثاني، وهكذا إلى ما لا نهاية له. وبهذا تظهر توصيل أي شيء.

كل أنواع الدلالات السابقة التي أتينا على ذكرها، يمكن إجمالها بالشجر الآتي :



مع الأخذ بعين الاعتبار أن : خفي = غير علني .

قواعد التخاطب

يغرم مفهوم الاقتضاء أصلا على نظرية خاصة في كيفية استعمال اللغة. فللممارسة اللغوية، بحسب غرايس، نشاط عقلاي يهدف إلى التعاون مابين المتخاطبين. لذلك كان لابد من افتراض توجيهات أو قواعد، صادرة عن اعتبارات عقلية، تتدبر السلوك التخاطبي وتجعله فعلا وناجحا. هذه التوجيهات أو القواعد تسير بهدي مبدأ شامل يطلق عليه غرايس اسم « مبدأ التعاون » the co – operative principle الذي ينص على مايلي :

مبدأ التعاون : إجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصرها، الغرض أو المآل المُستَم به من التخاطب المقود.

أما القواعد، أو كما يسميها غرايس «الحِكَم» *maxim*، التي تندرج تحت هذا المبدأ الشامل، فيجري تصنيفها إلى أربع مقولات، مقتبسة عن كانط، هي: مقولات الكمية والكيفية والإضافة والجهة.

١ - مقولة الكمية: وهي تخص كمية المعلومات التي يجب توفيرها. وتؤدى بالقاعدتين:

- I اجعل مشاركتك تفيد على قدر ما هو مطلوب، من أجل تحقيق أغراض التخاطب الحالية.
- II لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب.

٢ - مقولة الكيفية: وتتعلق بالقاعدة العامة «حاول أن تكون مشاركتك صادقة» *true* التي تنخصص بقاعدتين هما:

- I لا تقل ما تعتقد أنه كاذب. *False*
- II لا تقل ما تفتقر إلى دليل واضح عليه.

٣ - مقولة الإضافة: وتنفرد بقاعدة واحدة هي: اجعل مشاركتك ملائمة.
هذه المقولة المجملة تخفي ولاشك كثيرا من المشاكل العويصة، كمعرفة طرق المتاح الكلام، وأنواع التدخل المناسب، وتغيير موضوع المحادثة، وحسن التلخيص واختتام التخاطب الخ...

وأخيرا:

٤ - مقولة الجهة: وهي لا تهتم كسائر القواعد بما هو مقول أو منطوق، بل بكيفية قوله أو النطق به. قاعدتها العامة هي: كن واضحا. وعنها تنفرع القواعد:

- I احتريز من الغموض *obscurity*.
- II احتريز من الالتباس *ambiguity*.
- III تحرّ الأيجاز.
- IV تحرّ الترتيب.

وبالاختصار، هذه القواعد ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به، لكي يتم التخاطب بالطريقة المثل من التعاون والعقلانية والفعالية. بالطبع هذا لا يعني أن عليهم أن يتبعوا القواعد المذكورة حرفيا في كل الأحوال والأوقات. إذ، قلما يستمر التخاطب العادي على هذا المنوال. بل المقصود من ذلك أنه، حتى عندما لا يجاري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة، يظل السامع يفترض، خلافا للظاهر، أن المتكلم مازال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق، حتى يتسنى له التوصل إلى معنى ما. فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس.

توضيحا لذلك، إليك المثل الآتي :

أ : أين سمير؟

ب : هناك « فيات » حمراء أمام بيت سعاد.

فجواب (ب)، إذا أخذ حرفياً، لا يفي بسؤال (أ) . فهو يبدو، على الأقل أنه يخالف مقولتي الكمية والاضافة . لكن مع ذلك، لا نعتبر أن (ب)، بجوابه، لا يعبر اهتماماً لما قاله (أ)، وبالتالي يرفض مبدأ التعاون، بل نقديراً منا بأن هذا المبدأ مازال سارياً، نحاول أن نجد العلاقة بين مكان سمير ومكان الفيات الحمراء . فإذا افترضنا كما يعرف (أ) و (ب) أن سميراً يملك فيات حمراء، اقتضى الجواب أن سمير هو في بيت سعاد.

إن أهمية القواعد والحكم المذكورة بالنسبة إلى اللغة تعود إلى أنها تسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي للعبارة التي يُلفظ بها . ولذلك يُخصّس غرايس هذه الاستدلالات باسم « الاقتضاء التخاطبي » Conversational implicature ، تمييزاً لها عن الالتزام أو الاستلزام المنطقي logical implication ، entailment ، أو أيضاً الاستنتاج المنطقي logical consequence ، الذي ينحصر بالاستدلالات المبينة على المضمون الدلالي فقط . فالأقتضاء يعتمد، بالإضافة إلى المضمون، على مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساساً على التعاون .

هذا الاقتضاء التخاطبي يجري بطريقتين مختلفتين على الأقل، وذلك طبقاً للموقف الذي يتخذه المتكلم من القواعد . فقد يراعي المتكلم القواعد والحكم بشكل صريح إلى حد ما ، تاركاً للمخاطب مهمة توسيع وتطهير ما قيل بالبحر إلى استدلالات مباشرة انطلاقاً من مراعاة المتكلم للقواعد . ففي الاستخبار الآتي :

أ : نقد البنزين من سيارتي !

ب : هناك محطة عند زاوية الشارع .

لا بد للسائل أن يستدل من جواب (ب) أن هذا يعلم أن المحطة مفتوحة وأن فيها بنزيناً، وإلا لما كان متعاوناً . هذا النوع من الاقتضاء التخاطبي الذي يقوم على مراعاة القواعد، نريد أن نطلق عليه مع لفنسن Levinson اسم « الاقتضاء للمتعارف » أو « النموذجي » standard implicature .

أما الاقتضاء على الطريقة الأخرى، فيحصل عندما يُخل المتكلم، عن قصد وعلاية، بحكم التخاطب وقواعده، أو كما يعبر عن ذلك غرايس عندما يستخف Flout المتكلم بهذه القواعد . فعندما يعلن مثلاً أحد الأشخاص أمام حضور نسائي أن :

فلانا مات بـذلك المرض

أو أن :

فلانا أجهز له عملية في أحد المواضع .

خارقاً بذلك قاعدة الجهة التي تفرض الوضوح، فمن الواضح أن كلامه يقتضي أنه يتجنب خدش مشاعر الآخرين .

نظراً لأهمية كل من الاقتضاء المتعارف والاقتضاء الذي ينجم عن خرق القواعد، ينبغي لنا أن نعرض بالتفصيل أمثلة على كل منها وذلك وفق علاقاتها بالقواعد.

الكيفية

الجامعة مخلقة

الجامعة مغلقة + < أنا أعتقد أنها مغلقة وعندى دليل واضح على ذلك.

الجامعة مغلفة ولكنني لا اعتقد ذلك.

الجامعة مغلقة ومفتوحة

هل عندك سيارة ؟

هل عندك سيارة ؟ > أنا لا أعرف ذلك وأريد معرفته.

الكمية

الأحمد خمسة عشر ولدا

فذلك يقتضي أن لأحمد خمسة عشر ولداً بحسب، بالرغم من أنه لا يتنافى مع حقيقة هذا القول أن يكون عدد أولاد أحمد عشر بن. لكن اقتضاء القول لكون أحمد عند فقط خمسة عشر ولداً، يعود إلى أنه لو كان لأحمد عشرون

449

ولذا لكان على المتكلم بمُحكم قاعدة الكمية التي تفرض الإختبار بقدر ما هو مطلوب، أن يقول ذلك. فبما أنه لم يفعل، كان بالتالي يريد إبلاغ المستمع أن لأحمد فقط خمسة عشر ولدا.

مثل آخر: عندما يصرح المتكلم بأن:

العلّم أحمر

فبما أنه لم يُصِف نوعاً أخرى تخبر عن الألوان التي يمكن أن يحتويها العلم، كان يقول مثلاً « العلم أحمر وأزرق وأبيض »، يقتضي قوله أن يكون « كلّ العلّم أحمر » أو « العلم فقط أحمر ».

كذلك إذا فرغ سمعنا هذا الحوار :

أ : كيف كانت مباراة الفريق الوطني أمس في كرة القدم ؟

ب : لقد سجّل الفريق إصابات وائلة.

وعلمنا فيما بعد أن الفريق الوطني قد خسر مع ذلك المباراة، فسوف نعتبر أن جواب (ب) كان يدفع إلى التفضيل، إذ أن (ب) لم يقدم كل المعلومات التي تتطلبها ظروف السؤال.

من هذه الأمثلة يتضح أن القاعدة الفرعية الأولى من مقولة الكمية التي توصي بإعطاء المعلومات التامة التي تتطلبها الحال، هي القاعدة الأساسية التي يُعتمد عليها لمثل هذا النوع من الاقتضاء. فبتطبيق القاعدة، يرتبط التلفظ utterance عادة باقتضاء تداولي يجعل من الحكم المقصود أقوى الاحكام التي يمكن إطلاقها في الظرف الحالي وأكثرها إنادة.

الإضافة

إلى هذه المقولة يعود الفضل في تقديم أوسع لائحة من المقترنيات. بل إن البعض يذهب إلى أن مقولة الإضافة هي عامة لدرجة أنها تستوعب سائر المقولات. من قبيل المقترنيات المتعلقة بالاضافة، اقتضاء الأوامر الصادرة من أجل تعاون راين، وفوري. ومليه :

ناول الملح !

+ < ناول الملح الآن !

إن قاعدة الإضافة هي التي تتيح، أكثر من أية قاعدة أخرى، الإيجاز في التخاطب والتخل عن ذكر أمور مفروغ منها. فعندما يشير عابر سبيل لسائق نند البنزين من سيارته، إلى أن :

هناك محطة عند زاوية الشارع

من الواضح أن قوله يقتضي أن تكون المحطة مفتوحة وأن يوجد فيها بنزين. وأحياناً ما يكون الاقتضاء على درجة أكبر من الخفاء مما يستوجب بعض التذكير. ففي الحوار :

أ : يبدو أن سميرا منقطع عن النساء هذه الأيام .

ب : لكنه كثيرا ما يتردد إلى العاصمة .

لا بد ، حتى يتم لنا فهم استدراك (ب) ، أن نفترض وجود تناسب ما بين ردّ (ب) وملاحظة (أ) . لكن ذلك لا يستقيم لنا إلا عند تقدير عدة معلومات مشتركة بين (أ) و(ب) . منها مثلا أن سميرا نادرا ما يأتي إلى العاصمة ، وأنه يسكن في منطقة لا تتيح له الاختلاط بالنساء ، وأن لا داعٍ يجعله يتردد الآن إلى العاصمة سوى حاجته إلى الجنس اللطيف . إلى ما هنالك .

لا شك أن مثل هذه التقديرات هي التي تسد الثغرات التي تظهر أحيانا بين ردود المتخاطبين ؛ وتبرر بالتالي وجود القاعدة التي تعتمد عليها ، أعني قاعدة الإضافة .

الجهة

أخيرا ، نمة أنواع أخرى من الاقتضاء تحصل من مراعاة قاعدة الجهة . هكذا مثلا : إذا لجأ المتكلم إلى الإطناب وقال للمستمع :

أدر مفيض الباب باتجاه عقارب الساعة حتى نهاية الحركة ، ثم اجلبه برفق نحوك .

فطلب المستمع ، في سياق ما ، يقتضي ، وفقا للقاعدة الفرعية الثالثة التي تنص على الإيجاز ، أن يكون المخاطب جاهلا بتفاصيل فتح الباب المذكور وأن يكون المستمع وأغيا في عدم إحداث تشويش .

من بين قواعد الجهة ، قد تكون القاعدة الفرعية الرابعة ، التي تنص على مراعاة الترتيب ، هي الأهم . ففي مثل العبارات الآتية :

١ - وصلت الطائرة ونزل الركاب .

٢ - صرخ بصوت عظيم ومات .

٣ - ذهب فوزي إلى الدكان واشترى قنينة عصير .

٤ - أمطرت السماء وأرتوى العشب .

تقتضي الواو ، بسبب قرائن خارجية متنوعة ، الترتيب الزمني . وهذا ما يفسر غرابة العبارات المذكورة إذا ما قلبنا المتعاطفين وقلنا :

١ - نزل الركاب ووصلت الطائرة .

٢ - مات وصرخ بصوت عظيم .

٣ - اشترى فوزي قنينة عصير وذهب إلى الدكان .

٤ - أرتوى العشب وأمطرت السماء .

بينما ذلك لا يشير في عبارات أخرى حيث الواو مستعملة بالمعنى المطلق . فقولنا :

بيروت عاصمة لبنان ودمشق عاصمة سوريا

لا يختلف بتاتا عن قولنا :

دمشق عاصمة سوريا وبيروت عاصمة لبنان .

من هذا التفسير بواسطة الاقتضاء ، يتبين لنا كيف أنه يمكن التخلص من الإخراج الناتج عن إسناد أكثر من معنى معجمي لحرف الواو . فلسنا بحاجة إلى ادعاء وجود لفظتي «و» أو أكثر : واحدة تدل على مجرد الاشتراك في الصدق ، وأخرى تدل ، بالإضافة إلى ذلك ، على الترتيب الزمني . إذ أن الترتيب الزمني ، وغيره من المفاهيم الإضافية ، ليست سوى مقتضيات تنجم عن القرائن الخارجية عند مراعاة القاعدة القواعدية الرابعة لمقولة الجهة .^(٨)

الاقتضاء التخاطبي الحاصل عن خرق القواعد

النوع الثاني من الاقتضاء يحصل عند خرق إحدى القواعد بشكل صريح وسافر ، أو كما يعبر عن ذلك فرائس ، عند الاستخفاف Flouting بالقواعد أو استغلالها exploitation . هذا بالطبع مع احترام مبدأ التعاون العام ، لأن المتكلم إذا انحرف عن استعمال موافق للحكم والقواعد ، احتاج المستمع على الأقل إلى تقدير مبدأ التعاون ، حتى يتوصل عبر استدالات متتابعة إلى المفتضى الذي يقصد المتكلم بإبلاغه . أما البُنية من هذا الخرق فهي توليد الصور البيانية .

إليك عرضاً مسهباً للمصور التي تنجم عن خرق قواعد التخاطب :

الكمية

١ - خرق القاعدة الأولى .

إذا سئل أستاذ فلسفة عن رأيه بأحد طلابه في هذه المادة واكتفى بالجواب بأن « الطالب لا يتوانى عن متابعة المحاضرات ، وهو يجيد تماماً اللغة الانكليزية » ، فهو يكون بذلك قد أخلّ بالقاعدة الأولى لمقولة الكمية لأنه لم يقدم المعلومات اللازمة . ربما أن الإخلال لا يمكن إرجاعه إلى قصور في معرفة الأستاذ ، إذ من أحدى منته بمقدرة تلميذه ، فالفترض إذن أنه تجنب التصريح بالانفاضة المطلوبة خوفاً من الإخراج . أما داعي الإخراج في هذا السياق فلا يمكن أن يكون سوى اعتقاده بأن الطالب فاشل في الفلسفة . لا ريب أنه كان بمستطاع الأستاذ أن يرفض اللعبة ويمتنع بالتالي عن الإجابة ، لكن بمجرد أنه فعل ذلك فقد أظهر حسن نيته في التعاون . إذن ، بالرد قصّد الأستاذ أن يُبلغ مراده للمخاطب بشكل غير صريح ، متوسلاً بطريقة بيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح .

(٨) هذه النظرة التشاركية الحديثة تطابق موقف تقدماء النحاة العرب . فبعد هؤلاء إن الواو لا تضيف سوى مطلق الاشتراك للجميع ، أي أنها بعد ذاتها لا تدل على أكثر من التعريض في نفس العام . فإن أكانت غير ذلك من ترتيب زمني ، وصاحبة وتعجب أو مهلة ، ومعة أو ذرف . الخ . . . فذلك يكون يقتضي القرائن الخارجية .

من باب العبارات التي تُخلّ بالقاعدة الأولى ، يمكن اعتبار كحد أقصى الهيئيات tautology البينة ، كقولنا مثلا :

الحرب هي الحرب |
إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء |
أن فعل الأمر فقد فعله |
فؤاد فيه ما فيه |

فهذه العبارات لا تُبلّغ ، عل صعيد القول أو المنطوق ، شيئا على الإطلاق . ولا فرق بين بعضها البعض من حيث شروط الصدق ، إذ أنها كلها تعود إلى صوره منطقية صحيحة هي على التوالي :

س (حـا) سـ (سـ) ... سـ (حـا) سـ (سـ)
ب ٧ س ب
ب - - - ب
في (سـ) في (سـ ، فؤاد ، فؤاد)

لنن مع ذلك ، فالتلفظ يمثل هذه الأقوال يحتمل ، بمقتضى التداول ، مدلولات أخرى مختلفة عن المنطوق . إذ أنه لما كانت الهيئيات قاصرة عن إفادة المراد ، كان لا بد للمستمع ، إذا صح تقديره أن المخاطب راغب في التعاون معه ، أن يصل إلى اقتضاء مفيد . ففي حال قول « الحرب هي الحرب » ، قد يكون المقتضى مثلا أن من طبيعة الحرب جلب الهول والدمار والتدمير ، إلى ما هنالك . وفي العبارة الثانية ، أي « إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء » ، فقد يفهم المستمع في سياق ما أن المراد هو : هدىء روعك فالاضطراب لا يؤدي إلا إلى مضرتك في كلا الاحتمالين . في الثالثة ، فالفجوى الذي يقتضيه الكلام هو أن الأمر لا يعنينا والشخص المقصود هو الذي يتحمل مسئوليته . وأما أخيرا قولنا « فؤاد فيه ما فيه » فهو دليل على ما في هذا الفؤاد من هموم ومعاناة . من الواضح أن أمثال هذه العبارات تستعمل عادة إما للتخلص من موقع حرج أو لاختتام الكلام . لذلك يتعلق إدراك تفاصيل مقتضياتها بسياق ومقام التلفظ .

٢ - خرق القاعدة الثانية للكمية أي « لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب » .

إذا أراد شخص مجرد الاستفسار عن صحة خبر ما ، ولم يكتف المجيب بالتصديق على الخبر ، بل راح يتكلف الإدلاء برأي وراه الآخر لا يترك شاردة ولا واردة ، مُصرًا على صحة كلامه بشكل لا يقبل النقض ، فمن المتوقع أن يلفت مثل هذا المذر ، إن كان مقصودا ، انتباه السامع إلى أن المجيب يلْمَح بذلك إلى أنه غير موثق من صحة الخبر .

الكيفية

إن الاختلال بقواعد وحكم مقولة الكيفية يؤثر لنا أكثر أنواع الصور البيانية .

١ - خرق القاعدة الأولى أي « لا تُقَلَّ ما تعتقد أنه كاذب » .

١ ، ١ . التهكم : شخص ما ، بعد أن يُلَقَّ أن أحد الأصحاب سَرَب بعض أسرارِهِ إلى أحد منافسيهِ في العمل ، يعلن ، أمام حضورٍ على علمٍ بذلك : « فلان هو من الأصدقاء الذين يمكن الوثوق بهم » . لا ريب أن كذب هذا التصريح ظاهر لأي مستمع ، لأن ما صرح به الشخص المذكور لا يطابق ما يفكر به . فإذا افترض المستمع أن التكلّم لم يرفض مع ذلك التعاون في الحديث بل أراد أن يوصل أمراً ما ، فلا بد له أن يبحث عن قضية لها علاقة بما قيل . والأرجح أن القضية المقصودة هي ، في هذا السياق ، نقيض ما صرح به المتكلم .

١ ، ٢ . الاستعارة : اقتضاء المعنى المستعار له يجري في أغلب الأحيان بطريقة مشابهة لفهم التهكم . فالمنطوق الحرفي للاستعارات هو لغو ساقط ، هكذا مثلاً ، هتاف المقيم لمشيقته :

أنت القمر

لا يمكن أن يعني به أنها ذلك الجرم الذي يدور حول الأرض ، بل إنه يريد أن يصفها بأمر له علاقة ما بالقمر . وبما أن الأمر في مثل هذا المقام يستحيل أن يكون النقيض ، فعلى الأرجح أنه يريد أن يُسند إليها صفة شبيهة بتلك للقمر ، كالبياض والحسن الخ . . .

بالنسبة إلى نفس الاستعارة ، قد يختلف المعنى المستعار له وفقاً للظروف والأحوال . فالعبارة :

رئيسة وزواء بريطانيا تاتشر من فولاذ

تعني ، لدى المعجبين بتاتشر ، فضائل الحزم والقُدرة . أما إذا قيلت من أحد الخصوم الذين يريدون الحط من سمعة تاتشر ، فإنها تدل على رذائل الخشونة وعدم المرونة وفقدان الأثوة ، بالرغم من أن كل هذه الصفات تشترك في القوة .

من الممكن ، كما يشير إلى ذلك غرايس ، جمع الاستعارة مع التهكم ، بحيث يقرّب على ذلك مستويات من الاقتضاء . مثلاً ، إن قال أحدهم عن امرأة قبيحة :

أطل القمر

فالانتقال يكون أولاً من القمر إلى الحسناء ، ومن ثم إلى نقيضها أي إلى المرأة القبيحة . هذا النوع من التراكيب البيانية المتعددة لا يقتصر فقط على الاستعارة والتهكم ، بل يشمل سائر الصور كما سنفصل ذلك في بحث مستقل .

٣ ، ١ الترميز أو التلوّح : ثمة إخلال لقاعدة الكيفية بقع حين أتلُفَظ بخطأ صارخ كما في هذا الحوار :

أ - أليست بيروت في ليبيا ؟

ب - وكلّك دشق في أرمينيا .

حيث (ب) ، برده الظاهر الكذب ، يلوح إلى خطأ (أ) .

٤ ، ١ التفریط litote : ومثاله إن يقال عن رجل حطم كل شيء بأنه « شرب قليلاً » أو « تناول كأساً » .

٥ ، ١ الإفراط أو المبالغة hyperbole : كل فظة تحلم بضابط .

الإضافة

من الصعب إيجاد أمثلة يحصل فيها الافتضاء عن حرق حقيقي لقواعد هذه المقولة . إذ أنه من النادر إعطاء جواب لا يمكن إلاّ اعتباره غير ملائم بالنسبة إلى سياق ما . ففي الحوار التالي :

: ألا تعتقد يا صاحبي ان فلانة عجوز قبيحة !

ج : (باضطراب) الطقس جميل جدا اليوم . أليس كذلك ؟

يمكن تفسير الجواب ، على أنه إنكار لاقتراح (أ) وبلميح له بأنه ارتكب هفوة أو زلة لسان . ولكن ، في ظرف آخر ، قد يقتضى الجواب أيضا لفت نظر (أ) مثلا الى وجود ابن أخ فلانة بالقرب منه .

مثل آخر حيث الافتضاء هو شبه مألوف :

الابن : تلعب إلى السنيما يا أبي !

الاب : ماذا عن الفروض المدرسية ؟

حيث الأب يريد أن يذكر ابنه بأنه ليس حرا بعد للذهاب إلى السنيما .

الجهة

يمكن إيجاد أمثلة على الإخلال بالوضوح بالنسبة لكل قاعدة فرعية من هذه المقولة .

١ - الالتباس : يعني غرايس هنا الالتباس القصدي الذي يريد المتكلم أن يُبلّغه إلى السامع على أنه كذلك . وهذا يقع حينما نحتمل العبارة معنيين أو أكثر ، دون أن توجد قرينة تمنع من ذلك . أما المعاني المرادة ، فقد تكون كلها حقيقية على سبيل الاشتراك في اللفظ ، أو بعضها حقيقيا وبعضها مجازيا ، أو كلها مجازية . من الالتباس المبني على الاشتراك قول «١» أحد العراقيين يهجو رجلا كان على ملهـب أحمد بن حنبل ، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي :

تملـهـب للنعـمان بعد ابن حنـبل ولـارثـقـه إذ أصـرثـك الـكـمـل
وما اختـرت رأي الشافـعي ثـلـهـنا ولـكـنـيـا جـوى الـيـ منه حاصـل
وصـا قـلـيلـ أنت لا شـك صـالـر إلى مالـك ، فـالـظـن لما أنا قـالـل .

فما لك ههنا يصلح ان يكون مالك بن انس صاحب المذهب ، ويصلح ان يكون مالكا خازن النار .

ومن باب الاشتراك في اللفظ هذا السؤال الطريف من مقامات الحريري « أيلح للصائم أن يأكل نهارا » ، إذ ان النهار اسم مشترك بين « ضد الليل » و « فرخ الحبارى » .

(١) ربيع : ابن الأثير . لفظ السهر ، القسم الثالث ، ص ٧٧ - ٧٨ .

في بعض الالتباسات ، قد يرجع معنى على آخر ولو كان بعيدا . من أمثلة ذلك ما يحكيه غرابيس عن الجنرال البريطاني الذي بحث عند احتلاله مدينة السند Sind رسالة يقول فيها باللاتينية « Poccavi » . فترجمة هذه الكلمة تعني حرفيا بالانكليزية I have sinned أي أتي أخطأت . لكن من حيث اللفظ ، واضح أن الترجمة الانكليزية مجانسة للعبارة I have Sind ، ألتى تعني « أتي أملك السند » . بالطبع ، لا تحتمل الرسالة بحد ذاتها أي لبس . انما ، لما كانت اللغة المكتوبة بها غريبة عن المرسل والمتلقي ، كان لا بد من الترجمة . ولا شك أنه عند التلغظ بالترجمة يظهر الالتباس . فالمعنى الحقيقي للعبارة اللاتينية محتمل ، إذ قد يكون الجنرال البريطاني ، مثلا ، خالف الأوامر ليحتل السند . لكن معنى اللفظ المجانس هو المقصود على الأرجح .

٢ - الغموض . ما يدفع المتكلم للإحلال بالوضوح هو أنه ، يريد حين إبلاغ المخاطب أمرا ما ، إخفاء ذلك الأمر عن أشخاص آخرين حاضرين ، تقاديا لالتزام أو إحراج أو جرح شعور . هكذا مثلا إذا أحب رجل أن يدعو امرأته إلى المسرح دون إشعار أولاده المتواجدين حولها بذلك فقد يتوجه إليها بالقول : ما رأيك بلميم سين راء حاء ؟ كذلك مثلا ، إذا أراد رجل استعمال عبارات تتضمن كلمات نابية ويذيفة ، أمام حضور نسائي ، فقد يكتفى بالإلحاح أو بكلمات مجزوءة . كقولهم فقط « المنحوس منحوس »^(١٠) دون أن يكمل .

٣ - التطويل والإطناب . لنفترض ورود المقطع الآتي في مقال ناقد موسيقى :

أصدرت السيدة فلانة سلسلة من الأصوات تشبه أغنية « إنت عمرى »

بدلا من قوله : غنت السيدة فلانة أغنية « أنت عمرى »

فلا شك أن التطويل المقصود يقتضى أن إداء المرأة كان بعيدا كل البعد عن مفهوم الغناء الحقيقي .

خصائص الاقتضاء التخاطبي

لتعريف الاقتضاء التخاطبي ، لا يكفي الاعتناء على الجلس والحزر ، بل لا بد للمخاطب أولا أن يأخذ بعين الاعتبار للمعطيات الآتية :

- I المدلول الحقيقي للألفاظ المستعملة .
- II مبدأ التماز والفوائد المترتبة تحته .
- III سياق العبارة اللفظي والحالي .
- IV المعلومات الخلفية السابقة .
- V كون المعطيات I - V مشتركة بينه وبين المتكلم .

(١٠) كلمة لكل من : راء حائرا على قلبه تقويس

ومن ثم عليه أن يتبع الطريقة العامة الآتية حتى يتوصل إلى المقتضى المطلوب :

- I قال المتكلم إن : ب
- II لا داعي للتفكير بأن المتكلم لا يراعى القواعد ، أو على الأقل مبدأ التعاون .
- III لكي يقول المتكلم إن ب ، ويراعى حقا القواعد ومبدأ التعاون لا بد له أن يفكر بـ ج .
- IV على المتكلم ، إن صبح أنه متعاون ، أن يعرف أن ثمة معرفة مشتركة^(١١) بيني وبينه بأنه لا بد من افتراض ج .
- V لم يقدم المتكلم بأي عمل يمنعني من التفكير بأن ج .
- VI فللتكلم إذن يريدني أن أفكر بأن ج ، وأنه ، عند قوله ب ، أراد اقتضاء ج .

من الطريقة التي يجرى بها الاقتضاء ، يمكن تبيان الخصائص الأساسية التي تتمتع بها هذه العملية .
غرابيس يستخلص الميزات الآتية :

١ - قابلية النسخ cancellability ، أو قابلية الإلغاء defeasibility .

إن قابلية النسخ هي من المفاهيم الحاسمة في علم التداول ، إذ أن معظم أنواع الاقتضاء تتمتع بهذه الخاصية . فالأقتضاء القابل للنسخ هو الذي يمكن إبطاله بإضافة مقدمة أو أكثر إلى المقدمات الأصلية ، وهو بذلك يشبه الاستقراء وبخالف الاستنباط واللزوم المنطقي . ففي الحجج المنطقية يستحيل إلغاء الاستنتاج في أي حال من الأحوال . مثلا ، في القياس الآتي :

كل إنسان حيوان

كل حيوان فان

كل إنسان فان

تلززم النتيجة بالضرورة ، مهما زدنا على المقدمات من قضايا صادقة أو كاذبة حتى لو كانت هذه القضايا مناقضة للنتيجة . أما في الاستقراء ، فكما هو معروف قد تُبطل قضية جديدة النتيجة السابقة . مثلا ، من سبق له أن استدلل من مشاهدة ألف خروف وتلاحظه أن كل واحد منها أبيض أن كل الخراف بيض ، ثم وقع بصره على خروف أسود ، فلا بد له أن يتخل عن استنتاجه السابق ، إذ أن المقدمة المستجدة تجعل النتيجة السابقة غير صحيحة . فالقياس الآتي :

(١١) بالمرّة المشتركة بين المتكلم والمُطالع لـ بـج ، لدى كل وجه التفكير أن : للمتكلم يعرف ج ، والمُطالع يعرف ج ، والمتكلم يعرف أن للمتطع يعرف ج ، والمتكلم يعرف أن للمتطع يعرف ج . . . إلى مالا نهاية لـ .

شاهدت ألف خروف
كل واحد من الألف خروف هو أبيض
الخروف الواحد بعد الألف هو أسود
كل الخراف أبيض
هو بالطبع عقيم .

كذلك حال الاقتضاء ، إذ ليس من العسير إبطال مفعوله . لنتبر هذا الاقتضاء المباشر بالنسبة لمقولة الكمية :

لأحمد ثلاثة مؤلفات
+ < لأحمد ثلاثة مؤلفات فحسب .

لأنه يكفي لإبطال المقضى ، إضافة جملة اعتراضية من النوع الآتي :
لأحمد ثلاثة مؤلفات ، إن لم يكن أكثر .

بل إنه يمكن إنكار الاقتضاء بشكل صريح دون الوقوع في التناقض ، فيقال مثلا :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، بل عشرة
لأحمد ثلاثة مؤلفات ، وربما أكثر .

علامة على ذلك ، قد ينعدم الاقتضاء ، إذا ما اتضح من سياق التلفظ ان المقضى المحتمل لم يكن من مراد المتكلم . فلو سأل مثلا رئيس اتحاد الكتاب ، الذي يشترط على الكاتب للانتماء إليه ان يكون له ثلاثة مؤلفات ، أحد زملاء أحمد مستسرا :

هل لأحمد العدد المطلوب من الكتب ؟

فالجواب بأن :

لأحمد ثلاثة مؤلفات

لا يقتضى بالطبع قصر عدد الكتب على ثلاثة ، كما اقتضى الأمر في المثال الأول . إذ أنه يتضح من السياق ان الاستخبار هو عن استيفاء أحمد شروط الانتماء في التأليف وليس عن العدد المضبوط لكتبه .

بسبب ميزة قابلية النسخ هذه ، يستحيل تأدية الاقتضاء بعلاقة معينة بين المعاني الحقيقية للألفاظ على غرار اللزوم المنطقي .^(١٦)

(١٦) لارى هاب ، راجع : Lakoff, G., 1975

٢ - عدم الانفكاك non-detachability .

بعدم الانفكاك يقصد فرائس ان الاقتضاء يتعلق بالمضمون الدلالي لما هو مقول ، وليس بالصورة اللغوية . وبالتالي ، يستحيل انفكاك المقترنيات عن التلفظ Utterance بمجرد إبدال الألفاظ بمرادفات لها . هذه الخاصية تعود إلى كل اقتضاءات التخاطب ، باستثناء الاقتضاءات التي تنجم عن قواعد الجهة modality ، لكون الاقتضاءات الأخيرة ترتبط بصورة التلفظ . لنأخذ مثلاً عبارة بحكمية تقتضى عكس المنطوق ، كقولنا :

زيد عبقري

حيث المقصود هو أن :

زيد أبله .

فإذا ما استعملنا مكان العبارة الأولى ، في السياق ذاته ، أية جملة من الجمل الآتية :

زيد نابغة

زيد دماغ كبير

زيد إنسان خارق

فلا شك أنها سوف تشارك العبارة السابقة في مقتضى التهكم ذاته .

عل وجه التحديد ، إن تعلق الاقتضاء بها هو مقول يقع على مستوى التمثيل الدلالي semantic representation بها في ذلك بعض خصائص الصورة المنطقية ، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا عن البنية السطحية غير المفسرة للعبارة ولا عن مجرد شروطها الصداقية .

أما عن امتناع تعلق الاقتضاء بالبنية السطحية غير المفسرة ، فلأن البنية السطحية قد تحمل عدة تفسيرات ، يتبع عن أحدها مقتضى ما ولا يتبع عن الآخر . لتأمل في معنى العبارات الملتبسة من النوع الآتي :

لم تُصَبِّب كل الرصاصات المهدف

فهذه تتقبل تفسيرين ، الأول يؤدى بالصيغة المنطقية :

$\bigwedge_{x \in S} (R(x) \rightarrow \neg \exists y (A(y) \wedge B(y, x)))$ (رصاصات (س) ← ∅ أصابت (س) المهدف)

أي بالقضية الكلية السالبة ومعناها :

لا رصاصات أصابت المهدف

والثاني بالصيغة :

$$A \rightarrow B \text{ (وصاصة (ـهـ) } \leftarrow \text{أصاب (ـهـ) (ـهـ) (الهدف))}$$

أي بسلب القضية الكلية ومعناها :

ليس كل الرصاصات أصابت الهدف .

فالتفسير الثاني فقط يقتضى كون : ^(١٧)

بعض الرصاصات أصابت الهدف

بينما لا يجري هذا الاقتضاء على التفسير الأول .

وأما عن عدم الاكتفاء بشروط الصدق لتحمين الاقتضاء ، فلأنه غالباً ما يستحيل تقدير المقترضيات انطلاقاً من هذه الشروط وحدها . هكذا مثلاً إذا اخطينا عبارتين على الصيغتين الآتيتين :

ب

ب ٨ (ب ← ب)

فلا ريب أنهما تشتركان بشروط الصدق ذاتها ، إذ أنه كلما صدقت ب كانت ب ٨ (ب ← ب) صادقة أيضاً ، وبالعكس . لكن ، إذا قارنا بين الصيغتين الآتيتين للصيغتين المذكورتين :

لقد وقع الأمر

لقد وقع الأمر ، وإذا ملوِّع فقد وقع (أى قد وقع ما وقع)

يبدو ان الثانية فقط تختص بالاقتضاء :

لا جدوى من التحسر على ما قد حدث .

وعليه ، بعض المقترضيات على الأقل ينجم عن البنية الدلالية أو المنطقية لما هو مقول وليس عن شروط الصدق بالذات . إذن ، بوجه عام ، لا يمكن اعتبار شروط الصدق لحسان المقترضيات بل لابد من الرجوع إلى التمثيل الدلالي أو الصوري المنطقية للمبارات .

ان استيعاب مقترضيات مختلفة لتلفظات متساوية في شروط الصدق لكنها متبانية في الصور المنطقية ، هو الذي يسمح بالتمييز بين عدة تلفظات تكاد تكون مترادفة ، وذلك ببيان الفروق الدلالية القائمة على اختلاف في

(١٧) لاحظ أنه يوجد اختلاف هام ولكن لا أثر له معطى ، إذ قد يصدق سلب القضية الكلية ويكون للقضية كائناً .

المقتضيات ، وهو بالتالي يتيح تفسير التباين في الأسلوب ، أى في اختيار العبارات التي تتمتع بشروط الصدق نفسها .

بهذه الخاصية الموسومة بعدم الانفكاك ، يتم فصل الاقتضاء التخاطبي عن غيره من أنواع الاقتضاء التداولي كالاقتضاء العرفي والافتراض presupposition . فبالنسبة إلى الافتراض يظهر أن الاقتضاء يرتبط بالصورة اللغوية وليس بالمعنى ، إذ أن قولنا مثلا :

لم يقلع زياد في الوصول إلى القمة ،

يفترض أن :

زيادا حاول الوصول إلى القمة .

بينما قولنا :

لم يصل زياد إلى القمة

وهو قول مرادف للأول ، لا يبدو أنه يفترض ذلك .

٣ - قابلية الحساب Calculability

هذه الميزة تعني أنه بالإمكان إقامة دليل أو حجة على أى مقتضى من المقتضيات بالطريقة التي سبق تفصيلها ، وذلك بالانتقال من المعنى الحرفي للتلفظ إلى المقتضى المطلوب ، إستنادا إلى مبدأ التعاون والقواعد .

٤ - اللاعرفية non - Conventional

أخيرا ، يتميز الاقتضاء التخاطبي بكونه لاعرفيا ، أى بكونه لايشكل جزءا من المعنى العرفي للألفاظ . إذ أن الوصول إلى المقتضى لا يتم إلا من بعد معرفة المعنى الحرفي ، وكذلك من بعد اعتبار السياق وتطبيق قواعد التخاطب . وما يؤكد لاعرفية الاقتضاء هو أن التلفظ قد يصدق بينما يكون المقتضى كاذبا ، وبالعكس فقول المتكلم :

ضرب عادل زيادا

يفتضى وفقا لقاعدة الكمية أن :

عادل لم يقتل زيادا بضربه

والأ يكون المتكلم قد رفض التعاون وذلك بإعطاء معلومات غير وافية بالمطلوب . مع ذلك ، لا يمنع ان يتلفظ المتكلم بالجملة المذكورة في مقام تصديق فيه ويكذب مقتضاها ، وذلك بنية تضليل المخاطب . أما العكس ، أى أن يكذب التلفظ ويصدق المقتضى ، فيحصل في المجازات اللفظية ، كتقولنا مثلا :

يجلس الأسد على عرش الغابة

اللى هو دون شك كاذب ، بينما مقتضاها وهو كون الأسد يسود على الغابة صادق .

وأبشما مما يثبت لأعرافية الاقتضاء هو أن عبارة ما ذات معنى واحد قد تستيع مقتضيات تختلف باختلاف المواقف والمقامات . بل إنه في مقام معين يستحيل أحيانا تحديد مجموعة المقتضيات التى تصدر عن تلك العبارة . فالقول :

عادل آلة

قد يقصد به أن عادلا بارد ، أو أنه لايتوقف عن العمل ، أو أنه لايتبصر في الأمور الخ ..

انواع الاقتضاء

في تناولنا للاقتضاء التخاطبى ، تطرقنا إلى تقسيم هذا الاقتضاء إلى نوعين : اقتضاء خصصناه باسم «المتعارف» أو «النموذجي» standard وهو الاقتضاء الناجم عند مراعاة المتكلم للقواعد والحكم ، واقتضاء أكثر تعقيدا يحصل في حال استخفاف Flouting المتكلم بالقواعد المذكورة .

لكن يمكن ، من منظور آخر ، تفريع الاقتضاء التخاطبى ، كما فعل غرايس ، إلى قسمين مختلفين هما : الاقتضاء العام generalized ، وهو الذى يحصل دون أن يوجد بالضرورة سياق حالي معين ، واقتضاء خاص يتطلب وجود مثل هذا السياق : مثال الاقتضاء الخاص الاستدلال من القول :

تبدو القطة في غاية الانشراح

على أن :

القطعة أكلت الجبنة .

لأن هذا الاقتضاء لايجوز إلا إذا وردت العبارة الأولى في مجرى حديث معين كالآتي :

- أين اخضت قطعة الجبنة ؟

- تبدو القطة في غاية الانشراح .

وكذلك اقتضاؤنا لـ :

سمير هو السارق

من الخبر أن :

سمير اشترى شقة .

لا يصبح إلا استنادا لمعرفتنا بظروف وأحوال شخصية ، كحصول سرقة بنك ، وعدم تواجد سمي في هذه الفترة ،
وكون سمي معديوم الحال الخ . . ومن شواهد الاقتضاء العام اقتضاء الاسم النكرة أن لا يمت مساهم بصفة قريبة إلى
المتكلم . فقولنا مثلا :

دخلت بيتا واسما

يقتضي أن

البيت ليس لي .

إذا ما قارنا بين تفريع الاقتضاء التخاطبي السابق إلى اقتضاء متعارف يراعى الحكيم واقتضاء مجازي يستغلها ،
وبين التفريع الثنائي الجليد إلى اقتضاء عام واقتضاء خاص ، نجد أنها يتقاطعان بدرجات متفاوتة من التوزيع :

| اقتضاء مجازي | اقتضاء متعارف | |
|--------------|---------------|------------|
| | | اقتضاء عام |
| | | اقتضاء خاص |

فمعظم التلغظات utterance التي تستغل الحكم تندرج تحت الاقتضاء الخاص . هكذا مثلا لا يمكن تفسير التهكم
دون الرجوع إلى مزاعم وإفراضات assumption خلقية . بينما يبدو أن ثمة استعارات كقولنا :

الجلال منجل

وهيئات مثل :

فؤاد فيه مانيه

الحرب هي الحرب

تفيد المطلوب بشكل مستقل نسيا عن السياق .

بين أصناف المقترضات التخاطبية المذكورة ، نكتسب المقترضات العامة أهمية خاصة بالنسبة للنظرية اللسانية . ذلك انه من السهل تمييز هذه المقترضات عن المضمون الدلالى semantical للألفاظ ، فافتراضها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في كل السياقات العادية .

من قبيل هذا الصنف المقترضات المنوطة بمقولة الكمية ، والتي تحصل بين العبارات التي تتدرج حل نحو سلمى scalar من الاكثر إلى الأقل بحيث ان السابق يستلزم اللاحق . ففي هذه الحال يقتضى الأقل سلب الأكثر . فمثلا بالنسبة للزوج المرتب بحسب الكثرة : (كل ، بعض) يقتضى إثبات البعض سلب الكل . فقول المتكلم :

بعض الأساتذة حضروا الندوة

يقتضى : لم يحضر كل الأساتذة الندوة .

والاستدلال التداولى على ذلك هو أنه :

لو كان المتكلم في حالة تسمح له بأن يثبت العبارة الأقوى ، أى ان كل الاساتذة حضروا الندوة ، لكان خالف القاعدة الأولى من قواعد الكمية حين قضي بأن بعض الاساتذة حضروا الندوة ، لكن بما أن المخاطب يفترض تعاون المتكلم معه وبالتالي عدم رغبته بخرق قاعدة الكمية دون تنبيهه إلى ذلك ، فهو يعتبر ان المتكلم يريد إبلاغه ، أنه ليس في حالة تميز له لإثبات العبارة الأقوى ، بل انه يعرف ان ذلك الإثبات غير صادق .

من أمثلة هذه المقترضات السلمية المجموعات للرتبة التالية :

< ممتاز ، جيد >

< دائما ، غالبا ، أحيانا >

< واجب ، حلال >

< بالضرورة ، بالواقع ، بالامكان >

< و ، أو >

< ن ، ... ، ٣ ، ٢ ، ١ >

حيث اللاحق يقتضى نفي السابق .

اقتصرنا حتى الآن على استعمال كلمة «اقتضاء» لما أسميناه بالاقتضاء التخاطبى . لكن الاقتضاء ، بمفهوم غرياس ، هو مصطلح عام يشمل كل أنواع الاستدلالات التداولية التي يمكن الوقوف عليها . فالمقتضى عامة هو القسم من المعنى غير الطبيعى meaning - nn الذى يقابل المنطوق أو المقول What is said المحدد بشروط صدق العبارات .

بالإضافة إلى الاقتضاء التخاطبى ، وهو الاقتضاء الذى يركز على الحكم والقواعد التي سبق تصنيفها ، يتطرق غرياس إلى نوع من الاستدلال غير المشروط بالصدق ، مابين للاقتضاء التخاطبى ، يخصه باسم الاقتضاء

العرفي conventional implicature . فالافتضاء العرفي لا ينبج من مبادئ تداولية عليا كجنگم وقواعد التخاطب ، بل انه يعود إلى المفردات المعجمة بالعرف أو بالاتفاق by convention .

من أمثلة الافتضاء العرفي :

فلان ذكي لكنه كسول

فلفظة «لكن» لها نفس المضمون المشروط بالصدق الذى لحرف العطف «و» ، إذ أن الجملة المركبة بواسطة «لكن» تصلى في حال صدق الجملتين الفرعتين معا وهما في مثلنا «فلان ذكي» و «فلان كسول» . إنما بالإضافة إلى ذلك تقتضى لفظة «لكن» تنافرا بين طرفي القضية المركبة . فقولنا السابق يستلحق عرفا أن أحد المتخاطبين لم يكن يتوقع أن يكون فلان كسولا . ومن الواضح أن هذا النوع من الافتضاء لا يتعلق ، كباها الحال مع للمقتضيات غير العرفية ، بحكم أو بقواعد إضافية ، بل فقط بالمفردات نفسها .

كذلك ، من باب الافتضاء العرفي الدلالة على المنزلة الاجتماعية المنوطة ببعض الألفاظ لعنلما تقول بالفرنسية :

tu es le directeur (أنت المدير)

Vous êtes le directeur (أنتم المدير)

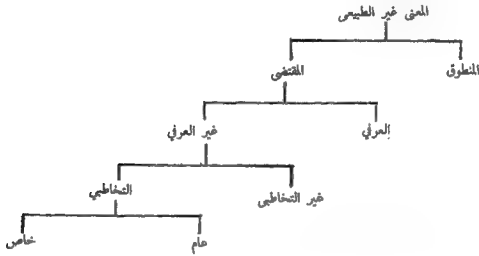
لا يوجد فرق بين الضمير « Vous » (أنتم) حين استعماله لمخاطب مفرد والضمير « tu » (أنت) من حيث شروط الصلى . إنما الاختلاف بينها يرجع إلى المقتضى العرفي اللاحق بالضمير (Vous) والدال على علو منزلة المخاطب .

خلافا للافتضاء التخاطبى ، لا يتصف الافتضاء العرفى بأى من الخصائص التى يتميز بها الأول . وبالفعل ، فالمقتضيات العرفية هى غير قابلة للنسخ non-cancellable ، إذ أنها لاتعتمد على افتراضات assumption حول طبيعة السياق يمكن إلغاؤها . وهى كذلك قابلة للانفكاك detachable لأنها لاتتعلق إلا بمفردات لقضية مخصصة ، وهى بالتالى تزول عند ابدال المفردات بألفاظ مرادفة لها . فهكذا مثلا ، عند إحلال واو العطف محل «لكن» يطل مقتضى التنافر بالرغم من بقاء شروط الصلى ذاتها .

وأخيرا فالمقتضيات العرفية لا يمكن حسابها Calculated بالاستعانة بقواعد تداولية ومعلومات سياقية ، لأنها حاصلة بالعرف والاتفاق . فهكذا مثلا ليس من طريقة تحولنا الاستدلال على تنافر وتعاند بين القضيتين المحطوفتين بـ «لكن» انطلاقا من معرفة شروط صدق هذه الأداه . لذلك ، فإنه من المتوقع أن يكون مضمون المقتضيات العرفية محدودا نسبيا .

علاوة على أنواع المقتضيات التى سلف ذكرها ، توجد أنواع أخرى غير عرفية ، تنجم عن قواعد ومبادئ مختلفة . فثمة قواعد آداب principles of politeness تنتج مقتضيات معقدة جدا . وعلى المعم كل ضوابط يؤخذ بها في استعمال اللغة ، يقابلها مقتضيات تنجم إما عن اتباع هذه الضوابط أو عن استغلالها .

من هذا الشعب لأنواع المقترنيات يظهر لنا أن المضمون المشروط بالصدق لتلفظ ما ، أى المنطوق باصطلاح غرايس ، لا يشكل سوء جزء تمثيل من المعنى التام لهذا التلفظ :



المراجع

- فخوري ، عادل ، الساتية التوليدية والتصويانية ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- Brown, P. and Levinson, S., *Universals in language usage: Politeness. Phenomena.* in E. Goody, Questions and politeness, Cambridge, 1978.
- Ducrot, O., *Les echelles argumentatives*, paris, Minuit, 1980
- Grice, H.P. *Meaning*, philosophical Review, 67, 1957
- , *Logic and Conversation*, Harvard Univ. 1967. Halvossen. P., *the Syntax and Semantics of. Cleft Construction*, Austin: Univ of texas, 1978
- Horn, L.R., *On the Semantic Properties of the Logical Operators in English*. Indiana Univ. 1972.
- Jacques, F., *Dialogiques*, Paris, PUF, 1979
- Karttunen, L. & Peters, S. *Conventional Implicature*, 1979
- Keenan, E.O. *The Universality of conversational Implicature.* In: *language in Society*, 5, 67-80, 1976.
- Levinson, S., C. *Pragmatics*, Cambridge, 1983
- Mc Cawley. J., *Conversational Implicature and the lexicon*, 1978
- Recanati, F., *Les enonces performatifs*, Paris, minuit, 1981
- Sadock, J., M., *On Testing for Conversational Implicature*, 1978
- Schiffer, S.R., *Meaning*, Oxford, 1972
- Sperber, D., & Wilson, D. *Irony and the use*, 1981
- Wunderlich, D. *Linguistische Pragmatik*, frankfurt, 1972

أولاً : مقدمة في اللسانيات

تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في أن الأولى تقوم على مراقبة الوقائع اللغوية دون أن تفضل بعضها على حساب بعض باسم بعض المبادئ الجاهلية أو التربوية، إذ أن علم اللسان يعتمد على الرؤية العلمية وليس على الرؤية الافتراضية التي كثيراً ما لجأت إليها علوم القواعد القديمة انطلاقاً من معيار الخطأ والصواب. لذلك تنفك الألسنية الحديثة ذات الرؤية العلمية المجردة على التقيض من علم القواعد التقليدي ذي الرؤية المعيارية الافتراضية، وهي رؤية لم تنبع منها قواعد لغة من اللغات بما في ذلك علم النحو العربي - كما سيوضح لنا في سياق هذه الدراسة - على الرغم من اعترافنا بالمجهودات الهائلة التي بذلها علماء النحو والصرف العرب مما ينذر لها نظير في اللغات الأخرى.

كللك تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في نظرتها إلى اللغة باعتبارها في المقام الأول أصولاً لغوية تألفت ضمن نسق معين، وهذه الصفة الصوتية للغة هي التي تحظى باهتمام الباحثين الألسنيين. أما الكتابة فهي أمر طارئ على اللغة وحديث العهد نسبياً. لقد وجدت اللغة البشرية بصيغتها الصوتية منذ مئات آلاف السنين، ومازال معظم البشر حتى اليوم يتكلمون دون أن يستطيعوا القراءة والكتابة؛ ثم إن المرء يتعلم كيف يتكلم قبل أن يتعلم كيف يقرأ، واستعمل الكتابة أمر لاحق على استعمال اللغة وليس العكس. ومن المدهش حقاً أن نجد بهذا الخصوص واحداً من علماء العربية القدامى قد توصل إلى هذه الحقيقة الهامة في دراسة اللغة، وهو أبو الفتح بن جني، حيث ذكر في كتاب «الخصائص»: «باب القول على اللغة وما هي: أما حدها فأنها

محاولة ألسنية في الأعمال

أحمد المحمدي

أستاذ في جامعة تلمسان في الجزائر.

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم^(١). وقوله إنها وأصوات يعني أنه يستبعد جانب الكتابة في دراسة اللغة، نهما كما يفعل الدرس اللغوي الحديث. لكن هذا الاكتشاف المثير لابن جني لم يترك أثرا في الدرس اللغوي عند علماء العربية القدامى، ربما لأنه جاء متأخراً زمنياً، حيث عاش ابن جني في القرن الرابع الهجري، أي بعد أن كان علم النحو العربي قد اختلط طريقه وتصلب عوده. وعلى العموم سوف نرى أن ابن جني قد توصل بمجهود فردي ذى عدد من الحقائق العلمية التي تطابق إلى حد بعيد ما يقرره الدرس اللغوي الحديث والتي خالف بها علماء عصره ومن سبقه دون أن يستطيع مع ذلك تعديل مسار الدرس اللغوي عند علماء العربية.

هناك نقطة أخرى أبرزتها اللسانيات الحديثة، وتتعلق من سابقتها، هي أن اللغة مجموعة من الدلائل. إن كل لفظة أو عبارة هي دليل لغوي، ولهذا الدليل اللغوي وجهان: وجه صوتي ويسمى الدال، ووجه قيمي هو المدلول، أي قيمة الدليل ومعناه. فإذا تغير الدال أو جزء منه استتب ذلك تغير في المدلول. وعلى سبيل المثال ليس الفرق بين (كَتَبَ) و (كَاتَبَ) هو فقط في الصورة الكتابية من حيث زيادة حرف الألف في الثانية، بل هو فرق صوتي قبل كل شيء أي أنه اختلاف الدال في الأولى عن الدال في الثانية. ويشتمل الدال في الأولى على ألف قصيرة (الفتحة) تل فاء الفعل، بينما يشتمل الدال في الثانية على ألف طويلة تل فاء الفعل، أي أن الفرق هو في طول المصوت الداخلي الذي يلي فاء الفعل، فهو صوت قصير في الأولى وطويل في الثانية، وهو فرق طفيف كما نرى. لكن هذا التغير الطفيف في الدال أدى إلى تغير في المدلول، إذ أن مدلول (كَتَبَ) غير مدلول (كَاتَبَ). لكن علم النحو العربي لم ينظر إلى المسألة من جانبها الصوتي ليعتب من الأثر الذي يحدثه تغير الدال في المدلول، بل اكتفى بمحاولة استنباط القواعد التي تضبط تغير المصوت. ولذلك نظر إليها من جانبها الكتابي فقط^(٢).

هذا الموقف الذي اتخذته علماء النحو والصرف في وضع قواعد العربية، أي الرؤية المعيارية الافتراضية والوقوع تحت تأثير خداع الكتابة، هو ما سوف يطبع الدرس اللغوي عندهم وهو الذي سوف يؤدي إلى التعقيد الذي نعرفه اليوم قواعد اللغة العربية.

ثانياً : الأفعال من منظور لساني

ولإيضاح هذا الواقع اخترنا مسألة في علم الصرف ما زالت تثير حتى اليوم كثيراً من اللغظ حولها وتسبب للدارسين صعوبات جمّة، وهي مسألة الأفعال. وقد سمي الأفعال كذلك نسبة إلى حروف الملة، وهي الواو والياء والألف ثم يلحقون بها الهزئة. أما أنها حروف علة فلأنها كما يقول الاستراباذي ولا تسلم ولا تصح، أي لا تبقى على حالها في كثير من المواضع عند مجاورتها لما يخالفها من الحركة والحرف، فهي كالليل المنحرف المزاج المتغير حالاً بحال^(٣). وأوضح من هذا التعريف أنه لا يستجيب لطبيعة الملة، وهي طبيعة فيزيائية قبل كل شيء، فكان

(١) أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص. تحقيق محمد علي التيجار (مركز الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤) ج ١ ص ٣٣.

(٢) للمزيد من المعلومات حول هذه القضايا اللسانية، انظر: لقمه مارتين: مبادئ اللسانيات العامة - ترجمة د. أحمد الجوهري ومشورة وزارة التعليم العالي، دمشق ١٩٨٥، ص ١١ و ١٩.

(٣) وفي الدين الاستراباذي: شرح الكافية. نقله د. د. حسان نور الدين: آية الفصل في شافية ابن الجلبج. (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢)، ص ٢٠٨.

أصوات اللغة أشخاص آتيمون يصيبهم الاعتلال والمرضى وتعتري أمزجتهم انحرافات وتقلبات. لذلك ترفض اللسانيات الحديثة مثل هذه النظرة وترى أصوات الواو والياء والألف وكذا الحركات على أنها مصوتات بخلاف بقية أصوات اللغة كالسين والميم التي تعتبرها من المصوات. كذلك لا تتميز النظرة الحديثة بين الواو والياء والألف من جهة وبين الضمة والكسرة والفتحة من جهة أخرى إلا في طول المدة الزمنية، فتعتبر الأولى مصوتات طويلة وتعتبر الثانية مصوتات قصيرة. أما الهمزة التي ألحقها النحاة العرب بحروف العلة في مسألة الاعلال فسوف نرى لاحقاً أنها لا تدخل في عداد المصوتات. بل هي من المصوات.

وما يجدر ذكره هنا أن ابن جني قد تنبه إلى الطبيعة الواحدة لكل من حروف المد (حروف العلة) والحركات، حيث ذكر في «باب مضارعة الحروف للحركات، والحركات للحروف» من كتاب الخصائص: «أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمى الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والفتحة الألف الصغيرة». ثم يقرر: «فإذا ثبت أن هذه الحركات أبعاداً للحروف ومن جنسها، وكانت متى أشبعت ومطلت تمت ووفت جرت مجرى الحروف»^(٤).

لكن النحاة العرب اعتبروا أن الحركات خارجة عن الكلمة وذات قيمة ثانوية، فعاملوها غير معاملتهم لحروف المد. وسوف نرى لاحقاً أنهم أخطأوا في ذلك بما أدى بهم إلى استنباط قواعد غير دقيقة. كذلك سيوضح لنا في سياق هذا البحث أن الحركات تقوم بوظيفة مطابقة لوظيفة حروف المد، فكلها من المصوتات. وقد تنبه الشيخ الرئيس ابن سينا بدوره في «رسالة أسباب حدوث الحروف» إلى الطبيعة الواحدة لحروف المد والحركات، بل ذكر أيضاً نسبة الأولى إلى الثانية من حيث طول المدة الزمنية في النطق، حيث قال: «ولكني أعلم يقيناً أن الألف المدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف. وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة، والياء المصوتة إلى الكسرة»^(٥). وإذا كان ابن سينا لم يقرر بشكل نهائي نسبة المصوت الطويل إلى المصوت القصير من حيث المدة الزمنية، أمي ضعف أم أضعاف، فإن الرأي قد استقر حالياً على أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير وأن الحركة تعادل من حيث زمنها نصف زمن حرف المد. لكن ما يلفت النظر أن ابن سينا قد استعمل مصطلح «مصوت» في وصفه لحروف المد والحركات. والحقيقة أنه استعمل أيضاً مصطلح «صامت»، مما يعني أن الألفينية الحديثة لا تنفرد بهذا الاكتشاف، أي تقسيم أصوات اللغة إلى صامت ومصوت، بل أن علماء اللغة العرب من عرف هذا التقسيم ولكن دون أن يترك أثراً في مسار علم النحو والصرف. وهكذا ميز ابن سينا بين الواو الصامتة والواو المصوتة، وبين الياء الصامتة والياء المصوتة. أما الألف فلا تكون إلا مصوتة. وقد وجد أن الواو الصامتة قريبة من الفاء في مخرجها وأن الياء الصامتة قريبة من السين والزاى. كذلك عرف ابن جني مصطلح «مصوت» واستعمله في كتاب «الخصائص»، حيث ذكر في «باب في مظهر الحروف» مايلي: «والحروف المعطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة. وهي الألف والياء والواو»^(٦).

(٤) الخصائص ٢/ ٣١٥-٣١٦

(٥) الشيخ الرئيس، ابن جني، في حديثه بن سينا: رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطليان ورجحي علم. (مطبعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٢)، ص ٨٥

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٢-٨٥

(٧) الخصائص، ١٢١/٣

ولنبداً الآن في مسألة الاعلال . يعرف علماء الصرف الاعلال بأنه «ما تتعرض له أصوات العلة من تغيرات، بحلول بعضها محل بعض، وهو ما يسمونه (الاعلال بالقلب)، أو بسقوط أصوات العلة بكاملها، ويسمونه (الاعلال بال حذف)، أو بسقوط بعض عناصر صوت العلة، وهو ما يسمونه (الاعلال بالنقل أو التنكين)»^(١). فيما يلي سوف نعالج الحالة الأولى، أي الاعلال بالقلب. وسوف نستشهد على ذلك بمثال ما يسميه الصرفيون «الفعل الأجوف»، أي ما كانت عينه (الحرف الثاني) حرف علة، مثل (قَالَ) و (بَاعَ). يقول الصرفيون أن أصل (قَالَ) هو (قَوَّلَ) وأن أصل (بَاعَ) هو (بَيَّعَ) وأنه لما تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا، فصارت (قَوَّلَ : قَالَ) و (بَيَّعَ : بَاعَ). لكن الصرفيين لم يوضحوا لنا لماذا تنقلب كل من الواو والياء إلى ألف إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما. علما بأن مخرج كل مصوت من هذه المصوتات الثلاثة - الواو والياء والألف - مختلف عن مخرج الآخر. ثم إن تغير المصوت في الدليل اللغوي يعني تغير الدال، وتغير الدال يؤدي إلى تغير المدلول - كما أسلفنا -، أي أن (قَوَّلَ) لا يمكن أن تكون (قَالَ) لما بينهما من فروق في المصوتات. والأمر الثاني - وهو الأهم - أن الصرفيين لم يخبرونا من أين جاؤوا بهذا الأصل المزعم (قَوَّلَ وبَيَّعَ) الذي بناوا عليه نظريتهم. إن لغة العرب لم تعرف هذا النوع من الألفاظ ولم ترد لها أشباه في أحوالها السامية، علما بأن النحاة والصرفيين القدرسي لم يلتفتوا إلى اللغات السامية الأخرى، شقيقات العربية - في محاولة تقعيد اللغة العربية. ويبدى أن الألسنة الحديثة ترفض أن تبني على ما هو خارج اللغة أو ليس منها، فكيف إذا كان قائما على مجرد وهم أو افتراض. ومع ذلك لا بد للمرء أن يتساءل من أين جاء الصرفيون بهذا الأصل المزعم، ولماذا افترضوه دون سواء. الجواب يكمن فيما يسمى عندهم «الليزان الصرفي». لقد وجدوا أن أكثر ألفاظ العربية يمكن ردها إلى أصول ثلاثية، أي ذات ثلاثة صوامت، فوضعوا وزن (قَوَّلَ) ليشتقوا منه بقية الأوزان. ولذلك سمو الصامات الأول فاء الفعل والثاني عينه والثالث لامه نسبة إلى صوامت الوزن (قَوَّلَ) .

رواضح من ذلك أنهم اولوا اهتمامهم للصوامت دون المصوتات التي اعتبروها معتلة لا تثبت على حال ولا يصح الركون إليها. وهكذا راحوا يزنون الأفعال والأسماء من مجردة ومزينة. ولكن عندما وصلوا إلى ما يسمى بالفعل المعتل، أي ما كان فيه حرف علة، لم يستجيب الوزن الذي وضعوه لهذه الحالة، إذ أن وزن (قَالَ) لا يمكن أن يكون (قَوَّلَ)، لذلك كان لا بد من الزعم والافتراض. لقد وجدوا أن الصوت الثاني في الصيغ الأخرى المشتقة من الفعل الأجوف إما أن يكون وإِرا كما في (قَالَ يقول قولاً)، وإما أن يكون ياء، كما في (بَاعَ يبيع بيعاً). ومن هنا تفتقت أذهانهم عن هذا الأصل المزعم (قَوَّلَ وبَيَّعَ). ولقد أكد لنا ابن جني قوّم النحاة لذلك الأصل، حيث ذكر في الخصائص :

«هذا الموضع كثير الإيهام لأكثر من يسمعه، لاحقيقة تحته، وذلك كقولنا: الأصل في قام قوم وفي باع بيع . . وليس الأمر كذلك، بل بفسده، وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه.

وإنما معنى قولنا : أنه كان أصله كذا : أنه لوجه مجيء الصحيح ولم يُعَلَّل لوجه أن يكون مجيئه على ما

(١) د. عبدالمجيد الحنين : فتح الصور للبنية العربية (مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠)، ص ١٦٧. وانظر أيضاً الشيخ أحمد المسلاوي : خلا العرب في فن الصرف (القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٨٨، ص ١٦٦.

ذكرنا. فإما أن يكون استعمل وقتاً من الزمان، ثم انصرف فيها بعد إلى هذا اللفظ فخطأ لا يعتد به أحد من أهل النظر^(٩٩).

إلا أن هذا الأصل المزعوم قد أوقفهم في تعديلات لا حصر لها، حيث واجهوا من الكلمات ما تحققت فيه شر وطهم دون أن تنقلب الواو أو الياء إلى الف. لذلك راحوا يمحسون الألفاظ ويضعون الشروط والقيود حتى بلغ عددها عشرة شروط^(١٠٠) مما جعل مسألة الأفعال من أعقد مسائل الصرف العربي.

وقد جرت في العصر الحاضر محاولات شتى لتبسيط مسألة الأفعال على يد دارسين عرب وأجانب ولما يلي سوف نستعرض بإيجازاتهم هذه المحاولات قبل أن نعرض لرأينا في هذه المسألة محاولين وضعها في إطارها الصحيح.

رأي فريق من علماء الساميات أن الأفعال المتعلقة ذات أصول ثنائية وليست ثلاثية وأن أصل (قال) هو (قَل) وأصل (يقول) هو (يَقُل) وإنما جاءت الألف في (قال) والواو في (يقول) من أطالة الصوت الداخلي القصير. أي حركة القاف - مما جعل هذه الأفعال تدخل في نظام الفعل الثلاثي.

والرأي الثاني الذي قال به بعض علماء الساميات لا يعتمد كثيراً على موقف علماء الصرف العرب.

لقد رأى هذا الفريق أن الأفعال المذكورة كانت منذ البدء ثلاثية وإن المصوتات الطويلة (حروف العلة) فيها جاءت نتيجة القلب أو الحذف: إن أصل (قال) هو (قَوَل) وأصل (يَقُول) هو (يَقَوُل) وأصل (يَقُولُ) هو (يَقَوُلُ) واضح أن كلا الفريقين قد اعتمد على الظن والتخمين وأن نظرياتهم لم تخرج عن كونها محض افتراض قد يصح وقد لا يصح، ولذلك لا يمكن الركون إلى أقوالهم مهما اظهرت من الحلق والاتساق المنطقي. أنشراً جرت محاولة ثالثة على يد الدكتور عبد الصبور شاهين جمع فيها بين الرأيين السابقين واقترب بذلك كثيراً من الحقيقة. لقد وجد أن أصل (قال) هو (قَوَل) وإنما سقطت الواو في الأصل مما أدى إلى التحام المصوتين القصيرين - الفتحة التي على القاف والفتحة التي على الواو - في مصوت طويل واحد هو الألف باعتبار أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين، أي أن حرف المد يعادل حركتين قصيرتين. وقد مثل ذلك من خلال استعمال الحرف اللاتيني أو الكتابة الصوتية: إن (قَوَل) هي q u o l l u ، فإذا سقطت الواو (u) اتصلت الفتحتان القصيرتان قبلها وبعدها فصارت الكلمة (قال): q a l u ، وكل ما حدث هو إسقاط الواو للتخلص من ثلاثية المقطع في (قَوَل) واستبدال مصوت طويل بذلك هو الألف^(١٠١). لقد حاول د. شاهين في هذا التفسير أن يستفيد من بعض معطيات اللسانيات الحديثة، لاسيما ما يتعلق منها بنسبة المصوتات القصيرة إلى الطويلة، إلا أنه وقع مع ذلك في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الصرفيون القدامى عندما انطلقوا من أصل مفترض غير موجود، هو (قَوَل). ولقد رأينا أن هذا الأصل المزعوم لم تعرفه اللغة العربية وأن النحاة قد ابتدعوه من لدن أنفسهم لمطابقة اليزان الصرفي (قَوَل) الذي كان أيضاً من وضعهم^(١٠٢). وفي رأينا أن الحل الأمثل ينبغي أن ينطلق مما هو موجود في اللغة فعلاً دون اللجوء إلى افتراضات ومزاعم لا أساس لها.

(٩٩) الخصائص ج ١، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(١٠٠) نظار شذا الحروف ص ١٦٢.

(١٠١) نظار هنري فارس: العربية القديمة - تريب الفكر عبد الصبور شاهين. (دار البشائر، بيروت ١٩٨٣)، ص ٢٠١.

(١٠٢) نظار د. عبد الصبور شاهين. التوجع الصوتي للبيئة العربية، ص ٨٧ - ٨٨ و ص ١٩٦ - ١٩٥.

وفي سبيل ذلك سوف نستعرض أولاً اسناد الفعل الأجوف الى ضيائر الرفع في الماضي والمضارع ثم نحاول استنباط القواعد التي تضبط عملية التحول التي تطرأ على هذا النوع من الأفعال :

الماضي

| الشخص | جنس | المتكلم | المخاطب | الغائب |
|-------|------|-------------------|-----------------------|-------------------|
| أنا | مفرد | قُلْتُ - تَئْتُ | قُلْتَ - تَئْتَ | قَالَ - بَاغَ |
| | مثنى | | قُلْتُمَا - تَئْتُمَا | قَالَا - بَاغَا |
| | جمع | قُلْنَا - تَئْنَا | قُلْتُمْ - تَئْتُمْ | قَالُوا - بَاغُوا |
| أنت | مفرد | | قُلْتَ - تَئْتَ | قَالَ - بَاغَ |
| | مثنى | | قُلْتُمَا - تَئْتُمَا | قَالَا - بَاغَا |
| | جمع | | قُلْتُمْ - تَئْتُمْ | قَالُوا - بَاغُوا |

المضارع

| الشخص | جنس | المتكلم | المخاطب | الغائب |
|-------|------|-------------------|-------------------------|-------------------------|
| أنا | مفرد | أَقُولُ - أَبِيعُ | تَقُولُ - تَبِيعُ | يَقُولُ - يَبِيعُ |
| | مثنى | | تَقُولَانِ - تَبِيعَانِ | يَقُولَانِ - يَبِيعَانِ |
| | جمع | دَقُولُ - نَبِيعُ | تَقُولُونَ - تَبِيعُونَ | يَقُولُونَ - يَبِيعُونَ |
| أنت | مفرد | | تَقُولُ - تَبِيعُ | يَقُولُ - يَبِيعُ |
| | مثنى | | تَقُولَانِ - تَبِيعَانِ | يَقُولَانِ - يَبِيعَانِ |
| | جمع | | تَقُولُونَ - تَبِيعُونَ | يَقُولُونَ - يَبِيعُونَ |

أن نظرة فاحصة على صيغ الفعل الماضي سوف تكشف لنا بوضوح تام أنها تشترك في الأعم الأغلب بجذر واحد هو (قُل . . qul) ، ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى صيغ الفعل الماضي عند استناده إلى الشخص الغائب، حيث يبدو أن جذره هو (قال qah) باستثناء جمع الأنثى، حيث يعود الجذر إلى حالته الأصلية (قُل . .) . لنلق الآن نظرة ثانية على صيغ الفعل المضارع وسوف نرى أنها تشترك جميعاً بجذر واحد هو (قُول . . qul) باستثناء جمع الأنثى في المخاطب والغائب، حيث أن جذرها هو جذر الماضي (قُل . .) . إذا استثنينا الآن - وبصورة مؤقتة - مسألة تصرف الفعل الماضي مع الشخص الغائب لتبين لنا أن للفعل الأجوف جنسين، واحداً للماضي هو (قُل . .) وآخر للمضارع هو (قُول . .) وأنه لا فرق بينها إلا في طول الصوت الداخلي، فهو قصير في جذر الماضي وطويل في جذر المضارع . ثم إن هذين المصوتين من جنس واحد : حركة الضمة في جذر الماضي وحرف المد الواو في جذر المضارع . وتبعاً لذلك نستطيع أن نقرر الآن أن جذر المضارع قد نتج عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي .:

قُل - قُول ، مما يعني أن الواو أو الياء اللتين قامت من أجلها أكثر قواعد الاعلال ليستا أصليتين في
qul qah

الكلمة ، بل نشأتا عن إطالة الصوت القصير في الجذر الأصلي . وسوف يتأكد لنا ذلك لاحقاً من خلال استعراض بقية المشتقات .

لنعد الآن إلى جذر الماضي مع الشخص الغائب (قال) ، الذي يمتاز عن مثيله مع التكلم والمخاطب بوجود حرف الف في وسطه، فما هي هذه الألف ومن أين جاءت ؟

لكي نقرر في أمر هذه الألف ينبغي أن نقارن بين صيغة الماضي عند اسناد الفعل إلى الشخص الغائب وبين صيغته عند استناده إلى التكلم والمخاطب .

وهنا نلاحظ أن صيغته في الحالة الثانية تتألف من الجذر (قُل . .) مضافاً إليها لاحقة تتغير حسب الشخص والعدد والجنس . فاللاحقة (. . نا) في (قُلنا) مشتقة من ضمير الرفع المنفصل (نحن) ، واللاحقة (. . ت) في (قُلْتَ) مشتقة من (أنت) أو أنها صيغة مختصرة من هذا الضمير . وكذلك فإن اللاحقة (. . تب) في (قُلْتِ) مشتقة من الضمير (أنتي) ، واللاحقة (. . تم) في (قُلْتُم) من الضمير (أنتم) ، و (. . ت) في (قُلْتِ) من الضمير (أنتي) و (. . تن) في (قُلْتُن) من الضمير (أنتن) .

هذا يعني أن اللواحق المذكورة هي صيغ مختصرة من ضمائر الرفع المنفصلة وأنها تدل على الشخص والعدد والجنس . أما في حالة اسناد الفعل الماضي إلى الشخص الغائب فإن اللواحق أمرها مختلف . وباستثناء (نَ) أي نون النسوة في (قُلْنَ) - وهي صيغة مختصرة من (هُنَ) فإن بقية اللواحق لا تدل على الشخص بل على الجنس والعدد فقط . إن (. . نا) في (قُلنا) تدل على التأنيث والتثنية، لكنها لا تدل على الغيبة . وكذلك (. . ت) تاء التأنيث في (قُلْتَ) تدل على التأنيث والافراد ولا تدل على الشخص الغائب ولا علاقة لها بضمير الرفع (هي) مثلاً لا علاقة للاحقة (ككها تا) في (قُلْتَها) بضمير الرفع (هما) .

أما اللاحقة (. . و) في (قالوا) فإنها ليست أكثر من علامة لجمع الذكور سواء في الأفعال أو في الأسماء. وإذا كانت تقتزن في الأسماء مع النون إلا أنها قد تفقدها في حالات معينة معروفة. ثم إنها تقتزن بالنون في الفعل المضارع (يقولون).

هذا يعني أو وجود النون أو عدمه لا يغير شيئاً من مدلول (. . و) والتي تدل على الجنس والعدد دون الشخص. ويكفي أن نشير إلى أنها تبدل في المضارع على جمع الذكور للشخص الغائب وللشخص المخاطب، أي أنها لا تختص بشخص دون شخص بما يؤكد أنها لا تحمل دلالة على الشخص. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن اللاحقة (. . ا) في (قالا) التي تدل على التثنية، ولذلك سماها القدماء (ألف الاثنين). وهي تدل على التذكير لحلولها من تاء التانيث مقارنة مع اللاحقة (. . تا) في (قالتا). أخيراً بقيت لدينا الصيغة (قال)، وهي صيغة قد غلت ظاهرياً من لاحقة تصاف إليها لتدل على مادلته عليه الواو الأخرى عند استناد الفعل إلى الشخص الغائب.

لكن الحقيقة أن صيغة (قال) ليست خالية تماماً من الواو، إذ إن الفتحة التي في آخر الفعل هي لاحقة حقيقية تدل على مادلته عليه زميلاتها من الواو الأخرى. فإذا كانت الألف - وهي مصوت طويل - تدل على التثنية فلماذا لا تدل الفتحة - وهي مصوت قصير - على الأفراد، علياً بأن الفتحة تعادل نصف الألف وهي من جنسها كما رأينا. وإذا كان المرء يجد صعوبة في قبول هذه الفكرة فلأن علم الرسم العربي يبرز المصوتات الطويلة دون القصيرة، أي أننا نكتب الألف دون الفتحة وكذلك الواو دون الضمة ومثلها الياء دون الكسرة. أما من حيث النطق فلا تقل الوظائف الطويلة التي تؤديها المصوتات القصيرة في شيء عن الوظائف التي تؤديها مثيلاتها من المصوتات الطويلة. وبالتالي لا مناص لنا أن نقرر بأن الفتحة في (قال) هي لاحقة حقيقية تدل على مادلته عليه بقية الواو مع الشخص الغائب، أي على الجنس والعدد. وهنا لا بد أن يرسم في ذهننا السؤال المشروع التالي: إذا كانت هذه الواو الخمسة - باستثناء نون النسوة - تدل على الجنس والعدد فقط، فما الذي يدل على الشخص الغائب إذن؟ إذ لا بد من دال يدل عليه. وجوابنا أن الألف التي في وسط الفعل (قال) هي الدال الممكن الوحيد على الشخص الغائب. ونستطيع أن نبرهن على ذلك بأنه حيث دلت الواو على الشخص لم تظهر هذه الألف. فهي لم تظهر عند استناد الفعل إلى الشخص المتكلم لأن الواو الفعل تدل عليه بالمثل، بل لم تظهر عند استناد الفعل إلى الشخص الغائب في جمع الأنثى لأن نون النسوة قد دلت عليه.

ماذا يعني ذلك؟ يعني أن الألف دخيلة على الفعل مثلما أن الواو دخيلة عليه أيضاً. أي أن الألف لم تنشأ عن انقلاب الواو في (قَوْل) ولا عن انقلاب الياء في (يَقُول)؛ بل أضيفت هذه الألف إلى الفعل من خارجه، وهذا يلغي فكرة (الاعلال بالقلب) من الأساس. وقد رأينا سابقاً أن الواو بعد ذاتها ليست أصلية في الفعل بل هي ناشئة عن إطالة الصوت الداخلي القصير - أي الضمة في (. . قَوْل) - لتصبح مصوتاً طويلاً في جذر المضارع، أي واوا في (. . قُول)، وبالتالي ليس من شأنها أن تغلب أو تتحول بل هي خاصة بجذر المضارع وحده.

لقد توصلنا حتى الآن إلى فكرتين أساسيتين جديدتين بشأن الاعلال، نقرع الأولى على أن حرف المد في جذر المضارع قد نشأ عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي، وليس عن أصل مزعوم مثل (قَوْل) و (يَقُول).

وتقوم الفكرة الثانية على أن - الألف في (قَالَ) و (بَاغ) دخيلة على جذر الفعل وتؤدي وظيفة محددة هي الدلالة على الشخص الغائب لحذف اللواحق من هذا المثلول . فيما يلي سوف نتوسع قليلا في شرح هاتين الفكرتين : بخصوص مبدأ استخلاص بعض صيغ العربية من بعض عن طريق إطلالة المصوتات الداخلية القصيرة استطاع هنري فليش^(١٣) أن يحصر الصياغة الاسمية في اللغة العربية في سبع صيغ أساسية خالية تماما من المصوتات الطويلة وبين كيف أن اللغة العربية قد طورت من هذه الصيغ السبع أخرى كثيرة بلغ عددها سبعا وعشرين صيغة ، وذلك عن طريق ما أسماه والتحول الداخلي أي من خلال اشباع المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا . كما بين أن الأمر نفسه شائع في صيغ الأفعال وأن بعض الصيغ قد انشقت من بعض بواسطة إطلالة المصوت الداخلي القصير ، مثل : قَتَلَ . فاعَلَ ، تَفَعَّل . تَفَاعَلَ^(١٤) ، مما يشير إلى أن الظاهرة شائعة جدا في اللغة العربية وأنها لم تأت ببذعة في اللغة حينما نسبتا أصل جذر المضارع إلى جذر الماضي . ثم إن العربية قد اتبعت هذا المنهاج مع الصوامت مثلما اتبعت مع المصوتات .

أليست صيغة (قَتَلَ) مشتقة من صيغة (قَتَل) وذلك من خلال تضعيف الصامت الأوسط في الفعل ، أي من خلال ما يسمى تشديد الحرف ؟ ولقياسا على ذلك فإن إطلالة المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا هي ظاهرة مشابهة ، وما ينطبق إذن على الصامت ينطبق أيضا على المصوت . لقد اشتقت (قَاتَلَ) من (قَتَلَ) بواسطة اشباع الفتحة التي تلي الصامت الأول فانقلبت إلى ألف ، وكذلك اشتقت (قَتَلَ) من (قَتَلَ) بواسطة مضاعفة الصامت الثاني ، أي أن اشباع الفتحة في (قَاتَلَ) يشبه تشديد التاء في (قَتَلَ) ، فهي تؤدي كلها في نهاية المطاف إلى مضاعفة عنصر صوتي داخل السجع ، سواء أكان صامتا أم مصوتا . وما يقال هنا عن التضعيف ينطبق بالطريقة نفسها على قُل .. قُول .. أو بَع .. بِيْع .. ، مما يعني أن جذر المضارع قد نتج عن جذر الماضي بواسطة إمالة أو مضاعفة المصوت الداخلي القصير . ونستطيع بطريقة معكوسة أن نبرهن على أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين . لقد عرف عن بعض العرب أنهم يعملون في حالة المقطع المديد (صامت + مصوت طويل + صامت مضعف) إلى تقسيم المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين منفصلين بواسطة همزة ، فبدلا من قراءة (ولا الضالّين) يقرؤون (ولا الضالّون) حسب رواية ابن جني^(١٥) . هذا يعني أننا نستطيع تجزئة المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين مثلما نستطيع تجزئة الصامت المضعف إلى صامتين متتالين .

أما بخصوص المبدأ الثاني في أن الألف في (قَالَ) و (بَاغ) دخيلة على جذر الفعل وليست ناشئة عن انقلاب الواو أو الياء ، فهناك أكثر من شاهد على ذلك . إن الألف التي في اسم الفاعل ، مثل : جَاءَلَ ويأج ، هي الألف نفسها التي في الفعل الماضي (قال) و(بأغ) ، أي أن تلك الألف تدل على الفاعل ولا شيء غير . وقد تنبه قديما إلى ذلك ابن مضاء الأندلسي في كتابه «الرد على النحاة» عندما ذكر أن النحاة يقولون في مثل (زيد ضارب عمرا) ، أن (ضارب) ضميرا مستترا تقديره هو فاعل ، لكن ابن مضاء يرى أن (ضارب) تدل على الصفة وصاحبها فلا داعي للتأويل^(١٦) .

(١٣) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٢ وما يليها .

(١٤) المرجع نفسه ، ص ١٤١ وما يليها .

(١٥) المختصر ج ٣ ، ص ١٤٧

(١٦) ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٤٧) ، ص ١٠٠

وصاحب الصفة هو الفاعل . وإذا كان ابن مضاء لم يحصر الدال على الفاعل في الألف وتركه بلا تحديد ، إلا أنه أقرب كثيرا من الصواب عندما رأى أن شيئا ما في اسم الفاعل يدل عليه وأنه لا حاجة بالتالي إلى تقدير ذلك الفاعل تقديراً . أما الصرفيون فيقولون بأن أصل (قاتل) هو (قاول) وأصل (بائع) هو (بايع) وأن الهمزة قد انقلبت عن الواو في (قاول) وعن الياء في (بايع) ، وكانوا قبل ذلك قد قرروا بأن الألف في (قال) قد انقلبت عن الواو في (قَوَّل) كما انقلبت في (باع) عن الياء في (بيع) ، مع أن الواو في (قاول) هي الواو نفسها في (قَوَّل) والياء في (بايع) هي الياء نفسها في (بيع) .

كيف إذن انقلبت الالف في (قال) و (باع) بينما انقلبتا إلى همزة في (قاتل) و (بائع) ، علماً بأن الألف لم تزك قائمة في هاتين الصيغتين الأخيرتين ؟ إن أطراد القاعدة يقتضي أن تكون الألف في اسم الفاعل قد انقلبت عن الواو والياء وليس الهمزة . لكن الحقيقة أنه لا الألف ولا الهمزة قد انقلبتا عن الواو أو الياء المفترضة . ويبدو أن هناك من الصرفيين من تنبه إلى ذلك فابتدع تفسيراً مختلفاً ، وهو أن الهمزة في (قاتل) و (بائع) قد انقلبت عن الألف في (قال) و (باع) وليس عن الواو في الصيغة المفترضة (قاول) أو عن الياء في الصيغة المفترضة (بايع) ^(١٧) . إن هذا الافتراض يعني أننا هنا أمام سلسلة لا متناهية من الانقلابات التي لا تخضع لقانون ، حيث أن الواو في (قَوَّل) والياء في (بَيْع) قد انقلبتا إلى الألف في (قال) و (باع) ثم انقلبت الألف الجديدة نفسها إلى همزة في (قاتل) و (بائع) . لكن هذا الفريق من الصرفيين لا يختبرنا من أين جاءت الألف في صيغة اسم الفاعل ، مع أنها تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه الألف في الفعل الأجوف ، مما يؤكد أن هذه الألف التي في اسم الفاعل هي الألف في الفعل الأجوف وأنها لن تغلب بالتالي إلى همزة .

إن هذا الاختلاف في التفسير ناتج عن عدم توصل علماء الصرف إلى حقيقة التنزيات التي تطرأ على المصوتات وإلى عدم فهمهم للطبيعة الفيزيائية لهذه المصوتات . وسوف نعود إلى مسألة أصل الهمزة في سياق هذا البحث . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الألف في الفعل المنقوص هي الألف نفسها التي رأيناها في الفعل الأجوف وفي اسم الفاعل . وسواء أوردت هنا مقصورة أم عمود فإن هذا لا يغير شيئاً من واقع الأمر ، لأنه شأن من شؤون علم الرسم العربي . إن الألف لاترد في الناقص الواوي أو اليائي إلا في صيغة الماضي عند اسناده إلى الشخص الغائب ، مثل : (قصي) و (بكي) و (دعا) ، باستثناء حالات قليلة تظهر فيها الألف في المضارع أيضاً ، مثل : (سعى - يسعى) . هذا يعني أن الألف في الفعل المنقوص تسلك السلوك ذاته الذي رأيناه في الفعل الأجوف . لكنها لا تظهر هنا إلا مع المفرد المذكور ، بينما تختفي مع المثني والجمع والمؤنث بسبب دخول لواحق العدد والجنس على الفعل . أما مع المفرد المذكور فإن اللاحقة التي تدل على العدد والجنس ، أي الفتحة ، هي ذات طبيعة واحدة كالألف بحيث تندمج معها وتختفي ، لأنه لا يمكن تحريك الألف بالفتحة . فالألف في الفعل المنقوص دخيلة على جذر الفعل وتدل على الشخص الغائب وليست منقلبة عن واو أو ياء .

وكما رأينا في الفعل الأجوف فإن الواو والياء في مضارع الفعل الناقص ليستا أصليتين بل نتجتا عن إطالة المصوت القصير في صيغة الماضي . إلا أنها تظهران في ماضي الفعل الأجوف في هيئة مصوت قصير ، بينما تظهران في

(١٧) نشر عبد الرحمن : تطبيق العربي (ديروت : دار النهضة العربية ١٩٨٤) ، ص ٧٦ .

ماضي الفعل المنقوص في هيئة حرف صامت . وسوف نرى لاحقا أن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، مما يجعل المبدأ الذي استنبطناه في حالة الفعل الأجوف يصح أيضا في حالة الفعل المنقوص ، أي أن جذر المضارع قد نشأ عن جذر الماضي من خلال إطالة الصوت القصير .

إذا كان الصوت الطويل في جذر المضارع قد نتج عن إطالة الصوت القصير في جذر الماضي ، فما هو أصل الواو والياء الصامتين في المصدر (قَوْل) و (يَبِيع) ؟ أن ما درج عليها الصرف على تسميته بالمصدر ليس مصدراً في حقيقة الأمر بل هو مشتق من جذر المضارع ، مثلاً أن جذر المضارع قد اشتق بدوره من جذور الماضي ، أي أن - (قَوْل) قد اشتقت من (.. قَوْل) وإن (يَبِيع) قد اشتقت من (.. يَبِيع) ، مما يعني أننا أمام متوالية اشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم
أو : قُلْ ← قَوْل ← قَوْلْ

وتفصيل ذلك كما يلي :

ذكرنا أن جذر المضارع (.. قَوْل ..) و (.. يَبِيع ..) قد نتج عن جذر الماضي (قُلْ ..) و (يَبِيع ..) وذلك بواسطة إطالة الصوت الداخلي القصير في هذا الأخير . كما ذكرنا أيضاً أن الصوت الطويل يعادل ضعفي الصوت القصير ، أي أن الصوت الطويل يتألف من مصوتين قصيرين :

فتحة + فتحة = ألف طويلة

ضمة + ضمة = واو طويلة

كسرة + كسرة = ياء طويلة

ولو نظرنا الآن الى جذر المضارع (.. قَوْل ..) و (.. يَبِيع ..) لوجدنا أنه يشتمل على مصوت طويل نتج عن اندماج مصوتين قصيرين . وبمقارنة بالاسم (قَوْل) و (يَبِيع) سوف يتضح لنا أن النصف الاول من الصوت الطويل في جذر المضارع قد سقط وحل محله مصوت قصير من نوع آخر هو الفتحة ، ولذلك تحركت القاف في (قَوْل) والياء في (يَبِيع) بالفتحة . لكن النصف الثاني من الصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع قد بقي على حاله وظهر في هيئة واو صامتة في الاسم وياء صامتة في الاسم الثاني .

ويمكننا تمثيل ذلك على الشكل التالي :

ان جذر المضارع (.. قَوْل ..) عبارة عن ق + ح + ع + ل

وكذلك جذر المضارع (.. يَبِيع ..) عبارة عن ب + ح + ع + ي + ع

وعندما حلت الفتحة في الاسم محل الصوت القصير الأول من جذر المضارع صارت على الشكل التالي :

ق + ع + ع + ل

ب + ع + ع + ع

هذا يعني أن الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يَبِّع) ليستا سوى النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع ، وأن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، فكان (قَوْل) هي في أصلها (قُـ ل) وأن (يَبِّع) هي في أصلها (بَ ج ح) . ولو جربنا نطقها على هذا الشكل ، أي نطق الضمة دون صامت قبلها ونطق الكسرة دون صامت قبلها أيضا لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن نطق الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يَبِّع) مع فارق واحد ، هو أننا ننطق في أول الضمة وكذا في أول الكسرة بصوت الهززة ، وبسهولة الهززة نحصل على التوالي على واو صامتة وعلى ياء صامتة ، مما يؤكد أن كلا من الواو الصامتة والياء الصامتة ليستا في الأصل سوى مصوت قصير ، أي ضمة في حالة الواو وكسرة في حالة الياء بعد تسهيل الهززة التي في أول كل منهما . أما من أين جاءت الهززة ولماذا ، فهذا ما سوف نشرحه بعد قليل في مبحث الهززة . ولو أردنا التعبير عن ذلك بلغة اللسانيات الحديثة لقلنا بأن جذر المضارع في (.. قُول ..) و (.. يَبِّع ..) يشتمل على مصوت طويل بينما يشتمل الاسم (قَوْل) و (يَبِّع) على مصوت مزدوج مؤلف من مصوتين قصيرين متعارضين : فتحة وضمة في (قَوْل) وفتحة وكسرة في (يَبِّع) . وما قلناه عن التوافقية الاشتقاقية :

جذر للماضي ← جذر المضارع ← الاسم

يمكن التعبير عنه على الشكل التالي :

مصوت قصير ← مصوت طويل ← مصوت مزدوج

بقي أن نشير إلى أن تحول مصوت طويل إلى مصوت مزدوج لا يقتصر في اللغة العربية على الحالة التي نحن بصددنا ، بل هنالك حالات أخرى أيضا يحدث فيها مثل هذا التحول . وحالة النصب في الفعل المضارع المعتل الآخر إذا كان متبها بالواو أو الياء هي حالة مماثلة يتحول فيها المصوت الطويل إلى مصوت مزدوج . أن فعل (يدعو) ينتهي بمصوت طويل في حالة الرفع ، لكنه ينتهي في حالة النصب (لن يدعو) بمصوت مزدوج هو الواو الصامتة والفتحة . وكذلك فعل (يرمي) في حالة الرفع و (لن يرمي) في حالة النصب . والفرق بين حالتنا السابقة وهذه الحالة هو أنه في حالة الاسم (قَوْل) و (يَبِّع) حلت الفتحة محل النصف الأول من المصوت الطويل في جذر المضارع ، بينما حلت الفتحة في حالة الفعل المضارع المنصوب (لن يدعو) و (لن يرمي) محل النصف الثاني من المصوت الطويل ، أي أن الواو الطويلة والياء الطويلة في الحالة الأولى قد تحولتا إلى فتحة متبوعة بضمة وإلى فتحة متبوعة بكسرة في (قَوْل) و (يَبِّع) ، بينما تحولتا في الحالة الثانية إلى ضمة متبوعة بفتحة وإلى كسرة متبوعة بفتحة في (يدعو و يرمي) . وهكذا نتج في الحالتين مصوت مزدوج .

ثالثا : حقيقة الهززة

أوضحنا حتى الآن أن فكرة انقلاب المصوتات بعضها عن بعض فكرة غير صحيحة وأنها قد قامت على افتراض وجود أصول متوهمه اخترعها النحاة من بنات أفكارهم لمطابقة الميزان الصرفي الذي وضعوه . كذلك بينا أن أقصى ما يمكن أن يحدث للمصوت هو أن يتحول إلى مصوت من جنسه أو إلى مصوت مزدوج - كما رأينا آنفاً - أما ما خلا ذلك فوهو لا أساس له . ولكن ماذا عن انقلاب المصوتات إلى هززة حسب ادعاء الصرفيين ؟ انهم يقولون بانقلاب

الواو في (قاول) إلى همزة في (قائل) وانقلاب الياء في (يايع) إلى همزة في (يايع) ، أي أنهم يفترضون أصل (قائل) : قاول وأصل (يايع) : يايع انطلاقاً من الأصول المفترضة (قَوْل) و (يَيْع) . وأوضح أن الصنفين هنا قد جلاوا مرة ثانية إلى الافتراض والظن ، مما ترفضه اللسانيات الحديثة . والأمر الثاني أن الهمزة ليست من جنس المصوتات بل هي من الصوامت ، وهذا ما لم ينكره القدماء . لكنهم مع ذلك أخطأوا في فهم الهمزة . وقبل أن نبحت عن أصل الهمزة في أسماء الفاعل (قائل) و (يايع) سوف نستعرض بإيجاز موقف القدماء من الهمزة لتبين الأسباب التي جعلتهم يفترون في الخطأ .

لقد أجمع القدماء تقريباً على أن الهمزة من الأصوات البجهرية ، مع أن الدراسات الصوتية الحديثة لم تترك مجالاً للشك في أن الهمزة لا تدخل في عداد المجهورات . ويرى فريق من الدارسين اليوم أن الهمزة صوت مهموس ويفضل فريق آخر أن يعتبرها لا مجهورة ولا مهموسة ^{١٨٤} .

ويبدو أن من أسباب وقوع القدماء في الخطأ أنهم قد أخذوا بما أورده سيبويه في والكتاب حول الهمزة دون تمحيص . لقد ذكر سيبويه أن الهمزة واحدة من الأصوات التسعة عشر التي عدّها مجهورة وعدّها من بينها أيضاً المصوتات الطويلة الثلاثة : الألف والواو والياء ^{١٨٥} ، مما سوغ له ولبن بعده القول بإمكانية انقلاب المصوتات إلى همزة .

ماهي حقيقة الهمزة إذن ؟

ينبغي التأكيد قبل كل شيء أن الهمزة ليست من حروف المباني وأن وجودها أو عدمه لا يغير شيئاً من مدلول الكلمة بخلاف بقية أصوات اللغة التي يؤدي استبدال واحد منها بغيره أو سقوطه إلى ظهور نَسَج صوتي جديد يحمل مدلولاً مختلفاً . وعلى سبيل المثال ، ان قولنا (يومنون) دون همزة لا يدل على غير ما يدل عليه قولنا (يومنون) ينطق الهمزة .

وفي المقابل لو أسقطنا من كلمة (يومنون) حرف النون مثلاً لظهر لدينا نَسَج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يومون) * . ولو أبدلنا من الميم قاف لظهر لدينا أيضاً نَسَج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يقوقون) . وهذا ما ندعوه في اللسانيات الحديثة والوظيفية التمييزية^{١٨٦} . وتعني هذه الوظيفة أن غياب صوت لغوي من أصوات النسيج الصوتي أو حلول صوت لغوي آخر مكانه يؤدي إلى ظهور نَسَج صوتي جديد بمدلول جديد ، لأن كل صوت لغوي يميز من خلال وجوده أو عدمه وبذلك من خلال موقعه أيضاً بين نَسَج صوتي وآخر . ولذلك سمّيت وظيفة بالوظيفة التمييزية . أما غياب الهمزة في النسيج الصوتي فلا يؤدي إلى ظهور نَسَج صوتي جديد ولا إلى تغير في المدلول الذي يحمله النَسَج ، لأن وظيفة الهمزة ليست تمييزية بل هي وظيفة ثابتة قبل كل شيء . ومعنى الوظيفة الثابتة أن الصوت اللغوي يساعد في أن يسهل على السامع عملية تحليل الكلام إلى وحدات متعاقبة ^{١٨٧} . ان وظيفة الثباين

(١٨) انظر كمال محمد بشر : علم اللغة العام - الأصوات (القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٨٠) ص ١١٣ .

(١٩) سيبويه : الكتاب (القاهرة : مكتبة بولاق ١٣١٦ هـ) ، ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٢٠) انظر : كلودي مريثيه ، مبادئ اللسانيات العامة ، ص ٥١ .

* والأصح يومنون

هذه غالباً ما تكون منوطة بالنثر في أكثر اللغات المعروفة . لكن الهمز في حقيقته ليس الا نوعاً من أنواع النبر . وكانت العرب تنبر بأشكال مختلفة منها الهمز والمد .

ثم ان تعريف ابن سينا للهمز في «رسالة أسباب حدوث الحروف» يؤكد هذه الحقيقة فالهمزة عنده «حقز قوى من الحجاب وعضل الصدر لواء كثير»^(٢١)

كذلك فالهمز لغة هو الضغط أو النبر ، لذلك لا عجب ان العرب كانت تسقط الهمز من كلامها في مناسبات كثيرة ، ومنها قولهم^(٢٢) «وَيَلْمُهُ» بمعنى 'ويل لأمه' ، وحكاية أحمد بن يحيى قول المرأة لبناتها وقد خلا الأعرابي بهنّ «أني السؤ تَيْتِي» (تريد : أفي السوء أنتي) . كما ورد في القراءات اسقاط الهمزة في مواضع عديدة ، منها قراءة الكسائي «بما أنزلِك» (البقرة ٤) وقراءة ابن كثير «أنها جُلدي الكبر» (المائدة ٣٥) . أخيراً ذكر ابن جني أن أصل لفظ الجلالة (الله) هو «الاه» فحذفت الهمزة وأضيفت (ال) التعريف ، وكذلك كلمة (الناس) فإن أصلها «أناس»^(٢٣)

الا انه تواجهنا في اللغة العربية ألفاظ تبدو فيها الهمزة أصلية لأول وهلة بحيث لا يمكن اسقاطها أو تسهيلها أو ابدالها . ويتجلى هذا الامر على نحو خاص عندما تكون الهمزة متحركة ، كما في مطلع الالفاظ التالية : أحوال ، أسرى أو اذا وردت في موقع العين مثل : سأل وسأل وسؤال أو في موقع اللام مثل : بدأ وبرا وما فني .

لتأمل نطقنا للاسماء المبدوءة بأداة التعريف (ال) اذا وقعت في أول الكلام ، كقولنا : الرجل ، الباب الخ . . . انه لا يخطر ببالنا أننا نبدأ هنا بنطق الهمزة مع أننا لا نملك نطق صوت الالف في مطلع هذه الالفاظ دون نطق الهمزة في أومأ . ذلك ان الهمزة تشكل جزءاً لا يتجزأ من مطلع (ال) التعريف مثلما لا يعتمد على الرسم في اللغات الأخرى الى كتابة همزة في مطلع هذا النوع من المصوتات مع ان الهمزة موجودة . ومثال ذلك في الألمانية Achten (احتم) و Essen (أكل) و Irdisch (دنوي) ، وفي الانجليزية After (بعد) و Us (حالة المفعول من ضمير المتكلم الجمع) و Increase (زيادة) ، وفي الفرنسية Amour (حُب) و Eau (ماء) و homour (دعابة) ، وفي الفارسية «است» (يكون) و «ايشان» (هم) و «اسب» (حصان) و «آب» (ماء) . و «اطاق» (غرفة) .

وفي كل هذه الامثلة توجد همزة في مطلعها لانها مبدوءة بمصوت . لكن اللغات الأخرى لا تكتب الهمزة بل تكتب المصوت فقط لان الهمزة ليست الا جزءاً من المصوت اذا ورد غير مسبوق بصامت . ودليل ذلك ان صوت الهمزة يخفي من مطلع هذه الامثلة جميعاً حالاً يصبح مصوت المطلق مسبقاً بحرف صامت ، ومثال ذلك في الألمانية ان كلمة Essen (أكل) تصبح Messen (قاس ، كال) اذا دخل عليها الصامت (m) في أومأ ولا يبقى فيها اثر للهمزة ، ومثلها في الانكليزية كلمة Increase اذا دخلت عليها an (اداة التنكير) ، وفي الفرنسية تختفي الهمزة من مطلع Amour اذا دخلت عليها أداة التعريف فتصبح l'amour ، وفي الفارسية تختفي الهمزة ايضاً من مطلع

(٢١) رسالة أسباب حدوث الحروف ، ص ٧٢

(٢٢) انظر لخصائص ج ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥١

(٢٣) المرجع نفسه .

«است» اذا دخلت عليها الهاء فتصبح «هست» (بمعنى موجود) ، مما يشير الى ان ما كان في مطلع تلك الكلمات ليس همزة بل مصوتاً وأن الصوامت التي ادخلت عليه تحركت به فاخضت صوت الهمزة .

وقياساً على ذلك فان ما يتوهمه المرء من وجود همزة في (سأل) ومشتقاتها ليس الا مصوتاً داخلياً ، اي ان الهمزة في (سأل) هي في حقيقة امرها ذلك المصوت القصير الذي نسميه فتحة والهمزة في (سئل) هي كسرة ، والهمزة في (سؤال) هي ألف مدونة ليس الا .

ولو كتبنا كلمة (سؤال) هكذا «سأل» بلا همزة فسوف نطقها بالفتحة الاصلي نفسه ، لان الهمزة ليست الا من خداع الكتابة ، ويمكننا هكذا تطبيق الجذا المذكور على بقية الامثلة .

يبقى اخيراً نوع واحد من انواع الهمز اذا ورد في آخر الكلمة بعد الالف ، مثل : ماء ، هواء وغير ذلك ، وقد شرح ابن جني هذا النوع من الهمز بما يقترب كثيراً مما قلناه عن وظيفتها التباينية بالمفهوم اللساني الحديث . لقد ورد في «الخصائص» تحت «باب في مطل الحروف» ما يلي : « والحروف المطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة . وهي الالف والياء والواو . اعلم ان هذه الحروف اين وقعت وكيف وجدت ففيها امتداد ولين الا ان الاماكن التي يطول فيها صوتها ، ويتمكن مدتها ، ثلاثة . وهي أن تقع بعدها الهمزة ، أو الحرف المشدد ، أو أن يوقف عليها عند التذكر . فالهمزة نحو كساء ، ورداء ، وخيطية ، ورزينة ، ومفرقة ، ومخوفة . ولأنها تمكن المد فيهن مع الهمز أن الهمزة حرف نأي منشؤه ، وتراخي مخرجه ، فإذا أنت نطقت بهذه الاحرف المصوتة قبله ، ثم تهاديت بهن نحوه طئن ، وشعن في الصوت ، فوفين له ، وزدن في بيانه ومكانه ، وليس كذلك اذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد ، الا تراك اذا قلت : كتاب ، وحساب ، وسعيد ، وعمود ، وضروب وركوب ، لم تجدنهن لدنات ، ولا ناعيات ، ولا وافيات مستطيلات ، كما تجدن كذلك اذا تلاهن الهمز أو الحرف المشدد» (١١١) . ويستفاد من قول ابن جني ما يلي :

١ - ان الهمزة تختلف عن بقية الصوامت في الوظيفة التي تؤديها داخل النجج الصوتي .

٢ - ان وظيفتها هي اطالة المصوت الذي يقع قبلها وابتزازه أكثر من سواء .

وهذه الوظيفة يؤديها النبر عادة ، وبالتالي فان ابن جني قد أشار هنا بخصوص الهمزة الى ما نعتيه في اللسانيات الحديثة بالوظيفة التباينية . فإذا فهمنا الهمز على أنه نوع من أنواع النبر اتضح لنا لماذا كان الهمز شائعاً في بعض لهجات العرب دون بعضها الآخر ، ولماذا رفض الرسول (ﷺ) أن يخاطبه أعرابي «يا بني» الله لأن الهمز لم يكن شائعاً في لهجة قريش (١١٢) . وبما أن هذا هو حال الهمزة ، فما حقيقة وجودها في أسماء الفاعل مثل (قاتل) و (بائع) ؟

من المعلوم أن عين اسم الفاعل تكون متبوعة دائماً بكسرة ، أي بمصوت قصير اصطلاح على تسميته بالكسرة ، مثل (قاتل ، مانع ، طالع ، الخ . . .) . الا أن أسماء الفاعل التي اشتقت من أصل ثنائي أو معتل لا يوجد فيها في مكان العين سوى المصوت القصير ، أي الكسرة . وبما أن الألف في اسم الفاعل قد باعدت بين فائه وبين تلك الكسرة ، صرنا نطق بالكسرة عارية عن أي صامت قبلها .

(٢٤) الخصائص ، ١٢٤/٣ - ١٢٥

(٢٥) نظر للخصائص ، ٣٨٣/١

وبناء عليه فإن ما يوجد في مكان العين من اسم الفاعل (قائل) و (بائع) هو الكسرة فقط ولا شيء سواها .
 ونستطيع أن نكتب أسماء الفاعل هذه على الشكل التالي : (قاسـل) بدلا من (قائل) و (باسـع) بدلا من (بائع) .
 لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد هنا همزة ، إلا أن وجودها ليس ناشئا عن انقلاب الواو في (قاول) أو انقلاب الياء في (بائع) ، بل يرتبط بما ذكرناه سابقا عن خصائص الهمز فالمهمزة تقوم هنا بوظيفة الفصل بين مصوتين متتابعين : الألف الطويلة والكسرة القصيرة . والسبب الثاني لوجود الهمزة هنا هو أن المرء لا يستطيع لأسباب فيزيولوجية أن ينطق بالمصوت لوحده عاريا عن أي صامت قبله دون أن يبدأ بنطق الهمزة . فلا نستطيع نطق ألف قصيرة (فتحة) ولا طويلة لوحدها دون أن نبدأ بنطق همزة في أولها ، والشيء نفسه ينطبق على الواو والياء سواء أكانتا حرف مد أو حركة قصيرة . هذا يفسر ما قلناه آنفا عند الحديث عن أصل الواو الصامتة في (قُول) والياء الصامتة في (بَيْع) ، إذ أن هذين الصوتين ليسا سوى ضمة بعد تسهيل الهمزة الإلزامية التي في أولها بالنسبة للواو ، وكسرة بعد تسهيل الهمزة الإلزامية التي في أولها بالنسبة للياء . لذلك نستنتج أن الهمزة التي توهمها الصرغون في عين اسم الفاعل ليست في حقيقة الأمر سوى المصوت القصير غير المسبوق بحرف صامت ، ووجود الهمزة تابع لوجود ذلك المصوت وليس نتيجة انقلاب عن واو أو ياء لا وجود لها أصلا . ولتوضيح هذه الفكرة أكثر سوف نقوم بالتجربة البسيطة التالية :

نأخذ اسم الفاعل (قائل) ونحلله إلى الوحدات الصوتية التي يتألف منها نسجه الصوتي : قاتل = صامت (قاف) + مصوت طويل (الف) + صامت (قام) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) ولو أسقطنا الآن من هذا التسج الحرف الصامت الذي في موقع العين ، أي التاء ، فإن مايتبقى هو تيلما اسم الفاعل (قائل) :

صامت (قاف) + مصوت طويل (الف) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) = قاسـل = قائل .

ونستطيع إجراء مثل هذه التجربة على كلمات أخرى ، مثل : (قابل) باسقاط الياء أو (قاحل) باسقاط الحاء ، وسوف نحصل على نتيجة مماثلة .

والأمر نفسه يصح في اسم الفاعل (بائع) . فلو أخذنا اسم الفاعل (بارع) وأسقطنا حرف الراء من موقع العين مع الإبقاء على الكسرة التي لحقت بالراء ، فإن مايتبقى هو بالضبط اسم الفاعل (بائع) ، أي (باسـع) . وهكذا يتضح بكل جلاء أن أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) هي نُسخ صوتية خلا موقع العين فيها من حرف صامت وبقيت الكسرة لوحدها في موقع العين ، وهي الكسرة التي تلحق عادة عين اسم الفاعل في غير المعتل .

ذكرنا آنفا بأن الهمزة صوت مهموس عند بعض علماء الأصوات في العصر الحاضر وغير مجهور ولا مهموس عند فريق آخر ، لكنها على أي حال ليست مجهورة . لماذا إذن وقع علماء الصرف العرب في الخطأ حين عدوها مجهورة ؟ أغلب الظن أن سبب ذلك يعود إلى ماذكرناه من طبيعة الهمزة التي يرتبط نطقها غالبا بنطق المصوتات . وبما أن المصوتات مجهورة ، فإن نطقها قد أثر في نطق الهمزة فبدلت لم هي الأخرى مجهورة . وهذا ماسهل عليهم القول بإمكانية انتقالها عن المصوتات كما رأينا . ويستطيع كل إنسان أن يتفحص بنفسه الجهر والهمس في أي صوت لغوي يشاء . إذ يكفي أن يضع المرء إبهامه وسبابه على عقه حول منطقة الأوتار الصوتية ، فإذا شعر باهتزاز الزريرين كان الصوت مجهورا ، وإلا كان مهموسا . ولو جرب أن ينطق بإحدى كلمتي (قائل) و (بائع) لشعر بكل وضوح باهتزاز

الوترين الصوتيين في موقع العين ، مما يقدم دليلاً إضافياً على أن عين (قائل) و (يائع) عبارة عن مصوت قصير مجهور هو الكسرة .

رابعاً : استنتاجات

لقد تطرقنا في سياق هذا البحث إلى أمور عديدة ومختلفة . وفيما يلي سوف نرى ما يترتب عليها بالنسبة لعلم النحو العربي :

أولاً : ذكرنا بأن الفتحة التي تلحق بنهاية الفعل الماضي في (قَالَ) و (يَأْخُذُ) ليست حركة اعراب أو بناء ، بل هي دال على مدلول هو الافراد والتذكير ، مثلاً أن ألف الثانية هي دال بدورها ، ومدلولها التثنية والتذكير . ويترتب على ذلك بأن قول النحاة في اعراب (قَالَ) : «فعل ماضٍ مبني على الفتح» قول لا سند له ، لأن هذه الفتحة في نهاية الفعل غير الفتحة التي تلحق بآخر الاسم . وما يصدق على الفتحة هنا يصدق على جميع الحركات التي تلحق بآخر الفعل في اللغة العربية . ان فكرة البناء والاعراب في الأفعال لا تشير إلى أي وظيفة ، اذ مامعنى أن نقول بأن الفعل الماضي مبني على الفتح أو السكون أو أن الفعل المضارع مرفوع بالضم أو منصوب بالفتحة ؟ ان مثل هذا الكلام لا يقود إلى شيء مادام لا يشير إلى الوظيفة التي تؤديها الضمة أو الفتحة ولا إلى الوظيفة التي قد يضطلع بها الأعراب أو البناء في الأفعال . كذلك فإن قول النحاة أن الفعل المضارع فعل معرب قول غير صحيح ، لأن الاعراب يعني الرفع والنصب والجر . لكن الفعل المضارع لا يكون مجروراً بالكسرة أبداً وكذلك لا يكون منوناً ، وبالتالي إن الاعراب والبناء صفتان تختصان بالأسماء دون الأفعال ، ولابد إذن من البحث عن المدلولات التي تحملها الحركات عندما تلحق بأواخر الأفعال .

فأما الفعل الماضي فلا تلحق به الفتحة إلا عند استناده إلى الشخص الغائب ، وقد تعرفنا على المدلول الذي تحمله تلك الفتحة . وفيما عدا ذلك فإن السكون هو الصفة المميزة لآخر الفعل الماضي عند استناده إلى الشخص المتكلم أو الشخص المخاطب .

وأما الفعل المضارع فيكون على حالات ثلاث : فلما أن تلحق الضمة بآخره ، كقولنا (يقولُ) و (يضربُ) ، ولما أن تلحق الفتحة بآخره ، كقولنا (أن يقولَ) و (أن يضربَ) ، أو أن يكون آخره ساكناً كما في حالة الجزم (لم يقلْ) و (لم يضربْ) .

يقول النحاة بأن الفعل المضارع يكون مرفوعاً إذا تجرد عن الناصب والجارِ . ويترتب على هذا الكلام أن الحالة الطبيعية للفعل المضارع هي الرفع ، وأن النصب والجر هما حالتان طارئتان على الفعل المضارع . لكن مثل هذا التحليل يسقط من حسابه أي وظيفة يمكن لهذه الحركات أن تشير إليها أو أن تؤديها . والأولى بنا أن نبحث عن هذه الوظائف وتلك المدلولات التي تحملها كل حركة ، فهذه الحركات ليست في حقيقتها إلا دوائر تدل على مدلولات محددة . ولو أمعنا النظر قليلاً في حالة المضارع المرفوع لوجدنا أنه يدل باستمراراً على «التقرير والاثبات» شرط ألا تلحق به (قد) التي تفيد التوقع . فقولنا «رأيت محمداً يذهب إلى السوق» فيه تقرير واثبات لحادث معين دون ربطه بأي شيء آخر . أما في قولنا : «قلت لمحمد أن يذهب إلى السوق» فهذا يعني أن الفعل لم يقع بعد ، وليس هناك

ما يؤكد وقوعه مستقبلا ، أي أنه مازال معلقا بطرؤف مستقبلية . ولذلك نقترح إطلاق صفة «التعليق والاستقبال» على حالة الفعل المضارع المنصوب . وتنطبق هذه الصفة على المضارع المنصوب بأن أولين أو باللام سواء أكانت لتعديل أم للوجود .

فكل هذه الحالات تفيد معنى التعليق والاستقبال لحدث معين . أخيرا فإن السكون الذي يلحق آخر المضارع يفيد معنى عدم وقوع الفعل أو الحدث الذي يدل عليه الفعل . وسواء جاء الفعل بعد أدوات النفي أو بعد لا الناهية فإن السكون يشير هنا إلى امتناع حدوث الفعل . ولذلك نقترح إطلاق صفة «الامتناع» على الفعل المضارع إذا لحق بآخره السكون .

ويترب على هذه النظرة إلى الحركات التي تلحق بالفعل المضارع أمران هاما : أولهما أن النصب والجزم في الفعل المضارع ليسا ناشئين عن أدوات يسمونها أدوات النصب والجزم ، بل عن الوظيفة التي يراد للفعل أن يؤديها في الجملة . فالصفة في آخر الفعل هي دال ومدلوله التقرير والاثبات ، والفتحة هي دال ومدلوله التعليق والاستقبال ، والسكون هو أيضا دال ومدلوله الامتناع . وإذا كنا قد توصلنا إلى ذلك مستعينين بالمعطيات التي وفرتها اللسانيات الحديثة ، فإن بعض القدماء قد توصل إلى ذلك ولكن دون تمكنهم من تقديم برهان على ذلك . ففي معرض حديث ابن جني عن نظرية العامل شكك بالعوامل اللفظية والمعنوية وانتهى إلى القول : «فأما في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعامل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لاشيء غيره»^(٢٦) . والفرق بين مآثره - ابن جني وبين مآثرناه أن ابن جني قد نسب ظهور الحركات الاعرابية إلى المتكلم ونسبناها نحن إلى الوظيفة التي تؤديها في القول . أما النتيجة فواضحة .

وعندما جاء ابن مضاء القرطبي بعد ذلك بقرنين استند إلى كلام أبي الفتح ابن جني واتخذ موقفا مماثلا في كتاب «الرد على النحاة» فقال :

«وقصدى من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمع على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض والجزم لا تكون إلا بعامل لفظي وذلك بين الفساد . وقد صرح بخلاف ذلك ابن جني وغيره»^(٢٧) . لكن ابن مضاء اكتفى بأن نفى فكرة العامل بادلة عقلية ومنطقية دون أن يشرح الوظيفة التي تؤديها تلك الحركات . والأمم الثاني أن تسمية الفعل المضارع لاتشير إلى الوظيفة أو الوظائف المنوطة بهذا الفعل في الجملة ، علاوة على كونها غير صحيحة . إن تسمية الفعل الماضي تشير إلى الزمن الذي يقع فيه الفعل ، لكن تسمية المضارع علاقتها بمسألة زمن الفعل لا من قريب ولا من بعيد ، أي أنها لاتعبر عن الوظيفة المنوطة بهذا الفعل . ثم إنها تسمية غير صحيحة لأن المضارع لا يضارع غيره في شيء . لقد أطلق النحاة على الفعل المضارع هذه التسمية لاعتقادهم أنه يضارع الاسم - وربما اسم الفاعل بالذات - في حركات الاعراب . وقد رأينا أننا أن الحركات التي تلحق بآخر الفعل ليست حركات اعرابية كالحركات التي تلحق بآخر الاسم . مثل «كتاب» و«كتاباً» و«كتاب» ، بل هي دوال على مدلولات وظيفية محددة . وبالتالي فإن تسمية هذا الفعل بالمضارع أمر يحتاج لإعادة النظر فيه . لكن هذه التسمية تشير إلى الأساس غير الوظيفي الذي قام عليه النحو العربي منذ بدايته ، وكنا قد أشرنا إليه في بحث سابق^(٢٨) . وهو أن النحو العربي قد قام في الأساس لضبط حركة أواخر الكلام عندما بدأ اللحن يتقش على الألسنة

(٢٦) المحاسن ١٠٩/١ - ١١١

(٢٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ، ص ٨٥ .

(٢٨) انظر مجلة المشرق العربي ، المجلد رقم ١٠٦ تاريخ ١٩٨٧/١٢ بعنوان : «سوك وإلما القوي» ، ص ٦٧ ويلقبها .

الموالي من غير العرب في البلاد التي خضعت للحكم الاسلامي ، وذلك خوفا من ضياع اللغة العربية في تلك الاقطار ونخشة من وقوع القرآن الكريم تحت طائلة التحريف والتزوير . ولقد نزل القرآن بلغة معربة يرتبط فيها مدلول الكلمة داخل الجملة بحركتها الاعرابية . فاذا تثيرت الحركة تغير المدلول . واذا كان ذلك الحافظ لحركة تعقيد اللغة العربية أمرا مقبولا في البداية ، الا أنه شكل فيها بعد عائقا أمام فهم صحيح لطرائق وآليات عمل هذه اللغة ، وهو أمر مازلنا نعاني منه حتى اليوم .

ثانياً : ذكرنا أن مصوت الألف يدل في الفعل الأجوف والناقص وكذا في اسم الفاعل على الشخص الغائب ، أي أن مصوت الألف هنا هو بمثابة دال على الفاعل . لكن هذا يتعارض مع فكرة أساسية في النحو العربي هي فكرة الضمير المستتر . لقد دأب النحاة على أن يعربوا (قَالَ) بأنه وفعل ماضٍ مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو في محل رفع فاعل . ومادام لدينا دال بارز ومنطوق على الفاعل هو مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل ، فما حاجتنا إلى دال لاتراء ولا نلمسه وإننا نفترض وجوده افتراضاً . لكن نفي فكرة الضمير المستتر يفرض علينا الاجابة عن بعض الاسئلة المتعلقة بمواضع الضمير المستتر الأخرى :

١ - كان مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل هو الدال على الفاعل في الفعل الأجوف والناقص ، فما هو الدال على الفاعل في الفعل الماضي البصحيح إذا أسند إلى ضمير الغائب ؟

٢ - ماهو الدال على الفاعل في بعض مواضع الفعل المضارع حيث يقول النحاة بوجود ضمير مستتر ؟

بخصوص الفعل الصحيح مثل (صعدَ وضربَ) يبدو للوهلة الأولى أن لادال على الشخص الغائب لأن لواحق الفعل عند إسناده إلى الشخص الغائب لاتدل الا على العدد والجنس . فما هو الدال على الشخص إذن ؟ والجواب هو والدال صفر . والدال صفر بالمفهوم اللساني الحديث يعني خلو إحدى الصيغ من دال منطوق بالمقارنة مع صيغ أخرى تشتمل على دال خاص بها . فإذا كانت صيغ الفعل الماضي تشتمل على دال على الشخص عند إسناده إلى ضماير المتكلم والمخاطب ، وهو الدال المتمثل باللواحق ، فإن خلو صيغة الفعل الماضي من دال خاص بها عند إسناده إلى الشخص الغائب هو دال بحد ذاته ، وهذا مايسمى بالدال صفر . وهنا قد يرد إلى الذهن الاعتراض التالي : ماالفرق إذن بين أن نقول بالدال صفر أو بالضمير المستتر ، مادام الدال على الشخص الغائب غير موجود في الحالتين . والجواب على ذلك أنه اختلاف من حيث المبدأ . فالقول بالضمير المستتر يعني القول بوجود شيء غير موجود أصلاً ، أما القول بالدال صفر فهو إقرار بعدم الوجود ، ومن ثم اعتبار عدم الوجود هذا دالاً بحد ذاته .

أما بخصوص الفعل المضارع فإن النحاة حددوا مواضع الضمير المستتر كما يلي :

- ١ - عند اسناد الفعل إلى ضمير المتكلم .
- ٢ - عند اسناده إلى ضمير المخاطب للمفرد المذكور .
- ٣ - عند اسناده إلى ضمير الغائب المفرد . وواضح من هذا التحديد أن النحاة ينظرون إلى مانعته لواحق الفعل على أنها دوال على الفاعل ، ولذلك أطلقوا عليها اسم ضماير الرفع المتصلة . وعند خلو الفعل من هذه اللواحق ، افتراضوا وجود ضماير اسندوا إليها وظيفة الدلالة على الفاعل . أما بواجب الفعل التي جمعوها في «أنت»

أو «نأيت» فإنهم اعتبروها من علامات الفعل المضارع واطلقوا عليها لذلك اسم «حروف المضارعة» (كذا) . لكننا سترى بعد قليل أن حروف «أنيت» هذه هي دوال حقيقية على الفاعل في الفعل المضارع ، وأن لواحق الفعل التي اعتبروها ضمائر رفع ليست في الواقع أكثر من دوال على العدد والجنس ، أي أنها تشارك البواديء في الدلالة على الفاعل .

لنعد إلى إسناد الفعل إلى ضمائر الرفع الذي وضعناه في القسم الأول من هذا البحث ، وسوف نسجل الملاحظات التالية :

١ - يمتاز الفعل المضارع على الفعل الماضي باشتغاله على بواديء ولواحق ، بينما خلا الفعل الماضي من البواديء .

٢ - أن بعض صيغ تصريف الفعل المضارع تخلو من اللواحق وتكتفي بالبواديء ، مثل : تَضْرِبُ بالمقارنة مع تَضْرِبُ/ين ،

٣ - أن اللواحق تلحق بالفعل المضارع لمنع اللبس عندما تشابه البواديء بحيث لا تستطيع الدلالة على العدد والجنس ، مثل تصريف المضارع مع ضمائر المخاطب .

إن البادئة (أ . .) في (أَقُولُ) و(أَضْرِبُ) هي اختصار واضح وصريح من ضمير الرفع (أنا) ، وهي تدل على الشخص والعدد ولا تحتاج بالتالي إلى لاحقة إضافية . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البادئة (ت . .) في (تَقُولُ) و(تَضْرِبُ) ، إذا أنها صيغة مختصرة من ضمير الرفع (نحن) . أما عند إسناد الفعل المضارع إلى الشخص المخاطب فيلاحظ أن جميع صيغ تصريف الفعل هنا تشترك ببادئة واحدة هي (ت . .) مما استوجب وجود لواحق تدل على العدد والجنس ، أي أن البادئة (ت . .) تدل على الشخص المخاطب بينما تدل اللواحق على العدد والجنس . وقد شملت عن هذه القاعدة صيغة واحدة من صيغ المخاطب هي صيغة المفرد المذكر ، حيث خلت من لاحقة تدل على العدد والجنس . وهنا يمكن القول أن الدال صغر يدل على العدد والجنس بالمقارنة مع بقية الصيغ التي اشتملت على لواحق خاصة تدل عليها . ولا حاجة للتذكير أن اللاحقتين (. .ان) و(. .ون) تدلان بالترتيب على الثنية والجمع ليس فقط في الفعل المضارع وإنما في الأسماء أيضا ، مثل (كاتبان) و(كاتبون) . كذلك يدل المصوت الطويل ، أي الياء في اللاحقة (. .ين) على المؤنث المفرد ، مثل (تضربين) ، وهي موجودة أيضا في الضمير المنفصل (أنيت) وفي الضمير المتصل (كيت) وفي الضمير الإشاري للمؤنث (اسم الإشارة) ، أي - (هذي) و(هذه) . ويرى هنري فليش أن الضمير (أنيت) كان قديما (أنيتي) والضمير (كيت) كان قديما (كي) وأن الكسرة الطويلة (الياء) هنا هي بالتالي من مخلفات اللغة القديمة^(٢٤) .

عند إسناد المضارع إلى الشخص الغائب نلاحظ وجود نوعين من البواديء :

(٢٥) . تدل الغائب المذكور و(ت . .) تدل على الغائب المؤنث :

وعند أمن اللبس أمكن استعمال البادئة (ت . .) لجمع الاناث ، مثل (يضرين) و(يأتين) ، وأيضا بهدف التفريق بين الغائب والمخاطب .

(٢٤) هنري فليش : العربية النحوية ، ص ٢٠ و ص ١٣٦ .

بقي أن نشير إلى أن التشابه القانوي بين صيغة المخاطب المفرد المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المتني المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المتني المذكر وبين صيغة الغائب المتني المؤنث يعود إلى المنشأ المختلف للبادئة (تـ . .) في كل حالة . ففي حالة المخاطب يبدو أن التاء مشتقة من ضبائر الرفع للمخاطب التي لا يخلو واحد منها من حرف التاء . أما في حالة الغائب فهي علامة للتأنيث ، لآسيا أن دلالة التاء على التأنيث أمر شائع ومعروف في اللغة العربية .

نستنتج مما تقدم أن بواىء المضارع ليست علامات للمضارع ، لانه لا يحتاج إلى مثل هذه العلامات . ويكفي المرء أن يقارن النسخ الصوتي لجذر المضارع مع النسخ الصوتي لجذر الماضي حتى يميز الأول عن الثاني . فـجذر الماضي من فعل (ضرب) هو (ضرب) بعد حذف البواىء والواو .

ويستطيع المرء بنظرة واحدة أن يدرك اختلاف المصنوتات بين الجليدين ، مما يكفي معه للتعرف على جذر كل منها . وقد أشار ابن جني إلى ذلك في «الخصائص» اذ اعتبر أن اختلاف المصنوتات بين صيغتي الماضي والمضارع هو بمثابة تعبير عن زمن كل منهما :

وذلك أنه قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة المضارع ، اذ الغرض في صيغ هذه المثل إنها هو لإفادة الأزمنة ، فجعل لكل زمن مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد الخلاف كانت في ذلك قوة الدلالة على الزمان .

فمن ذلك أن جعلوا بازاء حركة فاء الماضي سكّون فاء المضارع ، وخالفوا بين عينيها .

فقالوا : ضرب يضرب ، وقتل يقتل ، وعلم يعلم^(٣١) .

لكن النجاة اعتمادوا الشكل المكتوب في تقرير ذلك ، وهو الشكل الذي لا تظهر فيه المصنوتات القصيرة (الحركات) ، لذلك راحوا يقتشون عن علامات تدركها العين لا السمع ويجدوهم في بواىء الفعل لعدم ورودها في صيغة الماضي واعتبروها من علامات المضاربة . ولو أنهم اعتمادوا الشكل المنطوق لادركوا اختلاف المصنوتات بين صيغة الماضي وصيغة المضارع . وأغلب الظن أنهم لم يأخذوا بفكرة جذر الفعل للسبب نفسه ، أي اعتمادهم الشكل المكتوب دون المنطوق ، حيث أنه لا فرق في الكتابة بين الجليدين في الفعل الصحيح . ولو أنهم فعلوا ذلك لغتشوا لبواىء الفعل المضارع - عن وظيفة غير التي ظنوها ، أي وظيفة الدلالة على الفعل المضارع . كما أن هذا الاعتبار أوقعهم في التناقض . فبما أنهم اعتبروا البواىء مجرد علامات للمضارع أصبحوا مضطرين للتفتيش عن الدوال على الفاعل في الواو ، ولم يفعلوا إلى أن بعض هذه الواو موجودة في الأسماء أيضا ، مثل (. . ان) التي تدل على التثنية و (. . و) التي تدل على جمع المذكر . وبدلا من أن ينسبوا إلى وظيفة الأصلية ، وهي وظيفة الدلالة على العدد ، نسبوا إليها وظيفة جديدة هي الدلالة على الفاعل .

وهكذا اعتبروها في الأسماء مجرد حروف ، بينما اعتبروها في الأفعال ضبائر رفع متصلة .

وتلخيصا لما تقدم نستطيع أن نقول أن بواىء الفعل المضارع تشترك مع لواحقه في الدلالة على الفاعل . والدال على الفاعل في قولنا (يكتبون) هو البادئة (يـ . .) بالاشتراك مع اللاحقة (. . و) . ولو أردنا تجريد هذا الدال

عن جذر الفعل حصلنا على دال مركب من جزأين منفصلين : (يـ . و) . وتسمي اللسانيات الحديثة هذا النوع من الدوال «الدال المنقطع» أي أن (يـ) تمثلان الدال المنقطع للمتلول «غائب جمع مذكرة»^(٣١) . وإذا نظرنا إلى بوايد الفعل ولواحقه على هذه الصورة أي باعتبارها دوال على الفاعل ، انتفت حاجتنا إلى افتراض وجود ضائر مستمرة مقدرة تقليدا ، عما يخرج بالنحو العربي من دائرة الغيبيات إلى دائرة الموجودات .

ثالثا : ذكرنا بأن هناك متوالية اشتقاقية هي :-

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

وتعني هذه المتوالية أن جذر المضارع قد اشتق من جذر الماضي وأن الاسم قد اشتق بدوره من جذر المضارع ، هذا يعني أن الماضي أسبق من المضارع وأن الفعل أسبق من الاسم . إلا أن مثل هذه النتيجة تخالف ما هو شائع لدى أكثر علماء العربية الذين رأوا أن الاسم سابق على الفعل في الزمان وسموه لذلك مصدرا وأن المضارع سابق على الماضي .

ولا شك أن بعض الأسس غير الصحيحة التي بنوا عليها آراءهم قد قادت إلى تلك النتائج الخريبة . إن التعرف على حقيقة الأسبقيات في اللغة يعني اكتشاف الآليات الصحيحة التي تعمل اللغة بموجبها .

ولقد كشفتنا بما لا يدع مجالا للشك كيف اشتق جذر المضارع من جذر الماضي وكيف اشتق الاسم بدوره من جذر المضارع . ويؤكد هذا الاكتشاف من جديد أن علماء العربية القدامى قد جانبوا الصواب في بعض ما ذهبوا إليه ولم يتوصلوا دائما إلى الآليات الحقيقية التي تعمل داخل اللغة . على أننا نجد سندنا قويا لدى ابن جني فيما ذهبنا إليه ، إذ توصل أبو الفتح إلى النتائج نفسها التي توصلنا إليها ، وإن كان عن طريق مختلف ، وذلك بفضل ما كان يتمتع به هذا الرجل من نظر ناقب في شؤون اللغة ونظرة علمية تقترب كثيرا من نظرة اللسانيات الحديثة إلى اللغة . لقد ذكر في «الخصائص» تحت عنوان «باب في هذه اللغة : أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ؟» ما يلي :

ولإن قلت :

هلا ذهبت إلى أن الأسماء أسبق رتبة من الأفعال في الزمان ، كما «أنها أسبق رتبة منها في الاعتقاد ، واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت إليه ، إذ كان الواجب أن يبدووا بالأسماء ، لأنها عبارات عن الأشياء ، ثم يأتوا بعدها بالأفعال التي بها تدخل الأسماء في المعاني والأحوال . . . ؟ قيل يمنع من هذا أشياء :

منها وجود أسماء من الأفعال ، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، ألا تراه يصبح لصحته ويعتل لاعتلاله ، نحو ضرب فهو ضارب ، وقام فهو قائم . . . فإذا رأيت بعض الأسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز أن يعتقد سبق الاسم للفعل في الزمان ، وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه . . . ولأيضا فإن المضارع يحتل لاعتلال الماضي ، وإن كان أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضي^(٣٢) . وما يؤسف له حقا أن كثيرا من آراء ابن جني التي خالف بها علماء اللغة ممن سبقوه لم يأخذ بها المتأخرون ممن جاءوا بعده ، مع أنه أصاب بها كبد الحقيقة . ولو أن المتأخرين فعلوا ذلك لوفروا علينا عنه كثيرا وحالوا دون تقهقر اللغة الفصحى أمام العاميات في المصور التالية .

(٣١) بديهي اللسانيات الحديثة ، ص ١٠٠ .

(٣٢) الخصائص ٣٢/٢ - ٣٤ .

تمهيد :

يتجه البحث في هذا المقال إلى المجاز والاستمارة ، بوصفها عنصرين من عناصر التطور الدلالي ، وطرق تحول المعاني . ولا بد هنا من تأكيد مذهبنا إليه في بحوث سابقة من التفريق بين نوعين من الاستعمال المجازي ، أحدهما فني يثير في المتلقي هزة انفعالية ، ويحث إعلاء ولغة شعرية ، والآخر ، وبعضه كان من النوع الأول ، لكنه لطول الاستعمال والتكرار على مدى زمني طويل فقد تألفه الفنى ، وانضم إلى رصيد اللغة المعجمي ، وفارق المعجم الشعري الحى ، وغدا بذلك مجازا زائفا ، وبعضه الآخر لم يهدف مستعملوه إلى تحقيق ذلك التأثير الفنى أصلا ، إنما وضع أساسا بوصفه نقلا غير تصويري ، وذلك للوفاء بمتطلبات التسمية المعرفية *La nomination Cognitive* نحو قولنا (رجل الكرسى) ، و(عق الزجاجة) ، و(الخرطوم) دلالة على الأنبوب المطاطي المستعمل في نقل المياه ، و(عين الباب) و(رأس الجبل) وغير ذلك . والأمثلة على هذا النوع الأخير كثيرة ، وهي تمثل مبدءا من مبادئ التطور اللغوي في معظم اللغات الحية . وقد تنبه إلى هذا كثير من الدارسين في القديم والحديث ، في لغتنا وفي غيرها من اللغات المعروفة .

ونجد الإشارة هنا إلى أن هذا المقال مخصص لرصد ذلك الجزء من التحول المجازي من النوع الذى كان فنيا ، ثم غدا أسلوبا لغويا ، لأن بين هذين الحدين ضروريا شق من تطور اللغة عبر المجاز . أما الأمثلة التى كانت مدار البحث والتحليل فهي مستمدة من مجموعة مختارة من الشعر العربى الحديث الذى يمثل مدرسة الإحياء والتراث واستنادهما ، ولاسيما في مصر والشام ، ولا شك في أن النظر المتعمق في (مستوى) الشعر العربى الحديث اللغوى يصبح كثيرا من

صورتين تطور لفة الشعر العربي
الحديث عن طريق المجاز

أحمد محمد قنديل

١٩-

المجازية ، يتجلى في صوغ الصفة «سيفان» للدلالة على الرجل الممشوق كالسيف^(١) . إضافة إلى الاشتقاقات الفعلية الأخرى .

وإن استمداد كثير من الصور المجازية القديمة ، وتوظيفها في الشعر الحديث ، كان موضع نقد ، إذ اتجه النّظر إليها لدى بعض الدارسين بحسب معايير الجدة والتقليد ، لتسويج الهجوم على كل تقديم إلى درجة الامتنان والابتدال^(٢) .

وإنّخذ البحث لدى بعضهم الآخر صورة الانتقاد الساخر ، فيازيون عيود يقف عند بناء الصورة في شعر الأخطل الصغير ، ويتناول بعض الدلالات المجازية ، نحو : «الليث والنسر والسيف» ، ويعيب الشاعر على استعمال الأساليب العربية القديمة والمجازات العامة المبتللة^(٣) .

وقد فأت هؤلاء التفريق بين المجاز الذى يعد في الأساليب المجازية للغة والمجاز الفني الذى يدرس في نطق الصورة ، ويقوم على أساس الجدة والابتكار أو الاحتذاء والتقليد .

والأجدى عندنا هو تحليل المجاز من خلال العلاقة بين الشعر الحديث والشعر القديم ، وخصوصية الشعر من جهة ، ومن خلال التجربة الإنسانية الضاربة في القدم من جهة أخرى .

المجازية ، كالبلبل «الشاعر» ، والوتر «الشعر والفن» ، والنسر «الشاعر» . . .

أما الاتجاه الثاني - من اتجاهات التطور ههنا - فمختص بالتطور اللغوى الدلالي «الحقيقي» وفيه تفقد المجازات معظم قدراتها الإيجابية ، وتغفل دلالات لغوية تضاف إلى رصيد المنجم .

وتتسع العربية لضروب من الاشتقاقات المتحدرة من كلمات شاعت دلالتها المجازية . ونضرب أمثلة قليلة - ههنا - على أن نتخذ مواضعها في الأجزاء التطبيقية لاحقاً ، فالحبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد^(٤) ، وتتولى أمه البليّة رعايته والدفاع عنه ، ومن هنا جاء تشبيه المرأة التي تعطف على أولادها ، وتصير على تشتتهم بعد فقد الأب بالبليّة التي ترعى أشبالها وتدافع عنهم . وقد رافق هذه الدلالة المجازية تطور اشتقائي (من اسم إلى فعل) ، فقيل : أشبلت فلاتة بعد بملها : صيرت على أولادها . . .^(٥)

ونعرض مثالا آخر هو كلمة «ذئب» التي تدل على حيوان له صفات مشهورة نحو : الحسة والغدر والحيل . ومن المجاز الشائع تشبيه الإنسان بالذئب إذا خيبت ، وقد رافق التطور المجازى ظهور اشتقاقات من الاسم «ذئب» إلى الفعل مجرداً وزيداً . فيقال : ذئب فلان ذابة : خيبت كالذئب ، وتذأبته الريح : أثته من كل جانب فعل الذئب .^(٦)

وهناك ضرب من الاشتقاق في دلالة «السيف»

(٣) لسان العرب ، ١١ / ٣٥٢

(٤) لسان البلاغة ، ص ٢٢٨

(٥) المعاصر السابق ، ص ١٤٠

(٦) لسان العرب ، ٩ / ١٦٦ - ١٦٧ ، ولسان البلاغة ، ص ٢٢٧

(٧) جبران خليل جبران ، القيد والطاف ، ص ٤٩

(٨) عيود ، مازون ، حل للطق ، دار الثقافة ودار مازون عيود ، بيروت ، ط ١ ، رابعة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠ - ٤٥ ، ٨٩

علدا من المجازات التي تتحول إلى رموز دينية وصوفية ، نحو الشمس ، والأسد والصخرة ، والنمر ...^(١٥)

وفي الجوانب الدلالية للدكتور فايز الداية مواضع متعددة حللت فيها مجازات وتشبيهات سائدة تصلح دليلا على اشتراك العربية واللغات الأجنبية في كثير من الأساليب المجازية ، نحو : الكلب ، والثعلب ، والذئب ، والحزير .^(١٦)

ويجد شيوخ هذه المجازات لدى الشعراء المعاصرين تفسيرا يربط الشعر العربي ، حليته بقدمه ، ويدوان الصلة بين الشعر الحديث والقديم هي التي كانت تزيد في اعتياد الشعراء على محفوظهم ، واستمداد الصورة القديمة ، واعتادهم عليها اعتيادا كبيرا .

فالشعر يعتمد إلى حد بعيد على التعلم ، وعلى شعر سابق ، كما أنه يمتد تاريخيا في ثقافت متنوعة ، وغالبا ما تستعمل الكلمات في الشعر لتستدعي استمالاتها الشعرية السابقة ، ومن الطبيعي أن يؤلف شعر حضارة من الحضارات نظاما دلاليا ومجازيا متناسكا^(١٧).

إن لغة الشعر - باختصار - نط من اللغة الأدبية يعتمد الدلالة المجازية ، والعلاقات السياقية ، ويشكل التاريخ الثقافي عامة ، والاستعمال الشعري خاصة أساسا للغة الشعر الرمزية .

فالمجازات التي عاها مارون عبود وإيليا حاوي وعصبة الشعراء^(١٨) وغيرهم على الأعتل الصغير^(١٩) لا يمكن أن تقتصر على الدلول الضيق للكلمة ، وعلى الرغم من أنها مستعملة من عصر سالف غير عصرنا فقد أصبحت تعني معنى عاما ، هو بمثابة الرمز لمعان متعددة ، مثل القوة والعنف والبأس ، وإن استعمال الشاعر كلمة «قتيلة» أو «مدفوع» عوضا من السيف أو الرمح في هذا المجال لا يغير من حقيقة المعنى شيئا ، وبالتالي لا يضيف عليه صفة الجلبة والطراقة إن لم يسو إليه . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأسد ، وهو التشبيه القديم ، فالأسد مازال رمزا للباس في ذهن البشر برغم تقدمهم الملمى في وسائل التذك^(٢٠) .

وقد تبه عدد من الدارسين والنقاد إلى صيرورة عدد من الصور القديمة رموزا ومجازات لقوة ، وتشبيهات سائدة ، فالفيلسوف «هيجل» يميز بين التطور الدلالي والاستعمال للمجازى ، والرمزى . يقول : «... وشيء آخر أمر الدلالة المستعملة كرمز ، فالأسد على سبيل المثال يعتبر رمزا للشجاعة ، والثعلب رمز للمكر ، والدائرة رمز الأبدية...»^(٢١) و«صورة الأسد لاستتغفر فينا لقط للمنى الذى لها من حيث هي رمز - البطل - بل تقدم كذلك للموضوع نفسه في وجوده الحسي»^(٢٢) .

ويرصد صاحبنا نظرية الأدب - واوين وويليك -

(١٥) تيسية ، د . طبع بمحمد ، الأعتل الصغير ، حيكه وشعره ، ص ٣٢٠ - ٣٢٥ .

(١٦) جعفر الأتار إلى أن استعانتا شعر الأعتل الصغير أساسا للتطبيق ، وقد أخصصنا جميع المراجع المتعلقة بهذا الجلب في شعره إضافة إلى أمثلة أخرى اختزلنا من الدواوين وكتب الأدبية والقافية .

(١٧) الدلائل ، د . طبع - نقد الشعر العربي ، ص ١٧٢ - ١٧٥ .

(١٨) (١٧) هيجل ، الفن الرمزي ، ص ١٢ - ١٤ .

(١٩) واين ويويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٥ - ٢١١ .

(٢٠) (١٥) تيسية ، د . طبع - الجرب الدلالية ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢١) هو ، فرائد ، طبع في نقد ، ترجمة يحيى الدين يحيى ، للنشر الأمل لجمعية نقدون والأدب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م ، ص ١٢٤ .

ويسلك بحث المجاز - ههنا - خطين متعاكسين ، الأول : من الحقيقة إلى المجاز ، والثاني : من المجاز إلى الحقيقة . ويكون ذلك يتبع الأصل الحقيقي الذي تطور إلى مجاز ، ويتبع المجاز الشائع الذي تطور إلى استعمال حقيقي أو معرفي .

● العلم ، العلم أصلاً : الرؤية أو الجليل ، ثم أطلقت على الرجال عن طريق المشتقة . وقد شاع استعمالها إلى درجة خدت تمد في الاستعمال اللغوي . وفي أساس البلاغة مثالان يثبتان بالأصل الحسي . يقول : « هو من أعلام العلم الخافضة ، ومن أعلام الدين الشاهقة »^(١٧) فالأعلام الأولى مأخوذة من دلالة الأعلام على « الرابطة » ، والأعلام الثانية مأخوذة من دلالة الأعلام على « الجبال » بدليل ورود الصفتين : الخافضة والشاهقة .

واستعمال كلمة الأعلام للدلالة على الرجال الأفاضل والمشهورين شائع في العربية على مدى عصور متتابعة . وغدت هذه الدلالة متداولة في كتب التراجم والسير قديماً وحديثاً^(١٨) .

وفي شعر الأخطى الصلير ترد كلمة « علم » للدلالة على الشاعر عروة صاحب عفاء : « علم الهوى من آل عذرة عروة »^(١٩) . وترد أيضاً للدلالة على أحد زعماء الكفاح الوطني الحديث : « وإله من علم في علم .. »^(٢٠) ، وقد جمع الشاعر - ههنا - بين دلالتى : علم « الرجل » ، وعلم « الراية » في نمط يدعى في البلاغة العربية بالمجاز اللغوي .

ولا يعني استعمال المجاز القديم أن الشاعر « تقليدي » غير مجدد ، فالمرء عليه - ههنا - لا يكون في استعمال هذه المجازات أو تلك - بل في سياقها ، وارتباطها بتجربة الشاعر من غير أن تبدو منبئة عنها .



ونختار أمثلة محدودة لرصد الظاهرة المدروسة ، لأن البحث يسعى إلى تقديم مادة صالحة لأن تكون أساساً لبناء أحكام صحيحة ، ولتظهر التطور اللغوي عن طريق المجاز ، دون أن يدعى الإحاطة بالجوانب الدراسية للمجاز عامة .

ولا يخفى ما لغياب الدرس التأسيسي للمجاز من أثر سلبي في دراسة الخصائص الفنية . والحاجة مازالت ماسة إلى تكاتف الجهود لإنشاء معجم شعر « صوري » يتقرب الصور المجازية من خلال تطورها التاريخي ، ويبرز الحديث منها من القديم .

ونماثل خطتنا في هذه الفقرة ما ترسمناه في الفصل الأول ، وخاصة في تقصي الأصول الحسية للدلالة ، وتمييز الحقيقة من المجاز . وعمدنا في هذا الجانب معجم أساس البلاغة للزحشرى مع مراجعات متعددة للأصول الأخرى من معاجم وكتب لغوية وبلاغية . ويوثق الجانب الحديث من خلال المعاجم الحديثة والدواوين القريبة زمنًا من الأخطى الصغير ، إضافة إلى اجتهادات مصورها الساع .

(١٧) الزحشرى ، أساس البلاغة ، ص ٣١٢

(١٨) من كتب التراجم مثلاً : والدرر للكملة في أعلام لغة الفصحى والابن حجر العسقلاني ، ودير أعلام النبلاء للعلامة الذهبي ، ومن الكتب الحديثة والأعلام لخير الدين الزركلي ، وسلسلة أعلام العربيه في مصر ...

(١٩) شعرة ، ص ٢٨٨

(٢٠) شعرة ، ص ٣١٢

مثال للشجاعة ، وقد عدَّ الإمام عبدالقاهر أمثلة من هذا المجاز في الاستمارة والتمثيل العامي لشيوعه^(٣١) .

وقد مر بنا في تضاعيف هذا الفصل ما يدل على صيرورة هذا المجاز رمزا شائعا يرتبط في أذهان البشر بمعاني القوة واليأس والاستبسال .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «أسد» في موضعين ، ففي الحديث عن شباب لبنان يرد قوله : وقضى على الأسد دهر لافضام له . .^(٣٢) ، وفي الحديث عن كفاح العراقي الحديث يرد قوله : «أسد العراق» .^(٣٣)

ويلحق بالدلالة المجازية الرمزية - ههنا - ما يتعلق بالأصل الحقيقي ، فالأسد له أماكن سكن خصصة الدلالة ، نحو «العرين» و«الغلي»^(٣٤) . وقد غدت شائعة الاستعمال بدلالاتها المجازية على «الوطن» لارتباطها بأصل المجاز «الأسد» . ولا يخفى على الدارس أن هذا الاستعمال يركز على خصيصة بارزة يشخصها أناس في مجتمع كلامي خاص بوصفها تشبيهات سائلة . ففي «الأسد» تكون السمة البارزة : الشجاعة والإقدام وبجها لوجه ، وفي «العرين» تكون السمة البارزة : للنخلة والحصى المصون من الاعتداء . .^(٣٥)

والمواضع التي وقفنا عندها في شعر الأخطل الصغير

* الشبل ، الشبل ولد الأسد إذا أدرك الصيد^(٣٦) .
وفي أساس البلاغة دلالة مجازية من هذه المادة . يقول الزعشقرى : «أشبلت فلانة بعد فعلها : صبرت على أولادها ولم تتزوج ، ومنه أشبلت عليه إذا عطفت ، وتقول : هي في إشبالها كالليرة على أشبالها»^(٣٧) .

والدلالة المجازية - ههنا - واضحة وقد رافقها تطور اشتقائي (من اسم إلى فعل) . ودلالة الشبل على ولد الأسد خصصة أصلا ، ثم انتقلت إلى الدلالة على الصغير المريج بحره ويأسه تشبيها له بأشبال الأسد .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الأشبال» بدلالاتها المجازية في حقل يضم دلالات أخرى كالأسد والعرين والفيل . . ففي الحديث عن بني حنبل ترد كلمة «الأشبال» في السياق التالي :^(٣٨)

ملاهب الصيد من حندان ماسلوا
إلا الأهلة والأشبال والتغصبا

وفي الحديث عن فتیان الأمة حديثا يرد قوله وليست من الأشبال فتية أمة . .^(٣٩)

وقوله أيضا : «أشبال ذا الوطن الجريح» . .^(٤٠)

* الأسد ، الأسد معروف ، وهو في عرف العرب

(٢١) لسان العرب ، ١١ ، ٣٥٢

(٢٢) الزعشقرى ، أساس البلاغة ، ص ٢٢٨

(٢٣) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٢١

(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٨

(٢٦) الجرجاني ، حيد القاموس ، مآلات الإحجاز ، تحقيق د . محمد رشيدان للدلة ود . فخر الداية ، ص ١٣٧

(٢٧) شعره ، ص ١٣٧

(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٦٣

(٢٩) الطائي ، لير منصور ، لغة الكوفة صير العربية ، دار للكتب العلمية ، بيروت د . ت ، ص ٣٠٢

(٣٠) الحواشي الدلالية ، ص ٢٨٨

الفعل مجردا ومزيّداً . ويبدو من خلال ماقلنا فهم الزخشرى للتطور اللغوي ، وكشفه عن طريقه : المشابهة ، وانتقاء عنصر أساسي من دلالة الكلمة وحركة الذئب وجورانه . . ، خبثه ، التراسه

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الذئب» بدلالاتها المجازية في موضع واحد . ففي الحديث عن تحكم المستعمر وأذنبه في الوطن يرد قوله : «يأمة فعدت الذئب تسوسها . .»^(٣٧)

• النسر ، النسر طائر من الجوارح ، حاد البصر ، قوي من رتبة الصقريات ، وهو أكبر الجوارح حجماً^(٣٨) ، ويقتل النسر في العربية رمزا للفرقة والشتم ، والرفعة . وقد ذهب الأستاذ العقاد إلى «أن هناك اشتباها بين النسر والمقاب في استعمال العرب ، جاء من وصف النسر بالصفات التي تنفرد بها المقاب ، فالنسر ليس من عتاق الطير . . ويقع حل الجيف ، وقلبا يصيد ولا يخالب له . .»^(٣٩)

وفي هذا العصر غدا النسر شعارا لكثير من الأقطار العربية^(٤٠) ، وفي مجال الطيران تطلق كلمة «نسر» على الطيار امتداحا . وقد وردت هذه الدلالة في شعر أحمد شوقي .^(٤١)

تستعمل فيها كلمتا «العرين والغيل» للدلالة على الوطن . ففي حديثه عن «مصرع النسر» المقصود هنا أحد الزعماء - ترد كلمة العرين في قوله «ورعى الذعر في العرين الضراغم»^(٤٢) وفي الحديث عن كفاح لبنان يرد قوله : «لله لبنان . . أين العرين ؟ . .»^(٤٣) ، وفي رثاء أحد الزعماء يرد قوله : «دخل الغيل على رثاله قدر . .»^(٤٤)

• الذئب ، الذئب معروف بالافتراس والحسة والغدر ، وفي الأمثلة والآراء المتقولة عن عدد من النقاد والدارسين - في هذه الفقرة - مايدل على شيوع الدلالة المجازية الرمزية لكلمة «ذئب» ، وقد تنبه ويوجين نيداه إلى هذا اللجاز بوصفه من التشبيهات السالدة^(٤٥) .

وفي أساس البلاغة ما يؤكد ذبوع الاستعمال المجازي وتطوره إلى الدلالة الحقيقية ، يقول الزخشرى : «من اللجاز : هودتب في ثلة ، وهم أذئوب ، وذئاب ، وهم من ذؤيان العرب : من صحاليتهم وشطارتهم ، وقد ذؤب قاذبة : خبث كالذئب . وأكلهم الذئب - أي السنة . وتذأبته الريح : فرخته . وتذأبته الريح : أنه من كل جانب فعل الذئب»^(٤٦)

ويتسع التطور - هنا - لضررب من الاستعمالات المجازية التي رافقها تطور اشتغالي «من الاسم إلى

(٣٧) شعره ، ص ٢٤١

(٣٨) شعره ، ص ٢٨٣

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٣١٣

(٤٠) الجرائد الدلالية ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥

(٤١) أساس البلاغة ، ص ١٤٠

(٤٢) شعره ، ص ٢٩٧

(٤٣) المصدر السابق ، ٩١٧/٢

(٤٤) العقاد ، عباس محمود ، أشعث مجتمعات ، ص ١٤٧ - ١٤٨

(٤٥) المصدر السابق ، ٩١٧/٢

(٤٦) الشوقيات ، ١٥٥/٢ ، الخاتمة رقم (٦)

شجر^(٤١) ، ثم استعملت للدلالة على المنزل ، يقول الزغشري : «وكر الرجل : اتخذ طعاما عند بناء وكره أو شراؤه .. ومن المجاز : مدار في فكري نزولك في وكرى»^(٤٢)

وتمثل دلالة «وكر» على المنزل الذي يتخله الإنسان تطورا ضمن المحسوسات - من التخصيص إلى التعميم - وقد وردت بهذه الدلالة في أساس البلاغة من غير أن ينص على أنها من المجاز .

غير أن هناك تطورا آخر في الفصحى المعاصرة - مصدره السماع - يتجلى في إطلاق كلمة «وكر» على المكان الذي يتخذ متطلقا للجريمة ، وللدلالة على غتبا الخارجين عن القانون .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «وكر» للدلالة على «الوطن» و«المنزل» ، ففي الحديث عن جبل لبنان يرد قوله : «ليه وكر السور ..» ، والقصيدة تحمل عنوان «وكر السور»^(٤٣) وفي الحديث عن كفاح لبنان الوطني يرد قوله «أيام وكرك في السور مقدس»^(٤٤) ، وفي الحديث عن أبي الطيب وإخفاق طموحه في إدراك الإمارة ، يرد قوله : «إذن لانتكلت أم الشمر ..

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «نسر» بدلالتها المجازية على البطل والمقاتل الباسل ، ففي حديث عن جبل لبنان يرد قوله : «قل لوكر السور قدست وكرا ..»^(٤٥) ، وفي الحديث عن استغلال الغرب لبنان وجوع أهله يرد قوله : «لبنان مالفراخ السر جمالة والأرض أروضك ..»^(٤٦) وفي رثاء أحد الأعلام يرد قوله : «النسر ذا تزق حل هضباته ..»^(٤٧) ، وفي قصيدة يرثي فيها «وفصل بن الحسين» ، - وهي بعنوان مصرع النسر - يرد قوله : «ذلك النسر كيف خلق وانقض ..»^(٤٨) ، وفيها أيضا : «هكذا مصرع السور ..»^(٤٩) ، وفي موضعين آخرين ترد كلمة «النسر» متضامة مع كلمة «وكر»^(٥٠) .

ونشير إشارة موجزة إلى قصيدة شهيرة لعمر أبي ريشة ، هي قصيدة «نسر»^(٥١) وقد ذهب أحد الدارسين إلى أن نسر أبي ريشة صورة رمزية دلت على اضطرابه وترجمه بين عالم الفن ، والواقع ، وشغاله في حياته على الأرض ..^(٥٢) وفي «فخر بلوى الجبل يلياء المناضلين يرد قوله : «نحن السور ومن نعى جوانحننا ..»^(٥٣)

ويمكن أن تتبع كلمة «نسر» كلمة أخرى ملازمة لها ، هي كلمة «الوكر» ، والوكر أصلا مكان الطير على

(٤١) شعر الأخطل الصغير ، ص ٤٦

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٥٩

(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٧٧

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٤١

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٢

(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ٨٩

(٤٧) ديوان أبي ريشة ، ١/ ١٥٨

(٤٨) الأثر ، د . محمد صهي ، الشعر في سورية ، ص ١٢٤

(٤٩) بلوى الجبل ، ديوانه ، ص ٢٧٠

(٥٠) قصيدتي ، قلة اللغة ، ص ٣٠٣ ، واللسان ، ٣٩٣/٥

(٥١) أساس البلاغة ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨

(٥٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٤٦

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٨٦

قديماً إلى الدلالة على الرجل الذي يشبه السيف أو يتقلده ، وقد عرف لهذا الاستعمال صور متعددة كالتشبيه ، والاستعارة والمجاز المرسل - بإطلاق الجزء على الكل - وفي الفصحى للماصرة يشيع استعمال كلمة «السيف» للدلالة على المحارب والمناضل في مقام المدح . ومن هذه الدلالة مواضع متعلقة في شعر أحمد شوقي ، وأندو المطار وعمر أبي ريشة ويدوى الجبل ..^(٣١)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «السيف» بدلالته المجازية في عدد من المواضع ، ففي حديثه عن تاريخ الشام وعراق أهلها يرد قوله :^(٣٢)

نسلتهم أمضى السيوف لهم
لايسن الوليد وتلك للجراح

وفي رثاء هتاي يرد قوله : «سقط السيف بعد طول الضرب من يد اللحد ..»^(٣٣) وفي قصيدة «الجابي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي :^(٣٤)

ألا سيف من الإيمان
يسرى السيف منونا
يجلي عن سما الأوطان
هذا السبل والهونا

وعطل الزكر ..^(٣٥) وفي وصف الهجرة ، والضاف الصنار حول أهمهم ، يرد قوله : «تجمعوا في الزكر حول حامية جليلها الأسمى»^(٣٦)

• السيف ، السيف : نوع من السلاح وقد شاع استخدامه في القتال في عصور سابقة ، ويعدت أسلحته أو صفاته حسين اسماً أو صفة^(٣٧) ، ومن السيف اشتقوا أفعالا متعددة نحو : سافه : ضربه بالسيف ، واستاف القوم وتسايفوا : تضاربوا بالسيوف ، وأساف وساف وسيف وتسيف ..^(٣٨)

ويبدو أن تشبيه الإنسان بالسيف قديم وشائع ، ويدل على ذلك اشتقاق الصفة «سيفان وسيفانة» للدلالة على الرجل والمرأة إذا كانا ممشوقين كالسيف^(٣٩) . وفي دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر استعمالات مجازية لكلمة «سيف» عددا المؤلف في التمثيل العامي^(٤٠) .

ويلاحظ الدارس عددا من التسميات المعروفة المتطورة عن طريق التشابه ، نحو : السيف الساحل المتد في البحر ، والسهمك الذي يشبه السيف ، وإليف من السعف ..^(٤١)

ويبدو أن الاستعمال المجازي لكلمة «السيف» تطور

(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣

(٣٥) المصدر السابق ، ص ١٧٧

(٣٦) السيوطي ، الخيزر ، ٤٠٥/١ - ٤٠٩

(٣٧) لسان العرب ، ١٦٦/٩ - ١٦٧ ، والمجموع الوسيط ، ٤١٨/١

(٣٨) لسان ، ١٦٦/٩

(٣٩) الجرجاني ، حيد القنصر ، دلائل الإعجاز ، ص ٢٠٥

(٤٠) لسان العرب ، ١٦٧/٩ ، والمجموع الوسيط ، ٤١٨/١

(٤١) الفشوفيت ، ١٧/٣ ، وقطال الأيام للمطار ، ص ٩٨ ، وهيان أبي ريشة ، ٥٨/١ ، وهيان يدوى الجبل ، ص ٣٣٤

(٤٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٣٣٤

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٣٦٦

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٣٧٤

وفي قصيدة «رائد عربي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي: ^(٣٦)

يصرع السيف في غمار من المجد
فلا يرتقي سوى الدم غمدا
أنت أغنية السيوف إذا ثا
وت لتني غمدا وتعلم مجدا
ومن سيف الدولة وأبي الطيب يرد قوله: «سيفان
في قبضة الشهباء...» ^(٣٧)

ورجل شמוש» ^(٣٨) وقد علّما الزمخشري في المجاز، وهي من الدلالات المتطورة التي غلت تدخل في مجال الحقيقة.

ويبدو للدارس من خلال الأمثلة المتداولة في كتب البلاغة ^(٣٩) أن تشبيه الإنسان رجلا كان أم امرأة بالشمس شائع متداول، وقد لوحظ فيه معاني الرفعة، والظهور، والنور الموجودة في دلالة الشمس الحقيقية، ومماثل هذا التشبيه، تشبيه الإنسان بالقمير والبلر والحلال والكوكب والنجم والمصباح.

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «شمس» في نوعين من الاستعمال المجازي، أحدها: المجاز الذي يتعلق بوصف الرجل أو المرأة بالرفعة والبهاء والجليل. ومنه قوله في رثاء أحد الزعماء: ^(٤٠)

كفنوا الشمس برسمان وروس
يا لشمس أذنت من عبد شمس

وقوله أيضا: «عربي يصدح الشمس بشمس»
وقوله في رثاء فيصل: «أطلعت شمس فيصل منك
مصباح...» ^(٤١)، وقوله في وصف «سلمى» رفيقة الصبا: «وأوتنا إذ غابت الشمس شمسا...» ^(٤٢)

ومماثل هذا الاستعمال ماورد في شعر بدوي الجبل، ففي رثاء «غازي» يرد قوله: «مصرع

ويتخذ المجاز في الموضع الأخير- شكلا من مجاز الجذور اللغوية الذي يتعمق في معنى الأسماء والألقاب، ليشير عندها من المدلولات ^(٤٣)، فعلي بن حمدان عرف بلقب «سيف الدولة» حتى طغى على اسمه، والأخطل الصغير يشير في المخطي بذكر كلمة «سيفان» ثلاثة معان، هي: معنى السيف السلاح، ولقب سيف الدولة، ومجاز: السيف الرجل الملم أي «علي والنتي».

• الشمس، الشمس: النجم الرئيس الذي ينشر الضياء، وقد لوحظ معنى التحول وحلم الاستقرار في عدد من الدلالات المتطورة قديما، نحو «شمس فلان إذا نه، ولم يستقر تشبيها بالشمس في حلم استقرارها...» ^(٤٤)، ومنه: «شمس: أظهر العداوة،

(٣٦) تصدير السيل، ص ٢٢٩

(٣٧) لتصدير السابق، ص ١٢١

(٣٨) رائق، ك، ذ، القبايز للحن، ترجمة عبد القاسم الزبيدي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨ م، ص ٥٤

(٣٩) الأمصفاي، القرينات، ص ٣١٧

(٤٠) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٤١

(٤١) ابن الأثير، لئال الفكر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، البابي الحلبي، مصر، ١٩٤٩ م، ٥٩/١

(٤٢) نمر، ص ٣١٢

(٤٣) نمر، ص ٢٤٠

(٤٤) نمر، ص ٨٢

العلم الذى يستضاء بعلمه أو قيادته ، وعلى الإنسان الموصوف بالصباحة والوضاعة رجلا كان أم امرأة . ويظهر في هذين الاستعمالين تطور ضمن المحسوسات : نور الصبح ، وإشراق الوجه ، وتطور من الحسي إلى المجرد : نور الصبح ، ونور العلم والحداية .

وفي التطور عن طريق التسمية المعرفية - لتطور الأدوات المستعملة - عرفت كلمة « مضباح » الدالة على المصباح الكهربائي *Lampe électrique* ^(٨١) ، وتنافسها في مستويات أخرى من الفصحى المعاصرة كلمات أخرى نحر : « النور » و « الضوء » و « لمبة » المعربة ^(٨٢) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة « مصباح » بدلالاتها المجازية في موضعين ، ففي حديثه عن امرأة هجرها يقول ^(٨٣) :

مهلا فمصباحك لم ياتلق
إلا بما من شعلتي تقسيمين
وفي رثاء فيصل يرد قوله ^(٨٤) :

أطلعت شمس فيصل منك للمر
ب مصابيح من شقوق الغمام

ويرد الاستعمال الأول إلى الدلالة على النضارة والتألق ، وفي الثاني ، يرد إلى الدلالة على الآمال

الشمس . . ^(٨٥) ، وفي رثاء «هناو» يرد قوله : «وريت
الشمس من عيد شمس . . ^(٨٦)

ثانها : مجاز يقترب من الاستعمال الحقيقي في إطلاق كلمة «شمس» على المصابيح الكهربائية الحديثة . وقد ورد منه مثالان ، ففي حديثه عن حيلة المدن الحديثة يرد قوله ^(٨٧) :

والكهرباء هنا تشع شمسوها
وسراج أكثر من هناك الأنجم
وفي وصف قصر الحاكم - متصرف لبنان - يرد قوله ^(٨٨) :

لن القصر بدلت فيه الشمس
فصل وجه السجى منها ثمار
* المصباح ، المصباح : السراج الذى يستضاء به ، وأصله متطور عن طريق المجاز المرسل ، لأن المصباح هو قرط السراج ، ثم أطلق على السراج والقنديل ^(٨٩) . ويلاحظ تطور دلالة «صبح» إذا أشرق الصبح إلى الصباحة والجمال والبهاء والثور في الوجه خاصة ، ومنه مارواه الزغشري : «من المجاز : رأيت المصابيح تزهر في وجهه . . ^(٩٠)

ويبدو أن دلالة «الصباحة» غدت من التطور الدلالي الذى يعد في باب الحقيقة . أما الدلالة المجازية فتجلى في تشبيه الإنسان بالمصباح أو استعارته له دلالة على

(٧٤) ديوان ، يهوى الجبل ، ص ٢٠٩

(٧٥) ديوانه ، ص ٣٣٢

(٧٦) شعر الأخطل الصغير ، ص ٩٢

(٧٧) شعرة ، ص ٢٠٢

(٧٨) لسان العرب ، ٥٠٦/٢

(٧٩) أسس البلاغة ، ص ٢٤٧

(٨٠) للمجموع الوسيط ، ٩٠٤/٢ ومادة توضع ، بالمصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢

(٨١) المصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢ ، وشاعين ، د . حيد الصبور ، في علم اللغة العام ، جلد ١ - ١٩٨٢ م ، ص ٢٥

(٨٢) شعرة ، ص ٨٤

(٨٣) شعرة ، ص ٢٤٠

والأحلام التي أطلعها شمس فيصل للعرب من خلال الغلام .

وهناك استعمال مجازي آخر يمكن أن يفرد في جانب متميز ، وهو استعارة المصباح للدلالة على نور العلم والهدى دون أن يشير إلى علم أو إلى امرأة موصوفة بالجمال .

ويمثل هذا الاستعمال تطورا من الحسي - دلالة المصباح بأنواعه - إلى المجرد أي النور الذهني والإشراق الفكري .

ويرد من هذا النوع مثال واحد في شعر الأنخل الصغير ، ففي حديثه عن الفن ، يقول :^(٨١)

إنني سكبت بها البيان على الأطلا
في عزليتي وجعلتها مصباحي

وأمثلة هذا الاستعمال كثيرة ، ومنها القديم والحديث ، وفالتيوبي صاحب المصباح للنير جعل كلمة «مصباح» عنوانا لمجمعه مثلا . وهناك أمثلة أخرى من الاستعمال الحديث ، منها ماورد في الشعر نحو قول أنور المطار : «يامنا الفن أنت مصباحي»^(٨٢) وما ورد في الدراسات الأدبية ، نحو قول أحمد الشايب في تاريخ النقد : «تخله مقاييسا .. ومصباحا ينتدى به في إنشاء»^(٨٣)

* النجم ، النجم : اسم لكل واحد من كواكب السماء ، وهو بالثريا شخص^(٨٤) ، ويلاحظ المدارس تطورا ضمن المحسوسات من التخصيص إلى التعميم ، فقد خرجت دلالة «النجم» الذي يطلق في السماء إلى كل مايطلع ويظهر^(٨٥) ، وهناك تطور دلالي آخر يتمثل في دلالة نجم «على الجزء» ، لأن الدُّهُن كان يؤدى «نجوما» أي لدى كل نجم . ومنه : «أنزل القرآن نجوما»^(٨٦)

وفي تطور آخر من الحسي إلى الذهني نجد دلالة التنجيم وهي النظر في النجوم تطورت إلى معنى التفكير والتبصر . «ويقال للإنسان إذا تفكر في أمر ينظر كيف يديره : نظر في النجوم»^(٨٧)

وقد أشرنا في تضاعيف هذا الفصل إلى أن دلالة «نجمة» - واحدة نجم السماء - محلاة ، فالنجمة قديما هي شجرة محلاة على وجه الأرض.^(٨٨)

والتطور المجازي يتجلى في دلالة «نجم» قديما و«نجم ونجمة» حديثا على الإنسان العلم أو الرجل الشهير أو الفنان والفنانة .

وفي الأصول القديمة وكتب السيرة والحديث إشارات لامة إلى هذا الاستعمال ، منها : تشبيه

(٨١) شعرة ، ص ١١٧

(٨٢) المطار ، نور ، فلاذ الأيام ، ص ٨٨

(٨٣) إبراهيم طه أحمد ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت . من مقدمة أحمد الشيب ، ص ٣١

(٨٤) لسان العرب ، ١٢ / ٥٧٠

(٨٥) القردات ، ص ٨٣ ، وأبسط الجلالة ، ص ٤٤٨ ، واللسان ، ١٧ / ٦٨٠ ، والتكليات للخطي ، ٤ / ٣٣٠

(٨٦) لسان العرب ، ص ٤٤٨

(٨٧) لسان العرب ، ١٢ / ٥٧١

(٨٨) المعجم الوسيط ، ٢ / ٩٠٥

وسح لإنسان كلما ذر نجم
ليه ولس عن أفقه وانبارا

وفي تحية شعرية يزجها إلى أحد أمراء آل سعود ،
يرد قوله : وأجأ النجم من سعد وعلاك الله . .^(٩٤) وفي
قصيدة يصف فيها جمال سلمى الكورانية يرد قوله :^(٩٥)

وقشمت نجمة في أذن جارها
لما رأتها وجئت عند مرآها
قصت نجيمتنا الحسناء بدمعتها
عن نجمة الشط والأفان ترعاهما

● الكوكب والكوكبة : أحد كواكب السماء
والنجم^(٩٦) ، ويدلوان معنى الإشراف والبريق في دلالة
الكوكب تطور إلى تسمية كل ما يظهر فيه ذلك
كوكباً^(٩٧) ، وهو تطور ضمن المحسوسات .

لما وصف الرجل بأنه كوكب ، فقد جاء في
اللسان : وفلام كوكب : إذا تزعزع وحسن وجهه . .
وهذا كقولهم له بدر . . ، وفي موضع آخر :
«الكوكب : سيد القوم»

ويستفاد من ذلك أن التقدم تنبهوا إلى التطور الذي
جاء من كثرة التشبيه بكل ذى نور ، نحو الشمس
والقمر والبدر والمصباح والنجم والكوكب .

العلماء بالنجوم في حديث نبوي^(٩٨) ، وتشبيه أصحاب
النبي (ص) بالنجوم في حديث آخر^(٩٩) .

ويستفاد من بعض الروايات أن هناك ارتباطاً في
بعض المعتقدات بين ولادة الإنسان ، وظهور نجم
جديد يدل عليه^(١٠٠) .

والتطور الحديث غداً أكثر شيوعاً في إطلاق كلمة
«نجم ونجمة» على الفنان والفنانة وكل من يوصف
بالتألق في مجالات الحياة كالسياسة والاجتماع والفن . .
وهذا التطور مماثل لما في اللغات الأجنبية ومتأثر به على
مايبو ، ففي الفرنسية «Astre» فنان شهير
و«Etoile» أيضاً نجم ، كوكب أى فنان وراقص
عالمي ورجل شهير^(١٠١) .

وقد وقفت في أحد امتدادات البحث التراثية على
عدد من المواضع التي استعملت فيها كلمة «نجم»
بدلائلها المجازي في شعر أحمد شوقي^(١٠٢) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «نجم ونجمة»
بدلائلها المجازية على العلم من الرجال ، والموصوفة
بالجمال من النساء . ففي حديثه عن جبران خليل
جبران يرد قوله^(١٠٣) :

(٩٢) للنداري ، التزييب والتزييب ، تحقيق مصطفى حليمة ، الداعي الحلبي ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٤ م ، ١٠٠/١

(٩٣) التذكاء حجازي ، حيلة الصمغية ، تحقيق محمد علي درة ، دار الفلم ، دمشق ، ٢٧/١

(٩٤) ابن كثير ، السير ، تحقيق مصطفى عبد القاسم ، الداعي الحلبي ، دمشق ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م ، ٢١٢/١

(٩٥) المختار الوسيط ، ص ٧٢ ، ٣٢٧

(٩٦) القشوريات ، ١٣٨/١ ، ١٣٨٤ م ، ٥٥/١ ، نجوم للكلية ، ١٥٠/٢ ، نجوم الليانة

(٩٧) شعر ، ص ١٠٠

(٩٨) الحموي والفيافي ، ص ٣٢

(٩٩) شعر ، ص ٥٤ - ٥٥

(١٠٠) تختلف دلالة «نجم» عن الكوكب في الاصطلاح الحديث . فالتنجم - جرم سماوي عطية بلكه ، أما الكوكب فهو جرم يستغني بحدسه الشمس ويدور حولها

للشمس القريب ، ٧٩٣/٢ ، ٩٠٥

(١٠١) لسان العرب ، ٧٢٠/١ - ٧٢١

والتزامن هو تعبير يدل على وصف المدرك الحسي الخاص بحاسة معينة بلغة حاسة أخرى أى بالمفردات الدالة عليها ، نحو وصف الصوف بأنه خمل أو دافئ ، أو ثقيل أو حلو ، ووصف دوى النغير بأنه قرمزي^(١٠٦) .

ويبدو أن هذا المصطلح حديث النشأة ، فقد جاء في معجم المصطلحات العربية أنه ظهر عام ١٨٩١ م في وقاموس القرن^(١٠٧) . ويذهب الدارسون إلى أن «بولدير» هو صاحب الفضل في انتشار المصطلح وتداوله^(١٠٨) .

غير أن مايجنا في هذا الجانب هو دراسة التزامن من وجهة لغوية - دلالية تقوم على تحليل الاستعمالات اللغوية للتزامنة على أساس البحث المجازي .

ففي نظرية الأدب «لوارين وويليك» يعدّ المؤلفان التزامن شكلا من أشكال التحول المجازي ، وهوناك خاصة أخرى تمزى في بعض الأحيان للأديب والشاعر بخاصة وهي التزامن «synaesthesia» أو ربط الإدراكات الحسية الناشئة من إحساسين أو أكثر . وأشيعها بين الأدباء ربط السمع بالبصر ، السمع المألون ، واعتبار صوت البوق قرمزيا ، وغالبا ما يكون التزامن الحسي تقنية أدبية وشكلا من التحول للمجازي^(١٠٩) .

وفي التطور المجازي نميل إلى أن تطور كلمة «كوكب» مماثل لتطور كلمة «نجم» ، فالكوكب : الفنان والزعيم والبارع الجليل^(١١٠) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الكوكب» بدلالاتها المجازية على الرجل الشهير أو الزعيم العلم . ففي حديثه عن حراقة الشام يرد قوله :^(١١١)
هو منبت لكأرم هو مطلع
لكوكاب هو ملعب لجهاد

وفي موضع مماثل يرد قوله :^(١١٢)
الشام منبتهم وكمن من كوكب
هاد وكمن من بلبل صبح

وفي معجم المسرحيات العربية والمترجمة ترد كلمة «كوكاب» للدلالة على الممثلين والممثلات ، وقد وردت في العنوان التالي : «فهرس كوكاب السراج التمثيلية من ممثلين ، وممثلات»^(١١٣)



٢ - التزامن الحسي :

وينفرد التزامن الحسي «synesthesia» بجانب من الجاز الحديث في القصصى المعاصرة ، وهو واحد من سبل التطور الدلالي في الصورة الفنية .

(١٠٦) لتقريب الوسيط ، ص ٧٢ ، ٢٤٧

(١٠٧) شهره ، ص ١٤٠

(١٠٨) شهره ، ص ٢٢٤

(١٠٩) طاهر ، يوسف أحمد ، معجم للمسرحيات العربية والعربية ١٨٨٨ - ١٩٧٥ ، ص ١٤٧٨ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٨

(١١٠) رعية ، مجدي ، ويهتس ، كمال ، للمصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤

(١١١) المصدر السابق ، الموضع نفسه

(١١٢) هورثوك ، فريوس ، القرن والأدب ، ص ١٧ - ١٨ ، ويشتور ، د . محمد ، الأدب وبلغته ، ص ١١٠

(١١٣) لوارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٨٥ - ٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٦

بالنمو، والخشونة، والوضوح مع أن الوضوح للمراثيات لا للمسموعات، والصفات الأخرى للملحومات.^(١١٦)

ويدخل التزامن لدى بعض الدارسين في المجاز الشائع في لغة الخطاب، وفي الأدب، على حين اتهم له آخرون أمثلة ترجع إلى الكتاب المقدس والإلياذة والأوديسة.^(١١٧)

ويمكن أن تنتهي من هذا الدرس إلى أننا ننظر إلى التزامن على أنه تطور ضمن المحسوسات، وأنه يخضع لما تخضع له بقية الأنماط المجازية من ابتداء وبسبب كثرة التداول حتى تفقد بعض أمثلته أقرب إلى التعبير الحر في منها إلى المجاز الفني أو الصورة المؤثرة انتماليا. ويظهر هذا التحول من المجاز الفني إلى الاستعمال الفنى والحرفي في بعض الأمثلة التي نقلها صاحبنا نظرية الأدب، نحو «صوت جميل» وصفة «دحلو» التي تخص اللؤلؤ ثم استعملت لوصف الروائع، والأشجار، والمناظر.^(١١٨)

ويبدو من خلال المواضيع التي وردت في شعر الأخطى الصغير من هذا النوع «التزامن» أنه يمكن أن نجعل في قسمين استنادا إلى تصنيف «أولمان» وقياسا على أمثلته. ويكون التطور في الأول من حاسة إلى أخرى، ويكون في الثاني بتطور معطيات حاسة معينة إلى الحادى، والمجرد اللغوي، وهو خروج على الحقل الدلالي للحواس.

وفي الجوانب الدلالية ينقل الدكتور فايز الداية تصنيفا للتطور يقوم على نقل الأسماء للمشابهة بين المعاني، ويعد أولمان - وهو صاحب التصنيف - التزامن واحدا من أقسام نقل الأسماء. «ومشابهة للمعاني إنما تكون:

أ - ذات جوهرية: في مشابهة الشكل بين ورقة الكتابة، والورقة الطبيعية، وفي المشابهة الوظيفية والمشابهة الموقعية.

ب - متزامنة حسيًا: وذلك بتشبيه الصوت باللون «معرف بطريقة أكثر زرقة»، واللون بالرائحة «الأبيض المنعش».

ج - انفعالية: عندما يشبه إحساس ما بشيء مادي رابطة بينهما بعض الحواس «صدقة دافقة»، و«خلق حلو، طيب»^(١١٩)

ولعل أقدم تفسير للترزامن، واتجاه الدرس اللغوي في ما أورده الدكتور محمد مندور في الأدب ومناهجه، فقد عدَّ «التبادل أو التعادل» Correspondance اتجاهًا لغويًا خاصًا بالبحث في وظيفة اللغة، وإمكاناتها، ومدى تقيدها بعمل الحواس، وتبادل تلك الحواس، على نحو يفسح أمام الكاتب أو الشاعر مجال اللغة، وتسخيرها لتأدية وظائف الألب.^(١٢٠)

ويعد محمد مبارك التزامن - من غير أن يسميه - نوعا من النقل من الحسي إلى الحسي نحو وصفنا للصوت

(١١٠) الداية، فايز، الجوانب الدلالية، ص ٢٨٠ و ٤٩-٤١. Gatrouti. la sem-antique.

(١١١) مندور، د. محمد، الأدب ووظيفته، ص ١١٠-١١١.

(١١٢) المبارك، محمد، لغة اللغة وخصائص العربية، ص ٢٢٢.

(١١٣) روية ومجاهد، اصطلاحات لغوية في اللغة والأدب، ص ٨١، مكي، د. محمد، الأدب، بيروت، عدد ١١/س ١٩/شربن ١٩٧١، ص ٢٣.

(١١٤) دارين وويليك، نظرية الأدب، ص ٢٠٦.

ومن الواضح أن دلالة «سطع» مرتبطة بحاسة البصر التي تترك المحسوسات المرئية ثم تطورت دلالة الانتشار والانبعاث في ضوء الصبح إلى الدلالة على كل منتشر أو منبعث ، نحو : سطع الغبار ، وسطعت الرائحة : فاحت وعلت وانتشرت ، وسطع السحاب ، وسطع البرق ...

وتصوّر في دلالات أخرى معنى الارتفاع والاستطالة الموجود في دلالة «سطع الصبح» فقليل : سطاع : عمود الخباء ، وعق سطعاه ، طويلة ومنتصبة ، ويصح أن يمد في هذا التطور معنى سطع يديه : رفعها مصفقا^(١١٨).

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» يقول الشاعر:^(١١٩)

عرس الأحرار أن تسقي العلى
أكؤسا حمرا وأنفسا حزنا

إن دلالة «تسقي العلى أكؤسا» تعد من المجاز القديم ، فهي وأساس البلاغة : «من المجاز : تساقوا كأس الموت ، وساقته زياها ...»^(١٢٠) أي حارب بعضهم بعضا . أما دلالة «الأنغام» فهي مرتبطة بحاسة السمع التي تترك الأصوات . غير أن الشاعر عمد إلى تجسيد الأنغام وجعلها مما يدرك بالذوق الحسي : الشرب . ويبدو أن دلالة «سقى» متطورة قديما إلى دلالات ذهنية خارجة على الحواس ، نحو :

ويضمّن القسم الأول الدلالات المتعلقة بالحواس ، وما ينتج عن تزامنها وتبادلها المواقع التعبيرية من أشكال مجازية ، هل حين يضمّن الثاني مجموعة من الدلالات المجازية الذاتية التي تخرج فيها معطيات حاسة معينة من حقلها الدلالي لتندو استعمالا لغويا متطورا من المجاز .

آ - نقف في هذا القسم عند عدد من الدلالات اللغوية المتطورة عن طريق التزامن : من الحسي إلى الحسي ، أي من حاسة إلى أخرى .

ففي قصيدة بعنوان «الشام منبههم» يقول الشاعر:^(١٢١)

في كل رابية ، وكل حنية
عصاه تسطع بالشلل القسواح

ودلالة : سطع الشللا مماثلة لما عده الزعشمى من المجاز ، يقول : «من المجاز : سطعت رائحة المسك ، وأعجبني سطوع رائحته»^(١٢٢) ويبدو من خلال مراجعة أصول مادة «سطع» أنها مرتبطة أصلا بسطوع الصبح لإضاءته وانتشاره . ويقال للصبح إذا طلع ضوؤه في السهاء قد سطع .. أول ما ينشق مستظيلا ، وفي حديث السحور : كلوا واشربوا لا يبيدكم الساطع المصعد .. وأشار بيده . يعني الصبح الأول المستظيل .. فلذلك قيل للمعمود من أعمدة الخباء سطع ، ومنه عتق سطعاه إذا طالت وانتصبت^(١٢٣)

(١١٥) شعر الأعطل الصغير ، ص ٢٢٢

(١١٦) الزعشمى ، أساس البلاغة ، ص ٢١٠

(١١٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٥٤/٨ - ١٥٥

(١١٨) المصدر السابق ، ١٥٥/٨

(١١٩) شعرة ، ص ١٨٠

(١٢٠) أساس البلاغة ، ص ٢١٥

وقد نبه الأصفهاني إلى أصل الدلالة ، وما تطور منها من دلالات مجازية ، يقول : «وليس يقال فيها يكون معه إنراك بحسنة اللبس ، وكفي به عن النكاح ، قليل : مسها .. وكفي باللبس عن الجنون ، قال : «كلائي يتخطب الشيطان من المس» ، المس يقال في كل ماينال الإنسان من أذى ...»^(١٢١)

ويمكن أن نمد دلالة «مس» المطر من التطور ضمن المحسوسات عن طريق التعميم . وفي مواضع كثيرة ترد مفردات تدل على المطر والشد والأريج في سياقات تقوم على التجسيد للترانم .

ففي قصيدة بعنوان «الفردوسي» يقول الشاعر :^(١٢٢)

هل للأزاهر حسن أماتها خبر
عن شاعر سكب الأطياب في فيها

وفي قصيدة بعنوان «عيد الحبيب» يقول :^(١٢٣)

النور والمطر زقراقان في أفق
من اللباسم مد الظن والنظر

وفي قصيدة بعنوان «الصيا والجال» يمدد الشاعر إلى تجسيد «الميرة» في قوله :^(١٢٤)

سكر الروض سكرة صرسته
عند مجرى الصبر من غديك

استقى الأخبار والمعارف أي أخذها وتلقاها من مصادرها .

وفي موضع آخر نجد الشاعر قد عمد إلى تجسيد «الفناء» ، وهو عما يدرك بالسمع وجعله عما يتناول أو يتلوق عن طريق اللم . ففي قصيدة بعنوان «ياي أنت وأمي» يقول :^(١٢٥)

غنني واسكب غناك ولناك
في فسي فليت فاك ، هل أراك
وعلى قلبي يداك ورواك

وفي جانب آخر نجد أمثلة للترانم بين حاشي اللبس والشم ، ففي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، يقول الشاعر :^(١٢٦)

ملعب الأحلام ما أح
سلاك حلو المتسم
وإذا مسك عطر
في أهزيج التسم
تنهري الريشة والأو
تار والحب النهم

وبدل أصل «مس» على اللمس باليد^(١٢٧) ، ثم تطورت الدلالة إلى كل مايلامس الجسد أو يقع أثره عليه أو يصيبه ، نحو من الماء والوسط والمرض .. وغيرها من المحسوسات .

(١٢١) حمزة ، ص ٢٦٣

(١٢٢) حمزة ، ص ٢٣٥

(١٢٣) لسان العرب ، ٢١٨/٦

(١٢٤) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٦٧

(١٢٥) شعر الأقطب الصائغ ، ص ٧٣

(١٢٦) للشاعر السابق ، ص ٣١٨

(١٢٧) للشاعر السابق ، ص ٤٥

إجمالاً على أنها مجازية ولو عن طريق الحساسية الأدبية
واللغوية .

وهناك وبعض العبارات - وهي طبعاً أكثرها
ابتداءً - قد قبلها الجمهور ، وتفهمها كصفة الحلاوة
التي تطلق قبل كل شيء على الطعام ثم على الصوت
واللون واللمس ، بل وأخيراً على السجية
الحلقية .^(١٣٦)

وترتبط الدلالة اللغوية لهذه «حلا» بحاسة اللوق :
حلا الشيء صار حلواً وحلّ الطعام : جعله حلواً . .
غير أن الدلالة خرجت إلى مجموعة من المعاني
المجازية . ففي أساس البلاغة : «من المجاز : حلّ
فلان في حقّ . . وحلّ الشيء في حق صاحبه ، وهو
حلّ اللقاء ، وحلّ الكلام ، واستحلّيت هذه
الجارية ، واسلّولت لي . . وجارية حلوة العينين ،
وتحلّلت المرأة : أظهرت حلواتها . .»^(١٣٧)

ويظهر التطور - هنا - في توسع الدلالة وخروجها
من التخصيص بحاسة اللوق الحسية إلى الدلالة على
كل ما يروق ويمس من منظر ، وسلوك ، وشئ
وكلام . . إضافة إلى دلالاتها في وصف معطيات
الحواس الأخرى كالشم والسمع . وفي نظرية الأدب
ينقل المؤلفان عن «كامبل» صاحب فلسفة البلاغة
قوله : إن صفة «حلّ» وهي في الأصل تخص اللوق
يمكن أن تستعمل الآن للروائح والأنغام والمناظر .^(١٣٨)

وفي قصيدة بمتون «مرحياً مصر» يحشد «الأريج»
وينقله من الشم إلى اللمس والبصر . يقول :^(١٣٩)

ليس تالو الرياض أن توقف الزهر
بر وأن تجمع الشدا ليس تالو
لتريق الأريج سكبا وبهتا
نا على وجه مصر حين يطل

وفي قصيدة بمتون «ثم إن قلبي» يحشد «الشدا»
ويجعله ماء . يقول :^(١٤٠)

وإذا التسم وائت في بحر الشدا
غرق دنا من وجنتيك ليشدا

وفي موضع واحد من قصيدة بمتون «وردة من دمناء»
اجتمع شريان من التزامن أحدهما من السمع إلى
البصر ، والأخر من اللمس إلى البصر . فقد عمد
الشاعر إلى تجسيد «الآئين» وجعله مما يرشف بالعين .
يقول :^(١٤١)

وأتينا بلحت التجوى به
عربياً رشفته مقلتاننا

ب - وثقف في القسم الثاني عند عدد من معطيات
الحواس التي توسعت دلالاتها ، وخرجت من
خصوصية التزامن . وسوف يبدو من خلال الأمثلة أن
هذه المعطيات تعرّضت لجوانب متعددة من التطور ،
حتى حد معظمها في الاستعمال اللغوي ، ولم تعد تشعر

^(١٣٦) المصدر السابق . ص ٩١

^(١٣٧) المصدر السابق . ص ٩١

^(١٣٨) المصدر السابق . ص ١٨١

^(١٣٩) هوزيت . فن والادب . ص ٢٩

^(١٤٠) فرهمشوري . أساس البلاغة . ص ٩٤

^(١٤١) وأيضاً هوزيت . نظرية الأدب . ص ٢٠٩

بالإحساس الداخلي Affectivité^(١٣٥) ، وقد ذهب بعض المحذنين إلى حد هذا التطور من التطور غير المحمود الذي لا مأسوخ له^(١٣٦) وفي الموضع الرابع ترد «ما أحلك» للدلالة على جمال الطبيعة ، وترد عبارة «حلو المبتسم» للدلالة على جمال الإشرقة . وتوظف الدلالة - وهنا - لوصف جمال لبنان ومظاهر الطبيعة فيه

ومثال دلالة «مر» صار مرًا التطور الذي تبيّن في مادة «حلا» ، فدلالة «مر الشيء صار مرًا ، وأمر الشيء ...» مرتبطة بحاسة الذوق التي تميز الطعوم . غير أن هذه الدلالة توسعت إلى وصف كل مستكره من منظر وكلام وأمر ... وفي أساس البلاغة ومن المجاز نزل به الأمان : الحرم والارض ، ولقيت منه الأمّين ، وتر عليه العيش وأمر ، وما أمر فلان وما أحل ...^(١٣٧)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «مر» في موضعين ، ففي قصيدة بعنوان «سلي الليل» يرد قوله^(١٣٨)

سكنت سرارات الحياة ظم أجد
كمثل الذي يقيه من كضك المجر

وفي قصيدة «عروة وعفراء» مرّ بنا موضع وردت فيه كلمة مرّ في قوله : «مر الشقا بحلاوة الوجدان»^(١٣٩)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «حلا» في مواضع متعددة ، ففي قصيدة بعنوان «وداد» يصف جمال ابنته ، ويقول :^(١٤٠)
حلاوة مهمما يزد

يوم عليها تزد

وفي قصيدة بعنوان «أحل الحب» يرد قوله :^(١٤١) وإن كان أحل الحب أول قبلة ... ، وفي قصيدة بعنوان «عروة وعفراء» ، يقول :^(١٤٢)

يمشي لمنزله بنفس مغالب
مرّ الشقا بحلاوة الوجدان

وفي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، ويقول :^(١٤٣)

ملعب الأحلام ما أحـ
حلاك حلو المبتسم

لفي الموضع الأول ترد كلمة «حلاوة» لوصف الجمال الحسي ، وفي الموضع الثاني ترد كلمة «أحل» لوصف اللذة الحسية في القبلة ، وفي الموضع الثالث ترد عبارة «حلاوة الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» متطورة في القصص المعاصرة إلى معان متعددة ، منها دلالتها على حالات نفسية من حيث تأثرها بالذلة أو الألم ، وما يتعلق

(١٣٤) شعرة ، ص ١٠١

(١٣٥) شعرة ، ص ٢٧٧

(١٣٦) شعرة ، ص ٢٩١

(١٣٧) شعرة ، ص ٣٣٥

(١٣٨) حيدانقور ، د . جهور ، للمجمد الأمي ، ص ٢٨٩

(١٣٩) الميارك ، محمد ، لغة اللذة وتفاصيل العربية ، ص ٣٣٢

(١٤٠) أساس البلاغة ، ص ٤٢٦

(١٤١) شعرة ، ص ٧٧

(١٤٢) شعرة ، ص ٢٩١

ونقف في ختام البحث في تطور المواد المتعلقة بالذوق عند تطور الكلمة الدالة على الحاسة نفسها «ذائق» . والذوق حاسة تميز بها خواص الطعم بواسطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه - اللسان. (١١٧)

غير أن التلوق لم يعد مقتصرًا على الذوق الحسي بل تطور إلى معنى «التعرف» أو الملامسة الحسية ، وتطور إلى الدلالة على مد النظر إلى النساء وتفحص مواطن الجمال فيهن .

وفي الأدب والفن تدل مادة «الذوق» على حاسة معنوية ، أو ملكة الإحساس بالجمال ، والتمييز بين حسنات الأثر الفني وعيوبه (١١٨) . وتطورت دلالة «الذوق» أيضا إلى شؤون الحياة والمجتمع كالذوق في اختيار الملابس ، والذوق في المعاملة والمعاملة ، والذوق في ترتيب المنزل ...

وفي أساس البلاغة يعدّ الزخشي دلالة ودقت الطعام الأصل الحسي ثم يعدّ الدلالات المتطورة جميعا من المجاز . يقول : «من المجاز : دقت فلاتا ، ودقت ماصته . . . وهو حسن اللوق للشعر إذا كان مطبوخا عليه ، وما دقت اليوم في حبي نوما ، وذائق القوس : ترفها ينظر مامقدار إعطائها ، وذاق قوسي لتعرف ليها من شديها ، وقد ذاقها يدى ، وذاق التجار السلعة ، وذات كفي فلاتة إذا مستها . وفي الحديث «إن الله يبيض اللواتين واللواتين كلما تزوج أو

تزوجت مدّ عينه أو ملدت عينها إلى أخرى ، أو آخر .» (١١٩)

ويمكن أن ترد أمثلة الزخشي إلى ثلاثة أضرب ، الأول : اللمس «ذائقها يدى» والثاني : البصر «اللواتين واللواتين» ، والثالث : الحس المعنوي الفني «حسن اللوق للشعر» ، إضافة إلى الأمثلة التي تدل على التعرف ، نحو : ذاق القوس ، لذواق التجار السلعة . . .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «الذوق» في عدد من المواضع . ففي قصيدة بعنوان «المسلوب» ، يقول : (١٢٠)

لا لا أنسام حولا أنذوق كرى
أنا لست من يهيا لفجر غد

وإن دلالة «أنذوق كرى» من المجاز القديم الذى ذكره الزخشي ، وقد خدمت هذه الدلالة استعمالا لغويا لا يثير في المتلقي حزة انفعالية .

وفي قصيدة بعنوان «هند وأمها» يقول : (١٢١)

عصرتهم واحدا واحدا
ودقت السدى ذقتة مرتين

وتقرب دلالة «ودقت السدى ذقتة» من معنى التعرف ، ومعاملة الشيء . وفي قصيدة بعنوان «سلمى الكورانية» يقول الشاعر : (١٢٢)

(١٢٣) للبيج السبيد ، ١ / ٣١٨

(١٢٤) جيلانيور ، د . جيز ، المعجم الأبي ، ص ١١٨

(١٢٥) الزخشي ، أساس البلاغة ، ص ١٤٧

(١٢٦) شعره ، ص ٢٥٤

(١٢٧) شعره ، ص ٢١٩

(١٢٨) شعره ، ص ٥٥

اهتمامنا كان موجهاً إلى رصد التطور الدلالي الحقيقي دون غيره من جوانب التطور وبجالاته .

آ - ففي جانب من جوانب الدرس المجازي - هنا - نقف عند عدد من الصور المتطورة بتأثير الترجمة ، وما ينشأ عنها من إشراق الكلمة العربية دلالة الكلمة الأجنبية ، فتندو أكثر ارتباطاً بالعصر ومعطياته .

وأول ما نقف عنده تركيب وصفي هو ابتسامه صفراء ، وتقرم الصورة - هنا - على تجسيد الابتسامه وإعطائها صفة لونية «الصفرة» ، وتختص هذه الصفة في نظام الألوان «السيبولوجي» بالدلالة على القلق وعدم الاستقرار والذبول ، وشحوب الحياة .

وقد ذهب الدكتور إبراهيم السامرائي إلى حدّ هذا التركيب الصوري المجازي من التعابير الأوربية المترجمة . يقول : «ضحكة صفراء أو ابتسامه صفراء ، وهو في الفرنسية *Rile jaune*»^(١٤٦)

ودل السياق الذي وردت فيه هذه الصورة في شعر الأخطل الصغير على ارتباطها بجزو المرض والشحوب ، فالحديث كان عن مرض أحمد شوقي في لبنان .^(١٤٧)

والتركيب الثاني هو «وجهك المستعار» ، ونمىل إلى عدّه تعبيراً مترجماً ، أو متأثراً بالمعاداة الأوربية الحديثة في وضع الأقمعة المستعارة في الحفلات التنكرية . ويبدو - هنا - تطور الدلالة الحسي إلى الدلالة حل المظهر الكاذب والرياء والتخادع .

إذا أرتك الجبال النيد كاسية
فالشط أفوق منها حين صرعا

وعلى الرغم من أن دلالة «أفوق» هنا حلة غير خصصة ، فإنه من الممكن أن تعد في الذوق الفني الذي يختص بالجبال الحسي .

وفي قصيدة بعنوان «شاعر النيل» يقول :^(١٤٨)

أنت والنيل ضفتان لمصر
تستسان الأفواق والأزاقسا

وإنّ إنبات الأفواق - هنا - دلالة مجازية يمكن أن تسلك في الذوق الفني الذي يدل على ملكة الإحساس بالجبال في جميع مناحي الفكر والأدب والفن .



٣ - أثر التطور الدلالي الحديث في تراكيب مجازية شائعة :

ويخصص القول في هذه الفقرة للدرس عدد من التراكيب المجازية «الصور الفنية» ضمن سياقها النظمي *syntagmatique* . وتمزى جلة الصورة - هنا - إلى ورود كلمة متطورة دلاليا فيها ، أو قيامها عليها ، ولاحظ أثر الترجمة في حدالة عدد من الصور ، إضافة إلى ارتباط بعضها بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

وتجدر الإشارة إلى أننا وقفنا عند عدد من الصور المجازية ضمن لواء المحلّة في القسم الأول ، غير أن

(١٤٦) شعره ، ص ٢١٤

(١٤٧) السامرائي ، د . إبراهيم ، «فه اللغة للشاعر» ، ص ٢٨٩

(١٤٨) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٩

وذل السياق على استعمالها للدلالة على المجد والنصر
والتضحية . يقول :^(١٥٧)

بإجهداً صفق المجد له
لبس الفار عليه الأرجوانا

وفي سياق صورة فنية ترد عبارة «قوس من النور»
للدلالة على شاهانة الفردوسي ، ويبدو أن هذا
التركيب المجازي مستمد من دلالة «قوس النصر» ،
وهو عقد من خشب أو نحوه يقام فوق الطريق العام في
شكل قوس ويزين بالمصابيح والأعلام ونحوها .^(١٥٨)
ونماثل هذه الدلالة التعبير الفرنسي Arc de triomphe

يقول الأخطل الصغير :^(١٥٩)

قوس من النور مساجت تحته أمم
وغاية من طهى غنى الردى فيها

ب- وفي قسم آخر من التراكيب المجازية الحديثة ،
ترد مجموعة مستمدة من السياق الاجتماعي والحضاري
الحديث .

وتقف عند تركيب وصفي هو «الليالي الحمراء» ، وهو
تركيب مجازي يدل على انتهاب الملذات في النوادي
الليالية ، أو السعي إلى تهيئة الشراب والملذات في مكان
آخر .

وذل السياق الذي وردت فيه هذه العبارة على

وفي الفرنسية Masque قناع ، وجه مستعار ،
ومظهر كاذب ، ورياء . bal Masque حفلة راقصة
تكرية .^(١٦٠)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد عبارة «وجهك
المستعار» في موضع واحد . يقول :^(١٦١)

فانجب الميخ لا أبا لك غيبا
وأطرح عنك وجهك المستعارا

وفي أحد أعداد مجلة «الأدب» وقفت على التركيب
نفسه واردا في شعر خليل حاوي ، وفي افتتاحية
العدد .^(١٦٢)

والتركيب المجازي الثالث ، هو «ليس الفار عليه
الأرجوان» ، ودلالة «إكليل الفار» مستمدة من
الفرنسية على مايليدو ، فالفار Lannier إكليل ،
وانتصار وتكلم بالمجد .^(١٦٣)

وفي المعجم الوسيط «الفار : كان الرومان يتخللون
منه إكليلاً يتوجون به القائد المظفر أو الشاعر الملقب رمز
لمجده» .^(١٦٤)

وقد أضفت كلمة «الفار» المتطورة عن طريق
إشراها معنى الكلمة الفرنسية وما تحمله من دلالة
ثقافية ، مجلة وحدانية في التركيب المجازي الصوري .

(١٥٧) جيلانور ، د . مجبور - ولغروس . د . سبيل ، المعجم الوسيط ، ص ٥٠٤

(١٥٨) شعره ، ص ٩٧

(١٥٩) مجلة الآداب ، بيروت ، عدد ١٧/ ٢ ، ص ٩/ ٢ ، قصود ، ١٩٦٦ ، م ٣ ، ص ٢٠٢

(١٦٠) المعجم الوسيط ، ص ٤٧٧

(١٦١) المعجم الوسيط ، ٢ ، ٦٦٦

(١٦٢) شعره ، ص ١٨١

(١٦٣) المعجم الوسيط ، ٢ ، ٦٦٦ ، الاصطلاحات العلمية والفنية ، ٤٦/ ٢

(١٦٤) شعره ، ص ١٦

بجو عصري هو تنويع ملكة الجيال في حفل ذى رسوم معلومة .

ويدو أثر التقليد الحديث «تنويع ملكة الجيال» في السياق كله ، فدلالة «التاج» غدت رمزا للتكريم ، ويدو أنها مستمدة من ضمير التاج لدى الرومان ووضعه على أروؤس للترك والشعراء والعظمة .

وقد وردت عبارة «ضفر القار» للدلالة على التكريم في شعر الأخطل الصغير،^(١٦٦) كذلك وردت عبارة «تري تاجا بضفر» للدلالة على مكانة عمر بن أبي ربيعة وسبقه .^(١٦٧)

ونيل إلى حد هذه التراكيب من التراكيب الحديثة دلاليا ، وبجازيا ، ولا يخفى أثر التقاليد الاجتماعية الحديثة في تطورها .

ج- ونلمح مواقع التطور الدلالي في تراكيب مجازية شائعة . وسوف نقف عند ثلاث مواد استمدت منها الصور المجازية .

فالإكليل كلمة معروفة قديما بدلالاتها على التاج للزين بالجواهر ، وقد وردت كلمة «التاج» مرادة كلمة «الإكليل» ، في موضعين من لسان العرب .^(١٦٨)

ويدو التطور الحديث في دلالة «الإكليل» على طاقة من الورد والزهر ، وقد تملحت أغراض الأكاليل في عصرنا ، وأهمها مايقدم في مناسبات الزواج والأفراح ،

ارتباطها بالجو الاجتماعي الحديث . ولا يخفى - ههنا - أثر الصفة اللونية «الحمرة» ، فالحمرة من الألوان المبهجة وترمز غالبا إلى اللذة والمتعة الحسية . يقول الأخطل الصغير:^(١٦٩)

فني يابللي ، واسقي يابدولي
اللالي الحمر لسي والشرب

كذب الواشي وخاب
من رأى الشاعر تاب
عصره فجر من الحب
ولسيل من شراب

وترد تراكيب متعددة مستمدة من دلالة «تاج» ، و«عرش» غير أن مايمتدنا ههنا هو ارتباط التعابير المجازية بالسياق الاجتماعي والحضارى الحديث .

ففي مناسبة تنويع «ملكة الجيال» ، ترد كلمتا «تاج» و«عرش» في السياق التالي:^(١٧٠)

الصبا والجمال ملك يملك
أنى تاج أعز من تاجيك
نصبحا الحسن عرشه فسالنا
من تراها له فدل عليك

ويلاحظ - ههنا - توسع في الاستعمال المجازي في عبارات غدت شائعة الاستعمال ، نحو «عرش الشهرة» و«عرش العلم» و«عرش البطولة» . ونقف عند تركيب «عرش الحسن» فالعرش في هذا السياق مرتبط

(١٦٠) شعره ، ص ٦٩

(١٦١) شعره ، ص ٤٥

(١٦٢) الحوى والذهب ، ص ١٦٦ - ١٧٧

(١٦٣) شعره ، ص ١٥١

(١٦٤) لسان العرب ، ٢/٢١٩ ، ١١/٥٩٥ - ٥٩٦

والأتراس ، وقد ذهب المعجم الوسيط إلى النص على حداثة هذه الدلالة .^(١٧١)

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «إكيل» في عدد من التراكيب المجازية المتطورة من دلالة الإكيل الحسية . ففي الحديث عن «الزهاوي» ترد عبارة «إكيل الأحب»^(١٧٢) ، وفي الحديث عن «شاعر النيل» ترد عبارة «إكيل من زود وأجباد»^(١٧٣) . . وفي الحديث «مصرع النسر» ، ترد عبارة «الأكيل من فؤابة هاشم»^(١٧٤) ، وفي حديث الشاعر عن شعره يرد قوله : «صفت الأكيل من نور ومن أرج للعبد . . .»^(١٧٥) .

وتشير المواضع المذكورة إلى تطور دلالة «الإكيل» المجازية إلى رمز للرفعة والمكانة السامية ، وترد في الموضوع الأخير إشارة إلى إكيل الفرح في الأعياد . قصائد الشاعر إكيل توج بها الأعياد ، وبحال الطرب والشعر .

وهناك دلالة مجازية مستمدة من دلالة «الإكيل» في طقوس الزواج المسيحي ، والإكيل - مهنا - غذا رمزاً للفناء الحبيبتين في يوم الزواج . وترد كلمة «الإكيل» للدلالة على الزواج عن طريق المجاز المرسل في قوله :^(١٧٦)

وأنه سوف يسمى سمي مجتهد
حتى يوطىء للإكيل سراهبا

وفي شعر عمر أبي ريشة دلالة مماثلة ، يقول :^(١٧٧)
ودعنا إلى لقائها قيناً الـ
حب والشالج حامل إكيله

وهناك كلمة أخرى دارت على ألسنة أكثر الشعراء المعاصرين ، وهي «الملاك» ويلاحظ أن هذه الكلمة خدمت رمزاً للجبال والطهر والبرامة . وقد فارتقت هذه الدلالة أصلها الحسي الذي يدل على الرسول الذي يجعل رسالة ، والملاك المرسل إلى الأنبياء ، وغدت من المجاز الحديث .

ودلالة «الملاك» حديثة ، وتدل على ملك نوراني يتشكل بأشكال مختلفة .^(١٧٨) وقد استعملت هذه الكلمة في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية . وهي واردة في عهد القديم للدلالة على «رسول الرب» أي «ملاك» .^(١٧٩)

وفي موضعين من مواضع كثيرة يظهر التطور المجازي . ففي قصيدة بعنوان «عشت فالعجب بشعرها» يقول :^(١٨٠)

من ملاك في برديتها مقيم
جسد طاهر ودوح كريم
وعيا فيه ترى الحسن حيا

(١٦٥) المعجم الوسيط ٢ : ٧٩٦

(١٦٦) شعره . ص ١٦٦

(١٦٧) شعره . ص ٢١٣

(١٦٨) شعره . ص ٣٣٨

(١٦٩) شعره . ص ٣١٨

(١٧٠) الحوى ولنا . ص ١٢١

(١٧١) ديوان أبي ريشة . ١ : ٢٤٣

(١٧٢) المعجم الوسيط . ٢ : ٨٨٦

(١٧٣) شعر «شكوك» - الإصحاح ١٦ : الآية ٧ - ١١

(١٧٤) شعره . ص ١٥٣

وفي الشعر الحديث ترد كلمة «هيكِل» بدلالاتها المجازية في مواضيع كثيرة ، ففي ديوان الشوقيات «هيكِل الحرية»^(١٧٧) و«هيكِل الاسحاح»^(١٧٨) ، وفي ديوان أبي ريشة «هو ذا هيكِل»^(١٧٩) وليس في هيكِل جمال لشمشوم^(١٨٠) ، وفي الشعر المعاصر للطاهر مكي يرد قول فلدوى طوقان «أنا هنا وحدى بيهيكِل ذكرياتي»^(١٨١) ، ومن قصائد الشابي المشهورة قصيدة بعنوان «صلوات في هيكِل الحب»^(١٨٢)

وفي شعر الأختل الصغير ترد كلمة «هيكِل» للدلالة على موضع الذكرى ، والقداسة ، ففي وقوفه أمام الصحراء العربية يرد قوله عن نفسه : «إحدى الشموع أمام هيكلك الرهيب»^(١٨٣) وفي تحية موجهة إلى نضال فلسطين يرد قوله : «فلسطين يا هيكِل الذكريات»^(١٨٤) ، وفي سياق الحديث عن اكتشاف الكهرباء ، يقول على لسانها : «وتحجبت .. وكأ دنس هيكلي»^(١٨٥)

وتشير المواضع الثلاثة إلى استعارة دلالة «هيكِل» : بيت العبادة ، وقوظيفها في سياقات مجازية .

ويسوّغ اتجاه الدرس وقوفنا عند جانب آخر من الدلالة ، «والهيكِل» : الضخم من كل شيء ، والفرس ، والبناء الشرف . وتشير الأصوّل إلى دلالة

وفي قصيدة بعنوان «أترى يذكره» ، يقول :^(١٨٦)

قلت أهواك ياملاكي فرحت
مقلّشاه . لكن تلحشم فوه

ويبدو استعمال كلمة «ملاك» في كلا الموضعين دالا على جمال المحبوب ، وبراءته وطهره . وهي صفات ملحوظة في دلالة «الملك النوراني» . ويمكن أن تعد كلمة «ملاك» رمزا من الرموز الدينية في الشعر الحديث .

وفي مواضيع أخرى ، ترد كلمتا «ملاك» و«ملك» للدلالة على المحبوب أو الملك النوراني في سياقات مجازية .^(١٨٧)

والهيكِل هو بناء البنية برمتها أو صحتها ، وموضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القرّبان . وقد نص الوسيط في طبيعته الأولى على حداثة هذه الدلالة .^(١٨٨)

ويبدو للندارس تطور دلالة «هيكِل» في الشعر الحديث عن طريق المجاز إلى معنى مستحدث يدل على بيت الشاعر ، وملاذ ، ومكان ذكرياته ، وأشواقه . ومن الواضح أن هذه الدلالة المجازية متطورة من دلالة «الهيكِل» على بيت العبادة وما يحدث فيه من مناجاة ويوح ودعاء .

(١٧٥) شعر ، ص ٢٩٤
(١٧٦) شعر ، ص ٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٣ ، ٣٢٢ ، ملاك ، ص ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٨٧ ، ملكة
(١٧٧) للجوم الوسيط ، ١٠٠/٢ ، ط . أبريل ، تصوير ، د . ت
(١٧٨) الشوقيات ، ١٥٢/٢
(١٧٩) المصدر السابق ، ١٥٢/٢
(١٨٠) ديوان أبي ريشة ، ١٨٩/١
(١٨١) المصدر السابق ، ٢٩٤/١
(١٨٢) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أبريل ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٥
(١٨٣) الشابي ، أبو القاسم ، أفاقي الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط . ١٩٥٥ ، ص ١٦١
(١٨٤) شعر ، ص ١٦٥
(١٨٥) شعر ، ص ٢٩٩
(١٨٦) شعر ، ص ٣٥٣

كلمة «عرس» على فرصة الاستقلال ، والنصر ، أو الشهادة ، وترتبط الشهادة بدلالة العرس من جانب اجتماعي ووطني ، فقد غدا سماع نداء الاستشهاد مدعاة لإطلاق الزغاريد ، ومن هنا جاء وصف الشهادة بأنها عرس .

ويمكن أن تنتهي إلى أن كلمة «عرس» غدت تطلق على كل فرح مهما كان نوعه وبشكل الاستعمال المجازي في الشعر أساسا لهذا التطور .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «عرس» في مواضيع كثيرة ، وسوف نقف عند أهم التراكيب المجازية ، ونحيل إلى الباقي . ففي قصيدة بعنوان «ليالي الجهاد» ، ترد عبارة «عرس البطولة» في السياق التالي^(١٨٧) :

أو كقيشارة علاها غبار الـ
مجد خنت عرس البطولة قبلا

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» ، ترد عبارة «عرس الأحرار» ، في قوله^(١٨٨) :

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حرا ، وأنغاسا حزاني

وفي مواضيع أخرى ، ترد كلمة «عرس» للدلالة على الفرح عامة . نحو «نحن عرسان للثناء والشعر»^(١٨٩)

«هيكل» على أنماط ضخمة من الشجر ، ثم انتقلت إلى التحيل تشبيها ، وفي مرحلة تالية تحولت إلى شكل جديد طارء على أهل الجزيرة العربية هو «بيت النصاري» ، وفي دلالة «الهيكل» تتضح قدرة العربية على التكيف مع المستحدثات^(١٩٠) .

والتطور الحديث في هذا الجانب مستمد من دلالة «البناء» ، ففي الفصحى المعاصرة غدت كلمة «هيكل» تدل على بناء أساسي في المصطلحات الأدبية والفنية والصناعية .

ففي المجال الأدبي النقدي ، يقال مثلا «هيكل القصيدة» و«هيكل القصة» . ويلاحظ أيضا ظهور المصدر الصناعي الجديد «الهيكلة» ، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي structuralisme . وقد ترجم إلى «بنوية» ، و«بنائية» ، و«بنائية» أيضا^(١٩١) .

د- وفي مواد أخرى يلاحظ الدارس أثر المجاز في شيوخ الدلالة ، ويعد المجاز في هذا الجانب سببا من أسباب التطور بلجاه التصميم .

فالعرس : الزفاف ، والتزويج ، ووليمنتها ، غير أن هذه الدلالة توسعت عن طريق المجاز في تراكيب شائعة في الفصحى المعاصرة ، نحو : عرس المجد ، وعرس البطولة ، وعرس الأحرار . .

ويلاحظ الدارس إطلاق كلمة «عرس» على الأفراس والمناسبات التي استجلت في حياتنا ، نحو إطلاق

(١٨٧) لندية ، د . طاهر ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣
(١٨٨) للسدي ، د . عبد السلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ص ٢٠٤ ، وهوريك ، ص ١٧٣ ، ويتور من د . محمد ، الأدب وبلغاه ، ص ١٢٤ .
والجولف الأبي ، عدد ١٣٦ - ١٣٧ ، تموز - آب ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٠ والفكر العربي المعاصر ، عدد ١٩ / ١٨ ، شباط - آذار ١٩٨٢ م ، ص ٩٧

(١٨٩) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٣

(١٩٠) المصدر السابق ، ص ١٨٠

(١٩١) المصدر السابق ، ص ٣١

والناس في عرس ، فيست الزغاريد في الحلق والفتاة
دولة ويؤيد استقلال...^(١٩٦)

والأحلام هي عبارة عما يراه الناس في نومه من
الأشياء ، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير
والشيء الحسن ، وغلب الحلم على ما يراه من الشر
والفحش ، ومنه قوله تعالى : «أنصفت أحلام»^(١٩٧) ،
ويستعمل كل واحد منها موضع الآخر.^(١٩٨)

وفي أساس البلاغة ومن المجاز : أحلام نائم
للألماني الكاذبة^(١٩٩) . ويبدو أثر الاستعارة المجازية في
تطور دلالة «الأحلام» إلى كل ما يندلج على الرغبة ،
والأمل ، والأمنية والطموح ، إضافة إلى الدلالة على
مفهوم «الأحلام» في التحليل النفسي الحديث ، وما
استحدثت له من مصطلحات ، نحو «أحلام اليقظة» ،
وهو ضرب من التخيل يربحي الفرد فيه العنان لنفسه
فيهم بين صور خيالية للجنة مشبها برغبات لم تشبع في
الحياة الواقعية.^(٢٠٠)

ويبدو أن هناك علاقة ما بين ما يراه الناس في نومه ،
وما يشناه في صحوه وحياته ، وقد شغل تحليل الأحلام
نفسيا كثيرا من مدارس التحليل النفسي الحديثة .

و«خُنت لعرسك عرس الشعر...»^(٢٠١) ، و«عرس
ماجت البشار فيه»^(٢٠٢) في وصف استقبال روح حافظ
إبراهيم في جنة الخلد . و«عرس أهليجي حر...» في
وصف ذكرى الاستقلال^(٢٠٣) ، و«عاد العرس
مأساة» ، في وصف نكبة لبنان بمعكاه بعد فرحة
الاستقلال.^(٢٠٤) ، و«إسلام فارس أعراس»^(٢٠٥) في
وصف فرحة الفرس بالدين الجديد . وترد أيضا في
مواضع أخرى في سياق صور فنية تقوم غالبا على
المشابهة.^(٢٠٦)

ومثال ماوقفنا عليه مواضع متعددة في الشعر
الحديث ، ففي شعر أبي ريشة «عرس المجد»
و«عرس المجد»^(٢٠٧) ، وفي شعر بدوي الجبل «حملت
زغردة العرس لكم» في وصف فرحة الاستقلال^(٢٠٨) ،
وفي مختارات أشعر العرب المعاصر ، يرد قول سليمان
العيسى «العرس عرس المجد لم تر أمي أشهى وأحل»
وقوله : «أنا من عرسك في الشال تمزج الأعراس
عجلي» ، وقوله : «عرس العروبة...»^(٢٠٩)

وفي آخرين نثرين : «وإذا هو رأى الأعراس
والأفراس أيام فيصل...»^(٢١٠) ، ولكن النكسة حلت

(١٩٦) المصدر السابق ، ص ٦٥

(١٩٧) المصدر السابق ، ص ٢١٧

(١٩٨) المصدر السابق ، ص ٢٣١

(١٩٩) المصدر السابق ، ص ٣٣٨

(٢٠٠) المصدر السابق ، ص ٦٤

(٢٠١) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ١٠٧ ، ١٢١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣١

(٢٠٢) ديوان عمر أبي ريشة ، ١٣٧/١

(٢٠٣) ديوان بدوي الجبل ، ص ٩٥

(٢٠٤) (٥) ، (٦) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩

(٢٠٥) (١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) ، (٩) ، (١٠) ، (١١) ، (١٢) ، (١٣) ، (١٤) ، (١٥) ، (١٦) ، (١٧) ، (١٨) ، (١٩) ، (٢٠) ، (٢١) ، (٢٢) ، (٢٣) ، (٢٤) ، (٢٥) ، (٢٦) ، (٢٧) ، (٢٨) ، (٢٩) ، (٣٠) ، (٣١) ، (٣٢) ، (٣٣) ، (٣٤) ، (٣٥) ، (٣٦) ، (٣٧) ، (٣٨) ، (٣٩) ، (٤٠) ، (٤١) ، (٤٢) ، (٤٣) ، (٤٤) ، (٤٥) ، (٤٦) ، (٤٧) ، (٤٨) ، (٤٩) ، (٥٠) ، (٥١) ، (٥٢) ، (٥٣) ، (٥٤) ، (٥٥) ، (٥٦) ، (٥٧) ، (٥٨) ، (٥٩) ، (٦٠) ، (٦١) ، (٦٢) ، (٦٣) ، (٦٤) ، (٦٥) ، (٦٦) ، (٦٧) ، (٦٨) ، (٦٩) ، (٧٠) ، (٧١) ، (٧٢) ، (٧٣) ، (٧٤) ، (٧٥) ، (٧٦) ، (٧٧) ، (٧٨) ، (٧٩) ، (٨٠) ، (٨١) ، (٨٢) ، (٨٣) ، (٨٤) ، (٨٥) ، (٨٦) ، (٨٧) ، (٨٨) ، (٨٩) ، (٩٠) ، (٩١) ، (٩٢) ، (٩٣) ، (٩٤) ، (٩٥) ، (٩٦) ، (٩٧) ، (٩٨) ، (٩٩) ، (١٠٠) ، (١٠١) ، (١٠٢) ، (١٠٣) ، (١٠٤) ، (١٠٥) ، (١٠٦) ، (١٠٧) ، (١٠٨) ، (١٠٩) ، (١١٠) ، (١١١) ، (١١٢) ، (١١٣) ، (١١٤) ، (١١٥) ، (١١٦) ، (١١٧) ، (١١٨) ، (١١٩) ، (١٢٠) ، (١٢١) ، (١٢٢) ، (١٢٣) ، (١٢٤) ، (١٢٥) ، (١٢٦) ، (١٢٧) ، (١٢٨) ، (١٢٩) ، (١٣٠) ، (١٣١) ، (١٣٢) ، (١٣٣) ، (١٣٤) ، (١٣٥) ، (١٣٦) ، (١٣٧) ، (١٣٨) ، (١٣٩) ، (١٤٠) ، (١٤١) ، (١٤٢) ، (١٤٣) ، (١٤٤) ، (١٤٥) ، (١٤٦) ، (١٤٧) ، (١٤٨) ، (١٤٩) ، (١٥٠) ، (١٥١) ، (١٥٢) ، (١٥٣) ، (١٥٤) ، (١٥٥) ، (١٥٦) ، (١٥٧) ، (١٥٨) ، (١٥٩) ، (١٦٠) ، (١٦١) ، (١٦٢) ، (١٦٣) ، (١٦٤) ، (١٦٥) ، (١٦٦) ، (١٦٧) ، (١٦٨) ، (١٦٩) ، (١٧٠) ، (١٧١) ، (١٧٢) ، (١٧٣) ، (١٧٤) ، (١٧٥) ، (١٧٦) ، (١٧٧) ، (١٧٨) ، (١٧٩) ، (١٨٠) ، (١٨١) ، (١٨٢) ، (١٨٣) ، (١٨٤) ، (١٨٥) ، (١٨٦) ، (١٨٧) ، (١٨٨) ، (١٨٩) ، (١٩٠) ، (١٩١) ، (١٩٢) ، (١٩٣) ، (١٩٤) ، (١٩٥) ، (١٩٦) ، (١٩٧) ، (١٩٨) ، (١٩٩) ، (٢٠٠) ، (٢٠١) ، (٢٠٢) ، (٢٠٣) ، (٢٠٤) ، (٢٠٥) ، (٢٠٦) ، (٢٠٧) ، (٢٠٨) ، (٢٠٩) ، (٢١٠) ، (٢١١) ، (٢١٢) ، (٢١٣) ، (٢١٤) ، (٢١٥) ، (٢١٦) ، (٢١٧) ، (٢١٨) ، (٢١٩) ، (٢٢٠) ، (٢٢١) ، (٢٢٢) ، (٢٢٣) ، (٢٢٤) ، (٢٢٥) ، (٢٢٦) ، (٢٢٧) ، (٢٢٨) ، (٢٢٩) ، (٢٣٠) ، (٢٣١) ، (٢٣٢) ، (٢٣٣) ، (٢٣٤) ، (٢٣٥) ، (٢٣٦) ، (٢٣٧) ، (٢٣٨) ، (٢٣٩) ، (٢٤٠) ، (٢٤١) ، (٢٤٢) ، (٢٤٣) ، (٢٤٤) ، (٢٤٥) ، (٢٤٦) ، (٢٤٧) ، (٢٤٨) ، (٢٤٩) ، (٢٥٠) ، (٢٥١) ، (٢٥٢) ، (٢٥٣) ، (٢٥٤) ، (٢٥٥) ، (٢٥٦) ، (٢٥٧) ، (٢٥٨) ، (٢٥٩) ، (٢٦٠) ، (٢٦١) ، (٢٦٢) ، (٢٦٣) ، (٢٦٤) ، (٢٦٥) ، (٢٦٦) ، (٢٦٧) ، (٢٦٨) ، (٢٦٩) ، (٢٧٠) ، (٢٧١) ، (٢٧٢) ، (٢٧٣) ، (٢٧٤) ، (٢٧٥) ، (٢٧٦) ، (٢٧٧) ، (٢٧٨) ، (٢٧٩) ، (٢٨٠) ، (٢٨١) ، (٢٨٢) ، (٢٨٣) ، (٢٨٤) ، (٢٨٥) ، (٢٨٦) ، (٢٨٧) ، (٢٨٨) ، (٢٨٩) ، (٢٩٠) ، (٢٩١) ، (٢٩٢) ، (٢٩٣) ، (٢٩٤) ، (٢٩٥) ، (٢٩٦) ، (٢٩٧) ، (٢٩٨) ، (٢٩٩) ، (٣٠٠) ، (٣٠١) ، (٣٠٢) ، (٣٠٣) ، (٣٠٤) ، (٣٠٥) ، (٣٠٦) ، (٣٠٧) ، (٣٠٨) ، (٣٠٩) ، (٣١٠) ، (٣١١) ، (٣١٢) ، (٣١٣) ، (٣١٤) ، (٣١٥) ، (٣١٦) ، (٣١٧) ، (٣١٨) ، (٣١٩) ، (٣٢٠) ، (٣٢١) ، (٣٢٢) ، (٣٢٣) ، (٣٢٤) ، (٣٢٥) ، (٣٢٦) ، (٣٢٧) ، (٣٢٨) ، (٣٢٩) ، (٣٣٠) ، (٣٣١) ، (٣٣٢) ، (٣٣٣) ، (٣٣٤) ، (٣٣٥) ، (٣٣٦) ، (٣٣٧) ، (٣٣٨) ، (٣٣٩) ، (٣٤٠) ، (٣٤١) ، (٣٤٢) ، (٣٤٣) ، (٣٤٤) ، (٣٤٥) ، (٣٤٦) ، (٣٤٧) ، (٣٤٨) ، (٣٤٩) ، (٣٥٠) ، (٣٥١) ، (٣٥٢) ، (٣٥٣) ، (٣٥٤) ، (٣٥٥) ، (٣٥٦) ، (٣٥٧) ، (٣٥٨) ، (٣٥٩) ، (٣٦٠) ، (٣٦١) ، (٣٦٢) ، (٣٦٣) ، (٣٦٤) ، (٣٦٥) ، (٣٦٦) ، (٣٦٧) ، (٣٦٨) ، (٣٦٩) ، (٣٧٠) ، (٣٧١) ، (٣٧٢) ، (٣٧٣) ، (٣٧٤) ، (٣٧٥) ، (٣٧٦) ، (٣٧٧) ، (٣٧٨) ، (٣٧٩) ، (٣٨٠) ، (٣٨١) ، (٣٨٢) ، (٣٨٣) ، (٣٨٤) ، (٣٨٥) ، (٣٨٦) ، (٣٨٧) ، (٣٨٨) ، (٣٨٩) ، (٣٩٠) ، (٣٩١) ، (٣٩٢) ، (٣٩٣) ، (٣٩٤) ، (٣٩٥) ، (٣٩٦) ، (٣٩٧) ، (٣٩٨) ، (٣٩٩) ، (٤٠٠) ، (٤٠١) ، (٤٠٢) ، (٤٠٣) ، (٤٠٤) ، (٤٠٥) ، (٤٠٦) ، (٤٠٧) ، (٤٠٨) ، (٤٠٩) ، (٤١٠) ، (٤١١) ، (٤١٢) ، (٤١٣) ، (٤١٤) ، (٤١٥) ، (٤١٦) ، (٤١٧) ، (٤١٨) ، (٤١٩) ، (٤٢٠) ، (٤٢١) ، (٤٢٢) ، (٤٢٣) ، (٤٢٤) ، (٤٢٥) ، (٤٢٦) ، (٤٢٧) ، (٤٢٨) ، (٤٢٩) ، (٤٣٠) ، (٤٣١) ، (٤٣٢) ، (٤٣٣) ، (٤٣٤) ، (٤٣٥) ، (٤٣٦) ، (٤٣٧) ، (٤٣٨) ، (٤٣٩) ، (٤٤٠) ، (٤٤١) ، (٤٤٢) ، (٤٤٣) ، (٤٤٤) ، (٤٤٥) ، (٤٤٦) ، (٤٤٧) ، (٤٤٨) ، (٤٤٩) ، (٤٥٠) ، (٤٥١) ، (٤٥٢) ، (٤٥٣) ، (٤٥٤) ، (٤٥٥) ، (٤٥٦) ، (٤٥٧) ، (٤٥٨) ، (٤٥٩) ، (٤٦٠) ، (٤٦١) ، (٤٦٢) ، (٤٦٣) ، (٤٦٤) ، (٤٦٥) ، (٤٦٦) ، (٤٦٧) ، (٤٦٨) ، (٤٦٩) ، (٤٧٠) ، (٤٧١) ، (٤٧٢) ، (٤٧٣) ، (٤٧٤) ، (٤٧٥) ، (٤٧٦) ، (٤٧٧) ، (٤٧٨) ، (٤٧٩) ، (٤٨٠) ، (٤٨١) ، (٤٨٢) ، (٤٨٣) ، (٤٨٤) ، (٤٨٥) ، (٤٨٦) ، (٤٨٧) ، (٤٨٨) ، (٤٨٩) ، (٤٩٠) ، (٤٩١) ، (٤٩٢) ، (٤٩٣) ، (٤٩٤) ، (٤٩٥) ، (٤٩٦) ، (٤٩٧) ، (٤٩٨) ، (٤٩٩) ، (٥٠٠) ، (٥٠١) ، (٥٠٢) ، (٥٠٣) ، (٥٠٤) ، (٥٠٥) ، (٥٠٦) ، (٥٠٧) ، (٥٠٨) ، (٥٠٩) ، (٥١٠) ، (٥١١) ، (٥١٢) ، (٥١٣) ، (٥١٤) ، (٥١٥) ، (٥١٦) ، (٥١٧) ، (٥١٨) ، (٥١٩) ، (٥٢٠) ، (٥٢١) ، (٥٢٢) ، (٥٢٣) ، (٥٢٤) ، (٥٢٥) ، (٥٢٦) ، (٥٢٧) ، (٥٢٨) ، (٥٢٩) ، (٥٣٠) ، (٥٣١) ، (٥٣٢) ، (٥٣٣) ، (٥٣٤) ، (٥٣٥) ، (٥٣٦) ، (٥٣٧) ، (٥٣٨) ، (٥٣٩) ، (٥٤٠) ، (٥٤١) ، (٥٤٢) ، (٥٤٣) ، (٥٤٤) ، (٥٤٥) ، (٥٤٦) ، (٥٤٧) ، (٥٤٨) ، (٥٤٩) ، (٥٥٠) ، (٥٥١) ، (٥٥٢) ، (٥٥٣) ، (٥٥٤) ، (٥٥٥) ، (٥٥٦) ، (٥٥٧) ، (٥٥٨) ، (٥٥٩) ، (٥٦٠) ، (٥٦١) ، (٥٦٢) ، (٥٦٣) ، (٥٦٤) ، (٥٦٥) ، (٥٦٦) ، (٥٦٧) ، (٥٦٨) ، (٥٦٩) ، (٥٧٠) ، (٥٧١) ، (٥٧٢) ، (٥٧٣) ، (٥٧٤) ، (٥٧٥) ، (٥٧٦) ، (٥٧٧) ، (٥٧٨) ، (٥٧٩) ، (٥٨٠) ، (٥٨١) ، (٥٨٢) ، (٥٨٣) ، (٥٨٤) ، (٥٨٥) ، (٥٨٦) ، (٥٨٧) ، (٥٨٨) ، (٥٨٩) ، (٥٩٠) ، (٥٩١) ، (٥٩٢) ، (٥٩٣) ، (٥٩٤) ، (٥٩٥) ، (٥٩٦) ، (٥٩٧) ، (٥٩٨) ، (٥٩٩) ، (٦٠٠) ، (٦٠١) ، (٦٠٢) ، (٦٠٣) ، (٦٠٤) ، (٦٠٥) ، (٦٠٦) ، (٦٠٧) ، (٦٠٨) ، (٦٠٩) ، (٦١٠) ، (٦١١) ، (٦١٢) ، (٦١٣) ، (٦١٤) ، (٦١٥) ، (٦١٦) ، (٦١٧) ، (٦١٨) ، (٦١٩) ، (٦٢٠) ، (٦٢١) ، (٦٢٢) ، (٦٢٣) ، (٦٢٤) ، (٦٢٥) ، (٦٢٦) ، (٦٢٧) ، (٦٢٨) ، (٦٢٩) ، (٦٣٠) ، (٦٣١) ، (٦٣٢) ، (٦٣٣) ، (٦٣٤) ، (٦٣٥) ، (٦٣٦) ، (٦٣٧) ، (٦٣٨) ، (٦٣٩) ، (٦٤٠) ، (٦٤١) ، (٦٤٢) ، (٦٤٣) ، (٦٤٤) ، (٦٤٥) ، (٦٤٦) ، (٦٤٧) ، (٦٤٨) ، (٦٤٩) ، (٦٥٠) ، (٦٥١) ، (٦٥٢) ، (٦٥٣) ، (٦٥٤) ، (٦٥٥) ، (٦٥٦) ، (٦٥٧) ، (٦٥٨) ، (٦٥٩) ، (٦٦٠) ، (٦٦١) ، (٦٦٢) ، (٦٦٣) ، (٦٦٤) ، (٦٦٥) ، (٦٦٦) ، (٦٦٧) ، (٦٦٨) ، (٦٦٩) ، (٦٧٠) ، (٦٧١) ، (٦٧٢) ، (٦٧٣) ، (٦٧٤) ، (٦٧٥) ، (٦٧٦) ، (٦٧٧) ، (٦٧٨) ، (٦٧٩) ، (٦٨٠) ، (٦٨١) ، (٦٨٢) ، (٦٨٣) ، (٦٨٤) ، (٦٨٥) ، (٦٨٦) ، (٦٨٧) ، (٦٨٨) ، (٦٨٩) ، (٦٩٠) ، (٦٩١) ، (٦٩٢) ، (٦٩٣) ، (٦٩٤) ، (٦٩٥) ، (٦٩٦) ، (٦٩٧) ، (٦٩٨) ، (٦٩٩) ، (٧٠٠) ، (٧٠١) ، (٧٠٢) ، (٧٠٣) ، (٧٠٤) ، (٧٠٥) ، (٧٠٦) ، (٧٠٧) ، (٧٠٨) ، (٧٠٩) ، (٧١٠) ، (٧١١) ، (٧١٢) ، (٧١٣) ، (٧١٤) ، (٧١٥) ، (٧١٦) ، (٧١٧) ، (٧١٨) ، (٧١٩) ، (٧٢٠) ، (٧٢١) ، (٧٢٢) ، (٧٢٣) ، (٧٢٤) ، (٧٢٥) ، (٧٢٦) ، (٧٢٧) ، (٧٢٨) ، (٧٢٩) ، (٧٣٠) ، (٧٣١) ، (٧٣٢) ، (٧٣٣) ، (٧٣٤) ، (٧٣٥) ، (٧٣٦) ، (٧٣٧) ، (٧٣٨) ، (٧٣٩) ، (٧٤٠) ، (٧٤١) ، (٧٤٢) ، (٧٤٣) ، (٧٤٤) ، (٧٤٥) ، (٧٤٦) ، (٧٤٧) ، (٧٤٨) ، (٧٤٩) ، (٧٥٠) ، (٧٥١) ، (٧٥٢) ، (٧٥٣) ، (٧٥٤) ، (٧٥٥) ، (٧٥٦) ، (٧٥٧) ، (٧٥٨) ، (٧٥٩) ، (٧٦٠) ، (٧٦١) ، (٧٦٢) ، (٧٦٣) ، (٧٦٤) ، (٧٦٥) ، (٧٦٦) ، (٧٦٧) ، (٧٦٨) ، (٧٦٩) ، (٧٧٠) ، (٧٧١) ، (٧٧٢) ، (٧٧٣) ، (٧٧٤) ، (٧٧٥) ، (٧٧٦) ، (٧٧٧) ، (٧٧٨) ، (٧٧٩) ، (٧٨٠) ، (٧٨١) ، (٧٨٢) ، (٧٨٣) ، (٧٨٤) ، (٧٨٥) ، (٧٨٦) ، (٧٨٧) ، (٧٨٨) ، (٧٨٩) ، (٧٩٠) ، (٧٩١) ، (٧٩٢) ، (٧٩٣) ، (٧٩٤) ، (٧٩٥) ، (٧٩٦) ، (٧٩٧) ، (٧٩٨) ، (٧٩٩) ، (٨٠٠) ، (٨٠١) ، (٨٠٢) ، (٨٠٣) ، (٨٠٤) ، (٨٠٥) ، (٨٠٦) ، (٨٠٧) ، (٨٠٨) ، (٨٠٩) ، (٨١٠) ، (٨١١) ، (٨١٢) ، (٨١٣) ، (٨١٤) ، (٨١٥) ، (٨١٦) ، (٨١٧) ، (٨١٨) ، (٨١٩) ، (٨٢٠) ، (٨٢١) ، (٨٢٢) ، (٨٢٣) ، (٨٢٤) ، (٨٢٥) ، (٨٢٦) ، (٨٢٧) ، (٨٢٨) ، (٨٢٩) ، (٨٣٠) ، (٨٣١) ، (٨٣٢) ، (٨٣٣) ، (٨٣٤) ، (٨٣٥) ، (٨٣٦) ، (٨٣٧) ، (٨٣٨) ، (٨٣٩) ، (٨٤٠) ، (٨٤١) ، (٨٤٢) ، (٨٤٣) ، (٨٤٤) ، (٨٤٥) ، (٨٤٦) ، (٨٤٧) ، (٨٤٨) ، (٨٤٩) ، (٨٥٠) ، (٨٥١) ، (٨٥٢) ، (٨٥٣) ، (٨٥٤) ، (٨٥٥) ، (٨٥٦) ، (٨٥٧) ، (٨٥٨) ، (٨٥٩) ، (٨٦٠) ، (٨٦١) ، (٨٦٢) ، (٨٦٣) ، (٨٦٤) ، (٨٦٥) ، (٨٦٦) ، (٨٦٧) ، (٨٦٨) ، (٨٦٩) ، (٨٧٠) ، (٨٧١) ، (٨٧٢) ، (٨٧٣) ، (٨٧٤) ، (٨٧٥) ، (٨٧٦) ، (٨٧٧) ، (٨٧٨) ، (٨٧٩) ، (٨٨٠) ، (٨٨١) ، (٨٨٢) ، (٨٨٣) ، (٨٨٤) ، (٨٨٥) ، (٨٨٦) ، (٨٨٧) ، (٨٨٨) ، (٨٨٩) ، (٨٩٠) ، (٨٩١) ، (٨٩٢) ، (٨٩٣) ، (٨٩٤) ، (٨٩٥) ، (٨٩٦) ، (٨٩٧) ، (٨٩٨) ، (٨٩٩) ، (٩٠٠) ، (٩٠١) ، (٩٠٢) ، (٩٠٣) ، (٩٠٤) ، (٩٠٥) ، (٩٠٦) ، (٩٠٧) ، (٩٠٨) ، (٩٠٩) ، (٩١٠) ، (٩١١) ، (٩١٢) ، (٩١٣) ، (٩١٤) ، (٩١٥) ، (٩١٦) ، (٩١٧) ، (٩١٨) ، (٩١٩) ، (٩٢٠) ، (٩٢١) ، (٩٢٢) ، (٩٢٣) ، (٩٢٤) ، (٩٢٥) ، (٩٢٦) ، (٩٢٧) ، (٩٢٨) ، (٩٢٩) ، (٩٣٠) ، (٩٣١) ، (٩٣٢) ، (٩٣٣) ، (٩٣٤) ، (٩٣٥) ، (٩٣٦) ، (٩٣٧) ، (٩٣٨) ، (٩٣٩) ، (٩٤٠) ، (٩٤١) ، (٩٤٢) ، (٩٤٣) ، (٩٤٤) ، (٩٤٥) ، (٩٤٦) ، (٩٤٧) ، (٩٤٨) ، (٩٤٩) ، (٩٥٠) ، (٩٥١) ، (٩٥٢) ، (٩٥٣) ، (٩٥٤) ، (٩٥٥) ، (٩٥٦) ، (٩٥٧) ، (٩٥٨) ، (٩٥٩) ، (٩٦٠) ، (٩٦١) ، (٩٦٢) ، (٩٦٣) ، (٩٦٤) ، (٩٦٥) ، (٩٦٦) ، (٩٦٧) ، (٩٦٨) ، (٩٦٩) ، (٩٧٠) ، (٩٧١) ، (٩٧٢) ، (٩٧٣) ، (٩٧٤) ، (٩٧٥) ، (٩٧٦) ، (٩٧٧) ، (٩٧٨) ، (٩٧٩) ، (٩٨٠) ، (٩٨١) ، (٩٨٢) ، (٩٨٣) ، (٩٨٤) ، (٩٨٥) ، (٩٨٦) ، (٩٨٧) ، (٩٨٨) ، (٩٨٩) ، (٩٩٠) ، (٩٩١) ، (٩٩٢) ، (٩٩٣) ، (٩٩٤) ، (٩٩٥) ، (٩٩٦) ، (٩٩٧) ، (٩٩٨) ، (٩٩٩) ، (١٠٠٠) ، (١٠٠١) ، (١٠٠٢) ، (١٠٠٣) ، (١٠٠٤) ، (١٠٠٥) ، (١٠٠٦) ، (١٠٠٧) ، (١٠٠٨) ، (١٠٠٩) ، (١٠١٠) ، (١٠١١) ، (١٠١٢) ، (١٠١٣) ، (١٠١٤) ، (١٠١٥) ، (١٠١٦) ، (١٠١٧) ، (١٠١٨) ، (١٠١٩) ، (١٠٢٠) ، (١٠٢١) ، (١٠٢٢) ، (١٠٢٣) ، (١٠٢٤) ، (١٠٢٥) ، (١٠٢٦) ، (١٠٢٧) ، (١٠٢٨) ، (١٠٢٩) ، (١٠٣٠) ، (١٠٣١) ، (١٠٣٢) ، (١٠٣٣) ، (١٠٣٤) ، (١٠٣٥) ، (١٠٣٦) ، (١٠٣٧) ، (١٠٣٨) ، (١٠٣٩) ، (١٠٤٠) ، (١٠٤١) ، (١٠٤٢) ، (١٠٤٣) ، (١٠٤٤) ، (١٠٤٥) ، (١٠٤٦) ، (١٠٤٧) ، (١٠٤٨) ، (١٠٤٩) ، (١٠٥٠) ، (١٠٥١) ، (١٠٥٢) ، (١٠٥٣) ، (١٠٥٤) ، (١٠٥٥) ، (١٠٥٦) ، (١٠٥٧) ، (١٠٥٨) ، (١٠٥٩) ، (١٠٦٠) ، (١٠٦١) ، (١٠٦٢) ، (١٠٦٣) ، (١٠٦٤) ، (١٠٦٥) ، (١٠٦٦) ، (١٠٦٧) ، (١٠٦٨) ، (١٠٦٩) ، (١٠٧٠) ، (١٠٧١) ، (١٠٧٢) ، (١٠٧٣) ، (١٠٧٤) ، (١٠٧٥) ، (١٠٧٦) ، (١٠٧٧) ، (١٠٧٨) ، (١٠٧٩) ، (١٠٨٠) ، (١٠٨١) ، (١٠٨٢) ، (١٠٨٣) ، (١٠٨٤) ، (١٠٨٥) ، (١٠٨٦) ، (١٠٨٧) ، (١٠٨٨) ، (١٠٨٩) ، (١٠٩٠) ، (١٠٩١) ، (١٠٩٢) ، (١٠٩٣) ، (١٠٩٤) ، (١٠٩٥) ، (١٠٩٦) ، (١٠٩٧) ، (١٠٩٨) ، (١٠٩٩) ، (١١٠٠) ، (١١٠١) ، (١١٠٢) ، (١١٠٣) ، (١١٠٤) ، (١١٠٥) ، (١١٠٦) ، (١١٠٧) ، (١١٠٨) ، (١١٠٩) ، (١١١٠) ، (١١١١) ، (١١١٢) ، (١١١٣) ، (١١١٤) ، (١١١٥) ، (١١١٦) ، (١١١٧) ، (١١١٨) ، (١١١٩) ، (١١٢٠) ، (١١٢١) ، (١١٢٢) ، (١١٢٣) ، (١١٢٤) ، (١١٢٥) ، (١١٢٦) ، (١١٢٧) ، (١١٢٨) ، (١١٢٩) ، (١١٣٠) ، (١١٣١) ، (١١٣٢) ، (١١٣٣) ، (١١٣٤) ، (١١٣٥) ، (١١٣٦) ، (١١٣٧) ، (١١٣٨) ، (١١٣٩) ، (١١٤٠) ، (١١٤١) ، (١١٤٢) ، (١١٤٣) ، (١١٤٤) ، (١١٤٥) ، (١١٤٦) ، (١١٤٧) ، (١١٤٨) ، (١١٤٩) ، (١١٥٠) ، (١١٥١) ، (١١٥٢) ، (١١٥٣) ، (١١٥٤) ، (١١٥٥) ، (١١٥٦) ، (١١٥٧) ، (١١٥٨) ، (١١٥٩) ، (١١٦٠) ، (١١٦١) ، (١١٦٢) ، (١١٦٣) ، (١١٦٤) ، (١١٦٥) ، (١١٦٦) ، (١١٦٧) ، (١١٦٨) ، (١١٦٩) ، (١١٧٠) ، (١١٧١) ، (١١٧٢) ، (١١٧٣) ، (١١٧٤) ، (١١٧٥)

المصادر والمراجع

- إبراهيم ، طه أحمد تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت .
 ابن الأثير ، حياه الذين نقل السائر في أدب الفلكلور والشعر ، تحقيق محمد يحيى الحسن عشتاشي ، الدار الحلي ، مصر ، ١٩٦٢ م
 ابن كثير السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عدلواحد ، الدار الحلي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م
 ابن منظور ، لسان العرب ، دار صافر ، بيروت ، بتصرف ، د . ت .
 أبو ريشة ، عمر حيوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، رابعة ، ١٩٨١ م
 الأشر ، د . محمد صبرى الشعر في سورية بين الحريين ، أمية مستنسخة في كلية الآداب جامعة حلب ، ١٩٧٦ م - ١٩٧٢ م
 الأصفاوي ، الرائب للفرحات في غرب القرآن ، دار الفرة - بيروت ، د . ت .
 بدرى الحبل (محمد سليمان الأحمد) حيوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، أول ، ١٩٧٨ م
 التاجي ، لغة اللذة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .
 جبران ، جبران خليل البدائع والطرائف ، مكتبة كرم ، دمشق ، د . ت .
 الجرساني ، حيدلواحد لآل الإجماع ، تحقيق د . محمد وصيوك الداية ، دار فنية ، دمشق ، ط ١ ، أول ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م
 الجوري ، بشارة والأساطير المصنوع الحري والشباب ، دار المراف ، ١٩٥٣ م
 شعر الأخطل الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ثالثة ، د . ت .
 خفاطة يوسف ، ورحل ، نديم المصطلحات العلمية والفنية ، دار لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠ م
 فاف ، يوسف أسعد معجم الترسيحات العربية والفنية ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م
 الداية ، د . فايز الجوابب الدالية في لغة الشعر في القرن الرابع الهجري ،
 دار الملاح ، دمشق ، ط ١ ، أول ، ١٩٧٨ م
 الدغلي ، د . عمر . فنون الأدب المعاصر في سورية ، دار الشرق ، حلب ، ط ١ ، أول ، ١٩٧٦ م
 لغة الشعر العربي ، كتابات الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨ م
 رقي ، د . ك . المجاز الداعي ، ترجمة د . حيدلواحد لؤلؤ ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ م
 الريس (محمد بن عبد) أساس البلاغة ، تحقيق حيدلواحد محمد ، دار الفرة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
 السراي ، د . إبراهيم . لغة اللذة للقرآن ، دار العلم للناشر ، بيروت ، ط ١ ، ثالثة ، ١٩٧٨ م
 السويدي المخر في حاتم اللذة وأكواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد آل ويلي محمد الجبوري ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، الدار الحلي ، القاهرة ، د . ت .
 الشامي ، أبو القاسم لحالي الحلي ، دار مصر ، القاهرة ، ط ١ ، أول ، ١٩٥٥ م
 شامير ، د . حيدلواحد في علم اللغة العام ، مديرية الكتب والمطبوعات بجماعة حلب ، ١٩٨١ - ١٩٨٢ م
 الشامي ، معصى للمصطلحات العلمية في اللغة العربية في الفهم والحديث ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م
 شولي ، أسعد الشوكلات ، مطبعة الأ . عظمة ، القاهرة ، ١٩٥٣ م
 حيد ، مازون ، على السلك ، دار الثقافة ، ودار مازون حيد ، بيروت ، ط ١ ، رابعة ، ١٩٧٠ م
 حيدلواحد ، د . جبريل للمجم الأدبي ، دار العلم للناشر ، بيروت ، ط ١ ، أول ، ١٩٧٩ م
 حيدلواحد ، د . جبريل . لتأويل الوسيط (فارسي) ، دار العلم للناشر ودار الآداب ،
 وابرس ، د . سهيل بيروت ، ط ١ ، أول ، ١٩٧٢ م
 الجليل ، أبو ، فلال الأيام ، مطبعة الرياني ، دمشق ، ١٩٤٨ م
 بغداد ، حياي محمد لاحتاحات محتمات في اللغة والأدب ، دار المازون بمصر ، ط ١ ، ثالثة ، د . ت .
 بيدة ، د . حيدلواحد الأخطل الصغير ، حياه وشعره ، دار الأفاق الجامعية ، بيروت ، ط ١ ، أول ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
 كفاك حلي ، حيلة للصحافة ، تحقيق محمد علي حيلة ، دار الفلام ، دمشق
 التكري ، أبو الباق الكليات ، تحقيق عثمان درويش ومحمد الفري ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط ١ ، ثالثة ، ١٩٨١ م ، ١٩٨٢ م
 للوك ، محمد . لغة اللذة وتصانيف العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، سابعة ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م
 جميع اللغة العربية بالقاهرة للمعجم الوسيط ، دار الفكر ، ط ١ ، ثالثة ، د . ت .
 لشدي ، د . حيدلواحد الأسلوب والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط ١ ، ثالثة ، ١٩٨٢ م
 مك ، د . فطاحل أحمد الشعر العربي للناشر ، دار الملويد ، القاهرة ، ط ١ ، أول ، ١٩٨٠ م
 متاور ، د . محمد الأدب وبلاده ، دار بهجة مصر ، القاهرة ، د . ت .
 للتري الترقيب والترقيب ، تحقيق مصطفى حيلة ، الدار الحلي بمصر ، ط ١ ، ثالثة ، ١٩٥٤ م
 هو ، غرامم عظة في اللغة ، ترجمة يحيى الدين يحيى ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٢ م
 حوزيك ، لويس ألفن والأدب ، ترجمة د . بدر الدين ناسم الرافعي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٥ م
 حيل ، الفن الرمزي ، ترجمة جورج طرايبي ، دار الطالعة ، بيروت ، ١٩٧٩ م
 وية ، د . محدي والمهندس ، كتاب معجم للمصطلحات العربية في اللغة والآداب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ م
 وليك ، رباب ، وولير ، لوسن نظرية الأدب ، ترجمة يحيى الدين يحيى ، مرامدة ، دار الحليب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ثالثة ، ١٩٨١ م

الدوريات

- مجلة الآداب ، بيروت ، العدد / ٦ ، حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦٩ م
 مجلة الآداب ، بيروت ، العدد / ٧ ، تموز (يوليو) ، السنة العاشرة ، ١٩٦١ م
 مجلة الفكر العربي للعصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، العدد (١٨ - ١٩) ، شباط - آذار ، ١٩٨٢ م
 مجلة المرقب الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٢٠ ، نيسان ، ١٩٨١ م
 مجلة المرقب الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٢٢ ، حزيران ، ١٩٨١ م
 مجلة المرقب الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٣٥ - ١٣٦ ، تموز - أيلول ، ١٩٨٢ م
 مجلة المرقب الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٣٨ - ١٣٩ ، أيلول ، ١٩٨٢ م

المراجع باللغة الفرنسية

- Dubois (J.), Giacomo (M.), Guespin (L.) Marcellesi (J.B.),
 Mevel (J.P.).
 Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.
 Guiraud (P.)
 La sémantique, Que sais-je? presses universitaires de France 8e édition, Paris 1975.



عندما خصصنا البحث الرابع للزراعة الزوجية في
الشعر السوداني المعاصر ، ضمن سياقها التاريخي
والثقافي ، عللنا هذا المسلك بأهمية دمج المستوى الدلالي
للمتن ورؤية الشاعر للعالم في بنية شعرية أشمل ،
تربطها بالبن حلاقة مرجعية دالة ، وذلك بمقتضى
إجرائية المنهج الذي اخترناه وحاولنا الإفادة من
طوائفه . فحققتوني بنية المتن تماسكها دلالياً وروياً
كان من اللازم أن نلحقها ، وفق ما فعلنا ، بالحقل
الشعري الذي أنتجها وحدها ملامحها التكوينية ،
وعلى ضوء هذا أليس من الواجب والحتمي القيام بنفس
المسلك لإزاء الحقل الشعري السوداني الموسوم بترعته
الزوجية ؟ نقصد أليس في الإمكان دمج هذا الحقل
الشعري ، المرجعي مبدئياً ، في بنية شعرية تشملها هو
الأخر ، وتتيح لنا فهمه بشكل أوسع عما رأينا ؟ وبالتالي
ألا يجوز أن يتقل المرجع من وظيفته التفسيرية للمتن إلى
وظيفة أخرى تجعل منه بنية قابلة لأن تُفسَّر هي في حد
ذاتها ، اعتماداً على بنية أكبر ، أو على مرجع المرجع ؟
كل ما تسألنا حوله ممكن وجائز ، بل وضروري أيضاً ،
نظراً إلى (أن دراسة هذه البنية الأوسع تستلزم بدورها
القيام بدورها في بنية أخرى تتماثل معها ، وتحتويها)^(١) .

السياق التاريخي والثقافي للشعر الزوجي الإفريقي - الأمريكي

بهيبي برصالة

هذا إذن ما سنلجأ إليه في البحث الرابع ، بحيث
ستتصب مقارنتنا على بنية شعرية ، تحوز ، بالقوة
وبالفعل ، أواصر مرجعية مع ما حدثناه كتزعة زوجية
في الشعر السوداني المعاصر ، وهذه البنية الشعرية
المقصودة هي الشعر الزوجي الإفريقي - الأمريكي ،
مؤطراً بإطاره التاريخي والثقافي .

ونحنيا لأي غماو مفرط ، قد يجرنا إليه هذا المسلك ،
نبادر إلى القول إن ما ستقوم به لا يتعلق ببحث ما في

من صاغ مصطلح الزنوجة هو شاعر الهند الغربية إيمى سينير عام ١٩٣٩ ، وتبناه على الفور ليوبولد سيدار سنغور^(٢) ، وقد وردت الكلمة لأول مرة ضمن ديوان سينير المشهور (مذكورة عودة إلى بلدي) الذي نشر في العام نفسه .

هذا ما يتعلق بمفهوم الزنوجة وسولاتها ، ورشها تفصل الحديث في جل ما يرتبط بالزنوجة ، من حيث تدرجها المفهومي ، ومن حيث ردود الفعل التي خلقتها ، نرى لزماً أن تعود إلى فترة ما قبل ولادة الكلمة ، إلى المهدات التي سبقتها ، وبالتالي إلى الأفكار والطروحات التي راجت في العالم الأسود قبل أن ترسم الزنوجة كحركة فكرية على يد الثلاثي المعروف ليوبولد سيدار سنغور ، وإيمى سينير ، وليون داماس . فهل يعقل مثلاً أن تكون الزنوجة قد نهضت ، كمشروع حضاري في انقطاع عن إرهابات مبكرة ؟؟ طبعاً لا ، وحتى مع عدم حيازة تلك الإرهابات لنفس المذلول الذي التصق بالزنوجة ، فهي ترشح بتحليل مقارب للتحليل الذي أعطته الزنوجة لمختلف إشكاليات العالم الأسود . إن تلك الإرهابات تبقى ذات وزن كبير أثناء أي تناول للزنوجة ، لأنها تدلنا على الانشغالات التي استبدت بالفكر الزنوجي ، في ظل التجربة التاريخية المريرة التي مر بها السود وهم يراجهون مشروع تدمير هويتهم . إننا نقصد بهذه الانشغالات مواقف ووجهات نظر لا تخلو من غماسك ، مظانها كتابات ثلة من المثقفين السود ، ممن سبقوا جيل سنغور وسينير وداماس .

وربما أمكن إرجاع بقضة الوعي الزنوجي إلى القرن الثامن عشر ، إلى أحد الفلاسفة الأفارقة ، إنه أمر غريب

احتمالات التأثير التي من الجائز أن تكون للشعراء الزنوج الأفارقة - الأمريكيين على الشعراء السودانيين ، أو استكشاف قرائن ما لا تنعكس شعر أولئك على شعر هؤلاء ، فنحن لا يمكننا لا هذا ولا ذلك ، وإنما الذي يعيننا في الأساس هو عوالة التقاط ما يمكن أن نعتبره نقاطاً للتشابه والتشارك بين الشعراء ، أو ما يمكن عدمه ، باللغة الغولدمانية ، عناصر تمثال بنيوي ، لا تنحصر في تناظرية المكون الدلالي - الرقوي في كليها ، بل ونس سياقتها التاريخية والثقافية . لكن قبل أن نشرع في تحليل مختلف جوانب الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، أليس من المجدي أولاً تناول الكلمة - المفتاح ، الزنوجة ، وتفكيك مدلولها ، وما رافق هذا المذلول من حشيات ، وصولاً إلى تبيان مضامينها المتعددة ، جالياً ودالياً ورقياً ، هل كامل الفعاليات الثقافية لدى زنوج إفريقيا وأمريكا والأنتيل .

يقول ليوبولد سيدار سنغور في استجواب مثل خلال من مفهوم الزنوجة : (للكلمة معنى مركب : موضوعي وذاتي ، موضوعياً تعني الزنوجة ، مثلاً حدثت ذلك ، « مجموع القيم الحضارية للعالم الأسود » ، أما ذاتياً فلها تعني الطريقة التي يتخللها أي زنجي أو أية مجموعة سوداء في ممارسة القيم الأيملة إلى حضارتها^(٣) . هذا هو التعريف الذي سطره سنغور للزنوجة ، ومما أخذنا من هذا التصريف المعنى الموضوعي ، أو أخذنا المعنى الذاتي ، ففي المحصلة تكون حيازة رؤية وجودية خاصة تشترط ممارسة الفرد الأسود ، كما تشمل سائر العالم الذي يحيا به السود . لكن هناك شيء يجب أن ننبه وهو أن كلمة الزنوجة ، كصيغة لغوية ، لم تكن من وضع سنغور ، إذ أن (لول

(٢) (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre. in (Maganine litteraire) no. 195-Mai 1983-P.31.

(٣) ب. س. لوبد : (إفريقيا في عصر المصراع الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٩٦ .

تفخها في الحديث عن هذه الخصوصية ، هي فترة الميلاد الرسمي للزوجة . فالجوهري في استحضارنا لأمور هذا المقال بالذات ، فهو وثيقة تضيف إلى قيمتها التاريخية ، التي لا جدال فيها ، قيمة أولية تتضح في تمثيل أمور من وهي بالدونية وبالاختلاف ، وأيضا من وهي بأهمية تتجاوز هذه الدونية القسرية ، ثم التنظير لاختلاف الهوية الزوجية من الهوية البيضاء ، مع العلم أن الإحساس بالدونية والاختلاف هو الذي حرك كل الأوعية الزوجية التي سبقت ميلاد الزوجة أو تولدت من صلبها . لقد كان أموجر لاهوت ومنطق وميتافيزيقا ، يبد أن ما تكتسبه الوثيقة الأتفة من وزن يفوق وزن كل ما خلقه من تراث نظري ، ولعل الفضل في اكتشاف تلك الوثيقة يعود إلى الزعيم الإفريقي قوامي نكروما . هذا من جانب ومن جانب آخر فإن اختيار أسو - بعد استعادته لحريته - العودة إلى مسقط رأسه له دلالة القصوى في رأينا ، إذ فضل الرجوع إلى إفريقيا بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي أتاحها له إقامته في أوروبا . إن العودة من لندن فيلسوف ، لن يجد حثا في قارته مناخا علميا موافيا ، تأخذ بعدا عميقا ، فهي اختيار وجودي دال ، ووعي بضرورة الانشداد إلى فضاء وثقافة ذاتيين ، داخلها يجب أن يتأمل ويبدع بكل المكوث في فضاء وثقافة غربيين .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن التاسع عشر نسوف نواجه على آخر كان لأراه ، ولا شك ، أثر ملموس في مفهوم « الشخصية الإفريقية » ذي الصلة الوثيقة بمفهوم الزوجة ، إنه إيدوارد بلمنت بلاندين ، الفكر الزوجي النافع الصيت ، خصوصا في أوساط المثقفين السود الناطقين بالإنجليزية وكما كان للثقافة الغربية قملها في تملل وهي الفيلسوف أسو ، يقدم بلاندين مثالا إضافيا

أفريق أو أفريقيا الإفريقي ، أحد المسكوت عنهم في تاريخ الفلسفة الإنسانية . فلقد كان لإحساس هذا الفيلسوف بمآزقه العبودي - بحيث أخذ من إفريقيا إلى أوروبا كمعد في بداية الأمر - تأثير كبير في تفتح وعيه على هويته المغايرة ، وفي إدراكه لحجوة التسلح بالمعرفة الغربية ، الفلسفية خاصة ، لكي يتمكن من التنظير لمآزقه العبودي ومغايرة هويته ، باعتبارهما مازقا ومغايرة يمان ملايين من إخوانه السود . وهكذا كان حرصه على التكوين الفكري لشخصيته ، وحل النبل من نفس الثقافة الغربية التي تسوغ استعباده واستعباد أبناء جنسه ، فكان نبوغه الفلسفي في ألمانيا مشارا انتباه الأوساط الفلسفية وقتئذ ، بل ولقد أوصلته لثمته الفكرية ، وهو الأسود المستعبد ، إلى التربع على كرسي التدريس الجامعي في جامعات « هال » و « بيتربورغ » و « إينا » خلال العقد الرابع من القرن الثامن عشر . ومن هنا كان ضروريا أن تغطي هذه التجربة المتفردة ، أي قدرة أسود على امتلاك الثقافة الغربية ، إلى نشوء وهي لدى أسو بجدارته الإنسانية ، وبأحسية السود في وضع حقوقي يعيد إليهم الاعتبار ، فكتب مقالا باللاتينية تحت عنوان « حقوق الأفارقة بأوروبا » ، وما لا ريب فيه أن (هذا المقال ذو أهمية ، ذلك أنه يؤكد إلى أي حد كان أسو أوعى وهي بوضعته كإفريقي ، وإلى أي حد كان أبيضنا مشغلا بمشكلة الاسترقاق وبالشرط الاجتماعي للسود في أوروبا)^(٤٦).

فالقول بمعالجته الريادية لمشكلة الاسترقاق ، ولاصطدام السود المتقنين إلى أوروبا بمنأج اجتماعي مغاير ، يبقى في نظرنا عطة أساسية في سيرورة الفكر الزنوجي ، ومعلمة مضبوطة تكشف عن إدراك للخصوصية السوداء - قبل فترة الثلاثينات التي شهدت

لما أسهمت به هذه الثقافة ، بشكل غير مباشر ، في تحسس مثقف أسود لإشكالية علاقته بتاريخه الخاص ، وبالثقافة البيضاء التي لا تتوانى عن تحطيم تاريخه ذلك ، ومن لب هذه الثقافة المعادية صنع بلايدن منظوره النقدي لأوضاع العالم الأسود ، ويبحث في احتمالات تجاوز السود لما يطبع أوضاعهم من انقصام واختلال على أكثر من وجه .

لكن إذا كان أمر قد نهل من معين الثقافة اللاتينية السائدة آنف في أوروبا ، فإن بلايدن قد متح من مصادر ثسافية أنجلو سأكسونية ، بفضل استقراره لفترة في الولايات المتحدة ، وعلى شاكلة أمر فقد تقلد هو الآخر منصب الأستاذية بجامعة « ليرييا » ج كما أفادته زيارته لأوروبا في الاطلاع على ثقافتها .

إن بلايدن ينتمي إلى تلك الفئة من المثقفين الزنوج التي رجعت ، ضمن من رجعوا ، إلى إفريقيا بعد صدور قانون العودة الأمريكي الذي خول للعبيد المحررين تأسيس كيان وطني في ليبيريا وسيراليون ، فتولد لدى هذا الفكر شعور بحقوق الفوارق بينه وبين أبناء جلسته على المستويين الثقافي والاجتماعي . فهو القادم من أمريكا ، والمتفتح على الفكر الغربي ، والقادر على استيعابه ، في حين يبرز إخوانته السود تحت نير الجهل ، مع عجزهم من تحليل إشكالية علاقتهم بالعالم الأبيض المسؤول عن أوضاعهم . وهو المثقف الزنوجي المشحون بالقيم والتقاليد الغربية ، بينما يعيش هؤلاء الذين ظلوا في إفريقيا في يؤس فظيع ، وهذا ما دفعه إلى أن يصب جماع تفكيره على تأسيس خطاب يكتفل تفسير هذه المفارقة العميقة ، ويقدر على تحليل عناصرها ،

بحثا عن تأصيل مغايرة سوداء عن الثقافة البيضاء ، هذه الثقافة التي كان بلايدن على وحي مضاعفاتا على شخصيته الوجودية والفكرية . وهذا بعد (أول مثقف أسود فكر تفكيراً زنوجياً خالصاً وجعل من إفريقيا وحدة أصيلة متميزة عن سواها)^(٥) ، فإليه يرجع (مفهوم « الشخصية الإفريقية » وهو ما كانوا يردونه إلى نكروما ، فقد كان من مفاهيمه التي تردد فيها يغضب ويقول)^(٦) ، وعلى ذكر نكروما لابد أن نشير إلى التأثير الذي كان لأفكار بلايدن على أطروحته ، بل إن ذلك التأثير لم يقتصر على نكروما وإنما تعدا إلى أغلب مثقفي إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، وكذا قطاع واسع من مثقفي إفريقيا الناطقة بالفرنسية . وعلى أي فقد (بطول شرح النظرية التي انتهى إليها بلايدن ، فهي تذكر من عدة وجوه بالنظرية التي استبطلها ليوبولد سيدار سنغور ودعاهما الزنجية)^(٧) .

وفي نفس القرن يمكن أن نذكر دائماً إسبا آخر اقترن بشعوره بنفس المنظور الفكري للمسألة الزنوجية ، ويتعلق الأمر هذه المرة بالفكر الزنوجي الأمريكي ويليام دي بوا الذي شرع ابتداء من عام ١٨٩٠ في الدفاع عن أصولية الشخصية السوداء في المجتمع الأمريكي . لقد عرف ديويوا كرجل فلسفة ، درس في جامعتي « هارفارد » و « برلين » ، واختتم مساره التعليمي بالحصول على شهادة الدكتوراة في الفلسفة ، لكن بموازاة اهتماماته الفلسفية كانت له اهتمامات أخرى بقضايا العالم الأسود والشخصية السوداء . وعلى الرغم مما طبع أفكار ديويوا من تجزئية ، مردها إلى اقتناصه بالفوارق الواردة بين السود الأفارقة وسود الشتات على مستوى الأولويات

(٥) قسم الزميري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٤٩

(٦) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٧٧ .

(٧) قسم الزميري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٥٠ .

القيح في الوقت نفسه . إن الطلبة تنوح وتضطج ، إذا كان يملوهم سماعها فذلك يسبب لنا فرحا عظيما . أما إذا كانوا لا يعبون سماعها فلا يمتنا ذلك أبدا . نحن نبني معابدنا كما يملر لنا ، ونقف بأنفة وإياه وقد غورنا من اللذ والعبودية ^(٨) .

ولا ريب أن البيان يكشف ، بكثير من الوضوح ، عن البرنامج النظري لتيار « البقطة الزنوجية » ، وهو برنامج يندم مشروع التعبير عن الشخصية الزنوجية داخل عيط إثني وثقافي أبيض ، كما يبين عن جرأة فكرية في الإفصاح عن هي أسود أمريكي ، متحرر من ثقل المركبات التاريخية التي راكمتها عقود من المحاصرة والاضطهاد .

وإجمالاً فقد شكل مشروع « البقطة الزنوجية » بوتقة انصهرت فيها روايات فكرية عديدة ، بحيث يحضر التراث الزنوجي والمسيحية ، مثلاً تحضر الشيوعية السوفياتية وفلسفة اللاعنف الغاندية . ولا شك أن طبيعة هذه الروايات تبين نومية الاختيارات الفكرية والإيديولوجية لتلك الجماعة من المثقفين الزنوج الأمريكيين ، فبقدر ما أولوا للتراث الزنوجي أهمية كبيرة جلبتهم إلى المسيحية قيمها الإنسانية كالعندالة والإخاء . . وكما انتقوا من الشيوعية معادلتها للاستغلال الرأسمالي آثارهم في الغاندية تمجيداً للقدرة القتالية الروحية الشرقية على مغالبة الجيروت والاضطهاد الأبيضين . وهكذا عملوا على استثمار كل هذه الروايات لتحليل عجل المآزق العرقية مع العالم الأبيض ، مع تركيزهم على ضرورة التخلي عن (وضعية التسول

النضالية بحيث كان) يدافع عن حقوق سود أمريكا ناظراً إليهم كأمريكيين ، ويشير في الإفريقيين حية إنجناز تحورهم على أرضهم ^(٩) ، قلنا على الرغم من هذه التجزئية فإننا لا يمكن أن نتغاضى عن جهده في تحليل بعض مآزق السود السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص . إن خطاب دي برا ينشد إلى ما هو (إيديولوجي أكثر من انشداده إلى ما هو حضاري في كليته وشموليته ، ومع ذلك فإن الزاوية الأكثر مردودية في هذا الخطاب تتجلى أولاً في تأثيره القوي على أفكار وأطروحات كل من جورج بانمور ، وقواني نكروما ، وجومو كينياتا ، الذين هم أقطاب ما يعرف بمفهوم « الشخصية الإفريقية » ، وثانياً في تحول الخطاب المذكور إلى ما يشبه الإنجيل لدى مجموعة من المبدعين الزنوج الأمريكيين الشام شملهم حول تيار زنوجي أمريكي يدهى « البقطة الزنوجية » ، إذ استمد هذا التيار الكثير من مركزاته الفكرية عما سطره دي برا حول الشرط الانساني للسود في مجتمع أبيض واضطهادي كالمجتمع الأمريكي ، وكان من بين أعضاء هذا التيار لانفستون هيوز ، وكلود مالك كي ، وكوتني كولن ، وستير لينغ براون ، وجان تومير . . . الذين أصدروا بياناً مشهوراً حددوا ضمنه بعضاً من مواقفهم وتصوراتهم حيال المسألة الزنوجية ، وبما جاء في هذا البيان : (نحن بناة الجيل الزنوجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصالتنا الزنوجية دون أي شعور بالخجل أو الحروف . فلذا كان ذلك يروق للبيض فسكون سمدله كثيرا . وإذا كان لا يروقهم فلا نبالي بذلك أبدا . نحن نعلم علم اليقين أننا على جانب كبير من الجمال ومن

(٨) - Lyllan Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du (٨) xx e siècle) P. 15.

(٩) - محيل خطا : (الادب الزنوجي الإفريقي الحديث) مجلة والمرقة ، في ٢٠ العدد ٢٢٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

الثقافي التي كان عليها الأمريكي الأسود»^(١٠)، وعلى ضرورة (امتلاك وعي بالهوية)^(١١).

لقد ساد هذا التيار لفترة امتدت من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٨، الشيء الذي يؤكد سبقه التاريخي على نشوء الحلقة الباريسية التي اقترنت ذكرها بمفهوم الزنوجية، بل إن ثمامسك التصورات وتشيع النصوص الإبداعية بروح زنوجية أصيلة، وهما ما ميزا كتابات أعضاء «القبضة الزنوجية»، صنما شهرة هذه الأخيرة (فوصل تأثيرها شيئا فشيئا إلى جزر الأنثيل الفرنسية، وكوبا، وهاييتي، ثم فرنسا حيث كانت تتبلور النخبة الفنية للمستعمرات الإفريقية)^(١٢)، وهذا يفيد وصول أميداء معينة من وراء المحيط إلى مقهى «مونمارتر» الباريسي حيث كان يجتمع سنغور وسيزير وداماس، زيادة على ما كان لزيارات لانغستون هيوز وكلود ماك كي لباريس من آثار لا تنكر على توجهات الثلاثي الناطق بالفرنسية.

إن استعراضنا للمحطات الفكرية التي سبقت الولادة الرسمية لمفهوم الزنوجية يهدف إذن إلى تجلية المسار الذي سلكه الوعي الزنوجي قبيل فترة الثلاثينات، فالمفهوم لم ينبج من فراغ، ولم ينهض في أرض يباب، وإنما ولد في نطاق تراث مهد له وهذاه حتى استوى أفعالا على يدي كل من سنغور وسيزير وداماس. وإذا كان لنا أن نسمي ما استعرضناه بالوسائط الفكرية الممهدة للزنوجية، يمكن، بالمقابل، أن نستعرض

الوسائط الإعلامية التي احتضنت أقلاما عرفت بإسهامها في تأسيس الزنوجية، وذلك من خلال الكتابة في مجلات وصحف أصبح تاريخها جزءا من تاريخ الحركة الزنوجية. (ففي عام ١٩٢٢، ظهرت بباريس مجلة صغيرة طبعت رسميا، وعمى من المعاني، بداية الأدب الزنوجي المكتوب بالفرنسية)^(١٣)، وقد تأسست على يد مجموعة من الطلبة المارتينيكيين الذين كانوا يدرسون بباريس، أشهرهم سيزير، ثم انضم إليهم السينغالي سنغور والغوياني داماس. كان اسم المجلة هو «الدفاع المشروع»، ولعل في هذه التسمية ما يدل على غلط التحليل الذي ارتآه هؤلاء الطلبة، فالمسألة تتعلق إذن بموقف دفاعي: دفاع عن الهوية، ورد الاعتبار لمجموعة إثنية خضعت لعنف متعدد مورس عليها، عنف عبودي وعنق استعماري وعنق ثقافي... وبموازاة هذا الدفاع أعلنت المجلة عن انحيازها إلى القوى المناهضة لكل تلك الأشكال من العنف، فكان تضامنها مع الأمية الشائقة ومع المثل التي اعتنقتها الحزب الشيوعي الفرنسي.

ومادام الحقل الإبداعي الذي ألف بين هؤلاء الطلبة هو الحقل الشعري فقد نزعوا إلى إبداع كتابة شعرية متحررة من نفوذ الجمالية الكلاسيكية والرومانسية الفرنسية، ومنفتحة على التقنية الشعرية للبرناسيين والسرياليين، إلى جانب تأثرهم بشعر تيار «القبضة الزنوجية». ومع إدراك هؤلاء الطلبة لضيق أفق الاختيار على مستوى لغة الكتابة، فإنهم حاولوا تطويع

— Jean marie lemogede : (Reflexions sur le concept de negritude) in :

(١٠)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطنس - لستبي ١٩٧٩ - ١٩٨٠، المجلد الثاني والثالث، ص ٥٢٤.

(١١)

— Ibid, P. 534

— Lytlan katehoo : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des promoteurs, poètes et dramaturges noirs du 19^e et 20^e siècle) P. 21.

— Lytlan katehoo : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des promoteurs, poètes et dramaturges noirs du 19^e et 20^e siècle) P. 75.

القيم والتقاليد الغربية فكان (من المحتمي أن يؤسس هذا الموقف القاعدة لثورة ثقافية أصيلة ، ومن هنا كان ميلاد حركة الزنوجة^(١٦) ، أما المبدعون الذين كانوا يسرون الصحيفة فهم سنغور ، وسيزير ، وداماس ، ثم التحق بهم كل من ليونار سانت قيل ، وأرسطوتيد موجي ، وبيراجوديوب ، ولوسمان سويس ، والأخوين أشيل .

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية توقفت الصحيفة ، بسبب تشتت الملتجئين حولها ، فقد انضم سنغور إلى الجيش الفرنسي والتحق بالجبهة ، أما سيزير فقد عاد إلى المارتينيك ليصدر مجلة باسم « مدارات » ، بحيث ستفرز هذه المجلة بعض الأسماء الثقافية اللاحقة ومنها فراتزفانتون ، وإدوار كليسان ، وروني ديوسير ، وجورج ديسبورت ينشأ اختصار داماس الصمت والانسحاب نتيجة متاعب سياسية . لكن الإحباطات التي تولدت عن اغتصاب الصحيفة كمثير حيوي للنتيجة الثقافية الزنوجية بباريس سرعان ما تبددت ، وذلك إثر ظهور مجلة جديدة حملت إسماً بليغاً هو الآخر وهي مجلة « الحضور الإفريقي » التي ظهرت بفعل جهد وثنائية رحيل آخر من المثقفين السود المتواجدين بباريس كالسينغالي أليون ديوب ، والغوادولوين بول نيجير ، وكريتيرويلان ، والعاجي برنار دانيي ، والداهومين آيبي ويهاتزان ، وأنغيرا الملقاشي رايمانانجرا .

وقد صدر العدد الأول من « الحضور الإفريقي » في يناير ١٩٤٧ ، بكل من باريس وداكار ، ثم تلت أعداد

بنية اللغة الفرنسية حتى تستوعب أساطيلاً من الثقافة السوداء ، مما يعني عزوفهم عن كثير من القيم التعبيرية في اللغة الوسيطة الإيجابية ، و(ضمن هذا العزوف الذي هو مطلع على تحرير الأسلوب ، كان مطلع للمجلة إلى تحرير الخيال والشخصية الزنوجيين^(١٧) . ونظراً للضغوط التي اعترضت « الدفاع للمشروع » سواء من طرف غلاة الفرنسيين ، أم من طزف اليورجوازية السوداء في الأنتيل لم تتمكن إلا من إصدار عدد واحد (يونيو ١٩٣٢) . ثم جاءت بعدها صحيفة « الطالب الأسود » التي طالت مدة صلبورها بالقلادة مع « الدفاع المشروع » ، إذا انطلقت في عام ١٩٣٤ لتتوقف عام ١٩٤٠ . ومرة أخرى تواجه تسمية لا تخلو من دلالة ، ففي الوقت الذي كان في الإمكان صوغ عناوين ذات إيماء أدبي تعتمد أصحابها تسميتها بـ « الطالب الأسود » كنوع من الإفصاح عن خطاب أدبي قائم إلى باريس من وراء البحار ، أبدعه مبدعون ينتمون إلى ثقافة تتحضر للأخذ بمصيرها . لقد تركزت جهود الصحيفة على إنضاج وهي أسود جماعي يوحد بين سود إفريقيا وسود الأنتيل داعية إلى التخلص من الأفكار القبلية والإقليمية ، وإلى تجنب اللويان في الحضارة البيضاء ، وفي نفس الاتجاه « طالب » الطالب الأسود « بالحرية الإبداعية للزنجي خارج كل تقليد شرقي ، إلا أنها ذهبت بعيداً فعميت الوسيلة التي سيتمكن بها الأسود من تحقيق تحرره من أي احتواء : هذه الوسيلة تكمن في العودة إلى النبايع الإفريقية^(١٨) ، أي الرفض المطلق لأية رابطة مع الغرب من غير رابطة اللغة ، والتحرر من

— Abdallah Benmamoun : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine) in

(١٤)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بباريس لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، المجلد الثاني والثالث من ٤٧٨ .

— T. Yllan Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du XXe siècle) P. 79.

— Abdallah Benmamoun : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine), in

(١٦)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بباريس - لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، المجلد الثاني والثالث ، من ٤٧٧ .

المثقفين البيض ، (ووجدت جمهورها شيئا فشيئا خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك التاريخ ، وخلقت حركة أدبية جديدة بين الزنوج الناطقين بالفرنسية)^(١٧) ، إن سيزير « سيكتشف مهاته » حين كان يقرنسايمي شهادة الإجازة في الآداب^(١٨) ، وإثر ذلك خاطب سنشور قائلا : (يجب علينا أن نثبت زنوجيتنا)^(١٩) .

كذا بدأت قصة الزنوجية ، لكن ماذا يعني أن يثبت سيزير وسنغور زنوجيتهم ؟ يعني أن يتشبا بحضارتها ، وأن يحكما حل تاريخها ، وأن يتركها مسافة كافية بينها وبين الحضارة البيضاء ، على أن ترك المسافة لا يشير إلى قطيعة نهائية بقدر ما يشير إلى ضمان تماسك الذات السوداء ، وتزويدها بالثقة في حضارتها وفي تاريخها ، ثم شعبها يروجها الجماعية لأن (البحث عن روح جماعية يعد أمرا معقولا ومقبولا عندما نذكر بأن كلا من سنغور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة ، أئوا من جهات متفرقة من العالم ، وتباين ظروفهم الاجتماعية ، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم ورأسهم ، وربما الأصول المشتركة البعيدة ، ونظرا لأن حالتهم النفسية أو روحهم غير مستريحة فليس هناك أفضل من البحث عن روح جماعية)^(٢٠) . وعليه فقد (تأمل ثلوث الزنوجية ذلك كله ثم انتهوا إلى أنهم رسل لبلادهم ، وأن عليهم إثبات حقهم في الحياة أولا ، ثم تحطيم خرافة « النطق الأبيض » ثانيا ، ثم إنشاء أدب يعمل الحب والأمل للعالم ، ولو أدى ذلك إلى الاشتداد في استرداد وجههم المفقود الذي حاول المستعمرون طلامه باللون الأبيض وتزييف أصالته)^(٢١) .

منتظمة تضمنت مواد ونصوصا تدور حول قضايا العالم الأسود وخاصة الثقافية منها ، وهكذا عالجت قضايا الآداب الشفوية ، والموسيقى الزنوجية الإفريقية - الأمريكية ، كالجاز مثلا ، كما لم تغفل إضاءة جوانب من الفلسفات الإفريقية ، وجوانب من المعتقدات لدى زنوج الأنتيل كالقدود الهامتي . ولم تكتف المجلة بإصدار أعدادها المنتظمة ، بل وازت ذلك بإصدار منشورات في مختلف الحقول الثقافية عرفت بـ (منشورات الحضور الإفريقي) . وما لا شك فيه أن انضمام أساه وأزنة ، سواء من العالم الأسود ، أو من فرنسا ، إلى الأعضاء المؤسسين قد خدم تطور المجلة وفروعها وسمعتها العلمية ، ومن بين هذه الأسماء سنغور ، وسيزير ، والأمريكي ريتشارد رايت ، والداهومي بول هازوي ، وصارتر ، وجيد ، وموني ، وبالاتشي . كانت هذه إذن نظرة على ما هوئها بالوسائط الفكرية والإعلامية التي اعتمدها الحلقة الباريسية في إطلاق صيحة الزنوجية كعقيدة تتوخى توحيد العالم الأسود ، فأمر ، وبلندن ، وفي بوا ، وأعضاء تيار « البقطة الزنوجية » هم الذين أرسوا المقدمات الفكرية الأساسية لولادة الزنوجية ، في حين مثلت منابر « الدفاع المشروع » و« الطلاب الأسود » و« الحضور الإفريقي » المجال الإعلامي الذي رعى الزنوجية ودعم حضورها وأملها بأساسها مبدعة إضافية . ولتد الآن إلى المفهوم في حد ذاته ، فقد قلنا سابقا إن الفصل في ابتكار كلمة الزنوجية يعود في المقام الأول إلى إيمي سيزير الذي أوردته في ديوانته (ملكرة عمدة إلى بلدي) (١٩٣٩) ، ومن ثم شاع تداولها بين المثقفين السود ، وفي حلققت وكسايت

(١٧) جيرفيسود : « سبعة ألبام من إفريقيا » ترجمة : علي شلال ، ص ١٩ .

(١٨)

(١٩)

(٢٠) الدكتور محمد عبد القوي محروني : (ثقافيا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢١) علي شلال : (ألبام من الأدب الإفريقي) ، ص ١٣ .

— Frantz Fanon : (peau noire, masques blancs) P. 156.

— Stanislas Adolovi : (Négritude et negrologues) P. 16.

ملغاضي ، وهذا أمريكي والآخر مارتينيكي ، لأول مرة توطدت عقيدة الانتباه الواحد والمصدر الواحد . وتعد هذه العقيدة أحد أهم مكاسب الزنوجية ، إذ يسرت وحدة الصف إمكانية تأسيس خطاب فكري يهم جماع العالم الأسود ، في قضاياها المادية والروحية ، بقطع النظر عن صوامل اختلافه المصطنعة . وقيل الحديث عن مختلف المدارس الشعرية الزنوجية فجاء بنا أن نسط القول في أبرز جوانب هذا الخطاب ، وأن نتناول أهم الإشكاليات التي استقطبت بال أصحابه ، إلا أننا سنركز أكثر ما يمكن على آراء سنغور باعتباره الناطق الرسمي باسم الزنوجية ، ويشفع له في هذه الخطوة لمعيتة وغزارة كتاباته النظرية بالمقارنة مع رفاقه .

وربما اعتبرنا العلاقة مع الغرب أسخن جبهة واجهت الزنوجية ، سواء على مستوى المكتوب النظري أم على مستوى الإبداع الشعري ، لماذا هي أسخن جبهة على الإطلاق ؟ الغرب هو معقل أزمات الذات السوداء ، فالاصطدام بالغرب هو الذي أنشأ السؤال المركزي حول مصداقية الكلام عن حضارة سوداء لها القدرة على صيانة العالم الأسود من خطورة الهيمنة الثقافية البيضاء ، كما تستطيع لإفحام أساليب التشكيك المنهجي للببيض في تاريخ السود وثقافتهم ، لذا أنكبت الزنوجية على تحليل هذه الزاوية لأنها المدخل الرئيسي لمشروع الهوية الزنوجية وتصليب منطقها البنائي .

وهكذا شرعنا الزنوجية في الحديث عن وجود حضارة سوداء ، وعن ثلاثة هذه الحضارة ، وعبريتها ، بل وإخصابها لكثير من الحضارات الإنسانية ، وإن كان هناك شيء جدير بالذكر فهو الدور الذي مارسته كتابات

بهذا يتجلى نوع التحليل الذي اتخذته الشلاحي المؤسس للزنوجية ، فهناك الإيمان بجدارية العالم الأسود وجدارية حضارته وتاريخه ، وهناك أيضا إزماع ضمني على تفكيك إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، التي اغتالت ثقة السود في جدارتهم بين الأمم والأجناس . إن الزنوجية أقرب إلى صرخة الوليد الذي يطل معلنا عن حياته بعد تعاقب ألوان من الموت المادي والنفسي ، حملتها عهود الاضطهاد الأبيض ، وهي أيضا سلاح واق من الاستتباع الحضاري ، ومن الإحساس بالدونية أمام النموذج الحضاري الغربي ، ولذلك التفت الثلاثة حول أهمية تحويل الزنوجية إلى عقيدة لحماية الشخصية السوداء ، وتلافي الاختلالات الجغرافية والاجتماعية ، إذ أن ما يوجد بين السود هو لوهم وهويتهم المشتركة . ولستم إلى سيزير متحلثا حيا يجمعه مع سنغور (إن ما يجمعنا هو الرفض المتصلب لأن نكون مستثنين ، لأن نفقد روابطنا ببلداننا ، ويشعونا ، ويلغتنا) (٢٧)، إذن لقد أتى أوان تحطيم سلطة اللون ، من حيث كونها حاجزا أمام ملاهية الشخصية السوداء لهويتها الحقيقية ، فاللون في نظر سنغور (أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية) (٢٨)، أو كما يقول الكاتب الهايتي روني دويستر (لقد صُبر اللون حاجزا منيعا بين جنسي الأسود وما حققه في التاريخ) (٢٩).

لأول مرة صمت ، بفضل الزنوجية ، حساسية مشتركة بين المثقفين السود بباريس ، فاندثرت تلك الدعوات الإقليمية التي زكاهما الاستعمار ، من مثال هذا سينغالي والآخر عاجي ، وهذا كاميروني والآخر

— *Alme cesaire, Nègre rebelle* in *(Le Monde de dimanche)* No. 11463-dimanche 6 decembre 1981-P. 1.

(٢٢)

(٢٣) الدكتور محمد عبد المكي سموري : قضايا إفريقية ص ٢١٢ .

(٢٤) روني دويستر : (الأسس الاجتماعية للعنصرية للشخصيات) ، (النهج الإفريقية) ص ٣٠٠ .

الزنجي ، وقدرته على خلق أنماط عقائدية ،
وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وفنية حلت
سمات متميزة .

فقد عرفت المجتمعات الإفريقية فكرة الألوهية
فأهدت طقوسها التعبدية الخاصة ، بينما قام نظام
الحكم لديها على قواعد وأصول تكشف عن غير قليل من
الضبط والتنظيم ، وعلى صعيد الاقتصاد توصلت تلك
المجتمعات إلى تحقيق حاجاتها الحيوية ، أما الفائض
فكان يُسوّق إن بالتقَد أو بالمقايضة ، في حين لم تعرف
المجتمعات المذكورة التفاوت الطبقي ، مادامت الحياة
تقوم على أساس التعاضد والتكافل ، وهو ما دفع سنغور
إلى الحديث عن اشتراك إفريقية أصيلة . وعندما تنكلم
عن الفنون فلا نعتد أنه يمكن الفرض على ما خلفه
الفنانون السود من تحف وروائع ، خاصة في العمارة
والنحت ، و(أقدم إنتاج فني إفريقي يصل إلى القرن
الخامس قبل الميلاد (ثقافة نوك) ، ومع بداية العصر
الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية في القرن السادس
الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو SAO في القرن التاسع .
وفي القرن الثالث عشر ظهرت الإمبراطوريات الإفريقية
الكبيرة (البيرويا ونيين) واعتبرا من القرن الخامس
عشر ظهرت إمبراطوريات الكونغو وداهومي . . . الخ
وقد أنتجت هذه الممالك أعمالاً فنية عديدة وهامة حتى
القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوروبيون ، ومنذ
ذلك التاريخ بدأ الفن الإفريقي عملية التراجع (٢٨) .
والواقع أن (الفن الإفريقي يؤلف « حكمة مكتوبة »

بعض المثقفين الغربيين المتوردين فيها بغرض إعادة تقييم
الحضارة السوداء ، الأمر الذي فتح المجال أمام
الاعتراف بتعددية حضارية ، بدلا من الفكرة القائلة
بالأ وجود حضارات من غير حضارة الغرب . وإذن خدا
من المشروع أن يشار ، ويشي « من الزهو ، إلى ما حققته
الامبراطوريات والممالك الإفريقية من إنجازات
حضارية ، وذلك على أكثر من صعيد ، وفي هذا الإطار
(نخرج بحقيقة وجود قدم جدا ، على يد مفرقات ،
يمتد من النيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، هو وجود
عناصر غرضجية ، من الحضارات العالدة إلى العصر
الثاني الصحراوي وما يقابله قديما في مصر . وهذا ما
يفسر ، على الأقل ، التشابهات المدهشة بين بعض
مؤسسات مصر القديمة والموائد الجارية عند سكان
ضفاف النيل الأزرق اليوم (٢٩) ، ولعل هذا يذكرنا
بالتشابه الكبير الذي كان بين الحضارة المروية (٣٠)
والحضارة المصرية القديمة ، والأكثر من هذا يجوز أن
تؤكد (أن للمركة الأكثر أهمية لعلم التاريخ الإفريقي
المعاصر كانت ولا تزال هي معركة مصر القديمة ، التي
اقتربت باسم السينغالي الشيخ أنتاديوب ، إذ تتعلق
القضية بإسهام فائق في مجال المصريات ، والكيمياء ،
والفيزياء النووية ، مثلاً تتعلق بتحديد الصبغة
« الزنوجية » لمصر الفرعونية (٣١) .

أما في القرون الوسطى فيمكن أن يشار إلى
إمبراطوريات غانا والداهومي ومالي والكونغو . . . وإلى
حضاراتها الباذخة ، وهو ما يدل على عبقرية العقل

(٢٨) هزبرام : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ١٩٥ .

(٢٩) هي الحضارة التي كان يطلق عليها علماء المصريات حضارة « تابسو » التي تهي حضارة أرض السود ، والمروية نسبة إلى مروى سخر تلك الحضارة في أقصى الجنوب من
مصر ، وقد كشف المؤرخون من تطالعات عدة بينها وبين الحضارة المصرية القديمة سواء على صعيد المعتقدات وديت الحكم أو على صعيد التقاليد والمعمارة . . .

(٣٠) Ylkin M'Bokolo : (L'histoire de l'Afrique revue et corrigée par les africains) in (Magazine littéraire) No. 195-Mai (١٩٨٣ ، P. 40.

(٣١) محمد عثمان مراد : (الحضارة الإفريقية أصولها وتاريخها وصنوبرها) مجلة (الآداب الأجنبية) ص ١١ المجلد ٣٨ - ٣٩ ، سنة ١٩٨٤ وبيع ١٩٨٤ - ٤١ - ٢٢

إلى الاعتراف بالفن الإفريقي الغريب ، المعروف « بفن البتو » (٣٧) .

وعلى صعيد آخر استطاعت المخيلة السوداء أن تدع في المجال الموسيقي ، وأن تبتكر آلاتها الموسيقية الخاصة التي أصبحت لها شهرة عالمية كالكونزا والبالونز والطنبل الإفريقي . وبما يلاحظ أن الموسيقى الزوجية لم تكن تؤلف لمحض الطرب والترفيه بقدر ما كانت تتصل بالتقاليد والطقوس فهي « تقيم عمل على الصعيد الاجتماعي وتقاطب بين الرجال والنساء في المجتمع الذي تمارس فيه . وعلى صعيد أرفع فإنها تقيم تقامبا وصلة مع الآله وقوى الطبيعة » (٣٨) ، ولعل الشاهد على أصالة وعمق وتعبيرية هذه الموسيقى ذيوها العالي ، عبر الجاز والراجتيم والبلوز والريكي ، وكذلك تأثيرها القوي على الصرعات الموسيقية الغربية كالروك والبوب .

وما ذكرناه بصدده هذه المجالات يمكن ذكره بصدده الملاحم ، والأساطير ، والحكايات الشعبية ، والأشعار الشفوية ، والمسرح البدائي ، وشخصية الراوي الجوال ... وكمثال فقد (أصدر يلين ساندرارز عام ١٩٢١ » المختارات الزنوجية » التي تضم بعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون وعصدا من الحكايات العصرية) (٣٩) .

كل هذا يفهم المقولة الأنثروبولوجية حول فقر الحضارة السوداء ، إن لم نقل النقي المطلق لوجودها ،

حقيقية ، تاريخيا دون حوادث ، ذلك أننا نستطيع أن « نقرأ » عبر هذه الآثار تنظيم مجتمعاتها ، وتسلسلها ، وبنيتها السياسية ، لا نقراً للمعارك ، ولكن للمنظام السياسي ، ونظام التقود وما ينطوي عليه الاقتصاد من قيم أخلاقية عبر الكتل المنحوتة (٤٠) ، التقنيات الزراعية ، الأعمال والأيام ، والألعاب ، والصيد والرقص .

وعلى ضوء هذا فليس من المثير حفا أن ينهر الفنانون الغربيون أمام القطع الفنية التي أبدعها الفنانون السود الفطريون ، وأن يحجبوا بالإمكانات الجمالية الهائلة التي ترشح بها الصور والمنحوتات الإفريقية (وهكذا قام الفنانون الأوروبيون المعاصرون بكسر طرق التحديدات التي طالما وجهت الحركة الفنية في الرسم خلال المصور الماضي ليمتدوا حرية التحرك والتعبير قلما كما فعل الفنان الإفريقي منذ آلاف السنين (٤١) . ويدون مبالغة نستطيع القول بأن التكميحية ، كاتجاه تشكيلي طليحي ، تدين بشكل أو بآخر ، للثروة الفنية الزنوجية ، ويظهر ذلك جليا في أعمال بابلويكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣م) ، وجورج براك (١٨٨٢ - ١٩٦٣م) ، وهنري ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤م) الذين أفتتنوا (بالطبيعة المباشرة والمستقلة لهذه الأعمال وجنوحها نحو تبسيط الشكل) (٤٢) ، وفي ذات المنحى (نشر أبولييزر بالاشتراك مع بول غليم عام ١٩١٧ » المجموعة الأولى من التماثيل الزنوجية » الأمر الذي دعم الحركة الرامية

(٢٩) روجيه غارودي : (حوار الحضارات) ترجمة : الدكتور عادل العمرا ، ص ١٥٤

(٣٠) (أثر الفن الإفريقي على الحركة التكميحية الأوربية) ترجمة : ميرون أيرناب - مجلة (ثقافت عربية) ص ٤ ، العدد ١١ ، نوفمبر ١٩٧١ ، ص ١٢٤ .

(٣١) حسين حناوي : (فن التماثيل الإفريقي) مجلة (فون عربية) السنة الثانية ١٩٨٢ ، للعدد الثاني ، العدد ٦ ، ص ٤٠ .

(٣٢) خليل شطا . (الأدب الزنوجي الإفريقي الحديث) مجلة (للحركة) - ص ٢٠ العدد ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

(٣٣) لولا ولوا مباديني : (مكانة الموسيقى التقليدية في المجتمع الإفريقي معصوماً في نيجيريا) مجلة (الثقافة العربية) ص ٩ ع ٨ - أغسطس آب ١٩٨٢ ، ص ١٤٧ .

(٣٤) خليل شطا (الأدب الزنوجي الإفريقي الحديث) مجلة (للحركة) - ص ٢٠ العدد ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

ومادام الأمر كذلك فقد اقتنع المثقفون الزوج باهمية العودة إلى ماضيهم الحضاري وقراءته قراءة جديدة حتى تنأج لهم المهادة بخصوصيتهم ، دونما مركبات ، وبهذا شعروا بأنهم يهرون من ورلهم تاريخيا طمسته أو شوهته عهدود من الهيمنة والاضطهاد . إن المطلوب هو بناء موقف جديد من النموذج الحضاري الغربي ، والتحرر من جاذبيته ، وبالتالي من مطلقيته ، أي تخليص الذات السوداء من اغساختها ومن ذوبانها الشائكة في حضارة البيض . وبالنسبة لآباد أن تشير إلى عمق الأزمات النفسية التي استفحلت أعراضها في أنحاء كثيرة من العالم الأسود ، من جراء الانتقال من النمط الحيائي التقليدي إلى النمط الحيائي الحديث ، وعلى سبيل المثال جرى خلال عام ١٩٩١ بحث ميداني حول الأعراض النفسية بمنطقة أيبوكوتا بنيجيريا من قبل نفسانيين وأثنروبولوجيين من جامعة « كورنيل » فتوصلوا إلى أن (عدد الأعراض النفسية الفسيولوجية والأعراض العصبانية التي وجدت بين سكان يوروبا أكثر من التي وجدت بين سكان شمال أمريكا) (٣٥) .

ويعد هذا الانقسام من بين ما حفز الزوجية على التنبيه إلى غنى الحضارة السوداء ، وإلى التمسك بقيمتها ، وعدم الارتقاء كلية في حضارة البيض بما هي حضارة مفارقة للبيئة السوداء . وفي إطار إعادة التنظيم الحضاري انسأقت الزوجية إلى مواقف استعمارية أحيانا ، صدرت عنها أفكار تؤيد تفوق الحضارة السوداء على نظيرتها البيضاء ، وتدعو البيض إلى الاستفادة من التراث الأسود ، (وعندما بدأت نظريات الزوجية لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية أول الأمر ، ثم اقترنت من

كونها مذهبا للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفا مضادا ويمنع الاتصال والتكيف مع الفرنسيين . ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل ، وعندما نشبت الحرب أو قبلها تحولت إلى مسلح يصليح للحسوار مع الإدارة الاستعمارية) (٣٦) . وقد جاءت هذه اللبونة مع التدرج الفكري والإيديولوجي الذي عرفته الزوجية ، وبخاصة مستفور ، إذ سيبدأ الحديث عن نوع من الانفتاح على الحضارة الغربية ، والدعوة إلى تشييد حضارة ثنائية في تجاوز لكل عصبية ولكل استعلاء حضاري ، (ويرجع فضل ستجور فيما كتبه وأخط به دائما في أنه يعيد الرجل الأسود على كل المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمي إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الأبيض السلي كان الحدو الأول والسلي أصبح أهم صديق) (٣٧) .

أما الإشكالية الثانية التي عكفت عليها الزوجية فهي الموقف من العقيدتين المسيحية والإسلامية ، والموقف في حد ذاته يعني المفاضلة بين العقائد الوثنية الزوجية وبين ديانتين سماويتين ، وفي هذا الموضوع ترى الزوجية بأن عقائد الأسلاف ليست بذلك الشكل الذي توجد عليه في الأدبيات الاستعمارية والكنسية والأثنروبولوجية ، أي كونها عقائد لا إيمانية يتمها قوم يجب انتشالهم من كفرهم الفطري ، بل العكس ، لأن الزوج يرون بأنهم مكتشفو فكرة الرب للإنسانية ، ومنهم أخلتها مصر القديمة ، تنتقل إلى حضارات أخرى . فما يلوح مجرد ممارسة عقائدية وثنية يضم تصور يرى بأن هناك قوة إلهية مفارقة للبشر ، ويلها تملك قدرات معجزة ، هذه القوة هي ما يعرف بـ « موتو » ، وإن اتخذ أساء متعلدة

(٣٥) بـ . مـ . أوبو (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٧٠ .

(٣٦) الدكتور محمد جيد الذي سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣٧) الدكتور جازين جودت عثمان : (مارو ، ستجور وحضارة الإنسان) مجلة (حلم الفكر) لجلد الثامن - ٣٤ ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٩٧ ، ص ٩٠ - ٩١ .

أصلهم على الحد الأدنى^(٤٠)، بينما اقترن الإسلام بـ (كبرى المصائب . أنه من التشاؤم أن التل كان صيد الصيد يجتاح كل السودان الأوسط)^(٤١)، وهي نفس الفكرة التي كان يرددها التخاسون البيض ، من كون المسلمين هم أول من استعبد السود . بعد هذا لنا أن نتصور إذن رد الفعل الذي سيكون للزنجية من الديانتين معا ، قد نرجح لا عالة رد فعل يدعو إلى معاداة الديانتين والحل من تعاليمها ، بيد أن الأمر الواقع كان أكثر من أي رد فعل حاسم ، ونقص بالامر الواقع تغفلت المسيحية والإسلام في زهدان كثير من السود ، وهذا ما صيغ حضورها بشيء غير قليل من المفارقة .

ففي حين يدعو بعض المثقفين الزنوج إلى استثمار قيمتي الأخوة والمعادلة للمسيحيين وإدماجها في التراث العقلاني الزنوجي (للاحاطة مدى المصادقة التي تغلف إيمان الزنوج للمسيحيين في إفريقيا وأمريكا والأنتيل كموقف من تحريف المثل المسيحية ومن الاضطهاد الأبيض) ، نجد فئة أخرى منهم تناهز الإسلام كمفيدة مضادة لإيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري . ويتبنى هذا الطرح على وضعية الزنوج المسلمين بالولايات المتحدة ، فجماعة المسلمين أتباع الإيحاء محمد تعطي للإسلام بعدا انتقائيا ، مما يجعله عقيدة ثأرية من مسيحية الأبيض للضطهاد ، وبهذا اكتسب الإسلام (صبغة عنصرية خفية عنه متنافية لروحه ونصوصه . وقد أدرك الزعيم الزنوجي الشهير

اختلفت باختلاف الجهات والمجموعات الإفريقية ، فهو « الورمنو » عند اليوروبا بنيجيريا ، و « فارو » عند البامبارا مالي ، و « متقو » في إفريقيا الشرقية ، وهو « أكزير » عند الإيتوبيين ، و « لوبا » في الداهومي ، و « اورمانكوما » عند الأكان في غانا .

ويقتضي الاعتقاد في فكرة الإله تلبية أوامره ، كالترقب والتقوى وتكريم الملوك والتعاون والمحبة ... ثم تجنب نواحيه التي هي نفاظ هذه الأمور . ولا شك أن هذا ما تتضمنه الديانات السماوية ، مع مراعاة الاختلافات الواردة عند كل مقارنة ومن ثم (قبل الإفريقيون المحدثون تعاليم محمد والمسيح لأنهم لم يروا في الذي سمعوه من أهل الديانتين جليدا جديدا بخلاف^(٣٨) . ومع ذلك (لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الإفريقية بالسرعة التي يقول بها بعض الباحثين ، عشرة قرون الآن والإسلام ينطلق طريقه بالتجارة واللقاء المسام أحيانا والحرب بعض الأحيان ، قرنان أو أكثر منذ جاءت المسيحية القارة ، ولكن قرابة سبعين مليون من الناس مازالوا على دين آبائهم^(٣٩) .

فحسب الزنوجية ليس بوسع العالم الأسود أن يسقط من ذاكرته مختلف العدايات والمخاضات التي ابتل بها بتزكية من الكنيسة ، وفي المقابل لا يمكن نسيان الدور الذي قام به المسلمون في تدشين عهد الاسترقاق بإفريقيا ، فالمسيحية (استعملت في كثير من الأحيان لتخديعهم وتعليمهم إدارة الحسد الأيسر إذا ما صيغ

(٣٨) جمال عبد الحميد : (وجدان إفريقي) ص ٢١ .

(٣٩) نفسه ، ص ٢٥ .

(٤٠) مغر عبد الرحيم : (بين الأصالة والقيمة : تجربة الاستثمار وأخطأ الضرر لتتالي في حياة الأسود الإفريقية) ص ١٧ .

(٤١) خير يوم : (الحاضرات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ٨٣ - ٨٤ : الفقرة :

(أ) من المعلوم أن الهورية في الحق انتشارا كبيرا كالذي حققته المسيحية والإسلام ، ويتركزون في إفريقيا ويعرفون بالفلانا .

(ب) ويصدق دور المسلمين في استبعاد الأفرقة نوضح أن إيرادات هذه الزجوة من انظر لا يعني تبينا لها ، ولذا كان المسلمون قد انقادوا بعض هذه كبد لإمام إيسيرا معلقتهم . على لقد وصل الكثير منهم ، في ظل الإسلام ، إلى مراتب سياسية سامية (كقرو ، أوائل ، السلايك ...) فظل مرابط طيبة علة (بالقرت) .

مالككم إكس خطأ ذلك الاتهام وعطره فجماده جهادا كبيرا التصحيحه حتى استشهد بجماده في سبيل ذلك وفي سبيل تحرير الزوج عامة (٤٢).

لقد اعتبر قوامي نكروما التعددية العقائدية إحدى أزمات العالم الأسود باعتبارها معوقا حضاريا وعشا تاريخيا ، ولكي يبين جيدا فداحة هذه الأزمة قاربها نكروما بـ (الشيزوفرينيا) ، فالتعددية إجمالا هي الملعن (٤٣). أما الكاتب السينغالي ملاندو ترور ديوب فقد عبر عن رفضه لما عده ديانات طارئة فقال (يمارس الأفارقة حاليا ديانات مستوردة وكل آلهة الأجداد ماتت تقريبا . أما أنا ، فلاني أجاهر هنا معلنا : إن إلهي لا يزال أسود (٤٤). لكن خارج هذين الموقنين انحلت الزنوجة موقنا مفتوحا لا يقفز على الأمر الواقع كما قلنا قبل قليل ، موقفا يرى أنه لا بعيد عن التعددية العقائدية ، بعيدا عن أي تجاهل مجاني ، أو تنكّر للتأثيرات الثقافية للمسيحية والإسلام في منافع كثيرة من حياة السود .

فالمسيحية متواجدة في الممارسة السوداء كمنتقد وكثقافة ، وكذلك يحضر الإسلام ، سواء كسلوك إيماني أو كتجمل ثقافي ، (وتشير بعض الأبحاث التي أجريت مؤخرا في الساحل الإفريقي الشرقي وبعض بلدان غرب إفريقيا كغانا وسانغال والمال وبنغال وغيرها إلى أهمية الثقافة العربية الإسلامية (٤٥).

لذلك وجدنا منسوق ، فضلا عن اعتناقه الكاثوليكية ، يدافع عن أطروحة تركيب التيارات

العقائدية الثلاثة : التراث العقائدي الزنوجي والمسيحية والإسلام ، ضمن أخلاقية انفتاحية وتسامحية ، بل في هذا التركيب من نتائج إيجابية سيقتفي بها المشروع الحضاري الأسود .

ويبقى أن نلفت الأنظار إلى أن هذه الأطروحة تستنسخ نفس الأطروحة السنغورية حول ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية لصالح تأسيس حضارة كونية جديدة .

إذا كان هذا ما طرحته الزنوجة بخصوص الإشكاليات السالفين فماذا يتعلق بمعالجتها للفكر الماركسي ؟ وهل كان للمفكرين الزنوج موقف تجاه نظرية علمية في تحليل التاريخ والاقتصاد والثقافة ؟ الحقيقة أن الماركسية استلزت بهيول لا يستهان به من مساحة الفكر الزنوجي ، بحيث نوقشت جوانب عديدة من هذه النظرية ، مثلما نوقشت احتمالات إخضاعها لمهام بحارة الاسترقاق والاستعمار وتجاوز وضعيتها الاستلاب ، وبالتالي لاستعادة الهوية الزنوجية .

إن ما تردد من أفكار ماركسية في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية يعود في الأصل إلى المفكر الأنثيلي جودج بدمور الذي كان قد زار الاتحاد السوفياتي وأطلع على التجربة السوفياتية في تطبيق أفكار ماركس وإنجلز ولينين ، وقد أعجب بدمور بهذه التجربة فتبع عن ذلك تحمسه للماركسية ، وهو ما يعرب عنه قائلا (فمن الجوهري بالنسبة إلينا في إفريقيا أن نفهم أساليب الفلاسفة الماركسية وأهدافها حتى نعرف ما قد نتمكن من

(٤٢) مدثر عبد الرحيم : بين الأصالة والجمية (تجربة الاستعمار وأبعاد التصور الثقافي في البلاد الأسيوية الإفريقية) ص ١٨ .

(٤٣) Paulin J. Hountondji : (Sur la "philosophie africaine") P. 204.

(٤٤) ملاندو ترور ديوب : (الزوج والعرب في مواجهة للثقافة) ترجمة : خليل فرحات - مجلة (الكاتب العربي) ص ٢٠ - ج ٦ - ١٩٨٢ ، ص ٣٩ .

(٤٥) (الفكر إبراهيم الزين صليون : (فصلت تاريخية من دور السودان والسوريين في انتشار الإسلام في أفريقيا) مجلة (أفك) كلية الآداب - جامعة الخرطوم - ج ٤ - ١٩٨١ ، ص ١٢٥ .

لإبي سيزير فقد كان رأيه أن يؤخذ لا من الماركسية فقط ، وإنما من السريالية أيضا ، وذلك بمقدار ما يخدم قضية استعادة الهوية الزوجية ، فيها في نظره تياران فكريان طليعيان يرفضان ، كالزوجة ، منظومة القيم الاضطهادية في الثقافة البيضاء ، ولتقيان معها في مناهضة الاستعمار والراسمالية . . ويصل الأمر بسيزير إلى أن يصبح عضوا قياديا بارزا في الفرع المارينيكي للحزب الشيوعي الفرنسي . وإذا كان هذا شأن سيزير فإن زميله سنغور سيهتو هو الآخر بالماركسية ، على أن اهتمامه هذا لم يكن ضمن بحثه عن إسكاتيات الأمل من جميع التيارات الفكرية التي يمكن أن تنصب للمشروع الحضاري الزوجي ، لذا (ازداد تقييمه الدراسي للكرس عملا من خلال نشاطه السياسي . بيد أن ما يجذبه من فكر ماركس هو الأفكار والقضايا الإنسانية التي طرحها ماركس قبل ١٨٤٨ ونمحي بها القضايا الأخلاقية والتحرر الاقتصادي)^(٤٨) .

والخلاصة هي أن الزوجة لم ترفض رفضا قاطعا الحوار مع النظرية الماركسية ، لأن كل المعطيات كانت تحتل هذا الحوار ، فمن جهة لقي كل من سنغور وسيزير وداماس وإيرو في الحزب الشيوعي الفرنسي مساندا قويا لقضايا وتطلعات العالم الأسود ، كما وجدوا فيه غير مناصر لاحقية السود في البلد عن هويتهم ، ومن جهة أخرى لاحظ هؤلاء الملتفون أن الاتحاد السوفياتي يولي أكثر انسجاما ، بالمقارنة مع الدول الغربية ، فيما يخص الموقف من المسألة الاستعمارية ، فلم يتورط السوفييات مثالا في احتلال إفريقيا ، ولم يتوانوا عن المطالبة باستغلال الأنظار الإفريقية ، وهذا ما زاد في

أن تقتبسه منها ونجعله يتلامح مع حاجياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، دون أن نقبله جملة كعقيدة^(٤٩) .

إن بادموو باعتناقه الوعي للماركسية سيفتح الباب أمام مجموعة من المتفتين الزنوج الناطقين بالإنجليزية ، الذين أسعفهم تكوينهم الإنجليزي على الاطلاع على أفكاره للأخذ بها كدالة لتحليل بنيت المجتمعات التقليدية الإفريقية ، ومن هؤلاء قوامي نكروما ، وجوليوس نيرييري . فكلاهما ينبغي توفر تراكمات مادية ضخمة في المجتمعات التقليدية الإفريقية ، وكلاهما ينبغي حصول أي شكل من أشكال الصراع الطبقي في تلك المجتمعات ، إذ طبيعتها البساطة على المستوى الاقتصادي ، والتكافل على المستوى الاجتماعي ، ثم يؤكدان على تداخل البينين التحتية والقوية في أنماط الحياة الإفريقية الأمر الذي يساعد على القول بتوصل السود إلى اشتراكية فطرية نتيجة أحوالهم الخاصة .

أما الناطقون بالفرنسية فقد تم تعريفهم على الماركسية في سياق احتكاكهم بالتيارات الفكرية المتعاقبة في فرنسا ، بحيث (وجد الإفريقيون المتحدثون بالفرنسية الفرصة لمعرفة الأفكار الماركسية عن كثب خلال أيام دراستهم في باريس)^(٥٠) . وهكذا تحمس الشاعر إيتين ليرو ، وهو أحد أعضاء جريدة « الطالب الأسود » للماركسية ومبادئها ، مدافعا عن استرفاد قيمها الفكرية والجمالية في الكتابة الشعرية الزوجية ، في حين عارض تيار معين داخل هيئة « الطالب الأسود » هذا الحماس بدعوى أن الماركسية لا تبرح كونها جزءا من الثقافة البيضاء التي هي ثقافة هيمنية واضطهادية . فيما يخص

(٤٩) جورج بادموو : (دليل للاعلامية الإفريقية) مجلة (لاملال) ٧٣ ، العدد ٧-١٠ ، يوليو ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

(٥٠) ب . ص . فويد : إفريقيا في عصر النشوء الاجتماعي ، ترجمة : شولي جلال ، ص ٣٠٠ .

(٥١) ب . ص . فويد : إفريقيا في عصر النشوء الاجتماعي ، ترجمة : شولي جلال ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

الهوية الزوجية . إنه مأزق وأي مأزق ، ولو أن سارتر يحاول التأكيد على إيجابيته ، فهي رأيه تعتبر الكتابة بلغات المضطهد نوعاً من الانتقام التاريخي ، غمارسه الزوجية داخل اللغات الغريبة ، بحيث يعمد المفكرون والمبدعون الزوج إلى تكسير قواعد هذه اللغات وتلوين صفتها ، مما يتيح لغات هجينة يتداخل في أحشائها المعجم الغربي والمعجم الزوجي .

وإذا ما تجاوزنا هذا الرأي وجدنا قرائن عدة كلها تثبت بأن المعضلة اللغوية هي من الجبلية يمكن ، وللملك كانت بالفعل مآثر جدالات عميقة وصلت إلى حد التشكيك في مصداقية الحركة الزوجية نفسها ، (إذ يتوجه الأدباء الزوج إلى جمهور يتنمي إلى حضارة سماعية ، مستخدمين كتابة مجهولها هذا الجمهور نفسه . ويبدو لأول وهلة أن الكتابة ليست هي التي كان ينبغي على الأدباء أن يستخدموها من أجل الوصول إلى جمهورهم الأمي ، وإنما الكلمة للمنطوقة)^(٥١) ، وهذا يعني (أن الأدب الإفريقي في شكله المكتوب هو نتاج للحضارة الصناعية والبيروقراطية ، وهو يجر خلفه فرضيات وحيثيات ولغة وإيديولوجيا الحضارة الثقافية الغربية^(٥٢) . لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن (مشكلة اللغة هي أخطر مشكلة تواجه هذا الأدب)^(٥٣) ، ومادام الأمر يحله الكيفية تتساءل : أفلتغلب على هذا الإشكال يتحتم على الكتابة الزوجية أن تكون باللغات الإفريقية

تلميع صورة للمركبة في الكتابات الزوجية . وعلى صعيد آخر أبحاث دواست بلانمور وتكروما ، التي وصلت أصداقها حتى إلى الحلقة الباريسية ، عن تقارب ما بين الطابع المشاعي والمباواتي للحياة الإفريقية والمجتمع اللاتصوتي في التصور الماركسي ، ومن هنا إلحاح الزوجة على توافر تجسيدات اشتراكية في بنية المجتمعات الإفريقية التقليدية ، الأمر الذي يجعل من الاشتراكية أحد مكونات الحضارة السوداء ، ومن ثم فإن ستغور (جعل الاشتراكية الإفريقية القضية الرئيسية في كتاباته)^(٥٤) طوال فترة الخمسينات .

إلا أن المعضلة الكبرى التي انتصبت أمام دعاة الزوجة هي معضلة اللغة^(٥٥) ، فالفترض أن يصل الفكر والإبداع الزوجيان إلى الإنسان الأسود ، نظراً إلى أنه معني قبل غيره بهذا الفكر وبذلك الإبداع ، أي بخطاب يحمل رسالة البحث عن هوية مشتركة لعموم السود ، لكن الواقع شيء آخر ، بسل مزارق ، فالفكرون والمبدعون الزوج إما يكتبون بالفرنسية ، أو بالإنجليزية ، أو بالإسبانية ، أو بالبرتغالية . فنحن إذن ميزاء وضع اتفصالي مأزوم ، إذ يتم ذم الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، كما يتم نقد الثقافة البيضاء ، وفي نفس الوقت تتم الكتابة عن هذه الأمور بلغات البيض ، وهي لغات لا يجوز ، بأي حال من الأحوال ، تنقيتها فميتها من تورطها التاريخي في تدمير

(٤٩) نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٥٠) هذا إن من أوسع مشاكل الزوجية كوما يتوجه بخطابها الأمي خاصة إلى جمهور ذي ثقافة شفهية في الأصل ، وليست له البسرة التي يوجهها للشرارة والرايونون الزوجيين الأمريكيين ، وبسبب وجود جمهور لثري ، يتركز قراء الأدب الزوجي في العواصم السياسية والاقتصادية الإفريقية والأكبر ، في حين تبقى أغلبية ثلثين بهذا الأدب كما هي . لكن الألية ليست وحدها للسرقة عن هذا المآزق ، إذ هناك عوامل أخرى تحد من انتشار ما يكتبه الأدباء السود ، ومنها ضعف حركة النشر ، وأخيراً ضعف الأدب القارئ كونه كسلاً ليسود . نريد بأن ندية هجمة من طبع في مآثر لوي بريس .

(٥١) في الأهم الأخيرة يركز أخرى للطبع منها : ياندي (المخطوطات الفرنسية) ، والزابير (المخطوطات الجبلية) ، وياكاي (المخطوطات النسيجية) ، ومادام (المخطوطات الإفريقية الجديدة) .

(٥٢) لوي كيمولي : (الأدب والكتابة في إفريقيا) ترجمة : الطوب الراسي ، مجلة (الأفلام) ، ص ١٢ - ١٠ ع ١٠ تموز ١٩٧٧ ، ص ٤٩ .

(٥٣) نفسه ، ص ٤٩ .

(٥٤) علي شافق : (في الأدب الإفريقي ومشكلاته) مجلة : (الأفلام) ، ص ١٥ - ١ - تشرين الثاني ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ .

شرق إفريقيا ، وأخذ بعض الأدباء يكتبون بلغاتهم المحلية ، كما فعل توماس مافولو الذي كتب بلغة السوتو ملحمة بعنوان «شاكاسا»^(٥٦) ، وفي نفس الاتجاه (ترجم نيريري منذ أعوام يوليوس فيهر ، ويدير بالسواحلية الآن حكومة ودولة)^(٥٧) ، و(هناك كتاب سنغاليون ، منهم الروائي ، والشاعر ، وكاتب مسرحيات يصدر إنتاجهم في لغاتنا الست المحلية المختلفة)^(٥٨) .

وعلاوة على هذا هناك إبداعات لا تحصى كتبت بـ «الولوف» ، و «البامبارا» ، و «الكيكونغو» ، و «الايونندو» ، و «البامليك» ، و «البول» ... بل حتى قطب الزنوجية سنغور كتب بعض أشعاره بـ «الولوف» ، و «السيرير» ، وما لشأن عيلان في السينغال ، وبالرغم من هذه الإنجازات تظل للمعضلة قائمة مثلاً يظل طموح تعميم هذا السلك بعيداً عن التحقيق للعوائق التي أسفلتها .

لهذا استقر سنغور وأصحابه عند الاختيار الذي لا مناص منه مرحلياً ألا وهو الكتابة باللغات الغربية ، في انتظار توفر إمكانية الكتابة باللغات الإفريقية لأن (الآدب الإفريقي يفتقدونه أن يزدهر باستناد إلى اللغات الإفريقية المتعددة بوصفها لغات وطنية حقاً)^(٥٩) . إن سنغور على وحي بضرورة هذا الاستناد (وتمنى فقط أن يولد إلى جانب الآدب الإفريقي المكتوب بالفرنسية آدب باللغات الزنوجية - الإفريقية ، مثلاً هو الشأن بالنسبة

العديدة ، مع ما يطرحه هذا الاختيار من مصاصبة ؟ وحتى توضيح جسامته هذا الاختيار يجب أن نعلم ، على سبيل التلليل ، مدى اختلاف العلماء (في تقدير عدد لغات القارة ، فمنهم من أحصاها بأكثر من ٧٠٠ لغة كسيتولي ، ومنهم من أضاف إلى الرقم ١٠٠ لغة أخرى كسليجمان ، ومنهم من خفضه إلى ٥٠٠ لغة كتيل)^(٦٠) .

ثم نساءل ثانية : كيف يجوز للنص الشعري مثلاً أن يصون إبداعيته المحتومة في حالة ما إذا كتب بلغة محلية ؟ أن يضطرنا إلى ترتيبه في خاتمة الآدب الشعبي ؟ وبالإضافة إلى هذا ألا يحق للغايء الغربي أن يطلع على الإبداع الزنوجي ؟ وفي هذه الحالة كيف نبلغ إلى فهمه شعراً مكتوباً بإحدى اللغات الإفريقية ؟ هل يجب أن يكتب هذا الإبداع باللغات الغربية والإفريقية حتى يستجيب للجمهوريين معاً ؟ لكن ما جدوى الحديث ، ضمن هذه الشكالية اللغوية ، عن هوية زنوجية متماسكة ومقنعة ؟

من المحقق (أن آداب اللغات الإفريقية (الأخاري ، السواحلي ، مالاكاشي ، والزولو وغيرها) تمتلك إمكانيات هائلة وآفاق إبداعية واسعة المدى ، لكن تطورها في أغلبية البلدان الإفريقية يجري في ظروف المعاشية مع الآدب القومي الذي ظهر سابقاً باللغات الأوروبية)^(٦١) ، وكماثلة في هذا الصدد (حدثت محاولات مختلفة لتكوين الآدب الإفريقي ، في

(٥٤) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٥٥) ميشال كوكا نصيف : (النشر الإفريقي معاً إلى الإنسان) ترجمة : طيل يبي حسن - مجلة : (الكتاب) ص ١٥ - ٩ - حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٤ .

(٥٦) غليل شفا : (الآدب الزنوجي الإفريقي الحديث) مجلة (لغة) ، ص ٢٠ - ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٦ .

(٥٧) جمال عبد الحميد : (وجبات إفريقيا) ، ص ٥٦ .

(٥٨) أحمد أمين سال : (حول الحرية الثقافية وشكاليها) ترجمة : غليل فرحات ، مجلة (الكتاب العربي) ص ٦ - ٩ - ١٩٨٣ ، ص ٤٤ .

(٥٩) ميشال سليمان : (آدب يلتصق في القارة الوسطى) مجلة : (الفرق) ص ١٩ - ٤ - حزيران ١٩٦٠ ، ص ١٢ .

بأن الشعر الزنوجي يمثل تجربة شعرية واحدة ، فهو على العكس من هذا ، إنه مجموعة تجارب أو تيارات أو مدارس . فهناك الشعر الزنوجي الإفريقي ، وهناك الشعر الزنوجي الأمريكي ، ثم هناك الشعر الزنوجي الأنتيلي ، هذا إذا ما اتخذنا المعيار الجغرافي في التصنيف والتمييز ، أما إذا ما أخذنا بالمعيار اللغوي فإننا نجد أنفسنا حيال شعر مكتوب بالفرنسية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإنجليزية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإسبانية والبرتغالية ، مما يفيد وجود معيارين في التعامل مع الشعر الزنوجي وكلاهما معمول به من لدن الباحثين في هذا الشعر ، وإن كنا نلاحظ رجحان المعيار اللغوي ، لذلك نقترح التوسط بالمعيار الأخير في تناولنا هذا عملاً بما درجت عليه معظم الدراسات الزنوجية .

سوف نستعمل حديثنا إذن بالشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، باعتباره الشعر الأكثر ذيوفاً بالمقارنة مع ما كتب بالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إضافة إلى أن الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية تميزوا بخصوصية إبداعية ملفتة ، كما اقترن شعرهم بولادة الحركة الزنوجية ، إذ هم المؤسسون لركائزها ، لكن قبل أن نتناول مواصفات هذه المدرسة نورد ثلاث ملاحظات : أ - يتركز هذا الشعر في منطقتين هما إفريقيا وجزر الأنتيل (المارتينيك ، هايتي ، الغوادولوب)^(٦٥) ، وإذا كنا نلمس توازناً في الكم الإنتاجي بين شعراء إفريقيا وشعراء الأنتيل ، فإن ما نلمسه بخصوص إفريقيا يدل على تفاوت كبير بين الأقطار الإفريقية الناطقة

للربية في إفريقيا الشمالية^(٦٦) . هل أن شاعراً يتعمى إلى الجبل المولي لجبل سنغور ، وغو الكونغولي تشيكايا أوتامسي يقدم تحليلاً منطقياً للمعضلة اللغوية ، وهو تحليل يفتقر إلى مناسي الجبدال الذي دار بين دعة الزنوجية . فبالنسبة إليه (إن الفرنسية تغلب بذلك الأداة المثلّي للتعبير عن التخيل ، وألحلم أو المعيش)^(٦٧) ، وقبل هذا (فإن أكتب بالفرنسية لم يكن بالنسبة لي ناتجاً عن اختيار داخلي)^(٦٨) ، ثم إن القضية مفتعلة في جوهرها ، فليس المهم هو اللغة الوسيطة ، وإنما المهم هو (أن أحفظ بثوري لتراجيديات أخرى)^(٦٩) ، أي لقضايا ومشاكل أكثر جوهرية . إذن سواء أخذنا بيده الرجحة أو تلك فإن (هل الكتاب الزنوج أن يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنتشر في فرنسا ، وإلا فسين المعجبون بأعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان ستجور سيخاطبه في السنيغال ؟)^(٧٠) ، ونفس الشيء يصدق على من يكتبون باللغات الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إذ عليهم أن يدونوا مرحلياً أعمالهم بهذه اللغات ، وإلا فإن يُعثر على قارئهم في نيجيريا وكوبا وأنغولا ؟ هل أهم الإشكاليات التي تمحور حولها الخطاب الزنوجي ، هذا الخطاب الذي تبلور ضمن ملابس تاريخية وثقافية شكلت السياق العام الذي أبدع داخله الشعراء الزنوج الأفارقة - الأمريكيون شعرهم ، ولنا الآن أن نرسم هذا الشعر لنستعرض ألق رموزه وأبرز قضايا وموضوعاته .

ومقلما نسطر توضيحاً مفاده أنه يلزم تجنب الاعتقاد

— (Pour la négritude) propos recueillis par michel pierre-In (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983 P. 31. (٦١)

— Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) In (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 16. (٦٢)

— Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) In (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 17. (٦٣)

— Ibid, P. 17. (٦٤)

(٦٥) الدكتور عبد الحفي سموي : (قضايا إفريقية) ص ٢٠٢ .

(٦٦) على الرغم من أن غرب إفريقيا الفرنسية لا تنتمي جغرافياً إلى الأنتيل ، يسكنها في الجزء الغربي من أمريكا اللاتينية ، لذا لا نرى ممكناً في إلحاق شعراءها بالشعر الأنتيلي ، إذ أن هذا الملل (الفرنسية) يمثل شعراءاً أقرب إلى شعراء الأنتيل منهم إلى شعراء البرازيل أو الولايات المتحدة .

تختلف في هيءة هيا مربنا في شعر الفيتوري ، إذ نجيم دلالة الاسترقاق راسخة في جل النصوص ، وتستحوذ على مساحة وافية منها . فكلهم صوروها فصولا من مأساة العبودية التي ما انفكت ذيولها مترسبة في ذاكرة السود ، فتخلوا مشاهد اصطهاد أسلافهم ، واقتيادهم من الصحاري والغبابات الإفريقية ، ليشحنوا مغلولين إلى العالم الجديد ، تحملهم سفن التخاسين البيض ، وتقبلوا أيضا مشاهد ما بعد الوصول إلى العالم الجديد ، لما كان يوزع أسلافهم على مزارع البيض المتغربين ، وعلى مصانعهم ومراقفهم المختلفة ، فهم من صنع رفاة أمريكا ، ومن ثم لا خرابة أن يربط هؤلاء الشعراء للمعزة المادية الأمريكية بمآنة السود ويملاهم التاريخي الرهيب .

ومن ناحية أخرى تزاوجت دلالة الاستعمار في شعرهم بنجمة من الإدانة والاحتجاج ، فدانوا بشاعة الاستعمار واحتجوا على الممارسات الاستغلالية للبيض في إفريقيا والأنتيل ، أما دلالة الميز العنصري فإنها لم تنمظهر في شعرهم بنس إلحاح الدلائل السابقتين نظرا لحقة الميز العنصري في المستعمرات الفرنسية قياسا إلى وطائه في الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ، حقا إن هذه الدلالة ليست غائبة تماما من الشعر المكتوب بالفرنسية إلا أنها لا تحقق نفس الزخم التعبيري الذي نجدها عليه في الشعر المكتوب بالإنجليزية .

وفي موازاة هذه الدلالات نحوا دلالات مفهدة استطاعت أن تصوغ تلك الرجة التاريخية التي عرفها العالم الأسود وهو يتوخى استمعة هويته . وهكذا أصبحت دلالة الحرية ثابتا مركزيا في شعرهم ، وصارت

بالفرنسية . فالأقطار المعروفة بغزارة الإنتاج الشعري هي السينغال ، وساحل العاج ، والكونغو ، ومدشقر ، بينما الأقطار الموصومة بشحها وقلة شعرائها فهي غينيا ، وجزيرة موريس ، أما الأقطار التي تبدو وكأنها تعاني نوعا من الحقم الشعري فهي الغابون ، وفولتا العليا ، والتشاد . .

ب - لقد عرف هذا الشعر بدايته خلال الثلاثينات عبر نصوص أو مجموعات شعرية ، لكنه سيبلغ ومعه الزنوجية (أوجه إثر صدور أنطولوجيا الشعر الزنوجي والملاغاشي الجديد المكتوب بالفرنسية لصاحبها ستفور عام ١٩٤٨^(٦٦)) والتي يمكن عددا (إعلاتا رسميا لجيلاد أدب زنوجي - إفريقي باللغة الفرنسية ، أدب راديكالي في مفايرته للأدب الفرنسي ، وبالتالي إعلاتا لطلاق مع أوروبا^(٦٧) . هذه الأنطولوجيا سيكتب مقنمتها جان بول سارتر ، وإذا كنا على علم بتعزز سارتر من التقديم لأي مؤلف كان أمكننا إدراك قيمة هذه الالتفاتة من صاحب « الوجود والعلم » باعتباره أحد أعلام الثقافة الغربية . فهي تشكل ، بلون مواوية ، تعميدا للشعر الزنوجي وتعاطفا مع الزنوجية وضمنا لارواح الخطاب الزنوجي في المحافل الثقافية الغربية والعالمية .

جـ - لقد لقي هذا الشعر قبولا وتعاطفا دالين من طرف كتاب وشعراء فرنسين فداقعه واعتبروه تيارا أساسيا في الشعر العالمي ، ومن هؤلاء كمو ، وموني ، وبيروتون ، وأراخون . . .

وإذا ما حاولنا ضبط الدلالات المشتغلة في النصوص الشعرية للذين يكتبون بالفرنسية وجدناها لا تكاد

— Albert Nourdine : (La littérature Néo-africaine) P. 24.

— Lylian Kestelot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des promoteurs, poètes et dramaturges noirs du XXe siècle) P. 133.

(٦٦)

(٦٧)

الرباط القوية ملازمة لأكثر من نص ، فتنقوا بشورين سود في هاني كـ «توسان لوفيرتور» ، و «للك كريسيف» ، وألشدوا بنضالات ثورين أفارقة كـ «لوموبا» و «كيناتا» ... كما حرصوا الجمعوع السوداء على أن تنور على اليهودية والاستعمار . أما الإنسان فإنه ارتسم في غيبتهم كأنه أسود ذا ملامح متجذرة في تاريخ وهوية جديريين بالاعتبار ، أي في الحقيقة الإنسانية السوداء التي حجبها مختلف أطوار العنف التاريخي الأبيض .

هكذا جعلوا الجسد الأسود وأعادوا إليه جذورته الجمالية والأخلاقية ، ذ (سنغور يؤكد دائما في شعره على الجمال الأسود)^(٦٨) ، وفي معظم النصوص الشعرية يلوح الجسد الرجولي كثرة لطاقة ذكورية أسطورية هي مصدر قوة السود واحتماهم ، أما الأنثى الزنوجية فقد صارت أندرويت أو عشار ، لها نفس جانبها وفتنتها .

لقد صاغوا الإنسان الأسود مزارعا لا يكل ، وصيدا يغالب الصوازي ، وغازيا فعلا ونبيلًا يجمي عشيرته ويشهد من أجلها ، أي أنهم صاغوه إنسانا فعلا في محيطه الطبيعي والاجتماعي ، تأخذ تموضعاته المجالية بعدا جنسيا ترميها دالا يصب في القفوسية الزنوجية ، ذ (الحرط ، والغرس ، والأكل ، معناه ممارسة الجنس مع الطبيعة)^(٦٩) ، و (في أسطورة دوغون جعل الإله الواحد الأرض أنثى لها خلقها ، ثم تزوج بها لتوه)^(٧٠) .

وصوروا الطقوس والأعراف ، فاستحضروا الكهان والعرفات والحكمة الجوالين بالتواريخ والحكم وسير المشاهير من السود ، ونقلوا صخب الرقص الزنوجي وشعائرية الجلبة ، كما ألغوا الفواصل بين الأحياء والموت انسجما مع الفلسفة الزنوجية التي لا تفرق بين الحياة والموت ، إذ يستمر حضور الموتى عبر سلالتههم ، يشعون روحا إلهية قلمية ، (فهؤلاء الشعراء لا يميزون بين «الموت» و «الأحياء» ، بين «الحياة» و «الوجود» . والنسبة إليهم فإن الموت يميون)^(٧١) .

ثم غاصوا في أحوال الماضي فابتعدوا ذكريات الدول السوداء العظيمة والجماعات العرقية ذات المآثر ، فقد نفصوا الغبار عن عظمة الممالك النوبية ، والسيويا القديمة ، وأضلوا صفحات من أجداد شعوب الزولو والبابانبارا ، متحدثين عن شهائمتها وعن نقائتها الأخلاقية .

وعلى مستوى الفضاء جعلوا أشعارهم منطبعة بلونية الطيبتين الإفريقية والأنتيلية ، في سحرهما البدائي ، وفي تلقائيتها البكر ، فخالطوا بين الكثافة التخيلية للنصوص وبين كثافة غابات الأبنوس ، ثم جعلوا هذه النصوص تهدير للسلالات الجبارة ، وتتشمخ بجلال الجبال المتطاولة ، وتتسرح انسراح الامتدادات الصحراوية ، حركوا في نسجها أنهار إفريقيا والأنيل ونضروها بأعشاب السفانا ، وملاوها بأشكال ولغات الوحوش والطيور الاستوائية ... هذا دون أن يغفلوا امتداح تلك الحميمة التي تشد الأسود إلى فضاءه ، أو

(٦٨) الدكتور محمد عبد الغني سوري : (شعاب إفريقيا) ، ص ٢١٢ .

(٦٩) .

— Jean paul Sartre : (Orphée noir) In (Anthologie de la nouvelle poésie nègre et malgache de langue française) de Léopold Sédar Senghor, P. 31.

— Janheinz Jahn : (Muntu : l'homme africain et la culture neo-africaine) P. 116.

— Ibid, P. 124.

(٧٠) .

(٧١) .

بل وتطعيم اللغة الفرنسية بجمالية مستقلة من مختلف أنماط الثقافة الشفوية الزنوجية ، فوظفوا الملاحم والأساطير والأغاني والحكايات الشعبية ، وزلوجوا بين للموسيقى الشعرية الغريبة وإيقاعية الموسيقى الزنوجية ، كما استعملوا التكرار ، بحيث تكثر الصيغ التكرارية ، حروفا وكلمات وتراكيب ، مما يخلق مضاعفات صوتية في النصوص . ولعل ما يميز الشعر الزنوجي عموما عن الشعر الغربي (أن الأول يجب أن يفنى أو الأخرى أن يتل بمصلحة للموسيقى)^(٧٢) ، وبالرغم من الدوامية المتجنمة لبعض النصوص ، فإن الغنائية هي الطابع الجوهري لأكثريتها ، وهذا يدل على استمرار نفس الروح التي طبعت الشعر الزنوجي الشفوي ، وإجلا فإنه (شعر يتميز بالمرح والحيلة في استعمال الألفاظ والصور والأخيلة كما أن الموسيقى الإفريقية ذات الإيقاع الخاص قد أثرت في عروضة وفي أنشده)^(٧٣).

لكن هذه الجمالية سوف تجر مجموعة من الانتقادات والاعتراضات ، فقد نظر إليها البعض من زاوية (أنها الوسيلة الأكثر أمثالا لفكرة شعر « فولكلوري » لن تستطيع سوى المحافل التي يناقش فيها « الفن الزنوجي »^(٧٤) ، بينما يرى آخرون بـ (أن جمالية الزنوجية هي قبل كل شيء جمالية غرائبية)^(٧٥) .

وفيما يتعلق بالأسماء الشعرية البارزة في هذه المدرسة فهناك في الحقيقة أسماء كثيرة إلا أن أبرزها ، على الإطلاق ، اسمان هما سنغور وسيزير .

سنغور شاعر قبل أن يكون رجلا سياسة (رئيس للسينغال من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٨٠ حيث استقال

يغفلوا التعبير عن مشاعر الحنين إلى إفريقيا الحاملة والوديمة ، وهو ما جعل سارتر يشبه هذه المشاعر بتعلق « أوفيسوس » « بيوريجسي » كما في الأسطورة الإغريقية . وإذا كانت نصوص كثيرة قد طغى عليها حس نرجسي حيال الذات السوداء وحيال فضائلها وحضارتها فعدلت الأبيض وفضاهه وحضارته فإن نصوصا أخرى قد سيطر عليها حس غيري تحول معه الموقف الاستعدادي إلى موقف إنساني انفتاحي ليس نحو الأبيض فحسب ، بل ونحو الإنسان ككل .

تلك هي المشاغل الأساسية في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وبذلك استطاع هذا الشعر أن يفتح بصدق انخراطه في التجربة التاريخية لعالم في طريقه إلى استرداد هويته ، وللاشارة فإن هذا الشعر بالذات هو الذي أرحم سارتر على تبجيل رأيه في الشعر عموما . فنحن نعلم بأن سارتر سبق له أن نزع عن الشعر وظيفته الإلزامية ، بدعوى أنه أحد أنماط الكتابة المجازية التي لا تسعف ، لتوصيتها ، على تبيين مقصديتها الإنسانية والاجتماعية في حين يكشف الفن الروائي ، ككتابة انسيابية أو غخطية ، عن التزامه بقضايا الإنسان والمجتمع ، إلا أن سارتر سيخلص من هذا التحليل بعد أن توصل إلى أن الرؤية الأوروبية وجه من وجوه الالتزام .

وعلى المستوى الشكلي نلاحظ بأن تبعية هذا الشعر للسواعد الشكلية في الشعر الفرنسي الكلاسيكي ، والرومانسي ، والبرناسي ، والسريالي ، لم تمنع الشعراء الزوج الذين يكتبون بالفرنسية من تطعيم هذه القواعد

— Albert Nordmann : (La Littérature neo-africaine) P. 21.

(٧٢)

(٧٣) لويس موش : (الفرقة والألب) ، ص ٤٥٠ .

— Michèle pierre : (Deux generations pour une littérature) in (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 29.

(٧٤)

— Stanislas Adotevi : (Négritude et Négrologues) P. 17.

(٧٥)

بمحف إرادته ، ولعله أجدر الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية بالإمارة الشعرية ، عرف عنه أنه مكثر^(٧٣)، إذ أصدر (أغاني الظل) ١٩٤٥ ، (الغرايين السوداء) ١٩٤٨ ، (أغاني من أجل نايت) ١٩٤٩ ، (إثيوبيات) ١٩٥٦ ، (ليليات) ١٩٦١ .

وشعر سنغور يمكن عده نوعاً من التكريم للذات السوداء ولتاريخها ، إلا أنه يجد في نفس الوقت مزعاً تصالحاً مع الفكر المسيحي ومع الحضارة الغربية ، بمعنى أنه غير موقعه (من معارضة وهداء شديدين إلى هدوء وتقبل تام)^(٧٤). على أن ما يلتفت في شعر الرجل هو إحساسه الكبير بالثبات وبالسبل ، الأمر الذي صيرهما دمين دالين في نصوصه ، فهو (يقترن دائماً النبات بالمرأة وثرية إفريقيا عامة في فكرة الخصوبة والإنجاب والتفتح)^(٧٥)، مثلاً (يعمل من الليل هيكلاً وقاعدة لأشعاره ويؤكد ذلك مجموعته الشعرية التي تعرف بـ « ليليات »)^(٧٦). ومن حيث التقنية الشعرية يتراوح سنغور بين كلاسيكية كلوديل وسريالية سان جون بيرس ، ولو أنه أكثر إخلاصاً للكلاسيكية ، وقد عمل على استفاد الجمالية الزوجية فتدثر شعره من جراء هذا بكثافة شقوية ملموسة أمده بها الشعر الشعبي الزنوجي .

ويقدم سيرير ، مثله مثل سنغور ، صورة للمبدع والسياسي كتقاطعين في شخصيته ، فهو معروف كشاعر

وأيضاً كمتناضل في سبيل قضية الزنوج بجزيرة المارتينيك أحد الأقاليم الفرنسية فيها وراء البحار . إنه يحق الضمير الحي لإخوته والصوت الناطق بآلامهم ومطالبهم ، ومن دواوينه (مذكرة عودة إلى بلدي) ١٩٣٩ ، (الأسلحة الحارقة) ١٩٤٦ ، (شمس مبتورة الجيد) ١٩٤٨ ، (أغلال) ١٩٦٠ ، (مسح) ١٩٦١ ، (أنا الرغائقي) ١٩٨٢ ، هذا عدا كتبه ومقالاته الكثيرة^(٨٠).

وتلوح أشعار سيزير حول معاداة الاستعمار ، والاستغلال ، وتحجير السود ، كما تصور ماضي إفريقيا وصنائع إنسانها ، وتتفتى بالأساني التاريخية للسود في التحرر والاعتناق . فد بالنسبة إلى سيزير يجب على الشاعر أن يجد موهبة النبي الذي لا يقول ما هو كائن فقط ، بل وما يتحتم أن يكون^(٨١)، ويوضح انحيازه إلى جنسه قائلًا عن نفسه وهن سنغور (إننا ناطقون بالفرنسية قبلتنا الثقافة الفرنسية ، لكن الأسلحة الحارقة نريد أن نضعها في خدمة شعبنا)^(٨٢). لقد أدان الرأسمالية البيضاء ونظر إلى فضالية السود كجزء من الكفاح الأمم ضد الأجهزة الرأسمالية ، وبذلك فهو يلتقي مع أطروحة سارتر المعروفة في هذا الصدد ، وموازاة ذلك أبان سيزير عن تعلقه القومي بالقيم الزنوجية وأباطا إياها بالقيم الإنسانية التي يتوجب الدفاع عنها . ولا ريب أن قصيدته المطولة (مذكرة عودة إلى بلدي) هي النموذج الذي يستوي جماع منازعه

(٧٦) من كتابات الطرية : (ماتيسم الإنسان الأسود) ١٩٣٩ ، (روح المشرود أوليات المشرود - إفريقيا) ضمن مجلة (المشرود الإفريقي) ، يوليو ، نوفمبر ١٩٥٦ .

(٧٧) الدكتور محمد عبد الله سويحي : (تقديراً إفريقيا) ص ٣٢١ .

(٧٨) الدكتور جوزيف جوميت جوميت (مارو) سنجور وحفارة الإنسان (مجلة عالم الفكر) للبيات السن ٣ ، أكتوبر ، نوفمبر ١٩٧٧ ، ص ٧٨ .

(٧٩) حسن النقي : (الفرقة في الأدب القصصي الشفلي ، سنغور ، وود ديوب) مجلة (أفك) ص ١ ، ع ٢ ، جوي ، أوت ، سبتمبر ١٩٧٣ ، ص ٤٦ .

(٨٠) من بين ما كتب : (توسان لفرافرد) ١٩٦٠ ، (لوريميديات) وكتبت الكتاب ١٩٥٦ ، (للك كرسيف) ١٩٦٤ ، (فصل في الكريف) ١٩٦٥ ، (حاصلة) ١٩٦٩ .

(٨١)

— Ahmad Nouroum : (La littérature neo-africaine) P. 18.

— (Aline cesaire, Negre rebelle) (Le monde de dimanche) No. 11463-Dimanche 6 decembre 1981, P. 1.

(٨٢)

المستمدة من التراث اللغاشي، وخاصة جانبها الأسطوري، وهناك شاعر مقلتي آخر هو فيلانيان راتيفو، بيد أنه لا يرقى إلى شهرة الأولين. أما غويانا الفرنسية فلها أهدت الشاعر ليون داماس^(٨٨) الذي ارتبط اسمه بالزوجة هو وزميله ستور وسيزير. وبغضلا عن سيزير ظهرت في المارتنيك أسماء أخرى منها جيلبير كراتيان، ولينين ليرو، بينا عرفت الغواندولوب بشاعرها كي تيرويان، ويول نيجير. ومن هائتي نذكر أسماء كل من ليون لالو، وجاك رومان، وجان فرانسوا بريير، وروني بيلاتس، وجان بابتيست، وهي الأسماء التي اختصت للشعر المحلي ملاحه الخاصة داخل المدرسة التي تكتب بالفرنسية. فقد أرق هؤلاء الشعراء الذاتي بللوضوحي بحيث (إذا كان الشعر المحلي يزخر بأغاني الحب، فإنه وقف في جانبين أساسيين: أولها مقلقة الشاعر للوطن الأم. وثانيها فضح التمييز العنصري)^(٨٩)، ومن جهة ثانية فلهذه وأظنوا على إحياء وتوظيف الطغوس الزوجية، كديانة القود، والتبشير بها كمعتقد بديل لمسيحية الأبيض.

هذه إذن نظرة عن الشعر الزوجي المكتوب بالفرنسية وعن رموز الجيل الأول، ذلك الجيل الذي أطلق صيحة الزوجة وأرسلها مركزاتها النظرية والإبداعية. وفي الستينات منتظم أسماء من غير الأسماء التي ذكرنا، وستتشكل جيل جديد لم يمش نفس التجربة التاريخية التي عاشها الرواد، وهذا يعني اختلاف المناظير بين

وتصوراته؛ وقد (أجمع النقاد على أن هذه القصيدة رئيسية بالنسبة إلى كل الأفارقة ورأوا فيها الظاهرة الثورية لقسم من العالم الثالث وهم الزوج)^(٩٠).

لقد قرأ سيزير لوتريامون، ونوفاليس، ورامبو، وبروتون، وأقام لغته الشعرية على تعقيد فني متطرف، الشيء الذي جعل شعره الأكثر شائكية مقارنة مع باقي الشعر الزوجي المكتوب بالفرنسية. فشعره يزواج، بلذاته، بين التقنية الشعرية والحكاية في تراثه الزوجي وبين التقنية الشعرية السريالية، ومع (أن سيزير يرفض دائما الانتساب رسميا إلى جماعة بروتون)^(٩١)، فإن هذا الأخير عنه في تقديمه لديوان (مذكرة عودة إلى بلدي) (طبعة بورداس ١٩٤٣) أكبر شاعر سريالي أسود^(٩٢)، إذ أن هذا الديوان هو في الحقيقة قصيدة طويلة (فيها بدأ غهرته الطويلة التي قامت على التنكيت السريالي من أجل تشكيل اللغة الفرنسية شكلا جديدا)^(٩٣). وبصفة عامة يمكن أن نقول بأن شعر سيزير يتضمن (كل هاتيك العناصر الموجودة في كتابات الزوج الكاريبيين ويفسها في مفهوم الزوجة المتفرد)^(٩٤).

ومن غير ستور أعطت السينغال شاعرين آخرين هما دافيد ديوب، ويريبرج ديوب، مثلاً أعطت مدخشر الشاعرين الكبيرين جان جوزيف رابير فيلو، وجاك رابيرا ناجار، اللذين يصبا الشعر الزوجي المكتوب بالفرنسية بكثير من موهبتها ويكثر من الطوايح الفنية

(٨٣) أحمد الطويل: (في سيزير الأسماء الزوجية والشعر الإقليمي) مجلة: (الأفكار) من ١٣، ٧، نيسان ١٩٧٨، ص ٢٢.
(٨٤) Jerome gardin : (Aline Csaire, le soleil du pays natal) in (les nouvelles littéraires) semaine du 25 Novembre au 1er Decembre 1981. No. 2663, P. 42.

(٨٥) ويعد مدح ميغيل بروكس هذه الإضافة مقصية بين سيزير والشاعر الزوجي الأمريكي للعناصر تد جونس.

(٨٦) جبر العصور: (سبعة أجيال من إفريقيا) ترجمة: علي شافق، ص ٣٦.

(٨٧) نفسه، ص ٣٠.

(٨٨) من أهم أعمال الشعرية ديوان (الأصباغ) الصادر عن دار جاليل عام ١٩٣٧، (لا أن السلطات الفرنسية كانت قد صادرة بعدهم مدحهم للغرب).

(٨٩) حسن المهدي: (لغة من الشعر المحلي) مجلة: (ثقافة) من ٧، ٣، جري، أوت، سبتمبر ١٩٦٤ - ص ٤٦.

وإلى جانب لانغستون هيرز نجد الشاعر كوني كولن الذي يعد الأكثر تعلقاً بإفريقيا قياماً إلى الشعراء الزنوج الأمريكيين ، ثم هناك الشعراء ستيرلنج براون ، وجيمس ويلدرون . إن الشعر الزنوجي الأمريكي لا يكاد يختلف دلاليًا في شيء عن نظيره المكتسوب بالفرنسية ، ما عدا في تركيزه على دلالات الاسترقاق والمزج العنصري ، بالنظر إلى خصوصية الوضع الزنوجي في الولايات المتحدة ، ولعل هذه الخصوصية هي التي جعلت (أهم الموضوعات التي يتعرض لها الشعراء الزنوج هي فقدان الحرية ، وهار الرق ، والجوع ، ومحاولات الثورة ، ويؤس الرقيق ، وبمعيد العهد الثالث ، والكفاح من أجل تحرير العبيد ، وهي موضوعات جوهرها سياسي^(٩٦) . فالذاكرة السوداء الأمريكية لا يمكنها أن تنسى عذابات العبيد في الجنوب الأمريكي ، ومحنة الأحياء المحاشية في نيويورك وشيكاجو ، أو منع لوسي الطالبة الزنوجية من الالتحاق بجامعة الاباما ، ومقتل القس الزنوجي مارتين لوثر كينغ ، الذي زعم حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للزنوج الأمريكيين . ولذلك سيطرت على الشعر الزنوجي الأمريكي دلالات الاسترقاق والمزج العنصري ، كما امتلأ هذا الشعر بإدانة الشعراء الزنوج الأمريكيين لهاتين الممارستين من حيث كونهما تعبيراً عن انحلالية همجية وتعميرية ، على أهم لم يصلوا ، رغم الجروح والمهانات ، إلى حد الحقد على البيض ، (بل لقد بلغ بعضهم الإنصاف درجة الاعتراف بما للجنس الأبيض من فضل عليهم^(٩٧) . لكنهم جنحوا في المقابل إلى

الجليلين ، كما يعني تباعداً معلوماً بينها على مستوى مضامين وأشكال الكتابة الشعرية . لقد كان الجيل الأول مثلاً مشغولاً بالتعبير عن قضايا الاسترقاق والاستعمار والمزج العنصري ، ويتمثل ثورات السود ونضالهم من أجل حريتهم وجدارتهم الإنسانية ، أما الجيل الثاني فإنه عايش قضايا وإنشغالات طرحتها سنرات الاستقلال ، قضايا وإنشغالات من قبيل البناء المجتمعي ، والصراع الطبقي ، والتقليد والحداثة . إن هذا التحول لا يدل في نظرنا على قطعة ما ، ولكنه يشير إلى ما يمكن اعتباره إغناء وتنوعاً لموضوعات الشعر الزنوجي ، ومن أبرز أسماء الجيل الثاني روني دويستر ، لامين ديكالي ، إدوارد كليسان ، تشيكاي أوتامسي ، إدوارد مونيك ، (هؤلاء الشباب الذين سيأتون لإغناء الدم الجديد والفني للزنوجة^(٩٨) .

أما المدرسة التي يكتب أصحابها بالإنجليزية فهي تشمل شعراء الولايات المتحدة ، وشعراء جنوب إفريقيا ، سواء الذين يكتبون بالإنجليزية أو بالأفريكانية (لغة متصدرة عن الهولندية) ، ثم شعراء المستعمرات البريطانية في إفريقيا .

ومن الأسماء الأساسية في الشعر الزنوجي الأمريكي الشاعر لانغستون هيرز ، فهو الأكثر شهرة بين رفقاءه الأمريكيين كما كان له من نفوذ عليهم ، (إنه أحد الكبار بين الشعراء السود ، لأنه مبدع حقاً سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد الموضوعات^(٩٩) . وقد ربطته مع ستيفن وداماس علاقة حميمة ، فتعرفا على تصورات تيارو البقطة الزنوجية « الذي أسهبنا القول فيه سابقاً .

— Abdallah Benmalek : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine) in

(٩٠)

جريدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطنجة - ج ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٢٧٣ .

— Lylian Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des poètes, poètes et dramaturges noirs du XXe siècle) PP 21-22.

(٩٢) لويس مريض : (الفترة والأدب) ص ٥٤ .

السود قصائد ، وأن كل الناس السود إفريقيون ، وأن القصيدة المطلقة هي التجلي الأدبي لإفريقيا وشعوبها اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا وروحيا (٩٥).

وكالشعر الزنوجي الأمريكي يواجهنا الشعر الزنوجي في جنوب إفريقيا بلهجة الإدانة للميز العنصري ، لأننا لما نذكر جنوب إفريقيا فلننا نذكر إحدى قلاع البربرية المتبقية من عهود الظلام ، فضرورة حياة السود هناك تفوق كل التصورات للمكنة ، بحيث يمرمون ، وهم الأغلبية ، من حقوقهم الإنسانية ، ويمتنعون ، وهم في وطنهم ، من حق الانتقال والتجول وإلى جانب هذا العامل المشترك نسبيا ، بين الواقعيين الأمريكي والجنوب إفريقي ، هناك عامل الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية في واجهتها الانفصالية ، أي في مستواها التكنولوجي المتقدم ومنظورها التحصيلي للإنسان المغاير ، ففي الولايات المتحدة أمكن لشعرائها الزنوج أن يماينوا ما تمتعته الحضارة البيضاء ، كما استطاعوا استيعاب آلياتها التنميرية عن قرب ، (وفي دولة متطورة صناعيا كجمهورية إفريقيا الجنوبية تركت عمليات التمددين المكثفة آثارها العميقة على الإدراك السياسي للأفارقة وهذا بالتالي حدد خواص التفكير الفني حيث تضافرت وتفاعلت بشكل متبادل المشكلة الإنشائية النموذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة أخرى (٩٦).

وهكذا تجمهرت كل الأعمال الشعرية الزنوجية في جنوب إفريقيا ، المكتوبة بالإنجليزية والأفريكانية ، حول الميز العنصري ومعاكسة السود لأوضاعه الجسدية

الإعلام من قدر الذات السوداء ، فقصاموا بوسامة الجسد الأسود ، وامتدحوا الشعر المجعد والمنقوش . ومن زاوية الشكل تركوا علامات إرثهم الزنوجي منتصبة في بنية اللغة الإنجليزية ، بحيث عملوا على تعنيفها بل تزيينها بما استوحوه من الأهازيج والمأثورات الزنوجية ، وما اقترضوه من موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم ، الشيء الذي أعطى شعرهم مذاقا شائقا بين المدارس الشعرية الزنوجية . (إن شعر الزنوجية ينشر الفرح ولقد قال لوركا « وإن زنوج أمريكا يمثلون هناك أكبر حساسية وفقه لأنهم يأملون ، لأنهم يفتنون وكان بإمكانه أن يختصر وهو أمير الشعراء « إن الزنوج بعاطفتهم وحساسيتهم هم اللذة للشاعرية لأمريكا (٩٧).

هذا وأعقب جيل « البقطة الزنوجية » جيل جديد ، كالذي حدث في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وقد ساق هذا الجيل تطور مشاغل وهموم السود في الولايات المتحدة ، فانتقل الشعر من مسابرة شعار الحقوق المدنية إلى التعبير عن تمسك الجماعة السوداء والهوية المارقة ، أي من مرحلة الشعور بالانتماء إلى المجتمع الأمريكي إلى مرحلة الانتماء إلى الكلية السوداء ، ومن بين عملي هذا الجيل راب براون ، كلارك كارتر ، جاي وايت ، لاري نيل ، ماري ليفانز ..

وهل أي ، ومهما يكن من تباين بين الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية ونظرائهم الأمريكيين فإمامهم يلتقون على أكثر من صعيد ، مادام (الشيء الذي يربط بين هؤلاء الشعراء هو ذلك الوعي الملهم بأن الناس

(٩٣) قسم الزنوجي : (نظرات في الفكر الزنوجي) جلة : (الثقافة لغوية) ج ٦ - ١٩٧٢ ، ص ٤٥ .

(٩٤) لأمين نايك : (الثقافة والشعر الزنوجي الإفريقي عناصر وثقافة حضارتها) (الثقافة الإفريقية) ، ص ٣٥٨ .

(٩٥) أحمد مرسي : (مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي) ص ٥٧ .

(٩٦) د. أنثيمير مومون : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة ، وليد قروصي - جلة (الأدب الأجنبية) ص ١١ ، العدد ٣٨ ، ٣٩ ، شهر ربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢٢ .

الأخرى ، استخدام جامعات من السود مسخرة للعمل الشاق في مزارع قصب السكر التي تمتلكها الكمبرادورية الإسبانية ، وظل الاسترقاق قائما بكوبا إلى نهاية القرن الماضي . فانشحت نفسية الزنوج الكوبيين بمراوات وجلدت مجسدها التعبير في نصوص الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي مقدمتهم الشاعر جوزيه زاكارياس طاليت والشاعر نيكولا كوين . ويخصص هذا الأخير فقد عرفت عنه ميوله الشيوعية بالرغم من انتمائه إلى وسط بورجوازي ، وفي الوقت الذي انتج فيه البورجوازية السوداء الكوبية إلى التقليد الأبيض لنموذج الحياة الغربية رجع كوين إلى جلوه السود . ويدور شعره حول تصوير ظلامية عهد الاسترقاق ، وحول عن السود وآلامهم ، وحول شقاوتهم في مزارع قصب السكر ، كما يكشف شعره عن غرق قاس للهوية ، إذ يعملنا شعر بالبعد الاستعماري لهوية زنوج كوبا الذين انتزعوا من تاريخهم وثقافتهم الحقيقيين وأقحموا في مناج تفرسي ، ومن الزاوية الشكلية ضمن كوين نصوصه كثيرا من الأعمال الزنوجية ، وطبع بأسلوبه الشخصي اللغة الشعرية الإسبانية ، إلا أن الشاعرية الكبيرة لكوين لم تعثر على من يطورها ويغنيها ، بالنظر إلى ندرة الشعراء الزنوج الكوبيين المبدعين باللغة الإسبانية .

وعلى العكس من هذه الندرة استطاعت اللغة البرتغالية أن تفرز عددا كبيرا من الشعراء الزنوج ، من أصبح لهم صيت داخل الشعر الزنوجي الإفريقي . أصبح اسم الشعراء الأنثويين ، الرئيس الأنثوي الراحل أغوستينوتو ، وأنطونيو جاستو ، والشاعر الموزمبيقي المروفين كالرئيس الموزمبيقي الراحل سامورا مانيل ،

والنفسية ، كما محوروت أيضا حول معاداة الحضارة البيضاء وأخلاقيتها التمييزية ، وفي نفس الوقت طفحت هذه الأعمال بتطلعات السود إلى بناء جنوب إفريقيا متحررة من رقة الميز والتهميش . وإذا علمنا مقدار القمع الذي يتعرض له الشعراء من قبل السلطات البيضاء أمكننا تقدير الوضعية الحائقة التي يكتب داخلها هؤلاء ، بحيث غالبا ما يكونون عرضة لاعتقال أو النفي أو الإعدام^(٩٧) ، ويعتبر الشعراء دنيس بروتوس ، ومازيسي كونيبي ، وكوسمويترس ، وبريتين برينتيك^(٩٨) أهم وجوه الشعر الزنوجي بجنوب إفريقيا .

أما من نيجيريا فيمكن أن نذكر مجموعة من الشعراء منهم دنيس أوسادباي ، وفابرييل أوكارا ، وجون بيبير كلارك ، وجوزيف كاريوكي ، ومن غائبا نذكر الشاعرين ميكائيل ديوانج ، وكايري منسا . وبالطبع فإن ما يصدق على الشعر الزنوجي الأمريكي وعلى الشعر الزنوجي الجنوب إفريقي يصدق كذلك على ما أبدعه الشعراء الزنوج النيجيريون والغانيون بشرط احساننا للحجيات الخاصة بكل تجربة شعرية قطرية .

وفيما يتعلق بالشعر الزنوجي المكتوب بالإسبانية والبرتغالية فإنه يمثل في النصوص الشعرية المنسوبة إلى الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي للمستعمرات البرتغالية بإفريقيا (أنغولا ، الموزمبيق ، غينيا بيساو) . وتنتمج هذه اللدسة هي الأخرى في نفس الإطار العام للشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي سواء من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الدلالية ، ولا يبعدها عن هذا الإطار سوى ما تملك بالاختيارات القطرية ، وعقنضيات الأداة اللغوية . فلقد عرفت كوبا ، كجزر الأنتيل

(٩٧) نقلت إلى مقال الشاعر بنيلين مولوي الذي أمدته سلطات بربوريا يوم ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

(٩٨) حوكم هذا الشاعر بضع سنوات سجنًا بسبب الحمار ، واه حيوات (نقل البرقة) الذي يد من كيد ما كتب في الشعر الزنوجي الجنوب الإفريقي .

لم تنحصر إذن في الحقل الشعري ، بل كان لها حضور وكانت لها تجليات في حقول أخرى كالرواية ، والقصة القصيرة ، والمقالة ، والكتابة النظرية ، والمسرح ، والنحت ، والموسيقى والسبنا . . . وإذا أخذنا الكتابة الروائية فنلاحظ بأنها خلفت المهمة التي كانت للشعر على امتداد الثلاثينات والأربعينات والخمسينات ، وابتداء من الستينات سيصبح للروائيين الزوج نفس النفوذ الذي كان للشعراء فيها قبل ، ولذلك صارت الرواية الزوجية الحقل الأدبي الأكثر تمثيلا للخطاب الزوجي ، والواقع أن الأساء أكثر من أن تحصر ، ولذلك يمكن الاكتصار على بعضها على سبيل التلخيص^(٩٩) . فمن الروائيين السنغاليين نذكر مبدلوي سادجي ، وسمين عثمان ، والشيخ حاميدو كَنَّا ، ونذكر من ساحل العاج برنر دادي ، ومن الكونغو جان مالونغا ، ومن غينيا كاسارا لاي ، ومن مالي سيدو بلانديا كويات ، ومن الداهومي أولب بيلي ، ومن جنوب إفريقيا بيثير أبراهامز ، وهوت شينتون . أما الروائيون المارتينيكيون فنعلم جوزيف زويل ، وإدوار كليسان ، ومن الهايتيين جاك ستيفن أليكسي ، ونيج من غويانا الفرنسية الروائي الكبير روني ماران الذي حصل على جائزة كونكور الأدبية عام ١٩٩١ إثر صدور روايته (باتولا) ، وقد برزت اللجنة منحه الجائزة بكونه أول رواي زنجي يتمكن من إنجاز رواية تمكس برواه الروح الزوجية . ويختصص الرواية الأمريكية نستعرض أسماء كل من شستريهايز ، وريشارد رايت ، وجيمس بالدوين الذي تميز أعماله بكتابة عنيفة متناحرة ، أسطوريا ومضمونيا ، ومنها رواية (النار في المرة القادمة) .

وفاليتا جانغالانا ، ونعمية ديسوزا ، ومارميليانو دوس سانتوس ، بينما اشتهر من شعراء جزر الرأس الأخضر الشاعر أونيسيمو سيلفيرا .

ومن خلال قراءتنا لنصوص شعراء المستعمرات البرتغالية نلمس مدى الأولوية التي أعطاهها هؤلاء للمسألة التحررية ، مما جعل شعرهم أقرب ما يكون إلى الشعر السياسي بمعناه التقدي ، ولعل هذا التميز راجع إلى تأثر استقلال بلدانهم بالنسبة إلى الأنظار الإفريقية الأخرى ، هذا إضافة إلى أن بلدانهم حصلت على حريتها توسلا بالكتف الملتصق ، بخلاف دول كالسنيغال وساحل العاج إذ حققتا استقلالهما سلميا . وإذا كان لا بد أن نجد العنف الثوري صدها الطبيعي في نصوص شعراء المستعمرات البرتغالية وأن يقتصر الإبداعي بالإيديولوجي في هذه النصوص ، وفي شخصية بعض الشعراء (مثال الرئيس أفونتينيتو وسامورا ماخيل) ، وبالتالي لا (ليس من باب الصدف أن تصبح قصائد أفونتينيتو « نحن هاللون » و « البناء » أغاني حرية لفصل تحرير أنغولا^(١٠٠) . لكن خروج دلالي الحرية والثورة التزم شعراء هذه المدرسة بتصوير بؤس السود ، وفضح آلية الاضطهاد الأبيض ، كما استعملوا ذكريات المبودية ، وإن كان الموزمبيقيون قد ركزوا أكثر على تصوير الطبيعة الخلابة لوطنهم ، وعلى معاناة المهاجرين من أبناء بلدهم إلى جنوب إفريقيا ، حيث يعملون في مناجم الذهب في ظروف لا إنسانية ، ملؤها الاستغلال والعنصرية .

إن الزوجية كخطاب فكري شمولي كان لا بد وأن تمتد آثارها إلى مجالات ثقافية أخرى ، وأن تستحكم في بنائها الشكلية والدلالية وفي بنيتها الرؤيوية . فالزوجية

(٩٩) ميشال كوك تشيفيت : (الشعر الإفريقي دعوى إلى الإنسان) ترجمة : عطيل حسن - جعة (الآلاف) ، ص ١٥ - ٩ - حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٨ .
(١٠٠) مطمح هؤلاء الروائيين يفرس كتابة القصة القصيرة أيضاً .

الأشكال ما قبل المسرحية في تراثهم كـ « الباييك » وغنائيات « مفت » و « سانيات » اليوروبا والزولو وامبونجي ، وبموازاة ذلك استمروا طقوسية الفناء والرقص والإيقاع ، وجعلوا الجمهور مندجاً في الفعل المسرحي . ومن المسرحيين الزنوج المعاصرين الكاتب الجنوب إفريقي أثول فوغارد ، صاحب مسرحية (عقدة الدم) التي تعالج إشكالية الهوية في مجتمعه ، والكتابة الغانية إيفاتويدورا سوتولند ، صاحبة المسرحيتين (أنانس غورو) و (سوف تؤذي البمين) ، وهما عاملان ينمان عن ثقافة أسطورية واسعة مؤلفتهما ، ثم الكاتب النيجيري وول سويكا الذي ألف مسرحيات مفرقة في زنجيتها ، ومنها (النسل الغوي) و (سكان المستنقع) ، هذا دون أن ننسى إيمي مينير في مسرحياته (مأساة الملك كريستوف) و (فصل في الكونغو) و (حاصفة) ، والمسرحي العاجي برنارد دادي صاحب مسرحية (أسميان دوئيل) .

ورضياً عن أن السينما الإفريقية فتية كسينيا العالم الثالث فقد حاول السينمائيون الأفارقة وضعها في نفس الإطار الفكري والإبداعي الذي أطرت به الزنوجة مختلف الفعاليات الثقافية في العالم الأسود . فضلاً عن السينما نتاج للحضارة البيضاء ، بيد أن هذه الحقيقة لم تمنع توظيف تقنياتها وبهايتها بغاية تأسيس خطاب سينمائي زنجوي يوثق ويستقرئ الواقع الأسود ، في قصائده وتحولاته وأسلته ، لهذا نحول مهرجان « أوغادوغو » السينمائي ، الذي ينعقد موسمياً ببوركينا فاسو إلى فرصة للوقوف على إنجازات السينما الإفريقية ، وعلى مدى قدرتها التفسيرية من نفس المشاغل الوجودية التي تضغط بثقلها على الشعراء والروائيين والمسرحيين الزنوج ، وإذا كان لنا أن نعين بعض أسماء السينما الإفريقية فلنذكر السينمائي سمين

وفي مجال المقالة والكتابة النظرية ، سبق أن أثبتنا بعض أعمال سنهور وسينير ، إلا أننا نضيف أسماء أخرى كالزوخ السينغالي أنتادوب صاحب أكثر من مقال وكتاب حول التاريخ والحضارة الإفريقيين ، وكذلك الكاتب النيجيري أموس توتوولا ، والكاتب والسياسي الكيني جوموكيناتا الذي ألف كتاب (عند سفح جبل كينيا) ، الذي نشرت دارماسيرو ترجمته الفرنسية ، وقد ساهم هذا الكتاب في تأسيس وهي زنجي في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، نظراً لما تضمنته من تحليل لمسألة الاستعمار وليكاتبزيم البنية القبلية في إفريقيا . وعلى فرار جوموكيناتا اشتغل الرئيس الغاني الراحل تولامي نكروما بالفضايا الإفريقية ، فالف كتاباً عديدة منها (الوعوية) و (يجب على إفريقيا أن تتسرد) . على أن ألع الكاتب الزنوج قاطبة هو المارتينيكي فرانز فافون ، ومن المعلوم أنه بدأ حياته العملية كطبيب نفساني ثم انتقل من المارتينيك إلى الجزائر كطبيب متطوع في جبهة التحرير الجزائرية قبل الاستقلال ، وبعد هذه المرحلة عمل مستشاراً للزعيم الكونغولي الراحل باتريس لومومبا . ومن مؤلفاته المعروفة (جلد أسود ، أقمعة بيضاء) الذي حلل فيه أصناف المركبات النفسية لدى زنوج المارتينيك كالانفصام والعصاب ، و (للملبدون في الأرض) الذي تناول فيه قضايا الاستعمار والثقافة والهوية في العالم الأسود وفي العالم الثالث عموماً .

وفي نفس السياق عمل المسرحيون الزنوج على أن يكون مسرحهم من صميم الثقافة الزنجية ، أولاً عن طريق كتابة نصوص تصطب على موضوعات لها علاقة ببيتهم ، وثانياً عن طريق الاستناد على ما تتجبه هذه الثقافة من تقنيات وطرائق فرجوية ، ومن هنا استلهموا تقنية الراوي في الأدب الشعبي الإفريقي ، كما وظفوا

المذكور من أفكار وإبداعات وبالتالي مناسبات لإفادات العالم إلى الصوت الزنوجي ، إلى صوت هوية ثمارس احتفالها الثقافي . كذا تركزت الأنظار على دكتور عام ١٩٦٦ وهي تحتضن المهرجان الأول للثقافة السوداء ، وعلى الجزائر عام ١٩٦٩ وهي تؤم المهرجان الثاني ، وعلى لاجوس عام ١٩٧٧ وهي تستقبل المهرجان الثالث ، وعوازة هذه المناسبات انعقدت ملتقيات أخرى خاصة بالأدباء الأفارقة ، كملتقى باريس عام ١٩٥٦ وملتقى روما ١٩٥٩ .

وكل حركة فكرية وإبداعية مستجدة وطلعية لم يكن في وسع الزنوجة أن تمر في صمت ، وإن تضمن موقفها بين الحركات الفكرية العالمية دون إثارة ردود فعل مواكبة تتوزع بين الترحيم لها وبين الاعتراض على هذه المبادئ تأسيسا على منطلقات وقناعات معينة ، لذلك نرى من المجدي التعرض لردود الفعل التي اعترضت على الزنوجة ورفضت تصوراتها المختلفة .

طبعاً (لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الهام الذي قامت به « الزنوجة » كحركة أدبية منذ الثلاثينات الأولى من هذا القرن لتحقيق الذات الإفريقية ، والتعبير عن إدراة الوحدة لدى الزوج)^(١٠١) ، حل أن تحليلها لإشكاليات العالم الأسود أنتج أطروحات مضادة حاولت أن تمجد في الكتابات النظرية لسنغور التي تبنتها الحلقة الباريسية وقطاع عريض من المثقفين السود نفرت بناية الكشف عن تناقضات الخطاب الزنوجي وتفككه بل وميتافيزيقته ! سنغور يرى مثلاً (بأنه يصعب تصور كاتب زنوجي - إفريقي قد تساوره فكرة تجاهل الزنوجة أو التخلي عنها ، إذ ما قولنا في كاتب فرنسي قد يخذل نفس المؤلف من فرنسيته ؟ وفي كاتب إسباني أو أمريكي

عثمان ، والمالي سليمان سيسي ، والنيجيري عمرو كندا ، والكاميروني ديكونغي بيبا .

وانخرطت للموسيقى الزنوجة هي الأخرى في ذات الهم الثقافي الشمولي ، فمكف الفنانون السود على صياغة أصوات وإيقاعات تمكس تلك الموسيقى وصميميتها ، كما تعكس خلفيتها الطقوسية ، وملازماتها للسلوك اليومي في حياة الأسود ، ومن هنا جاءت فريدة الإبداع للموسيقى الزنوجي واحتكاره للثقافة العالمي . لقد ألحنا لميسا سلف إلى موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم والريكي ، لكن علينا أن نلمح إلى بعض مشاهير هذه الموسيقى كمجموعة توري كوندا السينغالية ، والمغنية الجنوب إفريقية مريام ماكيبا ، والفنانين الزوج الأمريكيين من أمثال جوناه جونز ، ولويس أرمسترانغ ، وراي براون ، ونياسيمون .

وإذا كان هذا شأن الحقول الثقافية التي مرت بنا فيكتينا ، فيما يخص النحت ، أن نشير إلى أن أصالة ما يبدعه النحاتون الزوج هي التي أتمحت ، مثلاً ، لمنحوتات النحات الملاوي وآيزي بأن تصدر أروقة متحف الفن الحديث في نيويورك .

إن الزنوجة كحركة فكرية وإبداعية لم تكن لتكتفي بالإعلان عن نفسها عبر المكتوب النظري أو عبر الفعل الثقافي ، بل إنها سنت لنصها تقاليد ، وخلقت قنوات ووسائل ما كان لها إلا أن تُرسم شرعيته وأن تجلج حضورها محققاً يجمع بين مثقفي العالم الأسود .

وهكذا ارتبطت الزنوجة بالأسواق الثقافية وبالمهرجانات والملتقيات التي كانت مناسبات للتداول في شؤون العالم الأسود ، واستعراض ما يزخر به العالم

(١٠١) حسن المني : (نكتة دي سوزا) (العالم الأسوي) ، ص ٤ - ٥ ، الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٧ ، ص ٣ .

- لآتميني ببلزله إسبانيسته ؟ لا شك أنكم
مستزرونه ؟؟ (١٠٦)

هذا الطرح ربما تبلى تعميما ومطلقا ، لأنه يفقر
على مجموعة عناصر ومعطيات تجعل من الخطاب
الزنجي خطابا نسبيا لا يجوز إمكانية انسحابه على كافة
الزنج . إن الزنوجة برأي المعترضين عليها قد ارتكبت
أحد أخطائها الكبرى عندما تعاملت مع العالم الأسود
ككتلة متجانسة لا تشوبها فوارق أو اختلافات ، بينما
واقع الأمور يؤيد لا تجانس العالم الأسود ، لخصائص
الجغرافيا والتاريخ والثقافة تتضمن تباعدات ، جهورية
أسيانا ، بين أجزاء هذا العالم ، وإنه فهو عالم
ميتافيزيقي أكثر منه علما معيشا وعلما موسا ، إذ لا وجود
لروح جهورية سوداء . نعم إن العالم الأسود يبدي
خصائص أصيلة جد ناشئة عن تاريخه وعن محيطه . إن
العالم الأسود ينبع من الواقع أكثر من القياس والأخلاق
ولا من الميتافيزيقا (١٠٧).

فهو الخصائص التي تخص الأسود الذي يعيش في
مجتمع متقدم تكنولوجيا كالولايات المتحدة فشرب كيانه
بغفاهات إيديولوجيا الاسترقاق والميز العنصري ، هذه
الخصائص هل هي نفس ما ينطبق على الأسود الأنغولي
الذي يعيش في مجتمع مختلف ، لكنه استطاع أن يغير
عميقا ما يعنيه الاستعمار ، هل الأسود الكروي أو
المارتينيكي هو عين الأسود السينغالي أو للمغاشي ؟ إن
الزنوجة (تجعل من الزوج كائنات متماثلة في أي مكان
وأي زمان) (١٠٨) ، وهي بذلك تغض الطرف عن
فوارق واختلافات ، تلبس بأكثر من صعيد ، بين سود

إفريقيا وسود الشتات من جهة ، وحتى فيما بين السود
الأفارقة ، وفيما بين سود الشتات من جهة أخرى .

أما بصدد الأطروحة السنغورية حول الانفتاح على
الغرب وإنشاء حضارة ثنائية (سوداء - بيضاء) ، فإن
المعترضين على الزنوجة يرون في هذه الأطروحة دليلا
على انقسام ثقافي عميق ، بحيث كيف تتكلم الزنوجة
عن أصالة العالم الأسود كبديل لشروط المجتمع الغربي
وتسعى في نفس الوقت إلى عقد صفقة حضارية مع
البيض ، وتخلق تعاقدا مستحيل مع قيمهم المادية ، ومن
ثم فإن (حلم سنغوري في تشكيل ثقافة إفريقية لآتية مثلا
لا يمبر إلا عن الواقع الملموس للتبعية السياسية
والاقتصادية والمفروض حسب تعبير « فانون » هو
« طلاق » الغرب (١٠٩).

فهذا الانفتاح إن هو إلا غطاء لتعلق تبني مع الغرب
تسد تكون له عواقب أوعم حتى من الاستعمار
الكلاسيكي . إن الفائلة التي ستجنيها الحضارة الغربية
ستكون أكثر من فائلة الحضارة السوداء ، بفعل الطابع
الحيثي للأولى ، ولهذا يبدو أن الزنوجة قد انجزت إلى
نوع من التمرکز الغرب في جاذبية النموذج الحضاري
الغربي هوئا وهي لتتبع هذا التمرکز ، ومعنى هذا أننا
حين نجردها من لونيتها السوداء تظهر قريبة من
الصُغَرَات الفكرية التوفيقية ، لأنها ضمن هذا الموقف
الانفتاحي ، تتراعى مجرد خطاب إنساني مضرب سرعان
ما تنكشف توفيقية المفزورة لما تتبين تنابذ الروحية
الزنوجية مع المادية الغربية .

(١٠٦) — (pour la ngritude) propres recueillis par Michel pierre-in (Magazine Littéraire) No. 195 Mai 1983-P. 31.

(١٠٧) — جوزيف كهرز وير : (عواقب والتزامات ثقافة إفريقيا حديثة) (ثقافة الإفريقية) ص ٤٠٨ .

(١٠٨) — Stanislas Adotevi : (Ngritude et Negrolgues) P. 45.

(١٠٩) — من ملاحظة عبد الحليف الحبي حسن نكرة (الفكر في القرن العشرين) التي نقلها لهاد كات المرب - (العلم الأسوي) ص ٢ - ع ٥٨ - لجلسة ١٨ مارس ١٩٩٠ ، ص ٨ .

الأوساط الثقافية الغربية منهم إلى ملايين السود للمعنيين بخطابهم الفكري والإبداعي، لأنهم قبل أي شيء، نتاج للمشروع التنقيحي الثقافي للاستعمار، قد (التقن) الإفريقي، المتكون في باريس أو لندن ينتمي - بعض الأحيان - إلى وسطه الثقافي بروابط خفية أكثر منه إلى مسقط رأسه (١٠٦)، وماداموا يمثلون الشرعية المتتروعة من البورجوازية العصرية السوداء، التي أفرزها السلسل الاستعماري، فإن النتيجة هي أن يتوزع ولاؤهم الإيديولوجي والفكري بين الغرب وبين العالم الأسود، وحين كان الزارعون السود في إفريقيا والأنتيل يقاسون شظف العيش ووملة الاستغلال في حقول الموز وقصب السكر (لم يكن هؤلاء الطلبة في السينال أو في فولتا العليا، لم يكونوا في فورفرانس، وإنما كانوا في باريس، على ضفاف السين) (١٠٨).

تلك إذن أهم الاعتراضات التي وجهت لها الزنوجية، أما إذا وجدنا تعجيد الجهة التي كانت أكثر متعاضدة لمبادئها، فإنها متفق إفريقيا الناطقة بالإنجليزية الذين كانوا (يرون فيها دعوة للرجوع إلى الوراء لا دعوة للبهت) (١٠٩)، لكن قبل بسط مرتكزات هذا الموقف يجدر بنا أن نشير سابقا إلى أن أفكار سنغور لم تصل بسرعة إلى أولئك المتقنين بسبب العائق اللغوي، وإذا أضفنا إزدراء الناطقين بالإنجليزية عموما لكل ما يتصل بالثقافة الفرنسية، اتضح لنا اللابأس التي رافقت المتاعضة المتحدث عنها. فهذان العاملان وفقا لحالات بين سنغور وبين (تغلغل آرائه عن الشخصية الإفريقية في إفريقية الإبريطانية. ولم تصبح تعاليم سنغور مألوفة

فهل يجوز، والحالة هذه، الإبقاء على البعد التحرري للحركة الزنوجية، من حيث كونها حركة استهدفت تخليص العالم الأسود من مختلف أشكال تبعيته للغرب؟ هنا يتكفل بالإجابة أحد المعترضين وهو الشاعر الكونغولي تشيكاي أوتامسي فيقول (كثيرا ما وضع علي السؤال التالي: «هل ترون بأن كتاب الزنوجية قد ساهموا في تحرر إفريقيا؟» وإذا فاجبني هذا السؤال أجيب: «من الحق أنهم أخفقوا لأن تحرر إفريقيا تم بشكل سيء» (١٠٦).

لكن إذا كان البعض قد انتقد في الزنوجية موقفها الانفتاحي، فإن آخرين قد ركزوا على الوجه الآخر من الزنوجية، على متاداتها بالخصوصية والأصالة، فاعتبروا هذه المتادة شوفينية صريحة تتناقى مع واقع القرن العشرين، بل إن الزنوجية قد انتحرت من الخط الذي كان عليها أن تتبعه، وذلك عندما تحولت من مستوى رد الفعل المشروع تجاه إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والجزع العنصري، إلى مستوى الموقف العنصري المتطرف، ومن الذين آخروا عليها هذا الموقف الشاعر الملغاشي جاك رابيسا نانجارا، بحيث رفض ذلك الاقتران الميكانيكي بين الزنوجية واللون الأسود، لأن الشرط اللوني قد يفضي إلى قطيعة مع المجموعات الإنسانية الأخرى.

وإضافة إلى ما سطرناه من اعتراضات ينطرح اعتراض آخر يمس هذه المرة الطابع التخفيري والثقافي للحركة الزنوجية، فسنغور وميزير وداماس أقرب إلى

— (Tchicaya U Tamsi) propos recueillis par Denyse de salverin (Recherche, pédagogie et culture) paris ١٧-Juin (١٠٦) 1982, P. 25.

— Stanislas Adotsevi: (Negritude et Negrolologie) P. 18.

(١٠٧) مالك بن نبي: (حول الثقافة) (الثقافة الإفريقية) ص ٣٩٧.

(١٠٨)

(١٠٩) الدكتور محمد عبد الله سموي: (ثقافة إفريقيا) ص ٢٢٤.

التقصية ، أظهروا بشكل علني عدم تأييدهم « للتصعب الزنجي » الذي يعزل الكتاب السود عن بقية العالم^(١١١)، على أن المثري في موقف حزقيال مغاليل من الزنجية هو أنه (رفضها في زمان كانت الزنجية تبارا يخيف من لا يسبح معه)^(١١٢).

أما من نيجيريا فقد عارضها كل من الشاعر دنيس أوسادباي والكاتب المسرحي وول سوينكا ، إذ رفضا في الزنجية ، كأغلب الناطقين بالإنجليزية ، انشدادها إلى (رؤى غزلية للمجتمعات ما قبل الاستعمارية . بينما هما يفضلان نظرة أكثر موضوعية ، وأكثر صفاء ، وأكثر بساطة إلى ذلك الماضي)^(١١٣)، وفي هذا الإطار نظم أوسادباي قصائد تخلص في النزوع الماوضي للزنجية ، وتستعجن نظريتها الأنثروبولوجية إلى ماضي السود ، ومن ذلك قوله :

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها
حتى لا نكون غير أطروفة
تلائم ذوق مؤرخ أبيض^(١١٤).

وفي المقابل يقول وول سوينكا (لا أظن أن النمر يتجول معلنا مخبرته)^(١١٥) وهو يقصد أن الزنجية ، كدلت وروح وممارسة ورؤية ، ليست بحاجبة إلى من ينظرها ، ويُعَدُّ لتجسيديتها ، لأنها ببساطة معطى قائم في العالم الأسود ، وبالتالي فلا معنى لإثارة كل ذلك الضجيج النظري الذي أحدثته الحركة الزنجية .

لدى الدول الناطقة باللغة الإنجليزية إلا الآن فقط ، بعد تنويعه ميكوتوري المتكرر بأهمية الإفريقي كإنسان^(١١٦) ويتصدر قائمة المتأخرين للزنجية في أفريقيا الناطقة بالإنجليزية الكاتب الجنوب إفريقي حزقيال مغاليل ، بحيث يتهمها بالتبسيطية ، والانتقاء ، والانقص ، وبالبعد عن القضايا الجوهرية للسود ، فهي - في نظره - لم تفعل شيئا من غير أسطرة التاريخ الزنجي والانتجار ببلاغة فولكلورية لا تعلم زيناء مفرضين في عواصم المتروبول ، بينما السود هم أخرج ما يكونون إلى خطاب واقعي كقول باستيماب أسلثتهم الواقعية .

إن المهمة الأكثر إلحاحا وراهية عند حزقيال مغاليل كموطن من جنوب إفريقيا ، وهي غير السنغال ، هي مواجهة الميز المنصري مثلا ، ومساعدة السود على استرداد إنسانيتهم ، أما التلغص بخطاب مفرق في رومانسيته ويتعامل مع الأسود ككائن هلامي أو اختراي فلا يتعدى كونه بلخا فكريا مجموعا . والأكثر من هذا فإن حزقيال مغاليل يرى بأن الزنجية تلتقي ، بصيغة أو بأخرى ، مع شعار صيانة الثقافة السوداء المرفوع من طرف بعض جنوب إفريقيا ، هذا الشعار الذي يستهدف إدامة وتثبيت النمط الحضاري الماوضي ، مما يسهل على البيض تأمين سيطرتهم على الجسد والعقل الأسودين ، (من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملا نفس المعنى الذي سيحمله « التصعب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب إفريقيا ذوو الميول

(١١٠) د. ماسعريك : (تجربة في أفريقيا) ترجمة : روفائيل جريس ترجمة : محمد محمود السيد ، ص ٧٥ .

(١١١) د. أ. تشوبيرين : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة : دليد كرملي - مجلة (الأدب الأجنبية) ص ١١ - ع ٢٨ - ٣٩ - سنة ربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢١ .

(١١٢) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٧٠ .

(١١٣) — (Impressions d'Afrique) propos recueillies par Michel pierre in (Magaazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 36 .

(١١٤) الدكتور محمد عبد النبي سرمي : (نقدنا إفريقية) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١١٥) نفسه ، ص ٢٢٨ .

تفتح إنساني أكثر حيوية ، يستمد مصداقيته من المثل والتصورات الحقيقية في الثقافة الزنوجية ، وأيضا في خلق رؤية متحررة للإنسان وللحياة وللكون ، وفي تأسيس علاقات إنسانية أكثر تنظيلا .

لقد كان مرادنا من استعراض مختلف ردود الفعل التي ولدتها الزنوجية الإحاطة بالآثار والمضاعفات التي تركتها لدى الإنجليز الزنوجية ، والإطلاع على ما أفرزته من جدالات ساخنة في غالب الأحيان ، غير متوحيين من وراء هذا الاستعراض إعلان انحيازنا إلى جهة من الجهات ، بيد أن الحياذ إزاء مختلف الأطراف المعنية بالمخاطب الزنوجي ، لا يمتنا من صوغ أسئلة الحاصلة ومن تعقب أجوبة مناسبة لها : (هل الزنوجية إذن حركة زائفة ومصطنعة ؟)^(١١٧) ، هل هي منزع ثقافي استبد بالظلمة السوداء ؟ هل هي مجرد فولكلور بشي لا علاقة له بالإنشكاليات المطروحة في العالم الأسود ؟ قد تتوالد أسئلة كثيرة من هذا القبيل إلا أن الموضوعية تمنع بنا إلى القول بأن (هذا المنهج في التفكير أسهم - وما يزال - بتعصيب لا يستهان به في التراث البشري)^(١١٨) ، كيف ذلك ؟ هنا يجب أن نمود إلى مبدأ نشوء الحركة . فالزنوجية أول ما ظهرت ظهرت كحساسية مشتركة بين كافة السود ، فهي الوليد الشرعي لمجمل المخاضات التي عاشها العالم الأسود ، مروراً بتجارب الاسترقاق ، والاستعمار والجزع المنصري ووصولاً إلى عهد الحرية وما طرحه من إعادة تقييم ، سواء لماضي الزنوجي ، أو للعلاقة مع

ومها كان حجم الاعتراضات التي طالت الزنوجية وأقطابها ، فإن الموضوعية تحتم علينا القول بأن سنغور لم يكن قط مؤمنا بكمال المبادئ والأفكار التي ضمنها كتاباته النظرية ، أي أنه لم يستبعد إمكانية الاجتهاد والإضافة والتطوير ، مما سيقى الزنوجية من الوقوع في الثبات والانغلاق والنووقية . وقد قاسمه هذا الرأي عدد من المفكرين والمبدعين الزنوج من أمثال إيمي سينير ، وفرانز فانون ، وسمين عثمان ، ممن اقتنعوا (بأن الزنوجية حكومة بالتطور ، بحيث تمتلك بعدا تاريخيا لا تكفي بتجليه ولكنها واعية به)^(١١٩) .

ولعل الوعي بتاريخية الزنوجية هو الذي حدا بالجول الثاني من المثقفين الزنوج إلى تجاوز ما اعتبر ثغرات داخل أطروحات سنغور ، إذ أن سنغور ركز ، في المقام الأول ، على إفريقيا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، لكن (بزيادة موجة الحرية في إفريقيا قوة واندفاعا أخذت تضخم متناقضات مذهب الزنوجية يوما بعد يوم)^(١٢٠) ، وأجل هذه التناقضات عجز الزنوجية عن استيعاب قضايا ما بعد التحرر ، هذا ما يستدعي تطويرها والانتقال بها من نظرية سلفية إلى أداة فكرية قادرة على الانخراط في قضايا الساعة بالعالم الأسود . لذا ستجول زنوجية جديدة اختار لها دعائها المقابل الفرنسي Negritude بدلا من Négritude وستكون ولادتها في الكامبيرون وليس في باريس ، أما (مبدعها فهو ج. م. أباندا الذي طرحها وأذاعها عام ١٩٦٦ وذلك لأول مرة)^(١٢١) ، وتحدد مرتكزات هذه النزعة في

— Jean marie Lemoine : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :

(١١٦)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطنس - العددان الثاني والثالث لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٥٢١ .

(١١٧) جيمس ليمون - أولي بير : (الفكر الحديث في إفريقيا) ترجمة : عبد الرحمن صالح - مجلة : (لشمس) ع ١٢ - ص ٢ - يناير ١٩٦٥ ، ص ٢٨ .

— Jean marie Lemoine : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :

(١١٨)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطنس ، ع ٢ و ٣ لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .

(١١٩) جيمس ليمون : (سيرة ألبان من إفريقيا) ترجمة : علي شلق ، ص ٣٩ .

(١٢٠) فاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنوجي) مجلة : (الثقافة للقرية) ع ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .

أحد فروع الدراسة في الجامعات الأوربية والأمريكية ؟ هل لنا أن نذكر بالغزو الإعلامي الضخم الذي كان للمسلسل التلفزيوني (الجلود) ، المأخوذ من رواية تحمل نفس الإسم للروائي الزنوجي الأمريكي اليكس هيلي ؟ هل لنا أن ننسى التسمية التي تحملها إحدى الجامعات السوفياتية ، ألا وهي « جامعة لومومبا للعالم الثالث » ؟ ثم هل لنا أن نتغافل عن حظوة علمين زنوجيين بجائزة نوبل للسلام ، أولها الزعيم الزنوجي الأمريكي مارتين لوثر كينغ عام ١٩٦٤ ، ولثانيها القس الزنوجي الجنوب إفريقي ديسموند توتو عام ١٩٨٤ ، إضافة إلى حصول المناضل الزنوجي الجنوب إفريقي نلسون مانديلا على جائزة العالم الثالث لعام ١٩٨٥ .

جميع ما أوردناه يدل على المكانة التي صار يحتلها العالم الأسود في الوجدان العالمي ، وبدون الحركة الزنوجية ، ما كان لهذا العالم أن يحقق سمعته الكونية . وإذا كانت هذه الحركة قد بدأت على شكل ثرثرة ثقافية بين سنغور وسيزير وداماس خلال مقامهم الطلابي بباريس الثلاثينات ، إذا كانت هذه بدايتها فإنها أخذت مع مرور السنين خطابا متماسكا يقود مسار السود ويفرض على الآخرين التأمل الجلي في إيقاع هذا المسار ووجهة أصحابه .

الأيض ، أو العلاقة مع الإنسان ككل . إنها جذبا خطابا للهوية ، للمقاومة ، ولأنها كذلك فلابد وأن تستنقها تناقضات ومزالق من السهل التقاطها وترتيبها . إن الزنوجية ، قبل أن تكون فعالية أدبية نشطت في الحقل الشعري أساسا ، هي صوت وصدى ، ومقاربة لإشكالية المصير المادي والروحي لجميع السود ، أو لنقل إنها رؤية الإنتلجنسيا الزنوجية للعالم . صحيح (أن عصرها الذهبي كان في الأربعينات والخمسينات ، أما بعد ذلك ، ومع دخول القارة عصر حريتها ، فقد بدأت في الانحسار شيئا فشيئا^(١٢١) ، عما أفقدها الكثير من حرايتها وعلبيتها ، لكن مع ذلك فهي تجاوزت كونها ملكية ثقافية للسود وحدهم وأصبحت جزءا من الثقافة الإنسانية ، بل ومن التاريخ الإنساني . فنحن حين نذكر سنغور ، ونكروما ، وفانون ، فإننا نذكر شخصيات كونية أكثر منها زنوجية ، وعندما نستحضر واقعة دخول سنغور للأكاديمية الفرنسية^(١٢٢) ، فإننا نستحضر ضمينا تحية تخص بها إحدى المؤسسات الثقافية العالمية العالم الأسود قاطبة ، وهذا شيء ما حصل لما منح رونو ماران جائزة كونكور عام ١٩٢١ من روايته (باتوالا) ، فذلك تكريم للزنوجية قبل أن يكون تكريما لشخص الكاتب . هل لنا أن نعرف بأن الأدب الزنوجي ، المكتوب بالفرنسية خاصة ، أصبح في السنوات الأخيرة



(١٢١) حل شلش : (كروان من الأدب الإفريقي) ص ١٢ - ١٤ .

(١٢٢) التمس سنغور بالأكاديمية الفرنسية يوم ٢ يونيو ١٩٨٢ ، إذ احتل مقعد اللورغ دول هيبست هيريو ، وبذلك يعد أول زنوجي تستقبله المؤسسة .

أشارات :

- هذه الدراسة تمثل فصلًا من رسالة جامعية عنوانها (التزعة الزوجية في الشعر السوداني المعاصر : عهد مفتاح الفيديري نموذجاً) تقدمنا بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب الحديث ، أشرف عليها الدكتور محمد السرياني ونوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفلس يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٦ .
- رغباً من انتهاء برتين من بيتك إلى عنصر الأليكاتريعه الباحثون واحداً من الشعراء الزوج .
- لم نذكر حصول وول سويتكا حل جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٦ لأننا أنجزنا هذه الدراسة قبل حصوله عليها .

المراجع العربية :

- دكتور بولم . المحاضرات الإفريقية ، ترجمة : نسيم نسر ، منشورات عويدات بيروت - باريس ، الطبعة الثانية ، غشت ١٩٧٨ .
- روجيه غارودي : حوار المحاضرات ، ترجمة : الدكتور عبد المولى ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الأولى ، أبريل ١٩٧٨ .
- د. مادهور باتيكاكار : الفورة في إفريقيا ، ترجمة : رونالبل جرجس ، مراجعة : محمد محمود الصباد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، أبريل ١٩٦٤ .
- جمال محمد أحمد : وجدان إفريقيا ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .
- مذكر عبد الرحيم : بين الأصالة والتجديد : تجربة الاستثمار وأنماط التصحر الثقافي في البلاد الأسبوية والإفريقية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- الدكتور محمد عبد الله سعودي : إفريقيا ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٣٤ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠ .
- ب. س. لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي ، ترجمة : شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٨ ، الكويت ، أبريل ١٩٨٠ .
- جماعة من الكتاب : الثقافة الإفريقية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٦٩ .
- جبرالد مور : سبعة أبناء من إفريقيا ، ترجمة : علي شلش ، كتاب الهلال ، ع ٣٢٨ ، يونيو ١٩٧٧ .
- علي شلش : ألوان من الأدب الإفريقي ، المكتبة الثقافية ، ع ٣٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد مرسي : مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي ، الموسوعة الصغيرة ، ع ٩٠ ، بغداد ، آذار ١٩٨١ .
- لويس عوض : الفورة والأدب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
- مجلة (الثقافة المغربية) ، ع ٦ ، ١٩٧٢ .
- مجلة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفلس) ، ع ٢ - ٣ ، ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .
- مجلة (آفاق) س ١ ، ع ٣ ، جوي - أوت - سبتمبر ١٩٦٣ .
- مجلة (آفاق) س ٢ ، ع ٣ ، جوي - أوت - سبتمبر ١٩٦٤ .
- مجلة (عالم الفكر) م ٨ ، ع ٣ ، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧ .
- مجلة (آداب) ع ٤ ، ١٩٨١ .
- مجلة (الكتاب العربي) ص ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٣ .
- مجلة (الهلال) س ٧٣ ، ع ١ ، يوليو ١٩٦٥ .
- مجلة (الطريق) س ١٩ ، ع ٤ ، حزيران ١٩٦٠ .
- مجلة (الشعر) س ٢ ، ع ١٣ ، يناير ١٩٦٥ .
- مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ، ع ٣٨ - ٣٩ ، شتاء - ربيع ١٩٨٤ .
- مجلة (الثقافة العربية) س ٩ ، ع ٨ ، أغسطس ١٩٨٢ .
- مجلة (فنون حرة) م ٢ ، س ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٢ .
- مجلة (آفاق حرة) س ٤ ، ع ١١ ، تموز ١٩٧٩ .
- مجلة (الأعلام) س ١٢ ، ع ١٠ ، تموز ١٩٧٧ .

- مجلة (الأفلام) س ١٣ ، ج ٧ ، نيسان ١٩٧٨ .
- مجلة (الأفلام) س ١٥ ، ج ١ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ .
- مجلة (الأفلام) س ١٥ ، ج ٩ ، حزيران ١٩٨٠ .
- مجلة (الفرقة) س ٢٠ ، ج ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ .
- جريدة (المعلم) - للمحقق الثقافي - س ٧ ، ج ٥٨ ، الرباط ، الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ .
- جريدة (المعلم) - للمحقق الثقافي - س ٤ ، ج ١٤٩ ، الرباط ، الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ .

المراجع الأجنبية :

- LUCIEN GOLDMANN : *marxisme et sciences humaines* ed gallimard, PARIS 1970.
- JANHEINZ JAHN : *muntu ; l'homme africain et la culture neo-africaine*, traduit de l'allemand par brian de martinor, ED DU SEUIL, PARIS 1961.
- PAULIN J. HOUN TON DJI : *SUR LA "PHILOSOPHIE AFRICAINE"* ED MASPERO, 1977.
- STANISLAS ADOTEVI : *negritude et negrologues*, COLL 10/18, PARIS 1972.
- FRANTZ FANON : *peau noir, masques BLANCS*, ED DU SEUIL, PARIS 1952.
- LEOPOLD SEDAR SENGHOR : *anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue française*, ED P.U.F, PARIS 1969.
- LYLIAN KESTELOOT : *anthologie negro-africaine : PANORAMA CRITIQUE DES PROSATEURS, POETES ET DRAMATURGES NOIRS DU XX E SIECLE*, ED MARABOUT UNIVERSITE, VERVIERS 1967.
- ALMUT NORDMANN-SEILER : *la littérature neo/africaine*, COLL QUE SAIS-JE ? NO. 1651, ED P.U.F, PARIS 1976.
- *magazine littéraire*, NO. 195, MAI 1983.
- *les nouvelles littéraires*, NO. 2863, DU 25 NOVEMBRE AU 1ER DECEMBRE 1981.
- *recherche, pédagogie et culture*, AV-JUIN 1982.
- *le monde de dimanche*, NO. 11463, 6 DECEMBRE 1981.



أهمية الموضوع :

لا يختلف المتبعون للتطورات العلمية والتقنية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين على أن العالم يشهد منذ سنوات قليلة ثورة علمية واقتصادية (فرغلي ١٩٨٨) لها أبعاد هائلة في شتى صور الحياة قد تقسم العالم الى مجموعتين : مجموعة منتجة فاعلة ومجموعة أو مجموعات هامشية تابعة (منصور ١٩٨٨) . وإذا استمرت الأمور تسير بشكلها الذي تسير عليه ، فسنصل حتماً الى الدور المخطط لنا وهو أن نكون من أبرز أعضاء المجموعة الهامشية التابعة . والبديل الوحيد لذلك هو أن يأخذ علمائنا وتجارؤنا وقادتنا السياسيون والاجتماعيون المبادرة لاستيعاب المتغيرات الجارية وأن نشترك في إثراء الثورة العلمية المعاصرة ، وأن نلونها ، اذا استطعنا ، بنظرتنا وإسهاماتنا

واللغة والحاسوب أحد المحاور الأساسية ، ان لم يكن المحور الأساسي ، للثورة العلمية المعاصرة . وقد تزامنت ثورة تشومسكي في علم اللغة (تشومسكي ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) مع تطور الحاسوب في الخمسينيات والستينيات . وقد كان لعلم اللغة التوليدي انكسارات بعيدة المدى في باقي العلوم الطبيعية والانسانية بما في ذلك علم الحاسوب .

وتمثل المعلومات المحور الاقتصادي في الثورة المعاصرة فقد تحولت السلع الاستراتيجية من المواد الخام والمصنعة الى السلع المعلوماتية (فرغلي ١٩٨٨) ، لا لقيمتها العلمية فحسب ، بل لكونها أداة الحصول على الثروة والقوة . وبدأت صناعة الأموال والاتصالات ، وتحول جزء كبير من الرأسمالية الصناعية الى الرأسمالية المعلوماتية .

اللغة العربية والحاسوب

تأليف : نبيل علي
عرض وتحليل : علي مهري فرغلي

الجامعة الأمريكية بالقاهرة

واللغة والحاسوب . فقد بدأ من الواقع أي من التجربة العملية لبناء البرامج ، ولما كانت له أهداف طموحة لتطوير برامج متقدمة للتحليل اللغوي ، فسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك يستحيل دون دراسة علم اللغة التوليدي دراسة جادة ، فترك عمله وتفرغ لمدة عام كامل بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة أحدث نظريات علم اللغة على أيدي منظريها . وشهد هذا له بالجدية والقدرة على الدخول في أفوار علم جديد ومثل تطبيقاته الأمر الذي قد يقتصر بعض علماء اللغة عندنا للأسف الشديد . كما أنه أقام أكبر مركز لأبحاث اللسانيات الحاسوبية في الوطن العربي ، واستطاع أن يكون كفاءات عربية شابه ويؤهلها علميا وعمليا لتكون طليعة المتخصصين في مجال الحاسوب واللغة العربية على وجه الخصوص .

ويمكن هذه الخلفية نبيل علي من المساهمة الأداعية في حقل علم اللغة الحاسبي . يقول نبيل علي في مقدمة كتابه :

« تعكس الدراسة تجربة المؤلف الشخصية على مدى عشرين عاما في مجال العمل التطبيقي والنظري في حقل المعلوماتيات ، ادارة ، وتصميمها وبحثا » .

الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة شاملا تسعة فصول بما في ذلك المقدمة والخاتمة ، وأربعة ملاحق . ويعد المؤلف في المقدمة الدوافع الملحة التي تقف وراء البحث في اللغة العربية والحاسوب ، ويقسمها الى طوائف تقنية كظهور الجيل الخامس من الحاسوب واختراع الفارغة البصرية والتقدم التكنولوجي الهائل في السنوات الأخيرة ، ودوافع لغوية كقصور الدراسات اللغوية

واللغة هي الشكل الطبيعي الذي يستخذه الانسان للتعبير عن الأفكار والمعلومات وهي ايضا وسيلة الانسان لاستمرار الحضارة فهي تمكّنه من نقل المعلومات وحفظها وتوارثها جيلا بعد جيل . ولهذا اعتمد التقدم في عصر للمعلومات بشكل أساسي على التحام اللغة بالحاسوب . وهذا هو موضوع الكتاب الذي قدمه الى المكتبة العربية نبيل علي ، وفيه دعوة جادة غلصة لعلماء اللغة وعلماء الحاسوب العرب أن يضعوا أيديهم معا من أجل وضع الحاسوب في خدمة الناطقين بالضاد ليتمكنوا من الاستفادة من هذه التقنية أسوة بمتكلمي اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

أهمية الكتاب :

وقد بدأ ظهور الكتب باللغة الانجليزية التي تعالج العلاقة بين اللغة والحاسوب في أوائل الخمسينيات (Weaver 1955) ، وظل الإسهام في قضية المعالجة الآلية للغة حجرا على الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وغيرها من الدول المتقدمة ، وتكررت أبحاثهم في تطوير الحاسوب لاستخدامه في جميع مجالات الحياة ليصبح أداة طيعة تضاعف من قدرات الانسان شأنه شأن الانجازات التقنية المختلفة في القضاء والاتصالات والطب ... الخ .

ويأتي كتاب اللغة العربية والحاسوب للدكتور نبيل علي أول محاولة جادة لمعالجة هذا الموضوع معالجة شاملة يطرح فيها قضية العلاقة بين اللغة العربية والحاسوب ويضعها في الاطار الصحيح في ظل ثورة المعلومات المعاصرة . وللدكتور نبيل علي فضل السبق والزيادة في هذا الموضوع .

المؤلف :

يتميز نبيل علي بأن له خبرة عملية وعلمية في مجال

يعلم وظائف الأعضاء والملح البشري وعلاقة الأصوات
وتجذباتها وانتقالها وتمثيلها بعلم الطبيعة ، وعلاقة اللغة
بعلم النفس وعلاقتها بالثقافة .

ويعرض نبيل علي بعض الخصائص الكلية الموجودة
في جميع اللغات كخاصية الإبداعية وما يسميه الانساق
والتماسك ويضع جدولاً (جدول ١ : ٣ صفحة ٤٦ -
٤٧) يمثل عمومية بعض الظواهر اللغوية كالحذف
والإبدال والقلب ... الخ ، وتطور اللغات بمرور
الزمن ، فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويشيخ ويمكن أن
يموت كاللغة اللاتينية والعبرية القديمة ولغات السكان
الأصليين لأمريكا .

ويطلق نبيل علي من هذا الوصف العام لمستويات
البحث اللغوي والخصائص العامة للغة الانسانية الى
اللغة العربية ويحدد تصوره لمنظومة اللغة العربية
ويعرض السمات المميزة للغة العربية كالتوسط بين
لغات العالم في نظام الكتابة والنظام الصوتي وفي الحالات
الأعرابية والصرف . كما تتسم اللغة العربية بوحدة
الخاصية الصرفية فالملح الدلالي للكلمات يرتبط في
اللغة العربية بالسواكن الأصلية ، وهي السواكن المكونة
للجذر ، ويشتمل منها مئات الكلمات . كما تتميز العربية
بالحرية النسبية لترتيب الكلمات فيمكن للقضاعل أن
يتقدم على الفعل ، كما يمكن للمفعول أيضاً أن يتقدم
على الفعل ... وهكذا . وللعربية نظامها الصوتي
الخاص كمدح السماح بصوتين متتاليين في أول الكلمة
وعدم السماح بأكثر من صوتين متتاليين في المواقع
الأخرى . وللكتابة العربية عدة نظم : كالكتابة المشكلة
والمشكلة جزئياً وغير المشكلة . كما يعرض نبيل علي
أشكلة ثنائية الفصحى والعامية ويصفها بأنها وصلت الى
درجة متفجرة . ثم يعرض لمسار تطور العلوم بشكل

الحديثة ومشاكل تعليم وتعلم اللغة العربية ودخول
تطبيقات الحاسوب في مجالات العلوم الانسانية
والاجتماعية ، ودوافع عامة وهي حث اللغويين
والحاسوبيين العرب على بدء حوار يقضي الى تعاون ملح
وضروري لمعالجة اللغة العربية آلياً ، كما يطرح نبيل علي
الأسس والمبادئ المنهجية في تناول الموضوع وهي مفهوم
المنظومة لكل من اللغة والحاسوب ، إخضاع الحاسوب
للغة لا العكس ، الأنحاء الكلية universal grammar
وخصوصية اللغة العربية ، مقارنة العربية بالانجليزية
وثنائية التحليل والتركيب من منظور التداخل بين اللغة
والحاسوب والتركيز على الجانب التطبيقي .

ونعرض فيما يلي تلخيصاً لكل فصل من الفصول
السبعة الأساسية :

الفصل الأول : اللغة العربية من منظور الحاسوب

(صفحة ٢١ - ٨٥)

يؤكد نبيل علي في هذا الفصل أن اللغة منظومة
متسقة ، تقيد بها الضوابط وتحكمها القواعد وتخضع
للتنظيم والتفصيل الدقيق وفي داخل منظومة اللغة هناك
منظومات فرعية لها قوانينها الخاصة كما لها علاقات التأثير
والتأثر بالمنظومات الأخرى لنفس اللغة . وهذه
المنظومات تمثل للغويين مستويات التحليل المختلفة ،
فاللغة يمكن تحليلها على مستويات عدة كالمستوى
الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو النحوي أو الدلالي أو
المقامي ، وهناك علاقة تأثير وتأثر بين هذه المستويات
المختلفة ، فالكثير من القواعد الصرفية مثلاً تؤثر في
الصرف ، كما أن الصرف يتأثر بالتركيب ، ولا يمكن
دراسة الدلالة بمعزل عن التراكيب وهكذا ، كما يبرز
نبيل علي علاقة اللغة بالعلوم الأخرى تحت ما يسميه
بالعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة ، مثل علاقة اللغة

عام ، وينطلق من ذلك الى تطور اللسانيات ويحدد لها سبع مراحل يضعها في شكل (١ : ٣) صفحة ٧٢ .

ويطرح المؤلف في هذا الفصل أيضا مشاكل تنظيم اللغة العربية ومن أهمها غياب النظرة الشاملة للغة العربية ككل ، وفقر الحوية في الدراسات المقارنة والتقابلية وإغفال الفكر العربي للنظرية التوليدية وطغيان الكتابة عن الجوانب الصوتي ، وقصور النظرة الى المعجم رغم أهميته القصوى في علم اللغة الحديث . ويتتبع الفصل ببعض التصورات والافتراضات التي يقدمها المؤلف لتحديث النظرة الى منظومة اللغة العربية ، من أهمها تحليل اللغة العربية في إطار النظريات اللغوية المعاصرة وتحديث أساليب تعليم وتعلم اللغة العربية والتركيز على دراسة الدلالة واستخدام الحاسوب كخانة اللغة العربية .

الفصل الثاني : منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية (صفحة ٨٧ - ١١١)

يحدد المؤلف في هذا الفصل السمات الأساسية التي تميز تطور الحاسوب في السنوات الأخيرة منها عمومية الاستخدام ، فقد دخل الحاسوب وما زال يدخل جميع مجالات الحياة وساعد على هذا مرونته الواضحة التي تسمح بتشكله كي يفي بالمطالب المختلفة للحياة المعاصرة فهو في البنوك مثلا يتابع حركة الأموال الداخلة والمتصرفة بدقة بالغة ، وفي شركات الطيران يسجل أسماء المسافرين وينظم كافة للمعلومات الخاصة بالرحلات والمسافرين وجهات السفر . . . الخ ، وفي الفصول الدراسية يساعد الطلاب في استيعاب ومراجعة المادة العلمية ، وفي سفن الفضاء يقوم بالعمليات الحسابية البالغة التعقيد وينسق بين كافة الأجهزة العاملة في السفينة ، ومن هذه السمات أيضا أن تطور الحاسوب

يسير في اتجاه الصغر النهائي في الحجم مع النمو المتزايد في القدرة الحاسوبية والتخزينية للمعلومات . وبنه المؤلف الى أن الثورة الالكترونية والمعلوماتية المعاصرة تشكل تحديا قاسيا لدول العالم الثالث ، فهي تطرح إمكانات هائلة لحل مشاكل هذه الدول ، إلا أنها تهدد أيضا باتساع الفجوة القائمة فعلا بين العالم الصناعي والعالم الثالث .

ويحدد المؤلف العناصر الأربعة الأساسية في منظومة الحاسوب وهي العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . ويشرح بالتفصيل مكونات كل عنصر من هذه العناصر ، ثم يوضح اتجاهات تطور نظم الحاسوب والمعلومات ومن أهمها الانتقال من المعالجة المتسلسلة sequential processing الى المعالجة المتوازية parallel processing ولا شك أن عمل المخ الانساني أقرب للمعالجة المتوازية التي تسمح بمعالجة أنواع مختلفة من المعلومات في آن واحد مع إمكانية الاستفادة من نتائج معالجة المعلومات الأخرى في نفس الوقت . وهناك أيضا الاتجاه الى التعامل بالرمز بدلا من الأرقام symbolic programming وتطوير لغات برمجة تقترب كثيرا من اللغات الطبيعية والتوجه لاستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي بعد الاعتماد الكلي على البرمجة الخوارزمية algorithmic programming ، كما يشير المؤلف الى التطور في وسائل تخزين المعلومات واستحداث الأقراص الضوئية بقدرتها الهائلة على تخزين المعلومات .

ثم ينتقل المؤلف الى استعراض البعد العربي للحاسوب ويتتبع الفكرة القائلة بوجوب تصميم حاسوب عربي على مستوى العتاد hardware ، وذلك لأن العتاد يمكن أن يلبي احتياجات أي مجتمع وأي

للتحليل اللغوي والاهتمام الشديد بصورته formalization الانحاء ، وعلم الحاسوب وتطور الحواسيب السريع سواء من ناحية المتاد أو البرامج ولغات الترجمة ، كما يعرض المؤلف لجوانب الوفاق والاختلاف بين اللغة والحاسوب ، فيستعرض أوجه التشابه البنيوي بين اللغة والحاسوب .

ويستعرض المؤلف مجالات استخدام الحاسوب كأداة اللغة وهي الاحصاء اللغوي والتحليل والتركيب اللغويان ، والفهم الأوتوماتيكي للسياق ، وتحليل النصوص ، وميكنة المعاجم ، والترجمة الآلية وتعلم اللغة بواسطة الحاسوب ، وينتهي ذلك الجزء بجدول (جدول ٣ : ٥ صفحة ١٤٨ - ١٥٧) لعلاقات الترابط المتبادل بين هذه الاستخدامات المختلفة للحاسوب كأداة للغة . ثم يحدد المؤلف أيضا مجالات استخدام اللغة كأداة للحاسوب وهي : نظم استرجاع المعلومات ، ونظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) ولغات البرمجة الواقية ونظم التعامل باللغة الطبيعية ومعمارية الجيل الخامس وتطبيقات الذكاء الاصطناعي . وكما فعل المؤلف في استخدامات الحاسوب كأداة للغة ، أمى الجزء الخاص باستخدامات اللغة كأداة للحاسوب بجدول (جدول ٣ : ٦ صفحة ١٦٧ - ١٦٨) لعلاقات الترابط بين استخدامات اللغة المختلفة كأداة للحاسوب .

ويتناول المؤلف في باقي الفصل خصائص اللغة العربية وعلاقتها بالحاسوب ويعرض للمشكلة الحقيقية التي يعاني منها كل من يستخدم الحاسوب في التطبيقات العربية . وهي أن الحاسوب لا يقدم لمستخدمي اللغة العربية نفس الامكانات التي يقدمها لمستخدمي اللغات الأوروبية .

لغة ، وقد أمكن للمجتمع الياباني والروسي وغيرها تطويع المتاد الموجود حاليا لكافة الاستخدامات الممكنة . ويرى المؤلف أن يتركز جهد العلماء العرب في تعريب ملحقات الحاسوب من طابعات وشاشات مرئية ولوحات مفاتيح ووحدات توليد وتحليل الكلام . كما يقترح تطوير نظم تشغيل ثنائية اللغة ويعد الطرق المختلفة المستخدمة في تعريب الحاسوب سواء بالاعتماد على البرمجيات أو المتاد ، كما يناقش بقوة بضرورة تعريب لغات البرمجة ونظم قواعد المعلومات ، كما يرى للمؤلف ضرورة الاستفادة من الكم الهائل من التطبيقات المتطورة الموجودة باللغة الانجليزية وتعريب بعضها ليكون متاحا للمستخدم العربي ، وتطوير وسائل الترجمة الآلية ، كما يرى ضرورة الاهتمام بالنظم الخبيرة وينتهي الفصل بعدد من التوصيات الهامة منها ادخال اللسانيات الحاسوبية في أقسام اللغات وعلوم الحاسوب وهندسته ، وإنشاء معهد متخصص في بحوث تعريب المعلومات ، واستغلال شبكة القمر الصناعي العربي لنشر وهي الحاسوب والمعلومات في الوطن العربي . وينبه المؤلف الى ضرورة التنسيق على مستوى الوطن العربية في إنشاء صناعة عربية للعناصر الأساسية في متاد الحاسوب ومتابعة مشروع الجيل الخامس للحاسوب وتشجيع جهود الترجمة الآلية .

الفصل الثالث : المعالجة الآلية لمخطومة اللغة العربية

(صفحة ١١٣ - ١٩٥)

يتحدث المؤلف في بداية هذا الفصل عن حتمية اللقاء بين اللغة والحاسوب نتيجة للاتقاء بين الثالوث المكون من نظرية المعلومات بأسسها الرياضية لقياس كمية المعلومات واستحداث أساليب متطورة لترميز وضغط المعلومات وزيادة فاعلية استرجاعها ، وعلم اللغة الحديث يتركز على استحداث نماذج رياضية

ثم ينتقل الى مواضيع الخلاف بين اللغة العربية والحاسوب ويذكر منها :

- ١ - تعقد الحاسوبية السياقية .
- ٢ - المرونة النحوية التي تتسم بها الجمل العربية .
- ٣ - ثنائية الفصحى والعامة .
- ٤ - تعدد نظم الكتابة العربية .
- ٥ - قصور وصف اللغة العربية .
- ٦ - قصور أساليب تعليم اللغة العربية وجودها .

٧ - قصور المعاجم العربية من حيث طرق تنظيمها وتبويبها .

وعن الموقف الحاضر لتعريب الحاسوب ونظم المعلومات يتخذ المؤلف إكثانية استيعاب اللغة العربية في نطاق التقنيات المصممة أصلاً للغة الانجليزية لأن اللغتين تمثلان طرفي نقيض سواء من الناحية اللغوية أو الحاسوبية ولصعوبة العربية مقارنة بالانجليزية . ويرى المؤلف أن عمليات التعريب بشكل عام فميزت بالسطحية ، فقد ركزت على كيفية طباعة النصوص العربية وإظهارها على الشاشة ، كما تميزت بغياب الأبحاث الأساسية في علم اللغة وعلم الشمولية في تعريب للمعلوماتيات .

وعند المؤلف أوجه استخدامات الحاسوب كأداة للغة العربية ، فهو أداة إحصائية متميزة يمكن استخدامها لاحتساب الجذور العربية ، ولتكرار الكلمات والحروف والحركات والجذور الثلاثية والرباعية ، وبيان التوزيع النسبي للصيغ الصرفية والإعرابية ، ولقياس الانتظامية

ويرى المؤلف « أن للوقف يحتاج منا ، بل يوجب علينا ، اللجوء الى الافتراض والتطويع العلميين والتقنيين الى أقصى حد ممكن ، وعلى أسس من وعينا الدقيق بخصائص لغتنا ، وفي ظل أهداف تتمتتا الاجتماعية ، وكل ما ذكرناه عن فهو الأساس الانجليزي ، ومحاولات التخلّص منه ، لا يمكن أن يكون القصد من وراءه هو أن نغلف في البحر الحصاد المسائل للانجازات العلمية والتقنية في مجال « الانجليزية » بل قصدنا به تأكيد أهمية ترشيد عمليات الافتراض والتطويع ، وإبراز الجوانب التي يتحتم فيها البحث عن حلول جذرية لبعض مشكلات معالجة العربية آلياً » (صفحة ١٧٢) .

ثم يستعرض المؤلف أوجه الوفاق والاختلاف بين اللغة العربية والحاسوب ، ويقصد هنا سهولة المعالجة الآلية للغة العربية ، فيذكر من أوجه الاتفاق (أي ما يسهل المعالجة الآلية للغة العربية) ما يلي :

١ - شدة انتظام كثير من خواصها الصرفية والإعرابية والصوتية .

٢ - صغر حجم المعجم لتكوين نواته من الجذور والصيغ الصرفية .

٣ - الفائض اللغوي الذي يسمح بضغط النصوص العربية .

٤ - شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .

٥ - الانتظام الصوتي في اللغة العربية والصلة الوثيقة بين كتابتها ونطقها .

ووسائل تمييز النصوص وإبرازها ، وعناصر تنظيم كتابة النصوص ، ووسائل الاختصار . كما يقول نبيل على أن منظومة الكتابة العربية ترتبط ارتباطا وثيقا بالتقني ، فكل ما يكتب ينطق عادة . وهو بالتأكيد يقصد هنا الكتابة المشكّلة ، لأن الحركات العربية القصار لا تمثل في الكتابة العادية على صفحات الجرائد والمجلات ، والكتب والطبوعات بشكل عام . وتختلف العربية عن الانجليزية في استخدامها لعلامات التشكيل للدلالة على الحركات القصار وأحرف اللين للدلالة عن الحركات الطوال . كما تكتب العربية على مستويات مختلفة ، فهي إما كاملة التشكيل ، أو جزئية التشكيل ، كما يمكن أن تكتب بدون أي تشكيل على الإطلاق . وتشابك الحروف وتعتمد أشكالها حسب نوعية الحروف السابقة واللاحقة ، ولهذا تميز العربية بحساسية سياقية شديدة ، كما أنها تكتب من اليمين إلى اليسار بينما تدخل الأرقام من اليسار إلى اليمين . وتمثل كسل هذه الاختلافات تحديات بالنسبة إلى المعالجة الآلية للغة العربية . وبعد أن يعرض نبيل على لظاهرة التشكيل بالتفصيل ، يطرح السؤال الهام التالي : هل نفترض نظم المعالجة الآلية وجود التشكيل سلفا ، أم يجب أن تسعى لتوليده ؟

ويؤكد نبيل على أهمية عمليات التقييس والمعايرة standardization ، ويتحقق ذلك بالاتفاق على شفرة عربية موحدة لرموز الكتابة العربية ، وتوحيد غططات لوحات المفاتيح العربية ، وتقيس الأشكال المختلفة للحروف العربية ، وتوحيد أساليب تحويل الكتابة العربية إلى كتابة صوتية ، ويضع نبيل على تصوره للاطار العام لمعالجة الكتابة العربية في شكل (٤ : ٧) والذي نوردّه أدناه .

الصرفية للأفعال في اللغة العربية ، كما يمكن استخدام الحاسوب في تحليل وتوليد النصوص ، وبناء المعاجم الالكترونية وفي الترجمة الآلية وفي الفهم الآلي للنصوص اللغوية ، وتعليم اللغة العربية بمعاونة الحاسوب .

ويحدد المؤلف الاطار العام لمعالجة اللغة آليا بأنه يستند الى طريقتين أساسيتين : هما التوليد والتحليل .

ويعتقد المؤلف - خلافا لما هو سائد - أن عملية التمييز أعقد من عملية التوليد ، ويستمد هذه النقطة في تحليلنا للكتاب .

وحول نظم معالجة المعارف والمعلومات ، يحدد المؤلف أربع نقاط أساسية يختلف فيها الاطار العام لمعالجة المعرفة بالعربية عن إطار معالجتها بالانجليزية وهي :

١ - إضافة معالج التشكيل الآلي .

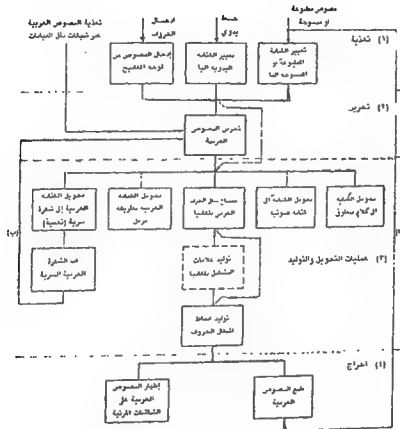
٢ - استخدام عمليتي التحليل الصرفي والنحوي في إزالة اللبس الناتج عن غياب التشكيل .

٣ - استخدام معجم الجذور والصيغ الصرفية بدلا من معجم الكلمات .

٤ - استخدام عنصر الدلالة الصرفية .

الفصل الرابع : المعالجة الآلية لمنظومة الكتابة العربية (١٩٧ - ٢٤٦)

تتكون عناصر منظومة الكتابة بشكل عام من خمسة عناصر هي : الأبجدية ، وعلامات الاملاء والترقيم ،



شكل (٧-١) الإطار العام لمعالجة الكتابة العربية

ثانياً : أن تكون صيغة الكلمة مساوية لأحدى الصيغ
السليمة لهذا الجذر .

ويشير المؤلف إلى إمكانية تغير الصورة السطحية للصيغة الصرفية نتيجة للعمليات الفونولوجية المختلفة كالحذف والإضافة والتضعيف والقلب المكاني ، كما ناقش الانتاجية الصرفية والعوامل التي تحكمها في اللغة العربية ومنها عوامل معجمية ، وصرفية ، ونحوية ، ودلالية ، وصرفية مما يؤكد ما ذكره المؤلف سابقاً عن تداخل المنظومة الصرفية مع باقي المنظومات الأخرى في اللغة ، وتوصل إلى عدة عوامل يعتمد عليها اطراد الانتاجية الاشتقاقية وهي :

١ - التجرد والزيادة : تزداد انتاجية الصيغ الصرفية مع الصيغ المزيدة .

٢ - طول الصيغة : تزداد إنتاجية الصيغة الصرفية مع زيادة طولها .

٣ - طول الجذر : يزيد الاطراد الاشتقاقي كلما زاد طول الجذر .

وأوضح أن تبليين الانتاجية الصرفية له إبعاد هامة في تحديد وتنظيم مواد المعجم . وهناك وجهة نظر تقترح الاطراد العام وترى تجنب ما لا ينطبق ، وهناك من يفترض الشلوش التام ويرى وضع جميع الكلمات في المعجم ، وهناك من يتخذ موقفاً وسطاً بين الاطراد والشلوش فيحيل إلى المعجم الشاذ فقط أما المطرد فيجري اشتقاقه بواسطة القواعد الصرفية (فرغلي ١٩٨٧) .

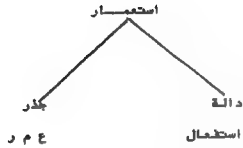
ثم يتناول المؤلف ظاهرة اللبس الصرفي الذي يؤدي بدوره إلى أنواع من اللبس النحوي والدلالي ، ويرجع نبيل علي اللبس الصرفي إلى الآتي :

الفصل الخامس : المعالجة الآلية لمنظومة الصرف العربي
(٢٤٧ : ٣٣٢)

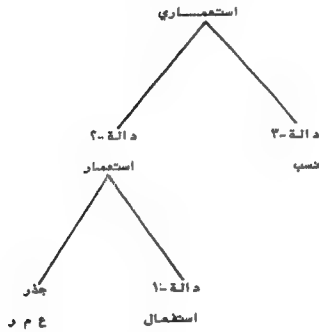
بعد هذا الفصل من أهم فصول الكتاب لأهمية الموضوع الذي يعالجه ، ويعرف نبيل علي الصرف بأنه « فرع اللسانيات الذي يتعامل مع البنية الداخلية للكلمات » ، ويتفق هذا التعريف مع سيلكيرك (Selkirk ١٩٨٢) التي تنظر إلى الصرف باعتباره نحو الكلمة ، ويعرض المؤلف لعلاقة الصرف بكل من النحو والفونولوجي والدلالة ويشير أيضاً إلى علاقته بالمعجم ، كما يعرض لمصانص منظومة الصرف العربي وهي : حدة الخاصية الاشتقاقية ، واطراد التصريف ، والصلة القوية بين مباني الكلمات ومعانيها ، وسيل الصرف لتركيب الكلمات بالإضافة ، وانتظام بنية الكلمة العربية ، وشدة التداخل بين الصرف والفونولوجي ، كذلك الصلة القوية بين الصرف العربي والمعجم . ثم يتناول المؤلف جوانب الصرف العربي ذات الأهمية للمعالجة الآلية للغة العربية ومنها الخاصية الثلاثية حيث تمثل الجذور الثلاثية نسبة عالية من جلدور اللغة العربية ، وكذلك أصل الاشتقاق الذي يقول عنه « فإن عمورية الفعل المضارع في العربية ، وفي الساميات عموماً لا يحتاج إلى مزيد من التأكيد » (صفحة ٢٧٦) ، كما يوضح المؤلف أنه « يحيل إلى اعتبار الكلمة دون غيرها أساساً للاشتقاق » (صفحة ٢٧٧) ، ويقترح صيغة رياضية للأشكال العربية في اشتقاق الكلمات من أصولها فيوضح الشكل التالي مثلاً أن كلمة استبحار تشق من أسفل لأعلى كما هو مبين بالشكل التالي :

فلكي تكون الكلمة صحيحة هناك شرطان لابد من توافرها وهما :

أولاً : أن يكون هناك تنابع من الصوامت مسلو لأحد الجذور العربية



بينما يجري اشتقاق كلمة استعماري كالآتي



شكل (١) تيود الاشتقاق

ويشرح نبيل علي المقصود بعملية التحليل الصرفي آلياً ، ويعرض لبعض نماذج التحليل الصرفي الآلي كنموذج كوسكونيني (Koskoneni 1983) ذي المستويين ، ونموذج مارتن كي (Kay 1987) ، ثم يعرض نموذج التحليل الذي وضعه المؤلف لشركة العالمية للالكترونيات ويوضح المؤلف مكونات هذا للمعالج الصرفي في الشكل التالي .

يستطيع القارئ أن يرى أن هذا المعالج الصرفي يتكون من أربع معالجات فرعية متخصصة لكل منها وطريقة محددة وهي : للمعالج الصرف - نحوي ، والمعالج الاشتقاقي ، والمعالج الاعرابي ، ومعالج التشكيل . كما يلاحظ أن كلا من هذه المعالجات له جانبان جانب التوليد والأخر للتحليل . وأن المكون اللغوي للبرنامج منفصل عن المعالج ؛ وهذه ميزة كبيرة تمكن من تطوير المكون اللغوي دون الحاجة لتغيير البرنامج نفسه كما أنه يسهل من هذه المهمة .

والمكون اللغوي يتكون بدوره من عدة ملفات منفصلة تحتوي على قواعد التصريف والدمج ، وجذور اللغة العربية ، والمحايل الصرفية ، والصيغ الصرفية ، وقواعد ضبط الاعرابي ، والقواعد الصرف - صوتية morphophonemic rules .

ويعد أن يعرض المؤلف طريقة عمل للمعالج الصرفي ، يحدد استخدامات هذا المعالج وهي : ضبط النصوص العربية بالأسلوب الصرفي وعلى مستوى ازدواج الحروف ، واسترجاع النصوص ، وتصحيح الأخطاء الإملائية ، وتحليل النصوص صرفياً ، واستخدام قواعد بيانات النصوص الكاملة ويمكن المعجم .

١ - تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ومعانيها .

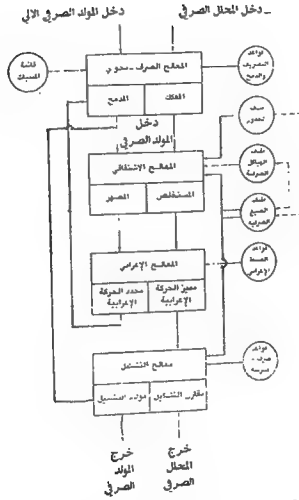
٢ - تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ووظائفها النحوية .

٣ - تعدد العلاقة بين الصيغ الصرفية وموازنها الصرفية .

٤ - اللبس الصرفي نتيجة غياب التشكيل .

وكمثال على حدة ظاهرة اللبس في اللغة العربية ، يورد نبيل علي اثني عشر احتمالاً لكلمة « افهم » حين ترد بدون تشكيل .

ثم يتناول الكتاب مشاكل المعالجة الآلية للصرف العربي ومنها تعدد وتداخل عمليات الإبدال والاحلال ، وحدة اللبس الصرفي ، وعدم تأثر عناصر الكلمة بما يحاورها من عناصر فقط بل تأثرها بالعناصر التي تتقدمها أيضاً ، وعدم وجود صياغة دقيقة رسمية وشكاملة لقواعد الصرف العربي ، وعدم توفر بيانات معجمية منهجية عن الانتاجية الصرفية ، وعدم كفاية الاحصائيات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية والحالات التصريفية والاعرابية . ويتقدم المؤلف باقتراحات هامة لمعالجة الصرف آلياً وأهمها : أن يكون التعامل مع النصوص العربية بأشكالها المختلفة (أي بالنصوص المشكلة وغير المشكلة) ، وأن يكون تصميم البرنامج بحيث يكون تجزئياً modular ، فيتكون من عدة آليات متخصصة تعكس الوظائف الاساسية للمنظومة الصرفية لا الخطوات الاجرائية للبرنامج ، ومراعاة التكامل بين المعالجة الصرفية والنحوية ، وأن يكون البرنامج قادراً على العمل في اتجاهي التحليل والتوليد .



شكل (٥) الإطار العام للمعالج الصربي الي متعدد الأطوار

ويعد عرض مكونات منظومة النحويداً نبيل علي في مناقشة خصائص منظومة النحو العربي ، ومبداها في ست سمات :

١ - العلاقة العضوية بين النحو والصرف ويرى في ذلك أن الصرف العربي يبنى على النحو . فالكلمة العربية قادرة على حمل السمات النحوية تصرفاً وإعراباً وتعريفاً وتذكيراً علاوة على ما يمكن أن يلمح بها من أدوات الربط والعطف والضمائر .

٢ - رتبة الكلمات في الجملة العربية ، ويرى الأخذ بالرأي القائل بتأصل الجملة الفعلية (فعل فاعل مفعول) وأن الجملة الاسمية قد تكون جملة فعلية في أصلها .

٣ - المرونة النحوية ، فالجملة العربية تتميز بمرونة ترتيب الكلمات التي تسمح بتقديم الفاعل والمفعول وبإسقاط بعض حروف الجر الملحقة بالأفعال .

٤ - التوسط النحوي ، يرى نبيل علي أن خصائص اللغة العربية تجعلها لغة وسطى بين لغات العالم ؛ فهي لا تتبع انضباط اللغة الانجليزية مثلاً في ترتيب الكلام ، ولكنها في نفس الوقت لا تسمح بالمرونة المطلقة كما في اليابانية والمنغولية ، وهي تمثل حالة وسطى في رتبة الكلمات فهي تجمع بين الجملة الاسمية والفعلية ، كما أن المطابقة فيها ليست محدودة كالانجليزية ولا هي مفرطة كالألمانية مثلاً .

٥ - ضبالة البنية العميقة ، يرى المؤلف أن العربية تتميز بضبالة بنيتها العميقة إذا ما قورنت بالانجليزية ويبرر اعتقاده بوضوح العلاقات النحوية في العربية بسبب وجود سمات ظاهرة للاعراب وكذلك لاستخدام

الفصل السادس : المعالجة الآلية لمنظومة النحو العربي (٣٣٣ - ٤١٩)

يتميز هذا الفصل بأنه يعرض لمنظومة النحو من منطلق النظريات اللغوية المعاصرة (Chomsky 1981, 1982, 1986) ، (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) ، ويبدأ الفصل بشرح لبعض المفاهيم النحوية الأساسية والتي يبنى عليها المؤلف فيما بعد مناقشته وعرضه التفصيلي ، ومن بين هذه المفاهيم فكرة لغة وصف للغة meta language ، وأقسام الكلام وتوصيفها باستخدام السمات (Jackendoff 1977) ، ثم ينتقل إلى العلاقات النحوية المختلفة كملاقة الرتبة وهي التي تحكم ترتيب الكلام كسبب الجار للمجرور أو الموصوف للصفة في العربية ، والعلاقة الوظيفية النحوية كملاقة الفاعل والمفعول ، والعلاقة الوظيفية الدلالية التي تفصل بين الفاعل النحوي والفاعل المنطقي ، ثم انتقل إلى شرح النموذج الرياضي للغة والمكون من الرباعية (رمز الجملة ، المقولات النحوية ، مفردات اللغة ، قواعد الاحلال المتحررة من السياق) . ثم ينتقل إلى المكونات الداخلية لمنظومة النحو ويرى بحثها على ثلاثة مستويات :

أولاً : عمليات التكوينات النحوية الأساسية وتضم قواعد تكوين الجمل المعقدة والبسيطة وأشبه الجمل .

ثانياً : عمليات التحوير والاحلال النحوي وتشمل قواعد الحذف والإضافة والتقديم والتأخير والاضمار .

ثالثاً : عمليات الضبط النحوي وتشمل قواعد المطابقة كاتفاق الفعل مع فاعله والصفة مع الموصوف وقواعد الضبط الاعرابي .

اللغوية الحديثة ، بل حتى في برامج النظم الخبيرة
expert systems .

٣ - « تعاون » الصرف والنحو لفك اللبس الناتج
عن غياب التشكيل .

٤ - استخدام الاحصائيات النحوية والصرفية في
ترشيد عمل المعالج الآلي النحوي .

٥ - التركيز على اللغة العربية الفصحى الحديثة .

٦ - توفير وسائل التعامل مع الاخطاء واقتضاء اثر
tracing للمحلل الاعرابي .

وهناك ثلاث خطوات رئيسة يجب اتباعها عند بناء
المعالج النحوي وهي :

أ - تحديد الشريحة اللغوية التي يغطيها المعالج ؛ أي
تحديد أنواع التركيبات اللغوية التي سيتعامل معها ،
وقائمة المفردات ، والصيغ الصرفية .

ب - تحديد نظام التضميد وذلك باختيار نوع الصياغة
الرسمية للقواعد النحوية ، ويكون الاختيار هنا من بين
القواعد التحويلية ؛ الوظيفية ؛ المنحرفة من السياق ،
حسامسة السياق ، التوحيدية unification
Grammar ... الخ .

ج - اختيار خوارزمية البرمجة ويمكن هنا الاختيار من
شبيكات الانتقال transition network ، شبكات
الانتقال المعززة ، شبكات الانتقال المتكررة ، الاعراب
من أسفل لأعلى أو من أعلى لأسفل ، ... الخ .

ثم يصف المؤلف المعالج النحوي الذي يقوم بتطويره
حاليا والذي يتكون من المعجم ، وقاعدة المعرفة

الضمير العائد في حالات التقديم والجمل الموصولة ،
وللمصلة الوثيقة بين الماني الصرفية ومعانيها ، واستخدام
الجملة الاسمية .

ثم يعرض الكتاب للشرة النحوية الحديثة
ويستعرض انتاجات النحو التوليدي والنظريات
النحوية التي تفرعت عنه وشرح منطقات النظريات
النحوية المعاصرة .

ثم يتقل الكتاب الى مناقشة النحو العربي وأزمته
ويقدم اقتراحات عديدة لتحديثه منها الانطلاق من مبدأ
النحو العام والتحليل المنهجي لعلاقة النحو بالصرف
والدلالة ، ودراسة النحو كمنظومة متكاملة وضرورة
تنوع مناهج التنظير النحوي للعربية ، واستخدام
الحاسوب في إقامة النماذج النحوية للاسراع في حركة
تحديث النحو ، وإدخال مناهج اللسانيات الرياضية
والحاسوبية والاحصائية في الجامعات والمعاهد العربية .

ويتناول باقي الفصل المعالجة الآلية للنحو العربي
ويتعرض للتحديات التي تواجهها ومنها غياب صياغة
رسمية formalism للنحو العربي ، واسقاط علامات
التشكيل في النصوص المعاصرة ، وتعدد حالات اللبس
النحوي ، وحيدة ظاهرة الحذف ، وعدم توفر
الاحصائيات النحوية . ولعلاج هذه التحديات يقدم
الكتاب المقترحات التالية :

١ - استغلال مظاهر المطابقة والاعراب والتضام
والرتبة للمساعدة في فك اللبس الناتج عن غياب
التشكيل .

٢ - فصل قاعدة المعرفة اللغوية عن البرمجة
الاجرائية . وقد أصبح ذلك مبدأ في جميع أنظمة المعالجة

وما تحلّفه من قبيلات في الهواء acoustic phonetics ومن حيث آثارها السمعية وما يحدث لدى السامع ابتداء من طبلّة الأذن الى تمثّل معنى الإشارة الصوتية في الدماغ auditory phonetics كما يمكن دراسة الكلام على مستوى الفونولوجي حيث تتعامل مع القواعد المجردة التي تحكم تتابع الأصوات والتي تحدد أي تتابع من الأصوات يكون قانونياً في اللغة المعنية وأياً غير قانوني ؟ فمن المعروف مثلاً أن العربية الفصحى لا تسمح بالتقاء ساكتين في أول الكلام ولا تسمح في أي مكان بأكثر من ساكتين متتالين ، أما الانجليزية فتسمح بثلاث سواكن في أول الكلمة وأربع سواكن في آخرها ، ومع ذلك فهناك قيود فونولوجية على نوعية السواكن التي يمكن أن تتتابع . كما يبحث الفونولوجي العلاقات التي تنشأ بين الأصوات المجاورة وبينها وبين العناصر اللغوية الأخرى .

والفونيم ، في رأي نيل علي ، هو العنصر الذي للظاهرة الصوتية ، وينظر الحرف في الكتابة إلا أن التناظر غير تام بين الحروف والفونيمات . وتكون منظومة الفونولوجي من ثلاث آليات :

١ - تنوع الفونيمات . فالأصوات اللغوية تتأثر بما يسبقها ويلحقها من أصوات وينتج عن هذا التأثير والتأثر عدة عمليات فونولوجية كالأدغام والامالة والتضمين والترقيق والحذف والإضافة والإطالة والتقصير ... الخ .

٢ - التقطيع الصوتي . وهو تقسيم الكلمة الطويلة الى مقطعين أو أكثر فمثلاً كلمة « كتاب » تتكون من مقطعين وكلمة « كتبنا » تتكون من ثلاث مقاطع ، ولكل لغة نظامها المقطعي الذي يحدد التراكيب

النحوية ، وروتينات البرجة ، ثم يشرح باليجاز الخطوات الرئيسة للنظام النحوي المقترح للغة العربية ، فهو يبدأ من التحليل الصرفي والمجمعي لكلمات الجملة الداخلة ، ثم يبدأ في تطبيق قواعد البدائل المستحيلة وذلك للتخلص من حالات اللبس الزائفة والواضحة في وقت مبكر ، يلي ذلك تطبيق قواعد النحو التركيبية لأشباه الجمل وما يعلوها من مكونات نحوية ، ثم يطبق قواعد الضبط النحوي والاعرابي ، ويربط الضمائر بما تعود إليه وذلك بمطابقة السمات النحوية والدلالية للضمير مع سمات الأسماء وأشباه الجمل الاسمية الواردة ، ثم يقوم بتطبيق قيود الانتقاء الدلالي selectional restriction rules لاستبعاد البنى النحوية التي تتنافس مع منطق دلالات الألفاظ ، وأخيراً توليد التشكيل آلياً بإضافة علامات التشكيل على ساق الكلمة وعلامات الضبط الاعرابي على أواخرها .

ويتهي الفصل بعرض سريع للتطبيقات العملية لئلا هذا المعالج النحوي ومنها التصحيح الآلي للأخطاء النحوية ، والتخاطب مع قواعد البيانات باللغة العربية ، والترجمة الآلية وتعليم النحو بواسطة الحاسوب .

الفصل السابع : المعالجة الآلية للكلام العربي (٤٢١ - ٤٥٦)

الكلام فعل حي دينامي وهو الأساس في الحدث اللغوي ، والكتابة ماضي في الواقع سوى أحد أشكال تمثيل الكلام ، فالكتابة إذن تابع للكلام وليس العكس . ويمكن دراسة الكلام على مستويين : مستوى الفونيتيك phonetic level وهنا نتعامل مع طبيعة الأصوات اللغوية من حيث خارجها وطرق نطقها articulatory phonetics ومن حيث خصائصها الطبيعية

٢ - رد حروف الكتابة الى أصلها (مثلا رد كافة أشكال العين الى العين) .

٣ - فك الحروف العربية ذات الطابع الشائلي مثل « لا » الى عناصرها المقردة .

٤ - تحويل سلسلة الحروف المكتوبة الى سلسلة فونيمات متناظرة .

٥ - تمثيل سلسلة الفونيمات في هيئة مقاطع .

٦ - تحديد مواضع التبر بتطبيق قواعد اللغة العربية واستخدام المعالج الصرفي ، وتحديد التنغيم المناسب للجملة بعد تحليل الجملة نحويا لمعرفة ما اذا كانت استفهامية أم خبرية . . الخ .

٧ - تطبيق القواعد الفونولوجية ومعطيات التبر والتنغيم .

٨ - توليد الاشارة الصوتية الرقمية بالحصول على البارامترات .

٩ - تحويل البارامترات الرقمية بعد تعديلها الى الاشارة الصوتية المقابلة لها .

ويمثل تمثيل الكلام العملية المعاكسة أي استخلاص الفونيمات من الاشارة الكلامية وتحويلها الى مقابلها المكتوب . ويعتبر التمييز أصعب بكثير من التوليد نظرا لفيض المعطيات الضخم الذي تحمله الاشارة الكلامية ، وللتداخل الشديد بين الفونيمات المتتالية ، وتغير سرعة الكلام وبخط تنغيمه من وقت لآخر لنفس المتحدث ومن متحدث لآخر . ولهذا لا تحقق برامج تمثيل الكلام حاليا نجاحا الا في مجال الكلمات المنزلة ولعدد قليل من التكلمين .

المسموحة في تكوين المقطع ، ويتميز العربية ببساطة واطراد نظامها المقطعي .

٣ - التبر والتنغيم . ويقصد بالتبر تشديد النطق على مقاطع معينة في الكلمة ، ويوضح التنغيم قصد المتحدث وحالته الانفعالية ، فباختلاف التنغيم يمكن لنفس الجملة أن تعبر عن الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو السخرية . . الخ .

ويتناول الجزء الثاني من هذا الفصل معالجة الكلام آليا ، وهو موضوع يمثل تحديا هائلا لعدم نفاذ الاشارة الكلامية واختلاط الأصوات فيها بالضحيج ، كما أنها تتغير وفقا لانفعالات وطبيعة صوت المتحدث وتأثير وتأثر كل صوت فيها فيما قبله ويعدله . وللمعالجة الكلام آليا لابد من توافر العناصر التالية :

١ - توكيد coding الاشارة الكلامية وذلك بضمح معطيات الاشارة وإبراز خصائصها المميزة ، وتمثيلها بعدة بارامترات يسهل مقارنتها ومطابقتها برمجيا .

٢ - برامج معالجة اللغة المختلفة كالمعالج الصرفي والنحوي والدلالي .

والمقصود بمعالجة الكلام آليا هو اما توليد الكلام speech synthesis أو تمييزه speech recognition . ويمكن توليد الكلام المستمر بتكوين الكلمات من وحدات أصغر كالفونيمات أو المقاطع الصوتية ، ثم صهر عناصر الكلمة الصوتية مع مراعاة القواعد الفونولوجية الخاصة باللغة . وبالنسبة للعربية ، يلخص الكتاب خطوات توليد الكلمة المنطوقة فيما يلي :

١ - ادخال النص المكتوب المراد نطقه آليا .

التحليل اللغوي ، فالمعجم إذن هو منظومة ذات كيان شبكي ، يرتبط بعلاقات خارجية متعددة ويوج داخله بشبكة كثيفة من العلاقات المتداخلة (الفهري ١٩٨٥) . يعاني المعجم العربي من أزمة حادة تلتخص مظاهرها في التقصور الحاد في المصطلحات العلمية ، ووجود النظرة الى تكوين الكلمات الجديدة ، والاكتفاء بتنظيم مواد المعجم على أساس الجذور والذي يفترض معرفة المستخدم بتفاصيل التحليل الصرفي والنواحد الفونولوجية الخاصة بالابدال والاعلال والحذف وغيرها ، وإهمال العلاقات المعجمية التي تربط بين الكلمات ، وعدم توافر معاجم خاصة للترادف والتضاد ، وشبه إغفال الكلمات المركبة ، وإغفال البعد التاريخي في رصد الكلمات وتطور معانيها عبر الأجيال .

ولمعالجة أزمة المعجم العربي يضع نبيل علي إطارا عاما « لمنظومة المعجم الموسعة » نلخصه فيما يلي :

١ - تحديث المعجم بإضافة المفردات والتعابير الاصطلاحية الجديدة وحذف المهجور منها ، وتحديث العلاقات بين مفردات المعجم ، وتجميع الاحصائيات عن معدلات استخدام المفردات والتعابير الاصطلاحية داخل النصوص .

٢ - صك الألفاظ الجديدة من خلال آليات مختلفة لتكوين الكلمات كالاشتقاق والتشريك والمزج والاقتراض ، يُمنح توسيع الاشتقاق وتخفيف القيود على اقتراض المصطلحات الأجنبية واستغلال الرصيد الكبير من مفردات العربية السحيقة .

٣ - الاهتمام بدراسة عمليات الأراضة الدلالية للكشف عن أسرار تغير معاني الألفاظ سواء على مستوى الجذور أو الصيغ الصرفية .

ويرى المؤلف أن العربية تمثل حالة لغوية ملائمة لفهم الأوتوماتي للكلام المستمر والذي له تطبيقات عملية عديدة في بناء الآلات السامعة القارئة وتمييز المتكلمين والبريد الصوتي .

الفصل الثامن : ميكنة المعجم العربي (٥٧ - ٥٢٩)

المعجم هو القاسم المشترك لجميع مستويات التحليل اللغوي ، وقد اكتسب أهمية كبرى متزايدة في النظريات اللغوية المعاصرة (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) و (Chomsky 1981, 1982, 1984, 1986) فكثر من الظواهر اللغوية التي كان يظن أنها جزء من التراكيب أمكن تفسيرها بطريقة أفضل من خلال معطيات المعجم ومن ذلك مثلا ظاهرة المبني للمجهول .

وتحتوي كل مادة معجمية على معطيات فونولوجية تحدد النطق الصحيح والكتابة السليمة لهذه المادة ، كما تحدد للمعطيات الصرفية مقولة الكلمة وصيغتها التصريفية ونوع الاشتقاق وخصائص التصريف ، وتعطي المعلومات النحوية معلومات عن القواعد التي تحكم وجود اللفظ في الجملة وعلاقته بما يسبقه ويتلوها من الألفاظ ، فإذا كان اللفظ فعلا تين إذا كان لازما أو متعليا ، وإذا كان متعليا توضح إذا كان متعليا لمفعول واحد أو لمفعولين ، وكذلك أنواع الكلمات والملحقات ، وتصف المعطيات الدلالية المحملات predicates كما تحدد الأدوار الوظيفية والسمات الدلالية لموضوعات الفعل ومكملاته وموصوف الصفه وملحقاتها ، كما يعطي المعجم تعريفا لمعنى الكلمة باستخدام الترادفات اللفظية أو شرح للمعنى . وليس المعجم مجرد قائمة من الكلمات المنعزلة التي لا رابط بينها ، بل إنها تتشابه فيها بينها مكونة شبكة هائلة من المفاهيم والعلاقات الأساسية على كافة مستويات

المعجم حقيقية تمرير عن الاستخدام الفعلي للجماعة اللغوية وبذلك لا ينزول المعجم عن متكلمي اللغة .

ويتهيء الفصل ببدء من التوصيات لتطوير ومبني المعجم العربي من أهمها : ربط تطوير المعجم بتحديث نظام التقعيد للغة ، والفصل بين العربية الحديثة والعربية القديمة ، ومراعاة العاسل الجغرافي في الاستخدام اللغوي ، وتلبية احتياجات جميع مستخدمي المعجم ، والانطلاق من منظور دلالي ، ووضع الأسس للتصنيف المعجمي الدقيق بوضع سمات قياسية صرفية ونحوية ودلالية للألفاظ العربية ، والاهتمام بالعلاقات بين الكلمات ، وأخيراً ينتهي الكاتب بذكر عدد من المؤسسات العربية التي تقوم بأبحاث لمكتبة المعجم العربي .

الخاتمة (٥٣١ - ٥٥٠)

تناقش الخاتمة ثلاث قضايا : أولها تفسير خلو الكتاب من فصل عن المعالجة الآلية للدلالة في اللغة العربية ، وأرجع المؤلف ذلك للوضع الحالي للمعالجة الآلية للدلالة إذ أنه ما زال في مراحله الأولى ، ولقصور الدراسات الدلالية في اللغة العربية ، وحاجة المعالجة الآلية للدلالة إلى خلفية نظرية في المنطق والرياضيات وأساليب الذكاء الاصطناعي . والقضية الثانية هي العلاقة بين اللسانيات الحاسوبية وتعريب المعلومات ، ويرى هنا أولوية المعالجة اللغوية فهي التي ستقام عليها تطبيقات النظم المختلفة للمعلوماتيات . وتنتهي الخاتمة بقائمة قيمة لسبعة وتسعين بحثاً مقترحاً في كافة مجالات اللسانيات الحاسوبية ، وهي لا شك دعوة مفتوحة

٤ - جمع التعابير الاصطلاحية في العربية الحديثة وترتيبها وتحليل العلاقات البنيوية والدلالية بينها ، والتوصل إلى القيود النحوية على استخدامها ودراسة ظاهرة الاستعارة في العربية .

٥ - ترك المهجور من الجذور مثل « أبأ » ، والصيغ غير المستأفة مثل « مفعولاء » واستبعاد المفردات والتعابير الاصطلاحية المهجورة .

٦ - يواجه تنظيم المعجم على أساس الجذور عدة مشاكل : فهو لا يلائم غير المتخصصين من العامة والصغار لأنه يفترض الألفاظ بالقواعد الصرفية ، ولا يسهل تحديد مصدر الاشتقاق في حالة التعدد ، ويعتمد على قدرة المستخدم على استنتاج خصائص المفردات الصرفية والنحوية ، ولهذا لا بد من إعادة تنظيم المعجم بإضافة بيانات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية ، وإعطاء تصنيف أدق لأنواع المشتقات لإجلاء اللبس ، وتوضيح خصائص التعددية واللزوم للأفعال . ويجب أن يراعى في تنظيم المعجم إمكانية استخدامه على أربعة مستويات على الأقل : كقائمة مفردات للغة ، وكصفوفة علاقات صرفية ونحوية ودلالية ، وكقاعدة بيانات ، وكقاعدة معرفة متكاملة .

٧ - بناء قاعدة نصوص لغوية ضخمة من مصادر مختلفة كالسوانق والصف والتقاير والكتب والمسرحيات والاعلانات . . . الخ ليستخرج منها مؤشرات كمية وأهلة واقعية للاستخدام الفعلي للمفردات ، وإحصائيات عن طول الجمل وتنوع أساليبها ، ويضمن ذلك أن تكون المعلومات الواردة في

جديدة بينما لا يجد القاري العادي صعوبة في فهمها واستيعابها .

أولاً : منهجية العرض

تميز الكتاب بمنهجية العرض والالتزام بها في عرض كافة القضايا . وانعكس محور الكتاب وهو الثنائية « اللغة العربية والحاسوب » في كل فصل من فصول الكتاب ، حيث لكل فصل شقان : شق لغوي و شق حاسوبي . والتزم أيضاً بالبدء بالشق اللغوي في كل فصل ، متغلاً بذلك من السهل - باعتبار اللغة موضوعاً عاماً - إلى الصعب . وفي تناوله للشق اللغوي ، يبدأ من المفاهيم العامة ثم ينتقل إلى الخصوصيات وينتهي باللغة العربية ، وهو بهذا يضمن أن يكون لدى القاريه الخلفية العامة في اللسانيات التي تمكنه من استيعاب وتقدير مشكلات اللغة العربية ، وبالإضافة إلى هذا فهو ينحو نحواً منهجياً سليماً يتفق مع النظريات اللغوية الحديثة التي عتتم بالأصحاء الكلية universal gram- mar وتنظر إلى اللغات المختلفة كحالات خاصة من اللغة الانسانية التي تتوافر خصائصها العامة في جميع اللغات الطبيعية . ويبدأ الشق الحاسوبي في كل فصل بتحديد المنطلقات الأساسية للمعالجة الآلية ، كما يعرض في كل فصل إطاراً عاماً للمعالجة الآلية للمستوى اللغوي للطروح والتطبيقات العملية المختلفة التي تنبثق منها . وكان لهذه المنهجية والالتزام بها في كافة فصول الكتاب أثر كبير في جعل الكتاب سلس القراءة ، سهل الاستيعاب ، فهو يتلرج بالقاريه بطريقة منطقية سليمة ويتنقل باستمرار من العام إلى الخاص ويربط النتائج بمقدماتها .

لعلنا الشبان من التخصصين في اللسانيات أو علوم الحاسوب كي يسهموا في معالجة التحدي الذي يواجه الأمة العربية في ظل الثورة المعلوماتية المعاصرة .

تحليل وتعليق

هذا الكتاب اثره قيم للمكتبة العربية ، فهو اول كتاب عربي في اللسانيات الحاسوبية ، ويجب النظر اليه في هذا الاطار . وقد قدم المؤلف فيه عرضاً شاملاً للجوانب المختلفة في هذا المجال .

الا أن الكتابة في موضوع تخصصي كهذا أمر شائك ، فاذا وجه المؤلف حديثه الى التخصصين فقد جههوا عرضاً من المتقنين التواقين الى معرفة هذا العلم الجديد والمستعدين لبذل الجهد الذهني اللازم لذلك ، واذا وجه حديثه الى المتقنين فقد العمق والالتزام العلمي وانزلت الى الضحالة والمومية . يتخذ المؤلف قراره باختيار القاريه الذي يخاطبه قبل البدء في الكتابة حتى يحدد مستوى العرض وتناول الموضوع . ولا شك أن نبيل علي قد اختار أن يوجه كتابه للمتقنين العرب وليس الى التخصصيين ، فقد خلا الكتاب من تفصيلات النواحي الفنية المعقدة والتحليلات النظرية في علم اللغة وأساليب اللسانيات الحاسوبية . وأصبح الكتاب متعة ذهنية للقاريه المثقف ينهل منه دون صعوبة أو ملل ، ورحلة بلا عائد للتخصصيين في اللسانيات الحاسوبية . ويجب أن نقر بأنه ربما كان يستحيل أن تجمع للمعالجة بين الشمول الذي قدم به للموضوع ودرجة أعماق في تناول موضوعات الكتاب ، فقليلة هي الكتب المتخصصة التي يجد فيها التخصص من متعة ذهنية وأفكاراً

مضمون الكتاب

يرى القارئ عنوان الفصل الأول وهو « منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب » ، ويتوقع أن يرى عرضاً للغة العربية من منظور غير لغوي ، ولكنه يجد عرضاً جيداً للغة العربية ، من منظور لغوي ، فيجد عرضاً لكافة مستويات التحليل اللغوي كالتحليل الصوتي ، والصرفي والنحوي . . الخ كمكونات لمنظومة اللغة ، كما يجد عرضاً للعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة كعلاقتها بالمنظومة النفسية والاجتماعية والطبيعية . . الخ ، ثم يعرض الكتاب لمصائص المنظومة اللغوية (أي خصائص النحو الكلي) ، ثم ينتقل الى خصائص اللغة العربية ، ثم يتناول تطور اللسانيات وأخيراً يعرض لبعض مشاكل التنظير للغة العربية . والسؤال الملح هنا « أين هي منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب في هذا ؟ » ان ما في هذا الفصل لا يخرج عما ندرسه لطلبتنا في المقرر التمهيدي لعلم اللغة وهو يمثل نظرة علمية للغة في البحث اللغوي وفي اللغة الانسانية كظاهرة طبيعية . وقد كان من الأوفق لتبيل علي أن يكون عنوان الفصل « منظومة اللغة العربية » فقط .

إلا أن طرح اللغة من منظور الحاسوب هو أمر هام في كتاب كهذا ، وإذا أردنا معالجة هذا الموضوع فيجب أن نذكر أن الحاسوب ينظر الى اللغة بعدة طرق منها :

١ - نظرية اللغة الصورية Formal language theory

اللغة عبارة عن مجموعة لا متناهية من الجمل an in- finite set of sentences ، ويمكن للحاسوب أن

يتعرف على أعضاء هذه المجموعة إذا أعطي له وصف دقيق لما يجب أن تكون عليه الجملة . وهذا الوصف الدقيق الذي يتطلبه الحاسوب هو النحو . ومن هنا جاءت الرباعية التي تحدث عنها نبيل علي تحت عنوان النموذج الرياضي للنحو في صفحة ٣٤١ . ويتطلب الحاسوب نحواً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، مما يفرض على عالم اللغة أن يتبعد عن العموميات في تحليله وأن يوضح كافة التفاصيل التي تحكم صحة الجملة . ولكي يستطيع الحاسوب أن يبني شجرة الأعراب للجملة فينبغي أن يتكون من مجموعة من المقولات ، ورمز الجملة وعدد محدود من قواعد الإنتاج - production rules ومفردات اللغة . وبدون كتابة نحو اللغة بهذه الطريقة لا يستطيع الحاسوب معالجة اللغة آلياً .

٢ - اللغة كهيكل معلومات information structure . ينظر الحاسوب الى قواعد اللغة ومفرداتها كبنية معلوماتية ، فتمثل كل كلمة من كلمات اللغة في شكل شجرة معلومات تحتوي على المعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المتعلقة بهذه الكلمة ، وتحدد شجرة المعلومات هذه الكلمات والبنان اللفظي يمكن لهذه الكلمة أن تتحد مع مكونة شجرة معلومات على مستوى أعلى . . وهكذا حتى نصل الى مستوى الجملة . وتتطلب هذه النظرة وضع ككل المعلومات اللغوية في المعجم اللغوي الآلي بما في ذلك القواعد الخاصة بتكوين العبارات والجمل .

٣ - اللغة كمنظومة رياضية . يجيد الحاسوب اختبار صحة المعادلات الرياضية ، بمعنى أنه إذا أعطي مقولتين

والفكرة هنا أن جميع القواعد موجودة في شكل معادلات equations، وهي تقول بأن الجملة تتكون من أربعة مكونات: فعل ومركب اسمي (الفاعل) ، ومركب اسمي آخر (المفعول به) بشرط أن يكون الفعل من النوع الذي يتطلب مركباً اسمياً من مكملاته ، وأن هناك جارا ومجروراً أيضاً ، وتقول المعادلات التالية إن الفعل والفاعل يجب أن يتفقا في الجنس وأن فاعل الجملة هو المركب الاسمي الذي يلي الفعل ، بينما المفعول به هو المركب الاسمي الثاني . . ويمكن قول كل شيء عن الجملة وشروط صحتها النحوية من خلال هذه المعادلات . وهكذا ينظر الحاسوب الى اللغة كمنظومة من المعادلات .

وفي الحقيقة هذا ما يعم عالم اللسانيات أن يعرفه ، هو يريد أن يصرف صورة النحو الذي يمكن أن يقبله الحاسوب لأن هذه الصورة تختلف عما تعود اللساني أن يكتبه وما يقرؤه في كتب النحو العام . وكان هذا ما يجب أن يكون عليه التركيز بالفاضة وبكثير من الأمثلة التوضيحية بإضافة كتابة كثير من القواعد التقليدية بالصورة التي تتطلبها المعالجة الآلية .

يستطيع أن يحدد إذا كانتا متساويتين أم لا . وبالتالي فهو ينظر الى اللغة كشبكة من علاقات المساواة . وبناء على هذا المتيح يستطيع الحاسوب تحويل جميع شجرات الاعراب الى شكل معادلات المساواة . فلذا أردنا للحاسوب أن يجلال الجملة التالية :

شاهدت سعاد علياً في الحديقة .

وكانت شجرة الاعراب لهذه الجملة ما يلي :

فان قواعد هذه الجملة تكتب في شكل المعادلات التالية :

جملة = (س - صفر س - ٢ س - ٣)

(س - صفر مفعول) = فعل .

(س - صفر جنس) = (س - ١ جنس) .

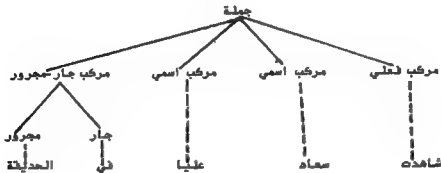
(س - صفر عدد) = (س - ١ عدد)

(س - صفر مكملات) = مركب اسمي .

(س - صفر فاعل) = س - ١ .

(س - صفر مفعول) = س - ٢ .

..... الخ .



لكتابة الأنحاء في الصياغة الصورية لكل منها . وقد كان للحاسوب ولا يزال أثر كبير في ظهور وتطور هذه النظريات . فها هم عالم اللغة اذن أنه يريد أن ينظر الى الحاسوب من خلال ما يستطيع أن يقدمه للغة وللبحث اللغوي ، ولا شك أن الحاسوب يقدم إمكانيات هائلة للبحث اللغوي سواء على مستوى تقديم أدوات تقنية عالية تضاعف من فعالية عالم اللغة أو كاختبار لصحة النظريات والتحليلات اللغوية ، أو كمستطلبات عملية تفرض على عالم اللغة معالجتها وحلها ، وبأسط مثال على ذلك الاهتمام الشديد هذه الأيام بعلم الدلالة لأن التقدم في هذا الفرع من اللسانيات شرط ضروري للتقدم في فهم ومعالجة اللغات الطبيعية .

توجد الى جانب ذلك بعض الأحكام غير الصحيحة في أماكن متفرقة من الكتاب مثل :

١ - يقول في حديثه عن ثنائية التحليل والتركيب « تعد عمليات التمييز بشكل عام أعقد من عمليات التوليد ، إذ تتعامل الأولى مع دخل متغير لا يمكن تحديده سلفاً ، ولا يفترض وجوب صحته لغوياً » (صفحة ١٨٧) ، والذي يتبعه ادبيات اللسانيات الحاسوبية يجد أن برامج تحليل اللغات قد سبقه بكثير البرامج التوليدية ، ربما كان ذلك لأننا في التوليد نبدأ من المعنى وننتهي الى النص ، ولما كانت الأبحاث عن طرق تمثيل المعنى في بدايتها الأولى ، فقد أثر ذلك على البرامج التوليدية . والفكرة السائدة الآن هو أنه يجب استخدام نفس التحليل اللغوي في كلا الاتجاهين ، التحليل والتوليد ، غير أن البرامج التطبيقية تتطلب أن تسمح للمستخدم بعمل أخطاء لغوية إلا أن الحاسوب في رده لا

ولنا نفس التماثل على الفصل الثاني من الكتاب والذي عنوانه « منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية » . فهو يحدد الاطار العام لمنظومة الحاسوب في رباعية ، هي : العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . وليس هذا الاطار هو منظور اللغة الى الحاسوب ، بل هو اطار هذه المنظومة من منظور الحاسوب ، ثم يتناول البعد العربي لكل من هذه العناصر وهو يعني تطويع هذا العنصر ليلبي احتياجات المستخدم العربي ، وهذا بالتأكيد شيء جيد . ولكن يبدو لي - وقد أكون غلطاً - أنه قد يكون من المناسب عندما نتحدث عن الحاسوب من منظور اللغة أن نذكر كيف يمكن للغة استخدام الحاسوب كخانة البحث اللغوي ، فلمعروف أن علماء الحاسوب واللسانيات الحاسوبية في البلدان المتقدمة استطاعوا بناء أدوات للبحث اللغوي computational tools for linguistic analysis ، وأن استخدام هذه الأدوات قد مكّن علماء اللغة من اختبار صحة نظرياتهم مما كان له أثر في اندثار بعض النظريات والتحليلات اللغوية وقيام غيرها . فقد كان للسانيات الرياضية والحاسوبية الفضل في إظهار أن النحو التحويلي لا يزيد في قوته من آلة تورينج (ريتشي و بيرتراند ١٩٧٣) ، وأنه لا يمكن التوصل الى البنية العميقة من خلال البنية السطحية . وأدى هذا الى ظهور نظريات لغوية توليدية غير تحويلية ولا تعترف الا بالبنية السطحية ومن ذلك نظرية « نحو البنية العامة للجملة Generalized Phrase Structure Grammar (GPSG) » والنظرية الوظيفية المعجمية Lexical Functional Grammar (LFG) . ولكل من النظريتين برامج حاسوبية

فقد ميزوا بين المجهور وغير المجهور . كما توصلوا لعدد من القواعد الصوتية المختلفة كالأبدال والاعلال ، والحذف ، والإضافة ، والادغام ، وغيرها . كما كانت الصوتيات من أول فروع علم اللغة الحديث ، وقد حققت تقدماً هائلاً ، وإذا جاز لنا أن نتحدث عن أقل الظواهر اللغوية خطأً من حيث الدراسة والبحث ، فلا شك أن أول ما يجتري بهال اللغوي هي الدلالة .

٤ - يقول المؤلف « يمكن القول أن يجعل العربية تتسم بضعلة بنيتها العميقة وذلك اذا ما قورنت بلغات أخرى مثل الانجليزية مثلاً » (صفحة ٣٥٧) . ومن الصعب تقبل فكرة ضعلة أو عمق البنية العميقة للغة ما ، فالبنية العميقة ما هي الا افتراض نظري مجرد من خلق عالم اللغة عن الدلالة التي يتوصل اليها الانسان من البنية السطحية للجملة . ويتجه معظم النظريات اللغوية المعاصرة الى نبذ فكرة البنية العميقة لأنها تعتمد بشكل رئيسي على النحو التحويلي الذي تقوم فيه القواعد التحويلية بتمثيل العلاقة بين البنية السطحية للجملة وبينها العميقة .

لا يمكن لهذه الملاحظات البسيطة أن تقلل من قيمة وإهمية الكتاب ، فقد حفل بكم هائل من المبلومات القيمة ، وأود أن أذكر نبيل علي بما قاله في صفحة ١٣ « فان بحثنا هذا لا يمدو أن يكون مجرد بداية تحتاج حقاً الى التفرع والتفصيل والتمتين » ونحن في انتظار العمل القادم لتبيل علي ليكون إثراء الثاني في علم اللسانيات الحاسوبية .

يجوز أن يأتي بجملة خاطئة نحويًا ، ومن هنا كان لا بد من أحد أمرين : إما أن يختلف النحو المستخدم في التوليد عن النحو المستخدم في التحليل ، أو أن يقوم البرنامج بأرخاء بعض القواعد عند التحليل ليتجاوز الأخطاء التي يقع فيها المستخدم . والحالة الوحيدة التي تصبح فيها مقولة المؤلف هذه هي حالة التعامل مع الكلام المنطوق .

٢ - وفي صفحة ٢٠١ يقول نبيل علي « هناك لغات فونيمية ، كاللغات الانجليزية والروسية والأميبانية ، يمثل كل حرف فيها فونيميا واحداً في أغلب الأمور وهذا مخالف للواقع ؛ فلم يقل أحد عن اللغة الانجليزية اطلاقاً أنها لغة فونيمية ، خذ مثلاً حرف s بالانجليزية فهو مرة ينطق « س » في كلمة sam ومرة ش كما في كلمة sure ومرة « ز » كما في كلمة dogs ومعجم كما في كلمة pleasure . والحقيقة أن اللغة الانجليزية غير فونيمية على الإطلاق وقد كان هناك تفكير في أوائل هذا القرن لتعديل طريقة كتابتها حتى تصبح منطقية أكثر ولكن استبعد هذا الرأي لعدة أسباب .

٣ - ويقول نبيل علي في فصل المعالجة الآلية للكلام العربي ما يلي : « الكلام ، أو الصوت اللغوي ، هو بلا شك ، أكثر الظواهر اللغوية تأصلاً وتجلياً ، وهو في نفس الوقت أقلها خطأً من حيث الدراسة والبحث » ، وهذا الحكم ينافي الحقيقة ، فقد كان لعلماء اللغة العرب القدما فضل دراسة الكلام دراسة وافية وتوصلوا الى وصف دقيق لمخارج اللغات ولبعض السمات الصوتية ،

المراجع

- ١ - الفهري ، عبد القادر القاسي . للمعجم العربي : تحليل نحلي جديدة ، دار تريبال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .
- ٢ - فرغلي ، علي . "Three Level Morphology" ، بحث ألقى في ورشة عمل عن الصرف العربي ، جامعة ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٨٧ .
- ٣ - فرغلي ، علي . والحاسب الآلي والعلوم الانسانية ، في متاحج البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٨ .
- ٤ - منصور ، فوزي . استراتيجيات اتباع الحاجات الأساسية كاستراتيجية تنمية ، الحلقة الختامية الثانية عشرة ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، ١٩٨٨ .
- 5 — Bresnan, J. (ed.) 1982. *The Mental Representation of Grammatical Relations*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 6 — Chomsky, N. (1957). *Syntactic Structure*. The Hague.
- 7 — (1965). *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 8 — Chomsky, N. 1981. *Lectures on Government and Binding*. Foris, Dordrecht.
- 9 — 1982. *Some Concepts and Consequences of the Theory of Government and Binding*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 10 — 1984. *Knowledge of Language : Its Nature, Origin and Use*. New York, Praeger.
- 11 — 1986. *Barriers*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 12 — Gazdar, G. et al. 1985. *Generalized Phrase Structure Grammar*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 13 — Jackendoff, R. 1977. *X-Bar Syntax : A Study of Phrase Structure*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 14 — Kay, M. 1987. *Nonconcatenative Finite-State Morphology*. Presented at the *Workshop on Arabic Morphology*, Stanford University.
- 15 — Koskenniemi, K. 1983. *Two Level Morphology : A General Computational Model for Word-Form Recognition and Production*. Doctoral Dissertation, University of Helsinki.
- 16 — Selkirk, E. 1982. *The Syntax of Words*, Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 17 — Weaver, W. 1955. "Translation", in Locke & Booth (eds.) *Machine Translation of Languages*, New York, Technology Press of MIT and Wiley.

يعد كتاب « ليسكي » المعنون « بيروقراطية الخدمات الجماهيرية » أول كتاب رئيسي حول البيروقراطيين المتصلين بالخدمات الجماهيرية ينشر وسط اهتمام أكاديمي متنام بهذا المجال .

وتلور الدراسة حول مكان الفرد في سياق الخدمات العامة ، ويخلص المؤلف ، من دراسته ، الى أن فهم أفضل للسياسة العامة يمكن أن يتحقق ليس من خلال دراسة أنشطة وأعمال المستويات الإدارية العليا ، بل عن طريق دراسة العلاقة بين من يقلم الخدمة مباشرة ومن يتلقاها .

وتستتب الدراسة الراهنة الى ملاحظات جرى تسجيلها عن السلوك الجماعي لتنظيمات الخدمة العامة ، وتسمى الدراسة كذلك الى تطوير نظرية حول نشاطات بيروقراطيات الخدمات الجماهيرية كما يمارسها العاملون في تلك التنظيمات والمؤسسات .

ويرى المؤلف أن موظفي تلك المؤسسات التي تتعامل مع الجماهير ، يشغلون مركزاً دقيقاً في المجتمع الأمريكي في الوقت الراهن . وهو يعرف الموظف الذي يتعامل مباشرة مع الجمهور بأنه « بيروقراطي مستوى الشارع » على حد تعبيره ، وذلك مثل المدرسين وضباط الشرطة والاختصاصيين الاجتماعيين والقضاة والمحامين وموظفي مؤسسات الخدمات العامة ، ومن ثم فهو يشير الى الهياكل التي ينتمي اليها أعداد كبيرة من هؤلاء بوصفها « مؤسسات بيروقراطية على مستوى الشارع » على حد تعبيره ، أي مؤسسات بيروقراطية تتعامل مباشرة مع الجماهير .

ان الأساليب التي يقرّم من خلالها أولئك الموظفون العاملون بتلك المؤسسات ، الخدمات والجزاءات ،

بيروقراطية الخدمات الجماهيرية

تأليف : ميشيل ليسكي
عرض وتحليل : فهد الناصر

مدرس علم الاجتماع

ويعيدون بواسطتها ضروب حياة الناس وفرصهم ، تشكل السياق الاجتماعي والسياسي الذي يعمل الناس من خلاله ، وتوجهه .

ويتحكم هؤلاء البيروقراطيون المتعاملون مع الجماهير في الجدل السياسي أو الخلافات السياسية التي تلور حول الخدمات العامة وذلك لسببين عامين ، يرجع أولهما إلى أن الجدل والخلافات حول مجال الخدمات الحكومية إنما تدور أساساً حول هؤلاء الموظفين العموميين من حيث مجال عملهم ووظائفهم . أما السبب الثاني فيمكن في أثرهم الملموس على حياة الناس فهم على سبيل المثال الذين يشكلون - اجتماعياً - توقعات المواطن للخدمات الحكومية ، كما يصورون على نفس المستوى أيضاً مكانته في المجتمع السياسي ، إنهم على حد تعبير ليبسكي « يسكنون بمفاتيح بعد من أبعاد المواطنة » وهو مقتنع تماماً بضرورة النظر إلى موظفي المستويات البيروقراطية الدنيا هؤلاء ، ليس بوصفهم منفذي سياسة فقط ، بل بوصفهم صناع سياسة للمنظمات التي يحملون بها .

ويتسق منطق ليبسكي ، الذي يضيء أهمية بالغة على بيروقراطي الخدمات الجماهيرية ، أو كما يطلق عليهم في بعض الأحيان موظفي خط المواجهة الأمامية في مؤسسات الخدمات العامة - يتسق - مع أغلبية البحوث والدراسات في هذا المجال ، أي مجال المؤسسات البيروقراطية .

وقد حدد بيتر بلاو (Blau, 1956) ثلاث خصائص تشترك فيها تلك المؤسسات بوصفها خصائص ضرورية لأدائها واستمرارها ، وهي التخصيص في الأدوار والأعمال والمهام ، ووجود قواعد

موضوعية مستقلة ذاتياً عن الأشخاص ، ووجود توجه عام لانتجاز أهداف وغايات محددة بكفاءة وفعالية .

ويعتمد مدى قدرة التنظيم البيروقراطي على المحافظة على تلك الخصائص واستمراريتها على التوازن الدينامي الذي يحرص على استمراره بالنظر إلى علاقته بالبيئة والوسط العام الذي يوجد التنظيم في إطاره . وتحفظ البيروقراطية باستقلاليته وتميزها وقدرتها على تحقيق أهدافها طالما ظلت الرقابة التنظيمية والإشراف وصنع السياسة ، ووضعها في أيدي أصحاب الحق الشرعي في ممارسة تلك المهام . وقد تعارض هذه النتيجة مع حالة التمرکز البيروقراطي "Bureacratization" التي تعني تكريس الأنشطة والقوة البيروقراطية لخدمة مصالح المؤسسة البيروقراطية ، أو لخدمة مصالح الصفوة أو النخبة العليا في التنظيم .

إن آثار التمرکز البيروقراطي ، كما يذهب أيزنشتات (Eisenstad) يمكن أن تحتوي على تطوير وتنظيم صارم متمثلين بـ regimentation لبعض مجالات الحياة الاجتماعية ، ووضع أهداف وخدمات - المؤسسة لصالح مصالح قوى وتوجهات مختلفة (P. 306) .

ويضرب أيزنشتات مثلاً بالحزب السياسي الذي يمارس ضغوطاً على من يتوقع تأييدهم له ، وذلك في محاولة لاحتكار حاجتهم الخاصة والمهنية والانفراد بها حتى يجعلهم تابعين للحزب تماماً ومعتمدين عليه .

وبذلك يكون لدى الجهاز الوطني للحزب القوة والنفوذ الذي يمكنهم من تغيير مسار الحزب ورسالته الحقيقية وذلك بحكم كونهم في خط المواجهة ، فهم على صلة مباشرة بالمؤيدين المحتملين في دائرة الحزب .

شكلاً من أشكال التقنين التي عادة ما تتجاهل الاعتبارات الإنسانية للعمال . إن ظروف العمل في هذه المؤسسات غالباً ما تضع العاملين بها في مواقف متناقضة على نحو ما يذهب اليه ليسكي .

إن المهمة المشتركة التي تواجه بيروقراطي الخدمات الجماهيرية تتمثل في التوفيق بين مسئولياتهم غير المحدودة في اتخاذ قرارات تتعلق بمشكلات العمال ، وقدرتهم المحدودة على حل تلك المشكلات فعلاً . ومن شأن هذا التوفيق أن يؤدي الى ممارسات تضر بمصالح العمال ، كأن تقلل من طلبهم للخدمات في حالة تطبيق إجراءات روتينية غير ضرورية ، ووضع العقبات أمامهم لدى طلبهم لتلك الخدمات .

وينتقل ليسكي لمناقشة الفروق بين موظفي الخدمات الجماهيرية والمديرين فيذهب الى القول بأن « العاملين في المستوى الأدنى يتميزون بممارسات متعلقة بأعمالهم تختلف عن تلك الممارسات التي يتسم بها المديرين ، فمن مصلحة العاملين أن يقللوا من الأخطار التي يتعرضون لها وأن يقللوا من المخاطر التي يتعرضون لها في العمل وأن يزيدوا من دخلهم وأرباحهم الشخصي . ان أولويات العاملين لا تهم الإدارة في جانبها الأعظم الا بمقدار ارتباطها بالانتاجية والمالية . إذ يتم المديرين بتحقيق النتائج التي تتفق مع أهداف مؤسستهم ، (P. 18) .

ويركز ليسكي على ندرة المصادر في وسط يتطلع الى خدمات غير محدودة ، كما يركز على الافتقار الى التجديد الدقيق للمسؤولية Accountability في مؤسسات وهيئات وتنظيمات تتسم بوسائل تكنولوجية تنظر الى

ويحتل بيروقراطيو مستوى الشارع الوضع نفسه تقريباً فمنهم صانعو القرار الذين يمكن احتكاكاً يومياً مباشراً مع عملاء التنظيمات والمؤسسات ، وهم يستطيعون ، من هذا الموقع ، كما يوضح ليسكي ، أن يغيروا من المجال الشرعي والوظائف الشرعية للتنظيم وذلك من خلال تقديم « منافع وخدمات أقل » وتوقيع « جزاءات أكبر » على العمال ، خدمات أقل مما تحده اللوائح والتشريعات التنظيمية ، وجزاءات أكبر مما تحده تلك اللوائح أيضاً . وهكذا فإن تأثيرهم يمتد الى بعض مجالات الحياة الاجتماعية بتغييرهم بعضاً من أهداف الخدمة وقد يتم توجيهها لصالح البيروقراطية على حساب مصالح العمال والمصالح العامة .

وفي ضوء الخصائص الثلاث المشتركة للتنظيمات البيروقراطية التي حددتها بيتر بلاو يمكن القول إن بيروقراطي مستوى الخدمات الجماهيرية الذين يتجاوزون سلطاتهم يخطرون ويتجاوزون خاصية التوازن الدينامي من خلال فشلهم في المحافظة على خاصيتي التخصص في الأدوار والقواعد الموضوعية المستقلة .

وخلال تمهيد ليسكي وتحليله لمشكلات هؤلاء الموظفين وظروف عملهم ، يناقش الصراع بين انفعالات العاملين وتصرفهم على هوائهم وبين الاتفاق والتنظيم الاجرائي الضروري في ضوء اعتبارات المساواة ، كما يناقش الصراع بين استقلالية العامل أو للثقف وبين المتطلبات التنظيمية للرقابة الاشرافية . لقد أعطى هؤلاء الموظفون صلاحيات واسعة للتصرف مع العمال ومعاملتهم وفقاً لظروف كل منهم ، في نفس الوقت الذي يتوقع منهم أن ينفذوا الاجراءات التي تتطلب

وقد كشف عن أن كافة موظفي الخدمات الجماهيرية يميلون الى تضيق نطاق الخدمات وتحييدها ، كما يميلون الى التحكم في العملاء وفي ظروف العمل ، ويطورون وسائل سيكولوجية لاختزال التضاوت بين الأداء الذي يتوقعونه من أنفسهم وبين حصيلة الخدمة الفعلية التي يحصل عليها عملاؤهم .

ويعتمد ليسكي على مجموعة من المصادر التي تمكنه من تقديم وصف وتحليل ممتاز لما يجري في ظروف العمل فهو يفسر - بأسلوب متعاطف مع كل من العاملين والعملاء - الدوافع البرقراطية الكامنة وراء مثل تلك الممارسات ، مثل توزيع الخدمات على أفضل العملاء الذين قد لا يكونون في حاجة ماسة اليها (كما هو الحال حينما تلاحق برامج الارشاد الوظيفي أولئك العملاء الذين من الممكن أن يبدؤوا فرص عمل دون تدخل تلك البرامج) والاقتصاد في الموارد التي يمكن تحقيق أقصى كفاءة من خلالها وذلك بممارسات مثل تحويل سلطة اتخاذ القرار للآخرين وهلم جرا ، حيث تصعب كل ممارسة من تلك الممارسات بمثابة ميكانيزم بقاء فردي وتنظيمي .

لقد أشرنا من قبل الى تعريف ليسكي لموظفي الخدمات الجماهيرية (مستوى الشارع) بوصفهم أولئك الذين يتكون بالجمهور بصورة مباشرة أثناء قياسهم بأعمالهم والذين يتمتعون بخبرة في تلك الأعمال . وإن أردنا المقارنة فقد يكون مفيداً أن نتمعن في تعريف داووز (Downs, 1967) للبيروقراطي وذلك في دراسته المنونة « في داخل البيروقراطية » ، فهو يعرف

الدقة ، كما تتميز بأهداف غامضة وغير محددة . كما يتم أيضاً بالعوامل التي تسهم في خلق هوة بين العاملين والعملاء . ثم يستكشف أنطه نتائج تلك العناصر وآثارها ، فالحصلة سلبية بالنسبة للعملاء ، وأشكالية فيما يتصل بالرقابة التنظيمية ، أما بالنسبة لرضا العاملين عن العمل فهو محدود في أحسن الأحوال .

وسلحبه ليسكي الى أن موظفي الخدمات الجماهيرية - في تلك الظروف يقتصدون الوقت والتدريب والمعلومات التي تمكنهم من الوفاء بوزخم الاحتياجات والمطالب المنوط بهم لتحقيقها ، وإذا أضفنا الى ذلك غموض أهداف التنظيم وتضاربها بما تمكسه من خلاف سياسي ، فإن قياس أداء العاملين ونتائج الخدمات تصبح مسألة نادرة ، أما العملاء فلا حول لهم ولا قوة في التحكم في الموقف ، ومن ثم تقل المنافع التي سيحصلون عليها وتكثر الجزاءات التي يقعون تحت طائلتها .

ويسمى ليسكي الى اختيار نظريته عن التحكم في ظروف العمل ، وهو يوضح في اختياره أن موظفي الخدمات الجماهيرية يعملون في ظروف تنطوي على درجة عالية نسبياً من عدم اليقين وذلك بسبب تعدد موضوع عملهم وهو التعامل مع الناس ، والسرعة التي تتطلبها عملية اتخاذ القرارات ، وكثرة تلك القرارات ذاتها .

وينطوي اختبار هذه النظرية على تحديد ما اذا كانت النتائج السلوكية المشتركة تحدث عبر مهن جماهيرية مختلفة ومتباينة ، هم العاملون فيها بظروف عمل متشابهة .

لتدقيقها ومراجعتها اذا ما قورنت بمعظم الأعمال التنظيمية الأخرى ، وكون هذه الأعمال تجري في إطار معايير للعمل (مثل ثقة العميل) مما يقلل من الدقة في التقسيم الى حد كبير .

وينطبق حل موظفي الخدمات العامة ، السمة أو الخاصية الأخيرة التي طرحها « داويز » أيضاً ، والتي يلعب منها الى استجابة قياس انتاجية الموظف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ يذهب « ليسكي » الى أن هؤلاء الموظفين يضعون معايير يقيمون أداء العاملين وفقاً لها ، فعلى رجال الشرطة أن يقبضوا على عدد معين من المفلولين شهرياً ، وعلى الاخصائيين الاجتماعيين أن يدرسوا عدداً معيناً من الحالات لكن كفاءة تلك المعايير فيما يتصل بالسلامة العامة أو قدرة العميل عند الاخصائيين الاجتماعيين على التغلب على المشكلات تظل متطورة على إشكاليات مثيرة للجدل .

ويكشف ليسكي ، وبجانبه من التوضيح « عن التعقيد السلي » يكتنف تفسير مثل تلك المقاييس الأدائية والانتاجية حين يثير تساؤلات حول ما اذا كانت زيادة معدلات المقبوض عليهم تعني أداء جيداً للشرطة فيما يتصل بمجال القبض على المفلولين أم أن ذلك هو العكس بمعنى أن ذلك يشير أيضاً الى تزايد معدلات الجريمة ومن ثم تزايد أعداد المطلوب القبض عليهم .

ويحلل ليسكي أيضاً ، التطبيقات الراهنة للمقاييس الإدارية التي صممت لتأمين وتوفير وضمان المساهلة والمحاسبة بين بيروقراطي الخدمات العامة ، لكنه ينتهي الى استجابة تلك المحاسبة والمساهلة البيروقراطية بين

البيروقراطي بوصفه شخصاً يتسم عمله بأربع سمات أساسية على النحو التالي :

١ - أنه يعمل في تنظيم كبير .

٢ - وهو متفرغ لعمله في هذا التنظيم ويحصل من عمله هذا على النصيب الأعظم من الدخل .

٣ - تنبني السياسة التي يتبناها التنظيم لزام العاملين بها على معيار الانجاز أو الاداء الوظيفي .

٤ - ان تقييم انتاجية أي فرد من العاملين لا يمكن أن يتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة وعلى أساس سوقية وتجارية من خلال العمليات التبادلية الاختيارية ، دون أن يجري تقييم أداء التنظيم وفقاً للأسس ذاتها .

وبينما بقي بيروقراطي الخدمات الجماهيرية كما يعرفهم ليسكي بمتطلبات الممارسين الأولين اللذين حددهما « داويز » ، فإن نقطة أساسية من نقاط أطروحة ليسكي تظل متمثلة في أنه من الصعوبة بمكان إجراء تقييم وأداء هذا المستوى من العاملين ، وهو يسوق أسباب هذه الصعوبة على النحو التالي :

١ - غموض الأهداف ، وذلك مثل توفير السلامة العامة أو تأهيل المواطنين تأهيلاً جيداً .

٢ - ثمة متغيرات عديدة في السلوك الانساني ، وثمة استحالة لتعيين ما يمكن أن يحدث للعامل في حالة غياب التدخل والاعتراض ، وميل موظفي الخدمات العامة الى أداء أعمال يصعب

والاختلافات الملموسة في مجالات الخدمات المختلفة .
انه يؤلف تأليفاً ذكياً بين نظرية التنظيم وعلم النفس
الاجتماعي والمنظور السياسي الراديكالي في كل مترابط
ومتماصك .

وهو لا يقدم أبعاداً عن قصور أعمال موظفي
الخدمات العامة ، ولا يبحث على مساندتهم بل يضع
مشكلة بيروقراطي الخدمات العامة في موقعها من بنية
عملهم في محاولة للكشف عن الظروف التي يمكن أن
تطور القطاع العام الذي يهدف الى الخدمات العامة
بحيث يستطيع أن يقدم خدمات أفضل لعملائه حلالة
على احترامهم وتقدير ظروفهم من ناحية ، والتعرف على
الظروف التي يمكن في ظلها توفير عناصر من العاملين
أكثر كفاءة وقدرة على تقديم الخدمات بصورة فعالة .

ورغم ذلك يخفق « ليسكي » في سد الفجوة بين
التشخيص الذي يطرحه للمشكلة والعلاج الذي
يقترحه لها ، إذ يبدو أن الفلسفة السياسية التي يتبناها
وينطلق منها هي ذلك النوع الذي ينشد تغييرات
اجتماعية واسعة وشاملة حتى يمكن التغلب على
المشكلات الهائلة التي تجري مجالات الخدمات العامة
بوضعها الراهن . إن تشخيصه بسيطاً وفي هذا الضوء -
لا يوصي بعلاج جذري على المدى القريب مع احترافه
بالمجازفات والمخاطرات الفكرية التي تطوي عليها
محاولة صياغة طرق ونماذج جديدة لرؤية تلك
المشكلة .

إن أبرز ما يميز دراسة ليسكي يكمن في تطلعه الى
الربط بين ضريين منفصلين من التراث الفكري

للمستويات الأولى من العاملين الذين يتمتعون بدرجة
عالية من حرية التصرف فيما يتصل بالواجبات النوعية
(أي التي لا يمكن قياسها كمياً) من أعمالهم .

ونناقش « ليسكي » .. كذلك الأزمة المالية
واتمكائها على بيروقراطي الخدمات العامة ، ويخلص
من هذه المناقشة الى تحليل الامكانيات والوسائل الكفيلة
بزيادة فاعلية الخدمات الحيوية التي يقوم بها العاملون في
هذا المستوى « أي مستوى الشارع والجامعي » .

ورثة نتيجة هامة ترتب على تكيف العاملين في مجال
الخدمات مع المواقف المتناقضة والمتصارعة التي يجدون
أنفسهم فيها ، تتمثل في تحول ما يقومون به بالفعل في
اتصالهم بمعملائهم واحتكاكهم بهم ، الى سياسة
تفيلية . إن ذلك هو ما يجري في مكاتب الرعاية العامة
وفي الفصول الدراسية ، وفي الخدمات الجماهيرية
الأخرى . ويذهب ليسكي الى أن تلك السياسة المتفيلة
فعلاً ، تعكس أشكال عدم المساواة ، وغياب العدالة
والتعصب القائمة في هذا المجتمع . وبخاصة ما يتعلق
بالفقراء والأقليات .

ليس ثمة شك في أن تحليل بيروقراطية الخدمات العامة
يساعدنا في الكشف عن الملامح الشائعة والمشاركة
للتعامل مع الناس ، كما أن من شأنه أن يكشف أيضاً
عن السمات الفريدة والخاصة ، في الأوساط المهنية
المختلفة التي تظهر فيها تلك السمات والملامح .

إن المنهج المقارن - في أساسه - الذي يهجه ليسكي
خلق بأن يثير تساؤلات علمية هامة تدور حول الفروق

المؤسسات التعليمية للبهوض يمثل تلك الأعمال المرتبطة بالخدمات العامة والاتصال اليومي المباشر بالجماعه بما يكتنفها من ظروف معينة .

- وفي اختتام أرى أنه عمل ممتاز في مجال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والإدارة وعلم الاجتماع المهني ، وأرى أيضاً أنه لن نعطي الكتاب حقه ما لم يقرأ بتفاصيل فصوله الستة من قبل المتخصصين ، وهو عمل جدير بالقراءة .

والعلمي ، ألا وهما السياسة العامة وعلم الاجتماع المهني والتنظيمات ، كما تتميز هذه الدراسة أيضاً باحتوائها على تفاصيل مشوقة حول المشكلة التي يتصدى لها ، ومع ذلك فقد أخفقت الدراسة في طرح المشكلات والقضايا وتناولها من وجهة نظر العاملين أنفسهم كتفسيرهم للعمل وما يعنيه بالنسبة لهم على سبيل المثال . أما ما نفتقر إليه تلك الدراسة فهو بعض الاقتراحات حول التأهيل التعليمي للطلبة في



References

- Blau, P. M. (1956). **Bureaucracy in Modern Society**. New York.
- Downs, A. (1967). **Inside Bureaucracy**. Boston : Little Brown.
- Eisenstadt. S. N. (1969). Bureaucracy, bureaucratization, and debureaucratization. In A. Etzioni, **Sociological reader on complex organizations**. New York : Holt, Rinehart and Winston.
- Lipsky, M. (1980). **Street/ Level bureaucracy**. New York : Russell Sage Foundation.

العدد التالي من المجلة
العدد الرابع - المجلد العشرون
يناير - فبراير - مارس
قسم خاص عن
العلوم الطبيعية والانسانية والاجتماعية

ترحب المجلة بإسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

(أ) العلوم الطبيعية والإنسانية والإجتماعية

(ب) الطاقة النووية

(ج) الإعلام المعاصر

(د) الفكر العربي المعاصر

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو تجماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثرى ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبيا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حرجا معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الإدارة

| | | | |
|-----------|---------|----------|---------------|
| ٥ ليرات | سوريا | ٧ دراهم | وللة الإمارات |
| ٤٠ قرشا | الكويت | ٦ ريال | عمانية |
| ٢٠٠ مائتا | السودان | ٤ ريال | عربي |
| ٥٠ قرشا | ليبيا | ٥٠٠ فلس | بحرين |
| ٥٠٠ بية | مسقط | ٥٠٠ ريال | يمن الشمالية |
| ٦ دنانير | الجزائر | ٤٠٠ فلس | يمن الجنوبية |
| ٦٠٠ مائتا | تونس | ٤٠٠ فلس | مراكش |
| ٧ دراهم | المغرب | ٥٠ ليرة | جانب |
| | | ٣٠٠ فلسا | اردن |

بشراكات:

بلاد العربية ٥ دنانير

بلاد الاجنبية ٦ دنانير

في قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
ع بئلك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

إدارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

الشمس

٤٠٠ فلس

مطبوعة حكومة الكويت

٤

عالم الفكر

المجلد العشرون - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠ م

العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية

- دور المؤسسات العلمية في
- العلوم الطبيعية والإنسانية.
- العلم والقيم الأخلاقية.
- إنهيكار اليقين.



مجلة عالم الفكر قواعد النشر بالمجلة

(١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزوده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام - الكويت - ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: **حميد يوسف الرومي**
مستشار إداري: **دكتور نورية صالح الرومي**

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص. ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية

- ٥ الدكتور عبد الملك الديهي العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية
١٣ الدكتور أحمد سميحان العلوم الطبيعية والإنسانية ودور المؤسسات العلمية
٤٧ الدكتور هيفاء القحمر تعلم القيم الأخلاقية
٦١ الدكتور عبد عيسى انهار البين
٧٧ الدكتور سواتي حيد محمد لمحات تاريخية من الفكر التربوي في ملحة ابن خلدون

...

شخصيات وآراء

- ٩٥ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام الفلسفة المثالية عند زكي نجيب محمود

...

مطالعات

- ١٥١ الدكتور فهد الصديقي رؤية نقدية في كتاب البغلاء للجاحظ

...

من الشرق والغرب

- ١٨٥ الدكتور صباح أحمد الصمد الرواية الفرنسية المعاصرة

...

صدر حديثاً

- ١٢٣ عرض ونظير الدكتور أبو المجد سرك أرواح العالم عام ١٩٨٧م
تأليف : الدكتور محمد عبد الجباري بناء العقل العربي
٢٣٩ عرض ونظير : الدكتور محمود اللواتي عرض ونظير : الدكتور محمود اللواتي

مجلس الإدارة

- **حميد يوسف الرومي** (رئيساً)
• **د. نورية صالح الرومي**
• **د. رشاد محمد الصباح**
• **د. عبد المالك التميمي**
• **د. علي المشوطة**

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.

المحرر الضيف لمحور العدد
الأستاذ الدكتور عبدالمالك التميمي

المحرر الضيف لعدد (العلوم الطبيعية
والإنسانية والاجتماعية) هو الأستاذ الدكتور عبدالمالك
التميمي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في قسم
التاريخ بجامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ فيها .
له عدة كتب وأبحاث وشارك في عدة مؤتمرات عربية
ودولية .

التمهيد

تعريف :

في البداية لا بد من تعريف عام لمفهوم العلم ثم العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية حتى تتمكن من بناء الموضوعات الأخرى ونحدد مسارها . هناك عدة تعريفات أطلقت على العلم بيد أنها لم تستقر على تعريف واحد ، وأهم تعريف يمكننا الاعتماد عليه والمقتضى أن يكون جامعاً مانعاً هو : إن العلم هو مجموعة المعارف والحقائق والخبرات الإنسانية ، وتشمل العلوم كلها الطبيعية والإنسانية والاجتماعية . فالعلوم الطبيعية تعنى أساساً بالمادة وتتناول العلم الطبيعي المحيط بنا بشكل عام .^(١) وتنقسم الى قسمين علوم أساسية وعلوم تطبيقية ، فالعلوم الأساسية هي جميع العلوم الطبيعية ما عدا الهندسة ، والعلوم التطبيقية هي الهندسة بتطبيقاتها المختلفة^(٢) .

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهي معنية بالإنسان والتأثيرات البيئية والاجتماعية المؤثرة عليه ، وتستعين بالفكر والحقائق ، ولها مناهجها الخاصة بها .

فإذا كان تعريف العلم بمفهومه الواسع يشمل العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فإن الحياة لا تستقيم على أحدهما ذلك يعني أنها معا جناحا الحياة ومرتبطان ببعضهما ارتباطاً عضوياً .

الهدف :

يهدف هذا التمهيد والدراسات المطروحة في هذا العدد من المجلة إلى إيجاد خطاب مشترك ، أو أرمية

العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية

عبدالمالك التميمي

قسم التاريخ - جامعة الكويت

(١) أحمد سالم سميان ، مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، نوفمبر ١٩٨٨ ، ص ١٢ ، ١٥ .

(٢) د . جاسم الحسن ود . أسامة الحارثي ، ندوة العلوم الطبيعية والإنسانية ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، ربيع ١٩٨٩ ، جامعة الكويت ، ص ١٥٢ .

مشتركة يقف عليها أصحاب العلوم الطبيعية وأصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية تنهي النزاع المفتعل بين العلمين لخير الإنسان وتطوره الحضاري في الحياة .

إن تحقيق هذا الهدف أصبح مطلباً ملحاً في وقتنا الحاضر لأن الإنجازات الهائلة التي تحققتها التطبيقات التكنولوجية المعاصرة قد خلقت جواً من الخوف على مصير البشرية من جهة وربما أوجدت انطباعاً واعتقاداً بانتهاء دور العلوم الإنسانية والاجتماعية من جهة أخرى . الأخطر هو جموع بعض جوانب الإنجازات التكنولوجية التي تجعل التفكير جنباً بأهمية الدور الذي يجب أن تلعبه العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وأن الوقت قد حان لردم الهوة بين هذه العلوم ، وما هذه الدراسات إلا معالجات جادة لقضاياهم العلاقة بين نوعي العلوم ، والبحث في طبيعتها وفي تفاعلها لخير الإنسان والبناء على الأرض .

الجهد التاريخي :

إن كثافة المعلومات وتطور البحث العلمي قد أوجدا تباعداً بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية إلى حد الانفصال بينهما ، وهذه الظاهرة حديثة . لقد كان الفيلسوف والعالم والأديب يكاد يكون شخصاً واحداً^(٣) ، وفي تاريخنا العربي الإسلامي شواهد عديدة على ذلك ، أما ما يحدث في ميادين وفروع العلوم المختلفة من ظواهر التجزئة والتخصص اللقيح فإنها رغم إيجابياتها - لأنه من الصعب على العقل البشري أن يلم بكل هذه المعارف والمعلومات والتخصصات - قد تؤدي إلى نتائج سلبية على المعرفة العلمية من جهة وعلى الإنسان وحياته من جهة أخرى .

إن هذا التطور المائل في العلم والتطبيقات التكنولوجية قد حدث في فترة زمنية وجيزة ، وإننا نسمع ونرى إنجازات تحدث كل يوم لم تكن لتحقق في قرون سابقة .

ففي العشرينيات من هذا القرن كانت صلبتنا نحن العرب بالتكنولوجيا ضئيلة : مصابيح كهربائية نسمع عنها ولا نراها ، وأجهزة هاتف في مكاتب حكام المحافظات ، وسيارات بطيئة الحركة ، وطاقرات تبث الخوف أكثر من الدهشة . وفي الثلاثينيات طغى الملباع على الحاكي ، وعمت المصابيح الكهربائية ، وأنشئت دور السينما ، ويكاد هذا يكون كل عهدنا بالتكنولوجيا في حينها .^(٤)

ودخلنا في الأربعينيات من هذا القرن في عصر تزايد فيه العلم والتقنيات حتى بلغ أضعاف ما بناه الإنسان على مر العصور ، وفيه انفصل العلم عن الفلسفة التي كانت بالأمر القريب تضم كل المعارف الإنسانية حتى لو ظهر شخص مثل برنارد راسل ليجمع بين الرياضيات والفلسفة في عصرنا . إن ما نعرفه عن علم العصر الحاضر يعمل جوانب لا أخلاقية بعيدة عن مبادئه فلسفية وإنسانية توجهه السياسة وهنا مكمن الخطر على الحضارة الإنسانية .

(٣) د . حسنة الحارثي ، ندوة العلوم الطبية والعلوم الإسلامية ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٤) أحمد سليم سيدان ، المصدر السابق ص ١٥٣ .

الآثار السلبية للتطور الصناعي :

إن اعتقاد عدد من الدول المتقدمة بأن تطوير صناعة السلاح مثلاً هو الذي يوفر الأمن وحماية مصالحها قد أفضى إلى تطوير خطير في أنواع معينة من الأسلحة تهدد مصير البشرية جمعاء بما فيها شعوب تلك الدول الصانعة لذلك السلاح .

ثم إن تطور التقانة في عصرنا بهذه الكيفية والكمية والسرعة له آثار جانبية خطيرة على صحة الإنسان ومستقبله على الأرض فقد أصبح تلوث البيئة وتطور الصناعة أحد المشكلات الأساسية التي تواجه الإنسان في عصرنا ففي الوقت الذي تتطور فيه الصناعة تبدل الجهود والأموال الكبيرة للحد من التلوث البيئي الذي أصبح مشكلة أساسية مستجدة في حياتنا ، ومصدراً لكثير من المتاعب والأمراض للبشر .

لقد شهد العالم المتقدم في النصف الثاني من القرن العشرين أمرين أفضيا إلى تغير جوهري في الحياة . الأول ، تفجر المعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية ، والثاني ، تفجر التكاثر السكاني^(٥) . لكن السؤال الهام هو : كيف تطور العالم المتقدم ؟ من دراسة التاريخ وتأمل تجاربه نجد أن الغرب قد تطور بسبب اعتماده على العلم والتفكير العلمي ، ولم نتطور نحن لأننا لم نفعل كما فعل ، بل لم نفعل كما فعل أسلافنا .

الروابط بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية :

يتميز كل من العلمين بالترابية المعرفية ، فهذا التطور الذي نراه اليوم سواء في العلوم الطبيعية أو في العلوم الإنسانية والاجتماعية ليس وليد اليوم ، وإنما هو نتاج جهد بشري إستمر مئات السنين .

ولمياً يتعلّق بالمنهج فمن الخطأ الاعتقاد بأن هناك منهجا واحدا في أي نوع من العلوم ، كما أنه ليس هناك علم بدون منهج ، المهم هو التفاعل والتقارب في المناهج المتبعة في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية أو بعض فروعها .

وتحصر العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية على عدم تأثر نتائج البحث العلمي بمواقف ومعتقدات الشخص الباحث ، ولكن لا تخلو المسألة على أي حال من موقف الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية .

إن الكثير من العلوم الطبيعية يعتمد على التجربة وتكرارها للحصول على النتيجة نفسها أو نتائج أخرى ، لكن ذلك غير ممكن في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فكل علم طبيعته وخصائصه ، وهذا لا يعني أن كلا منهما لا علاقة

(٥) أحد سليم سميدان ، المصدر نفسه ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٥) هناك أمور أخرى في غاية الأهمية بالإشارة إلى تغير المعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية وتغير التفكير السكاني ، مثل تطور البحث العلمي ، وتلوث البيئة وغيرها .

له بالأحرى لأن هدفها معا خدمة الانسان والحضارة الإنسانية ولأن العلم بفروعه المختلفة يسعى لمواجهة احتياجات الإنسان الأساسية والعمل على حل للمشكلات التي تواجهه سواء أكان العلم طبيعياً أم إنسانياً .^(٦)

ومها كان اعتقاد أصحاب العلوم الطبيعية أو بعضهم بأن العلوم الإنسانية والاجتماعية تقع في نطاق الأدب وهي ثقافة عامة وليست علوماً ، وأيضاً منها كان اعتقاد أصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية أو بعضهم بأن العلوم الطبيعية تتعامل مع المادة وليس مع الانسان ولم تصل الى ما وصلت لولا تطور العلوم الإنسانية فإن الحقيقة التي لا مفر منها هي وجود خطاب مشترك وأرضية مشتركة بين العلمين وبين المجتمع العلمي الطبيعي والمجتمع العلمي الإنساني والاجتماعي محوراً لمواجهة احتياجات الإنسان وحل مشكلاته .

إن التطبيقات العلمية يجب أن ترتبط بأوضاع المجتمع وهذا يتطلب تضامناً الجهد في هذا الميدان مع جهود العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وإذا سلمنا بأن ما يصنع من المعرفة العلمية ونائجها قضية مجتمعية إنسانية فكيف نستطيع الفصل بين التطبيقات التكنولوجية والعلوم الإنسانية ؟ إن العلم ليس كياناً مطلقاً دوافعه ذاتية بل يرتبط عضواً بأوضاع المجتمع ، ومنها كانت الرؤية الداخلية للإنجاز العلمي فإن الرؤية الخارجية تؤكد أن التكنولوجيات نتاج تطور البحث العلمي ، وأن البحث العلمي في جميع العلوم يرتبط باحتياجات المجتمع .

التكنولوجيا المعاصرة :

إن التكنولوجيا هي الأساليب والخبرات والمعارف والتطبيقات العلمية التي يحقق بها المجتمع على مر العصور احتياجاته وهي أقدم من العلم^(٧) .

لقد وضع التطور التكنولوجي المائل الذي جاء بعد الثورة الصناعية العالم أمام تطور جديد ، وخطر جديد ، فهناك تحول نوعي في علم الإلكترونيات الدقيقة ، وتطور هائل في أبحاث الفضاء وتطبيقاتها وأخطر من ذلك ما يجري في هندسة الجينات أو الهندسة الوراثية . فتقف أخطار الهندسة الوراثية على قدم المساواة مع فوائدها ، ويجري استخدام الأساليب الهندسية الوراثية في خلق أنواع مختلفة من البكتيريا لإنتاج المورمونات مثل الأنسولين البشري ، وهورمون النحوي لدى الإنسان ، والأنترونون البشري وكذلك البروتينات الفيروسية لاستخدامها في إنتاج اللقاحات فيها بعد^(٨) .

(٦) د . أسامة الحوي ، د . عبد الله العسر ، د . عبد الملك الصبي ، د . سليمان الشطي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٧) د . أسامة الحوي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٨) د . حزن ب . ديكسون ، ترجمة شامة الزمرعة بالونسكو ، العلم والتكنولوجيا والبحث في المجتمع الحديث ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أبريل ١٩٨٧ ، ص ٢٢٨ . انظر أيضاً : د . عبد الحسي صالح ، التقى العلمي ومستقبل الإنسان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ديسمبر ١٩٨٤ ، الطبعة الثالثة ص ٢٣٦ .

وهناك استخدامات أخرى لتأثير التطور التكنولوجي ، فهناك تحويل لمصانع المبيدات الحشرية إلى مصانع لإنتاج الغازات السامة ، وهناك فساد البيئة الذي يعد البشر ، فقد بدأ الحديث عن ثقب طبقة الأوزون في الفضاء ، وانتشار سرطان الجلد ، وتأثير ارتفاع درجة الحرارة على الأرض ، وصناعة الأسلحة وغيره مما يهدد البشرية بالفناء وهو أمر في غاية الخطورة . لكن المسئولية لا تقع على التكنولوجيا بل على استخدام نتائج التطور التكنولوجي ، كما يجب ألا ننسى الجوانب الإيجابية لتلك الاستخدامات في مواجهة الأمراض وفي تطوير نواحي الحياة المختلفة^(٩) .

إن العلم وتطبيقاته التكنولوجية هو العامل الأساسي والأول الذي أعطى العالم المعاصر ما يتميز به من تغييرات سريعة ، لكن التطبيقات العسكرية للعالم هي التي فاقت كل ما عداها إلى درجة جعلت عددا متزايدا من الناس يفكرون في الأمر من مختلف الاتجاهات يتساءلون هل سيكون للنوع البشري مستقبل على كوكب الأرض إذا استمر في استخدام قدراته العلمية دون التزام بضوابطه الأخلاقية وأصبح القلق يتملك عددا كبيرا من العلماء والمفكرين^(١٠) .

هذه التكنولوجيا لها سمات وسرعة تطور لم تشهدها البشرية من قبل ولنقل قد بدأت منذ الحرب العالمية الثانية . وتنسجم هذه التكنولوجيا بالتام شديد بين العلم النظري والعلم التطبيقي ، وهذا التوجه سيؤدي إلى مزيد من التنمية لأن اليون شامس بيننا وبين الدول المتقدمة في هذا المجال .

صحيح أن العلم والتكنولوجيا يؤديان إلى إنتاج ثروات إنسانية وتعزيزها كأحد إنجازاتها لكن ذلك الجانب الإيجابي لا يلغي مخاوف المفكرين والعلماء من الشطط في استخدام نتائج التطور العلمي والتكنولوجي . يقول الدكتور عبد الله العمر في هذا الصدد : « إن المسار الخطيء الذي يسير فيه العلم ناجم عن افتقار كثير من السياسيين والعلماء للابعد الأخلاقي والإنساني ، فالمسألة اليوم لم تعد مسألة إنجازات علمية أو تطورات تكنولوجية نستطيع أن نحققها في هذا الميدان أو ذاك من ميادين الحياة ، وإنما المسألة اليوم ترجع في الأساس إلى النتائج والعواقب الوخيمة التي يمكن أن ترتب على استخداماتنا للعلم وتطبيقاتنا للتكنولوجيا »^(١١) .

إن القلق يسود عامة المفكرين والمتفنيين حول نتائج هذه الثورة التكنولوجية المعاصرة ، فهل هي في صالح الإنسان أم ستكون سببا في فثاته وتدمير حضارته ؟ ، لقد كانت الشعوب في الماضي تشعر بالسعادة عندما يكشف علماءها إنجازا علميا أو يبدعون في مجال من مجالات حياتها ، وكان ذلك يحدث بين فترة زمنية وأخرى قد تمتد عشرات السنين ،

(٩) د . أسامة الحزلي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، للصدر السابق ، ص ١٧٤

(١٠) توماس ألوين هابشر ، ترجمة سعد زهران ، العلم كجزء من الثقافة الأفريقية ، مجلة الثقافة العالمية ، العدد ٢٤٦ ، السنة ١٩٨٩ ، ص ٧-٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

(١١) د . عبد الله العمر ، لؤس في مهب الريح ، جريدة القبس ، الكويت ١٥ / ٦ / ١٩٨٩ م العدد ٦١٤٢ .

انظر أيضا : مجموعة من الباحثين ، استشرابية تطور العلوم والثقافة في الوطن العربي - إصدار مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، أغسطس ١٩٨٩ م ، ص ٤٦ .

لكننا اليوم نجد أنفسنا غير قادرين على استيعاب ومواكبة هذا الكم والنوع الهائل من نتاج التطور العلمي والتطبيقات التكنولوجية ، ويزداد خوفنا وقلقنا مع كل اكتشاف واختراع لأن الجوانب السلبية توازي الجوانب الإيجابية في استخدام منتجات الثورة التكنولوجية التي نعيشها ، هذا الوضع يفرض أن يكون هناك دور فعال للعلوم الانسانية والاجتماعية في التفاعل مع العلوم الطبيعية من جهة وفي التوعية لتجنب سلبيات التطبيقات التكنولوجية من جهة أخرى .

التطور العلمي والقرار السياسي :

يلعب القرار السياسي دورا مهما في التطور العلمي لأن أي مجال من مجالات التنمية لا يمكن أن يشهد تغييرا أساسيا إلا بقرار سياسي لكن القرار السياسي وحده لا يحقق حلم المجتمعات في النهضة لأن شروطا أخرى يجب توفرها إلى جانبه مثل الإمكانيات المتاحة والظروف الموضوعية .

لقد حرصت الدول المتقدمة أو حرصت الدول الغربية - حتى تحقق تقدمها - على إقامة المؤسسات العلمية بقرار سياسي لأنها أدركت بوعي النتائج الإيجابية لمثل تلك المؤسسات في المستقبل . والطريق الصحيح في هذه المسألة هو اختيار النذج العلمي والتخطيط من قبل السلطة السياسية وحماية ذلك الاختيار ، وتتوقف حماية هذا القرار على أصحاب العلوم الانسانية فهمتهم التمهيدي له والدعوة له وتنمية وعي الناس بأهميته ، ومن ثم الدفاع عنه .

إن وجود المؤسسات العلمية المنتجة أساس لحماية القرار السياسي في مسألة التطور العلمي ، وإن تأسس القيم وإيجاد الفكر الفلسفي والسياسي والجمالي عنصر هام للدفاع عن المؤسسات العلمية وتأكيد وجودها ويرى البعض بأن وجود الديمقراطية شرط أساسي في التطور العلمي ، فهي تشكل ضمانة أكيدة لتوجيه التطور العلمي لخدمة المجتمع ولكنها ليست شرطا حاسما في التقدم العلمي^(١٢) .

كيف لا يساهم القرار السياسي في مسألة التطور العلمي ، ومسؤولية أصحاب القرار أساسية في وضع الاستراتيجية لتطور المجتمع ومن ضمنها التطور العلمي ؟ إن حركة المجتمع لا يجب أن تتوقف لتحقيق ذلك الهدف اذا لم يكن للقرار السياسي دور في مرحلة من مراحل التاريخ . وهنا لا بد لقوى المجتمع التي تشد التقدم من أن تلعب دورا يساعد على خلق القرار السياسي الذي يخدم عملية التطور العلمي . ويتطلب توجه القرار السياسي لصالح هذا التطور الى جانب ذلك كله وعي وإدراك صاحب القرار بأهمية العلم والثقافة في حياة المجتمع .

الخاتمة :

هناك علماء نظريون يستكشفون ويتقصون ، فيكتشفون وينظرون ويسهمون في إثراء الفكر العالمي ، وهناك

(١٢) ندوة العلوم الطبيعية والعلم الانسانية ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

علماء تطبيقيون يبتكرون ويبدعون ، أو يحسنون ويطورون ، وإلى جانب هؤلاء فلاسفة وكتاب يلمون بالعلوم والاتجاهات الفكرية القائمة إلماما يميزون به عن ذوي التخصص المحدود ، وكلهم أصحاب رسالة^(١٣) .

لا يمكن لأي مجتمع يطمح الى النهوض أن يستغني عن الذين يرصدون الحركات العلمية والتكنولوجية ، ويساهمون فيها ، ولا عن المفكرين والمصلحين الاجتماعيين الذين يضعون أيديهم على مواطن الضعف في المجتمع يجللون وينتقدون ويستنتجون ويقترحون ، وشعراء وفنانيّن يتحدثون عن الجمال واللغة ويمدون الناس بروائع نتاجهم وإبداعهم ، و مترجمين يقدمون لنا روايات الفكر العالمي . إن النهضة هي حصيلة عمل كل هؤلاء وأولئك البسطاء والناس العاديين كذلك الذين ليسوا من المفكرين ولا من العلماء ولكنهم يساهمون في صنع تاريخ البشرية ، ولهم دورهم الهام ولولاهم لما استطاع العلماء المفكرون التوصل إلى ما توصلوا إليه من إنجازات علمية .

والحقيقة أننا بحاجة الى ثقافة علمية واسعة تعطينا من المنهجية ما يتيح لنا فرصة اللحاق بركب الحضارة المعاصرة فهذا يقتضي التخلي عن تقسيم الصفوف في المدارس إلى علمية وأدبية وإلى إشاعة مبادئ العلوم الحديثة موضوعا اجباريا على مراحل الثقافة العامة^(١٤) .

سيستمد مستقبل التطور العلمي على مدى تطور البحث العلمي وعمل الإنجازات العلمية في الحاضر ، لكن ذلك لا يعني ان ذلك التطور لا يحتمل المفاجآت والمستجدات التي قد تشكل إضافة حقيقية إلى الإنجازات العلمية والتكنولوجية في الماضي والحاضر . المهم ، ونحن نفكر بالمستقبل ، أن نخطط للاستفادة من تطور التكنولوجيا من جهة وأن نعطي اهتماما خاصا للإنسان . ثم حتى تكون نتائج وآثار التطور العلمي والتكنولوجي إيجابية ينبغي مد الجسور بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ودمج الفجوة بينها .

ونستخلص من مناقشتنا لهذا الموضوع ومن الدراسات المنشورة في هذا العدد من المجلة حول العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية النتائج التالية :

- إن العلم شامل للعلوم المختلفة سواء أكانت طبيعية أم إنسانية واجتماعية .

وإن ظاهرة التباين بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية جاءت بفعل كثافة المعلومات والتعقيد في التخصص ، وأن الازمة بينها مفتعلة لأن عملية التطور في المجتمع لا يمكن أن تستغني عن أي منها .

- إن سبب تخلفنا الأساسي يرجع إلى عدم الاعتماد على العلم والتفكير العلمي في حياتنا ، وتطور الآخرين لأنهم اعتمدوا على العلم والتفكير العلمي .

(١٣) أحمد سليم سحيدان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ .

- إن الروابط متينة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية وليست وليدة اليوم ، وإنما هي حصيلة التجربة التاريخية الإنسانية عبر قرون من الزمان ، ويجب ألا يحول تطور العلوم والثقافة دون تقارب هذه العلوم وتفاعلها .

- إن للتطبيقات التكنولوجية جوانب إيجابية وأخرى سلبية ، وإن مهمة العلوم الإنسانية هامة في خلق الوعي لدى الشعوب لتجنب سلبيات التطبيقات التكنولوجية .

- إن الآثار المدمرة لبعض تطبيقات التكنولوجيا ترجع إلى البعد الأخلاقي للمصاحب لها . وإن للقرار السياسي دوراً أساسياً في مسألة التطور العلمي كما أن المؤسسات العلمية تعتمد على القرار السياسي في دعمها وتعزيز مكانتها ، لكن الوعي المجتمعي مهم في ترشيد القرار السياسي وتوجيهه لصالح التطور العلمي .

هذه هي النتائج بصورة عامة التي يمكن استخلاصها من دراسة هذا الموضوع ، ومن الدراسات التي احتواها هذا العدد من مجلة عالم الفكر .



١- توطئة :

إن عبارة (العلوم الطبيعية) إنما هي ترجمة للعبارة الإنجليزية (Natural Sciences) أو (Sciences of Nature) ، ومعنى بها العلوم التي تختص بدراسة الطبيعة التي تحيط بالإنسان من أحياء ومعادن وكل ما يتعلق بالأرض والبلو والأجرام السماوية . وهذه تشمل ما يسمى العلوم الأساسية من رياضيات وفيزياء وكيمياء وعلوم أحياء (حيوانات ونباتات ، الدقيق منها والظاهرة للعيان) ، وتشمل أيضاً البيولوجيا وعلوم الفلك والأرصاد الجوية . وذلك ما تعني به الكليات العلمية اليوم ، أهمي كليات العلوم والهندسة والطب والصيدلة والزراعة ، وما يتفرع عنها ويرتبط بها من تكنولوجيا صناعية وزراعية ، وأدوات سلم وحرب .

إنما باختصار ما يعنيه المصطلح الإنكليزي (Science) ، وهذا لا يطابق تمام المطابقة لفظة (علم) العربية ، فهذه كلمة عامة تعني كل ما يعلمه الإنسان أو يعرفه ، فالعلم في العربية يرادف المعرفة ، ويشمل فيها يشمل (العلوم الإنسانية) والشرعية ، ولكن (العلم) الذي نعنيه في السطور التالية هو ما نعنيه كلمة (Science) .

وعبارة (العلوم الإنسانية) هي ترجمة لكلمة (Humanities) أي (الإنسانية) ، وهي ما تركز على دراسته كليات الآداب والفنون ، ويشمل عدا اللغات وآدابها : التاريخ ، وهو على الغالب ، التاريخ السياسي ، والاقتصاد ، والفلسفة والحقوق ، وينضم إليها كليات التجارة والشرعية واللاهوت .

والرياضيات ، وهي من العلوم الأساسية إنما هي فرع من فروع الكليات العلمية ، ولكن في الجامعات التي ليس فيها كليات علوم نجد الرياضيات تدرس ضمن الإنسانية .

العلوم الطبيعية والإنسانية ودور مؤسسات إعلامية في التفاعل بينها

أحمد سعيدان

عمان - الأردن

وترجمة (Humanities) بعبارة « العلوم الإنسانية » إنما هي دليل على أن لفظة « علم » العربية لا تطابق لفظة Science التي تختص بعلوم الطبيعة ، بمعزل عن الإنسانيات .

ولكن لماذا سميت الدراسات التي تختص بها كليات الآداب بالإنسانيات ؟ إذا كانت هذه التسمية تعني ما هو من صنع الإنسان وحده أو اهتمامه - بمعزل عن الحيوان - فإن العلوم الطبيعية إنما هي إنسانية أكثر من الإنسانيات ، فإذا كان الحيوان ليس له دين ولا آداب ولا لغة متقدمة ، وليس له أيضاً علم ، وإذا كانت « الإنسانيات » تعني استعراض طبائع الإنسان وسلوكه وشؤونه وآماله وآلامه ، وإبداعاته الجمالية - بمعزل عن الحيوان - فمجال الاعتراض هنا أضحى ، ذلك أن العلوم الطبيعية تعني عرض مقدرة الإنسان - بمعزل عن الحيوان - على دراسة الطبيعة واستكناه ظواهرها وقوانينها ، ومخاليبتها .

في تقديرى أن كلمتي إنسانيات و Humanities مصطلحان غير موفقين ربما كان أفضل منهما عبارة « الآداب والفنون » العربية وكلمة « Arts » الانكليزية . ولعل غير بديل عن عبارة « العلوم الإنسانية » عبارة « الآداب والفنون » .

فالمسألة المطروحة على بساط البحث في هذه الصفحات هي : ما دور المؤسسات العلمية في إقامة تفاعل بين العلم من ناحية وبين الآداب والفنون من ناحية أخرى ؟

ولكن هل ثمة هذا التفاعل ؟ أما في العالم المتقدم فهو قائم ، وأما في العالم الثالث ، بل في العالم العربي بخاصة ، فثمة برزخ بين العلم والآداب لا يغبى . وغاية هذا البحث التخطيط لإزالة هذا البرزخ كيما يتم التفاعل المنشود ويؤتى ثماره المرجوة .

٢ - التفاعل القائم في العالم المتقدم :

ففي عن القول أن علوم اليوم هي صناعة غربية . صحيح أن جذورها عربية وهندية وإغريقية وبابلية وفروغونية . ولكن جذورها وفروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها كلها غربية . وهي متطورة آخذة في العلو والنماء ، ومفاتيح تطورها بيد الغرب ، وهي كلما ازدادت تطوراً زادت بدياً عن جذورها ، كشجرة تتركب على فروعها شتى أنواع التفاح ، فتؤتي ثمراً غير تفاحها الأصيل .

وعندما كان الغرب يتلقى علومه من الكتب العربية ، كانت لغة العلم فيه لاتينية ، وكان المتعلمون فيه هم القلة التي تتقن اللاتينية ، وأكثر هؤلاء ، بل كلهم ، رجال دين . ثم هوتبه إلى ضرورة إحياء لغاته البيئية ، وجعلها لغات علم ، وفي غضون ذلك كان إبداعه الفكري الذاتي قد بدأت بوأكيره ، فقامت نهضته الفكرية ، ثقافية كانت أم اجتماعية أم أدبية أم سياسية ، والعلم ركن هام من أركانها ، ولذا بنيت لغته المكتوبة بنية علمية ، ومضى تطورها مع تطور العلم .

ثم تنبه الغرب إلى الحاجة إلى وضع مصطلحات علمية خاصة مميزة عن لغة الأدب والحديث ، فاختار لهذه المصطلحات ألفاظاً لاتينية لينتأى بلغة العلم الدقيقة عن ألفاظ الطباق والجناس والكتابة والتشبيه وغيرها من المحسنات اللفظية التي تزخر بها لغات الأدب والحديث . ومع ذلك ظل العلم يتطور وظلت اللغات الغربية تتجارية في تطوره ، حتى صارت الآداب الغربية الحديثة مجبولة بالعلم ، وغدا العلم الركن الرئيسي من أركانها والملمح الأكبر في تنوع نتاجها ، شعراً كان أم قصة أم فنون رسم أم موسيقى . العلم في الغرب طابع الحياة اليومية ، يرصده الطفل مع حليب أمه ، ويتلقاه في البيت والشارع والملاعب والمدرسة ، بله المدرسة . في الغرب نجد رجال القلم والأدب والصحافة والسياسة والتاجر في متجره ، والصانع في مصنعه ، والفلاح في مزرعته ، وسائق التوكسي ، وربة البيت - نجد كلأ من هؤلاء له من ألعلم المعاصر نصيب ، يتلقاه في الكتب المبسطة ، والشرائح ، والصحف ، وفي الإذاعة والتلفزة بلغات خبراء عارفين يفهمون ما يقولون . أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية نجد الحديث عنها ، وهما ينتظر من أثرها ، على لسان الخاص والعام .

وليس هذا كله من أجل أن العلم نشأ مع اللغات الغربية وتطورت اللغات الغربية معه ، حتى صارت لغات علم ، بل يضاف إلى ذلك أن من قيم الحياة في العالم المتقدم أن المرء المتكف ينخي أن يكون ملماً بما يجري في حقول العلم من مستجدات نظرية وتطبيقية ، وأهم من ذلك أن العالم المتقدم يعيش عصر صراع هو حرب حياة وموت ، أداته النافلة ، صاحبة الغلبة المطلقة ، هي العلم .

من أجل ذلك صرنا منذ الأربعينات من هذا القرن نميش عصر تنجر علمي رهيب ، المخفي فيه أشد هولاً من الظاهر المرئي ، ولكن الحيون بقلعة والأخذهان مفتحة ، لا تلبث أن تكشف كل خفي وتحاربه بما هو أكثر خفاء . ليس العلم في الغرب من الكماليات ، وإنما هو كالماء والهواء والغذاء : ضرورة من ضرورات الحياة ، وركن من أركانها الهامة ، وسلاح من أسلحتها الماضية .

وبالرغم من أن العلم الغربي غامع اللغة حتى صار من قيم الحياة الغربية الهامة - أقول بالرغم من ذلك فإن الدول الغربية المتقدمة تعمل على إقامة تفاعل أقوى بين العلم والناس والعلم والأدب والعلم والإنسانيات : فعمل الصعيد الشعبي ما إن يتم إنجاز علمي هام ما قد يكون له أثر في حياة الناس ، مثل كشف طبي أو صناعي أو زراعي ، أو ما يحسن أن تعلم به الجماهير ، حتى تتبري وسائل الإعلام لنشره ، بأقلام خبراء علميين تربويين ، في الصحافة والإذاعة والتلفاز ، والندوات والجامعات المفتوحة ، حتى يصبح حديث الخاص والعام . ثم تصدر الكتب العلمية المبسطة تزيد البحث فيه تفصيلاً ، بطبعات شعبية رخيصة الثمن .

وفي هذه الأيام التي تضاعفت فيها كلفة الطباعة وأمان الكتب ، حتى الشعبية منها ، فإن المكتبات العامة المنتشرة في كل مدينة تقفني منه بضع نسخ ، وتتناضى عن قيام القراء بتصوير نسخ من المكتبات بالأست بيسرعزهد . فالغاية هي الفائلة وليست الريح .

حتى الكتب التعليمية قد تتغافل المكتبات العامة عن قيام الطلاب باستساغها بالأقست ، بل إن بعض الجامعات تنسخ الكتب التعليمية فصلاً فصلاً ، ويبيها للطلاب فصلاً متتابعة ، فإذا اكتملت فصول الكتاب لدى الطالب ، أمكنه إذا شاء أن يجلده كما يريد .

وإذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية ، وتبين أنه قد يفيد الجماهير أو الطلاب أو المتخصصين ، فإنه لا يلبث أن يترجم بطبعات ورخصة وطبعات متميزة ليختار منها القاريء ما يشاء .

وقد يكون النشر سلاحاً ذا حدين ، فتظهر النشرات العلمية المفيدة إلى جانب كتب الأهر وكتب الخلعة ، فالنشر في البلاد المتقدمة حر ، والقاريء هو الذي يقرر ما يفيد وما يضره . والمربون يعرفون أن بعض الكتب قد تضر ولا تنفع ، ولكن يفضلون أن يترك الخيار للقاريء على أن يقتصر الأمر على الكتب الموجهة ، كما تبقى الكتب ذات جاذبية خاصة لدى القاريء ، فلذلك خير من أن تجعل القراءة نصائح ملة مكررة ، أو أن يؤدي تحريم بعض الكتب أو حججها عن القراءة ، إلى قراءتها خلصة ، لأن كل ممنوع ممنوع .

وعلى الصعيد العلمي المتخصص نجد في كل قسم من أقسام الكلية العلمية غنير بحث يخص كل ركن من أركانه لقرع من فروع البحث في القسم ، ويشغل كل ركن أستاذ ، وفريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد أو التخصصات المتقاربة ، فيعملون بعد الفراغ من محاضرات اليوم في إيجاد حلول لمشكلات تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية القائمة في البلد أو القطر ، وتعتمد هذه المؤسسات لهم بمبالغ سخية من المال يتقاضون منها أجورهم ويشتررون بها ما يلزم من معدات ، ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال أو مساعدي بحث .

حتى إن عن لا يعملون في الجامعات من المتخصصين نفراً يعملون في أوقات فراغهم خبراء أو مستشارين لدى الفعاليات القائمة . تعرفت ذات مرة على رجل يحمل درجة الدكتوراه في هندسة السيارات : كان الرجل مفتشاً في وزارة التربية والتعليم في بلده ، مهمته أن يراقب المدارس الخاصة ، ليضمن أنها تشغل أصحاب الكفاءة من المعلمين ، وتؤدي لهم رواتب مجزية ، وأن هؤلاء المعلمين يتبعون مناهج ومستويات تتفق مع ما رسمته الوزارة . ويعمل الرجل إلى جانب ذلك خبيراً مستشاراً عند شركة تصنع سيارات من ماركة معينة : فكلما صدر عن الشركة موديل جديد قدمت إليه سيارة يقودها ستة أشهر يجوب بها القطر طولاً وعرضاً ، وقودها وإصلاحها على حساب الشركة ، وهو مطالب بأن يقدم للشركة في أواخر المدة تقريراً ينطوي على ملاحظاته واعتراضاته على الموديل الجديد ، وعلى اقتراحاته التي يراها لإصلاحه . فتضم الشركة ذلك إلى ما يأتيها من الزبائن المقيمين في البلد من اقتراحات أو اعتراضات ، وتدفع بها إلى مهندسين تغليبين ، فيعملون ما يمكن عمله في وقت قريب بسيارة صاحبنا ثم يعيدونها إليه ليستعملها بقية الحول إلى أن يصدر الموديل الجديد من السيارات .

ولكن ماذا عن المتخصصين الذين لم يحظوا بالحصول على اعتمادات من الشركات أو وظائف لديها ؟ إن المتخصصين بشر ، فمعهم من يغريه حب المال بالانغماس في أعمال إضافية كالطبيب الذي يعمل في عيادة خاصة بعد

الفراغ من عمله الرسمي ، أو المهتمس الذي ما إن يفرغ من محاضراته الجامعية حتى يذهب إلى مكتب هندسي خاص ، هؤلاء جميعاً قد ينجون أرباباً مجزية ، ولكنهم في آخر المطاف يلهون مع الريح ، يناسم الناس ، وقلها يذكرهم أحد .

ولكن من المتخصصين من يهون البحث والاستكشاف - فيعملون أفراداً وجماعات ، لا لطمع ولكن بنية تأدية رسالة ما . وقد يقضون العمر كله فلا ينجزون شيئاً سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة ، وقد يحصلون على اكتشاف أو اختراع يدر عليهم ما يرضيهم من سمعة ، وقد يدر عليهم أو لا يدر ، ما يرضيهم من مال . هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم مجد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية . ولكن على أيديهم أيضاً يتحقق صنع السلاح المدمر الذي يقضي في لحظة جنون على كل ماضيه الفكر الإنساني في قرون طويلة .

ما تقدم إما هو صورة موجزة للخلفية العلمية للحياة في العالم المتقدم . تلك هي الخلفية التي بني عليها العلم المعاصر المتفجر ، وعليها تبنى الآداب المعاصرة ، وما فيها من تنوع وإبداع يمثل بما تنتج المطابع الغربية من آداب وفنون ، وما تنتج دور السينما والتلفزة من روايات ومسرحيات ومسلسلات وأشرطة فيديو ، مما تراه ونستمع به ، ثم تنقلب إلى مسارحنا ومسلسلاتنا لتتري قصص الآثار والخيرة والعنف ، وما أبعد الفرق بين المستوى الحضاري المتقدم والمستوى الجاهلي المتأخر .

إن العلم الغربي يلهم الأدباء بقدر ما يلهم العلماء ، فينوعون إنجازهم ، ويزيدونه جاذبية ، مستدين إلى خلفية علمية صلبة . وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر مما يلهم المتخصصين ، فمن قبل أن يبتكر العلماء سفن الفضاء وينزلوا أرض القمر ، وضع الأدباء قصصاً تصف مثل هذه السفن وتتكلم عن إنسان القمر أو المريخ باعتبارهما محض خيال . إن خيال أدباء اليوم سيجعله علم الغد حقيقة ، ويبقى خيال الأدباء في العالم المتقدم يسبق إنجاز العلماء ويلهم المتفوقين منهم . العلم هو طابع الحياة الحضارية المعاصرة .

والمواطن في العالم المتقدم يمتز بحاضره الذي يمدّه بالثقة بالنفس ، ويدفعه إلى صدق الانتباه ، فيعمل على تحقيق أبعاد تصاف إلى ما حقق الماضون ويعقق المعاصرون . أما ماضيه فينظر إليه باعتباره صفحات مطوية في سجل حياته ، إن يكن فيها بدائية قائمة مسطور معتمة ، فتلك مراحل تجاوزها ، وبقي للماضي ، بخيره وشره ، تراثاً يحافظ عليه لأن فيه جلوره ومسببات حاضره وأبعاده . إن الفرق الحضاري بين ماضيه وحاضره يزيد ثقة بالنفس وأملًا بمستقبل أفضل وتطلعاً إلى تحقيق أبعاد تضيف اسمه إلى قائمة الخالدين .

ما أكبر الفرق بين فكر المواطن في العالم المتقدم ، وفكر نظيره في العالم الثالث : هذا يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقاً ، وهذا يحن إلى الماضي ويحرم بالحاضر ويشقى للمستقبل للجهول .

٣ - حول وضع العلم في العالم العربي :

أخشى إذا أنا أفضت في وصف الصورة المزيلة لمستوى العلم في العالم العربي ، أن أشعر بالإحباط تلك الفئة القليلة من العلماء العرب للمعاصرين ، الذين حققوا إنجازات عملية قيمة في مجال الابتكار أو الاكتشاف أو التطوير . ولكن مهما يكن عدد هؤلاء - وهم قد لا يزيدون على عشرة - فإن علماً عدد أبنائه مئة مليون نسمة ، لا يكون حاله مرضياً إن لم يكن منهم مليون عالم ، منهم ألف على الأقل يساهمون في صنع الحضارة الإنسانية ، على مستوى عالمي ، ويمدنون جسوراً في دنيا العرب بين العلم والإنسانيات .

إن تربتنا وأجواءنا الفكرية بحاجة إلى تطوير كبير كي تصبح صالحة لنمو العلم فيها وانتشاره .

لقد هممت بأن أقترح أن نقوم بتقليد ما يعمل في العالم المتقدم من نشر العلوم البسيطة ، وتيسير تناول الكتب ، لولا أنني تذكرت أن هذا إن يُقَدَّر في بلاد تطورت لغاتها مع تطور العلم ، وثبتت معه وثما معها متلازمين ، حتى صارت تربته الفكرية اليقظة مهية لقبول العلم وخلق العلماء وتشجيعهم ، فإن فائدته ستبقى محدودة لا تكفي في العالم العربي الذي قامت الحضارة المعاصرة ، وهو يفتقر في سببات عميقة . صحيح أن النهضة الغربية قامت أول الأمر بهدي من الفكر العربي الذي بناه أجدادنا العلماء في رحاب الحضارة الإسلامية التي نسبناها ونسبنا ، وأما نحن فلندما شرعنا نهض من سباتنا الفكري ، ألفينا أننا غريباء على العالم المعاصر ، من حيث الحضارة والفكر والأجواء الفكرية ، وأما العلم المعاصر فلا نحن سامتنا في صنعه ، ولا تربتنا الحاضرة تصلح له ، ولا لغتنا الموروثة تتسع لاستيعابه .

أكاد أتخيل قراء يصدمهم قولِي هذا وهم في جوفيتي بلغتنا الجميلة ويعتبر بما أنجز الأجداد ، من غير أن يتعمقوا بالدراسة حدود اللغة ولا حدود ما أنجز الأجداد . يكفي أن أذكر ، تقليلاً على ما أقول : حداثتين : أولاهما أن الغرب ما إن وجد المطبعة ذات الحروف المتحركة (سنة ١٤٩٢) ، حتى شرع يطبع بها الكتب ، وينشرها في الناس ، ومنها الكتب العربية التي كان يستعملها في تعلمه وتعليمه ، أما العالم العربي فقد ظل ينسخ باليد إلى أن دخلت المطبعة العربية إلى مصر ، هدية من نابليون في حملته على مصر ، في أواخر القرن الثامن عشر ، ودخلت إلى بيروت في الوقت نفسه على يد المبشرين الغربيين . لقد طبع الغرب الكتب العربية قبل العالم العربي بثلاثمائة سنة . أليس هذا من قبيل سبات أهل الكهف !

الحادثة الثانية عن طالب لي ، ليس وحيداً فيما أصابه وما عاتاه . ذهب للتخصص في أميركا في حفل علمي صناعي ، فالتفت وهو في مرحلة الدراسة أن له فكرة فاقراً على الابتكار بما حدا بالأمم مسات الصناعية المحلية أن تعهد إليه بحل مشاكل صغيرة تجاهها وبخاصة في حلوها جعل المشاكل تنزايد عدداً وتعقيداً ، والحلول تزداد جودة واستحساناً ، حتى إذا هو تخرج من الجامعة وجد المؤسسات تغريه بالعمل معها . ففرض هناك بعد التخرج ما يبرو على سنتين ، وكل الدلائل تشير إلى أنه ، عاجلاً أو آجلاً ، سيحقق إنجازاً يجلب له سمعة عالمية ، أو دخلاً يرضيه . ولكن حين التقى إلى وطنه وأهله جملة يتغالل عن هذا الأمل ويؤثر أن يجعل فكره وجهده في خدمة بلده ، وعاد التقى إلى بلده وأهله .

ويبحث عن عمل في مجال تخصصه ، فلم يجد سوى وظيفة ثانوية في مؤسسة يعمل فيها كل شيء ذي بال ، ولكن في ظل رئيس أجنبي أقل منه خبرة وتخصصاً . ولكن إليه يعزى كل ما ينتجته الفتي من عمل . وصبر الفتي إلى أن عيل صبره . فدفعه ميله إلى تحقيق الذات إلى سؤال الإدارة لماذا لا يعزى إليه فضل ما يصنعه بفكره ويديه ، فكان جواب الإدارة أنها تترك أنه أكثر من رئيسه خبرة وتخصصاً وعملاً ، ولكن رئيسه الأجنبي يأتي للدولة بدعمه أجنبي كبير . وأحبط بيد الفتي فاستقال من عمله ، وانصرف يعمل معلماً في غير تخصصه . وقضى سبع سنوات يعلم ويتلمس عملاً يفيد به بلده بقدراته وتخصصه ، ويرضي نفسه ، سنوات في أبحاثها تزوج ورزق بأولاد ، وصار مسؤولاً عن إعالتهم ، وكاد ينسى ما كان في أمريكا يؤمل ويؤمل له ، ثم هو لقي عملاً جامعياً في حفل تخصصه ففرح به ، وبارسه مؤملاً أن يكون لنفسه وعمل حسابيه ، في كنف الجامعة ، مختبراً صغيراً يستعيد فيه بحوثه ونشاطه الفكري . ولكن كان الفرحه بالعمل كان وقعه عليه أشد مما يحتمل ، فما لبث أن مات بالسكتة القلبية ، وهو بين أطفاله يتسابقون للركوب على كتفيه . لقد برز الفتي في غير تربيته ، ولا عاد إلى ميثته مات كما تموت في عالنا كل المواهب والقدرات .

إن عالنا ، بحاله المائل أماننا ، ليس تربة صالحة لنمو العلم ، ولاجروا صالحاً ليحيش فيه العلماء .

وما السبب ؟ قصة ذلك طويلة نجعلها فيما يلي :

ظهر الإسلام في غضون العصور الوسطى ، وانتهت العصور الإسلامية الزاهرة في أواخرها وأوائل العصور الحديثة . وكان العلم طوال العصور القديمة والوسطى في مرتبة ثانوية ، كأنه أاحة يائسة في قلب صحراء واسعة . في العصور القديمة أبتع العلم في مصر الفرعونية وبابل ، وزاد انتعاشاً وعمقاً في بلاد اليونان التي بنت حل ما تعلمت من الحضارات المصرية والبابلية صروحاً سامقة في الفلسفة والرياضيات والفلك ، وزادت عليها صروحاً في الطب والمنهج العلمي . لقد كان ما صنعه الإغريق بحق معجزة .

وفي أوائل العصور الوسطى انتقلت أاحة العلم إلى بلاد الهند . ثم جاء الاسلام ، ومنذ العصور الإسلامية الأولى أخلدت حيون المسلمين تفتتح على العلم ، ذلك أن القرآن الكريم جاء بآيات كثيرة تحض على التفكير والبحث والتدبر باعتبار أن ذلك استكشاف لقدرة الخالق وبداع نظامه في خلقه ، ومن ثم فهو عبادة .

وقد أخذ علماء المسلمين ما استطاعوا أن يأخذوه من علوم الإغريق والهند ، وعليه بنوا ما أنعموه من صروح علمية خطط بالرياضيات والفلك والطب والفلاحة والفلسفة والملاحة وعلم الاجتماع عتوبات واسعة أقادت منها أوروبا في بناء الحضارة العلمية الحديثة .

رغم هذا كله ظل العلم في العصور القديمة والوسطى في مرتبة ثانوية ، بالنسبة إلى الآداب والفنون وشؤون الحياة الأخرى ، وظل المتعلمون قلة ، والعلماء نادرة ، وكانت الكتب تنسخ باليد ، بالرغم من أن الطباعة عرفت في الصين قبل أن تبتكرها أوروبا ، وطبعت بها الكتب .

وكان الطابع الغالب في العصور الوسطى في الشرق والغرب دينياً ، وكان التفكير يقوم على منطق جدلي سماه العرب بحق علم الكلام ، وعلى صياغات لغوية أدبية قد تسفّ حتى تصل إلى حد ما سماه العرب جدلاً بيزنطياً إذ يختلف فيه المتجادلون كم عفريتا يستطيع أن يقف على رأس ديبوس ! ! كان رجال الدين هم المتعلمين ، وكان منهم المعلمون ؛ وكان تعليمهم تلقيناً يلبس مسح القداسة ويقبل بلا نقاش .

من مظاهر المعجزة الإغريقية أن الإغريق حاولوا أن يتأوا بالعلم عن مجال الدين ، فقاموا أسس المنهج العلمي الرصين ، القائم على الاستنتاج المنطقي الرياضي والموضوعية والأمانة العلمية .

وفي العصور الإسلامية الأولى ، أعل علماء المسلمين صرح بالمنهج العلمي بأن جعلوا الاختبار والملاحظة ركناً آخر من أركانه . وقد أدركوا أن العلم صنع إنساني متطور ، شأنه شأن تفسير الآيات الدينية ، فنادوا بالأ رأي لميت ، لأن الماضين ، مهما أبدعوا ، فهم رجال ونحن رجال ، وكل زمان له أحواله ودولته ورجاله ، ومن ثم ففسير الآيات القرآنية فتحو له باب الاجتهاد : قالوا إن نص الآيات منزل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما تفسيرها فينبغي . أن يتغير حسب تغير المفاهيم وأحوال المجتمع ، كيما يبقى الإسلام ملائمة أحكامه لكل زمان ومكان . ولذا أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد بهذه الأحكام حسب مفاهيم العصر ومقتضياته ، فإن لم يقم هذا المجتهد ، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاد بالتريية الحاذقة والرعاية الحكيمة .

أقول لو استلّ اللاحقون هذه التوصيات والآراء لتغير مسار التاريخ الاسلامي ، وزيا التاريخ العالمي بأسره ، ولكن مجرى الرياح يغير ما تشتهي السفن ، فقد حدث ما غير مواقف أهل الرأي في الإسلام من هذه الآراء والتوصيات . وكان من أوائل ما جرى تسييس الدين ، فقام الخوارج يشبه عمرد على العالم الاسلامي ، لأسباب ظاهرها اختلاف في الرأي ، وباطنها محاولة للاتفصال عن المجتمع الإسلامي ، وتمتدحت للمذاهب فقامت المذاهب السنية الأربعة وقام إلى جانبها المذهب الجعفري ومذهب الأوزاعي ، ومن قام بدعوة العودة الى الإسلام في صفاته ونقائه الإباضية ، واعتزل وأصل بن عطاء حلقة الحسن البصري بدعوة الحفاظ على حرية الرأي والاستقلال الفكري ، وبيع ابن عطاء جماعة تباينت جيلاً بعد جيل ، وسموا المعتزلة ، حتى صار كل من يبحث في فلسفة يعد معتزلاً ، وصار للمعتزلة يجاريون بدعوى مخالفة الدين ، وصار رجال الدين يتباهون بأن تنقيد الحريات الفردية يعد حفاظاً على الدين ، وأن البحث في العلم والفلسفة معرض للشهوات عسبة مخالفة الدين .

في خضم هذه الدعوات أعلن للمسلمون إقفال باب الاجتهاد ، خشية تعدد المذاهب ، وعمل بذلك أهل السنة في الشام ومصر ، فاحفظوا بالمذاهب الأربعة المعروفة ومذهب الأوزاعي ، ثم انطوى هذا للمذهب لأسباب سياسية ، وفي شرقي العالم الاسلامي ، وفي فارس وبخاصة ، والشرق الأقصى ، بقي الشيعة على المذهب الجعفري ، وزادوا بإبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً ، ولكن قلما قام مجتهد بهذه أحكام الدين حسب مقتضيات العصر ، ولذا أوائل المسلمين على هذا المذهب ، وأظههم ما زالوا ، يتنكرون للعلم والفلسفة باسم الدين ، وهم اليزم يقتلون ويتخطفون باسم الدين ، والذين من هذا وذاك براء .

لباسم الدين قيدت الحرية الفكرية في الإسلام ، وباسمه أعلن الفقهاء الحرب على العلماء وعمل المعلم الذي كان الإسلام أقوى دعوة إليه . وكما أحرقت الغلو بعض علماء أوروبا ، أحرقت في العالم الإسلامي كتب فلسفية وعلمية وصورب علماء ، وأعدم فقهاء أصحاب رأي ، يدعوهم لها الحفاظ على الدين ، وباطنها التنافس على موائد الحكم والولاة .

كان هذا أحد الأسباب الداخلية لانتقال القيادة الفكرية والسياسية من العالم الإسلامي إلى العالم الغربي . الرشدية التي حاربها الفقهاء وأحرقوا كتبها ، ظل الغرب ثلاثمائة سنة يتدارسها ، حتى أخرجته من وحدة الجهل والتعصب والتخلف ونير عاظم التنقيش ، إلى نور العلم والمعرفة وحرية الفكر والرأي . الغرب الذي كان للمسلمون يرونه متخلفاً جاء إلى العالم الإسلامي غازياً مستعمراً ، انصاع له العالم الإسلامي ، كما انصاع إلى الحكم التركي من قبل ، واستكان ينعم بسبكات عميق .

ولتختلف العالم الاسلامي أسباب داخلية أخرى لعل أبرزها أن المسلمين الذين وروا عن سابقيهم علماء خزيراً ، لم يروا فكرة الديمقراطية ولا نظام الحكم التماسك معها تباعدت الأطراف . الواقع المر الذي قد يصعب الجهر به أن مبدأ الشورى الديمقراطية لم يحسن تطبيقه المسلمون ، ولم يقيموا نظام حكم رصيناً يحفظ للدولة تماسكها ، وللمسلمين ولاهمهم . وإن يكن بعض الخلفاء والولاة قد أحسنوا الحكم والولاية ، فقد كان ذلك أمراً فردياً عابراً ، لا تقليداً متوارثاً . وفي غضون القرن التاسع عشر بدأ العالم العربي ينهض من سباته ، يغالب الاستعمار وهو متخلف فكرياً وعلمياً واجتماعياً . واقتصادياً ، بالقياس إلى العالم الغربي ، وكانت ولا تزال ماثلة في ذهنه ذكريات عصور ماجدة مضت ، وحاول أن يستعيد تلك الأجداد ، ولكن الاستعمار الغربي كان له بالمرصاد ، يستنفد طاقاته وإمكاناته وثرواته أرضه ، ويعوق انطلاقه . وبعد جهد وحروب دامية ، راح ضحيتها شهداء ، وانهارت قوى ، وتبددت آمال ، وضاعت أمصار ، استطاع أكثر العالم العربي أن يظفر باستقلاله . ولكنه كان منهك القوى ، يكتفي بالتعني بأجداد سابقة ، من غير أن يعمل حل تحقيق أجداد جديدة ، في عالم يتطور بسرعة خائفة ويتشجر فيه العلم تفجراً يسبق كل تصور ، وما هو العالم العربي اليوم يمن إلى الماضي ويتبرم بالحاضر ويتخشى المستقبل ، يعتمد على الغرب ، يستورد منه ما يحتاج إليه من مجلس وماكل وأدوات لم يوجد وسلم وحرب ، وينظر إليه في الوقت نفسه نظرة ريبة وخوف ، يتحاشى أن يفيد من تجربته ، أو أن يتعمق النظر في أسباب نجاحه وقوته ، وفي قصة تطوره ، وهو بدل أن يتخذ من هذه القصة عبرة ومثالاً ، ينادي بالأصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أولاً ، ولكنه حتى هذا الأول يتخيله مجرد شعارات تردد ومطامع تغلف بغلاف ديني صفيق ، وتتجلى أحياناً عن لعب بالنار وعنف يضر ولا ينفع . إن الاسلام لم يكن في يوم من الأيام داعية قتل واغتيال ولا سبيل تهديد وإبزاز . والطريق لاستعادة الأجداد الماضية هو غير طريق التظاهر أو التسلح إلى الحكم بثورة أو انقلاب .

غني عن البيان أنني ، رغم تبرمي بالحاضر ، لأعز كل الاهتزاز بما حققت أقطار عربية من انتصارات عسكرية ، وسياسية ، ومن خطوات موقفة نحو الوحدة العربية ، أمل كل مواطن شريف . إن تبرمي بالحاضر لا يستقل بحال من

الأحوال هذه الإنجازات ، ولكنه يقرع الآن صدى لمقارنته حاضرننا الهزبل بماضينا المجلد يوم كنا خير أمة أخرجت للناس . إنه تبرم باعتمادنا على الغرب في كل شيء ، حتى في السلاح الذي به ندافع عن بلادنا ونحرص استقلالنا ؛ ومن ندافع ، ومن نحرص ، إن لم يكن عن مطامع يغذيها لغرب ويدعمها ؟

ولكن كأننا خرجنا أو كدنا نخرج ها نحن بصده ، وهو وضع العلم والإنسانيات في العالم العربي اليوم . فرجال الإنسانيات ما يزالون يعيشون في الماضي القريب ، يوم صار الفكر والأدب مجرد شكلية جوفاء ومحسنات لفظية يجليها سجع وجرس ، ولا يدعمها فكر ، وصار الشعر مليح نفاق وارتزاق وهجاء مسخف وادعاء . إن عالم الإنسانيات في العالم العربي اليوم يعيش في أزمة فكرية ويتواء .

وليس حال العلم بأحسن من حال الإنسانيات ، أعني الآداب والفنون . فمناهج التعليم العلمي ما تزال هي التي رسمها الاستعمار ، وما طرأ عليها من تغيير إنما هو هامشي لم يمس الجذور ولم يصل إلى حد المجازاة للعلم المعاصر في تطوره ، ذلك أن أصحاب القرار ما يزالون هم رجال الإنسانيات الذين يتشئون العلم وقد يعدونه كفراً ، والمرء علوماً يجهل . لقد جعلوا بين العلم والآداب برزخاً ، يبعد كلاً منهما عن الآخر .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد فرمما كان يمضي العلم في طريق التطور والنهـ ، ويمضي الأدب في طريقه القديم . ولكن ما جرى أن الجو والثروة بقيا في العالم الإسلامي بعماء ، والعالم العربي بخاصة ، حل مثل ما كانا عليه في أواخر المصور الوسطى ، تفكير تقليدي مكرر معاد ، وأقوال وشعارات جوفاء لا يستندوا واقع ولا دليل ، وترية تقبل الكلام المزوق الشكلي ، وترفض المنطق العلمي ، فصار الكلام في العالم العربي أغلبية نفاق وادعاءات وشكليات ، وبقي العلم على هامش الحياة ، وبقي أصحاب القرار هم أهل النفاق والشكليات والكلام المبهرج للمسول . أما العلماء فمكانهم في غير التربة العربية ، وجوهم غير الجو العربي .

٤ - وما العمل ؟

أقول إن علينا ، بالإضافة إلى تبسير نشر العلم بمثل ما يجرى في العالم المتقدم ، خلق الجو المناسب والثروة المناسبة لأن ينمو العلم ويشيع ، ويصبح طابع حياتنا والموجه الفعالم لتفكيرنا وتصرفاتنا .

وأقول أجل ! لا يصلح آخر الأمر إلا بما صلح به أوله ، ولقد كان أوله الدعوة إلى العلم مذ نزلت أول آية على النبي الأمي يقول « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ذلك أن العلم يفضي إلى التعرف على آلاء الله ، بالتعرف على القوانين التي تنتظم الكون ، وغاية المسلم المتعلم هي أن يعمل على تطوير الحياة والمقاميم بحيث تجاري معارف العصر وأحوال الحياة الجارية ، ومن ثم فلا رأى لميت مهباً يكن مدعها ، لأن إبداعه يناسب زماناً غير زمان الأحياء .

والفهم الفعال لأول آية أنزلت يقتضي أن يتعلم المسلم لكي يدرك بليغ صنع الله الذي خلق الكون وأبدع نظامه . وهذا يقتضي ألا يبقى مسلم أميا ولا جاهلا ، والجهل هو جهل العلم الذي به تعرف آلاء الله . ولكي يكون الحلي حرا في تفكيره ، صادقا وصريحا في إبداء رأيه ، عرضة لاعتراض الشقاق ولا تخشى من ضغط أو إخراج ، ينبغي أن يعيش الحلي في جو ديمقراطي يحترم كرامته ويتحاشى تقييد حريته .

وهذه كلها مبادئ تنبثق من تعاليم الإسلام ، أبهى صفاته ونقاته ، والالتزام بها التزام بالإسلام ، وبجافاتها مجافاة له . ومراعاة هذه المبادئ تضمن خلق الجو والتربة اللذين ينمو بها العلم وثمر ، ونضمن أن نعود كما كنا خير أمة أخرجت للناس .

فما العمل كي يقوم عندئذ تفاعل بين العلوم والإنسانيات ؟ وما الدور الذي ينبغي أن تقوم به المؤسسات التعليمية كي يتم هذا التفاعل ؟

هذا الدور ينطوي في نظري وتقديري على أمور عامة تتعلق بالتعليم بمجمله كي نفسهم بقاء الجو العلمي والتربة العلمية ونقاتهما ، وعلى أمور خاصة تتعلق بموضوعات محددة ، كالعلوم والأدب والتاريخ ودروس الشريعة والدين ، ومناهج تدريسها وأهدافها .

أ- الأمور العامة

ثمة مبادئ وحقائق وأفكار ينبغي أن تشيع بيننا وتجري في حياتنا كما يجري الدم في عروقنا ، كي نحقق الجو والتربة المناسبين لترسيخ العلم في العالم العربي ، من أجل أن نساير تيار الحياة المعاصرة ونمضي مع ركب المتقدمين بثقة بالنفس وعزة وكرامة ، فعالين لا متغلبين . خلافاً لا مقلدين ولا متغلبين . من هذه المبادئ والحقائق والأفكار :

١ - أن العلم هو باني الحياة المعاصرة يدها بسلاح السلم والحرب والجدد والهدوء ، وهو ملهم الشعراء والكتّاب والأدباء ، يمدّهم بالقدرة الفكرية ويعينهم على الابتكار والإبداع ، وعلى فهم الحاضر وشارفة المستقبل ، وعلى التخطيط السليم لتحقيق ما يريدون وما يأملون ، بل هو الذي يعرفنا كيف نعبّد الله حق عبادته ، في عالم يتراوح كالجنون بين تلقى الزاهد المتصوف وضلال الأحق المقتون .

٢ - أن التطور هو سنة الله في هذا الكون ، كي تمضي الحياة دائماً إلى الأحسن ، ويشارف الفكر ما هو أرقى وأشرف . الأفراد يولدون ويكبرون ويموتون ، وقد ينتاب الفرد أو المجموعة أو الأمة بأسرها ما ينتاب الأفراد من حزن أو هرم أو تحطم وانهايار ، ولكن الحياة ، بوجه عام ، في هذا الكون الرحيب سائرة بفضل الله إلى الأحسن .

العالم المجنون يشن الحرب ، بعض على بعض ، ولكن العلم يبيد إلى وسائل للعلاج . ومقاومة الأمراض تزيد من عمر الأحياء ، وتمكنهم من العيش بلمن من الأمراض والأوبئة .

والعالم المجنون يهدم ويحطم ، ولكن العلم يزيد من وسائل المواصلات والاتصالات ، فيجعل البعيد قريبا ، حتى ليتخاطب الأخوان من أقصى المعمورة إلى أقصاها ، وإذا احتاج الأمر فقد يبرع أحدهما لملاحقة أخيه في غضون ساعات معدودة ، وفي غد قريب سيتخاطبان وكل منهما يرى الآخر كأنه أمامه .

التطور قائم منذ الأزل ، ومانس إلى الأبد ، وقد كان هذا التطور في الماضي يجري بطيئا ، وهو اليوم يغدو السرعة بفضل العلم ، ويفضي إلى التطوير ، أي عمل البشر في تسريع التطور ، والتطوير ضرب من العمل بإرادة الله ، إنه تطبيق العلم في سبيل العمل بإرادة الله ، فهو إذن عبادة . ونجاح عملية التطوير يفضي إلى مزيد من الثقة بالنفس ، ثقة العلم الذي طور ، والأمة التي إليها ينتمى هذا العلم ، والإنسانية جمعاء .

. . . وليس التطوير شغل العلماء وحدهم ، فكل مواطن في عمله مكلف بتطوير عمله إلى الأفضل : المزارع في حقله يمكن أن يطور سنابل القمح كي تجود بعباءة أفزر وأجود ، والصانع في مصنعه يمكن أن يطور إنتاجه كي يصبح أفضل وأكثر ، حتى الشاعر والأديب والكاتب يمكن أن يعمدوا إلى تجديد في ما يصدر من ، حتى العمال ، ناهيك عن المعلمين ، يمكن أن يمسحوا عطاءهم مرة بعد مرة . إن التطوير هو نتاج التفكير العملي الموضوعي السليم ، المنزه عن الأثرة والطمع ، المهادف إلى تحسين العمل بحيث يندو أكثر فائدة للمجتمع ، وبممارسة لأحوال الحياة السريعة التغير على الدوام . فكر بثقة وتصميم ، وستجد أن التطوير يواتيك من حيث لا تحسب .

٣ - تفجير العلوم والمعارف : قدّرنا أننا نعيش في عصر تتسجر فيه العلوم والمعارف بسرعة مذهلة ، وما إن تبذل عملية جديدة ، أو تعرض فكرة جديدة ، حتى يبرع التكنولوجياون إلى استغلالها بابتكار جديد . اليوم أمكن استخراج الطاقة على درجة حرارة عادية ، وفي غد قريب ، ربما قبل أن تصل هذه الكلمات إلى القارئ ، ستقوم التكنولوجيا بابتكارات تيسر سبل الحصول على الطاقة ، على نحو قد يحدث في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بل والسياسية تطورات غير متوقعة .

وليس ما يحدده العلم والتكنولوجيا قاصرا على مستويات التخصص العلمي ، بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس في يومهم ومطالبهم ، حتى ويجالي جدهم ولهمومهم ، الحاسوب الذي كان قبل سنوات معلومة موضوعا يتكلم عنه الجامعيون ، صار اليوم الشغل الشاغل للعمال في المصانع والتاجر والمصارف والدوائر الحكومية . وماذا نقول عن وسائل الطباعة والتصوير والاتصالات ؟ وماذا نقول عن هذا العالم الذي غدا صغيرا يرى فيه الفتى العربي على شاشة التلفاز فتيان الشرق والغرب يتعاملون بعضهم مع بعض على غير ما يألّف ؟ كأن قيم الحياة عندهم على غير معاملته أبلاؤه وأجداده . المواصلات والأقمار الصناعية تعمل على توحيد العالم ، سلوكا وعادات ، شتئا أم أبيتا .

كل هذا يضعنا أمام تحد كبير لا بد من مواجهته . ومواجهته لا تتم بمجرد كره العلم والتكنولوجيا ، بل بالانصباغ لها والتكيف حسب مقتضاها ، لأنها أمر محتم .

والانصباغ للتفكير العلمي ، والتكنولوجي ، والتكيف حسب مقتضاها يفترضان تغيرا جديرا في مفاهيم التعلم والتعليم وواجبات القائمين عليه من معلمين وإداريين .

فالتعلم لم يعد وسيلة للحصول على عمل ينتهي عندما يبدأ العمل ، إنما هو اليوم عملية تمتد من المهد إلى اللحد . في الماضي قال فيلسوف : أنا أفكر إذن أنا موجود ، واليوم نقول : أنا أتعلم إذن أنا موجود . ولا فرق بين القولين فالتعلم يقضي إلى تطوير التفكير ، والتفكير يقضي إلى التعلم .

والتعليم لم يعد يعنى إنهاء مناهج تعليمي مقرر ، إنما هو اليوم يعلم المرء كيف يتعلم وكيف يبقى على صلة مستمرة بما يجد من ابتكارات ، كى يبقى مواكبا لتيار الحياة المتدفق .

والمعلم لم يعد الموظف الذي تخرج بشهادة تثبت أنه شذا من العلم قدرا ما ، فهو يعطيه إلى التلمذ ، إنما هو كالتعلم ما تزال معلوماته تزداد يوما بعد يوم ، وما تزال خبراته تتسع . وهو بالإضافة إلى ذلك صاحب مهنة وصاحب رسالة ، يكرس حياته لتبليغها ، ومن ثم فمن واجب للجميع أن يكرمه على قدر ما يستحق . ولأنه صاحب مهنة ، فينبغي أن يعد إعدادا سليما متكافلا للقيام بمهنته ، ومن ذلك الإعداد لإطلاعه على أحدث وسائل التربية وأحدث ما يستجد في علم النفس ، وإمداده السريع بالمعلومات . وهذا يقتضي أن يتوفر في المؤسسات التعليمية كل الوسائل المعلوماتية ، ماهو موجود منها وما يستجد . وهو يقتضي من المعلم أن يبقى على الدوام متعلما يعرف ما استجد ويشارف ما يجد ، وكيف يبراهمه وتعليمه حسب ذلك . هذه تحديات قاسية تفرضها علينا الحياة الحضارية المعاصرة ، معلمين وإداريين . والإداريون ليسوا بمعلم حيا يجد ويستجد . إنهم على الغالب أصحاب القرارات . وإذا كنا في الماضي قد رضينا أن يكون أصحاب القرارات في الشؤون العلمية من غير العلميين ، فليس يمكن أن يبقى الأمر على هذا المنوال ، وقد صار العلم طابع الحياة المعاصرة ، بمد الأدباء والشعراء ، كما بمد المعلمين ، بالطريف والجند والممتع والحيري .

ويزيد التحديات صعوبة أن التفجر العلمي يرافقه تفجر في عدد السكان ، ومن ثم تزايد مستمر في أعداد الطلاب ، في المراحل الإلزامية والمراحل المتقدمة على السواء .

وإذا كنا نخطط بجد لنكون في صفوف الأمم والمجموعات المتقدمة ، فينبغي أن نتدارك ما فاتنا في أيام سباتنا من عناصر الحضارة المتطورة . وهذا يقتضي مزيدا من تمويد الطلاب والطالبات على الحياة الرياضية ، وعلى متع الحياة من إبداعات موسيقية وفنية ، وعلى المصارعة في سبيل العيش الكريم بابتكار سبل جديدة للعمل الجليدي الذي ينفع الفرد والمجتمع .

فاستيعاب العلوم المتطورة المتغيرة على الدوام ، والقيام بما ينبثق من ألعاب رياضية ، وتشاغل موسيقية وفنية ، والتخطيط لابتكار الجديد المفيد ليكون عمل المعلم ، كل هذا يتطلب برامج تعليمية غير ما جربنا على اتباعه ، وغير ما ألفنا .

إن برامجتنا الحاضرة ، مهما أجرينا عليها من تعديلات ، تبقى في أساسها ما فرضه علينا المستعمر ، وهو في أحسنه تقليد أو نسخ لبراهمه المحلية حيث الجو غير الجو والثروة غير الثروة ، على أن فيه ما ينص صراحه بأنه يستهدف تخريب أيادٍ عاملة ثانوية تساعد المستعمر في الأعمال التي يقتضيها حكمه للبلاد المستعمرة .

والبرامج التي يقتضيها الانتقال إلى المرحلة الحضرية المتقدمة التي ننشدها لا يمكن أن تنهض بها المدرسة وحدها .
إن المدرسة والبيت والمجتمع ، وكل وسائل الإعلام ينبغي أن يأخذ كل منها نصيبا موفورا لتحقيق مناصرو إليه من خلق
جو وثرية يلائمان الحياة الحضرية المعاصرة ، وأجيال قادرة على التعلم والتعليم مدى الحياة .

٤ - برامج المستقبل التعليمية ، وطرق التدريس : إن تفجر المعرفة قد جعل أكثر الموضوعات العلمية التقليدية
معلومات بدائية تجاوزها التطور العلمي ، أو مغلوطة أثبت أنها ليست على صواب ، ومن ثم فها تعلمه أدياننا من
مبادئ العلوم الأساسية قد تجاوزها العصر الحاضر وجعلهم أكثر جهلا عما يظنون .

ومن المعلومات المحدثة ما لا بد لكل مثقف أن يعرف شيئا عنه ، علميا كان هذا المثقف أو لغويا أو مهنيا . من هذه
المعلومات مبادئ الحاسوب والربوط والرادار ، ووسائل الاتصال الحديثة المتجددة . ومنها نظام المعلوماتية الذي هو
مورد وطني للتنمية يضاف إلى الموارد الطبيعية . ومنها الأسس الجديدة للزراعة وماتضم من وسائل تهجين تحول البلد إلى
مديرية على الإكتفاء الذاتي .

هذا بعض مما ينبغي أن يعلننا تفكر في إجراء تعديلات جذرية على مناهج التعليم عندنا وإبراجها ، ابتداء من
مراحل الطفولة وانتهاء بالتعليم العالي .

وفي صفحات تالية سنتناول أهم موضوعات التعليم ، وعندها ستعرض لبرامجها وماينبغي أن تشتمل عليه .
فلنتنظر الآن في طرق التدريس الحديثة وكيف ينبغي أن تكون .

إذا اتفقنا على أن هدف التعليم ليس تهينة الطالب إلى وظيفة وإنما تعليمه كيف يتعلم ودفعه لأن يحمى في تعلمه
إلى غاية الطريق ، إذا اتفقنا على ذلك ، عندها ينتفى مبدأ الحفظ ومبدأ الدروس الخصوصية ، وينتفى أيضا مبدأ
الإلقاء مهمة التضميم على كاهل الأم والأب في البيت . إن التعليم الحديث ينبغي أن يجري على مبدأ التعلم الذاتي ،
حيث يقوم المعلم بالتوجيه ويشاركه في ذلك البيت ، وفي تقديره أن التلفاز وشريط التسجيل والفيديو ، إذا أحسن
استخدامها ، تعطى نتائج أفضل مما يعطيه كثير من المعلمين ، لاسيما إذا كان التلفاز وشريط التسجيل والفيديو ، إذا أحسن
حسن الصوت وواضح العبارة حسن الأداء . أقول ذلك وأنا أعلم مايمكن أن يثار من اعتراضات على مبدأ التلفاز
التربوية بحجة جهل المخرج والمقد وصانع الديكور وما إلى ذلك . إذا عمدنا إلى التلفاز التربوية وسيلة من وسائل
التعليم ، فينبغي أن نحسن استخدام جميع الجنود المجهولين في هذه العملية ، أعني المخرج ورفاقه أجمعين .

وبالإضافة إلى التعليم الذاتي الفردي ، ينبغي أن يعمد للمعلم إلى تشجيع العمل الجماعي ، كأن يعمل الطلاب
كفريق متكامل لتحقيق غرض ما ، كجمع شتى الحشرات أو شتى الأزهار وأوراق النبات في دراسة العلوم ، أو بناء بيت
ريفي أو حديقة ذات أزهار وأشجار .

والعمل في المختبر أمر ينبغي أن يتعود عليه الطالب والمعلم على السواء . وليس العمل في المختبر تعلما لحسب ،

بل هو استكشاف حقيقي يستهدف استخدام المواد الخام المتوافرة لاكتشاف حقائق جديدة تساعد على التنمية وزيادة الإنتاج ، بحيث يستفاد من التكنولوجيا الحديثة في حدود الإمكانيات المحلية . إننا بحاجة إلى توفير الكوادر المدربة على استعمال المواد المحلية على نحو ناجح فعال . وهذا يحتاج إلى تدريب يبدأ من أول مراحل التعليم ، ويساعد على تحقيق هذه الأهداف ، بل يضمن تحقيقها قيام نظام فعال للتعليم .

والتقييم لفظة درج على استعمالها المعلمون ، بمعنى تقدير القيمة ، ويعارضها بعض اللغويين بحجة أن اللفظة القاموسية هي (التقويم) وأنا أستعمل (التقييم) هنا وأعني تقدير ميول الطالب ومواقفه الطبيعية . وأعني لو جعل عملية التقييم هذه الشغل الشاغل للمعلم والمعلمة منذ مرحلة الحضانة ، بحيث يعمل لكل طالب وطالبة ملف خاص يسجل فيه كل ما يلاحظ على الطالب من ظواهر قوة وضعف وحالات صحة واعتلال ، وينقل هذا الملف مع الطالب إلى جميع مراحل دراسته .

والتقييم في العالم المتقدم اليوم عمل تخصصي كثير الفروع والتشعبات ، وأعني لو جعل التقييم موضوعا من المواضيع الهامة التي يتدرب عليها المعلمون والمعلمات الذين يختارون التعليم مهنة أو يختارون إليه .

وغاية التقييم هي الكشف عن الطلاب الموهوبين ، لاتي العلوم أو الآداب فحسب ، بل أيضا في الفنون من موسيقى أو رسم أو نحت أو تمثيل ، وفي الرياضة من جبار أو تفوق في لعب الكرة أو ركض أو قفز . فإن لم يكن الطالب موهوبا في هذه الناحية أو تلك ، فيمكن أن يكشف التقييم في أي قطاع ينبغي أن يوضع هذا الطالب : ألي القطاع الأدبي أم العلمي ، وفي التعليم الجامعي أم المهني ، أم هل ينبغي أن ينتهي تعليمه النظامي بالمرحلة الإلزامية ثم يتجه الى حرفه أو عمالة .

وإذا كان في القطاع الأدبي ، أليكون كاتبا أم مؤرخا أم جغرافيا ، أم يكون في شعبة أخرى من شعب كلية الآداب والفنون ، أم في كلية التجارة أم الحقوق ، أم في فرع من فروع الدراسات الدينية .

وإذا كان في القطاع العلمي ، أليكون في الشعبة النظرية من رياضيات أو فلك ، أم في إحدى الشعب العملية من علوم تجريبية أو هندسة أو طب أو صيدلة أو بيطرية .

وخير ما يمكن للتعليم أن يعطيه للطالب هو الكشف عن ميوله ومواقفه . فكم من مواهب وميول ضاعت هباء لانه لم يقدر لصاحبها أن يكتشفها . إن المواهب التي دفنت من قبل أن تكتشف أكثر بكثير مما اكتشف .

وإذا أحسن التقييم ونفذ ، وجرى توجيه الطلاب بعقته ، وشاع لدى المعلمين والطلاب والآباء أن التعليم للتثقيف ، لا للبحث عن وظيفة ، عندها لا يبقى للامتحانات الشاملة هذه الأهمية التي تحمل منها غولا رهيبا يقسم الظاهر ، وتفصل الطلاب والطالبات فريقا في الجنة وفريقا في النار .

وإذا جرى التدريب على نحو جماعي ، وعمل الطلاب فريقا ، حتى من اثنين ، لإنجاز أمر ما ، فيمكن أن يجعل التقدير بحسب ماتم إنجازاه ، أو إبداعه أو ابتكاره . فالعمل الجماعي لا يجري على إعادة ما قد أنجز ، بل أيضا على اكتشاف أو ابتكار أو تطوير أو إبداع .

ولتجعل الامتحانات دورية لقياس مدى ما أنجز المعلم مع طلابه ، ومدى ما حصل الطلاب ، لا من المدرسة بحسب ، بل أيضا من المعلومات العامة التي تبثها وسائل الإعلام المختلفة بقنواتها التعليمية من كتب ونشرات وإذاعات تلفزة أو مسجلات فيديو . فإذا اكتشف تقصير في ناحية ما ، وجب المبادرة إلى إصلاحه ، فقنوات التعليم الإعلامية والصحفية ينبغي أن تبقى فعالة كالتدريس ، والمعلم الذي اختار التعليم مهنة ورسالة ينبغي أن يحاسب ومحاسب نفسه على الدوام ، هل أخلص لمهنته وهل بلغ رسالته ، فإن وجد تقصيرا لزم أن يتلذذ .

وينطبق هذا على المعلم الجامعي كما ينطبق على مراحل ما قبل الجامعة وما بعد الشهادة الجامعية الأولى . ففي المراحل الجامعية ليس التعليم مجرد محاضرات تلقى ، إنما هو تعلم واستكشاف ويبحث يقوم بها المعلمون والطلاب على السواء ، محاضرات أو أفرادا .

إن عصر التضجر العلمي الذي نعيش فيه يفرض على الجامعات ، أساتذة وطلابا ، أن تقوم بالقسط الأدنى من تشغيل التكنولوجيا الحديثة ، وتمثيلها بحيث تلائم الحاجات المحلية ، وتستخدم فيها المواد الخام المحلية المتوفرة . إن استغلالنا للتكنولوجيا لا يكون مجديا إن لم تعدل هذه التكنولوجيا بحيث تستخدم فيها المواد المحلية ، وتقوم بتنمية قدراتنا وزيادة إنتاجنا . يغير ذلك تغدو التكنولوجيا عندنا ظواهر مستوردة إنما يملأ بعض الأفراد زهواً وخيلاء ، فهي على الأمة بأسرها بلاء .

فعل الجامعات بخاصة والمؤسسات التعليمية بعامة أن تضع برامج تعليم ومناهج تقضي إلى الاستفادة من التكنولوجيا المستوردة . ولأننا في عالم سريع التطور يكاد يشهد في كل يوم تطورا علميا وتقنيا جديدا ، ينبغي أن يتوافر في الجامعات والمؤسسات التعليمية والإعلامية وسائل فعالة للحصول على المعلومات ونشرها . إن تحديات العصر تفرض على هذه الجامعات والمؤسسات أن يكون لديها كراكر مدنية قادرة على استيعاب كل جديد والتكيف معه وتكييفه بحيث يكون في خدمة مصالحنا المحلية وتنمية مواردها . إن علينا أن نواكب التطور العلمي ، وهذا يقتضي أن تتوافر مرونة في مناهج التعليم ، وسهولة في الحصول على المعلومات .

إن في العالم المتقدم قدرات تجل إلى أنه لم يبلغنا خبرها ، أولمنا ثم نمرها ما ينبغي من اهتمام . فمة أسس متطورة للزراعة والاستثمار قد تحول الصحارى إلى واحات خضراء . وهناك تقنيات تنتج مواد مستحقة كالإلياف البصرية والإلكترونيات الدقيقة والليزر ، والتربة الماشية ، وهناك علوم المواد وعلمسة الوراثة ، وما أفضت إليه هذه رائج ، وما قد تقضي إليه قد يكون أروع من الخيال .

إن لم ننسهم في تطوير هذا العالم المعاصر ، فلا أقل من أن نتفاعل معه على نحو يخدم مصالحنا وإن لم نفعل فأغلب ظني أن العالم المعاصر سيخلفنا وراءه وعظمي قلما لا يليوي على شيء ولا ينتظر المتفاسدين ، فالفرجة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة تزداد كل يوم سعة ، حتى ليبدو أحيانا أن سد الثغرة لن يتم ، لولا أن مجموعات صغيرة قد استطاعت ، بالثقة بالنفس والعزم ، أن تسد ما بينها وبين الدول المتقدمة ، في غضون جيل أو جيلين ، ثم تنقف بزهو واعتزاز في صفوف المتقدمين على قدم المساواة في الصناعة والإنتاج والتصدير .

٥ - تعريب التعليم : وأعني بذلك أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع المؤسسات التعليمية والإعلامية ، وفي جميع مراحل الدراسة ، ولندكر أن الدراسة والتعلم عملية مستمرة تبدأ من المهد وتنتهي بالحد . بدون ذلك لا تشيع العلوم والمعارف في العالم العربي ، ولا يتم التفاعل المنشود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، وبدونه لا يكون إبداع ، ولا يتم تعاون أعلامين والمفكرين في تكيف التكنولوجيا الزراعية والصناعية والمهنية للتلازم أرضاها المحلية بحيث نستغل المواد المتوافرة لدينا في سبيل التنمية وزيادة الإنتاج والانتقال من حال المستورد المعتمد على غيره إلى حال المنتج المستثمر المعتمد على قدراته ومهاراته .

وتكبد المشكلة تنحصر في التعليم الجامعي ، ذلك أن المؤسسات التعليمية في العالم العربي تعلم باللغة العربية ، ماعدا مؤسسات قليلة ذات صبغة أجنبية . وفي التعليم الجامعي تنحصر المشكلة في الكليات العلمية ، وهي وحدها التي تعلم بالإنكليزية (أو الفرنسية) وتعريب التعليم في الكليات العلمية مسألة يتسلم دور العلاقة في أمرها فريقين : واحد يلح على إبقاء التعليم بالإنكليزية (أو الفرنسية في البلاد للفرنسية) ، وواحد يدعو بحاراه إلى التعريب . ودعوى أنصار الإنكليزية والفرنسية أن كتب العلوم والنشرات والدوريات العلمية كلها بالإنكليزية (أو الفرنسية) ، وكذلك المصطلحات العلمية في حين أن العربية ليس فيها كتب علمية ولا دوريات ولا مصطلحات . ودعوى أنصار التعريب أن العربية هي لغتنا ، وأن الضرورة القومية تقتضي أن يقوم العاملون في التعليم على وضع الكتب والدوريات والمصطلحات تأليفا أو ترجمة .

ولعل لكل من الفريقين وجهها من الحق ، إلا أننا في معرض الحديث عن مد (الجسور بين العلوم والآداب ، والحديث عن خلق الجوارب والتربية اللازمين لنمو العلم بيتنا لا نملك إلا أن ننادي بالتعريب ، وبأعلى صوت ، لأن تعريب التعليم جريمة تحكم على العلم أن يبقى في العالم العربي كطير غريب نفور .

فالتعريب لاندنو إليه لأسباب قومية فحسب ، ولكن لأسباب تربوية يبدو أن أنصار التعريب يجهلون بها . وأول الأسباب التربوية أن كثيرين ممن يقومون بالتعليم في بلادنا ، وبخاصة الأطباء ، لم يتعلموا بالإنكليزية فهم يجهلون أكثر من الطلاب ، ويغفون جهلهم هذا عن الناس لأن التعليم الجامعي عندنا لا يرافقه إشراف تربوي ولو جرى بعض من الإشراف التربوي لرأينا صجبا ، لا لأن بعض المعلمين تخرجوا من جامعات تعلم بغير الإنكليزية ، بل أيضا لأن الذين تخرجوا من الجامعات الإنكليزية جهلوا أو نسوا اللغة التي تعلموا ويعلمون بها ، لأنهم في جامعاتنا لا يستعملونها إلا في غرفة الدرس . واللغة ، إن لم تكن لغة البيت ، ما أسرع ما تنسى لغة الاستعمال ، خطأ أن يقال إنهم يعلمون بالإنكليزية ، فما عندهم إنما هو طائفة فيها من العربية العلمية شيء كثير .

وجعل المعلمين والإنكليزية يربو عليه جهل الطلاب بها ، فهم في مراحل الدراسة السابقة لم يتعلموا لغة المعلم ومن ثم فالحديث بينهم وبين أساتذتهم يجري على مايكاد يكون حوار طرشان . والأدهى والأمر أن فريقا من المعلمين لا يستوعبون المادة التي يدرسونها ، فهم يحدون في جهل الطلاب لما يقولون وأقيا بجميعهم من اكتشاف أمرهم ، ولذا فهم يعارضون تعريب التعليم حاية لجهلهم .

ليس ما أقوله اتهاماً مبنيًا على سوء الظن ، ولكنه حقائق أتبع لي اكتشافها لاسيا في مرحلة عهد فيها إلى طائفة من معلمي العلوم بترجمة كتب علمية معينة ، وعهد إلى بالإشراف على تنفيذ الترجمة . ولقد لقيت عجباً : معلمين لا يفهمون ما يماضون به الطلاب . مشكلتهم لم تكن أنهم لم يتقنوا التعبير عنه بالعربية ، ولكن أنهم لا يعرفونه بالإنكليزية ذاتها . ولقد حدا بي ذلك إلى طلب ملفات هؤلاء المعلمين الرسمية ، فكتشفت أن بعضهم درس في جامعات تعلم بغير الإنكليزية ، وبعضها وضع في غير موضعه ، فهو درس الزراعة ويعلم البيولوجيا ، أو درس الإحصاء ويعلم علم الحاسوب ، والمسؤول عن ذلك أصحاب القرارات من الأدباء اللذين يجهلون العلم بقدر ما يجهلون الصبغة أو اليابانية .

وليس ما أقوله منصبا على جامعة بذاتها ، ففي كل جامعاتنا أديعاء ومتسلفون وضعوا في غير مواضعهم ومهامهم أن الإشراف على الإنتاج العلمي أو التعليمي ممنوع إلا حيث تلجأ الجامعة إلى محكمين ، وما أكثر ما ينقص المحكمين الموضوعية أو الإلمام بجوانب ما يكمون فيه . وقد نجد مثل هذا في جامعات الدول المتقدمة ، ولكن هناك نجد إلى جانب الأديعاء والمتسلفين نفرا يتتبعون ويدعون ويكتشفون ويخترعون ويكتبون جامعاتهم سمعة طيبة وشهرة ، ومن هؤلاء المبدعين من هم من أبناء العالم الثالث ، ولكنهم آثروا أن يتابعوا بحوثهم في جو وثيرة تحسن استقبالها ، حل أن يشرهم في بلادهم تيار جهالة جهلاء .

أرى أن علي أن أستمح عدوا ذلك النفر من علمائنا الصامتين الذين آثروا أن يقولوا في أوطانهم غربة على أن يعملوا في بلاد غريبة تستأثر بجهودهم . إنهم قلة بين كثرة من الأديعاء .

إن تعليم العلوم في أكثر جامعات العالم العربي إنما هو كذبة كبيرة ، فإن يكن في المتخرجين من شدا شيئا من العلم الصحيح ، فلما ذلك بجهده ، لا بفضل أحد عليه .

ولكن بدلنا القول بأنه قد يكون لدعاة التعريب وجه من الحق ، فما الحق فيما يدعون ؟

وجه الحق لدى دعاة التعريب أننا نترجمنا ومهما عربنا ، سنبقى بحاجة إلى معرفة جيدة بالإنكليزية بخاصة ، كي يتسنى لنا الاطلاع على الدوريات العلمية وعلى ما يستجد من اكتشافات واختراعات ، وكى يتسنى لنا أيضا أن ننشر بحوثنا المتواضعة في دوريات إنكليزية تبقينا على صلة بأهل العلم .

وهذا حق ، ولكن الوضع القائم في جامعاتنا لا يحقق هذا الغرض ، وما يحفظه هو أن يعطى طلاب العلوم في

أواخر مرحلة الدراسة الثانوية وفي المرحلة الجامعية دروسا مكثفة بلغة العلم الإنكليزية وفي المنهجية العلمية وأساليب نشر البحوث . بل قد يكون أفضل تخريج الكليات العلمية أن يعرف الإنكليزية معرفة جيدة وأن يلم بالأمم بلغة حية أخرى كالفرنسية أو الألمانية أو الروسية ، كي يتسنى له الاستفادة مما يظهر في اللغات الغربية من كتب ودوريات . ومما فائدة الكتب والدوريات إن لم يكن القارئ قد استوعب مبادئ العلم الذي يقرأ بلغته التي يفهمها .

وأما أساتذة الكليات العلمية فلن يكون بإمكانهم أن يخضوا جهلهم عن الناس ، إذا هم ألقوا محاضراتهم بالعربية . وهنا تبرز أمانتنا مشكلة المصطلحات العلمية . هذه مشكلة متضادة بالتدرج كلما مضينا في تدريسنا بالعربية ، وفي أول مراحل التدريس لا غشاضة من استعمال المصطلح الإنكليزي أو الفرنسي أو سواهما ، وتفسيره بالعربية ، مع محاولة وضع مصطلح عربي مؤقت يقابله ريثما يتفق على المصطلح المناسب .

تبقى كلمة لا بد من ذكرها من دعاة تعريب العلوم من غير العلميين ، وأهمل بهم مجالات الآداب ، إنهم يتنادون بأن ولادنا لعرويتنا يقتضي أن يكون التعليم بالعربية ، وبخاصة أنه ما من أمة تعلم في بلدها بغير لغتها إلا الأمة العربية . فالفهم الأكيد لا يتم إلا إذا جرى التعلم والتعليم بلغة البيت ، والإبداع لا يتم إلا إذا جرى الفهم والكلم بلغة البيت ، أسننا قضيتنا نصف قرن أو أكثر نتعلم بلغات أجنبية ، فإمادنا صنعنا أكثر من تعريب العلم والعلماء .

قول سليم ولكن دعاة التعريب يردون عليه بأن ولادنا القومي يقتضي أن نفتتح جميع النوافذ للعلم الغربي ، وأن مشكلتنا الكبرى لنا تعيين عامية وفصحى ذات حدود وتقيود نجعلنا إذا تكلمنا بها نفكر بقواعدها وحدودها وتقيدها قبل أن نفكر بما نريد أن نقول ، وإذا تكلمنا بالعامية نكون قد جنشنا إلى إقليمية تفرق بيننا ، ذلك أن لكل قطر عربي عاميته ، بل لكل عربي عاميته ، ناهيك عن المصطلحات العلمية التي لاتجدها بالعربية . ولأننا كل أن نضع مقابلات لها ، ذلك أنها تتزايد على الدوام في عصرنا هذا الذي يتزايد فيه العلم بسرعة ملحلة ، ولذا فإن مجامع اللغة العربية التي توضع مصطلحات عربية مقابل بعض المصطلحات العلمية إنما تخوض معركة خاسرة . بل لقد ذهب علمي فاشل إلى أن أعمال المجامع العربية في تعريب العلوم والمصطلحات دونكشوطية .

وفي حديثنا القادم عن تطوير اللغة العربية وتطوير تعليمها سنجد مجالا واسعا للحديث عن مجامع اللغة ، فيكتفينا هنا أن نتكلم عن علاقة هذه المجامع بالعلماء والعلميين والمصطلحات العلمية :

لاجدال في أن حسن النية وبذل الهدف متوافران لدى مجامعنا اللغوية ، فهي تريد أن تجعل العربية تستوعب المصطلحات العلمية ، ماوضع منها واستقر وما سيوضع ويستقر ، من أجل أن تعود العربية كما كانت في العصور الوسطى ، لغة علم . النية والهدف واضحيان ، ولكن ماذا عن خطة التنفيذ ؟

يعمل في كل مجمع لجان معينة من أعضاء المجمع ومن علميين ينتدبهم باسم خبراء ، وأعضاء المجمع في اللجان منهم المعلميون ومنهم اللغويون والأدباء . ويعقد هؤلاء اجتماعاتهم فيتداولون مصطلحات في مجالم المحدد فيأجلون

بترجمتها في حدود معرفتهم ، بالاستعانة بقواميس وقواميس . ثم تجمع هذه الترجمات وتعرض على مركز تنسيق التعريب بنية اختيار ترجمة موحدة يثق عليها المجتمعون ، ثم تنشر على المؤسسات التعليمية والجامعات ، حيث يحفظ أكثرها حبراً على ورق . أما الجامعات التي تدرس بغير العربية فلا يعينها الأمر في كثير ولا في قليل . وأما الجامعات والمؤسسات التي تدرس بالعربية فيرى من يعينهم الأمر أن يحتفظوا بما تواضعوا عليه من مصطلحات أولاً لأن المتدربين لتوحيد هذه المصطلحات ليسوا كلهم موضع ثقة ، وليسوا كلهم ممن غرسوا بوضع المصطلحات العلمية وربما كان أكثرهم من غير العلميين ، وثانياً لأن أعضاء المجامع أنفسهم الذين وضعوا المصطلحات ليسوا في نظر المختصين خيرة من يتصدى إلى هذا العمل ، لا العلميين منهم ولا غير العلميين .

ولعل هؤلاء الذين قلنا إنه يعينهم الأمر على حق ، أولاً لأن توحيد المصطلحات ينبغي أن يسبقه توحيد التعليم بحيث تنشر كتب التعليم في أرجاء العالم العربي ، ويستعملها المعلمون والمتعلمون على السواء .

وثانياً لأن أكثر أعضاء المجامع من غير العلميين ، وهؤلاء ما يزالون فكراً يعيشون في أواخر العصور الوسطى ، يعارضون التطور والتطوير ويتشبثون بما في معجمات وضعت قبل عشرة قرون ، ويحاولون مبادئ العلوم التي عمدوا إلى وضع مصطلحاتها ، فيعمدون إلى ترجمة المصطلحات الإنكليزية ، رغم شعور مكبوت بالنقص يمنهم من قبول التعريب في بعض المصطلحات . ثم هم يجهلون أو يتجاهلون أن المصطلح الذي سمي مصطلحاً لأن العلميين تواضعوا عليه ليعطي دلالة غير دلالاته القاموسية ، حتى إنهم يحاولون تغيير مصطلحات تراثية ، فتجدهم يقبلون (مدورة) على (دائرة) - مثلاً ، وهم يرفضون مصطلحات تواضع عليها العمال بحجة أنها عامية ، حتى ليكادون يقبلدون العمال والعلماء على السواء .

لقد قبل الناس بكلمة حاسوب مقابل كلمة كمبيوتر الإنكليزية ولكن ما يزال بعض المجمعين يبدى عدم رضاه عن وزن (فاعول) ، وبعض يفضل (كمبيوتر) (كمطر يكطر كمطرة) . ولو أنهم عمدوا إلى تعريب عمليات الحاسوب وأجزائه لكان أجدى بهم وأحرى . ولعل أجدى وأحرى ألا يفاوض امرؤ فيها لا يعرف .

ومشكلة المجمعين أنهم نصبوا أنفسهم حماة على لغة يرى العلميون أنهم يقلبوها بقيود عصور بائنة ، فلا العلميون المتمرسون بتعريب المصطلحات يرضون عما يصنعون ، ولا هم يرحعون . ولذا تثار عليهم بين حين وحين تشنعات هم منها براء .

إن تعريب المصطلحات العلمية أمر لا بد منه ، ولكن ينبغي أن يمضي مع تعريب التعليم ، فعندما تأمر الأمة أو الدولة بذلك ، عندها ستزول كل العقوقات ، وستزوي أولئك الذين يتخلون من التعريب درعا يستترون به جهلهم .

وفي معرض الحديث عن التعريب وآسيه ، ترد على خاطري أحداث شهدتها ، ومواهب رأيتها تدفن في غياهب الجهل ، ولكن أحافظ الكتابة هنا كيلا يظن قارئ أنني أبني أحكامي على حوادث فردية . إلا أن حادثة أرى أن أبيها

حدثني عن التفرغ لأنأى تبن كلف بقى العلم غربا فى عقول للتعلمين . والحديث عن عربى هو اليوم أستاذ بارز فى قطر أجنبى . كان تلميذا فى مدرسة ثانوية تعلم العلوم بالإنكليزية . قال لى : ذات يوم فتحت كتاب الكيمياء لأطالع الموضوع الذى سيجلنا عنه الأستاذ ، فجانبى عنوان لم أره من قبل ، هو The Atmosphere . قلت فى نفسى وماهى الأتموسفير هله ، لاشك أنها كرة أتمو وماعساه يكون هذا الأتمو ؟ لا أدرى ولكن أمرها سيبين من خلال البحث . ومضيت أقرأ فعلمت أن فى داخل هله الكرة أكسجين ونيتروجين وثلى أكسيد الكربون وغازات أخرى بنسب محددة ، وأن فيها بخار ماء يزيد وينقص . ثم فاجانى atmospheric pressure فتسلطت كيف تضغط كرة الأتمو هله ؟ ونخل إلى أنها كرة يلعب بها السباحون فى الماء . وجاء الدرس ، وتكلم المعلم بطلاقة ، ونخل إلى أن كل شيء قاله كان مفهومما عندى ، وكل سؤال سأله كان جوابه جاهزا لذنى . وفى الامتحان الأسبوعى حصلت على علامة كاملة من كرة الأتمو . ثم انتقلنا إلى دراسة غازاتها وطرق تحضيرها ومركباتها ، وأنا أحسب أنى بلغت من العلم مبلغا عظيما . قال محدنى : إلى أن جاء يوم ماطر قابلتك فيه فحدثنى عن الجوى ووطئه وضغطه ، وعلاقة ذلك بالطر ويومها عرفت منك ، من حيث لا تدري ، أن الأتموسفير هو الغلاف الجوى المحيط بالأرض ، وأن ضغطه هو الضغط الجوى ، فكاننى استيقظت من حلم هميق .

ترى كم من شبابه من يفادر المدرسة أو الجامعة . وهو فى طلمه هذا العميق يحسب أنه عرف كل شيء ا .

ب - الأمور الخاصة :

١ - تعليم العلوم : من أجل أن يجرى التفاعل للنشود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، لابد من تعليم العلوم للجميع ، وفى كل مراحل الدراسة . وتعليم العلوم لا يكون تلقينا وإنما استكشافا واكتشافا :

ففى المراحل الأولية يشجع الطلاب على المشاهدة والاستقراء ، كتجميع أوراق الأشجار والأزهار والتميز بينها ، وتجميع الحشرات ومشاهدة أجزائها بالمجهر . ولا يستطيع كل طالب أن يحصل فى بيته على مجهر ، ولكن قد نجعل المدرسة جوازها التشجيعية مجاهر ، وقد يشجع الصناعيون على صنع مجاهر محلية تباع بأثمان رخيصة . وما يمكن تجميعه ودراسة الفروق المميزة له صور الحيوانات المحلية المختلفة ، المتناسية منها والبرية ، وأنواع الحجارة المحلية : الرملية منها والكلسية والكبريتية ، والحجر الجيري والجرانيت والصوان ...

وما يندر التنبيه إليه أحوال الجوى وتقلباتها ، والتميز بين الأصوات ، والألوان ، وما يمكن أن يحدث من مزج الألوان بعضها ببعض ، وما يستجد من مبتكرات التكنولوجيا وتطويرها ..

وفى هذا كله يتنبه المعلم والمقيم إلى مايلبسون ميل خاص لدى بعض الطلاب وتسجيله فى ملفاتهم . وينبغى أن يرافق هذا كله ماينشر ويبت ويعرض من قصص للأطفال ، فهذه ينبغى أن تكون الوافدا للتعليم ولعمل التعليم عن طريق اللعب واللهو يكون أدهى للبقاء فى الذاكرة وأجلى من التعليم للباشر .

ويانتقل الطلاب إلى المرحلة الثانوية ينتقل معهم هذا النهاج متطورا بحيث يشمل مبدأ سير السيارة والطائرة ، وسفن الفضاء ومبادئ علم الكمبيوتر ، والأقمار الاصطناعية ومايجد ويستجد من مبتكرات .

وفي أواخر المرحلة الثانوية يعلم الطلاب المنهج العلمي وطريقتي الاستنتاج والاستقراء ، وطرق البحث وتوثيق الأفكار بالمراجع والمصادر ، وطرق عرض البحث ، وغواص للموضوعية والأمانة العلمية .

ويدهي أن يرقد هذا كله مانتشره وتيته وتعرضه وسائل الإعلام ، مع نشر الكتب والقصاص الأجنبية ذات الحلفية العلمية مترجمة أو غير مترجمة ، بأسعار زعيدة لكيلا يكون شراؤها عبثا كبيرا على القارىء .

ويدهي أيضا أن ينيه إلى تحرى الصدق فيما يقال أو ينشر في الصحف ، وألا يصدق الشائعات إلا إذا لقي دليلا يثبت صحتها ، أو سنداً موثقاً يؤيدها . لا الشائعات ولا الأمثال المأثورة مبرأة من الخطأ .

وليس غريبا ولا مستهجن أن نطلب من معلم العلوم المتخصص ، في المدرسة الثانوية ، أن يكون له ، كنظيره الغربى ، مختبر خاص يجرى به تجاربه ، وعلى الأخص لا ابتكار أجهزة علمية تصلح لأن تكون وسائل تعليمية ناجحة . وليذكر معلمو العلوم في المدارس الثانوية أن المخترعين والمكتشفين والتربويين الكبار ومؤلفى الكتب في الغرب ليسوا كلهم جامعيين بل إن منهم من لم يحصل على شهادة جامعية متميزة . وإنا نتطلع إلى يوم يشار فيه بالبنان إلى معلمين في المدارس الثانوية وكليات المجتمع ابتكروا أو طوروا وسائل تعليمية ناجحة ، أو كتبوا عن مبادئ تربوية أو نفسية حديثة مبنية على خبراتهم المحلية ، أو وضعوا كتباً تعليمية متميزة .

وإذا كنا نتوقع من معلمى المدارس الثانوية وطلابها أن يبتكروا ويحدثوا ، فينبغي أن نفتح لهم النوافذ على نتائج العلم : أولا بإطلاعهم على لغة العلم (الإنكليزية) عن طريق دراسة كتب مخصصة لذلك ، وثانيا بتزويدهم ببدويات تعطى أحدث المستجدات في العلم ، وأحدث العمليات ، وربما كانت معرفة قراءة بلغة أجنبية ثانية ذات فائدة كبيرة .

إن من الواجب أن يقر في ذهن الطالب والمعلم أن التطوير والابتكار والإبداع أمور سهلة المثال إذا صح العزم والعزيمة وكان الذهن منفتحاً ، والفرد وثاقاً من نفسه بلا زهو ولا غرور .

وما عرفنا وألقنا في حياتنا طلاباً ومعلمين ، كان وما يزال يجري على أساس فردي ، يطلب من كل فرد أن ينجز عملاً ، فيعمله بمفرده ، وقد يستعين بغيره ، ولكن تبقى طبيعة العمل فردية ، وهذا وضع تجاوزه الزمن ، ذلك أن أكثر مبتكرات العصر التكنولوجية ، حتى والنظرية ، إنما هي أعمال فريق من اثنين أو أكثر ، ومن المنجزات الضخمة المعقدة ما يقوم بها عشرات أو مئات أو آلاف ، فريقا متكاملًا يحترم الرأي والرأي المعارض ويزن الآراء بموضوعية وبلا تعنت ولا مكابرة ، وعمل الفريق أمر يتقصدنا . نحتاج إلى أن نمود أبنائنا وطلابنا عليه ، من أول مراحل الدراسة . وينبغي أن يسجل في التقييم مدى استعداد الطلاب للعمل التعاوني مع فريق كبير أو صغير .

وإذا جئنا إلى المرحلة الجامعية تكون قد جئنا إلى المصائب التي تخرج العلماء والأدباء والمهندسين والحقوقيين والمحاسبين والأطباء . هنا ينبغي أن تجري دراسة الأساسيات بمحاضرات تلقى بلغة عربية سليمة ، غير متكلفة ، يعود بعدها الطلبة إلى عملة مراجع ، عربية أو غير عربية ، الأساسيات التي ينبغي أن يستوعبها كل طالب تعطى بلغته العربية

التي يفهمها ، يتبعها توسع في الموضوع ، بالرجوع إلى المراجع . ذلك أن الجامعة هي المكان الذي يتابع فيه الطالب ما تلمحه عليه ميوله وتدفعه إليه مواهبه . الطالب العادي يكتفي بالأساسيات ليأخذ درجة مقبول ، والطالب الطموح الموهوب أمامه مجال مفتوح للتزود من العلم والمعرفة ، وإشباع ميوله وإظهار مواهبه .

وفي أوائل مراحل الدراسة الجامعية ينبغي أن يكون من موضوعات الدراسة الإجبارية في جميع الكليات دراسة المنهجية العلمية وأساليب البحث وطرق توثيق المعلومات والتمييز بين المراجع الموثوقة والمراجع غير الموثوقة . ومن موضوعات الدراسة الإجبارية في الكليات العلمية دراسة لغة العلم (الإنكليزية أو الفرنسية أو كلتيهما) لتمكين الطالب من استعمال المراجع الأجنبية بمعرفة وثقة بالنفس .

إنني أحلم بأن تكون جامعات العالم العربي كأفضل الجامعات الإنكليزية والأمريكية فيها المخترعون والمبتدعون والمبدعون ، منهم من يجري تجارب زراعية لتحسين الإنتاج وزيادة المحصول ، ومنهم من يعمل في ابتكار الطاقة وترشيدها ، ومنهم الحقوقيون العالميون ، والكتاب والأدباء الذين يشارفون آفاق المستقبل ، والاقتصاديون الذين يخططون لكي يكون المستقبل أكثر رفاهية من الحاضر ، أحلم بعالم جامعي يكون فيه لكل فرد أو فريق خبثه وأجهزة بحثه ، يبحث عن حلول لمسائل ألقتها عليه المؤسسات الخفافة أو العالمة ، عالم يكون من أفراد المعلمين والطلاب حملة جوائز عالمية ، تقديرية أو تشجيعية ، أصحاب إنجازات ذات سمعة عالمية ، تحسّن الحاضر وتمهد لمستقبل عالمي أفضل .

أحلام سيقول قارئنا إنها بعيدة المثال ، ولكن لماذا ؟ إذا نحن عملنا على وضع الفرد المناسب في المكان المناسب ، وعقدنا العزم على تكريس الوقت والجهد والمال من أجل صالحي المجموع وصالحي الإنسانية ، مع الحدّ من الاستثناءات ، وتضييق الخناق على المتسلقين الأدعياء واستبعادهم ، علميين كانوا أو عمالاً أو إداريين ، إذا نحن عملنا ذلك بجرأة وإخلاص ، فلن نكون أحلامنا بعيدة المثال ، إنها تحتاج إلى جيل أو جيلين بعدها تبدأ ثمار ما نعمل بالنتسوج .

٢ - تعليم اللغة العربية وآدابها : إذا كنا نجد أن وصول المعلمين العرب إلى مستوى الأمم المتقدمة في الإنتاج العلمي والتكنولوجي مطمح بعيد المثال ، فإن وصول رجال اللغة والأدب إلى هذا المستوى في الإنتاج الفكري والأدبي أبعد مثلاً ، ذلك أن المعلمين والأدباء عندنا ما يزالون ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، يعيشون فكرياً في العصور الوسطى ويتشبثون بمواصفاتها ، إلا أن المعلمين قد يكونون أحسن حالاً لأنهم اطلعوا على بعض من نتاج العصر الحاضر الفكري اطلاعاً قد يكون أرضية صالحة لقبول التطور والتطوير اللذين هما سمتا الفكر المعاصر وتيارات الحياة المعاصرة .

إن في طلبية ما ينبغي أن يرسخ في الذهن العربي ، علمياً كان أو أدبياً ، أن سنة الحياة أن كل حي يتطور ، واللغة كائن حي ، فهي تتطور ، ومن ثم ، فعربية اليوم ، ليست هي عربية الأمس ، ومعجمات الأمس لا ينبغي أن تكون قيوداً على لغة اليوم . وينبغي أن يرسخ في الذهن العربي أن التطوير نحو الأحسن والأنسب لتقنيات الحياة

وتغيراتها هو مجازاة لسنة الحياة ، وكما قال علماءنا السابقون أن لا رأي لميت ، ينبغي أن نقول نحن اليوم إن من واجبتنا تطوير لغتنا وقواعدها كما طورها أسلافنا من قبل . ذلك أن اللغة ليست تراثاً نصونه وليس لها قداسة نحافظ عليها ، إنما هي كيان حي يحرس معنا فينبغي أن تتسع آفاقها بالتساع آفاق معارفنا ، وإلا فستضيّق اللغة عن استيعاب هذه المعارف ، وستتجحر ، وتكون نحن الملمومين . وينبغي أن يكون لغويو اليوم بمعرفتهم للسانيات وقواعد لغات أخرى ، أقدر من لغويي الأمتس على وضع قواعد مبسطة للعربية .

التطورات العلمية جعلت العالم الواسع صغيراً ، بضغطة زر يستطيع الشاب العربي أن يرى زميله الأوربي أو الأمريكي ينعم بحياة حرة ويتكلم بلغة واضحة سهلة ، فإن لم تبادر نحن لتطوير لغتنا بحيث يتكلم بها الشاب العربي بمثل طلاقة زميله ووضع عبارته ، فلن يجدي ندؤنا بالتعريب ولا دعوانا بأنه ضرورة قومية .

وأعني بتطوير اللغة أولاً تطوير معاني بعض مفرداتها الحاضرة بإكسابها دلالات جديدة ليست في معجمات اللغة القديمة ، وثانياً اشتقاق صيغ جديدة ذات دلالات جديدة ، من ألفاظ قاموسية ، ثالثاً اقتباس ألفاظ جديدة من لغات شرقية أو غربية ، بلا خجل ولا حرج ولا عقد نفسية ، فكل لغة تقتبس من غيرها ، وقدما قول إن أي لفظ غير عربي إذا استعمله العرب صار عربياً ، وما نقتبسه اليوم قد نبهله غداً ونستغني عنه ، فإن بقي واستقر فهو ذخيرة جديدة تضاف إلى ذخائر لغتنا المحبوبة ، وما ينبغي ألا نتحرج من اقتباسه ألفاظ شاعت على السنة العامة وليس لها بالفصحى مقابل .

وإلى جانب تطوير اللغة ، يجب أن يمضي تطوير في عرض قواعدها ، ذلك أن قواعد اللغة ليست هدفاً بحد ذاتها إلا في مرحلة التخصص الجامعي ، وهي قبل ذلك وسيلة للفهم الصحيح ، وينبغي ألا تعطى إلا بقصد الفهم والتمييز .

ففي المرحلة الابتدائية لا يستهدف تدريس العربية سوى القراءة والفهم ، ولا ينبغي أن يعطى من قواعد اللغة إلا ما يساعد على الفهم . ويضاف إلى القراءة والفهم ، في هذه المرحلة ، حفظ بعض من الآيات القرآنية وبعض من الأشعار والأناشيد . ومن المؤسف أن بعض الأشعار والأناشيد التي يرددها أطفالنا وأحفادنا اليوم هي ما كنا نردده في أوائل هذا القرن . وموضع الأسف أن قرناً كاملاً من الزمن لم ينجب شعراء يزودون الأطفال بأشعار وأناشيد جميلة بلغة عربية فصحية - نقول هذا ونحن نعرف أن بلدأ مثل فرنسا مثلاً فيها عشرات من الشعراء والمغنين والموسيقين عن تخصصوا بوضع أناشيد للأطفال . أليس من شعرنا من يجب أطفاله إلى حد وضع قصائد وأناشيد لهم ، بكل قصائد النفاق والهجاء ؟

وإذا كانت غاية قواعد اللغة ، في هذه المرحلة ، هي الفهم ، فقد لا يحتاج فيها إلا إلى معرفة الفاعل والمفعول ، وحالات الرفع والنصب والجر ، ودعما الجزم ، دون الحاجة إلى ترداد أنواع المنصوبات إلا حيث تقتضي القراءة أو يقتضي الحفظ وينبغي أن يرفد القراءة والفهم في المرحلة الابتدائية مطالعة لقصص عربية مصورة نحاول أن نجعلها أكثر جاذبية وإثارة من قصص الكرتون التلفزيونية . ونغني عن القول أن هذه القصص ينبغي أن تكتب بلغة مبسطة ، ويسمح أو أراجزيس يسهل حفظها وتكرارها ، ولا حرج من أن يداخلها ، في هذه المرحلة ، قليل من الألفاظ العامة المستساعة .

وهنا أتحيل قارئنا بثور على ما أقول ، كأي نطق كثرأ إذ حللت أن نستعمل ألفاظاً عامية فيها يطالعها الطلاب . أليس لغويونا وأدبناؤنا يثرون على العامية وعلى الازدواجية في عيجتنا اللغوي بدعوى أن لكل بلد عامية ، فالعامية تفرق بيننا والفصحى توحد . جوابي على ذلك أن في كل قطر من أقطار العالم لغة كتابة (فصيحة) ولغة حديث (عامية) بل لغات حديث ، لأن لكل بلد من بلاد القطر عاميته ، حتى العربية الجاهلية كان فيها لغة خطابة ولغة حديث . وفي ألفاظ لغات الحديث العربية ما هو من صنعنا ، عاش معنا في أيام يسرنا وعصرنا ، وهنأتنا وشقائنا ، وجفنا ولحونا ، فلا ينبغي أن نحرم استعماله على أولادنا ، وهم قد عرفوه وألفوه ، خشية أن يفرق بيننا . فوسائل التعليم والإعلام اليوم من سينا وراديو وتلفزيون وصحافة ، تنقل لغات الحديث العربية إلى شق أنحاء العالم العربي ، فيما استمخيش يشع ، وما استهجن بهجر ، ولا ينبغي أن ننسى أن العربية العامية تقارب الفصحى كلما زاد التعلم وقلت الأمية ، فليست المبالغة في التخويف من العامية إلا من قبيل جعل الحبة قبة . أزيلوا الأمية تزل العامية وكفى الله المؤمن القتال .

وفي المرحلة الثانوية ينبغي أن تستهدف دروس اللغة العربية : ١ - القراءة الصامتة السريعة مع الفهم . ٢ - التفكير . ٣ - التعبير عن الأفكار بلغة سليمة ودقيقة . هذا بالإضافة إلى تاريخ الأدب العربي ، مع الإطلاع على حيون القصائد والكتب ، القديمة والحديثة ، الأصلية والمترجمة . وقواعد اللغة ما تزال وسيلة للفهم الصحيح ، لا هدفاً .

وربما كانت الأهداف الثلاثة الأولى جديدة على الفكر العربي ، فالقراءة في مدارسنا ما تزال ضرباً من الخطابة ، والتفكير والتعبير عن الأفكار ما يزال يطنى عليها ضرب من الشكلية يتم بالمحسنتات اللفظية ، وبرة العبارة أكثر من المضمون . ألا ترى أن مواضيع (الإنشاء) ما تزال هي هي منذ أوائل هذا القرن ؟ ألا ترى أن التفكير والابتكار والتجديد قد يجاريه المعلم ويعاقب عليه ؟

إن تعويد الطالب على الفهم عن طريق قراءة صامتة سريعة يعينه على فهم ما يقابله من قراءات مستقبلية بوقت قصير . هذا ما ينقص طلابنا ، وما نلّمسه من فرق بينهم وبين زملائهم من الطلاب الأجانب ، وربما كان للمعلمون أنفسهم لا يحسنون الفهم عن طريق قراءة صامتة . فلا بد من إعداد ما ينبغي من تدريب على ذلك سواء للمعلمين وللطلاب .

والتفكير والتعبير عن الفكر بعبارة واضحة أمر غير ما يجري عليه تعليم العربية ، لو كانوا يعلمون . وما يجري عليه تعليم العربية هو التعبير عن أفكار سطحية مكرورة مبتذلة بعبارة فيها عسنتات لفظية على مبدأ (ليس البوصة تصبح عروسة) . تلك هي الشكلية وذلك هو السوس الذي ينخر في عظام تفكيرنا وتقديرنا للأدب ، وهو السبب فيما نعانيه من أزمة فكرية ونحواء ذهني .

إن التفكير يعني هجاء مشكلة وإعطاء حل لها أو حلول ، وذلك من قبيل تكليف طالب ، أو فريق من الطلبة ، باختيار مكان يقضون فيه رحلة مدرسية ، وتقديم غطط بين فيه سبب تفضيل هذا المكان على غيره ، مع ما ينبغي أخذه من معدات ، والطريق الذي ينبغي أن يسلك في كل من رحلتي الذهاب والإياب . إن التفكير يعني البحث عن حل جديد أو حلول جديدة ، لمشكلة قائمة . وهذا ما يجدر أن نعود طلابنا عليه . أما التعبير السليم ففي تقديره أن المعلمين في غمرة ما يمارسون من محسنات لفظية وعبارات شكلية ، لا يعرفون قواعده وأصوله . وأول قواعد الكتابة وأصولها هي فائدة القارئ ، وليست إظهار براعة الكاتب . وفائدة القارئ تقتضي إعطاء أفكار جديدة بتعابير واضحة وألفاظ معروفة محدودة المعنى ، لا عقد فيها ولا تعقيدات فإذا كان لابد من ذكر لفظ جديد أو غير مألوف ، وليس في اللغة ما يفيد معناه ، عندها لابد من تعريف اللفظ تعريفاً واضحاً . والكتابة أنواع ، نذكر منها ما يلي :

١ - الكتابة العلمية وتشمل البحوث والدراسات العلمية ، سواء أكانت بحثاً أم دراسات في حقول العلوم الطبيعية ، أم بحثاً أم دراسات في حقول العلوم الإنسانية ، كالتاريخ واللسانيات واللغويات . والبحث يعني طرح فكرة جديدة وحل أو حلول جديدة لها مبنية على اكتشاف أو ابتكار قام به الباحث . وهنا تقتضي الأمانة العلمية أن يبين الباحث بوضوح تام ما قام به غيره وما جئده هو أو أجراه من تعديل أو تصحيح . أما الدراسة فلا تتضمن تمجيذاً ولا تعديلاً ولا تصحيحاً لبحوث سابقة ، إنما تعني استقصاء بحوث متفرقة والتأليف بينها ، أعني جمعها في سياق متكامل .

وسواء أكانت الكتابة العلمية بحثاً أم دراسة فينبغي أن تكون سهلة العبارة ، لا التواء فيها ولا تلميح ولا مجاز ولا كتابة . تلك هي العبارة العلمية . فإن كانت تنطوي على ألفاظ مستجدة أو مستحدثة فينبغي البدء بتعريف هذه الألفاظ وتعريفات واضحة .

إن الكتابة العلمية تفترض أن تعني ما تقول وإن تقول ما تعني ، بعبارات سهلة واضحة ، بلا مبالغة ، ولا تظاهر . إن الكتابة العلمية إنما هي لفائدة القارئ وحده . أما الكاتب فتصبيه من الفائدة ، الاعتراف بأنه بحث وابتكر ، أو استقصى وجمع ودرس .

ومن خصائص الكتابة العلمية الموضوعية ، وهي تعني البحث عن الحقيقة وإظهارها كاملة بصدق وأمانة ، بلا تحيز ولا تحنن على التاريخ أو على أحد أو شيء ، أنها تعني تقبل الحقيقة مهما تكن مرة .

ب - الكتابة التعليمية وتشمل ما يقدم للطلاب أو للناس من معلومات متفق عليها . وهي كالكتابة العلمية من حيث إنها تستهدف فائدة القارئ . ومن ثم فهي تكتب بلغة واضحة سهلة ، لا التواء فيها ولا مبالغة ولا تلميح ولا تظاهر . وهي تختلف عن الكتابة العلمية في أنها دراسة انتقائية تهتم بأن تعطي للقارئ المبتدئ ، وبخاصة الطالب ، ما يحفظ له ولأهله وانتهاءه لأمنه ووطنه واعتزازه بها .

ج - الكتابة الصحفية وهذه لا تنطوي على بحوث ولا دراسات مستقصاة ، إنما هي إخبارية في معظمها ، يخالطها دراسات غير جامعة وغير مستحصفة ، وهي تستهدف القراء على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية . وهنا أيضاً ينبغي أن تكون الكتابة بعبارة سهلة واضحة . ولكن حيث يكون ثمة رقابة صارمة على الكتابة الصحفية ، قد يلجأ الكاتب إلى التلميح بدل التصريح أو إلى إعطاء بعض الحقيقة وترك بعضها ليستنتجها القارئ بنفسه . لذا تعتبر الكتابة الصحفية دون مستوى الكاتبين العلمية والتعليمية من حيث الأداء والموثوقية .

د - الكتابة الفنية وهذه تشمل الشعر والروايات والقصص . والحكم في كل من هذه هو القارئ ، بلحج ما يعجبه ويغضيه عما لا يعجبه أو يدير له ظهره ، وإنما هنا يمكن للكاتب أن يظهر براعته في المحسنات اللفظية من تشبيه أو مجاز أو تلميح ، أو معرفة بالألفاظ اللغوية المعقدة ، يذكروها ويشرحها للقارئ ، إذا هو شاء . والذين يتصدون للكتابة الفنية مثلهم كمثل الشعراء الذين قيل فيهم : الشعراء في الزمان أربعة ، فواحد يجري ولا يجري معه ، وواحد يخوض وسط المعركة ، وواحد لا تشتهي أن تسمعه ، وواحد لا تستحي أن تصفحه . إلا أن أصحاب الكتابة الفنية في زماننا قد يسطون على ميدان الصحافة يشيرون فيه تظاهراتهم وادعاءاتهم ويتباهون بما يصنعون .

وليت المعلمين والطلاب على السواء يدركون أن الكتابة الفنية إنما هي للموهوبين ، عسى الأديباء والمتظاهرون يخفون أو يخشون . وفي المرحلة الثانوية ينبغي أن يكون التقييم قد ساعد الطالب على اكتشاف مواهبه وتحديد ميوله .

وفي التعليم الثانوي ينبغي تعريف الطلاب بأنواع الكتابة وبميزاتها ، ومطالعة كل نوع منها ، ثم يختار كل طالب ما يراه أقرب إلى ميوله ومواهبه ، كتباً وقصائد وقصصاً مؤلفة أو مترجمة أو كتباً علمية أو تعليمية مبسطة ، أو كتابات صحفية .

وفي التعليم الثانوي ينبغي إعطاء الطلاب مزيداً من الآيات القرآنية والأمثال والحكم العربية للحفظ والاستشهاد ، ومزيداً من الكتب العلمية المبسطة والكتب الفنية الأدبية للمطالعة ، ويراعى اختيار ما يناسب أنفوسهم في مرحلة المراهقة ويمجبه بلهتهم . لنذكر أننا في صراع مع ما يشه التلفزيون من برامج أجنبية ، فلنحسن اختيار ما تقدمه لأبنائنا وطلابنا كي نكون في هذا الصراع غالبين متصيرين . ولا شك أن الغزل الملري أدعى للنصر في هذه المرحلة من شعر المدح الكاذب والمجاءة وتقاضى جرير والفردق .

وفي العصور الإسلامية لم يتم الشعراء بتمجيد أبطال الإسلام وتحليل فتوحاتهم . ولذلك أسباب بينة . فمعرفة القادسية مثلاً كانت انتصاراً على قوم دخلوا في الإسلام ، فتمجيد أبطالها يثير ما في نفوس الذين خلبوا فيها من غل وأحقاد ناهيك عن أن بعض شعراء العصر العباسي هم من أبناء هؤلاء المغلوبين .

تلك أيام وظروف مضت . ولبت شعراء اليوم يضعون من الملاحم الشعرية ما يذكرنا بأعجائنا السابقة واللاحقة ويرسخ في النفس العربية ما فيها من عزة وكرامة ، وفي الأمة العربية ما يحفظ وحدتها وتماسكها ، مهما اختلفت السياسات والأهواء . عندها ستكون ملاحم هؤلاء في طليعة ما يعني به أبنائنا وأحفادنا مما يثبت العزة في النفوس ، ويزيد الولاء للأمة والوطن رسوخاً ، والاحتفاظ بالأخلاق والقيم العربية ثباتاً .

أكتب هذا كله ، وفي بالي مثل يقول : فاقد الشيء لا يعطيه ، ومعلوم العربية فاقدون لكثير من هذا الذي تتطلبه من أبنائنا . فهل يعطون ما هم فاقدون . أم هل نحيلهم إلى الاستداع وتبدأ الكرة من جديد !

ومنذ أواسط المرحلة الثانوية نرجو أن يأخذ التقييم الموضوعي التزيه بجراه الطبيعي بلا استثناءات ، فيصف الطلاب علميين وتكنولوجيايين أو أدباء وحقوقيين أو اقتصاديين وسياسيين أو حرفيين وعمالاً ، ثم يوجه هؤلاء الوجهة التي تناسبهم وتتمشى مع ما يجري في عصرنا من تهيئات تكنولوجية .

ومهما يكن من أمر ، فعلما الغد العرب ينبغي أن يكونوا أكثر اطلاعاً على الأدب العربي واللغة العربية من علمي اليوم ، وأدباء الغد العرب وشعراؤه وفنانونه ينبغي أن يكونوا أكثر إلماً بعلم العصر وتغيراتها ، وأقل جهلاً لها ونفوراً منها من أمثالهم المعاصرين .

وتاريخ الأدب العربي أغنى لو يتخذ ، في العهد الجديد الذي نتطلع إليه ، مسارا آخر يتبع الشعر الوجداني والغنائي أكثر مما يتبع شعر النفاق والارتزاق ، ويضع مقاييس لتقدير جودة الشعر هل قدر ما فيه من شعر إنساني ، أو وصف لنزعات النفس البشرية ، أو اعتزاز بالقيم العربية ، بذل المقاييس الشكلية المجردة التي تشتمل على براعة الاستهلاك وما يسمى (المعاني الكثيرة في البيت الواحد) وما إلى ذلك مما يمكن أن يوصف به كل بيت من الشعر وكل قصيدة ، ولعل تتبع الوجدانيات والغنائيات نقلتنا من رحلة البيت الشعري إلى وحدة الفكرة أو القصيدة ، ومن المقاييس الشكلية إلى المقاييس الفكرية والشعورية . فلذلك أجبى وأحرى .

أما قواعد اللغة ، التي قلنا إنها ما تزال وسيلة للفهم والتمييز والتعبير السليم ، لا هدفاً بذاتها ، فليت لغوي العهد القادم يكونون بما عرفوه من لسانيات ولغويات ، أقدر من سيبويه والكسائي على فهم عربية اليوم وعربية المستقبل . فإذا سلمنا أن اللغة قابلة للتطور فلماذا لا نسلم أيضاً بأن قواعدها أيضاً تتطور ، ويمكن أن تطور ، أو أن تطور طريقة عرض هذه القواعد ، بحيث تبقى أداة للفهم السليم والتعبير السليم ، هدفاً فكرياً مرهوقاً ؟

إني أعلم أن رجال الإنسانية العرب الذين غموا وترعرعوا على الشكلية حتى ألفوها ستثور ثائرتهم على كثير مما قلت وكثير مما سأقول . ولكنها كلمة إن لم تقل اليوم ونحن أمام الآداب العالمية في موقف التحدي والصراع ، ستقال غداً

بلهجة أقسى وأشد ونحن في موقف المهزم ، ولقننا تذخر أمام أعيننا إذ يفضل أبنؤنا وإحفادنا عليها لغات أخرى
أجنبية أيسر تناولاً وأكثر ملاءمة للعصر الذي يعيشون فيه .

وإذا نجحنا في تطوير تعليم العربية في المرحلتين الابتدائية والثانوية بحيث تمضي مع العلوم والتكنولوجيا على وئام
وانسجام ، فلا شك في أن موضوعات الكليات الإنسانية سيلحق بها التطور في المراحل الجامعية ، إذا كان الأساس
صلياً متيناً فلا شك أن ما يبني عليه سيكون آمناً سليماً .

تبقى كلمة لا بد من قولها مهما تكن قاسية على التقليديين الذين يرون في كل ما ورثنا عن آباؤنا قداسة ينبغي أن
نصونها . كلمتي هذه هي أننا في عصر الحاسوب وما سيليه من مفاجآت في وسائل الكتابة والطباعة ، لا بد من أن نطور
كتابتنا بحيث تكون بحروف منفصلة ، صائتة وساكنة ، ومعها حروف مستجلة تقوم مقام الحركات من ضم وفتح
وكسر وتونين وتسكين . أكثر ما أقول ؟ هل كفر الحجاج بن يوسف الثقفي عندما قضى بإدخال النقط والحركات على
الحروف العربية التي كتب بها أصحاب رسول الله ﷺ مرة أخرى أقول إن التطوير هو سنة كل ذي حياة وقدرة ، وما لا
يتطور فسيموت .

٣ - تعليم الجغرافيا والتاريخ

أليس عجيباً بأننا ننتهي بأننا دعاء وحدة ، ومع ذلك ما نزال نعمل في تعليم الجغرافيا والتاريخ حسب مناهج
وبرامج وضعها الاستعمار . والتاريخ والجغرافيا يقعان على الحدود الفاصلة بين الطبيعية والإنسانيات ، فمن طريقها
يجري بعض التفاعل المنشود .

لقد قسم الاستعمار العالم العربي إلى أقطار وجعل كل قطر يدرس جغرافيته الخاصة ، في خضم دراسته لجغرافية
العالم ، حتى ليخرج الطالب العراقي ، مثلاً ، من المدرسة الثانوية وهو يكاد يعرف عن جغرافية إنكلترا أكثر مما يعرف
عن جغرافية العراق ، ويكاد يعرف عن جغرافية أمريكا اللاتينية أكثر مما يعرف عن جغرافية العالم العربي .

إن واجبنا في العهد الجديد الذي نتطلع إليه أن نبني برامجنا الجغرافية على أساس أن المطلوب في المدرسة هو
جغرافية العالم العربي ، ابتداء بالدراسة القطرية ، على أن تكون الدراسة تعليمية وميدانية تعتمد على زيارات موسعة
للعالم العربي ، تعرف طلابه بعضهم ببعض ، وتعرف طلاب كل قطر بالأقطار العربية الأخرى .

أما جغرافية باقي العالم فينبى تعليمها على أساس من معرفة موسعة بالعالم العربي ، وقد يشترك التلفزيون ووسائل
الإعلام الأخرى مع المدرسة في نقل العلوم الجغرافية إلى جماهير الشعب العربي .

وغني عن البيان أن في برامج دراسة الجغرافيا موضوعات فلكية ومناخية وتجارية ، وعلمه تقوم بها المدرسة على أساس من المعرفة الموسعة بجغرافية العالم العربي وإمكانية تكامله الاقتصادي .

إن برامج الجغرافية الإقليمية في أي قطر عربي يجب أن تبدأ بجغرافية ذلك القطر ، تليها جغرافية الأقطار العربية المجاورة ، فجغرافية العالم العربي بأسره ، فالعالم الإسلامي ، فالبلاد الأخرى ذات العلاقات الاقتصادية مع الأقطار العربية ، فساكن العالم .

والجغرافيا من الموضوعات التي يمكن أن تعتمد على إنجازات الطلاب الفردية ، كأن يقال لكل طالب أو مجموعة من الطلاب تنوي زيارة بلد ما أن تقدم تقريراً عن طبيعة هذا البلد ، وأهله ، ومناخه ، وصادراته ، وما فيه من مزايا خاصة . والجغرافيا يمكن أن تعاون في تعليمها كتب المطالعة التي تعطى للطلاب وللأهلين .

ومشكلة التاريخ الإسلامي والعربي أعقد وأجدر بالمبادرة ، فقد كاد الاستعمار يحذف من برامج التاريخ العالمي إذ أعطاه قسطاً صغيراً من الوقت في خضم التاريخ القديم وتاريخ ما سماه بالمصور المظلمة ، ويعني به التاريخ الوسيط الذي فيه بزغ فجر الاسلام وانبثقت الحضارة العربية الإسلامية التي صارت فيما بعد الدافع الأقوى والمثال والنموذج لهذه الحضارة الأوروبية وما يسمى بالمصور الحديثة .

وفي غضون تساؤلنا : هل نحن عرب أولاً أم مسلمون ؟ وتسألنا : أندرس تاريخ العالم العربي أم العالم الإسلامي ، يقوم المسلمون الذين انشقوا عن العالم العربي بكتابة التاريخ العربي الإسلامي باعتباره بعضاً من تاريخهم . فمن الروس من ادعوا أنهم هم حفظة الإسلام بلليل أن البخاري صاحب الصحيح هو من أهل بخاري السوفيتية ، وليران تقوم بوضع تاريخ للحضارة الإسلامية ، باعتبار أن أكثر علماء الإسلام لإيرانيون ، ومثلها تركيا التي تدعي أن علماء الإسلام ، سواء منهم من ظهر في إيران أو في بلد هو اليوم سوفيتي ، كلهم أتراك لأن الفرس ما هم إلا بطن من بطون العنصر التركي .

ففي خضم هذه الاتهامات والادعاءات أين نقف نحن العرب ، مسلمين وغير مسلمين ؟ الجواب نحن كلنا عرب ، في اليسر والعسر ، في اللغة والأرض ، في الآمال والآلام ، في التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل ، فواجبنا أن نقف بحزم لهذه التحديات ، ولنكتب تاريخ الإسلام باعتباره تاريخاً بدأ بالعرب وبهم نهض ، وتاريخ العرب باعتباره تاريخاً جعله الإسلام عالمياً وأكسبه صفة الحضارة الإنسانية .

من هذا المنطلق لا بد من أن نرسم برامج التاريخ في مدارسنا باعتبارها تاريخ العرب والإسلام ، ولنجعلها النواة لدراسة تاريخ العالم . وفي رأبي أننا ينبغي أن نجعل القسم السياسي منه علماً إيجابياً موجزاً وأن نركز على ناحيتين ما

نزال لا نوليها ما ينبغي من اهتمام : أولاها تاريخ الفتح الإسلامية وحياة قادتها ومعاملاتهم بخبرهم وللأمم التي تستسلم لهم . والثانية هي تاريخ الحضارة الإسلامية ، بدءاً بالعلوم والفنون وانتهاء بما أعطته هذه الحضارة للغرب مما جعله يقوم بنهضته ويبدأ فجر المعصور الحديثة .

ولنجعل تاريخ العرب والإسلام في المراحل الابتدائية والثانوية مدعاة لاعتزاز العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، بأممهم وتاريخهم وحضارتهم ، وضمناً لزيادة ولائهم لوطنهم وتعلقهم به والتضحية من أجله ، وجماعاً لأمر القيم والمثل والأخلاق العربية التي تجمع بيننا وتعمل على توحيدنا .

لذا جئنا إلى ما بعد المرحلة الثانوية فينبغي أن نستعرض تاريخنا ، وعلى الأخص السياسي والعقائدي ، بموضوعية الطبيب الذي يبحث في تاريخ مريضه الصحي للكشف عن أسباب مرضه وعوارضه وسبل علاجه . وفي تاريخنا السياسي أخطاء كثيرة نشأت على قتلها والتناهي عنها ، رغم أنها لم تتألم في الماضي ، وما تزال آثارها باقية إلى اليوم . ومنها أحكام وإجراءات كان اللوق العام في الماضي يقبلها ، وهي اليوم مرفوضة مستهجنة ، يرفضها اللوق العام ويستنكرها قانون حقوق الإنسان ، ولكننا ، جرياً على عادة موروث متواترة ، ما تزال نرددها باعتزاز ومباهاة ، ولعلها سبب في تفشي عادة الثأر بيننا ، والميل إلى العنف والانتقام والشتم في صفوفنا ، بدل العفو عند المقدرة والتراحم . لذا باتت أخطاء الماضي فينبغي مناقشتها بصراحة وموضوعية وإعداد ما ينبغي من عدة لمحو آثارها من نفوسنا . من أمثلة ذلك قتل الحاكم لحصمه بدمس السم له ، وإجبار الناس على مبايعة شخص يمينه ، ثم خلع ومبايعة آخر ، ومنها تردد خطب فيها إذلال للعرب واستهانة بهم ، كخطبة الحجاج في أهل العراق ، وخطبة زياد ابن أبيه . وقمة أخطاء أخرى كثيرة ليس أقلها كشف ابن ماجد لفاسكودي جماعاً عن أسرار الملاحة العربية التي كانت سيلاً ليد الغلبة الغربية على العالمين الإسلامي والشرقي .

٤ - الدروس الدينية

وأعني بها دروس الديانة الإسلامية والديانة المسيحية . ففي معرض البحث عن إقامة تفاعل بين الطبيعيات والإنسانيات ، لا بد من حديث عن تطوير المفاهيم الدينية مثل ما تقدم من تطوير المفاهيم الأدبية والفنية . فالواقع الذي لا يجوز أن نحطه العين ، أن مفاهيمنا الدينية ، مسلمين ومسيحيين ، ما تزال كذا كانت عليه في المعصور الوسطى ، بدليل ما نشاهد من طائفة يعاني منها لبنان الجريح اليوم ، وتعاني منها أقطار عربية أخرى أحياناً . إن الطائفة لا تتشظى مع تيارات الحياة المعاصرة التي تترك لكل فرد حقه في العبادة على طريقته ، وتجعل قيمة الفرد بقدر ما يقدم للمجموع من جهد ، سواء أكان هذا المجموع على دينه أم لم يكن . في العالم المتقدم الذي يجي الحياة المعاصرة قلباً يسأل المرء إلى أي دين أو أي طائفة دينية ينتمي .

والتحدث في الدين وتطوير مفاهيمه أمر حساس كثير المحاذير ، وإذ أدعو إلى تطوير المفاهيم الدينية لدى العرب المسلمين والمسيحيين بحيث تجاري علوم العصر وتجاريه ، أفضل أن أحصر تفاصيل دعوتي في العالم العربي الإسلامي أولاً لأنني على صلة أوثق به ، وثانياً لأن العالم العربي المسيحي يمد الدليل والنموذج والمثال في الغرب المسيحي الذي طلق الطائفية من وقت بعيد ، وتنادى ، كما ينادي البابا في الفاتيكان اليوم ، بأن الدين لله والوطن للجميع .

وإذ أتكلم عن تطوير المفاهيم الدينية لدى العرب المسلمين ، أؤكد للمتشددين أنني ، إن شاء الله ، مؤمن صادق بالإيمان ، أدعو الله سرّاً وجهراً صباح ومساءً ، أن يعينني على أن أعبده حق عبادته ، وأني أعتز كل الاعتزاز بأبني مسلم وأدعو الله أن يعينني على الإسلام . ولكنني أعلم أن العلم الذي جعله الله فريضة لكي نختدي إلى آلائه ونقف جيلاً بعد جيل على بديع خلقه - هذا العلم قد طور ويطور حياة اليوم على نحو يندومعه الدين الإسلامي الحنيف اليوم كانه ، كاللغة العربية ، متجدد لا يستطيع أن يلحق بتيار الحياة الصانح . والمسؤول عن ذلك ليس الدين الإسلامي الذي كان وما يزال أقوى دعوة لتثابة العلم ، وإنما المسؤول أولئك الذين قضوا بمنع الاجتهاد في الماضي ، وأحذاهم اليوم الذين يقضون بمعارضة التطوير بحجة أن أحكام الله منزلة خالدة . نعم إن أحكام الله منزلة خالدة لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولكن مفاهيم الناس ، والناس بشر . هذه الأحكام تتغير بتغير أحكام الزمان والمكان . وما أدعوا إليه هو القبول بتطوير المفاهيم الدينية ، برحابة صدر ، بحيث تتلاءم مع تطور الحياة الإنسانية التي يحكمها اليوم ويتحكم بها العلم والتكنولوجيا . وما أنا أقدم مثلين لا أرى المجال يتسع لأكثر منها .

أولاً : تحريم الرق

كان الرق سنة الحياة في العالمين القديم والوسيط . وعندما دعا الإسلام لتحريمه كانت تلك أول دعوة لذلك ، وقد سبقت أوامها بقرون . ولأن الرق كان في أيام الدعوة الإسلامية سنة متبعة ، فقد ظهر في الناس من حارضاها حتى قال الفاروق عمر رضي الله عنه متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ وأراد الإسلام أن يأخذ بتحريم الرق على مراحل ، بدءاً بمنع استرقاق المسلمين . إلا أن المسلمين ما لبثوا أن تناقضوا عن الدعوة الإسلامية ، مجازين بذلك تيار الحياة العام ، فاسترقوا الناس مسلمين وغير مسلمين . ولقد حكم في مهر ، زهاء مئتي سنة ، مالك بدأوا حياتهم أرقاء يجرسون جنوداً وضباطاً عاريين . ولقد عاشوا وماتوا أرقاء بالرغم من أنهم خضعوا للإسلام والمسلمين خدمة كبرى إذ صلبوا عن ديار الإسلام الحملات الصليبية من الغرب وهزلات المغول من الشرق ، حينما لم تقدر حتى الخلافة الإسلامية في بغداد أن تصمد لهذه الحملات . من هؤلاء المماليك الذين حكموا مصر ، كاقور الإخشيد الذي قال فيه المتنبي ما قال بما هو معروف مشهور يردده الخناس والعالم دون أن يروا حرمة أو يراعوا حصانة .

وفي أواخر العصور الإسلامية قامت في أوروبا دعوة لتحريم الرق ، عارضتها الكنيسة أول الأمر ، ثم كانت الكنيسة أكثر حكمة من العالم الإسلامي فقبلت بالدعوة ، في حين بقي العالم الإسلامي يبيع الرق ويسترق الناس ليسمهم للغرباء الذين أخذوهم لتعمير العالم الجديد .

ولقد لقي المستعمر الغربي في ذلك سبيلاً لغزو إفريقيا واستعمارها بدعوى تخليصها من المسلمين الذين يسترقون أهلها . وعندما نال السودان استقلاله في أواسط هذا القرن كان في الكتب التي يستعملها المبشرون في جنوب السودان كتاب يبدأ بصورة جنوبي وقد ربطه شمالي مسلم من عرقوه ليستبدله .

والآن وقد غدا الرق أمراً مستكبراً ، ألم يمن الوقت لأن نقول إن الإسلام أطلق أول دعوة لمنع الرق ، وأن ملك اليمين (أي الرقيق إنما يعني ما كان قائماً ، وقد زال الآن ، فزال كل ما يتعلق بملك اليمين ؟) .

ألا ترى كيف تتغير القيم والمفاهيم ! ألا تعلم أن نظام السراي هدم البيت الإسلامي السعيد ولحق بين الإخوة والأشقاء ويحترق الدم العربي شرقاً وغرباً وفي جميع الأرجاء !

ثانياً : وضع المرأة

لا جدال في أن الإسلام أطلق دعوة صارخة لتحسين وضع المرأة . صحيح أنه أباح الزواج حتى بأربع عند الضرورة وحسب شروط ، لا سيما وأن المرأة كانت في وضع محتاج فيه إلى عائل يعولها ويحميها . وإذا ذكرنا أن القانون الفرنسي كان حتى القرن الثامن عشر يقضي بأنه إذا اعتلت امرأة على جارتها فالحقت بها أذى ، يحاكم ولي أمرها ولا تحاكم هي لأنها قاصر لا تميز الصالح من الطالح ، شأنها في ذلك شأن الدابة إذا عالت في أرض فساداً يفرم صاحبها ولا تغرم الدابة - إذا ذكرنا ذلك أدركنا أن ما عمله الإسلام إنما كان رفعة لشأن المرأة قبل الأوان . لذا ما لبث المسلمون أن حولوا الأمر إلى إذلال للمرأة واستهانة بكرامتها تمثل اليوم في أمر بيت الطاعة ، وفي منع المرأة من السفر إلا بموافقة الزوج ، حتى وإن كان غائباً أو هجر ، وفي أمر عين الطلاق ، وأن يطلق رجل زوجة ليتزوج بأخرى ، إذ لا يباح له أكثر من أربع زوجات في وقت واحد ، وأن يطلق رجل زوجة لأمر لا ناقة لها فيه ولا جمل ، ذلك أنه حلف أن يطلقها إن خسر الرهان ، وقد خسر .

إن وضع المرأة المسلمة في العالم الإسلامي مشين ، ولتشددون يتشبثون به ويثقلون له المبررات بحجة أن فتاوي قديمة أباحتها . فإذا قلنا كما قال المسلمون الأولون ألا رأي لبيت ، وجب أن تقدم نحن الأحياء رأينا بأن الحياة الزوجية إنما هي اتفاقية شركة بين طرفين لكل منهما حقوق وعليه واجبات فإن أحل أي من الطرفين بواجباته أو تجاوز حقوقه ، لزم تفرغه ، وقد يقتضي الأمر فسخ الشركة وإلغاء الاتفاقية ، حسب شروط يقضي بها قاضٍ .

يمثل هذا بتحسين وضع المرأة المسلمة ، وقد يقتضي الأمر أن يجعل أمر الزوجية تابِعاً للأحوال الشخصية ولا علاقة له بالمحاكم الشرعية .

كلمة أخيرة أنهي بها كلامي بأن أعاطب الأدياء الذين يستنكرون العلم ويكفرون العلماء فأقول إن علم اليوم يقيم على وجود الله أدلة لم تخطر لهم على بال . المسيحية تقول : في البدء كانت الكلمة ، والإسلام يقول : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . وقيل أن يكون ثمة مكان ولا زمان أراد الله لهذا الكون أن يكون فقال له كن فكان وحدث انفجار عظيم . وعلماء اليوم يسمعون بأجهزتهم الحديثة الحساسة أصواتاً . . . وراء عالم الأجرام السماوية فيفسرونها بأنها ما انطلق من الكون وهو يتكون ويقدمون أن ذلك كان قبل اثني عشر ألف مليون سنة . ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ صدق الله العظيم .



السؤال الذي مانتفك يتواتر عل أنعان الناس في العقود الأخيرة من هذا القرن يتعلق بمسؤوليات العلماء والباحثين تجاه المجتمع والحياة بصورة عامة . فهل تترك الحرية التامة للعلماء لإجراء تجاربهم وأبحاثهم دونما قيد أم أن طريق العلم بات يحتاج إلى قواعد تضبط مساره وتحدد وجهته ؟ ثم ما هي مسؤولية العلماء والباحثين تجاه مجتمعاتهم بصورة خاصة وتجاه البشرية ومستقبل الحياة بصورة عامة ؟

لقد تباينت الأجوبة هن هذا السؤال وتعددت حوله على نحو يؤكد خطورة المنعطف الحام الذي أشرفت الإنسانية على اجتيازه بفضل الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية المتطورة . فهناك من يقول إن الحرية عنصر هام من عناصر الابتكار ، وإن العلم لم يبلغ مرحلة متطورة جدا كالتي نعيشها اليوم إلا بفضل الحرية التي اتسم بها البحث العلمي وتطبيقاته . وهناك في جانب آخر من يقول إنه إذا كان من المسلم به ضمان حرية البحث والابتكار للعلماء والباحثين فإن ذلك يجب أن يقترن بمسؤولية أكبر من جانب العلماء والمبتكرين أنفسهم ، إذ شتان بين باحث أو عالم يجرى أبحاثه وتطبيقاته كيفما شاء أو بالاعتماد من جهات رسمية لا تضع في اعتبارها مصلحة الإنسان وبين باحث آخر يلتزم أبعادا أخلاقية في إجراء تجاربه وتطبيق نظرياته . والفرق بين عالم لا مسؤول وعالم ملتزم ومسؤول كالفرق بين آلة ميكانيكية تؤدي عملها بلا إحساس أو شعور وإنسان يؤدى واجبه بوعي من الأخلاق الرفيعة والمسؤولية تجاه الآخرين .

العلم والقيم الأخلاقية

عبدالله العمر

لنأخذ الانجازات الهندسية والتطبيقات العملية التي يقوم بها المهندسون engineers كمثال من الأمثلة نضربها هنا لعلنا نحيط أكثر وأكثر بجوانب الموضوع الذي نعالجه ، فهناك من العاملين في هذا الميدان من

يرى بأن مهمة الهندسة يجب أن تنحصر في الجوانب التقنية المحضة وفي الغايات التي نضمرها ابتداءً لأجل التوصل إلى أهداف واضحة ومحددة في ميدان التطبيق ذاته . وفي طرف آخر نرى جماعة أخرى من المهندسين يرون أهمية توسيع ميادين البحث في الهندسة وبجالات تطبيقاتها العملية على نحو تظهر فيه ملامح المسؤولية والالتزام في كافة مراحل البحث والتطبيق ، وإن كان الخلاف ما يزال قائماً حول كيفية تحقيق هذا الاتساع المأمول وأي الأدوات التي يمكن استخدامها في هذا السيل .

وعلى الرغم من التطورات والتجالات العظيمة التي حققتها التطبيقات الهندسية في ميادين كثيرة ، وهي التي تم بفضلها إعادة تشكيل العالم المحاصر ، فإن عقول الأفراد ما فتئت تقيم حواجز شكلية أو تتصور وجود اختلافات بين الأهداف التي يسعى إليها العلماء من جهة وبين نظراتها عند المهندسين التطبيقيين من جهة ثانية . فمهمة العلماء - من الناحية الشكلية المحضة وبحسب التصور التقليدي للفواصل بين النظرية والتطبيق - مهمة نظرية في الأساس في حين أن مهمة المهندسين تطبيقية في الأصل . أو بعبارة أخرى نقول بأن التصور التقليدي للمسألة يرى بأن :

« وظيفة العالم هي البحث في الظواهر الطبيعية والسعي وراء فهمها وجمع معلومات علمية في حد ذاتها ، بينما عمل المهندس هو استخدام تلك المعلومات - بأكثر الطرق فاعلية وتأثيراً - في ابتكار أجهزة وأنظمة لازمة لرعاية الإنسان ... وتقدمه »^(١)

بيد أن التطورات التي جلت على علم الهندسة في الآونة الأخيرة وعلى ميادين التطبيق قلبت المفهوم التقليدي للعلم باعتباره نظرياً والمهندسة باعتبارها تطبيقية محضة . فالنمو المطرد الذي طرأ في العقود الأخيرة على ميادين البحوث والصناعة والمؤسسات التعليمية عمل على تقريب مهمة المهندسين من وظائف العلماء ، وأزال كثيراً من الغموض الذي كان عالقاً في الأذهان حول أهدافهم المشتركة في حياتنا الحديثة . فلقد صار المهندس يعتمد على نظريات العلماء المحدثين في تصوره وتنفيذه لألة بالغة الدقة والتعقيد ، بل صار المهندس نفسه يجرى دراسات وأبحاثاً مستفيضة ، يقوم بها مختاراً وإيرادة ذاتية خالصة ، وذلك بفضل نظريات بسيطة وتصورات عمدة يستمدّها من زملائه العلماء . فليس غريباً - إذن - أن نشهد في الآونة الأخيرة منجزات تكنولوجية عظيمة جاءت نتيجة تعاون مشترك جمع بين المهندسين والعلماء في عمل مثمر وفيد .

ولكن على الرغم من أن الفجوة التقليدية بين العلم والمهندسة ضاقت إلى حد كبير فإن هناك فجوة من نوع آخر ظلت قائمة . فليست المشكلة اليوم في إبتعاد كل من العلم والمهندسة عن بعضهما ، كلا وليست المشكلة تكمن في انعدام قنوات اتصال تربط بين العلماء والمهندسين من جهة وبقية قطاعات المجتمع من جهة ثانية ، وإنما المشكلة تظهر في انعدام تناسب بين الآمال الإنسانية العظيمة والواقع المرير الذي يعيشه الأفراد بالفعل . إن المشكلة - بمعنى

(١) Eric A. Walker., Engineers and the Nation's Future, in Approaching the Design Environment Ed. by: Taylor (1) Littleton, Frederick Muller Limited, London, 1973, P. 82.

آخر - تكمن في الفجوة القائمة بين ما يمكن للتطبيقات الهندسية أن توفره للإنسانية وبين ما يمجبه أفراد المجتمع من فوائد نتيجة تقدم هذا العلم من جهة ثانية . فلقد استطاع الغرب أن يصنع المعجزات على صعيد العلم والتكنولوجيا ، ولكن هل واكب كل ذلك التطور العلمي تطور مماثل على صعيد الأخلاق وسعي إلى توطيد العلاقات بين البشر ؟ وهل كانت كل تلك الإنجازات خلوا من المنغصات ، وهل استطاع العلم نفسه أن يقضي على بعض المشاكل الناجمة عن استغلاله من قبل الإنسان ؟ فما أكثر ما يشعر الانسان بالفخر والثقة العظيمة عندما يكشف جديداً أو حين يتكر أداة متطورة ولكنه غالباً ما يشجع بوجهه عن بعض المضلات الهامة التي تنجم عن كل ذلك . فما إن تلفت انتباهنا بين حين وآخر مشكلة الاختناقات المرورية عبر الطرق السريعة مثلاً ، أو اشتياق بعض الأبحرة الضارة أو الهواء الملوث بالغازات السامة حتى يسارع بعض العلماء إلى التقليل من خطر كل ذلك ويميلون تبرير المخاطر بحجة أنها الضرورية التي يجب أن ندفعها في سبيل التقدم .

ولكن الحقيقة هي أن الكثيرين كانوا عاجزين عن فعل أي شيء من شأنه أن يقضي - أو على الأقل يخفف - من المشاكل الناجمة عن الاستغلال الشيع للعلم . فهاذا فعل الناس إزاء بعض المشاكل الخطيرة التي تنجم عن الاندفاع السريع نحو التصنيع من غير اعتبار للمخاطر التي قد تنشأ عن ذلك ؟ ثم ماذا فعل الناس إزاء مقولة خاتمة تحثهم على طلب العلم لأجل الشهرة أو المال أو سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان ؟ وهل يمكن أن يكون هناك بالفعل علم مفيد لا يأخذ في اعتباره أبعاداً إنسانية وأخلاقية هامة ؟ إذ ما فائدة علم لا يجد طريقه إلى التطبيق لأجل سعادة الانسان أو التخفيف من معاناة البشر ؟ وهل كان لكثير من المخاطر والمآسي أن تحدث لولا أن كثيراً من العلماء حصروا أنشطتهم في النتائج العملية للعلم دون اعتبار لأية أبعاد أخلاقية أو إنسانية ؟

انظر إلى موقف بعض العلماء الأمريكيين ومدى ابتعادهم عن مجريات الأحداث المصرية في عالمنا المعاصر . ذلك أنه ما إن جاءت الحرب العالمية الثانية وظن بعض العلماء الأمريكيين أن الحرب يمكن كسبها حتى سرت بينهم فكرة مفادها أن حياة الولايات المتحدة مرهونة بصناعة السلاح وتطويره . فتمت بناء على ذلك - وصل نحو لم يسبق له مثيل - تعبئة الموارد الطبيعية والمواهب البشرية من أجل هذا الغرض ، وصارت للمؤسسات العلمية تنبأ في هذا الميدان وأضحى العلماء يتسابقون في مضار الأسلحة والدمار . غير أن الاستخدام الواسع للأسلحة المتطورة ، وعلى رأسها القنبلة النووية ، أعطى الناس دروساً هامة لا يمكن تناسيها . فلم يعد إدراكنا واضعاً للصلة الوثيقة التي تربط بين النظرية والتطبيق فحسب ، وإنما تعدى الأمر ذلك إلى إدراك للتضيق الخطير في ميادين هامة من دراسة وبحث الجوانب الإنسانية في مسيرة العلم والتكنولوجيا . إذ لما كانت الدولة هي الممول الرئيسي لأنشطة البحث العلمي إبان الحرب العالمية الثانية ، ونظراً لما شاع بين الناس من أن بقاء الولايات المتحدة مرتبط بالإبقاء على أنماط الصناعة وأشكال الإنتاج التي كانت سائدة آنذاك ، فإن الدولة نفسها ظلت - بعد الحرب - تقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به آنذاك . بعبارة أخرى نقول إن المهمة التي كانت تقوم بها حكومة الولايات المتحدة في ميدان البحث والتطوير العلمي في زمن الحرب ظلت هي ذاتها مهمة الدولة في زمن السلم .

ولقد بلغ الاستحسان لهذا التوجه في مسيرة العلم أقصى مداه عندما وجد صدى محيا في نفوس الرأي العام

أيضا . فلقد انساق الناس - ولو لفترة قصيرة نسبيا - وراء وهم يصور لهم ازدهار الصناعة والاقتصاد معزول عن الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية . ومن الأمور التي عملت على تعزيز هذا الوهم في نفوس الأمريكيين أن حكومة الولايات المتحدة رصدت في فترة من الفترات ميزانية ضخمة للبحث العلمي تفوق ما رصدته مجتمعات الأرض كلها لهذا الغرض . والفتاة إلى البحوث التي أجريت في ميدان العلم تظهر كيف أن علما ارتفع بشكل مذهل وكيف أن هناك ارتفاعا في عدد الحاصلين على جوائز نوبل في ميادين البحث العلمي الدقيق . ففي الفترة ما بين ١٩٥١ - ١٩٦٩ نجد أن الأمريكيين الحاصلين على جوائز نوبل في ميادين العلم الدقيق بلغ عددهم أربعين ، وهذا العدد يفوق عدد الحاصلين عليها من أية دولة أخرى . بل إن الولايات المتحدة استأثرت في عام ١٩٦٨ بكافة جوائز نوبل في ميادين الفيزياء والكيمياء والطب والفسيولوجيا .

أما النتيجة التي نجمت عن ذلك المسار الذي اختطته الولايات المتحدة للعلم فهي أنها احتلت - إبان العقود الأخيرة من هذا القرن - مكان الصدارة في ميادين البحث العلمي والتطور التكنولوجي . كذلك سعت بعض المؤسسات الصناعية إلى إنشاء مختبرات ومراكز أبحاث تستهدف تقديم خدمات للحكومة وذلك إلى جانب مساعيها إلى إنتاج مصنوعات ترضى المستهلك . بيد أنه إذا كان من المؤكد أن بعض المؤسسات الصناعية قد ربحت كثيرا من وراء التوجه الذي ارتأته الحكومة الأميركية للعلم فانه من الأهمية بمكان أيضا التشديد على المخاطر والتحديات التي حتمت على الناس - فيها بعد - أن ينظروا باهتمام بالغ إلى بعض النتائج السلبية للبحث العلمي .

« فكثير من رجال الكونغرس وغيرهم من المسؤولين المدنيين بدأوا يتساءلون ما إذا كانت المبالغ المائلة من الأموال العامة التي يتم ضخها للأبحاث الأساسية تعطي أكلها بالفعل في ميادين التقدم . . . ففي كثير من المجالات يبدو أن العلم يتراكم بسرعة وإلى حد لا يمكن الاستفادة منه بفعالية من غير جهد حصيل يستهدف توظيفه في صالح الإنسانية »^(١٧)

من هنا جاء تساؤل البعض عن أهمية كل البحوث والدراسات العلمية التي تمثل المكتبات ما لم يتفتح الناس جميعا بجهود العلماء والباحثين . ويبدو أن جزءا كبيرا من اللوم يقع على عاتق العلماء والمتخصصين الذين انصرفوا عن الحاجات الحقيقية للناس وأغصموا أعينهم عن المشكلات الخطيرة التي تنجم عن ممارسة العلم دون أي اعتبار آخر على الإطلاق .

وإذا كان من المؤكد أن العلماء حققوا في يومنا هذا نجاحات كبيرة في ميادين العلم الدقيق فإن الإشفاق كان كبيرا أيضا عندما اندفع العلماء في سيرة العلم التقليدية من غير اعتبار لاختلاف الظروف وتغير الزمان وتباين الحاجات .

ثورة في البيولوجيا :

انظر الى الارتباط القائم بين الأخلاق والتطورات البيولوجية المعاصرة تجد فيه دليلا على ما قلناه آنفا . . .
فالتقدم الهائل الذي نشهده في أبحاث الجينات و « تصنيع الكائنات » - إن صح هذا التعبير - يجعلنا في حيرة من أمرنا . ففي كل يوم نكتشف جديدا ، بل إن النجاحات العظيمة التي يحققها العلم في هذا الميدان بسرعة عجيبة أسقطت الحد الفاصل بين ما يمكن أن نفعله اليوم ونقدر عليه في لحظة الحاضرة وبين ما نأمل أن نفعله في الغد .
خلد مسألة الانجاب مثلا تجد أن القضايا التي كانت تفلق البيولوجيين بالأمس لم تعد تستأثر بانيهم أو ربما أصبحوا لا يعطونها أولوية في أبحاثهم الحاضرة ، إذ شتان بين وسائل كان يستحدثها العلم لتحديد النسل والحد من الانجاب عند منتصف القرن الحالي - على سبيل المثال - وبين تكنولوجيا متطورة تمكنا من التحكم بالخصائص الوراثية للجنين في يومنا هذا .

ثم إن الانجازات العظيمة في ميدان البيولوجيا والهندسة الوراثية لم بعد أثرها مقتصر على « تصنيع الكائنات » أو تشكيل الخصائص الوراثية للبشر وإنما تعدى الأمر ذلك ليشمل أحاسيسنا الذاتية وجوانب فطرتنا التي جبلنا عليها^(١) . فإقولك مثلا في أن قضايا الحمل والانجاب لم تعد مرهونة بعمليات التلقيح التقليدية وذلك لأن التقنيات الحديثة في حفظ البويضة مثلا أو نقلها وزرعها في أرحام من نشاء من النساء قد يسرت لنا خيارات كثيرة وفتحت لنا الباب على مصراعيه أمام بدائل لم تقطر على بال أحد حتى عهد قريب . قد يتمكن الإنسان في المستقبل القريب من أن يخلق « نسخا » مماثلة تماما بفضل تقنية متطورة تتيح له تلقيح بويضة الأنثى بخلية جسدية وليست جنسية . أما التشوهات الفطرية والأمراض والعاهات فإنه بالإمكان القضاء عليها - أو التخفيف من أثرها السيء على الأقل - وذلك عن طريق التحكم بالجينات . إذ لما كانت الأمراض الوراثية أو العاهات تنجم عن خلل يصيب الجينات نفسها فإن إصلاح الخلل في الجينات قبل ولادة الجنين من شأنه القضاء على تلك الأمراض والعاهات^(٢) .

غير أن العلم والتكنولوجيا المتطورين صاروا يطرحان على الساحة في العقود الأخيرة مشكلات أخلاقية تثير الاهتمام وتستحق التمعن . فعل قدر ما يضيفان إلى حصيلة المعرفة عندنا ويزيدان من قدرتنا على التحكم بالأمور ويتيحان لنا خيارات جديدة على الدوام نجددنا يثيران أيضا قضايا جديدة تدور حول ما هو صواب وما هو خطأ ، ما هو خير وما هو شر وهكذا . . . أما المعايير التي تحدد صواب الأمور أو خطاها ، خيرها أم شرها ، فإنها صارت تتبع من حاجات الإنسان الفعلية لا من مصادر تقليدية بالضرورة . ففي عصر العلم المتسارع هذا وفي زمن التكنولوجيا المتطورة والمعقدة صار حرك الأخلاق يقترب شيئا فشيئا من واقع الحال القائم بالفعل وليس من مثاليات مفارقة ، أو قل إن المحك صار يدور حول ما هو إنساني ومعقول بدلا عما هو مثالي ومأمور .

(١) Joseph Fletcher, The Ethics of Genetic Control, Anchor Books, New York, 1974, pp. XIII-XIV.

(٢) من أفضل الكتب التي تتناول الثورة البيولوجية والبيدايا بأسلوب سهل ومبسط كتاب الدكتور جيلسن صانع برون الفيلسوف وسطيال الإنسان ، سلسلة علم لغز ، المجلد ٤٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

والحق أنه ما كان لمفاهيمنا الأخلاقية أن تتغير وتتحوّل لولا أننا نعيش بالفعل عصرا متغيرا يتسم إيقاع التحول فيه بالسرعة الكبيرة . حقا إن الإنسانية عاشت منذ عهد قريب ولا تزال تعيش ثورات في ميادين العلم المختلفة كالثورة التي حققها الإنسان في ميادين الذّرة والالكترونيات وغزو الفضاء ولكن البيولوجيا هي طابع الثورة العلمية في يومنا هذا . ولا يعني ذلك - بطبيعة الحال - أن إنجازات علمية هامة في ميادين العلم المختلفة قد توقفت أو قلت وإنما الذي نعيه هو أن ميدان الثورة البيولوجية اليوم أصبح يستقطب اهتمام العلماء والباحثين والمثقفين ورجال الدين أكثر من غيره . فبعد الحرب العالمية الأولى وما صاحبها من ثورات في المشرينات ، كان محور الاهتمام في قضايا الأخلاق يدور في ميدان العلوم الاجتماعية ، ثم حدث بعد ذلك تحول في الاهتمام دار حول العلوم السلوكية وقضايا علم النفس . وما إن جاءت الحرب العالمية الثانية وما تبعها من استخدام للذّرة حتى صار هناك تحول جديد في قضايا الأخلاق حتمه العلم الفيزيائي ، وأما اليوم فاننا نواجه تحولا جديدا في الاهتمام بقضايا الأخلاق تفرضه علينا إنجازات الثورة البيولوجية . بل الأكثر من ذلك هو أن كشفنا لأسرار النواة في الذّرة - بالرغم من كونه حدثا عظيما بكل المقاييس - لم يطرح أسئلة أخلاقية ملحة ولم يثر مضكلات حادة في ميدان القيم كالتى نمايشها اليوم في ضوء اكتشافاتنا العظيمة لأسرار الخلية الحية .

ولكن انظر - بشكل أدق وأكثر تفصيلا - الى رأى ث . دوجانسكي حول الأبعاد الأخلاقية والإنسانية للثورة البيولوجية حين يقول : إن الانجازات العظيمة في مجال العلوم البيولوجية صملت بالفعل على تعميق فهنا للعوامل التي تتحكم بمسيرة التطور وخاصة تلك العمليات التي لها أثرها الهام في تطور الجنس البشرى . فالتناس يعلمون الآن أن بعض أشكال التكنولوجيا المتطورة في مجال الطب والعلوم البيولوجية متوافرة بالفعل ويمكن استغلالها في التحكم بالجينات ، كما أن هناك الكثير من الآلات والتكنولوجيا المتقدمة التي سيحبها لنا المستقبل مما يتيح لنا مجالا أكبر للتحكم بالجينات على نطاق أوسع . ناهيك بعد هذا عن أن الوسائل التي بين أيدينا الآن يمكن تطويرها إلى حد بعيد . فإذا ما كتب للإنسان أن يفتح مجالات جديدة أوسع في علم البيولوجيا ويقع على سر التطور فإنه يستطيع بعد ذلك أن يزيد من سرعة العملية التطورية أو أن يعدل فيها كيفما شاء . ومن هنا رأى دوجانسكي أن المسألة لا تقتصر على كونها مسألة بيولوجية بحث بل هي الى جانب ذلك مسألة اجتماعية وأخلاقية على حد سواء . وليس أدل على أن للقفية جوانب أخرى من أن نستعيد بذاكرتنا ما حدث لعلم تحسين السلالات eugenics من فشل ذريع أبان الربع الأخير من القرن التاسع عشر واطلاق القرن العشرين عندما ركز العلماء على الجانب البيولوجي وأهملوا كل ما عداه من جوانب أخرى لها أهميتها . وهل يخفى على المرء أن العملية كلها كانت تستهدف الارتفاع بشأن الإنسان أولا وقبل كل شيء ، ومن هنا تتضح - بكل جلاء - أهمية معرفة العوامل التي تجعل من إنسان المستقبل إنسانا أفضل . فإدما المسألة تتعلق بتحسين الإنسان والارتفاع بشأنه ، فإية غرابة في أن تكون للمسألة جوانب أخلاقية واجتماعية وفلسفية ؟ إن الغرابة - بمعنى آخر - تكمن في حصرتنا أنفسنا في نطاق ضيق كما في قولنا مثلا إن المسألة بيولوجية محضة . ومن هنا يرى كثير من المفكرين أن حل بعض علماء البيولوجيا مراجعة أنفسهم مرارا وتكرارا وأن لا يُصْصَبُوا أنفسهم حكاما يتحكمون بكل شيء أو يظنون أنهم قد عرفوا كل الجوانب التي تنفع البشر وترفع من شأنهم . ونحن للإنسان اليوم أن يمتد بقيام مجموعة من الأفراد والمؤسسات الأهلية والحكومية التي تستهدف بحث أخلاقيات العلم

ومحاولة كشف الجوانب الاجتماعية التي طملا أهمالها العلماء عن قصد أو ربما عن جهل بها وبأهميتها في هذا الشأن . ولعله من قبيل الحديث المعاد أن نقول بأن السؤال المهم الذي يطرحه بعض العلماء المهتمين والمؤسسات المسؤولة عن المضامين الاجتماعية والأخلاقية للعلم هو : ماذا ستكون عليه حياة الإنسان في ضوء التطور البيولوجي المعاصر ، أو الثورة البيولوجية على وجه أصح ، وهل يستجلب له حياة المستقبل مزيدا من القوة والسعادة أم عكس ذلك ؟ وإن تكن الاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية التي نوليها للانجازات البيولوجية في مجال الوراثة حديثة العهد نسبيا إلا أن التيار ما انفك يزداد شدة حتى بات المرء يرى نفسه إزاء صراعات فكرية ومذاهب مختلفة تتصل بالبحث العلمي ومضامينه . فهناك تيار يدعو أصحابه إلى رفع كل قيد على العلم وأبحاثه ونتائجها ، وهناك في الطرف الآخر تيار ثان يدعو إلى فرض قيود على العلم بل وتعمير كل أبحاث تتعلق بتطوير أو تعديل الخصائص الوراثية للبشر ، وهناك إلى جانب هذين التيارين المتطرفين تيارات أخرى تتراوح درجات تأييدها أو معارضتها لهذا الطرف أو ذلك .

وبما أننا لا نهدف من وراء البحث في هذا الميدان إلى تقصي كل صغيرة وكبيرة في التيارات الفكرية المتصارعة حول الثورة البيولوجية وجوانبها الأخلاقية فلا أقل والحالة هذه من ذكر شيء حول هذا الأمر ورسم معالم الطريق الرئيسية على أقل تقدير .

نقول بادية شيء إنه حياة الإنسان أمر مقدس لدى الغالبية العظمى من فلاسفة الأخلاق . غير أن وجهات نظرهم تظل متباينة حول أي مرحلة من مراحل التطور في حياة الإنسان تتجسد تلك القداسة كاملة . هل تراها تظهر عند ولادة الإنسان مثلا ، أم عندما يقوم بحركات حيوية إرادية ، أم أن القداسة لحياة تبدأ بمجرد تلقيح الحيوانات المنوية للبيوضة ، أم غير ذلك من مراحل التطور التي تعقب الولادة وهكذا ؟ والحق أنه من الضروري أن نسأل أسئلة كهذه ونحاول تحديد مفاهيمنا للأفكار إذا عرفنا أن كل ذلك يتصل اتصالا مباشرا بمشكلات اجتماعية وأخلاقية كثيرة كمشكلة إجراء التجارب على بويضات المرأة أو على الجنين . فبعض الناس مثلا يرون أن الحياة تبدأ لحظة إخصاب الحيوانات المنوية للبيوضة zygote وهذه نظرة يؤيدها علم البيولوجيا بوجه خاص باعتبار أن الخصائص الوراثية للفرد genetic endowment تتحدد منذ تلك اللحظة . ومن هنا ترانا تطرح السؤال التالي مثلا : هل الإجهاض أمر مسموح أم جريمة ؟ بل ترانا نسأل من جديد إذا ما مرنا على هذا لنلوا عينا إذا كان التلقيح الخارجي in vitro أي تلقيح الحيوانات المنوية للبيوضة من غير اتصال جنسي بين ذكر وإنثى - أمراً مباحاً أم محظوراً ، أو ربما نسأل عينا إذا كان ذلك يمكن تبريره أخلاقيا أم أنه فعل مجروح ومكروه . ذلك أنه لما كانت الأجنة الصغيرة التي نحري عليها تجربتنا قد يكون مصيرها عجائبي الأوساخ ، شأنها في ذلك شأن الفانودرات والفناتيات ، فإن الاختلاف في وجهات النظر قد طرأ أو تفاضل لدرجة أن الأمر لم يعد محصورا في إطار علم البيولوجيا - كما قلنا - بل إن علم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم القانون وربما غيرها من العلوم دخلت حلبة الصراع وصار كل منها يدلي بطلوه في تلك الأمور العسيرة . ولعل هذا هو السبب في أن التقدم العلمي والانجازات التكنولوجية العظيمة ، سواء تلك التي تعمل على تطويرها أم تلك التي نأمل تحقيقها في المستقبل ، لم تعد مناظرة بالعلم وحده بل إن هناك من الضغوط الخارجية والأمور الهامة ما يجب أخذها بعين الاعتبار في هذا الشأن . فهل نجيب بعد هذا أن يشك بفعالية تجارب تصنيع الحياة cloning من خلايا جسمية ، لا لأن العلم أثبت فشلها ، ولا لأن العلم لم يعد يجعل في طياته

جديدا في المستقبل ، وإنما لأنه يستحيل إهمال العوامل والجوانب الأخرى التي لا نشك بأن لها دخلا كبيرا في إباحة تجاربنا أو تحريمها .

فما قولك مثلا إنه متى نجحت تجارب تصنيع الإنسان من خلايا جسدية فإن ذلك من شأنه أن يعطينا أفرادا متطابقين كل التطابق في كل شيء ، وهذا بدوره يطرح تساؤلا خطيرا حول هوية الإنسان وشخصيته . فكل فرد يتمتع من بين البشر جميعا بهوية خاصة تميزه وحده ، ولكن ماذا يعني من هويته إذا كان هناك من بين البشر آلاف يماثلونه في كل شيء ؟ غير أن بعض علماء البيولوجيا لا يعتقدون بأهمية هذا الاعتراض الأخير على صنع بشر متطابقين ، فهم يرون أن الطبيعة كثيرا ما فعلت ذلك في حالة التوائم المتأثلة وهم التوائم الذين ينحدرون من بويضة واحدة . بل الأكثر من هذا هو أنهم يرون مثل هذا التطابق بين مجموعة من البشر مبعث فخر واعتزاز لكل من يتم تصنيعه بهذه الوسيلة المتطورة وذلك لأن الخلايا الجسدية التي يتم بها تصنيع الحياة تستخلص من أفراد يتميزون بصفات وراثية مرغوبة . ولما كان الأمر كذلك ، فإنه من الأولى بالناس الذين ينشأون عن هذا الطريق أن يكونوا فرحين نظرا لأهم بالفعل من أصحاب الحظ السعيد بفضل الخصائص الوراثية التي يملكونها . بل لقد رأى بعض العلماء المؤيدين لتجارب تصنيع البشر بأن هوية الأفراد لا تحددها عوامل بيولوجية محضة . نعم أن الوراثة تلعب دورا هاما - في نظرهم - ولكن أثر البيئة ، أيما كانت ، لا يقل عن أثر العوامل البيولوجية أبدا ، فلا سبيل إلى قيام تطابق تام بين أفراد أو عائلة البشر المصنعين clone الآ في أضيق الحدود - كما يرون - وذلك لأن كلاً منهم سيغير في حياته مواقف محددة خاصة به وستحيط به ظروف تختلف إلى حد بعيد عن ظروف أي فرد آخر من أفراد عائلته ، وعلى ذلك فإن هويته ستكون على أرجح احتمال هوية فريدة خاصة به وحده .

أما عن المشكلة التي تدور حول قيام هوية خاصة بالإنسان ومتى تظهر تلك الهوية فإن اختيار مرحلة محددة يعتمدها الناس على أنها هي المرحلة الحاسمة في هذا الموضوع يرجع في الأساس إلى الناس أنفسهم والمشرعين . ومن هنا كان اختلاف الرأي بين المجتمعات حول هذا الرأي ، وما يتعلق بقضية الإجهاض ومشروعيتها مثلا . ففي استطاعة العلماء تقسيم مسيرة الحمل والولادة وما بعدها إلى مراحل مختلفة ، فنقول مثلا بأن هناك مرحلة للانقسامات الميوتيكية meiotic divisions ومرحلة للاخصاب fertilization ومرحلة الزرع أو البذر implantation ومرحلة الإنمаш أو الإحياء animation ومرحلة الولادة ثم مرحلة نطق الكلام إلى آخره ولكن من الصعب أن نقول في أي المراحل تلك تقوم هوية الإنسان على وجه التحديد . . وعلى ذلك فإنه من المتعذر - إن لم يكن من المستحيل - القول بأن للمرء في مراحل تطوره الجنيني المبكر حقوقا معينة أو أن هناك تشريعات - أيما كانت طبيعتها - تخصص به آنذاك . ولعل رغبة بعض الناس في تحديد مرحلة مبكرة من تطور الجنين يكسبونه فيها شرعية محددة وحقوقا خاصة ترجع إلى إيمانهم - بحكم حقيقتهم الدينية - بأن الروح تنزل في الجسد - فإذا الذي لم يكن من قبل حياة قد أضحي بالروح حياة بالفعل ، أو قل بأن الذي لم يكن قبل هبوط الروح إنسانا قد أمسى بعد هبوطها إنسانا يجب على القانون أن يحميه ويحفظه . ومهما يكن الأمر فإن هذه معتقدات لادخل للعلم فيها ، بل كل ما يمكن أن يطرح في العلم هو أن تطور الجنين لا يحدث فجأة وإنما يتم على مراحل . فالبريضة - ملقحة كانت أو غير ملقحة - تنطوي على إمكانية أو

قدرة على اظهار انسان لنا في آخر الأمر متى توافرت ظروف محددة . بعبارة فلسفية اخرى نقول بأن ماكان انسانا بالقوة يصبح على مر الزمن ويتوالى المراحل انسانا بالفعل ، وتطور المراحل على هذا النحو أشبه مايكون بسيرة تاريخية أو بقطعة موسيقية . فكما أننا لا نقدر أن نقول بأن مقطعا منها هو القطعة الموسيقية بعينها ، كذلك لا نقدر ان نقول بأن هوية الانسان أصبحت قائمة في هذه اللحظة أو تلك . ويجب أن لايسرح بنا الخيال فنظن انه طالما كان للقطعة الموسيقية بداية فان هوية الانسان تكون مع بداية تكونه مثلا إذ أننا بذلك نعود من جديد الى السؤال الذي انطلقنا منه أصلا وهو : لماذا نصرّ مثلا أن تكون هوية الانسان قائمة في هذه المرحلة دون تلك ؟ وما ان نرجع من جديد الى موضوع حديثنا عن الاجهاض حتى نرى بأن المشكلة لم تزَل معقدة الى حد بعيد . فتقسيمنا لعملية الحمل الى مراحل وإباحتنا لعمليات الاجهاض في المرحلة الاولى منها ، مثلا ، لايعنى بالضرورة اننا قد منحطينا كل مايمترض سيلتنا من عقبات كبار . اذ قد يعترض معترض هنا بأنه مادامت المرحلة الاولى من الحمل مرحلة نعتبرها بنظر بقيامها ، كاعترافنا بالمرحلة الثانية والثالثة وإقرارنا بها ، فما الذى يسوغ إجراء الاجهاض في المرحلة الاولى وتجرحه في المرحلة الثانية أو الثالثة مثلا ؟ بل هل افتراض أننا أبعدنا عمليات الاجهاض في المرحلة الاولى مثلا فما الذى يمنع تحت ظروف معينة من إجراء الاجهاض في المرحلة الثالثة ، وهل يعتبر امر كهذا سلوكا يعاقب عليه القانون ؟

الاعتدال المطلوب والحكمة واجبة

الواضح إذن هو أن من أبرز الصفات التى انتصفت بها المعرفة عموما أنها تحرر الانسان وتجعله مسؤولا على حد سواء . والواضح ايضا إنه في الوقت الذى يشعر الانسان فيه بغبطة عظيمة كلما تقدمت وسائل المعرفة والبحث العلمي نراه في الآن نفسه في حيرة وقلق متزايدين . وما اكتشاف نظرية التطور الا شاهد واحد على ما نقول . إذ أن مرد الحيرة هنا هو السؤال التالي : هل يسائر الناس مسيرة التطور كيفأ شاء لها أن تشكلنا أم أن الانسان ملازم بتحديد مسار التطور وتشكيل المسيرة نفسها كيفأ شاء هو ؟

نعم لربما أقام الانسان بنوكا للمحيوانات المنوية لأجل أن يستغلها متى أراد وعلى النحو الذى يفي ، بل ربما يستطيع الانسان أن يخطو بعد ذلك خطوة أبعد حين يعمل على تطبيق برنامج الحياة المصنعة cloning والهندسة البشرية بالفعل . نقول إنه ربما استطاع العلماء تحقيق كل ذلك طنا منهم أنهم يعرفون ماينفع البشر على وجه التعديد ويتصورون أن النتائج لن تكون خطيرة أو غريبة للأمال . ولكن يجب أن ندلم بأن العلماء طرف واحد فقط في حلبة الصراع الكبير ، وان هناك في طرف آخر من يرفض إخضاع البشر «وتصنيعهم» كما لو كانوا مادة جامدة . فهناك طائفة من الناس وجماعة من العلماء وكذلك بعض المؤسسات العلمية ترى أن صنع إنسان في المعمل والعبث بخصائصه الوراثية إما هي أعمال أقل مايقال فيها إنها لا أخلاقية . ومهما يكن الأمر حول معضلات كهذه واختلاف الرأي حولها فان الأمر الهام الذى يجب استيعاده هنا هو أن نظن بأن احكامنا كلية ومطلقة أو أن أرامنا غير قابلة للنقاش أو التعديل^(٥) .

Theodosius Dobzhansky., Living With the Biological Evolution, in Man and the Biological Revolution Ed. by: (٥) Robert H. Haynes, Canada, 1976, PP. 39-44

هل هناك حياد مطلق في العلم ؟

هناك ، الى جانب ماعرضنا له آنفا ، جانب آخر لمشكلة ارتباط العلم بالأخلاقي يتعلق بحياد العلم . ولقد بدأ التعديل يطرأ على هذا التصور للمعلم بمحاولات من جانب الاتحاد السوفيتي لتوجيهه وجهة خاصة به . فبعد الثورة الروسية بعشر سنوات جرت محاولات لاكتساب العلم طابع الايديولوجيا السائدة والحاكمة هناك وذلك على نحو تكون لنا فيه «فيزياء اشتراكية» و «بيولوجيا اشتراكية» وما الى ذلك . فلم يكن مهما عند رواد هذا التوجه الجديد للعلم في الاتحاد السوفيتي ماينطوى عليه العلم نفسه من منطق داخلي خاص به بقدر ماكان يهمهم أن يصبح العلم اشتراكيا ويختلفا عن العلم الذي شيع في الدول الرأسمالية . ويبدو أن الاختلاف في وجهات النظر حول حياد العلم إبان الثلاثينات والاربعينات لهذا القرن قد انتهى بالفعل بمجيء ت . د . ليسنكو الى مركز المسؤولية في الاتحاد السوفيتي وعاملاته توجهه الأبحاث العلمية في طريق يخدم الايديولوجية السياسية ويخضع لها . فمن الجدير بالذكر أن العلم في الاتحاد السوفيتي اصيب بنكسة عظيمة بسبب التحكم والتوجيه اللذين مارسهما الحزب الشيوعي في ميادين العلم والأبحاث وخاصة في حقل البيولوجيا^(١) .

ونخطيء اذ نظن أن الحياد في العلم كان هدفا للنقد العنيف من جانب تيار الفكر السياسي اليساري فقط وإنما كان للتيار اليميني ايضا نصيبه في النقد والهجوم على ذلك الحياد . فلقد بدأ الحديث يتردد ، منذ النشأة الأولى للايديولوجية النازية في ألمانيا ، عن «علم آري» رفيع وآخر لا آري وضع . ولقد كان من نتيجة هذا التوجه اليميني المتطرف في السياسة أن أصبحت نظرية النسيه على هجوم لمجرد أن صاحبها «اليهودي» لا ينتمي بالطبع الى «الجنس الآري» الرفيع . وهناك ايضا نظريات علمية أخرى كانت هدفا للنقد والتسفيه والتشكيك من جانب اليمين واليسار معا نظرا لعدم مسابقتها للمفهوم الآري عند النازيين أو للتوجه الايديولوجي عند الاشتراكيين .

على أن حدة النقد أو الهجوم على النظريات العلمية من جانب كل من النازيين والاشتراكيين كانت مختلفة في النتائج على الأقل . ففي الوقت الذي اتخذت فيه معارضة النازيين للعلم منحى عنيفا تمثل في طرد جماعة من العلماء اليهود من الجامعات أو اضطهادهم في مراكز البحث العلمي أو في قتل السجناء في معسكرات الاعتقال نجد أن المعارضة في الاتحاد السوفيتي كانت اقل حدة بعض الشيء . ذلك أن الاثر السيء لتوجيه العلم من جانب الماركسيين المتشددين قد اقتصر - في الغالب - على تحلف عام وخطير أصاب علم الجينات بصورة خاصة .

أما في بريطانيا ، فقد ظهرت في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية أصوات تطالب بتسخير العلم لصالح الإنسان وذلك بفضل تعاطف بعض العلماء والفكرين هناك مع التوجهات الاشتراكية . ولعله من المفيد هنا أن نذكر

(١) Steven Rose and Hilary Rose, The Myth of the Neutrality of Science, in *The Biological Revolution* Ed. by: Watson Fuller, Anchor Books, U.S.A., 1971, PP. 283-287.

حول المحاولات التي قام بها الاتحاد السوفيتي من أجل توجيه العلم والبحث العلمي وجهة خاصة تتناسب مع الايديولوجية الاشتراكية راجع كتاب : Science at the Cross Roads, Frank Cass and Co. Ltd., Second edition, London, 1971.

بأن أفكار المصلحين والعلماء الماركسيين كانت تحمل في ثناياها تناؤلا ويشريبات توجي بإمكانية استغلال العلم لخدمة الإنسان وتحرير البشر من كثير من المنغصات اذا ما أمكن التخطيط للعلم تخطيطا عقليا . ولكن كانت هناك أيضا جماعة أخرى من العلماء البريطانيين تنادى بالحرية المطلقة للعلم وتطالب بالإبقاء على المنطق الدائلي له .

على انه ما ان اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية وتم تهجير العلماء وتسخيرهم في ميادين البحث التي تقدم ظروف الحرب ومتطلباتها حتى أصبح الحوار حول وجهة العلم عقيا . فحتى أكثر العلماء الألمان انسانية وتعقلا وحكمة في توجهه وجد نفسه فجأة ينساق وراء تيار الحرب أو يستسلم لطرف فرض عليه فرضا . ولقد حدث مثل ذلك في بريطانيا أيضا حيث تم تهجير العلماء والباحثين لخدمة الحرب ومن أجل البحث في الأغراض العسكرية . أما في الولايات المتحدة فإن اضخم تسخير للطاقت البشرية والمادية في الميدان العسكري تمثل فيها يعرف بـ «مشروع مانهاتن» ، وهو المشروع الذي أسفر في النهاية عن صنع القنابل النووية .

صحيح أن العاملين في ذلك المشروع ، ومن بينهم اينشتين نفسه وروبرت أبنهايم ، كانوا يتمتعون بأخلاق رفيعة ويتطلعات انسانية ، ولكن الذي صمما هنا هو أن الرئيس الأمريكي روزفلت هو الذي وافق على المشروع الخطير وأن العمل في المشروع قد تم تمويل من الحكومة الأمريكية ، وهذا ما يطيح أساسا بفكرة الحياد في العلم . أما النتيجة فإنها واضحة تماما في المأساة التي لحقت باليابان حين ضربت هيروشيما ونجازاكي بقنبلتين ذريتين .

أما لماذا سعى علماء كبار الى العمل في ذلك المشروع فإن السبب يرجع الى اعتقادهم بأن هتلر كان ماضيا في طريقه لانتاج قنبلة نووية ، ولما كان هناك تخوف - عند اينشتين وغيره من الفيزيائيين - من امتلاك طاغية كهتلر لقنبلة ذرية سارع أولئك العلماء الى الطلب من الولايات المتحدة بالساح لهم بإجراء التجارب لاجل التوصل الى صنع قنبلة نووية قبل أن يتوصل اليها هتلر . ولما اتضح فيما بعد أن هتلر لم يكن في طريقه للحصول على القنبلة ، وكذلك لما ظهر ان القنبلتين اللتين ألقيتا على هيروشيما ونجازاكي كانتا من صنع اميركي شعر الفيزيائيون العاملون في «مشروع مانهاتن» بتأنيب الضمير وأدركوا الأبعاد الخطيرة للأبحاث والتجارب التي قاموا بها في ذلك المشروع الرهيب .

أما وقد حدثت المأساة اليابانية فإن العلماء سعوا الى تبني فكرة من شأنها ضمان حرية البحث وتقديم العلم في الفيزياء من جهة وتحليل ضلالتهم من الذنب الذي شعروا به نتيجة المأساة من جهة أخرى . فما كان منهم الا أن راحوا يفرقون بين الفيزياء ونتائجها ، أي بين العلم الفيزيائي من حيث هو علم محايد ، كما تصوروا آنذاك ، وبين النتائج أو حصيلة التطبيقات الخاصة بذلك العلم . ولقد ازداد التمسك بهذه التفرقة في ضوء المسار الذي فرض على العلم في كثير من الأحيان . ذلك انه كلما جد جديد على مسرح العلم وثبت أنه لا يتجند الإنسان ازيداد العلماء تمسكا بالتفريق الذي ألقاهم بين العلم ونتائجهم .

وماذا عسى أن يفعل العلماء غير اصطناع مثل ذلك التفريق ومحاولة التخلص من المآزق الذي وجدوا أنفسهم

فيه ؟ لقد دأبوا على التأكيد بأن تقدم البشرية مرهون بتقدم العلم بإطلاق يد البحث فيه ولكنهم سرعان ما لاخروا بالقرار الى مختبراتهم وابتدعوا لنا تفرقة مصطنعة بين العلم ونتائجه وذلك بعدما ظهر للعيان خطر المسار الذي فرض على العلم ومساوئه التطبيقات التي نجمت عنه .

أما أكبر دليل على ضعف سمة الحياد في العلم المعاصر فانه يتمثل في الضغوط التي تحيط به في يومنا هذا . فالمسار الذي يتخذه العلم يعني - في الاصل - أن الخيار كان متاحا للسيرة في هذا الطريق دون ذلك ، ولكن جعل العلم يتخذ طريقا محمدا يعني أن هناك جهة مألواذت للعلم أن يسير في وجهة دون أخرى . فالمسألة اذن ليست في أن مسار العلم حتمي أو انه يستحيل وضع حد له وذلك لأن هذا أمر ممكن تماما من خلال رصد ميزانية للبحث العلمي أو حجبتها عنه ، ولكن المسألة هنا هي أن من يسفر ميزانية مالية لاجل العلم لا يمكن أن يكون خاليا من الاعتبارات الايديولوجية مثلا أو القيم الخاصة أو التفضيلات الذاتية التي يريد للعلم أن يحققها مقابل المال الذي ينفق . ومن الواضح ايضا أن اختيار شيء دون آخر يعني تفضيلنا للشيء الذي نختاره على كل مساواه . وعلى ذلك فان العلم الذي يسعى ايضا الى تحقيق مانهناز اليه يعتبر متحازا بنوره .

فاذا سأل سائل هنا عن السر وراء قبول المختبرات العلمية ومراكز الابحاث تمويلات من الخارج فان الجواب هو أن الابحاث العلمية باهظة التكاليف وأن استمرارية العمل العلمي لا يكتب لها النجاح مالم يتوفر المال اللازم لها أصلا .

وايا مكان الامر فان عامل التمويل والاتفاق على البحث العلمي هو جانب واحد فقط من الموضوع - أي من موضوع الحجاب في العلم - وهو عامل خارجي يتمثل في الضغوط التي تفرض على وجهة العلم وطبيعته من الخارج . ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر داخل يتمثل في مسؤولية العلماء والباحثين إزاء التطورات المستقبلية في ميادين العلم وأثرها على تقدم الإنسان أو تأخره .

يتناول الدكتور فؤاد زكريا هذا الجانب بالبحث في كتاب له بعنوان «التفكير العلمي» فيرى أولا أن أهمية العلم منذ مطلع القرن العشرين فاقت أهمية جوانب كثيرة في حياتنا منذ القديم وحتى يومنا هذا . ولا تقتصر أهمية العلم - في نظره - على تجاوزه روعة المنجزات الانسانية في الفنون والآداب وذلك الى الحد الذي أصبح فيه محور الحياة في هذا العصر وفي كل عصر ، بل إن أهميته تكمن ايضا في كونه مصيريا ويعتمد عليه بقاء البشرية وازدهارها أو تردى الانسان وفناؤه .

ولما كانت الامال المعقودة على العلم كبيرة في القضاء على بعض المشكلات الهامة التي تواجه الإنسان في حياتنا المعاصرة مثل نقص الغذاء وتزايد عدد السكان ، وتلوث البيئة ، ونقص الموارد الطبيعية ، وخطر التحكم بخصائص الانسان الوراثية فيما يضر الانسان نفسه ، ومشكلة التسليح ، فان العلماء يتحملون جانبا من المسؤولية في تسخير العلم لحلمة البشر . وتتمثل مسؤولية العالم في جملة من العناصر الاخلاقية التي تعكسها شخصيته مثل الموضوعية

وماتضمنه من روح نقدية ونزاهة وحياد . ولكن يجب أن ننسب إلى أن حياد العالم في تقييمه للأمور يجب ألا يعنى ابتعاداً من جانبهِ عن مشكلات الحياة ، وذلك لأن عدم اتخاذ موقف من الأحداث ترتب عليه مساوئ كثيرة وخطيرة .

وذلك لأن صفة الحياد هذه يمكن ، من زاوية معينة ، أن تكون موضوعاً للإتهام والإدانة ، ولا تكون على الدوام صفة مرغوبة في العلم . ومحدث ذلك حين يعنى الحياد عدم الاكتراث أو تبذل الفكر والمشاعر ، بحيث يستمر العالم في عمله بغض النظر عما يمكن أن يترتب عليه من خير أو شر . وفي هذه الحالة يكون كل ما يهدف إليه العالم هو مواصلة البحث العلمي ، والتغلب على التحدي الذي تواجهه به صعوبة ما ، والسعي إلى بلوغ أقصى النتائج الممكنة للعمل الذي بدأ يشتغل به ، أى أن المضي في البحث العلمي يصبح غاية في ذاتها ، بغض النظر عن أية غاية أخلاقية أو لآخلاقية يمكن أن يخدمها هذا البحث . مثل هذا الموقف يمد بدوره «حياداً» ، ولكنه حياد يتضمن في داخله نتائج خطيرة من الوجهة الأخلاقية .^(٣)

ليس بالعلم وحده يحيا الإنسان :

الخلاصة - إذن - هي أن أكبر دليل على أهمية العلم في حياتنا المعاصرة وعلى ضرورة اكتسابه إبعاداً أخلاقية وإنسانية هو هذا الاهتمام المتزايد - على المستوى الرسمي والشعبي ، وكذلك عند المتخصصين والمثقفين - بالعلم ونتائجه . فهناك اهتمام من جانب الناس العاديين بقضايا العلم ومشكلاته وهم الذين لم يكن يهمهم شيء من هذا في الماضي . وهناك أيضاً اهتمام من بعض العلماء بقضايا الإنسان والأبعاد الأخلاقية للعلم الذي يمارسونه وهم الذين لم يكن لهم أيضاً اهتمام بكل هذا منذ مدة طويلة .

فمشكلات الإنسان وقضايا العلم في عالمنا المعاصر لا يمكن أن تترك دورها بحث دقيق أو حلول أكيدة نظراً لأن حياة البشر أنفسهم صارت اليوم في كفة الميزان . نعم ، لعل هناك من يقول بأن العلم كمثل يحل مشاكله الخاصة به والناجئة عنه وذلك من خلال دعم أكبر له وإتفاق أكثر عليه ، لكن هؤلاء ينسون أن المشكلات المترتبة على الممارسة للمسؤولية للبحث العلمي أمر قائم بالفعل وهي بمثابة كابوس مرعب يتكد على الإنسان حياته ويعكر عليه صفو تفكيره . أما الآمال التي يعلفها الباحثون - الذين يطالبون بالمزيد من الحرية والدعم للبحث العلمي - على العلم فإنها ما زالت مجرد أحلام ووعود لا يمكن الجزم بتحقيقها في المستقبل القريب أو البعيد .

هذا من ناحية ، وأما من ناحية ثانية فإن المبدأ الذي يجب أن يقوم عليه العلم والبحث العلمي هو إمكانية استفادة البشر كلهم دونما استثناء من هذا الجهد الإنساني ومن غير ما أعراض جانبية أو نتائج عكسية تستدعي جهوداً

(٣) - انظر زكريا : التفكير العلمي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٣ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص. ٢٦٨ - ٢٦٩ .

علمية أكبر من أجل حلها . فمن غير المعقول أن نترك مسيرة البحث العلمي تقضي في سبيلها دونما حكمة أو رؤية أو تخطيط ودراسة لكافة الاحتمالات السلبية ثم نجد أنفسنا بعد حين متروطين في مشكلات لم نحسب لها حسابا . وهل حقا هناك مايرر إتلاف مساحات شاسعة من النباتات الخضراء والغابات التي تعمل على امتصاص ثاني اوكسيد الكربون من الجو وتزودنا بالاكسجين في المقابل ، أقول هل هناك مايرر كل ذلك من أجل إقامة مشاريع اقتصادية تستهدف الريح التجاري بالدرجة الأولى ؟ وهل يغيب عن بالنا أن إتلاف النباتات والغابات الخضراء من شأنه زيادة نسبة ثاني اوكسيد الكربون في الجو ومن ثم ارتفاع درجة حرارة الأرض نظرا لأن هذا الغاز يحول دون ارتداد الحرارة الأرضية الى طبقات الجو العليا ، الامر الذي يتسبب في إحداث ظاهرة «البيت الزجاجي» لبيئة الأرض . ومن المعروف أن خطر ظاهرة «البيت الزجاجي» هذه لا يقتصر على تهديد حياة الإنسان نتيجة الحرارة المرتفعة التي لن يتحملها الجسم بمرور الزمن ، ولا في تغيير نمط البيئة الأيكولوجية أو دورات المناخ الاعتيادية وإنما يمتد الاثر السيء لهذه الظاهرة الى إذابة جبال هائلة من الجليد في القطب الشمالي مثلا مما يؤدي الى ارتفاع منسوب البحار والمحيطات والانهيار ومن ثم غرق مدن يكاملها واختطافها من على وجه الأرض .

وماذا عسى أن نقول غير ذلك في خطر ظاهرة أخرى نجمت عن استخداماتنا اللامسؤولة للمواد الفلوروكاربونية التي تلتهم طبقة الاوزون من الجو- وهي غلاف فضائي - يحمي الحياة على الأرض من الإشعاعات الكونية الضارة لبيئة والإنسان ومن أهمها الأشعة فوق البنفسجية قصيرة المدى ومتوسطة المدى المسببة للعديد من أشكال سرطان الجلد^(٩) .

ونحن لا نريد هنا أيضا أن نأخذ بما يدعوه اليه المتشائمون الذين يحثون على استبعاد العلم من حياتنا أو الذين يفللون من أهميته ويشككون في قدرته على إسعاد البشر ، وإنما يجب أن نصر على استمرارية العلم ، والبحث العلمي بشرط أن يقترن كل ذلك بأبعاد أخلاقية وإنسانية في المقام الأول والأخير .



(٩) تحت رعاية الأمم المتحدة ، تم في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٧ التوقيع ، في مونتريال بكندا ، على أول معاهدة دولية تستهدف التخليص من نسبة التلوث . وهذا حدث علمي في حد ذاته رحب به الباحثون للذين يشقون البيئة وهائل له المظالمات بالمحافظة عليها . لأول مرة يشهد عالمنا الضخم اعتناء كبيرا من جانب السياسيين بأبعاد البيئة ومشكلات التلوث التي تهدد الحياة على وجه الأرض .

أما المشكلة لمحورية التي أثارت انتباه العلماء والسياسيين والمفكرين وطيرم الى الحد الذي دفع المسؤولين الى الإجماع في مونتريال والتوقيع على تلك المعاهدة التاريخية فلها لم تكن مشكلة عابرة بالأقطار الحساسة التي تعمر الفلوات مثلا ولا مشكلة تتعلق بأشتات الانساق للهولاء للشيخ بالرماس المصير من حوامم السيارات أو غير ذلك من مشكلات حلولة على يد الإنسان وحده ، أفرأ إذن المشكلة لمحورية في ذلك الإجماع لم تكن تدور حول حل هذه المشكلات وإنما كانت تدور حول المحافظة على طبقة الاوزون في الجو .

حول هذه المشكلة لدراسة ذات المحورية الثالثة ، راجع كتاب :

John Gribbin *The Hole in the Sky*, Corgi Books, Great Britain, 1988.

كذلك راجع الكتاب الذي اعدته اللجنة العلمية للبيئة والفضة وهو بعنوان :

مشكلة التلوث : ترجمة . محمد كامل حروف ، مراجعة د . حل حين حجاج ، سلسلة عالم المعرفة (١٤٦) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩ .

مقدمة :

يرى بعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية أو فلسفتها أن عل هذه العلوم أن تنسج عل منوال العلوم الطبيعية ، أو ما يسمى بالعلوم المنضبطة . وهم يربطون هذا بقضية استخدام الرياضيات كأداة ، كما يربطونه بقضية اليقين .

ولما كان من المتعارف عليه أن الرياضيات هي قلعة اليقين ، فقد يكون من المفيد أن يتعرف المشتغلون بالعلوم الإنسانية عل ما آلت إليه قضية اليقين في الرياضيات ، حتى يقرروا لأنفسهم ما إذا كان من المجدي أن يعملوا (أو يستمروا في جعل) بلوغ اليقين أحد أهدافهم .

وهذا المقال يركز عل عرض وشرح النتائج التي نشرها كورت جودل Kurt Godel عام ١٩٣١ والتي تبين - فيما تبين - أنه لا يمكن (ولن يمكن) الاطمئنان إلى خلو كثير من النظريات الأساسية في الرياضيات من التناقضات المنطقية . ويربط المقال بين هذه النتائج وقضايا ميكنة الحقائق ، ثم يقدم ويناقش بعض الأفكار الفلسفية المتعلقة بهذه الأمور .

نظرة تاريخية :

مرت الرياضيات في تاريخها بأزمات استوجبت إعادة النظر في الأسس التي تقوم عليها ، ولعل أولى هذه الأزمات تلك التي شهدتها الهندسة في عصر الفينثاغوريين منذ حوالي أربعة وعشرين قرناً .

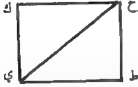
كان الفينثاغوريون يأخذون بـ « المسلمة » التالية ، ويقومون براهين هندستهم عليها . لكل قطعتين مستقيمتين \overline{AB} ، \overline{CD} توجد قطعة مستقيمة \overline{EF}

**انحصار اليقين *
هل يمكن ميكنة الحقائق؟**

محمد عامر

(*) هذا المقال ممدى إلى السيد الأستاذ الدكتور / مصطفى سريفة تبة بجهوده في نشر العلوم الإنسانية ، وتلبية رغباته من البحث .

بحيث تكون كل من \overline{AB} ، \overline{AC} من مضاعفات \overline{AD} . أي أننا إذا أخذنا \overline{AD} وكوحدته لقياس الطول، كان كل من طول \overline{AB} وطول \overline{AC} عدداً صحيحاً. وكانت هذه «المسلمة» متفقة مع عقيدة الفيثاغوريين الكونية التي تجعل الأعداد الصحيحة أساس كل شيء. لكنهم - لبالغ أسفهم - اكتشفوا أن هذه «المسلمة» غير صحيحة. فقد استطاعوا إثبات أنه إذا كان \overline{AD} طويلاً مرمعاً وكانت القطعة \overline{AB} هي الضلع \overline{AC} ، والقطعة \overline{AD} هي القطر \overline{AC} ، لما وجدت قطعة \overline{AD} تحقق الشروط المطلوبة. فزعم هذا عقيدتهم كلها وليس هندستهم فقط.



وقد ظلت الهندسة في أزمة إلى أن وضع يودوكس (٤٠٨ - ٣٥٥ ق.م) تعريفة للتناسب. فدخلت بذلك الهندسة عصرها جديداً، هو العصر الذي تسمى هندسته بالهندسة الأقليدية، إذ أنها قد انتقلت إلينا من خلال كتاب أقليدس الشهير «المبادئ».

لنتفكر الآن ٢٣٠٠ سنة من الزمان لنصل إلى الأزمة التي شهدتها الرياضيات مع دورة القرن التاسع عشر، والتي كانت نتائج جودل من تداعياتها. ولنوفر على القارئ مؤونة الدخول في تفاصيل فنية قد لا يستسيغها، نكتفي بالقول بأن هذه الأزمة بلغت من العنف حداً استوجب إعادة النظر ليس في الرياضيات ذاتها فقط، بل أيضاً في المنطق الذي تقوم عليه الرياضيات، وفي اللغة التي تصاغ من خلالها الرياضيات.

وكتمهيد لعرض نتائج جودل سنتناش فيما يلي بعض المشكلات المنطقية، ومن خلالها ستعرض لبعض القضايا النظرية. وسنحاول تجنب أو تبسيط الأمور الفنية قدر الإمكان. وعلى كل فنحن ندعو القارئ إلى عدم التهيّب من هذه الأمور الفنية، كما ندعوه إلى عدم التهيّب من التعامل مع الرموز القليلة التي سنضطر إلى استخدامها.

الصدق :

الصدق عكس الكذب، وكل منها صفة من صفات الجُمْل، أو بالأحرى بعض الجمل، فالجمل الإنشائية لا توصف بالصدق ولا بالكذب. لكننا نود أن يكون بالإمكان وصف كل جملة خبرية (ذات معنى) بالصدق أو بالكذب، وليس بالاثنتين معاً. هنا نقابلنا عقبة كاداه، يمكن تجسيدها في الجملة التالية :

هذه الجملة كاذبة

فإذا ما افترضنا أن الجملة المكتوبة على السطر السابق صادقة خلصنا إلى أنها كاذبة، والعكس بالعكس.

لأسباب كهذه اصطنع المناطقة لغات رمزية تبلغ من الضعف حداً لا يسمح بأن نصوغ فيها جملة تكذب نفسها. وفي نفس الوقت تكون على قدر من القوة يكفي لأن نصوغ فيها نظريات رياضية (أو علمية، بصيغة عامة) هامة.

كيف نتعامل مع اللغات الرمزية من حيث الصدق والكذب ؟ لننظر في المثال التالي ، الذي سنصوغه صياغة نصف رمزية تخفيفاً على القارىء .

لكل ص ، توجد ص ، بحيث (ص = ص + ص)

هل الجملة السابقة صادقة ؟ الجواب يتوقف على الإطار الذي نفسرها فيه . فإذا كان الإطار هو الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ... معروفاً عليها الجمع ، كان الجواب بالنفي لأننا لو أخذنا ٣ كقيمة ص ، لما وجدنا عدداً طبيعياً ص بحيث (٣ = ص + ص) . أما إذا كان الإطار هو الأعداد الكسرية معروفاً عليها الجمع ، فإن الجواب يكون بالإيجاب . لأنه إذا كانت ص عدداً كسرياً ، فإن $\frac{ص}{٢}$ عدد كسري أيضاً . ولذا فما علينا إلا أن نأخذ $\frac{ص}{٢}$ كقيمة ص لنجد (ص = $\frac{ص}{٢}$ + $\frac{ص}{٢}$ = ص) .

وعلى هذا فصدق الجملة أو كذبها لا يتوقف عليها وحدها ، وإنما يتوقف - بصفة عامة - على إطار التفسير أيضاً . والجمل الصادقة في جميع الأطر تسمى جملاً صادقة منطقياً ، وتلك الكاذبة في جميع الأطر تسمى جملاً كاذبة منطقياً .

البرهسان :

فكرة إقامة البراهين على مسلمة فكرة قديمة ، ترجع إلى عصر إقليدس ، هل الأقل . أما الجديد فهو ألا ننقل من خطوة في البرهان إلى خطوة أخرى إلا على أساس قواعد محددة سلفاً تسمى قواعد الاستنتاج . هذه القواعد ليست اختيارية تماماً ، بل يراعى في اختيارها أن تسمح بالنسب الصدق . أي أنه إذا كانت إحدى القواعد تنقلنا من عدة جمل (تسمى المقدمات) إلى جملة (تسمى التالية) ، فإن التالية تكون صادقة في كل إطار تصدق فيه جميع المقدمات . أيضاً يراعى في اختيار قواعد الاستنتاج أن تكون واضحة ، بحيث يسهل تبين مواضع تطبيقها ، كما يسهل تطبيقها نفسه ، بل إن كلا من هذا وذاك يجب أن يكون بالإمكان إجراؤه بطريقة ميكانيكية .

وكمثال على قاعدة استنتاج يسهل أن نرى أنها تتمتع بكل الصفات السابقة ، نذكر قاعدة الفصل وهي :

من (أ ← ب) ، أ يتبع ب

حيث كل من أ ، ب جملة ، أما السهم « ← » فهو يعني الاستلزام . المقدمات هنا هي أ ، (أ ← ب) ، أما التالية فهي ب .

بالاستعانة بقواعد الاستنتاج ، يمكن أن نعرف البرهان على أنه متتابعة منتهية^(١) من الجمل ، كل منها مسلمة ، أو يمكن استنتاجها - من جمل سابقة عليها في المتتابعة - بإحدى قواعد الاستنتاج . الجملة الأخيرة في المتتابعة تسمى مبرهنة ، والمتتابعة تسمى برهانها .

(١) في هذا المثال مستخدم الكلاسيكيين « منتهية » و « حدود » بمعنى واحد ، خوفاً من لايبنا .

هل ثمة شروط على للمسلمات ؟ بصفة عامة لا ، لكننا نود في كثير من الأحيان أن يكون من السهل التعرف عليها ، بل أن يكون بالإمكان أن نتعرف عليها بطريقة ميكانيكية . أي نريد أن تكون هناك ماكينة (كمبيوتر مثلا) إذا ما أعطيناها أية جملة من اجل لغتنا الرمزية قالت لنا - خلال فترة محدودة من الزمن - ما إذا كانت هذه الجملة مسلمة أم لا . وواضح أن هذا الشرط يكون مستوفى دائماً إذا ما كان عدد المسلمات منتهياً . لأنه ما على الماكينة في هذه الحال إلا أن تقارن الجملة المعطاة بالمسلمة الأولى ، فإن كانت هي ، وقفت مجيبة بالإيجاب وإن لم تكن هي ، انتقلت إلى المقارنة بالمسلمة الثانية ، وهكذا . فإن لم تكن الجملة أبداً من المسلمات ، توقفت الماكينة مجيبة بالنفي .

سنقول لمجموعة من المسلمات إنها فعالة إذا كان بالإمكان التعرف عليها ميكانيكياً . وبناء على الفقرة السابقة تكون كل مجموعة منتهية من المسلمات فعالة . هل توجد مجموعة من المسلمات لانهاية وفعالة في ذات الوقت ؟ نعم ، ببساطة خذ مجموعة للمسلمات على أنها المجموعة المكونة من كل الجمل . لكن هل توجد مجموعة غير فعالة ؟ هذا ما سنعود إليه فيما بعد .

واضح أنه إذا ما اخترنا مسلمائنا بحيث تكون جميعها صادقة منطقياً ، كانت مبرهناتنا جميعها صادقة منطقياً كذلك . ماذا من العكس ؟ هل يمكن اختيار مسلمات وقواعد استنتاج بحيث تكون كل الجمل الصادقة منطقياً مبرهنات ؟ نعم ، ببساطة اعتبر كل جملة صادقة منطقياً مسلمة ، وفي هذه الحال يمكن حتى الاستغناء عن قواعد الاستنتاج تماماً ، ويصير كل برهان مكوناً من جملة واحدة . لكن ماذا إذا ما اشترطنا أن تكون فعالة ؟

نالت هذه المشكلة قدراً كبيراً من اهتمام المناطقة . ويمكن القول بأنها قد حلت حلاً إيجابياً بالنسبة للغات الرمزية التي تعنيها هنا . أي أمكن التوصل إلى مسلمات فعالة (سنسميها المسلمات المنطقية) وقواعد استنتاج بحيث تكون كل المبرهنات جملاً صادقة منطقياً ، والعكس بالعكس .

النظريات :

بالاستعانة بالمفاهيم والتعريفات السابقة ، يمكن إزالة كثير من الغموض الذي يكتنف مفهوم « النظرية » . فكلما أُلحقنا بالمسلمات المنطقية مجموعة من المسلمات (سنسميها مسلمات إضافية) نتجت لنا مجموعة من المبرهنات التي تختلف - بصفة عامة - باختلاف المسلمات الإضافية الملحقة . مجموعة المبرهنات هذه تسمى نظرية ، على وجه التحديد النظرية المولدة بالمسلمات الإضافية .

قد يكون من المفيد أن نذكر على سبيل المثال ، نظرية الهندسة الاقليدية . من مبرهنات هذه النظرية الجملة القائلة بأن مجموع زوايا المثلث مائة وثمانون درجة . نحتاج لبرهان هذه الجملة المسلمات الإضافية الخاصة بالهندسة الاقليدية ، فهي لا يمكن برهنتها انطلاقاً من المسلمات المنطقية فقط . بل إننا إذا استبدلنا بمسلمات الهندسة الاقليدية مسلمات إحدى الهندسات اللاإقليدية ، أمكننا البرهان على أن مجموع زوايا المثلث تختلف عن مائة وثمانين درجة . بالرغم من أن الأساس المنطقي هو هو ، أي نفس المسلمات المنطقية ونفس قواعد الاستنتاج .

وحتى لا يحدث أي لبس ، نود أن نوضح أن أية جملة يمكن أن تختار كمسلمة إضافية . أي أننا لا نشترط في المسلمات الإضافية أن تكون واضحة بذاتها أو أي شيء من هذا القبيل . فالمسلمات الإضافية هي إذن أقرب إلى الفروض منها إلى المفهوم القديم للمسلمات .

هذا لا يعني أن المسلمات تختار اعتباطاً . فهناك عوامل علمية وتاريخية وجمالية وغير ذلك تؤثر في الاختيار . وليس هنا مجال تفصيل هذا الأمر . ولذا فإننا سنكتفي بالحديث الموجز عن اعتبارين نحاول عادة أن نراعيهما في اختيار المسلمات الإضافية هما : الاتساق والفعالية .

يقال لنظرية (أو لمجموعة المسلمات الإضافية التي تولدها) انها متسقة إذا لم يكن من بين مبرهناتها جملتان إحداهما تتناقض مع الأخرى . ويمكننا إدراك خطورة قضية الاتساق إذا ما عرفنا أن المنطقة قد أثبتوا (الالبات سهل ، لكننا لن ننقل به على القارئ هنا) أن النظرية غير المتسقة تشمل مبرهناتها جميع الجمل . أي أنه في حال عدم الاتساق يمكن برهان كل جملة كما يمكن برهان نفي كل جملة ، وبذا تفقد النظرية جدواها .

الفعالية ، عرفناها من قبل . وأهمية أن تكون النظرية ذات مسلمة إضافية فعالة تكمن في أنه إن لم يكن الأمر كذلك فسيحذر التعرف على هذه المسلمات . بمعنى أننا إذا أعطينا جملة فقد لا تتمكن من الحكم على ما إذا كانت هذه الجملة إحدى المسلمات الإضافية أم لا .

هناك أيضاً ميزة هامة أخرى . لنفرض أن لدينا مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية . إذا أعطينا أية متتابعة من الجمل فإنه سيكون بإمكاننا أن نعرف بالنسبة إلى كل جملة منها ما إذا كانت مسلمة (منطقية أو إضافية) ، أو يمكن استنتاجها . من أجل سابقة عليها في المتابعة . بإحدى قواعد الاستنتاج ، أو لا هذا ولا ذاك . ويمكن أن يجري كل هذا بطريقة ميكانيكية .

وعلى هذا فبالنسبة إلى أية نظرية ذات مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية ، تتحول عملية الحكم على ما إذا كانت متتابعة متنتية ما من الجمل برهاناً أم لا إلى عملية ميكانيكية بسيطة ، بعد أن كانت عملية ذات أبعاد عقلية ونفسية عميقة .

الامثلة :

مادام الاتساق وتوافر مسلمة إضافية فعالة ، من الصفات الهامة للنظريات ، فمن الطبيعي أن نسأل بالنسبة إلى نظرية رياضية ما ، إذا ما كانت تتمتع بهاتين الصفتين .

وهذا ما فعله جودل بالنسبة إلى نظرية الأعداد . والمقصود بالأعداد هنا هي الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ... ، والذي أهمل هذه النظرية لأن تكون موضع عناية جودل هو أنها نظرية محورية في الرياضيات وفي المعرفة البشرية بصفة عامة ، وإن لها أهمية تاريخية فائقة ، وأنها بسيطة بالمقارنة بكثير غيرها من النظريات .

ما المقصود بالضبط بنظرية الأعداد ؟ اتخذ جودل لنفسه لغة رمزية (لن نقل حل الفاريء بغضبيلاها) يمكنه أن يتحدث بها عن الأعداد وجمعها وضربها . وكما بينا في حديثنا عن الصديق (انظر عاليه) ، فإن صديق أو كاذب جعل هذه اللغة يتوقف على الإطار الذي نفسرها فيه . والإطار الطبيعي للتفسير في حالتنا هذه هو الأعداد الطبيعية معروفاً عليها الجمع والضرب . سنسمي هذا الإطار ، بالإطار الطبيعي .

مجموعة الجمل الصادقة في الإطار الطبيعي تكون نظرية ، سنرمز إليها بالرمز \mathcal{R} ، وهي ما سنعتبره - في هذا المقال - نظرية الأعداد ، وأيضاً مجموعة الحقائق المتعلقة بالأعداد .

هل يمكن توليد \mathcal{R} من مجموعة من المسلمات الإضافية ؟ نعم ، ببساطة اجعل \mathcal{R} كلها مجموعة المسلمات الإضافية . لكن ماذا عن الفعالية ؟ هل توجد مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية بحيث تكون \mathcal{R} هي النظرية المولدة بها ؟ هذا هو السؤال الأول الذي طرحه جودل^(٦) .

لم يبدأ جودل محاولة الإجابة من فراغ . فقد كان لديه بالفعل مسلمات نظرية الأعداد التي تنسب إلى الرياضي الإيطالي بيانو (يقال أن الأصوب أن تنسب إلى الرياضي الألماني ديديكند) . أعاد جودل صياغة هذه المسلمات في لغته الرمزية ، وانطلق منها كمجموعة من المسلمات الإضافية . سنرمز إلى هذه المجموعة من المسلمات الإضافية بالرمز \mathcal{M} ، وإلى النظرية المولدة بها بالرمز \mathcal{B} .

يمكن بسهولة إثبات أن كل مسلمة في المجموعة \mathcal{M} صادقة في الإطار الطبيعي ، وبالتالي فإن كل مبرهنة في \mathcal{B} صادقة بدورها في الإطار الطبيعي . وعلى هذا فالنظرية \mathcal{B} هي جزء من النظرية \mathcal{R} .

يمكن بسهولة أيضاً إثبات أن المجموعة \mathcal{M} فعالة . ومن ثم فإن النظرية \mathcal{B} مولدة بمجموعة فعالة من المسلمات . وعلى هذا فإذا كانت ($\mathcal{B} = \mathcal{R}$) فإن إجابة عن سؤال جودل الأول ستكون بالإيجاب .

هل ($\mathcal{B} = \mathcal{R}$) ؟ هذا هو سؤال جودل الثاني . أما سؤال جودل الثالث فهو : ماذا عن اتساق \mathcal{B} ؟

إذا كانت الإجابة عن السؤال الثاني بالإيجاب ، فإن قضية اتساق \mathcal{R} ستكون هي نفسها قضية اتساق \mathcal{B} . أما إذا كانت الإجابة بالنفي ، فإن اتساق \mathcal{R} يستلزم اتساق \mathcal{B} والعكس قد لا يكون صحيحاً . أما لماذا اهتم جودل باتساق \mathcal{B} دون \mathcal{R} ، فهذا ما سيتضح فيما بعد .

(٦) ما نقله هنا ليس بالعديد ما فعله جودل ، فسمح لنفسه بالاستغناء عن التطورات التي جرت بعد عام ١٩٣١ ، كما أننا نسطر الأمور كثيراً ، وهذا بالفارسيه من التمهيدات الفنية .

الجملة والأعداد :

من قديم طَوَّر الناس ما يسمى بحساب الجمل . وهو- عند العرب المشاركة- عقد تناظر بين حروف الهجاء تبعاً لترتيبها الوارد في أبجد هوز . . . وبين الأعداد . فالأحرف التسعة الأولى للأحاد ، والتي تليها للعشرات ، والتي تليها للمئات ، والحرف الأخير « غ » ، للألف . وهذا تدل كل كلمة على عدد ، هو مجموع الأعداد التي تناظر حروفها . وتدل كل جملة على عدد ، هو مجموع الأعداد التي تدل عليها كلماتها . فمثلاً « في الشمس » تدل على ٨٠١ . ولذا فعندما سئل أحد الظرفاء عن تاريخ موت السلطان يرقوق ، أجاب : في الشمس (انظر للمعجم الكبير- حرف الهمة- إصدار مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٠ - ص ٢٣) .

ويبدو أن جودل قد استفاد من هذه الأفكار ، فنظر بين رموز لغته وبين بعض الأعداد ، بطريقة ليس هنا مجال شرح تفصيلاتها . سمحت هذه الطريقة لجودل أن ينظر أيضاً بين الجمل وبين بعض الأعداد ، وأيضاً بين المتابعات المنتهية من الجمل وبين بعض الأعداد . لكن تركيز جودل لم يكن على أن الجمل تدل على أعداد ، بل على أن بعض الأعداد تدل على رموز ، أو على جمل ، أو على متابعات منتهية من الجمل . وهذا صار بإمكانه أن يجبر من الجمل ، بأن يجبر عن الأعداد التي تدل عليها . فمثلاً نجح جودل في أن يصوغ في لغته الرمزية جملة تقول « أ ، ك كذا وكذا وكذا » ، بحيث يكون تفسير هذه الجملة في الإطار الطبيعي هو أن أ عدد يدل على جملة ، وك عدد يدل على متابعة منتهية من الجمل ، هي برهان للجملة التي يدل عليها العدد أ ، انطلاقاً من مجموعة المسلمات الإضافية ^٨ .

أكثر من ذلك ، استطاع جودل أن يصوغ جملة حد تفسيرها في الإطار الطبيعي هو :

لا يوجد برهان للجملة حد انطلاقاً
من مجموعة المسلمات الإضافية ^٨

أي أن الجملة حد تحدثت عن نفسها بطريقة تذكرنا بالجملة التي تكذب نفسها ، التي تحدثنا عنها من قبل .

النتائج :

هل الجملة حد صادقة في الإطار الطبيعي ، وهل هي بالتالي إحدى مبرهنات النظرية ^٨ ؟ هل هي إحدى مبرهنات النظرية ب ^٨ ؟

لنبحث الأمر . لنفرض أن حد إحدى مبرهنات ^٨ . إذن حد إحدى مبرهنات ^٨ ، لأن ب ^٨ جزء من ^٨ . أيضاً ، فرضنا أن حد إحدى مبرهنات ب ^٨ ، يعني أنه يوجد برهان للجملة حد انطلاقاً من مجموعة المسلمات الإضافية ^٨ . من هذا نرى أن حد كاذبة في الإطار الطبيعي . ومن ثم فإن حد (التي سنرمز بها إلى نفي حد) صادقة في الإطار الطبيعي ، وبالتالي فإن حد إحدى مبرهنات ^٨ . وعلى هذا فإن النظرية ^٨ غير متسقة لأن كلا من حد ، ونفيها حد ، من بين مبرهنات ^٨ .

ملخص ما سبق هو :

إذا كانت ح-إحدى مبرهنت ب^R ، فإن ن^R غير متسقة .

وبأخذ عكس النقيض - كما يقول المناطقة - نخلص إلى أن :

إذا كانت ن^R متسقة ، فإن $\text{ح-ليست إحدى مبرهنت ب}^R$.

لنفرض الآن أن ن^R متسقة . إذن $\text{ح-ليست إحدى مبرهنت ب}^R$. وهذا يعني أنه لا يوجد برهان للجملة ح- انطلاقاً من مجموعة المسلمات الإضافية م^R . من هذا نرى أن ح- صادقة في الاطار الطبيعي ، وبالتالي فإن ح- إحدى مبرهنت ن^R . بإضافة هذا إلى النتيجة السابقة نصل إلى أنه :

إذا كانت ن^R متسقة ، فإن ح- إحدى

مبرهنت ن^R ، لكنها ليست إحدى مبرهنت ب^R .

وعلى هذا فإن ن^R تختلف عن ب^R . وبذا نكون قد أجبتنا عن سؤال جودول الثاني بالنفي ، بفرض أن ن^R متسقة .

ما سبق لا يكفي للإجابة عن السؤال الأول بالنفي هو الآخر . حقاً إننا نعرف الآن أن ن^R لا تولد ن^R (بفرض أن الأخيرة متسقة) ، لكن ليس من الممكن تقوية م^R ، بإضافة ح- أو غيرها إليها ، بحيث يكفي الناتج لتوليد ن^R ؟ لاحظ أننا هنا لا نبحث عن أية مجموعة مولدة للنظرية ن^R ، وإنما نبحث عن مجموعة فعالة تقي بالفرض . لكننا نستطيع أن نفعل مع أية مجموعة فعالة - تشمل م^R ، وتشتمل عليها ن^R - ما فعلناه مع م^R ، لنثبت أنها لا تولد ن^R (بفرض أن الأخيرة متسقة) . ومن هذا يمكن أن نستنتج :

إذا كانت ن^R متسقة ، فإنه لا يمكن توليدها

بأية مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية .

وبذا نكون قد أجبتنا عن سؤال جودول الأول بالنفي هو الآخر ! (بفرض أن ن^R متسقة) .



هذه النتيجة الخطيرة ، التي تعني أننا لا نستطيع - عملياً - أن نقيم النظرية ن^R على مسلمات ، جديدة بأن نتوقف عندها قليلاً . هل المشكلة في المنطق ، أي في المسلمات المنطقية وقواعد الاستنتاج ، وبالتالي فإذا قوينا المنطق فقد نحل المشكلة أم أن المشكلة في اللغة الرمزية التي اختارها جودول ، وبالتالي فعل المشكلة قد يكمن في تغيير اللغة ؟ أم ماذا ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة ، علينا أن نتعامل مع مفهوم جديد ، هو « فعالية التولد » . سنقول لمجموعة من الجمل إنها فعالة التولد ، إذا كان بالإمكان توليدها بطريقة ميكانيكية . أي إذا كانت هناك آلة (كـمبيوتر مثلاً) تولدها واحدة فواحدة . وبالرغم من أن عملية التوليد قد تستمر إلى مالا نهاية ، فإن كل جملة يجب أن تظهر بعد فترة زمنية محدودة ،

طالت أم قصرت . وذلك مثل عملية العد ، فهي لا تنتهي أبداً ، لكن كل عدد سيأتي دوره في الظهور بعد فترة زمنية محدودة .

من السهل أن نرى أن كل مجموعة فعالة ، لابد وأن تكون فعالة التولد ، ذلك لأنه يمكن التعرف عليها ميكانيكياً ، والآلة التي تتعرف عليها ، يمكنها بتعديل بسيط - أن تولدها فيما عينا إلا أن ندخل جل اللغة كلها إلى الآلة واحدة فواحدة . ونجعل للآلة فتحتين تخرج من أولهما الجمل التي تتعرف عليها الآلة على أنها من مجموعتنا ، وتخرج من الثانية بقية الجمل . وبذا تولد الآلة - بما يخرج من فتحتها الأولى - جمل المجموعة واحدة واحدة .

بالمثل يمكن إثبات أن أية نظرية مولدة بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية ، لابد أن تكون فعالة التولد . ذلك لأنه توجد - في هذه الحال - آلة بإمكانها التعرف على البراهين . فبما عليك إذن إلا أن تدخل إلى هذه الآلة جميع المتابعات المنتهية من الجمل ، واحدة فواحدة . اجعل للآلة فتحتين ، وأطلب منها ، إذا ما تعرفت على متتابعة على أنها برهان ، أن تخرج الجملة الأخيرة (أي المبرهنة) من أولى الفتحتين . أما بقية الجمل فتخرج من الفتحة الثانية . وبذا تولد الآلة - بما يخرج من فتحتها الأولى - مبرهنات النظرية واحدة واحدة .

يمكن أيضاً إثبات أن عكس المقولة السابقة صحيح ، أي أن أية نظرية فعالة التولد ، لابد وأن يكون بالامكان توليدها بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية . وعلى هذا فيمكننا إعادة صياغة سؤال جودل الأول كالتالي :

هل \mathcal{R} فعالة التولد ؟

هذا السؤال المعدل يكافئ السؤال الأول ، لكنه سؤال في « ميكنة » الحقائق ، وليس - كالسؤال الأول - في المنطق .

إعادة الصياغة لن تؤثر في الإجابة . وبالتالي فالاجابة عن السؤال المعدل هي أيضاً بالنفي (بفرض أن \mathcal{R} متسقة) . لكن الصياغة المعدلة تساعدنا على التعرف على أبعاد الموقف بطريقة أفضل . لقد سألتنا آنفاً إذا ما كانت المشكلة في المنطق ، أم في اللغة ، أم ماذا ؟ لنفرض أن اللغة باقية كما هي ، وأن \mathcal{R} متسقة . تغير المنطق (المسلمات المنطقية وقواعد الاستنتاج) لن يغير من \mathcal{R} شيئاً ، لأن الذي يحدد جمل \mathcal{R} ليس البرهان الذي يتوقف على المنطق ، وإنما الصديق الذي لا يتوقف إلا على اللغة وإطار التفسير ، وعلى هذا فإن \mathcal{R} سيبقى كما هي ، وعلى وجه التحديد سيبقى غير فعالة التولد ، مهما غيرنا المنطق . ومن ثم فلحل الوحيد للمشكلة هو أن نغير المنطق بما يسمح لمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية أن تولد نظرية غير فعالة التولد . وهذا ممكن إذا ما تنازلنا عن شرط الفعالية في مجموعة المسلمات المنطقية أو عن شرط إمكان التعامل مع قواعد الاستنتاج بطريقة ميكانيكية . لكن لا هذا ولا ذلك مرغوب فيه . فالتنازل عن الشرط الأول يعني أننا قد لا نتمكن من التعرف على مسلمتنا المنطقية ، والتنازل عن الشرط الثاني يعني أننا قد لا نعرف متى أو كيف نطبق قواعد الاستنتاج .

بقي أن ننظر في تغيير اللغة . وهذا طبعاً ممكن ، وسيأتي بنتيجة سريعة ، إذ أن \mathcal{R} تتغير بتغير اللغة . غير أنه إذا كانت اللغة الجديدة على نفس مستوى اللغة القديمة ، أو أقوى (أي أقدر على التعبير) ، فإن \mathcal{R} الجديدة لن تكون فعالة التولد ، وبالتالي ستبقى للمشكلة كما هي ، إن لم تزد تعقيداً . أما إذا كانت اللغة الجديدة أضعف من اللغة القديمة ، فإن \mathcal{R} قد تصير فعالة التولد ، أوحى فعالة ، وبذا تكون مشكلتنا محولة بالنسبة إلى هذه اللغات الضعيفة . فعل سبيل المثال إذا ما أضعفنا لغتنا بما لا يسمح لها بالحديث عن ضرب الأعداد ، أي أن اللغة الجديدة ستكون قادرة على الحديث عن الأعداد وجمعها ، لكن ليس ضربها ، فإن \mathcal{R} ستصير فعالة ، وليست فقط فعالة التولد .

القارئ البقظ لابد وأن يكون قد لاحظ أننا في طيات تحليلنا السابق قد عاجلنا سؤالاً كنا قد تركناه مفتوحاً حين طرحناه . ألا وهو : هل توجد مجموعة غير فعالة ؟ إذ أن \mathcal{R} (في اللغة الأصلية) ليست فقط غير فعالة ، وإنما أيضاً غير فعالة التولد (بفرض أنها متسقة) .



كتمهيد لبحث قضية اساق ب (السؤال الثالث) نود أن نوضح أن التحليل الذي أجراه جودل في معرض معالجته لسؤاله الثاني كان أعمق من تحليلنا ، وأنه يتعامل مع التركيب الداخلي الدقيق للجملة حـ قد استطاع أن يصل إلى النتيجة الأخرى التالية :

إذا كانت \mathcal{R} متسقة ، فإن حـ ليست إحدى مبرهنتيها (●) .

بطريقة مشابهة لتلك التي جرت بها صياغة الجملة حـ ، يمكن صياغة جملة د تفسرها في الإطار الطبيعي هو :

\mathcal{R} متسقة .

وبذا يكون تفسير الجملة (د ← حـ) في الإطار الطبيعي هو (●) على وجه التحديد . وقد أوضح جودل أن الثبات (●) يمكن تعليده في اللغة الرمزية لنصل إلى أن :

(د ← حـ) إحدى مبرهنتي \mathcal{R} .

فإذا كانت :

د إحدى مبرهنتات \mathcal{R} .

فإننا نصل بقاعدة الفصل إلى أن :

حـ إحدى مبرهنتات \mathcal{R} .

وهذا يتعارض مع اساق ب ، كما تبين (●) . من هذا نخلص إلى النتيجة الهامة الآتية :

إذا كانت \mathcal{R} متسقة ، فإن د ليست إحدى مبرهنتاتها .

وبالنظر إلى تفسير د في الإطار الطبيعي ، فإن هذا يعني أنه إذا كانت B^8 متسقة ، فإنه لا يمكن إثبات ذلك بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهنات B^8 .

من الطبيعي أن نسأل ماذا يحدث إذا ما أضفنا د إلى B^8 ؟ نحصل على نظرية أقوى ، يمكننا فيها إثبات أن B^8 متسقة . لكن ما فعلناه مع B^8 يمكن تكراره مع النظرية الجديدة ، وبالتالي لا يمكن إثبات أن النظرية الجديدة متسقة (بفرض أنها كذلك) بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهناتها . وهكذا فالمشكلة تظل علينا برأسها من جديد ، ولكن في ظروف أعقد . ونفس الشيء يسري على أية تقوية للنظرية B^8 ، مادام يمكن توليدها مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية .

وعلى هذا فلا يمكننا الاطمئنان إلى اتساق B^8 ، ولا إلى اتساق كثير غيرها من النظريات الأساسية في الرياضيات ، إذ أن إثبات هذا الاتساق يتطلب نظرية لا يقل شكنا في اتساقها عن شكنا في اتساق النظرية الأصلية نفسها .

أرجو أن يكون قد اتضح الآن لماذا اهتم جودل بقضية اتساق B^8 . أما عن لماذا لم يعرض قضية اتساق B^8 نفس الاهتمام ، فلعل ذلك لأنه كان مهتماً بالنتائج السلبية ، أي بتوضيح أن قضية الاتساق تنطوي على مشكلة وبالتالي فمن الواجب أن يتعامل مع النظرية الأضعف ، أي B^8 . وعلما بأن غير متيقنين من اتساق B^8 ، فلنا من باب أولى - لن نكون متيقنين من اتساق B^8 .

خاتمة :

تبين لنا النتائج السابقة بعض حدود المعرفة . وقضية حدود المعرفة مبحث فلسفي قديم . والجديد هو أن يسهم العلم في علاجها ، وإن كان اسهامه في تبيان بعض الحدود الأخرى ، التي شغل بأمرها الفلاسفة منذ زمن طويل ، ليس بنفس القدر من الجدة .

فيتطور النظرية الذرية على أسس علمية مقبولة خلال القرن التاسع عشر ، أسهم العلم في الإجابة عن سؤال فلسفي قديم متعلق بحدود إمكان تقسيم المادة . وقد تجدد هذا الاسهام - الذي لم يكن أبدا كلمة أخيرة - خلال القرن العشرين بفعل نظريات تركيب الذرة من جسيمات أولية ، ونظريات تركيب بعض الجسيمات الأولية مما يسمى بالكوارك ، ونظريات تحول المادة إلى طاقة ، وظهور الأخيرة على شكل كمات . .

وقد بينت لنا نظرية النسبية (عام ١٩٠٥) حداً آخر ، هو حد السرعة . فإذا كانت سرعة أحد جسمين بالنسبة للآخر أقل من سرعة الضوء في الفراغ في لحظة ما ، فلا يمكن أن تزيد عليها أبداً ، أي أن سرعة الضوء في الفراغ (حوالي ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية) هي حد السرعة .

أما ميكانيكا الكم فقد أثبتنا (علم ١٩٢٧) مبدأ عدم التحدد ، القائل بأن مقدار عدم التحدد في موضع جسيم ما ، مضروباً في مقدار عدم التحدد في زخمه (أي كمية حركته) لا يقل عن مقدار ثابت (لا يتوقف على الجسيم . وقد ذهب المشتغلون بالفيزياء وفلسفتها في تفسير هذا المبدأ مذهبين . يقول الأول إن عدم التحدد خاصة موضوعية من خواص موضوع المعرفة ، وبالتالي فهو لا يضع قيداً على المعرفة . وعلى هذا تكون نتائج جدول أول نتائج علمية متعلقة بحدود المعرفة . ويرجع المذهب الثاني عدم التحدد إلى الذات العارقة والأجهزة التي تستخدمها ، وبالتالي فهو يعتبره قيداً على المعرفة . وعلى هذا يكون مبدأ عدم التحدد هو أول النتائج العلمية المتعلقة بحدود المعرفة ، ونتائج جدول هي الثانية .



وسواء أكانت نتائج جدول هي الأولى أم الثانية ، فعلياً أن ننضم أبعادها . ولنبدأ بالنتيجة القائلة بأن N ليست فعالة التولد . هذه النتيجة تعني أنه لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد . ووربَّ قائل : أما كان يكفي إثبات أن N لا نهائية ؟ فمعرفتنا - مهما زادت - ستظل محدودة ، وبالتالي لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد ، إذا كانت لا نهائية . الجواب : نعم ، ما كان يكفي . فنحن قادرين - بمعنى معقول جداً - على معرفة عدد لا نهائي من الحقائق . ألسنا نعرف أن $1 + 1 = 2$ ، $2 + 1 = 3$ ، $3 + 1 = 4$ ، $4 + 1 = 5$ ، $5 + 1 = 6$ ، $6 + 1 = 7$ ، $7 + 1 = 8$ ، $8 + 1 = 9$ ، $9 + 1 = 10$ ، $10 + 1 = 11$ ، $11 + 1 = 12$ ، $12 + 1 = 13$ ، $13 + 1 = 14$ ، $14 + 1 = 15$ ، $15 + 1 = 16$ ، $16 + 1 = 17$ ، $17 + 1 = 18$ ، $18 + 1 = 19$ ، $19 + 1 = 20$ ، $20 + 1 = 21$ ، $21 + 1 = 22$ ، $22 + 1 = 23$ ، $23 + 1 = 24$ ، $24 + 1 = 25$ ، $25 + 1 = 26$ ، $26 + 1 = 27$ ، $27 + 1 = 28$ ، $28 + 1 = 29$ ، $29 + 1 = 30$ ، $30 + 1 = 31$ ، $31 + 1 = 32$ ، $32 + 1 = 33$ ، $33 + 1 = 34$ ، $34 + 1 = 35$ ، $35 + 1 = 36$ ، $36 + 1 = 37$ ، $37 + 1 = 38$ ، $38 + 1 = 39$ ، $39 + 1 = 40$ ، $40 + 1 = 41$ ، $41 + 1 = 42$ ، $42 + 1 = 43$ ، $43 + 1 = 44$ ، $44 + 1 = 45$ ، $45 + 1 = 46$ ، $46 + 1 = 47$ ، $47 + 1 = 48$ ، $48 + 1 = 49$ ، $49 + 1 = 50$ ، $50 + 1 = 51$ ، $51 + 1 = 52$ ، $52 + 1 = 53$ ، $53 + 1 = 54$ ، $54 + 1 = 55$ ، $55 + 1 = 56$ ، $56 + 1 = 57$ ، $57 + 1 = 58$ ، $58 + 1 = 59$ ، $59 + 1 = 60$ ، $60 + 1 = 61$ ، $61 + 1 = 62$ ، $62 + 1 = 63$ ، $63 + 1 = 64$ ، $64 + 1 = 65$ ، $65 + 1 = 66$ ، $66 + 1 = 67$ ، $67 + 1 = 68$ ، $68 + 1 = 69$ ، $69 + 1 = 70$ ، $70 + 1 = 71$ ، $71 + 1 = 72$ ، $72 + 1 = 73$ ، $73 + 1 = 74$ ، $74 + 1 = 75$ ، $75 + 1 = 76$ ، $76 + 1 = 77$ ، $77 + 1 = 78$ ، $78 + 1 = 79$ ، $79 + 1 = 80$ ، $80 + 1 = 81$ ، $81 + 1 = 82$ ، $82 + 1 = 83$ ، $83 + 1 = 84$ ، $84 + 1 = 85$ ، $85 + 1 = 86$ ، $86 + 1 = 87$ ، $87 + 1 = 88$ ، $88 + 1 = 89$ ، $89 + 1 = 90$ ، $90 + 1 = 91$ ، $91 + 1 = 92$ ، $92 + 1 = 93$ ، $93 + 1 = 94$ ، $94 + 1 = 95$ ، $95 + 1 = 96$ ، $96 + 1 = 97$ ، $97 + 1 = 98$ ، $98 + 1 = 99$ ، $99 + 1 = 100$ ، $100 + 1 = 101$ ، $101 + 1 = 102$ ، $102 + 1 = 103$ ، $103 + 1 = 104$ ، $104 + 1 = 105$ ، $105 + 1 = 106$ ، $106 + 1 = 107$ ، $107 + 1 = 108$ ، $108 + 1 = 109$ ، $109 + 1 = 110$ ، $110 + 1 = 111$ ، $111 + 1 = 112$ ، $112 + 1 = 113$ ، $113 + 1 = 114$ ، $114 + 1 = 115$ ، $115 + 1 = 116$ ، $116 + 1 = 117$ ، $117 + 1 = 118$ ، $118 + 1 = 119$ ، $119 + 1 = 120$ ، $120 + 1 = 121$ ، $121 + 1 = 122$ ، $122 + 1 = 123$ ، $123 + 1 = 124$ ، $124 + 1 = 125$ ، $125 + 1 = 126$ ، $126 + 1 = 127$ ، $127 + 1 = 128$ ، $128 + 1 = 129$ ، $129 + 1 = 130$ ، $130 + 1 = 131$ ، $131 + 1 = 132$ ، $132 + 1 = 133$ ، $133 + 1 = 134$ ، $134 + 1 = 135$ ، $135 + 1 = 136$ ، $136 + 1 = 137$ ، $137 + 1 = 138$ ، $138 + 1 = 139$ ، $139 + 1 = 140$ ، $140 + 1 = 141$ ، $141 + 1 = 142$ ، $142 + 1 = 143$ ، $143 + 1 = 144$ ، $144 + 1 = 145$ ، $145 + 1 = 146$ ، $146 + 1 = 147$ ، $147 + 1 = 148$ ، $148 + 1 = 149$ ، $149 + 1 = 150$ ، $150 + 1 = 151$ ، $151 + 1 = 152$ ، $152 + 1 = 153$ ، $153 + 1 = 154$ ، $154 + 1 = 155$ ، $155 + 1 = 156$ ، $156 + 1 = 157$ ، $157 + 1 = 158$ ، $158 + 1 = 159$ ، $159 + 1 = 160$ ، $160 + 1 = 161$ ، $161 + 1 = 162$ ، $162 + 1 = 163$ ، $163 + 1 = 164$ ، $164 + 1 = 165$ ، $165 + 1 = 166$ ، $166 + 1 = 167$ ، $167 + 1 = 168$ ، $168 + 1 = 169$ ، $169 + 1 = 170$ ، $170 + 1 = 171$ ، $171 + 1 = 172$ ، $172 + 1 = 173$ ، $173 + 1 = 174$ ، $174 + 1 = 175$ ، $175 + 1 = 176$ ، $176 + 1 = 177$ ، $177 + 1 = 178$ ، $178 + 1 = 179$ ، $179 + 1 = 180$ ، $180 + 1 = 181$ ، $181 + 1 = 182$ ، $182 + 1 = 183$ ، $183 + 1 = 184$ ، $184 + 1 = 185$ ، $185 + 1 = 186$ ، $186 + 1 = 187$ ، $187 + 1 = 188$ ، $188 + 1 = 189$ ، $189 + 1 = 190$ ، $190 + 1 = 191$ ، $191 + 1 = 192$ ، $192 + 1 = 193$ ، $193 + 1 = 194$ ، $194 + 1 = 195$ ، $195 + 1 = 196$ ، $196 + 1 = 197$ ، $197 + 1 = 198$ ، $198 + 1 = 199$ ، $199 + 1 = 200$ ، $200 + 1 = 201$ ، $201 + 1 = 202$ ، $202 + 1 = 203$ ، $203 + 1 = 204$ ، $204 + 1 = 205$ ، $205 + 1 = 206$ ، $206 + 1 = 207$ ، $207 + 1 = 208$ ، $208 + 1 = 209$ ، $209 + 1 = 210$ ، $210 + 1 = 211$ ، $211 + 1 = 212$ ، $212 + 1 = 213$ ، $213 + 1 = 214$ ، $214 + 1 = 215$ ، $215 + 1 = 216$ ، $216 + 1 = 217$ ، $217 + 1 = 218$ ، $218 + 1 = 219$ ، $219 + 1 = 220$ ، $220 + 1 = 221$ ، $221 + 1 = 222$ ، $222 + 1 = 223$ ، $223 + 1 = 224$ ، $224 + 1 = 225$ ، $225 + 1 = 226$ ، $226 + 1 = 227$ ، $227 + 1 = 228$ ، $228 + 1 = 229$ ، $229 + 1 = 230$ ، $230 + 1 = 231$ ، $231 + 1 = 232$ ، $232 + 1 = 233$ ، $233 + 1 = 234$ ، $234 + 1 = 235$ ، $235 + 1 = 236$ ، $236 + 1 = 237$ ، $237 + 1 = 238$ ، $238 + 1 = 239$ ، $239 + 1 = 240$ ، $240 + 1 = 241$ ، $241 + 1 = 242$ ، $242 + 1 = 243$ ، $243 + 1 = 244$ ، $244 + 1 = 245$ ، $245 + 1 = 246$ ، $246 + 1 = 247$ ، $247 + 1 = 248$ ، $248 + 1 = 249$ ، $249 + 1 = 250$ ، $250 + 1 = 251$ ، $251 + 1 = 252$ ، $252 + 1 = 253$ ، $253 + 1 = 254$ ، $254 + 1 = 255$ ، $255 + 1 = 256$ ، $256 + 1 = 257$ ، $257 + 1 = 258$ ، $258 + 1 = 259$ ، $259 + 1 = 260$ ، $260 + 1 = 261$ ، $261 + 1 = 262$ ، $262 + 1 = 263$ ، $263 + 1 = 264$ ، $264 + 1 = 265$ ، $265 + 1 = 266$ ، $266 + 1 = 267$ ، $267 + 1 = 268$ ، $268 + 1 = 269$ ، $269 + 1 = 270$ ، $270 + 1 = 271$ ، $271 + 1 = 272$ ، $272 + 1 = 273$ ، $273 + 1 = 274$ ، $274 + 1 = 275$ ، $275 + 1 = 276$ ، $276 + 1 = 277$ ، $277 + 1 = 278$ ، $278 + 1 = 279$ ، $279 + 1 = 280$ ، $280 + 1 = 281$ ، $281 + 1 = 282$ ، $282 + 1 = 283$ ، $283 + 1 = 284$ ، $284 + 1 = 285$ ، $285 + 1 = 286$ ، $286 + 1 = 287$ ، $287 + 1 = 288$ ، $288 + 1 = 289$ ، $289 + 1 = 290$ ، $290 + 1 = 291$ ، $291 + 1 = 292$ ، $292 + 1 = 293$ ، $293 + 1 = 294$ ، $294 + 1 = 295$ ، $295 + 1 = 296$ ، $296 + 1 = 297$ ، $297 + 1 = 298$ ، $298 + 1 = 299$ ، $299 + 1 = 300$ ، $300 + 1 = 301$ ، $301 + 1 = 302$ ، $302 + 1 = 303$ ، $303 + 1 = 304$ ، $304 + 1 = 305$ ، $305 + 1 = 306$ ، $306 + 1 = 307$ ، $307 + 1 = 308$ ، $308 + 1 = 309$ ، $309 + 1 = 310$ ، $310 + 1 = 311$ ، $311 + 1 = 312$ ، $312 + 1 = 313$ ، $313 + 1 = 314$ ، $314 + 1 = 315$ ، $315 + 1 = 316$ ، $316 + 1 = 317$ ، $317 + 1 = 318$ ، $318 + 1 = 319$ ، $319 + 1 = 320$ ، $320 + 1 = 321$ ، $321 + 1 = 322$ ، $322 + 1 = 323$ ، $323 + 1 = 324$ ، $324 + 1 = 325$ ، $325 + 1 = 326$ ، $326 + 1 = 327$ ، $327 + 1 = 328$ ، $328 + 1 = 329$ ، $329 + 1 = 330$ ، $330 + 1 = 331$ ، $331 + 1 = 332$ ، $332 + 1 = 333$ ، $333 + 1 = 334$ ، $334 + 1 = 335$ ، $335 + 1 = 336$ ، $336 + 1 = 337$ ، $337 + 1 = 338$ ، $338 + 1 = 339$ ، $339 + 1 = 340$ ، $340 + 1 = 341$ ، $341 + 1 = 342$ ، $342 + 1 = 343$ ، $343 + 1 = 344$ ، $344 + 1 = 345$ ، $345 + 1 = 346$ ، $346 + 1 = 347$ ، $347 + 1 = 348$ ، $348 + 1 = 349$ ، $349 + 1 = 350$ ، $350 + 1 = 351$ ، $351 + 1 = 352$ ، $352 + 1 = 353$ ، $353 + 1 = 354$ ، $354 + 1 = 355$ ، $355 + 1 = 356$ ، $356 + 1 = 357$ ، $357 + 1 = 358$ ، $358 + 1 = 359$ ، $359 + 1 = 360$ ، $360 + 1 = 361$ ، $361 + 1 = 362$ ، $362 + 1 = 363$ ، $363 + 1 = 364$ ، $364 + 1 = 365$ ، $365 + 1 = 366$ ، $366 + 1 = 367$ ، $367 + 1 = 368$ ، $368 + 1 = 369$ ، $369 + 1 = 370$ ، $370 + 1 = 371$ ، $371 + 1 = 372$ ، $372 + 1 = 373$ ، $373 + 1 = 374$ ، $374 + 1 = 375$ ، $375 + 1 = 376$ ، $376 + 1 = 377$ ، $377 + 1 = 378$ ، $378 + 1 = 379$ ، $379 + 1 = 380$ ، $380 + 1 = 381$ ، $381 + 1 = 382$ ، $382 + 1 = 383$ ، $383 + 1 = 384$ ، $384 + 1 = 385$ ، $385 + 1 = 386$ ، $386 + 1 = 387$ ، $387 + 1 = 388$ ، $388 + 1 = 389$ ، $389 + 1 = 390$ ، $390 + 1 = 391$ ، $391 + 1 = 392$ ، $392 + 1 = 393$ ، $393 + 1 = 394$ ، $394 + 1 = 395$ ، $395 + 1 = 396$ ، $396 + 1 = 397$ ، $397 + 1 = 398$ ، $398 + 1 = 399$ ، $399 + 1 = 400$ ، $400 + 1 = 401$ ، $401 + 1 = 402$ ، $402 + 1 = 403$ ، $403 + 1 = 404$ ، $404 + 1 = 405$ ، $405 + 1 = 406$ ، $406 + 1 = 407$ ، $407 + 1 = 408$ ، $408 + 1 = 409$ ، $409 + 1 = 410$ ، $410 + 1 = 411$ ، $411 + 1 = 412$ ، $412 + 1 = 413$ ، $413 + 1 = 414$ ، $414 + 1 = 415$ ، $415 + 1 = 416$ ، $416 + 1 = 417$ ، $417 + 1 = 418$ ، $418 + 1 = 419$ ، $419 + 1 = 420$ ، $420 + 1 = 421$ ، $421 + 1 = 422$ ، $422 + 1 = 423$ ، $423 + 1 = 424$ ، $424 + 1 = 425$ ، $425 + 1 = 426$ ، $426 + 1 = 427$ ، $427 + 1 = 428$ ، $428 + 1 = 429$ ، $429 + 1 = 430$ ، $430 + 1 = 431$ ، $431 + 1 = 432$ ، $432 + 1 = 433$ ، $433 + 1 = 434$ ، $434 + 1 = 435$ ، $435 + 1 = 436$ ، $436 + 1 = 437$ ، $437 + 1 = 438$ ، $438 + 1 = 439$ ، $439 + 1 = 440$ ، $440 + 1 = 441$ ، $441 + 1 = 442$ ، $442 + 1 = 443$ ، $443 + 1 = 444$ ، $444 + 1 = 445$ ، $445 + 1 = 446$ ، $446 + 1 = 447$ ، $447 + 1 = 448$ ، $448 + 1 = 449$ ، $449 + 1 = 450$ ، $450 + 1 = 451$ ، $451 + 1 = 452$ ، $452 + 1 = 453$ ، $453 + 1 = 454$ ، $454 + 1 = 455$ ، $455 + 1 = 456$ ، $456 + 1 = 457$ ، $457 + 1 = 458$ ، $458 + 1 = 459$ ، $459 + 1 = 460$ ، $460 + 1 = 461$ ، $461 + 1 = 462$ ، $462 + 1 = 463$ ، $463 + 1 = 464$ ، $464 + 1 = 465$ ، $465 + 1 = 466$ ، $466 + 1 = 467$ ، $467 + 1 = 468$ ، $468 + 1 = 469$ ، $469 + 1 = 470$ ، $470 + 1 = 471$ ، $471 + 1 = 472$ ، $472 + 1 = 473$ ، $473 + 1 = 474$ ، $474 + 1 = 475$ ، $475 + 1 = 476$ ، $476 + 1 = 477$ ، $477 + 1 = 478$ ، $478 + 1 = 479$ ، $479 + 1 = 480$ ، $480 + 1 = 481$ ، $481 + 1 = 482$ ، $482 + 1 = 483$ ، $483 + 1 = 484$ ، $484 + 1 = 485$ ، $485 + 1 = 486$ ، $486 + 1 = 487$ ، $487 + 1 = 488$ ، $488 + 1 = 489$ ، $489 + 1 = 490$ ، $490 + 1 = 491$ ، $491 + 1 = 492$ ، $492 + 1 = 493$ ، $493 + 1 = 494$ ، $494 + 1 = 495$ ، $495 + 1 = 496$ ، $496 + 1 = 497$ ، $497 + 1 = 498$ ، $498 + 1 = 499$ ، $499 + 1 = 500$ ، $500 + 1 = 501$ ، $501 + 1 = 502$ ، $502 + 1 = 503$ ، $503 + 1 = 504$ ، $504 + 1 = 505$ ، $505 + 1 = 506$ ، $506 + 1 = 507$ ، $507 + 1 = 508$ ، $508 + 1 = 509$ ، $509 + 1 = 510$ ، $510 + 1 = 511$ ، $511 + 1 = 512$ ، $512 + 1 = 513$ ، $513 + 1 = 514$ ، $514 + 1 = 515$ ، $515 + 1 = 516$ ، $516 + 1 = 517$ ، $517 + 1 = 518$ ، $518 + 1 = 519$ ، $519 + 1 = 520$ ، $520 + 1 = 521$ ، $521 + 1 = 522$ ، $522 + 1 = 523$ ، $523 + 1 = 524$ ، $524 + 1 = 525$ ، $525 + 1 = 526$ ، $526 + 1 = 527$ ، $527 + 1 = 528$ ، $528 + 1 = 529$ ، $529 + 1 = 530$ ، $530 + 1 = 531$ ، $531 + 1 = 532$ ، $532 + 1 = 533$ ، $533 + 1 = 534$ ، $534 + 1 = 535$ ، $535 + 1 = 536$ ، $536 + 1 = 537$ ، $537 + 1 = 538$ ، $538 + 1 = 539$ ، $539 + 1 = 540$ ، $540 + 1 = 541$ ، $541 + 1 = 542$ ، $542 + 1 = 543$ ، $543 + 1 = 544$ ، $544 + 1 = 545$ ، $545 + 1 = 546$ ، $546 + 1 = 547$ ، $547 + 1 = 548$ ، $548 + 1 = 549$ ، $549 + 1 = 550$ ، $550 + 1 = 551$ ، $551 + 1 = 552$ ، $552 + 1 = 553$ ، $553 + 1 = 554$ ، $554 + 1 = 555$ ، $555 + 1 = 556$ ، $556 + 1 = 557$ ، $557 + 1 = 558$ ، $558 + 1 = 559$ ، $559 + 1 = 560$ ، $560 + 1 = 561$ ، $561 + 1 = 562$ ، $562 + 1 = 563$ ، $563 + 1 = 564$ ، $564 + 1 = 565$ ، $565 + 1 = 566$ ، $566 + 1 = 567$ ، $567 + 1 = 568$ ، $568 + 1 = 569$ ، $569 + 1 = 570$ ، $570 + 1 = 571$ ، $571 + 1 = 572$ ، $572 + 1 = 573$ ، $573 + 1 = 574$ ، $574 + 1 = 575$ ، $575 + 1 = 576$ ، $576 + 1 = 577$ ، $577 + 1 = 578$ ، $578 + 1 = 579$ ، $579 + 1 = 580$ ، $580 + 1 = 581$ ، $581 + 1 = 582$ ، $582 + 1 = 583$ ، $583 + 1 = 584$ ، $584 + 1 = 585$ ، $585 + 1 = 586$ ، $586 + 1 = 587$ ، $587 + 1 = 588$ ، $588 + 1 = 589$ ، $589 + 1 = 590$ ، $590 + 1 = 591$ ، $591 + 1 = 592$ ، $592 + 1 = 593$ ، $593 + 1 = 594$ ، $594 + 1 = 595$ ، $595 + 1 = 596$ ، $596 + 1 = 597$ ، $597 + 1 = 598$ ، $598 + 1 = 599$ ، $599 + 1 = 600$ ، $600 + 1 = 601$ ، $601 + 1 = 602$ ، $602 + 1 = 603$ ، $603 + 1 = 604$ ، $604 + 1 = 605$ ، $605 + 1 = 606$ ، $606 + 1 = 607$ ، $607 + 1 = 608$ ، $608 + 1 = 609$ ، $609 + 1 = 610$ ، $610 + 1 = 611$ ، $611 + 1 = 612$ ، $612 + 1 = 613$ ، $613 + 1 = 614$ ، $614 + 1 = 615$ ، $615 + 1 = 616$ ، $616 + 1 = 617$ ، $617 + 1 = 618$ ، $618 + 1 = 619$ ، $619 + 1 = 620$ ، $620 + 1 = 621$ ، $621 + 1 = 622$ ، $622 + 1 = 623$ ، $623 + 1 = 624$ ، $624 + 1 = 625$ ، $625 + 1 = 626$ ، $626 + 1 = 627$ ، $627 + 1 = 628$ ، $628 + 1 = 629$ ، $629 + 1 = 630$ ، $630 + 1 = 631$ ، $631 + 1 = 632$ ، $632 + 1 = 633$ ، $633 + 1 = 634$ ، $634 + 1 = 635$ ، $635 + 1 = 636$ ، $636 + 1 = 637$ ، $637 + 1 = 638$ ، $638 + 1 = 639$ ، $639 + 1 = 640$ ، $640 + 1 = 641$ ، $641 + 1 = 642$ ، $642 + 1 = 643$ ، $643 + 1 = 644$ ، $644 + 1 = 645$ ، $645 + 1 = 646$ ، $646 + 1 = 647$ ، $647 + 1 = 648$ ، $648 + 1 = 649$ ، $649 + 1 = 650$ ، $650 + 1 = 651$ ، $651 + 1 = 652$ ، $652 + 1 = 653$ ، $653 + 1 = 654$ ، $654 + 1 = 655$ ، $655 + 1 = 656$ ، $656 + 1 = 657$ ، $657 + 1 = 658$ ، $658 + 1 = 659$ ، $659 + 1 = 660$ ، $660 + 1 = 661$ ، $661 + 1 = 662$ ، $662 + 1 = 663$ ، $663 + 1 = 664$ ، $664 + 1 = 665$ ، $665 + 1 = 666$ ، $666 + 1 = 667$ ، $667 + 1 = 668$ ، $668 + 1 = 669$ ، $669 + 1 = 670$ ، $670 + 1 = 671$ ، $671 + 1 = 672$ ، $672 + 1$

هل لنا إذن أن نقول إننا نعرف النظرية فعالة التولد ، إذا ما عرفنا آلة تولدها ؟ هذه مسألة فيها نظر . ويبدو أنه ما يساعد على حلها أن نأخذ بأن المعرفة مفهوم مركب ، ويدلنا من أن نسال ، هل نعرف ؟ أو ، هل يمكن أن نعرف ؟ نسال إلى أية درجة نعرف ؟ أو ، إلى أية درجة يمكن أن نعرف ؟ إذا ما قبلنا هذا ، فإن التحليل السابق (وهو الآن يحتاج إلى شيء من التعديل الذي ستركه للقارئ) يميز لنا أن نقول إنه ليس بإمكاننا أن نعرف النظريات فعالة التولد (التي ليست فعالة) بنفس الدرجة التي يمكننا أن نعرف بها النظريات الفعالة . أي أن هناك حدوداً للمعرفة !

لكن هل توجد نظرية فعالة التولد ، لكنها ليست فعالة ؟ نعم ، وأول نظرية عرف عنها هذا هي النظرية B^8 (بفرض أنها مستقرة) . وعلى هذا فالمشكلة تبدأ من B^8 ، لكن مشكلة B^8 أكبر ، لأن B^8 (بفرض استقامتها) ليست حتى فعالة التولد . ولذا فإن درجة معرفتنا بالنظرية B^8 لا يمكن أن تصل حتى إلى الدرجة التي يمكن أن تصل إليها معرفتنا بالنظرية B^8 . فمثلاً نحن نعرف للنظرية B^8 مجموعة (فعالة) من المسلمات الإضافية التي تولدها ، وهذا ما لا يمكننا أن نعرفه للنظرية B^8 .

وكما أسلفنا فإن من أوجه قصور معرفتنا بالنظرية B^8 ، أننا لن نعرف طريقة عامة (أي لن نتوصل إلى آلة) نستطيع عن طريقها أن نحكم على كل جملة إذا ما كانت في B^8 أم لا . إن وجه القصور هذا قائم (بل أنه أكثر شدة ، إن جاز التعبير) بالنسبة للنظرية B^8 . وهذا المعنى نقول إننا لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد (أي كل الجمل الواقعة في B^8) .

أصابت هذه النتيجة البعض بشيء من خيبة الأمل . لكنها لا تخلو من جانب مشوق . فهي تزيد من التحدي ، وبالتالي تزيد من استثارة الهمم . فالنتيجة لا تقول إن هناك جملة بعينها غير قابلة لأن نحكم عليها . إنما تقول فقط إنه لا توجد طريقة واحدة صالحة للحكم على كل الجمل . وبالتالي علينا دائماً أن نبكر طرقاً جديدة . وهذا خليق بأن يرضي غرور الرياضيين ، إذ أن الحاجة إلى إنكارهم لن تنتهي ، ولن يمكن الاستعاضة عنهم بآلة ، أو بكمبيوتر أبداً .

لفقد راود الرياضيين أمل بأن تكون مسلمات بيانو (المشار إليها آنفاً) كافية لبرهنة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد . فبند جودل هذا الأمل بنتيجة العبقرية . لكنه لم يتركنا حائرين بعد أن أخرجنا من نعيم الجمل (وأحر الجملية في الشقاوة ينعم !) . إذ أنه بإثباته أن حد تقع في B^8 ولا تقع في B^8 ، فتح لنا الطريق كي نحصل على نظرية أقوى بإضافة حد (أو غيرها من الجمل التي تقع في B^8 ولا تقع في B^8) إلى المسلمات الإضافية التي تقوم عليها B^8 . وهكذا يمكننا أن نحصل على نظريات أقوى وأقوى (تقوم كل منها على مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية) دون أن نصل إلى B^8 أبداً . أي أن دائرة الضوء تتسع وتتسع ، لكنها لن تضيء كل الحقائق أبداً . أيضاً ، فتح لنا جودل بنتيجته هذه طرقاً أخرى ، لكن للمجال لا يسمح لنا باصطحاب القارئ إلى جولة فيها .



لننتقل الآن إلى نتيجة جدول الثانية القائلة بأنه إذا كانت B^8 متسقة ، فإنه لا يمكن إثبات ذلك بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهنات B^8 . هذه النتيجة لا تعني أن B^8 ليست متسقة ، كما أنها لا تعني أن B^8 متسقة . فهي تترك الباب مفتوحاً لهذا وذلك . كل ما نستطيع أن نثبت عليه هو أنه إذا كانت B^8 متسقة ، فإننا لن نستطيع معرفة هذا بطريقة نطمئن إليها .

زادت هذه النتيجة من شكوك أصحاب الاتجاهين الحدسي والبنائي (وهما الاتجاهان في الرياضيات وفلسفتها ازدهرا في بدايات هذا القرن استجابة للأزمة التي شهدتها الرياضيات مع دورة القرن التاسع عشر) في سلامة الرياضيات التقليدية . وشجعتهم على الاستمرار في جهودهم لإقامة رياضيات جديدة أكثر جدارة بالثقة ، لكنها - حتى الآن - أقل فائدة في التطبيق .

أما الغالبية الساحقة من الرياضيين ومستخدمي الرياضيات ، ففسر أمورهم سرياً عادياً فهم ليسوا بحاجة إلى اليقين حتى يستمروا في بحثهم ودرسهم وتدريسهم وتطبيقاتهم . والتعامل مع النظرية B^8 مستمر ، والبحث فيها وحوماً جار . لكن أحداً لن يذهل إذا ما اكتشف فيها تناقضاً غداً . حقاً إن هذا سيكون حدثاً عظيماً ، سيدخل الرياضيات في أزمة جديدة . لكن المألوف أن تكون - كسابقتها - أزمة ثم ، لا أزمة انبيار .



هل نتيجة جدول ، التي زعمت اليقين في الرياضيات ، نتيجة يقينية ؟ لقد توصل إليها جودول بنفس الأساليب ، وعلى نفس الأسس ، التي هي الآن موضع شك . إذن فالنتيجة نفسها موضع شك . أي أن الشك الذي توصلنا إليه هو في حد ذاته أمر مشكوك فيه . ولذا فاستعادة اليقين أمر وارد ، وإن كان ليس متوقفاً إلا من خلال تغير جذري في مفاهيمنا الرياضية . والمقصود هنا ، هو استعادة اليقين بمعظم الرياضيات التقليدية ، وليس بالرياضيات الحسسية أو البنائية (انظر عاليه) ، التي لم يذع أحد - حتى الآن - بأنها موضع شك .



ما شأن كل هذا بمعرفة الكون ؟ لعل هذا هو أكثر ما يعني المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوجية والإنسانية ، وفلسفتها . نلاحظ أولاً أن كون الإطار الطبيعي (الذي يضم كل الأعداد الطبيعية) لانهائي قد لعب دوراً لا غنى عنه في ظهور المشكلات السابقة . ولو لم يكن الأمر كذلك ، أي لو كان الإطار الطبيعي محدوداً ، ما نشأت هذه المشكلات . بل وما كان هناك فرق بين الرياضيات التقليدية والرياضيات الحسسية والبنائية . وعلى هذا فعلاقة نتائج جودول بمعرفة الكون تتوقف على ما إذا كان الكون لانهائياً . وفي نقاشنا التالي لعلاقة المواقف الثلاثة الممكنة من قضية لانهائية الكون بنتائج جودول ومشكلة المعرفة ، سنفهم (الكون) بالمعنى الواسع الذي يسمح باعتبار الظواهر الإنسانية طواهر كونية . أيضاً ، ما نقوله عن الكون يمكن أن يقال عن أي جزء من أجزائه ، أو أي جانب من جوانبه .

(١) الكون لا نهائي :

إذا كان الكون لانهائياً ، في أي وجه من وجوهه ، فالتوقع أن يكون أعقد من الإطار الطبيعي (أي الأعداد

الطبيعية مع الجمع والضرب) ، وبالتالي فمن المتوقع أن تسري عليه نتائج جودل . أي أن مجموعة الحقائق الكونية لا يمكن استنتاجها من مجموعة فعالة من المسلمات ، وأنه لا يمكن الاطمئنان إلى اتساق أية نظرية كونية قوية .

(٧) الكون محدود :

المقصود هنا أن يكون الكون محدوداً من جميع الوجوه . أي أن يكون مكوناً من عدد محدود من الأشياء ، لكل منها عدد محدود من الصفات ، وتدخل في بعضها البعض في عدد محدود من العلاقات الثنائية ، كما تدخل مع بعضها البعض في عدد محدود من العلاقات الثلاثية ، وهكذا ، عل أن يكون عدد كل العلاقات محدوداً . وأيضاً أن يكون محدوداً في الزمان ، بمعنى أنه لا يمر إلا بعدد محدود من الأطوار ، ثم يثبت أو يتهيأ أو يعيد الكرة .

في هذه الحال نتائج جودل غير واردة بالنسبة إلى الكون . ومجموعة الحقائق الكونية لن يكون من الممكن فقط استنتاجها من مجموعة فعالة من المسلمات ، بل ستكون هي نفسها مجموعة فعالة . ولن تكون هناك مشكلة في إثبات اتساق النظرية المكونة من الحقائق الكونية كلها . والتوصل إلى هذه النظرية أمر وارد نظرياً ، غير أن هذا شيء ، والتوصل إليها فعلاً شيء آخر . وحتى إذا توصلنا إليها فعلاً ، فقد يتعلم علينا التأكد من هذا .

ورغم أن المجال لا يسمح بالفرض في مزيد من التفصيلات ، فقد يكون من المقيّد أن نذكر هنا أن مشكلة الاستقراء التي أثارها ديفيد هيوم سيكون من السهل حلها في حالتها هذه . إذ أن عدد كل ما لدينا من أشياء محدود ، وبالتالي فمن الممكن أن يكون الاستقراء دائماً استقراء كاملاً .

(٣) الكون آخذ في الاتساع :

المقصود أن يكون الكون - حتى كل لحظة - محدوداً بالمعنى الوارد في (٢) ، لكن الحدود متحركة ، كلها أو بعضها . كأن يكون عدد الأشياء التي يتكون منها الكون اليوم مليوناً ، ويصير غداً مليوناً وألفاً ، وهكذا .

وفي هذه الحال ، يبدو أن الرياضيات الحديثة أو البنائية ستكون كافية لدراسة الكون ، ويكون استخدامنا الحالي للرياضيات التقليدية نوعاً من الاستسهال . أي أن لنا أن نختار بين رياضيات أصعب في التعامل ، لكنها أجدر بالثقة ، وبين رياضيات أسهل في التعامل ، لكنها تعاني من كل المشكلات التي أوضحها جودل^(٩) .

(٩) لكن ما رأى عليه الكون في قصة لاهوتيه ؟ الإجابة من هذا السؤال تطرح نطاق هذا المقال ، ويمكن للفرد أن يرجع لها إلى المرجع رقم (٦) ، حيث سيبدد المزيد من اللامع .

المراجع

- (1) Godel Kurt; **On Formally Undecidable Propositions of Principia Mathematica and Related Systems**; Basic Books Inc. New York, 1962.
- (2) Hofstadter, Douglas R.; Godel, Escher, Bach: **An Eternal Golden Braid**, Vintage Books, New York, 1980.
- (3) Kleene, Stephen Cole; **Mathematical Logic**; John Wiley and Sons, Inc. New York, 1967.
- (4) Mendelson, Elliott; **Introduction to Mathematical Logic**; D. Van Nostrand Company, Inc. Princeton, New Jersey, 1964.
- (5) Nagel, Ernest and Newman, James R.; **Godel's Proof**; New York University Press, 1964.
- (6) Sagan, Carl; **Cosmos**; Random House, New York, 1980.
- (7) Taraki, Alfred; **The Concept of Truth In Formalized Languages**; In; **Logic, Semantics, Metamathematics**; By the same author, Oxford At The Clarendon Press, 1956.
- (8) ———; **Truth and Proof**; *Scientific American*, June 1969. Also, republished in: **Fundamental Problems in Philosophy**; Edited by Oswald Hanfling; Basil Blackwell In Associations with The Open University Press, 1972.

المراجع (١) ترجمة للبحث الأصلي لجودل ، مصحوبة بمقدمة مبسطة .

المراجع (٣) ، (٤) ، (٧) مكتوبة للمتخصصين . المراجع (٧) بحث له أهمية تاريخية فيما يتعلق بقضية الصدق . والمراجعان (٣) ، (٤) كتابان جامعيان يغطي كل منهما : اللغات الرمزية ، البرهان ، الصدق ، نتائج جودل .

المراجع (٢) ، (٥) ، (٦) ، (٨) مكتوبة لغير المتخصصين . وكلها - عدا (٦) - تستعرض وتناقش نتائج جودل . المراجع (٢) يربطها بالرسم والموسيقى ، والمراجع (٨) يركز أكثر على قضيتي الصدق والبرهان . أما المراجع (٦) فيبحث في الكون وفهمنا له .

تناول كثير من الكتاب والمؤلفين ، تراث ابن خلدون ، بالدراسة والتحليل ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، حتى اليوم . وقد انصبت أغلب دراساتهم ، حول ما جاء في « مقلمته » التي ضمّنها ، خلاصة أفكاره ونماجه في التاريخ^(١) ومظاهر العمران والاجتماع^(٢) والفلسفة^(٣) والاقتصاد والسياسة^(٤) والأخلاق والمعادلة وفلسفة الحكم والقضاء^(٥) ، إلى جانب مظاهر التحضر والبداءة والعلوم الدينية^(٦) وعلوم القرآن والحديث والسنة والفقه والشريعة والتفسير والتصوف وعلم الكلام والمنطق وعلوم اللغة العربية ، الأدب والنظم والنثر^(٧) ، فضلاً عن العلوم العقلية أو النظرية (الذخيلة) . فكتب عنه المؤرخون ، وعُدّه واضعاً لأسس كتابة التاريخ في الإسلام ، فقد أفاض في تفصيل الأحداث التاريخية في مختلف الفترات والمصور وذلك في كتابه الموسوم « العبر وديوان المبتدأ والخبر »^(٨) الذي يُعدّ من التراث الخالد في تسجيل أحداث التاريخ الإسلامي ، والظاهر أن ابن خلدون استهدف من كتابه هذا أن يكون ميداناً لتطبيق الأسس والأفكار التي جاء بها في مقلمته ، فيما يتعلق بكتابة التاريخ وتدوينه .

لمحات تاريخية من الفكر التربوي في مقدمة ابن خلدون

سواوي عبد محمد

أستاذ مساعد - جامعة البصرة

(١) وهو كتاب وضعه في موضوعاته في التاريخ والاجتماع والفلسفة والعلوم والصناعات وغيرها بصورة تحليلية ونقدية ، وله هدف أدبي بكون « مقدمة » لكتاب العلم في التاريخ « العبر وديوان المبتدأ والخبر » .

(٢) انظر للاستزادة ، بارتولد شوبر : *Il. Spuler* ، ص ٣٤٩ - ٣٥٦ .
مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٦ .

(٣) راجع بحوث وأعمال مهرجان ابن خلدون ، من ابن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع ، ص ٦٩ - ١١٩ .

(٤) م . ن . د ابن خلدون الفيلسوف ، ص ١٢٣ - ١٦٢ .

(٥) م . ن . د . عن آراء ابن خلدون في الاقتصاد والسياسة ، ص ١٦٥ - ٢٥١ .

(٦) ابن خلدون ، التصريف بابن خلدون ودرسته غرباً وشرقاً ، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٧٩) ص ٣٣٢ ، ٣٨٣ .

(٧) كتاب « أعمال مهرجان ابن خلدون » من « ابن خلدون والدين » ص ٣٥٩ - ٤٦١ .

(٨) م . ن . د عن ابن خلدون والأدب ، ص ٤٧٣ - ٤٨٧ .

(٩) كتاب في التاريخ العام ، مرتب حسب السنين ، استعرض فيه الأحداث منذ تلام إيلياء حتى عصره ، وهناك اختلاف بين المؤرخين والكتاب فيما إذا كانت الآراء التي جاء بها في « مقلمته » وبخصوصها ، فيما يتعلق بكتابة التاريخ ، قد طبعتها بصورة مثالية في كتابه ٢١١

ومعها يمكن من أمر ، فقد اختطّ ابن خلدون في مقدمته ، طريق الأصالة وإبان في تحليل العوارض التي تمتاز الطبيعة البشرية في اجتماعها خلال مسيرتها التاريخية ، وروبط بين أحداث المجتمع وخصائصه ومظاهره ، كما لم يغفل القول ، باعتبار التاريخ من أهم العلوم التي يلزم أن يدرسها الناس فقال « إن فن التاريخ الذي تتداوله الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقوال ويتسارى في فهمه العلماء والجهال »^(١٠).

على أن بعض نقاد التاريخ وعلميه أوضحوا أن ابن خلدون لم يكن موفقاً كثيراً في التطبيق العملي للأسس التي وضعها في كتابة التاريخ وخصوصاً فيما يتعلق بتعريفه للتاريخ بأنه « علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الانساني » ولذلك ينبغي للمؤرخ أن يعامل الحوادث ويربط بعضها ببعض وأن يميز الأخبار الصادقة من غيرها وأن يعمد إلى الترييح بين الأسباب ، إلى جانب ذلك حرص ابن خلدون ، أن يتناول التاريخ ، فوصف التطور في البيشة الاجتماعية سياسياً من حيث العلاقات والأحوال السياسية ، وعسكرياً من حيث تنظيم الجيوش وإثارة الحروب ، واقتصادياً فيما يتعلق بالتجارة والزراعة والصناعات ، وعلمياً فيما يخص الحركة الفكرية والعلمية ، وفضلاً من ذلك ينبغي أن يضم التاريخ أحداث الحركات الاجتماعية العاملة أو الدينية أو الاقتصادية أو الفكرية . ويخلص ابن خلدون إلى القول ، إنه من أجل ذلك ، وجب أن يكون المؤرخ ملماً بعلوم كثيرة ، فإذا كان لا يعرف إلا رواية الأخبار كان هذا قاصداً وليس مؤرخاً ، وفي كتابه « المعبر وديوان المبتدأ والخبر » لم يكن ابن خلدون إلا راوية للأخبار ، على حد زعم هؤلاء المؤرخين والاختصاصيين وكتاب التاريخ .

ووضع عنه علماء الاجتماع المحدثون دراسات مستفيضة ، وجعلوه والداً لعلم الاجتماع ، وقرروا ما جاء في مقدمته وهو على قدر عظيم من الأهمية للبحوث والدراسات في حقل علم الاجتماع ، وخصوصاً في موضوعات العمران البشري وتفسير الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها ، لاحتوائه على بحوث في « المورفولوجيا الاجتماعية » أو علم البنية الاجتماعية ، التي تتصل بدراسة البيئة والجنس والظواهر الجغرافية ، ويلقي ضوءاً على ذلك بقوله « ونحن الآن نبيّن في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصناعات بوجوده برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة »^(١١) كما احتوى هذا الكتاب على بحوث في أصول المدينيات القديمة وبحوث في السكان ومسائل الهجرة وما تتطلبه من تخطيط المدن وقيام الأمصار ، إلى جانب الدراسات في النظم العمرانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفلسفية والظواهر التربوية والأخلاقية والجماهيرية واللغوية والدينية وشؤون المعرفة والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . لقد تناول أثناء دراسته هذه الظواهر ، شرحاً مستفيضاً بما سهّل علينا الاستنتاج أن ابن خلدون ، « كان له فضل السبق في الوصول إلى ما اصطلاح العلماء المحدثون على تسميته بعلم الوظائف الاجتماعية »^(١٢).

(١٠) المقدمة (طبعة البيان) ص ٧

(١١) المقدمة ، ص ٣٧٠

(١٢) د . مصطفى الحجاب ، الدخول إلى علم الاجتماع (القاهرة - ١٩٦٥) ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ ، ويقول إن ابن خلدون لم يقتصر في دراسته هذه الظواهر من الناحية الربطية ، ولكنه كان يدرس مراحل تطورها ، أي أنه كان يجمع في دراسته بين التكوين والاستيعاب والدينامية .

ويصح القول إن ابن خلدون ليس فيلسوفاً اجتماعياً فحسب ، وإنما هو « عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع على أسسه الذي لم يسبقه إليه أحد ، ويذهب الدكتور عمر فروخ إلى القول إن ابن خلدون ، سبق علماء الاجتماع الغربيين المحدثين والمعاصرين في وضع بعض النظريات الاجتماعية وعدد من قوانين العمران التي استخرجها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ويخلص إلى القول إنه لما أطل القرن التاسع عشر الميلادي واستبحر علم الاجتماع في أوروبا وأمريكا ، أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة القوانين الشاملة وبعد النظر الثاقب فيها بسطه ابن خلدون في مقدمته^(١٣) .

غير أن الظواهر التربوية ، احتلت مكاناً مهماً في كتابه « المقدمة » فهو لم يجعل الكلام عن ضرورتها وأسسها ومشكلاتها ، بل أكد على أن « العلم والتعليم من ضرورات العمران البشري ووجودها فيه أمر طبيعي »^(١٤) ، وأن تعليم المعلم صناعة ، تختلف طرق المعلمين فيها باختلاف زمنهم وبلادهم^(١٥) ، والظاهر أن تأكيداً على أن تربية الأطفال والكبار في الأمصار الإسلامية خلال عصره تختلف باختلاف كل مصر منها ، يجعل من هذه الظواهر التربوية ، أهرافاً تتخذ شكل أنظمة قائمة ومحددة بذاتها ، ولعل هذا التأكيد جاء نتيجة لمشاهداته في البلدان التي عرفها وعاش فيها . كما استعان في كل ما كتب عن النواحي التربوية بضرب أمثلة حيّة وملموسة عن واقعها مما لا يجعل لأرائه أن تتخذ أسلوب نظرية ميتة على الخيال ، بل نتيجة سميه وتجاربه ، وهي على وجه العموم سليمة ومعمولة وخصوصاً فيما يتعلق بالربط الذي أحكمه بين التربية والحضارة ، فهذا يدل على شدة ملاحظته وعمق تفكيره^(١٦) .

إن التقويم الذي بدأ به ابن خلدون في تحليل الإطار التربوي في العالم الإسلامي ، كان ينطلق من تعاليم القرآن الكريم ، باعتباره الأساس الذي تبنى عليه المعارف التي يكتسبها الكبار والصغار وخصوصاً العلوم الدينية وعلوم العربية ، وهو يؤكد بهذا المعنى ، على تعليم الصغار ، إذ يمزو ذلك إلى أن التعليم في الصغر هو أشد رسوخاً في الذهن « وهو أصل لما بعده ، لأنه السابق للقلب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأسايله يكون حال من يبنى عليه »^(١٧) .

وخصيص ابن خلدون فصلاً عن امتحان التعليم يجعله من جملة الصنائع التي تتطلب الحلق والإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسأله واستنباط فروعه من أصوله ، ولهذا جعل السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين في جميع البلدان وفي كل الأوقات فلعل معلم من هؤلاء المعلمين ، طرقة وأسايله الخاصة به في تدريس كل علم من العلوم وتعليمه ، ولذلك فإن هذه الطرق ، بحسب رأيه ، لا تدخل ضمن العلوم التي يراد تدريسها ، وإلا فسوف تكون لهم طريقة واحدة يجرون عليها ، وهذا غير ممكن ، ويضرب ابن خلدون مثلاً عن تعليم علم الكلام وأصول الفقه وعلوم العربية فيبين الاختلافات في تعليمها^(١٨) .

(١٣) تاريخ الفكر العربي حتى أيام ابن خلدون (دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٨٣) ص ٩٩٥

(١٤) المقدمة ، ص ٤٣٠

(١٥) م . د . ، ص ٤٣٠

(١٦) فصحة سليمان ، بصحاح أعمال مهرجان ابن خلدون ، بحثها « الاتهامات التربوية في مقدمة ابن خلدون » ، ص ٤٦٩

(١٧) المقدمة ، ص ٥٣٧

(١٨) م . د . ، ص ٤٣٠

ويربط صاحب المقدمة بين مظاهر العمران والتحضّر وقوة الكيانات السياسية من جهة ، وبين سند التعليم للعلوم والفنون من جهة ثانية ، فيذكر أن ذلك له من التأثير بحيث كاد ينقطع ، في عصره ، سند التعليم عن أهل المغرب وذلك باختلال عمرانهم وتنقص دوله ، فنقصت الصناعات وأحس الناس بفقدانها ، أما القيروان وقرطبة اللتان كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، فقد استبحر عمرانها ، وكان فيها للعلوم والصناعات أسواق نافقة ويحور زاحرة ، مما أدى إلى رسوخ التعليم فيها لامتداد عصورهما وما كان فيها من الحضارة ، فلما خربتا و زالت دولتهما ، انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً في عهد دولة الموحدين وخصوصاً في بداية قيامها في مراكش ، ولكن مع ذلك لم ترسخ الحضارة في مراكش وذلك لبداءة الموحدين وخشونتهم مما تسبب في إرتحال عدد من العلماء والفقهاء والمدرسين والمعلمين إلى المشرق الإسلامي ، فحلّقوا علوماً وتلقوا تعليمًا حسنًا ، كما ارتحل عدد منهم إلى مصر ، ولدى رجوعهم إلى تونس تركوا تأثيراتهم بحسب أساليبهم وطرقهم في التعليم^(١٩).

ويضحت ابن خلدون عن ظهور التعليم في الأمصار الإسلامية ، بنظمه وأسلوبه التي كانت تقوم على العلم والتنظيم الصحيح ، ويستنتج أنه لما كان التعليم « صناعياً » فلا نجده في القرى والأمصار غير للخدمة لفقدان الصناعات في أهل البدو ، ولابد لذلك من الرحلة في طلبه إلى « الأمصار المستبحرة » في تعليم العلم ، مثل بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، فقد زحرت فيها بحار العلم وتفتت في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون ، حتى أروبا على المتقدمين وقاتوا المتأخرين . ويعضد هذا المؤرخ ليوكد قوله إن مصر على عهده استبحرت فيها العلوم والتعليم وأصبحت القاهرة مركزاً علمياً مشعاً لاستحكام حضارتها منذ مئات السنين ، فظهرت فيها الصناعات وتعليم العلم ، ويرجع ذلك على حد قوله إلى عامل تاريخي ، هو سعي الملوك والأمراء منذ أكثر من مائتي سنة وتحميداً من أيام صلاح الدين الأيوبي ، إلى الاستكثار من بناء المدارس والزوايا والربط وجعل الأوقاف المعلقة عليها ، فكثر طلبة العلم والمعلمون بارتفاع أجورهم وجراياتهم وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفتت بها أسواق العلوم وزحرت بحارها ، ويؤكد أن في هذا السعي الذي تبذله الدولة يكمن ترسيخها وتوطيدها وتدعيم أسس بنائها السياسي والاجتماعي وذلك « أن الملوك والأمراء ، كانوا ينجشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريعتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما ينجش من معاطب الملك ونكباته »^(٢٠).

والظاهر أنه ، خلال الفترة التي عاش فيها ابن خلدون أو التي سبقت عصره بقليل ، كانت طرق تعليم الأطفال وتربيتهم المتعلقة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ليست متشابهة في جميع بلدان العالم الإسلامي ، بل تختلف من بلاد إلى أخرى وذلك تبعاً لنزعة المربين والمعلمين والتجاهاتهم وميولهم ، وقد ظهرت من جراء هذه الطرق المختلفة ، ملكات غير متشابهة . ونفهم من معرض كلامه ذلك « واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات »^(٢١) ، ففي بلاد المغرب العربي الإسلامي كانوا يقتصرون على القرآن الكريم

(١٩) للخدمة ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢٠) للمقدمة ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٢١) ٢ - ٥ ، ص ٢٧٨ .

فيأخذون في كتابته ورسوم حروفه أثناء دراسته ، واستعراض جميع ما يحتويه من كلام الله تعالى بحسب ما يكتبه أو يقرأه حملته ، أي حفظه ، وبعبارة أوضح ، يجري دراسته قراءة وكتابة ، فتقوم التربية على أساس آياته ومضمونها واستيعاد الحديث أو الفقه أو الشعر أو أي من كلام العرب ، كما يجري الاجتهاد بعدم الخلط في التوفيق بسواه في شيء ، من مجالس التعليم ، وهذا على حد قوله « غالباً ما يؤدي الانصراف إلى حلق القرآن وإتقانه إلى الانقطاع عن العلوم الأخرى والابتعاد عن معرفتها والإلمام بها » ، كما يوضح أن هذا هو مذهب أهل الأمصار في المغرب ومن تبعهم من القرى في تربية أبنائهم وتعليمهم منذ صغرهم حتى بلوغهم من الشيخوخة ، ويضيف أنه حتى الكبار يرجعون بعد فترة من أعمارهم إلى دراسة القرآن فيصبحون أحسن من سواهم في كتابته ورسوم حروفه وقراءته وحفظه والإلمام به^(٢٢) .

أما الأندلسيون فيقول عنهم ابن خلدون ، إن النظام التربوي الذي كانوا يسيرون عليه ، هو تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، القرآن كما هو بدون استنباط أو استنتاج أو تفسير ، غير أنه يستترك فيقول إنهم جعلوا القرآن الأصل في التعليم والتربية ومنبعاً للعلوم ، فيجمعون إلى جانب دراسته في الغالب رواية الشعر وإنشاء الرسائل والأخذ بعلوم العربية وقوانينها وحفظها وإجادة الخط والكتابة ، ويجري ذلك على الأطفال حتى بلوغهم من الرشد والشيخوخة فيكون المتعلم قد وقف على علوم العربية والشعر ومعركة الخط وأصوله كما يتعلق بأذيال العلوم المتصلة بالقرآن مثل علم القراءات والتفسير فضلاً عن الحديث والفقه والسنة ، وربما الفلسفة والمنطق ، فإذا كان هناك سند للأخذ بيده العلوم ومقدرة واستعداد على تعلمها وفهمها من قبل المعلمين ، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاتهم ولا يحصل بأبيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم^(٢٣) .

ويذهب ابن خلدون إلى القول ، إن طريقة الأفارقة وخصوصاً في تونس أقرب إلى طريقة الأندلسيين في تعليم أطفالهم وتربيتهم التي كانت تقوم على القرآن الكريم ، وغالباً ما كانوا يجمعون معه الحديث ، فقد درس أصوله وتلقن بعض قوانين العلوم وأفكارها ثم يهضي في قوله « إن عنايتهم بالقرآن واستظهار الوردان إياه ووتونهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه »^(٢٤) . ويتبع تعلم القرآن والحديث ، على حد قوله ، تعلم الخط ورسوم حروف القرآن .

وينقل ابن خلدون ، عما كان يستخدم في المشرق الإسلامي ، من طرق تربوية وكيف أن المشاركة ، كانوا يجمعون في تعليم مختلف أصناف المعرفة ، فقد بلغه أن عنايتهم كانت تنبج إلى دراسة القرآن وصحب العلم ، وهي الكتب والمصنفات والرسائل الخاصة بالعلوم العقلية والمغالية ، وما تنطوي عليها من أسس وقوانين وخصوصاً ما يتعلق بالأشخاص الكبار ، ويحتمل جداً أن تكون دراسة القرآن الكريم فقط للأطفال والناشئين والشباب .

والظاهر أن تعليم الخط والكتابة وضبط أساليبها وأصنافها في بلاد المشرق الإسلامي كانت مفصلة عن تعليم القرآن الكريم والعلوم الأخرى ، فيشير ابن خلدون إلى أنهم كانوا « لا يخلطون بتعليم الخط ، بل تعليم الخط

(٢٢) ٥ . د . ، ص ٥٣٨

(٢٣) المقدمة ، ص ٥٣٨

(٢٤) ٥ . د . ، ص ٥٣٨

عندهم ، قانون ومعلومون له على انفرادهم^(٢٥) . لذلك فانهم كانوا يكتبون في الألواح لتعلمي سائر الصنائع من الصبيان في مكاتبهم بخط « قاصر عن الإجابة »^(٢٦) ومن أراد تعلم الخط وإجادته ، سواء من الأطفال أو من في سن الرشد أو من الكبار ، فعليه أن ينصرف بعد إتقان صناعته أو علومه إلى ذلك فيطلبه من أهل صناعته^(٢٧) . أما في مصر التي وصفها المؤرخ بأنها ، مهد للحضارة لرسو المدنية فيها من قديم الأزل ولاهتمام أهلها بالعلم والتعليم ، فيلاحظ تقدم العلوم فيها لأنها « موفورة وعصرانها متصل » وسند التعليم بها قائم^(٢٨) و « ان التقدم في العلوم وسائر الصنائع فيها بالغ »^(٢٩) .

ويعود هذا المؤرخ إلى القول فيما أفاد هؤلاء جميعاً من هذه الطرق والأساليب التربوية في التعليم والدراسة أو فيها كان سبباً في قصورهم عن علوم ومعارف أخرى ، فيذكر أن اقتصار أهل افريقية والمغرب عموماً على القرآن نشأ عنه قصور في اللغة وعلومها ، ويمزوا بين خلل السبب في ذلك إلى أن دراسة القرآن لا تنشأ عنها في الغالب ملكة لغوية لأن البشر على حد قوله « مصروفون عن الإتيان بمثل آيات القرآن ، لذلك فهم مصروفون عن الاستعمال على أساليبه والافتدائه به أو الحلو على منواله مما يجعلهم يفتقدون أية ملكة من غير أساليبه ، كما يحصل حتى لأولئك من أصحاب الملكات في اللغة العربية ، المجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام لانصرافهم التام إلى القرآن وأسانيه^(٣٠) » .

ولا يصح بحارة ابن خلدون فيما ذهب إليه بهذا الصدد ، من أن دراسة القرآن ، ينشأ عنها قصور في ملكات اللغة فالمعروف أن القرآن يُقَرَّم لغة المدارس ويزيدها بياناً وفصاحة في استعمال المفردات اللغوية واستخداماتها المختلفة ويضرب العبارات وتنحها قوة في التعبير ويغنيها بغيض من التركيبات اللغوية المفيدة لما يحتره من استعمالات مختلفة من الأساليب والطرق البيانية ، فيكسبها الأصالة .

غير أن صاحب المقدمة يميل إلى الاعتقاد أن أهل افريقية و أنص من أهل المغرب « أي انهم أكثر ملكة في اللغة ومعرفة بقوانينها وأصولها وذلك لأنهم كانوا يجمعون في تعليمهم للقرآن ، عبارات العلوم التي كانوا يتعلمونها معه ، مثل الحديث والفقه ، فتشأ لديهم قدرات (أي ملكات) على شيء من التصرف^(٣١) » والإتيان بعبارات وأساليب مشابهة لعبارتها وأساليبها ، ولكن مع ذلك فأنهم ، كما يقول ، كانوا يقصرون في ملكاتهم البلاغية .

ومن ناحية أخرى ذكر ابن خلدون ، أن تفنن الأندلسيين وابتداعهم طرقاً في التعليم تقوم على الإكثار من رواية الشعر والأشغال فيه ، ومن أدب الرسائل والإنشاء ودراسة العربية وعلومها وفنونها منذ الصغر ، جعلهم يقصرون في

(٢٥) م . د . ، ص ٥٩

(٢٦) المقدمة ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩

(٢٧) م . د . ، ص ٥٩

(٢٨) م . د . ، ص ٥٩

(٢٩) م . د . ، ص ٥٣ - ٥٣

(٣٠) ربما يقصد ابن خلدون ، الملكات ، أي القوى مستقلة بعضها عن البعض الآخر يمكن ان تتلخص بالمشروب والإفراط بها في كل مجال .

(٣١) المقدمة ، ص ٥٣٩ .

العلوم الدينية المتصلة بدراسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها^(٣٦). ويستشهد المؤرخ برأي القاضي أبي بكر بن عربي^(٣٧) في وجوب تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو الحال بالنسبة إلى اتجاه الأندلسيين ، لأن الشعر ، ديوان العرب فينبغي تقديمه ، ثم ينتقل إلى الحساب فيُستَرَن على تحليل غمريته وقوانينه ومساائله وبعد ذلك يعرج على درس القرآن والعلوم المتصلة به ، ومن ثمَّ تؤخذ علوم أصول الدين والفقه والجندل والحديث . وقد استحسِن ابن خلدون طريقة أبي بكر بن عربي التي ختمها بالنهاي عن تعليم الناشئة علمين سوية إلا إذا كان المتعلم يمتلك قدرات على تعلمهما ، وأظهر بعض النشاط والرغبة فيها^(٣٨) غير أنه أبدى تحفظه من النتيجة التي قد تؤدي إلى حرمان الناشئة من دراسة القرآن لغرض التبرك والثواب واعتقاد البعض من خشية تعرض الأطفال الذين يجرمون من دراسته إلى إصابتهم بالجنون وأن أمر الأطفال مرهون بأولياتهم الذين كانوا يتولون رعايتهم منهم فينقادون لحكمهم ، لذلك فإن أغلب الأطفال يصرفون إلى دراسة القرآن فيحرمون من تلقي المعلمين اللذين يرغبانها ، ولكن لو أن الأطفال استمروا فعلا في تلقيها لتحقق مبدأ القاضي أبي بكر بن عربي وأصبح من الضروري أن يطبق في بلاد المغرب والمشرق على السواء^(٣٩).

ويعقد ابن خلدون فصلا هـ مهّما عن واحدة من المسائل التربوية المهمة في مقامته ، ليس فقط في الفترة التي عاشها بل تبرز أهميتها في الوقت الحاضر ، وتتعلق باستعمال الشدة في تعليم الناشئة من الأطفال ، فيقرر أن الطرق التربوية والتعليمية التي تتسم بالشدة والقسوة تجاه المتعلمين مضرة بهم ، ويعلل ذلك بسبب أن التعرض في التعليم وجعله وسيلة للقطع من قبل المعلمين الذين يفتقرون إلى طرق وأساليب مبررة تقوم على التفهم والإدراك الصحيح لمتطلبات تربية الأطفال وتعليمهم . إن ذلك بالتأكيد يلحق ضرراً بعملية التعليم ، لأن من كانت تربيته ، كما يقول ، بالسف والقر من المتعلمين أطفالاً أو غيرهم لا يستطيع الاستجابة لتلقي العلم ويفتقد النشاط ويحجم عليه الكسل الأمر الذي يؤدي به إلى سلوك طريق الكلب والحبس والتظاهر بغير ما في ضميره خوفاً مما يلحق به من الأذى على أيدي هؤلاء المعلمين وكذلك يتعلم المكر والحديعة ، فتصبح لديه عادة وخلفاً ، ولذلك تُفسد المعاني الإنسانية من حيث علاقاته بالمجتمع ومدى استجابته لاكتساب عادات جيدة مثل الحمية وإكثارة الدفاع عن نفسه ومزته ليصبح عمالاً على غيره فتتضرر همته عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل التي تتحدد غاياتها ومدى إنسانيتها فيعود في أسفل السافلين^(٤٠).

ويجدد هذا المؤرخ ما يجب على المعلم في صدد استعمال الشدة تجاه المتعلمين من الأطفال والناشئة ، أنه ينبغي على المعلم في تعليمه والوالد في ولده أن لا يستبدأ عليها في التأديب ، وقد نقل من كتاب محمد بن أبي زيد الذي كان قد

(٣٦) م . د . ص ٤٤٠

(٣٧) وهو هي الدين ابن بكر محمد بن علي بن عربي المغربي ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م قرأ القرآن والحديث ودرس الفقه على يد أحد تلاميذه ابن حزم الاندلسي ثم انصرف إلى دراسة كتب التصوف بعد أن انهى هذا الاثر . انظر ترجمته في : النباهي ، تاريخ فقه الاندلس ، ص ١٠٥-١٠٦ .

(٣٨) للفتحة ، ص ٤٤٠

(٣٩) م . د . ص ٤٤١

(٤٠) للمقدمة ص ٤٤١

صنّفه في حكم المعلمين والتعلمين^(٣٧)، أنه لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم «إلا إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً»^(٣٨).

ولعل من المفيد أن نستعرض ما جاء به ابن خلدون حول وصايا الخليفة هارون الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين ، فقد استحسنتها كأفضل مذاهب التعليم فخطابه «يا أحرار الخليفة دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسطة وطلاعتك واجبة ، وأن تقف منه كما أوصاك الخليفة به ، بتلريسه القرآن وتعليمه بالتاريخ والسنن ورواية الشعر ، وأرشدك إلى الكلام وضروراته وكيف يبدأ به وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخله بتعليم الرجال والقواد من الملأه والساسة إذا دخلوا مجلسه ، كما أوصاه بإفادته في كل ساعة ثمّر عليه ، فائدة لا تحزنه فتمتدح فذهن ، وأن لا يمن في مساعدته لترك لديه فراغاً من الوقت يلقيه عن واجباته وأخيراً «طلب منه أن يقوم ما استطاع إلى ذلك بالقرب والملاينة «فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة»^(٣٩).

ويكتب ابن خلدون بشيء من التوضيح عن مسألة تربوية وتعليمية أخرى لها أهميتها في الفكر التربوي المعاصر ، وهي اختصار الطرق والأساليب التعليمية في العلوم وأبراب المعرفة بتدوين البرامج المختصرة في كل علم ، فقد يشمل الاختصار على حصر القوانين والأدلة باللفاظ قليلة ومعاني كثيرة . وقد أظهر المؤرخ أن هذا التضييق في الكلام عن العلم أو الفن أو الأدب غلّ بالبلادة أولاً وعسر على الفهم أيضاً ، كما أنه يفسد التعليم ، وفيه إخلال بالتحصيل ، ويستدل عليه بسوء التعليم ، فالتعلم عليه أن يتبع ألفاظ الاختصار الموصلة للفهم بتراجع المعاني وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، ويخلص ابن خلدون إلى القول ، إن المختصرات في العلوم الممدّة للناشئة وللمتعلمين تفقد أهمّ المميزات النافعة وتقطعهم عن تحصيلها^(٤٠).

وأفضل الطرق لتلقين العلوم والمعارف للناشئة الذين يتجاوزون المراحل الأولى على رأي ابن خلدون ، هي ما كانت تقدم لهم تدريجياً شيئاً فشيئاً ، وأن يراعى فيها استعدادات الطلبة لقبول ما يرد عليهم . والظاهر أن هذه الطرق التي يشير إليها تلخص في ثلاث مراحل أو «تكرارات» ففي البداية تقدم لهم مسائل عامة من كل باب من أبواب العلم تتعلق بأصوله وأساسه ، ويعني في شرحها على سبيل الإجمال ، وفي هذه المرحلة يكتب المتعلم ملكة جزئية وضعيفة في ذلك العلم ، غير أنها تعمل على تهيجته لفهم العلم وإدراك قوانينه ، وفي المرحلة الثانية ، تقدم الشروح الواضحة بصورة مفصلة ، وتذكر أوجه التشابه والاختلاف فتحسن ملكته . أما المرحلة الأخيرة فتقوم على التفتيش عن المسائل والقوانين

(٣٧) لا يفسر لنا لخصر على هذا الكتاب في الوقت المناسب . كما نشأ في تبيد معلومات عن مصنفه محمد بن أبي زيد في المصادر القليلة والأدب ، ويبدو أن هذا الكتاب الذي نال منه ابن خلدون معلومات غلظة يتكاملت مؤلفي العسكاري ومعلمهم وطريقهم وشيوخهم كان قد صنفه محمد بن أبي زيد خصوصاً هذا العرض، فرج فيه طريقهم وأساليبهم وللأدب

«هذا المختصر مطبوع الآن»

١٣٨١ : المجلد ١ ، ص ٤٤١

١٣٩١ : المجلد ١ ، ص ٤٤١

١٣٩١ : المجلد ١ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣

المعلقة والمهمة والمغلقة ، فتوضح بشيء من التفصيل والاحتمال حتى ينتهي المتعلم من استيعاب هذا العلم ومتطلباته^(٤١).

وهناك بعض الطلبة والمتعلمين ، كما أناد ابن خلدون ، الذين يختصرون هذه المراحل في أقل من ذلك أي للفترة المستغرقة في أخذ العلوم ، للحصول على ملكيات في بعض العلوم ، بحسب ما يتيسر لهم من إمكانات وما تقدم لهم من تسهيلات^(٤٢) ، والمقصود بالإمكانات هنا على الأرجح ، القدرة على الاستيعاب لأفكار العلوم المطروحة ، كما يرمي بالتسهيلات تناوؤها بطرق تعليمية مبسطة ومفهومة وواضحة تساعد على هذا الاستيعاب وتفتح له الأبواب مشرعة .

ويُلقي ابن خلدون اللوم على كثير من المعلمين في عصره بجهلهم الطرق التربوية في التعليم ، إذ يقنعون الطلبة كثيراً من المسائل والقوانين المعقدة والمقفلة ويطالبونهم في حلها وحسبون ذلك مرآة لهم متجاهلين استعداداتهم للتقبل والفهم ، لذلك ينبغي على المعلمين أن لا يزيدوا على طلابهم ومتعلميهم ويقبلوا عليهم بمراد العلم إلا بحسب طاقاتهم وعلى نسبة قوتهم سواء أكانوا مبتدئين أم في المراحل المنتهية وأن لا يجمعوا لهم بين مسائل وقوانين مختلفة وأن يقتصروا لهم على علم من العلوم حتى يتقنوه ، ثم يخلص إلى القول إن من المذاهب الجسيمة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً ، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منها ، لما فيه من تقسيم البال وإنصرافه عن كل واحد منها إلى تفهم الآخر فيستغلطان معاً ويستصعبان^(٤٣).

وعلى أية حال فالتعليم عند ابن خلدون صناعة خاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين وليس من واجبه ، بهذا المعنى ، حمل المتعلمين على حفظ فروع العلم ودفعهم إليه ، ولذلك فهو يسعى لكي يضع للتعليم منهجين ، على المعلمين والمتعلمين أن يطبقاه في وقت واحد وهما منهج التوسع في العلوم والمعرفة ، نظرياً وعملياً ، والآخر منهج التدرج من الأسهل إلى الأقل سهولةً فتلقين العلوم للمتعلمين إما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا^(٤٤) .

ويوجه ابن خلدون الأنظار إلى مسألة تربوية مهمة في تلقي العلم فيشير إلى دور المحاوراة والمناظرة والمفاوضة في التعليم ، فيذكر أن الطرق التربوية الصحيحة لا تقوم على أساس التأكيد على كثرة حفظ مباحث العلم واستظهارها لأن « الملكة العلمية » لا تحصل إلا « بالمحاوراة والمناظرة والمفاوضة » في موضوعات العلم « لأنها ستولد ملكة التصرف » و « ملكة استنباط الفروع من الأصول » ويقدم هذا المزيج أراه عن أيسر الطرق التربوية للحصول على « ملكة العلم »

(٤١) م . د . ص ٥٣٣ - ٥٣٦

(٤٢) للمقدمة ، ص ٥٣٣

(٤٣) م . د . ص ٥٣٤

(٤٤) م . د . ص ٥٣٣

وذلك من خلال إطلاق اللسان بالحوار والمناقشة في المسائل العلمية لأن « فتح اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية يقرب شأنها ويحصل مرادها »^(٤٥). ولا ريب أنك ستجد في طلبية العلم الذين يتهيبون من الاشتراك في النقاشات التي تجري في المناظرات العلمية ويفضلون السكوت وينصرفون إلى الحفظ والاستظهار جهوداً في أفكارهم وضيقاً في أفقهم ، وينطبق ذلك حتى على أولئك الذين يحسبون أنهم وضعوا أساساً للمكانتهم العلمية ، الاطلاع والقراءة والحفظ فلذلك ستجد أن لديهم قصوراً في علمهم ، ويظهر ذلك واضحاً أثناء حواراتهم أو مناظراتهم أو قيامهم بالتعليم ، ويمزوا ابن خلدون هذا القصور إلى « رداءة طريقة التعليم وانقطاع سنده » على الرغم من أن حفظهم هو أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به^(٤٦).

نخلص من هذا الرأي الذي يقدمه ابن خلدون ، أنه ينبغي على المعلمين والمدرسين ، أن يدركوا حقيقة تتعلق بجوهر عملهم التربوي التعليمي ، وهو القدرة على مناقشة المسائل العلمية والفكرية واستيعاب الأفكار والآراء التي تقوم عليها المناظرات العلمية والأدبية والفنية ، وكذلك معرفة إدارة هذه المناقشات وتوجيهها توجيهاً يخدم العملية التعليمية ، والمعلم سيواجه طلبة متباينى الاتجاهات والمنطلقات الفكرية والثقافية والعلمية فعليه أن يتدبر طرقاتهم ويناقشها ويقاوضها بكثير من السداد والعمق .

ولدى ابن خلدون تفسير عن تعدد المناهج وكررتها وتشعب مفرداتها مما يؤدي إلى التيه وعدم الدقة في ضبطها ، والمقصود على رأي ابن خلدون ببساطة أنه ما أضر بالناس في تحصيل العلم ، اختلاف الاصطلاحات في التعاليم^(٤٧) هو تعدد المناهج وتشعب اصطلاحاتها ، والظاهر أنه لاحظ في عصره ، طرقاً عدة لتعليم الفقه والشروحات الفقهية مثلاً . منها : الطريقة الفيروانية والطريقة القرطبية والطريقة البغدادية والطريقة المصرية وطرق المتأخرين وهذه يتبعها الكثير من الضمرات والأساليب والأنماط في تلقي الأصول والفروع في الفقه وشروحاته وتفسيراته ، لذلك فإن المتعلم مطالب باستحضارها جميعاً وتمييز ما بينها ، ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير ، وكان التعليم سهلاً ومأخذة قريباً . ويواصل صاحب المقدمة ضارباً المثل من علم العربية وخصوصاً من كتاب سيويه وجمع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين وجميع ما كتب في ذلك ثم يتساءل كيف يطلب به المتعلم^(٤٨).

أما مسألة التحصيل العلمي وما يتطوي عليه من طرق وأساليب تربوية فيفصلها بقوله ، إن العلوم المتعارفة على صنفين ، العلوم المقصودة بالذات مثل التفسير والحديث وعلم الكلام وعلوم الطبيعيات والفلسفة ، والعلوم المساعدة

(٤٥) مقدمة ، ص ٢٦١

(٤٦) د . د . ص ٢٣٢

(٤٧) مقدمة ، ص ٥٣١

(٤٨) د . د . ص ٥٣٧

التي تشكل وسيلة آية للعلوم الأولى مثل علوم العربية والحساب والمنطق ، فإذا أريد تحصيل العلوم المقصودة فينبغي دراستها والتوسع فيها واستكشاف الأدلة والبراهين في أصولها وتفريعاتها واستبعاد العلوم المساعدة عن التمهيد الدقيق والدراسة المستوعبة وذلك « لأنها آلة للعلوم المقصودة بذاتها ، فكلمها خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً » مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها^(٤٩) . ويذهب المزيغ بعيداً في التفصيلات حول صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه فيقول ، إن المتأخرين أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد ، فهي مضرة على حد قوله بالتعلمين على الإطلاق لأن اهتمام المتعلمين بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها ، لهذا يجب على المعلمين كما يقول ، أن لا يستبشروا بشأن العلوم الآلية (المساعدة) ونهوا المتعلم على الغرض منها ويقضوا به عنه^(٥٠) .

ويمكن القول ، باطمئنان ، إن ما ذهب إليه ابن خلدون في هذا الصدد ، يحمل مسألة التحصيل العلمي وحيدة الجانب ، فالعلوم ينبغي أن تؤخذ بصورة متوازنة ومتكافئة ، فإذا أريد تحصيل العلوم التاريخية مثلاً فلا بدّ حينئذ من تعلّم وسيلتها وهي اللغة ، وإتقانها وضبطها من حيث التوصل إلى تحليلات دقيقة (توضيحها اللغة توضيحاً) « كائناً » ، وكذلك إذا فعلنا مع العلوم الطبيعية والفلسفة فإن اللغة تنظر تعين على ترسّم الطريق الصحيح لإتقان هذه العلوم وتطبع صورة جلية في ذهن المتعلم عنها ، ويبدو ذلك واضحاً في جهود كثير من طلبة العلم الذين أصبحوا فيما بعد علماء ومفكرين في الحقول العلمية التي تخصصوا فيها على أيام ابن خلدون أو على أيام المتعلمين عليه أو المتأخرين عنه .

ولعل ابن خلدون وهو المحلل لبعض أفكار عصره ، يشير إلى ما كان يجري من فصل غير مقصود بين علوم الشرعيات والطبيعيات والفلسفة وبين علوم العربية والحساب والمنطق عند ما يراد السعي للتحصيل العلمي في صف من أصناف العلوم الأولى ، وهو الأسلوب التقليدي المتبع في تلك الفترة ، غير أن هذا المحلل لا يدرك صواباً حين يقرر أن علوم العربية والمنطق وما سواها من العلوم المساعدة « لا حاجة بها في العلوم المقصودة ، فهي من نوع اللغو »^(٥١) .

ولم تكن المدارس على عهد ابن خلدون هي المراكز الوحيدة للتعليم والتعلم بل إن المعلم أو المدرس الذي يجد في نفسه الكفاءة لمزاولة المهنة ، يستطيع أن يزاولها بحرية في المكان الذي يختاره وعلى الطريقة التي يريتها من غير أن يتقيد بتقيد حكومي أو سلطاني ، غير القيود التي يفرضها العرف والمادة^(٥٢) . وكان له أن يفعل ذلك في المساجد أيضاً . « وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وثه والجلوس لذلك في المساجد »^(٥٣) . ويبيّن أن المساجد صفات ،

(٤٩) م . د . ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧

(٥٠) المقدمة ، ص ٥٣٧

(٥١) م . د . ، ص ٥٣٧

(٥٢) ساطع الحميري ، دراسات من مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٣

(٥٣) المقدمة ، ص ٢٢٠

المساجد العظيمة الكثيرة الغاشية والمُعَدَّة للصلوات العامة المشهودة وأخرى خاصة يقوم أو بمحلة وليست للصلوات العامة ، الأولى ترجع الى الخليفة أو الوزير أو القاضي ، والمساجد الخاصة ترجع الى الناس المجاورين لها ، فإذا أراد المدرس أن يزاول مهنته في المساجد العظيمة ، فلا بُدَّ من استئذان الخليفة أو الوزير أو القاضي ، أما إذا أراد أن يزاولها في الصنف الثاني ، فلا يتوقف ذلك على إذن^(٥٤) . ويقرر ابن خلدون أن المدرسين في العالم الإسلامي لا يتصدون للمسائل التي لا تدخل في اختصاصاتهم أو التي لا يستطيعون الإيفاء بموضوعاتها أو ما يدخل في تفصيلاتها ودقائقها ، فيشير الى أنه « ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل^(٥٥) » .

غير أن ابن خلدون يذكر أن مهنة التعليم تدخل في نطاق المصالح العامة فهي تخضع لمراقبة المحتسب الذي تقوم وظيفته على موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد يأخذ « على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإيلاج في ضربهم للصبيان المتعلمين^(٥٦) » كما أن أصحاب الخير من الأغنياء من السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم ، كانوا يشيّدون بعض البنايات المختصة للتدريس ويربطون لها الأوقاف المخلّة للجرابة على معلّميها ومتعلّميها ، فيقول إنهم كانوا « يستكثرون من بناء المدارس والإعانة لطلاب العلم بالجرابة من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم^(٥٧) » ويبدو أن صلاحية التعليم وتحديده في تلك المدارس كانت تتعيّن وفق الشروط التي يضعها الواقفون من أولئك الأغنياء .

ويعكس لنا ابن خلدون صورة فيها بعض الوضوح عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها المعلمون والمدرسون في عصره وأن مهنة التعليم كانت ضمن مهن الضمفاء ، فقد ذهب الى القول « إن التعليم لهذا العهد من جملة الصناعات العائشة البعيدة من اعتزاز أهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجلبم^(٥٨) » .

أما أثر المشرق الإسلامي في نشر العلم في بلاد المغرب والأندلس فيوضحه بقوله ، إن أغلب الذين تلقوا تعليمهم على يد المعلمين المشاركة كانوا يعمون « بالحفظ » ويمجزون عن التصرف في المعرفة مع أن الهدف هو الحصول على الملكة العلمية ، أي فهم روحه العامة والوقوف على دقائقه والمقدرة على إبداء الرأي فيه^(٥٩) ، ثم يقدم لنا معلومات تفيد في الاطلاع على تاريخ التربية في بعض البلاد الإسلامية والمدد التي كان يقضيها الطلبة والمتعلمون في الحصول على العلوم ودراستها وإقائها ، فيشير الى أن المدة المهيّنة لسكنى طلبة العلم بالمدارس في المغرب لإتمام دراستهم ، هي ست عشرة سنة ، فيها هي في تونس خمس سنين . ويقول إن هذه المدة التي يمضيها الطلبة في المدارس هي أقل ما يتأتى لطلاب العلم للحصول على مبتغا من الملكة العلمية ، ويعمل طول المدة في المغرب عنها في البلاد الإسلامية الأخرى ، بسبب

(٥٤) م . د . ص ٢٢٠

(٥٥) م . د . ص ٢٢٠

(٥٦) م . د . ص ٢٢٤

(٥٧) المقدمة ، ص ١٣٥ - ١٣٧

(٥٨) م . د . ص ٢٩

(٥٩) د . عبد الغلف الطياري ، عاشر في تاريخ العرب والإسلام - ج ١ (دار الأندلس بيروت - ١٩٦٣) ص ١٠٢

وأخرى فمنهم من يحصلها علماً وتعلّياً وإلقاءً ومنهم عن طريق المحاكاة والتقليد بالباشرة ، فلتتلمذون يتخفون في التلقي إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتقليد ، أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً ، فلقا أهل العلم في بلاد بجنابة ، يفيد في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيه ، فالرحلة حل حد قوله لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المعلمين وأرباب العلم ومباشرة الرجال^(١٦) .

كما يتطرق صاحب المقدمة إلى الطريقة المثلى ، بل يعدّها الفضل في تعلم اللغة العربية وإتقانها ، بكثرة الخط ووجود المحفوظ ، فمن كان يروم تعلم اللسان العربي فلا بد له من أن يتقني ما يحفظه ، وهندئذ تكون ملكته أجود وأمل مقاماً ورتبة في البلاغة ، ويقول إنه على مقدار جودة المحفوظ أو السمع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إيجاد الملكة من بعدهما . والسبب في ارتقاء الملكة الحاصلة في العربية ، يعود إلى ارتقاء المحفوظ في طبقة من الكلام ، لأن المرء يحاول أن ينسجح على منوالها فتتم ملكاته بتقليدها وذلك لأن النفس البشرية ، وإن كانت في نوعيتها واحدة ، تختلف في البشر من حيث قوة الإدراكات وضعفها أو اختلافها^(١٣٦) وهي تتأثر إلى حد كبير بما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تقيّمها من الخارج إذ يتم وجودها فتخرج صورتها من القوة إلى الفعل . ويعزم ابن خلدون أن هذه الملكات التي تحصل عليها النفس فيها يتعلق باللغة العربية ، إما تأتي بالتهذيب ، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة تتم بالإسجاع والترسل ، والعلمية بمخالطة العلوم ، والإدراكات والأبحاث والمناظرات ، والفقهية بمخالطة الفقه وتفسير المسائل ، وتفرعها وتجزئها الفروع على الأصول^(١٣٧) ، ولعل ابن خلدون لا يؤكد هنا على الشاعرية

(٦٤) للتقدم : ص ٢٨٨ -

القطرية التي تصنع الشعراء ، بل يبرر القول إن الملكة الشعرية التي تحصل بحفظ الشعر ، تخلق النظامين وكذلك الحال بالنسبة للكتاب والعلماء والفقهاء .

ويزيدنا ابن خلدون بياناً عن إمكان فهم اللغة التي كان يستعملها الفقهاء فيما يأتي على ألسنتهم من أساليب خاصة تميزهم ، فقال إنها ليست من أساليب كلام العرب^(١٥) ، أما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك ، أي أنهم اتخذوا ما درج عليه العرب في لغتهم ، وذلك لأنهم اختاروا ما يحفظونه ، وأنهم يتناولون كلام العرب وأساليبهم في الترميل وانتقاءهم الجيد من الكلام^(١٦) . وابن خلدون في هذا الصدد يبتغي القول ، في أن لغة العلم ليست كلغة الأدب والشعر ، فمعرفة الفقه وعباراته التي يسوقها وهو في علومه الفقهية أو في الكتابة أو الشعر هي نفسها وتتميز عن لغة

الأدب والشاعر . ولذلك يرى ابن خلدون فيها بيلو ، أن المتعلمين ينبغي أن يتقنوا الأساليب التي يتميز بها الفقيه أو الأديب بقية إدراك المعنى وإتقان التعلم .

وعلم ابن خلدون انصراف طلبة العلم الى دراسة الفقه^(١٧) والتبحر فيه والتعمق في التخصص بأنه يفقد هؤلاء المتعلمين السيطرة على أساليب كلام العرب ، بسبب أن الفقيه ينحو إلى استخراج الأحكام من الأدلة على اختلاف التصور ، فيجسدها ظاهر وبعضها يحتاج إلى الترجيح ، فيبعد المتعلمين ، الذين أصبحوا فقهاء ، عن ملكات اللغة بأساليب الكتاب والشعراء الذين اختاروا ما يجب عليهم حفظه مما درج عليه العرب في لغتهم ، وهذه المخالطة لكلام العرب وأساليبهم في الكتابة والترسل إلى جانب الانتقاء الجيد من الكلام ، يجعلهم يختلفون في أسلوبهم اذ تشيع فيهم روح البلاغة .

ويعقد ابن خلدون فصلاً مهماً آخر عن تعلم العلوم العقلية وتكوين الملكات فيها ، فيقول ، إن هذه العلوم موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة ، وقد أطلق عليها علوم الفلسفة والحكمة وهي تشتمل على أربعة علوم ، الأول ، علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ ، فائدة تميز الخطأ من الصواب فيما يلتصق الناظر في الموجودات وعوارضها ليقتف على تحقيق الحق من الكائنات بمنتهى فكره . والثاني : العلم الطبيعي ، وهو يتم في النظر بالمحسوسات من الأجسام التي تتكون من عناصر المماند أو النبات أو الحيوان أو الأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تبحث عنها الحركات . أما الثالث فيسمى العلم الإلهي ، وهو فلسفة ما وراء الطبيعة ، يتم في النظر في

(١٥) قال خلدون ، أسيروا صليبا للفرار من الغم من روضون وهو كتاب في دولة بني مرين ، وهي إحدى الدول التي غلبت دولة المرينيين في المغرب ، قال فكرت يوماً صليبا يا العرب بن شبيب كتب السلطان في الحسن ، وكان يقدم في البحر بالسان لدهود لثقتهم مطلع قصيدة ابن الصعبي لم أعجبها له .

لم أجد حسين وقسمت بالأطلال صا القرق، يسون جديدها والبالي

قال في حل الديعة هذا شعر قديم ، قلت له . من أين لك ذلك ؟ فقال . من قرأ ما أقرق ، إذ من من حارات الفقهاء . (لغة ٢ ص ٥٧٩) .

(١٦) لغة ٢ ص ٥٧٩ .

(١٧) الله هو معرفة الاستقام للعلم من الكتاب والسنن وما تصب الفروع لمرحلة اللغة من المال للكتلين بالوجوب والخبر والكتب والكرامة والياسة (م ٥ ، ص ١٤٤)

الأمر التي وراء الطبيعة من الروحانيات ، كما ينظر في الوجود المطلق . والرابع ويشتمل على أربعة علوم وتسمى « التعليمات » أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق ، وعلم الإزغاطيقي ، وهو ما يعرض لكم المنفصل الذي هو العدد ومعرفة خواصه من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضميف ، وثالثها علم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ، أما رابعها فهو علم الهيئة ، وهو تعيين الأشكال للأفلاك ، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من النجوم السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها سواء الثابتة منها أو المتحركة أو المتحركة . ومن فروع العلوم الطبيعية علم الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ، ومن فروع علم الهيئة علم الأزياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك^(٦٨) .

ويخلص ابن خلدون إلى القول إن المسلمين بدأوا يتشرفون إلى الإطلاع على هذه العلوم ويدرسونها ويتقنون فيها^(٦٩) وخصوصاً العلوم الحكيمة ، فقد ازدادوا حرصاً على النظر فيها واتساعها بالخط العربي وعكف عليها النظار من

المسلمين وحلّقوا فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وغالفوا كثيراً من آراء علماء اليونان ، فنجح من طلبة المسلمين من شهر في جميع البلاد الإسلامية ، إذ اختص هؤلاء بالشهرة في علومهم وذكرهم وكانت لكل عالم إسلامي متبحر في الفلسفة والعلوم من هؤلاء العلماء ، طرقه وأساليبه في الإطلاع والأخذ والاستخراج والفنن ، وكذلك في إيلاؤها ونشرها وتدريسها لتلاميذهم وللطلبة من أهل العلم الذين يقدون من البلاد التي يذكرها مثل العراق وخراسان ومصر والمغرب والأندلس ، حتى ينتهي إلى القول . « إن هذه العلوم أسواقها نازقة ورسومها هناك متوفرة وطلبتها متكررة »^(٧٠) .

وأخيراً يلقي ابن خلدون الضوء على مسألة أكثر أهمية في الفكر التربوي العربي الإسلامي ، وذلك منذ عصر النهضة في الإسلام (القرن الرابع الهجري) حتى أيامه بداية القرن التاسع الهجري وربما تسحب أهميتها في الوقت الحاضر ، وهي استخدام العربية في تلقين العلوم والمعارف والانصراف إليها وتعلّمها ، فالعربية لها اصطلاحاتها ومسمياتها ، وهي تختلف عما جاء عن هذه العلوم في لغات الأقوام الأخرى وخصوصاً اليونانية . إن العربية تحكم التعبير في أفكار العلوم العقلية وتعطيها صورة الحيك والتثبيت والتفتيح^(٧١) . ويوضح ابن خلدون بهذا الخصوص ، أن أهل صناعة العلوم العربية ومعلميها الأندلسيين في العلوم أقرب إلى تحصيل القدرات والإمكانات على هذا الحيك والتثبيت والتفتيح من سواهم معلمي العلوم من أهل صناعة العربية في البلاد الإسلامية الأخرى ، وذلك لقيامها بها على شواهد العرب في تراكيب طرق تعليمهم وأساليبهم ، فيسبق إلى المبتدئ والمتعلم هذه العلوم والفنون ، كثير من الملكة العلمية أثناء

(٦٨) للفتحة ، ص ١٧٩

(٦٩) م - ٥ . ص ٤٨٠

(٧٠) م - ٥ . ص ٤٩٠

(٧١) م - ٥ . ص ٤٦١

تلقينهم التعليم فتقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وتبونها . وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم من أهل المشرق ، فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر في تراكيب كلام العرب في العلوم . والتعلم على حد قوله ، أحسن ما يتبناه الملكة العلمية في اللسان هو المزان مثله الصغر وأن يأخذ ، بعد أن يشب ، تلك القوانين التي هي وسائل للتعليم المتخذة لإتقان العلوم والتوفر على اصطلاحاتها ، وليس كما يفعل بعض المتعلمين لإدراك العلوم ، بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله النوال الذي نسمجوا عليه تراكيبهم فينسخ هو عليه ويتنزل بذلك من نشأ معهم ويخالط عباراتهم في كلامهم ولكن ليس في لغتهم وأصاليبيهم ، ويقول كذلك ، إن تلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها هلياً بحثاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلمها^(٧٢) .

وهكذا يقدم ابن خلدون ، عرضاً مهنياً في تاريخ التربية والتعليم في العالم الإسلامي خلال عصره ، وفي طرق التنميش وأصاليب التلقي للعلوم الدينية ، والعقلية ، يدعمه بأرائه في كثير من المسائل التربوية ويوضح معالجتها بسداد وإدراك ، حتى أننا يمكن أن نعد الكثير مما أدلى به في هذا الخصوص ، فانه التجاهات تربوية متميزة تغطي باهتمام علمه التربية والنفس في الوقت الحاضر وتستجيب للنظريات والقوانين والأسس والأفكار التربوية والتعليمية الحديثة والمعاصرة .



بعض الكتب التي يمكن الرجوع إليها في معرفة ابن خلدون

١- اللغة العربية :

- ١- مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الكشف ، بيروت (وهما نقلت التصور المذكورة في هذا البحث) .
- ٢- أعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ (منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية . بحوث نخبية من الاختصاصيين والمهتمين في التاريخ والاجتماع والفلسفة) .
- ٣- ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، منشورات دار الكتب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ .
- ٤- صاطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، مكتبة الحنايني ، مصر ١٩٦١ .
- ٥- محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، حياته وإثره الفكري ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٦- د. علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر .
- ٧- د. علي الوردي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٨- مهرجان ابن خلدون ، الرياض ، دار الكتاب ، دار البيضاء ، ١٩٦٢ .
- ٩- د. علي عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الأولى ، لجنة البيان العربي ، ١٩٥٧ .
- ١٠- ابن خلدون ، قائمة مؤلفاته وبعض المراجع التي كتبت عنه مناسبة للمهرجان العلمي الذي نظمته المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ١١- د. علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون مثله علم الاجتماع ، القاهرة - مكتبة نهضة مصر .
- ١٢- د. أحمد محمد التولي ، مع ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٢ .
- ١٣- محمود الملاخ ، مفاصل وحقائق من مقدمة ابن خلدون ، بغداد ، ١٩٥٥ .
- ١٤- د. طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ترجمة محمد عبد عنان ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ .
- ١٥- د. عمر فروخ ، كلمة في ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، ١٩٥١ .
- ١٦- ابن خلدون ، لباب المحصل في أصول الدين (نشره الأب لوسيانو رويو ، تطوان ، دار الطباعة المغربية ، ١٩٥٢) .
- ١٧- ابن خلدون ، شهاد السائل لتسهيل المسائل . عارضة بأمره محمد بن تاروت الطنجي ، استبول، منشورات كلية الآداب، ١٩٥٧ ، نشره الأب احتياطوس خليفة ، بيروت ، الطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٩ .
- ١٨- مهرجان ابن خلدون . (أيار ١٩٦٢) نظمت كلية الآداب بجامعة محمد الخامس - الدار البيضاء (دار الكتاب) .
- ١٩- الأب يريخا قمير ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، الطبعة الكاثوليكية ، ١٩٤٧ .
- ٢٠- د. رضوان ابراهيم ، المختار من كتاب مقدمة ابن خلدون ، من منشورات وزارة الثقافة والأرشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٢١- د. عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٢٢- د. عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨١ .
- ٢٣- د. محمد جابر المابدي ، فكر ابن خلدون ، النضية والدولة في التوفيق الإسلامي ، دار الطليعة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٢ .
- ٢٤- محمود عبد المولى ، ابن خلدون وعلم الاجتماع ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٦ .
- ٢٥- جوشون بوبول ، ابن خلدون ، فلسفة اجتماعية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، ١٩٦٤ .
- ٢٦- عبارة بن علي البني ، ابن خلدون . (المختصر المنقول من كتاب البربر لابن خلدون وهو كتاب تاريخ اليمن) باللغتين العربية والانجليزية ، لندن ، مطبعة كليرت - ١٣٠٩ هـ .

ب - الاجتماعية

1. Berque (Jacques) : La Connaissance au temps d'Ibn Khaldoun. (Contributions a la sociologie de la connaissance) : Chaiers du Laboratoire de sociologie de la Connaissance. 1st ed., anthropos Paris, 1967.
2. Bouthoul (G) : Ibn Khaldoun, Sa Philosophie Sociale Paris, 1930.
3. Hussein (T) : Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'bn Khaldoun. Paris, 1917.
4. Lacoste (Y) : Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, Passe da tiers-monde. F. Maspero, Paris, 1960.
5. LaHbabi (M.A.) : Ibn Khaldoun. ed. sechers, Paris, 1968.
6. Nassar (N) : La pensee vealiste d'ibn Khaldoun, P.U.P. Paris, 1967.
7. Schemidt, Nahaniel, Ibn Khaldoun Historian, Sociologist, and philosophen (New York : Columbia University Press, 1930).



تمهيد :

في ظني أن معظم الأخطاء التي وقع فيها كل من أراد أن يقيم فكر زكي نجيب محمود ، إنما يرجع إلى سبب رئيسي واحد هو عدم متابعة تطوره الفكري والاكتفاء بالنظر إليه من خلال الوضعية المنطقية وحدها ، ومن ثم اعتباره : « صاحب مدرسة فلسفية يتأثر على إثرائها وتدمجها منذ سنوات في إخلاص ودأب وأناة .. »^(١) . وما دمتنا قد حكمنا عليه بأنه صاحب مدرسة فمن الطبيعي أن تعارضه « المدارس الأخرى » سواء أكانت يسارية كالماركسية أو يمينية كالسلفية المتزمتة - وأن ينظر إليه أصحاب اليمين وأصحاب اليسار جميعاً ، وكأنه لم يفعل شيئاً سوى نشر الدعوة التي يقوم عليها مذهب ، وتبشيت دعائها ، على نحو ما يفعلون هم أنفسهم : « حتى استطاع أن ينمي حوله تياراً فكرياً مستمداً من أصول هذه الفلسفة وأن يدعمه بالقطاعات والمحاضرات والكتب »^(٢) . ومن هنا كان نقد الوضعية المنطقية يعني ، في الحال ، نقداً لزكي نجيب محمود ، حتى وإن اعترف فريق من أصحاب هذا النقد أنه أنشأ مدرسة خاصة في داخل المدرسة الوضعية المنطقية^(٣) . أو اعترف غيرهم أن الدور الذي لعبه زكي نجيب محمود في ثقافتنا يختلف عما تقوم به الوضعية المنطقية في بلاد أخرى كإنجلترا أو أمريكا وغيرهما من البلدان المتقدمة التي لا يمكن أن نقول إن هذه الفلسفة تقوم لديها بعملية تنويرية . أما عندنا .. « فقد كان التصدي للخرافات الغيبية بالنقد شرطاً لكل نقد في بلادنا فيما بذأت علاقات العالم القديم تسير في الاضمحلال (وقام فيها زكي نجيب محمود بدور بارز) فألحقت سهام نقده ضرراً فادحاً بالغيم الرجعية .. فضلاً عن أنه لم يتهاون طوال

الفلسفة الشائنية عند
زكي نجيب محمود

إمام عبد الفتاح إمام

كلية الآداب - جامعة الكويت

(١) محمود أمين العالم و معارك فكرية ، ص ١٤ طر الخلال عام ١٩٧٠ م ٢٥

(٢) المرجع نفسه ، في الصفحة نفسها .
(٣) د . جعفر هويدي ، الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان ص ٣٠ - ٣١ - مكتبة النهضة ١٩٧٢ .

فترة ليست بالقصيرة مع الكهانة الجاهلة في الكثير من المسائل العلمية ، ووجهت إليه أحجار الاتهامات الطائشة ، بخلاف الحال مع مثلي الوضعية للمنطقة في شروط اجتماعية مختلفة . . .^(٤).

ومع ذلك كله فقد أصبح من المألوف أن تصادفك في مجال الدراسات التي تصدى لبحث الفلسفة في العالم العربي « كليشيات » أقرب إلى المسلمات بأن الرجل يحمل لواء الوضعية المنطقية فحسب ، وأنه أكبر داعية لها ، وهذا هو كل دوره في حياتنا الثقافية . . . من المؤكد أن زكي نجيب محمود هو أبرز مثل لهذا التيار في الوطن العربي . . .^(٥) . وكان المسألة أصبحت بدئية لا تحتاج إلى شرح أو تفسير فقد صدر الحكم وانتهى الأمر بأنه يمثل الوضعية المنطقية وحامل اختلالها ووكيل أعمالها لا أكثر ولا أقل ! فإذا ما نُجيت عنه أطروحة أكاديمية فانها تستهدف دراسة « الوضعية المحدثة وفلسفة زكي نجيب محمود »^(٦) ، إذ أنه : « إلى هذا الاتجاه الفكري تقدم الدكتور زكي نجيب محمود بطلب انتساب ، وأصبح ممثله في الفكر العربي . . . »^(٧) وعلى هذا النحو يسير معظم الكتاب على اختلاف مذاهبهم ، واتجاهاتهم الفكرية ، لا نستفي من ذلك أولئك الذين لم يدركوا الفرق بين الوضعية المنطقية والمذهب الوضعي الفرنسي الذي وضعه أوجوست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) في

منتصف القرن الماضي فخلطوا بينها على نحوين من جهل فاضح ثم اتهموا مفكرنا بأنه على صلة « بالاستعمار الغربي » مثله مثل طه حسين وعلي عبدالرزاق ومن لفت لفتها^(٨).

والخلاصة أن كل ما يعلمه نقادنا - للأسف الشديد من زكي نجيب محمود عندما يرد ذكر اسمه - أنه صاحب « خرافة الميتافيزيقا » التي صدرت عام ١٩٥٣ أي منذ ما يقرب من نصف قرن - أما زكي نجيب محمود الميتافيزيقي الذي كتب في بداية الأربعينات بحثاً عن حرية الإرادة أخذ فيه بنظرية الجبر السذائي Self-Determination وهي نظرية ميتافيزيقية في صميمها^(٩) - فهم لا يعلمون عنه شيئاً ، لأنهم لم يشغلوا أنفسهم بدراسة الجوانب المختلفة لتطوره الروحي - إنهم يعرفون جيداً زكي نجيب محمود « صاحب المنطق الوضعي » الذي صدر عام ١٩٥١ - أما زكي نجيب محمود المفكر التنويري الذي كتب منذ « الشرق الفنان » عام ١٩٦٠ ما يقرب من عشرين كتاباً تدور كلها حول بحث الفكر العربي وتجديده فإنهم لا يعلمون عنه شيئاً - وما حاجاتهم إلى مثل هذه المعرفة ، وقد حسوا فكره في قوالب محددة واضحة وسهلة هي قوالب الوضعية المنطقية على نحو ما يفهمها أصحابها في إنجلترا والولايات المتحدة ١٩ وفي استطاعتهم بعد ذلك أن

(٤) إبراهيم طنجي في تعليقه القيم كتاب « نقد العقل الوضعي » ص ١٨ من تأليف د. حافظ أحمد أسدرة دار الطليعة في بيروت عام ١٩٨٠ .

(٥) د. أحمد ماضي « الوضعية المحدثة والتحليل المنطقي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر » في « الفلسفة في الوطن العربي المعاصر » بروت المؤتمرات الفلسفية العربية الأول أعمدة مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت عام ١٩٨٥ .

(٦) رسالة ماجستير للدكتور أحمد ماضي ، وانظر أيضاً بعض التوثيق في رسالته لدرجة الدكتوراه - وفاز بهذه السلك الدكتور ص ١٧٢ .

(٧) الدكتور حافظ أحمد « نقد العقل الوضعي » دراسة في الأزمة المنهجية للفكر زكي نجيب محمود ، ص ٣٠ ح دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ - ويهوان الكتاب يدل في الحال على مظهر الكاتب - ولم يوجد وصفات جيدة في تقديم الأستاذ إبراهيم طنجي لهذا الكتاب .

(٨) الدكتور عبد الباقى والفكر الإسلامي الحديث وصلة بالاستعمار الغربي ، وقد عحص فيه فصلاً لمناقشة الدكتور زكي نجات والذين عرّفوا في ص ٢٩١ دار الفكر بيروت ١٩٩٠ .

(٩) « نزار مذكر ما يقوله حمران رائد » من أن هذا الخلط مشكلة حرية الإرادة الذي يوحده بين الإرادة وبين الجبر اللغوي في حرية واحدة هو داخل الكلاسيكي الذي يقوله به المثاليون ويعرفه الطيبون .

وبإعدادها إلى الثقافة العربية - لكنه لم يفعل بل كانت معظم الرسائل الأكاديمية التي أشرف عليها إيان أستاذيته بالجامعة - تدور حول موضوعات فكرية لا علاقة لها بالوضعية المنطقية^(١١٣). وهذا يدل على أن اهتمامه بهذا المذهب كان لأسباب تنويرية في المقام الأول ، فهو من المذاهب التي شنت حرباً لا هوادة فيها على الحرافقة ، وهو من أقرب المذاهب إلى العلم والتفكير العلمي ، وهو في النهاية منج - لا يتقيد - بمضمون معين .

ولعل سوء الفهم الواسع لفكر هذا الرجل - وما ترتب عليه من نظرات ضيقة بحدت غمأساً عن تقديره تقديرأ سليماً - هو الذي أضطره إلى أن يعلن أكثر من مرة توضيحاً لموقفه للذين لم يفهموا الدور الذي يريد للوضعية المنطقية أن تقوم به يقول : « لقد كنتُ لسنوات طوال غخطاً بين خططين لأنني كنتُ بدوري أتعصب لتيار فلسفي معين على ظن مني بأن الأخذ به يقتضي رفض التيارات الأخرى ، لكنني اليوم - مع إيماني السابق بأولوية فلسفة التحليل حل ما حداها من فلسفات عصرنا - أؤمن كذلك بأن الأسرين هذه الاتجاهات الفلسفية إنما هو أسر تكامل في نهاية الشوط »^(١١٤) . لم يقرأ أصحاب الأحكام المبصرة السابقة عبارة كهذه ، وهي ليست بالقطع تبريراً من المذهب الوضعي المنطقي - أو التجريبية العلمية كما يحلو له أن يسميها - أو تنصلأ منه وإلها هو إعلان بأن المسألة ليست تعصباً للمذهب ، إنه تصريح ضمني بأنه استفاد من هذا المذهب ، وأنه وثقه له لصالح الفكر التنويري^(١١٥) ،

ينهاوا عليها نقداً وتجرعاً مستخلمين انتقاد الماركسيين الانجليز على وجه الخصوص ! وكأنه لا فارق بين ما فعله مفكراً وما فعله كارناب آير وغيرهما !

ولو أن الرجل أراد أن يكون مدروسة ، كما يزعم هؤلاء النقاد ، تنشر مبادئه الوضعية المنطقية ، وترجم نصوصها وتروج أفكارها لوجد عشرات من تلاميذه على استعداد تام للقيام بمثل هذا الدور منذ زمن بعيد^(١١٦) لا سيما وأن كل من تلمذ على يديه لم يستطع أن يقلت من سيطرته القوة على عقول الشباب منذ اللحظة التي بدأ فيها التدريس بالجامعة . فهذا واحد من ألح مفكرينا يصف تأثيره عليه عندما كان تلميذاً له في أواسر الأربعينات يقول : « الحق أن أصدق وصف ينطبق على التأثير العميق الذي تركه أستاذنا في تلاميذه هو ذلك الذي أطلقه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط على التغيير الذي أحدثته في عقله كتابات فيلسوف انجلترا الأكبر : ديفيد هيوم وذلك حين قال : لقد أيقظني هيوم من سبات اليقين الجازم الذي لا يتشكك في شيء . ولقد كان هذا يعني هو ما أحدثته محاضرات الدكتور زكي في عقولنا ، ونحن في منتصف تعليمنا الجامعي . . »^(١١٧) .

معنى ذلك أن أثره في تلاميذه كان قوياً وعارماً : « فمن وراء مسطره المهادية وصوته الخفيض إحصار ملحد . . ! »^(١١٨) وتلك شهادة يعلنها تلاميذه في كل مكان فلو أنه أراد أن يكون مدروسة ، كما يقول أصحاب النقد المتسرع ، لوجد من تلاميذه من يؤلف ومن يترجم ، ومن ينقل الوضعية المنطقية بشق زواياها

(١١٠) قرآن مثلاً : « زكي نجيب محمود كما عرفته » - في الكتاب الثقافي الذي أصدره قسم الفلسفة بجامعة الكويت ص ٥٧ .

(١١١) د . فؤاد زكريا في تقديمه للكتاب الثقافي الذي أصدره قسم الفلسفة بأبواب الكويت تحية الدكتور زكي في عيد ميلاده الثلاثين - طر ص ٢ .

(١١٢) المرجع السابق .

(١١٣) كتبت رسالة كتب هذه السطور من : لفيح لجليل عبد الجليل - رسالة د . محمود زمان من د رابم جيس - ورسالة أرسلت صر عن : التتوون العلمي ، والرحوم الدكتور حمس إسلام من : جون لوك ، د . د . أحمد فؤاد كفل من : ليتز ، . . الخ الخ

(١١٤) « هموم للتفتين » - ص ٤٥ - ٤٦ (صغرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٨١) .

(١١٥) قرآن قصة عقل - ص ٩٧ و ص ٩٤ . . الخ .

مفكرينا التنويريين الذين قاموا بهذه النهضة منذ أوائل القرن الماضي وحتى يومنا الراهن ١٠٠ ومن ثم فلا مندوحة لنا عن القيام بعرض سريع لمسار نهضتنا التي بدأت مع الحملة الفرنسية إلى أن نصل إلى « زكي نجيب محمود » المفكر والأديب لتعرف على إسهاماته في هذه النهضة .

مسار النهضة :

إذا كان المؤرخون الغربيون يحددون النهضة الأوروبية ب سقوط القسطنطينية عام ١٩٥٣ على يد الأتراك العثمانيين ، بعد أن فتحها محمد الثاني الملقب بمحمد الفتح - فإننا نستطيع أن نحدد « نهضتنا العربية » بنزو الغرب - هذه المرة للشرق على يد نابليون بونابرت وسقوط الاسكندرية عام ١٧٩٨ أو قبيل فاشلة القرن التاسع عشر بستين^(١٨) . منذ ذلك التاريخ بدأ عصر نهضتنا الذي لازلنا نعيشه حتى يومنا الراهن دون أن نتجاوزه إلى ما يمكن أن نسميه في تاريخنا « بالعصر الحديث » . غير أن هذه الفترة الطويلة - التي طالت أكثر مما كان ينبغي لها ، لم تكن كلها مسطحة واحداً متصلاً - بل كانت متدرجة في مستويات ثلاثة كل منها يرتفع على سابقه بدرجة ، كالعمارة الإسلامية حين كانت تجمل الطابق الثاني من البناء أوسع رقعة من الطابق الأول ، ثم تجمل الطابق الثالث أوسع رقعة بلونه من الطابق الثاني ، فبرغم ما بين الطوابق الثلاثة المتعاقبة من استمرارية تجهلها عمارة واحدة كانت بينها فروق في السعة كل منها أوسع من سابقة^(١٩) .

وأنه تجاوزه بعد أن تطور فكره وصلته التجارب : « علمتي خبرة الستين - بين ما علمتي - أن من أخطر مزالق الفكر أن أقيد نفسي في حدود إطار مذهبي ، تقيداً يجعلني أرجع في كل أموري إلى ميائتيه مذهب معين ، فإي وجهته متفقاً مع تلك الميائتيه قبلته ، ومالم يتفق معها رفضته ، وذلك لأن الخبرة علمتي أن تيسار الحياة أفزر جداً من أن يلزم به مله واحده بعدد قليل من المبادئ والقواعد ، ولذلك كان من التطور الطبيعي في حياتي الفكرية - دون أن أتعلم شيئاً من تخطيط وتدبير - أن أجدني قد اقتلعت نفسي في اتجاهات الفلسفة المعاصرة إجماعاً هو في حقيقته « منهج للتفكير » ، لا « مذهب » يورث نفسه في مضمون فكري بذاته ، فكنت كمن وضع في يده ميزاناً يزن به ما يشاء ، دون أن يلا يديه بمادة معينة لا بد أن تكون هي وحدها موضع الوزن والتقدير .. »^(٢٠) .

لم تكن الوضعية المطلقة ، إذن ، سوى مرحلة في فكر زكي نجيب محمود ، توقفت عندها قليلاً ، وتأملها طويلاً ، ودورها بحق كذا يستفيد منها في هدف أعلى هو المهمة التنويرية التي يقوم بها^(٢١) . ومن ثم فإننا نسيء فهمه أولاً ، ونظلمه ثانياً ، ونغفل الدور الكبير الذي قام به ثالثاً ، إذا ما توقفت عند هذه المرحلة ، أو حكمنا على دوره من خلالها فحسب - بل إن على الباحث الجاد ، إذا أراد أن يكون منصفاً لهذا الفكر ، أن يتتبع تطوره الروحي محاولاً أن يضعه في مكانه الصحيح من خارطة النهضة الثقافية العربية ، وبين كبار

(١٨) جميع جديد في الفكر ص ٢٢١

(١٩) دلي جميع الحالات يصعب أن نقول عنه أنه « كان داعية إلى الوضعية المطلقة التي ظهر ثقله لفرسها وتبسيطها . وأنه أعطى معظم حركه داعية إلى الوضعية المطلقة وإلى عقلانية عربية جديدة ، وأنه نتج في تأسيس مدرسة وضعية عقلانية عربية واسعة الانتشار .. » الموسوعة الفلسفية العربية - لجلد الثاني من ١٣ بيروت عام ١٩٨٨ .

(٢٠) لاحظ أن هذه الفكرة العربية لم تبدأ في الزمان الفوري ككل دفعة واحدة وفي وقت واحد - وذلك كانت الحداثة الجديدة في النهضة الأوروبية ، إذ بدأت أولاً في إيطاليا ، ومنها انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا - الخ - بل ربما كان في استطاعتنا أن نقول إن بعض الأفكار العربية لم تبدأ في الخروج من المصور الوسطى إلا منذ سنوات قليلة .

(٢١) جميع جديد في الفكر ص ٦٢

القطب . . .^(٢٢٦) ! وقل مثل ذلك بالنسبة لبلاد الشام ، إذ يذكر « بورنج » أنه لم يكن في دمشق أو حلب بائع كتب واحد^(٢٢٧) . حتى إن الحكومة المصرية تخشى تعليم الرياضة والطبيعة وتستغني شيخ الأزهر « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالحساب والمهنة » ؟^(٢٢٨) فيجب الشيخ في حله « يجوز مع بيان النفع من تعلمها » كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ولم يكونوا من خسرانها وفري الضوق فيها^(٢٢٩) . على هذا النحو كان الوطن العربي متحرلاً متغلقاً على علوم العصور الوسطى يحفظ بعض الكتب ويحبرها ويكتفي بتقديم شرح على متن أو حاشية على شرح ! ولم يكن بينه وبين الشعوب الأوروبية اتصال في جوانب الثقافة أو الصناعة أو نظم الحكم - الخ حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر تحمل معها صوراً جميلة وأفكاراً وثقياً جليلة ، فأسهمت في كسر الحاجز الذي بناه العثمانيون من الحرافات والشعوذة حول عقول الشرقيين^(٢٣٠) . ومن المصادفات الغريبة أن ينسحب الجيش الفرنسي في ١٥ أكتوبر عام ١٨٠١ - وهو نفس اليوم الذي ولد فيه رفاة الطهطاوي وائد النهضة الحديثة !

كان رفاة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) هو يانزr الخوري في المرحلة الأولى ، وهي البلور التي أخذت تنبت نباتها حتى استندت طاقاتها فجاءتها خاتمتها ثورة عربية - والبلور التي بزرها إياها فكرة الحرية في صورة الجينية الأولى ، وهذه الفكرة هي لمعيار الدقيق

وكان كل مستوى من تلك المستويات الثلاثة في مسار نهضتنا ينتهي بثورة نتقلنا إلى المستوى الأعلى ، لكن تلك الثورة كانت نجيء نتيجة لازمة للمخاض الفكري السابق عليها ، فتورة عرابي هي نهاية المرحلة الأولى ، وثورة ١٩١٩ هي نهاية المرحلة الثانية ، وثورة ١٩٥٢ هي نهاية المرحلة الثالثة .

فما هي هذه المستويات الثلاثة ؟ وكيف كان مسار نهضتنا منذ بدأت حتى الآن ؟ وأين يوضع فكر زكي نجيب محمود في هذا المسار ؟

المستوى الأول :

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان العالم الإسلامي عامية ، والوطن العربي خاصة يعيش : « ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقر مدقع » على حد تعبير أحمد أمين^(٢٣١) . ولقد وصف مسيو « قولبي Volney » السائح الفرنسي الذي زار مصر والشام - هذه البلاد في آخر القرن الثامن عشر بقوله : « إن الجهل في هذه البلاد عام وشامل مثلها مثل سائر البلاد التركية يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية من أدب وعلوم وفن ، والصناعات فيها في أبسط حالاتها ، حتى إذا فسلدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبياً »^(٢٣٢) . ويتحدث غيره عن السنين يلبغوا من العلم مرتبة القراءة والكتابة فيقول : « إن مصر حين وليها محمد علي لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة ، باستثناء الكتبة من

(٢٢٠) - أحمد أمين وزخار الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٦ مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٩ ط ٤ .

(٢٢١) المرجع نفسه .

(٢٢٢) د . حسين فوزي النجار و رفاة الطهطاوي ، ص ٢٩ (اعلام العرب - القاهرة) ويرى د . محمد صبري في تعليقه على هذه الأرقام أنها تتحدث عن القاهرة حسب إذ لم يكن هناك اهتمام لاسيا بالنسبة لن تعلموا القراءة في الكتاب في الريف - نظركم ، و رفاة الطهطاوي : رائد الفكر في العصر الحديث ، ص ٩ حاشية ١ .

(٢٢٣) - المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢٢٤) - أحمد أمين وزخار الاصلاح ، ص ٧ .

(٢٢٥) - د . محمد صبري : و رفاة الطهطاوي ، ص ١٢ .

(١٨٣٩ - ١٨٩٧) ليجد التربة المصرية قد أصبحت صالحة للثروة بفضل التنوير الذي أحدثه الطهطاوي بتعاليمه : « لقد جرب الأفغاني أن يبلر بلسراً في فارس والاستانة ، فلم تنبت ثم جربها في مصر فأثبتت . . »^(٢٨) . ثماني سنوات قضاهما الأفغاني في مصر (من مارس ١٨٧١ حتى أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقي ، لأنه كان يدين في الأرض بلسوراً تنهياً في الخفاء للنهائ ، وتستعد للظهور ثم الإزهار في أي بعدها من تعشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها^(٢٩) .

والأفغاني ، إلى جانب اهتمامه بفكرة « الحرية » ويتم أيضاً بفكرة صاحبها منذ بداية النهضة حتى الآن وأهني بها « الأحكام إلى العقل » فيؤلف رسالة في الرد على الدهريين (أو الماديين) يحكم في كل خطوة من خطوات السير إلى ما نطق أنه حجة عقلية فهو مثلاً يحاول البرهنة على أن نظرية التطور تقوم على الصلغة على حين أن نظام الكون نظام مدبر ، ولا يجوز عند العقل أن تلد المصادفات العمياء مثل هذا النظام للحكم ، كما أن نظرية التطور تجعل اللامتناهي ينتج عن المتناهي ، وهو مالا يجوز عند العقل . . . الخ^(٣٠) .

لكن الأفغاني ، وإن يكن قد اضطلع بدوره على الضوء الذي ألقاه رفاة الطهطاوي من قبله ، فقد ارتفع بفكرة الحرية على المستوى الأول نفسه ، عندما نقل الولاء للحاكم الذي افترضه الطهطاوي ليجعله ولاء للشعب^(٣١) .

لقياس درجات صمودنا فكلمنا ازادات الحرية عمقاً ، ازاد ازافاعاً على طريق النهضة درجة بعد درجة^(٣٢) . ويكتب الطهطاوي في كتابه « للرشد الأمين للنبات والنبين » فصلاً بعنوان : « في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية » ، أي في الحرية العامة والمساواة بين أبناء المجتمع - وهو يقسم هذه الحرية خمسة أقسام : طبيعية في المأكسل والمشرّب ، وسلوكية في إطار الأخلاق ، وعينية تكفل حرية العقيدة ، ومعدنية تنظم التعامل بين الناس ، وسياسية وهو أن تكفل الدولة للمواطن الحريات السابقة .

للحرية السياسية لم تكن تعني عنده مشاركة الشعب في الحكم فذلك أمك بعيد المآل ! على أن هذه الحريات تتضمن « المساواة » فهي تنصرف إلى جميع المواطنين على حد سواء ، لم يفرق بين رجل وامرأة ، ومن ثم يمكن اعتباره أول من دعا إلى حرية المرأة دعوة انتهت إلى ذروتها عند قاسم أمين . كما أنه كان أول من بشر بالديمقراطية السياسية التي صاغها فيما بعد أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) بل كان الطهطاوي بمثابة الصيحة الأولى « نحو الإصلاح الزراعي » بالمعنى الاشتراكي الذي نفهمه اليوم ، عندما كتب فصلاً عنوانه « مطلب في تقسيم الأرض بين مآلكها وزراعيها » : « ينحو فيه بالإلزام على مآلك الأرض الذين لا يطعون الأهالي إلا بقدر الخدمة والعمل ، وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم في مقابل المشقة ! »^(٣٣) .

وفي نفس هذه المرحلة ظهر جمال الدين الأفغاني

(٢٦) - مجمع جديد أو الفكره ص ٩٣ .

(٢٧) - مجمع جديد أو الفكره ص ٩٤ .

(٢٨) - أحد نبين « زعمه الإصلاح » ص ٦٨ .

(٢٩) - المرجع السابق .

(٣٠) - من زاوية فلسفية ص ١٠ .

(٣١) - مجمع جديد أو الفكره ص ٩٤ .

بالمعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه .
والطريق الثاني تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة
حتى يتفق معناه مع ما أثبت العقل . . . (٣٢) .

وعلى المسرح ظهر من المعاملة قاسم أمين (١٨٦٥ -
١٩٠٨) بدعوته إلى تحرير النصف المستبعد من الأمة
أعني المستبعد مرتين : فهو أولاً مستبعد من الرجل ثم هو
والرجل مستبعدان للمستعمر ! كما ظهر مصطفى كامل
(١٨٧٤ - ١٩٠٨) بزعامته السياسية التي انجذبت نحو
تحرير البلاد من المستعمر . وأحمد لطفي السيد (١٨٧٢ -
١٩٦٣) وإصراره على أن تُقيد الحكومة سلطتها ،
بحيث لا تسيطر إلا على ما تدعو الضرورة إلى سيطرتها
عليه وهي ثلاثة : الجيش ، والشرطة ، والقضاء . ولها
هذا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية للأفراد والمجتمعات
الحرة ! وكان من أبرز مبادئه الحركة الليبرالية التي قادها
لطفي السيد مبداً : أن تكون السيادة للقانون لا
للأشخاص وأن يحكم الحاكم بإرادة الشعب لصالح
الجمهور كله لا لصالح طيقة معينة أو فرد بذاته ، ثم
مبدأ أن تكون مصر للمصريين ، ولكنه هذه المرة أوسع
معنى مما كان عليه في شعار الثورة العرابية : لأن معناه
هذه المرة أن تستقل مصر عن الأتراك مع استقلالها عن
الإنجليز . وكان من مبادئه أيضاً أن حرية الوطن لا
تتحقق إلا إذا تحققت حرية المواطن ، على أن حرية
المواطن لا تتحقق إلا في ظل حرية سياسية يكون معناها
أن يشترك كل فرد في حكومة بلاده اشتراكاً تاماً كاملاً ،
وهذا هو معنى ما نسميه سلطة الأمة ! وهنا نلاحظ الوثنية
المائلة التي انتقلنا بها من المعنى الضيق للحرية السياسية
كما فهمها الطوطاي إلى معناها كما حدده لطفي

وهكذا اشتدت الإرهاسات الفكرية في المرحلة
الأولى حتى تخففت أخيراً الأمر عن ثورة عرابي التي
كانت أول ثورة رفعت شعار مصر للمصريين ، وإن
كانت قد اكتفت بإزالة الحرمان عن المصري دون أن
تشكك في حقوق الفئات الأخرى الدخيلة من أترك
وجراكسة (٣٣) .

المستوى الثاني :-

انتهت ثورة عرابي بدخول المستعمر البريطاني مصر
عام ١٨٨٢ لتبدأ المرحلة الثانية في مسار نهضتنا الحديثة
.. وهنا يظهر على المسرح عمالقة يشهدون الأبطال
والأسماع : الإمام محمد عبده (١٩٠٥ - ٣٤) .
يناضل ليحرر حياته الدينية عما علق
بها من غرافة ، ولينجو بقول الناس من ظلمة الجهل ،
غير أن أهم ما هي به هو توضيح العقائد الأساسية في
الاسلام توضيحاً يُبين استنادها إلى منطق العقل فتراه في
كتابه « الاسلام والنصرانية » يفضل القول في الأصول
التي يقوم عليها الاسلام ، ويعمل الأصل الأول لهذا
الدين هو « النظر العقلي » يقول « أول أساس وضع عليه
الاسلام هو النظر العقلي ، والنظر عنده هو وسيلة
الامان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجية »
وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذهن
إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يشور
عليه ؟ (٣٥) . أما الأصل الثاني للاسلام فهو
« تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، فقد
اتفق أهل الملّة الاسلامية على أنه إذا تعارض العقل
والنقل أخذ بما دلّ عليه العقل ، وبقي في النقل
طريقان : طريق التسليم بصحة النقل مع الاعتراف

(٣٢) - المرجع نفسه .

(٣٣) - تله ترتيبات القدر أن يمت الامام عبده في نفس العام الذي يولد له ركي نجيب محمود حتى لا تتطع حقائق التفسير فجاء مات والله فخر في اكره والله جيد

(٣٤) - محمد عبده والاسلام والنصرانية ، ص ١٦ مكتبة محمد صبيح عام ١٩٤٤ .

(٣٥) - المرجع السابق ص ٥٢ .

ذكر جان جاك روسو ، وفولتير ، ورأسين ومولير ودوركايم . . الخ . ثم التقت الجمعيتين في تحرير جريدة أسبوعية اسمها « السفور » تدافع عن آراء قاسم أمين في تحرير المرأة وتدعو إليها^(٣٨) .

غير أن هذه المرحلة تشهد أبعاداً جديداً لفكرتي « الحرية » و « العقل » لم تطرأ للسابقين على خاطر . فها هو عباس العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) يدعو إلى تحرير الشعر والفن بصفة عامة ، وينتهي إلى نظريته الشهيرة التي تلخص إلى « أن الجمال والحرية وجهان لحقيقة واحدة » ، في الوقت نفسه فكرة التحرر تشمل الموسيقى فها هو سيد درويش (١٨٩٣ - ١٩٢٣) يعمل على تحرير الموسيقى من صيغتها القديمة التي كانت تستهدف الطرب لتصبح تصويراً أو تعبيراً لما يشرد في صدور الناس بكل فئاتهم . وهذا طلعت حرب (١٨٦٧ - ١٩٤٢) يدعو للتحرير الاقتصادي بإنشائه لبنك مصر وشركاته ، وهنا علي عبد الرزاق يمرر مفهوم الحكومة الإسلامي من تقليد الخلافة ويصغر كتابه الشهير « الاسلام وأصول الحكم » عام ١٩٢٥ يعلن في آخر فقراته أن « الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون . ويريد من كل ما هيأوا حولها من رغبة ووهبة ومن عزة وقوة . ان هذه الخطط السياسية لا شأن للدين بها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل ، ونجارب الأمم وقواعد السياسة »^(٣٩) .

كذلك كان طه حسين فيما كتب داعياً إلى الفكرتين معا « الحرية » و « العقل » ، أو قل إنه كان يدعو إلى الحرية الفكرية بالتزام المنهج العقلي الصرف ، حتى في

السيد . هذا كله فضلاً عما سعى إليه لطفي السيد من تطوير التعليم الذي أراد له أن يكون تنمية للحرية الفكرية بعد أن كان منحصراً في إعداد الموظفين للحكومة ، وكذلك أيد لطفي السيد دعوة قاسم أمين في حرية المرأة . لكنه هنا أيضاً قفز بالخطى المقصود عالياً ، فبعد أن كانت حرية المرأة عند قاسم أمين تعني أن تكشف المرأة عن وجهها برفع الحجاب ، أصبحت عند لطفي السيد تعني حق المرأة في التعليم حقاً مساوياً لحق الرجل فيه . ويخففت هذه الإرهاسات الفكرية عن ثورة ١٩١٩ التي انتقلت بها درجة أعلى^(٤٠) .

المستوى الثالث :

على الرغم من أن زكي نجيب محمود ولد في المرحلة السابقة ١٩٠٥ فإن تكوينه العقلي أولاً ، ثم إنتاجه الفكري بعد ذلك ، كان ولا يزال ، داخل هذا المستوى الثالث ، فهو في مرحلة التكوين في عشرينات القرن وثلاثيناته - يُقبل إقبالاً شديداً على متابعة الحياة الثقافية متابعة كادت ألا تترك كتاباً أو مقالاً مما كان يكتبه أعلام الحركة الفكرية والأدبية في مصر لا سيما في الفكرتين الرئيسيتين « فكرة الحرية » من ناحية ، و « فكرة العقل » من ناحية أخرى^(٤١) .

ولقد كانت حياتنا الثقافية في هذين المقدين نشطة ، فيذكر أحمد أمين مثلاً في كتابه « حياتي » أنه كانت هناك مدارس الأصدقاء من ذوي الثقافة الانجليزية يكثر فيها الحديث عن شكسبير وديكنز ، وماسكولي ، وشو ، وهـ . ج . ويلز . . الخ وجمعية أخرى من أصدقاء من ذوي الثقافة الفرنسية يكثر فيها

(٣٨) - جميع جديد أو الأفكار ص ٦٦

(٣٩) - قصة عقل ص ١٦ .

(٤٠) - ١٠٤٠٠٠٠ ، هـ جاني ، ص ١٢٢ - ١٢٣ دار الفكر للطباعة بيروت ١٩٧١ ط١

(٤١) - علي عبد الرزاق « الاسلام وأصول الحكم » ص ١٨٢ . المؤسسة العربية للدراسات - نشر مع وثائق الملكية د محمد صابر .

« بين السماء والأرض » . . الخ . . والحق أنه هو نفسه يجسّد ، بما له من إمكانيات في مجالات شتى ، هذه الشافعية يقول : « إنني بمثابة عدة أشخاص في جلد واحد ، فهناك مَنْ تحفره العاطفة ولا يقوى على إجلعها ، ولكن هناك الى جانبه مَنْ يورثه إليه اللوم ويحاول أن يشكّمه حتى يقفد فيه الحركة التي تقذف به الى المحاوية ، هل أن هذا الشد والجذب في داخل النفس بين عاطفة تشتعل وعقل يزداد اشتعالها لا يمنع أن ينعم الإنسان بلحظات هادئة تتصلح فيها العاطفة والعقل فيسيران معا في اتجاه واحد . . » (١٦١) .

علينا الآن أن نبدأ من البداية لتعرف قصة هذه الثنائيات ومحاولة التصالح التي حاول أن يقوم بها مفكرنا الكبير ناظراً إليها على أنها « قلب الرّوح » في نهضتنا الثقافية الحديثة .

ثنائيات كثيرة وجلوهرها واحدة :

لثنائية الفلسفية صور شتى : منها النظرة الثنائية الى العالم التي تستهدف تفسيره بمنطوقين مختلفين : وتلك هي الثنائية الاستمولوجية . ومنها القول بوجود جوهرين متميزين في عالم الواقع - وتلك هي الثنائية الميتافيزيقية : ثنائية الله والعالم ، المادة والروح ، وما يترشح عنها من ثنائية بين الجسم والذهن . . الخ . كما أننا نستطيع كذلك أن نقول إن هناك ثنائية ثقافية أو حضارية تتمثل في القول بوجود ثقافتين مختلفتين ، لكل منهما خصائص معينة تميزها عن الثقافة الأخرى .

غير أن هذه الصور المختلفة من « الثنائية » ليست منفصلة أو متباعدة على نحو ما تبدو لأول وهلة ، إذ أننا

البحوث التي قد تبدو غير خاضعة لذلك المنهج فما هو يقول « أريد أن أصطنع في الأدب ، هذا للمنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكاوت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية في هذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن عما قيل فيه خلوا تاماً . . » (١٦٠) . وهنا أحمد أمين (١٨٨٧ - ١٩٥٤) وبلجنة التأليف والترجمة والنشر بما رفعت من مصابيح يرى الناس حل أصولها ثقافة الإلهمين والمحدثين (١٦١) .

وأخيراً نصل إلى زكي نجيب محمود الذي يكمل بإنتاجه الغزير وكره القوي الواضح ، وتحليلاته العقلية لكثير من المفاهيم والأفكار السائدة - هذه الحركة التنويرية الكبرى التي بدأت في القرن الماضي وامتدت حتى يومنا الراهن - وهو نفسه بلخص دعوته في عناصر رئيسية تجمع الأفكار التنويرية السابقة وتزيد عليها يقول - « أنا أدعو بكل قوتي الى أن نزيد من اهتمامنا « بالعلم » حتى ولو جاء ذلك على حساب الجانب الوجداني وأدعو الى الأخذ بأمس الحضارة العصرية وما يتبعها من ثقافة ، ثم أدعو الى البحث عن صيغة تصون لنا هويتنا دون أن يضيع منا العيش في عصرنا . . تلك خطوط واضحة أدت عليها كل ما خلّفته من جهود . . » (١٦٢) . وسوف نرى بعد قليل كيف أنه يلخص في أعماله مسار النهضة السابقة كلها ، وكيف أنه يقدم مشروعاً حضارياً يضم كثرة من الثنائيات - هي التي ظهرت في نهضتنا الثقافية طوال قرن ونصف : ثنائية بين « العقل والوجدان » ، ثنائية بين « المادة والروح » ،

(١٦٠) - د. لي الشعر الجمال ، ص ١١ مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٦٦ لم يرد ذلك في الألب الجليل ص ٦٩ جماد ه من المؤلفات الكاملة .

(١٦١) - مجتمع جديد أو الكثرة ص ٦٦ - ٦٧ .

(١٦٢) - قصة عقل ص ٨ .

(١٦٣) - المرجع نفسه ص ٦ .

مثلا نستطيع أن نستخلص من النظرة الثنائية الى الكون - وهي الثنائية الميتافيزيقية أو الانطولوجية نظرية خاصة في تحليل المعرفة^(٤٤) . كما أننا قد نجد أن خصائص الثنائية الثقافية مرتبطة في كل حضارة بنظرة خاصة الى الواقع ويتحليل معين للمعرفة^(٤٥) .

وفي استطاعتنا أن نقول إن « زكي نجيب محمود » والفكر والأديب يُحمَد في شخصه وفي إتناجه الفكري هذه الثنائيات جميعا التي تعبر أدق تعبير عن مشكلاتنا الفكرية والثقافية منذ بداية عصر النهضة العربية في القرن الماضي كما سبق أن ذكرنا وحتى يومنا الراهن . ولم تكن الفلسفة العربية التي اترحتها في « تجليد الفكر العربي » بما فيها من ثنائيات بين السماء والأرض ، أو بين الله والإنسان ، أو بين العقل والوجدان . . الخ الخ إلا تلخيصاً للثنائية التي يعيشها مجتمعنا العربي وخبرها مفكرنا الكبير منذ بداية نصنجه العقلي . ولعل المشكلات التي تثيرها هذه الثنائية وما تسببه من حيرة وقلق كانت من بين الدواعي التي دفعته الى « الوضعية المنطقية » ، فلم تكن اللحظة النادرة التي تحدث عنها في ربيع عام ١٩٤٦ أو أحس فيها بما يشبه اللمحة الذهبية ، تتوقد لتضيء له الطريق - سوى عثور على حل لمشكلة الثنائيات التي وجدها في ثقافة مجتمعة ، بل أحس بها في أعماله ، ومن ثم فليس غريباً أن يصف هذا الموقف الفلسفي الجليد الذي فرق له بين مجال الوجدان - ومجال العقل - بهذه العبارات ذات الدلالة الواضحة : « لقد أراد لي توفيق الله » ، منذ بدأت حياتي العقلية المنتجة أن أجمع على طريق من طرق التفكير الفلسفي ، رأيته كأنما خلقت له وتخلّق لي ، ثم رأيته

وكانه أنسب ما أقلمه في عالم الفكر لأمتي ، لأنه إذا كان الغموض والخلط بين المعاني أحد الأمراض العقلية التي أصابت أمتي ، فذلك الطريقة من طرق التفكير هي من أنجح وسائل العلاج ، وأما تلك الطريقة فهي أننا إذا كنا في مجال العلم « فلا بد أن يجيء القول الذي نقوله مما يطابق الواقع عند التطبيق . . أما مجالات القول الأخرى فلكل مجال منها معياره الخاص . . »^(٤٦) . وعلمنا أن نتبه جيداً الى أمثال هذه العبارات الهامة التي تدل أولاً على أنه كان يعاني من مشكلة الثنائية بين مجالي العلم والوجدان ، وأنه كان يعتقد أن الخلط بينهما ، بله الخلط بين المعاني والأفكار والمفاهيم مرض يسود ثقافتنا ، وأنه وصل الى الوضعية المنطقية بوصفها حلا منطقيا لما تعانيه هذه الثقافة من اضطراب ومشكلات لا سيما في تفرقة هذه الفلسفة الأساسية بين هذين المجالين الرئيسين من مجالات القول ، ولهذا فأننا كثيراً ما نجده يعبر عنها كما لو كان يعرفها من قبل ! فهذا الموقف الفلسفي الجليد الذي عثر عليه في لحظة نادرة من ربيع ١٩٤٦ كان على حد تعبيره : « كأنما هو ثوب فُصل على طبيعة تفكيري تفصيلا جعل الرداء على قد المزلتي ، بل لي شعرت في اللحظة نفسها بأنه إذا كانت الثقافة العربية بحاجة الى ضوابط تصلح لها طريق السير ، فذلك الضوابط تكمن ها هنا . . »^(٤٧) . ونحن نستشف من هذه العبارات أنه كان يعاني بالفعل مشكلات ثقافية هي تلك الثنائيات التي سوف نتحدث عنها بعد قليل وأن فكره كان يتجه في مجرى معين قبل أن يتعرف على الوضعية المنطقية فلما عرفها شعر أنها جاءت ملائمة تماما لمجرى هذا التفكير ! .

(٤٤) - محمد الفكر العربي ص ٢٨١ .

(٤٥) - في « التفرقة » عرض لمفهوم هذه الثنائية الثقافية وسوف نعود الى هذا الموضوع .

(٤٦) - في « ثم من التراث » ص ١١٧ - ١١٨ .

(٤٧) - لغة عقل ص ٩٢ .

واللا معقول في تراثنا الفكري» و«ثقافتنا في مواجهة العصر»^(٤٨) أقول لم تكن هذه النظرة «جديدة إلا في وضوح معالها» وتحديد خطوطها الرئيسية، على نحو محمود متميز. ولهذا فقد كان على حق تماماً في قوله: إن هذا البناء الفكري الجديد جاهد ليكتمل، لا لينقص، ما أنجزه خلال الخمسينات من تحديد المنهج التفكير العلمي^(٤٩).

ذلك لأن بلور هذه الثانية كانت قائمة في أعماق وجوده متغلغلة في تفكيره طوال حياته على نحو متوازن بين العقل والوجدان، وهو يرجو أن يجلت هذا التوازن في ثقافته العربية، ونحن عندما نقول إنه يمسد في شخصه هذه الثانية للتوازن والرجوة لاجتماعنا، فإنا نقصد المعنى الحرفي لهذه العبارة، فهو عندما أراد، مثلاً، أن يكتب سيرته الذاتية لم يجد أمامه مفرأ من تصويرها في قالب «ثنائي واضح» فيكتب كتابين منفصلين: «قصة نفس» يحكي أعماق الجانب الذاتي الباطني غير المرئي، ثم «قصة عقل» الذي يروي تطوره العقلي في فترة تزيد على ستين عاماً! وإنك لتلمس هنا وهناك، داخل كل كتاب من هذين الكتابين، ضرباً واضحاً من الثانية لا سيما ثنائية «العقل والوجدان» و«ثنائية الصالح والفنان».. وهو عندما يريد، مثلاً آخر، أن يتصور نفسه من الداخل في «قصة نفسي» يختار لها شخصيتين رئيسيتين تمثلان هذه الثانية يوضح كامل: شخصية الأحدث «رياض عطا» صاحب الوجدان المنهبط، وشخصية «إبراهيم الخولي» صاحب العقل الواضح والأسلوب العلمي^(٥٠). ويدور حوار أحياناً - يغلب

ثنائية العقل والوجدان صمة أساسية في حضارة الشرق، وهي كذلك عند مفكرنا، ولهذا كان زكي نجيب محمود في أعماقه، وفي حياته، وفكره، كأنما هو التجسيد الحي «للشرق الفنان» الذي يجمع بين النظرة الذاتية المباشرة إلى الوجود التي تجعله خطرة من خطرات النفس أو نبضة من نبضات القلب. وهي نظرة الروعاني المتصوف والشاعر والفنان.. وبين نظرة العالم الذي يقيم بينه وبين الكائنات حاجزاً من قنواته ونظرياته^(٥١). لكن هذا الشق الثاني غير موجود الآن وتلك هي مشكلة الشرق «الأوسط» وتلك هي مشكلة الثانية في الثقافة العربية التي عاثاها مفكرنا منذ مطلع نضجه العقلي، ولم يستطع أن يوفق بينها فكيف يجمع العقل والوجدان في تصور نظري علم..؟ ثم جاءت الرضعية المنطقية لتعطيه نفقة بين مجالين كان يستشعرهما بداخله، فكانما أعطته الإطار النظري الذي كان يبحث عنه، وإن كانت استضافته من هذا المنهج لم تتعد الخطوط الريضة التي تميته على حل مشكلاته، ومشكلات أمته الفكرية، من حيث هو «منهج» دون أن يتقيد بحرفيته كملعب أو يورط نفسه في مضمون فكري بهينه: «فكنتُ كمن يضع في يده ميزاناً يزن به الأشياء، دون أن يملأ يديه بمادة معينة لا بد أن تكون هي وحدها موضع الوزن والتقدير..»^(٥٢).

وعلى ذلك فإن النظرة الثانية التي خصها في كتابه «الشرق الفنان» عام ١٩٦٠ ووصفها بأنها كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء فكري جديد ظهرت معالمه الكبرى خلال السبعينيات في «تجديد الفكر العربي» و«المعقول

(٤٨) - «الشرق الفنان» ص ٧ - ٨.

(٤٩) - «جمع جديد أو لكثرة» ص ٢٤٦.

(٥٠) - «قصة عقل» ص ١٧٦.

(٥١) - المرجع نفسه في الصفحة نفسها.

(٥٢) - «قصة نفس» ص ٢٦٦.

مبادئ القول كالشعر ، وغيره من ضروب التعبير الفني ، فلها شروط أخرى خاصة بها يعرفها المتفكرون بتلك المبادئ^(٥٤) . ومن ثم فلا يجوز أن يكون هناك خلط بين فلسفة ديين ، وبين عقل وإيمان ، بين منطق وفن . . الخ . وهذا هو الموقف الذي أراده لأبناء أمته أن يستخلصوه من تراثهم - شكلاً لا مضموناً - وهو ألا يجعلوا بين العقل والإيمان تعارضاً ، بل أن يجعلوا بينهما تعاوناً للوصول إلى هدف واحد ، فلكل من الأداتين قسطها من الفهم وتنظيم السلوك^(٥٥) . فيكون موقفنا كمن استكثر أن يترك العقل وحده حكماً في الميدان فقالوا : نجعل للإيمان قسطاً وللعقل قسطاً . .^(٥٦) فهو إذا كان « عقلانياً » متحمساً للعقل على نحو ظاهر فلذلك لأن هذا الجانب ناقص في ثقافتنا ؛ لكن ذلك لا يعني أنه يجعل ذلك الجانب الآخر أعني جانب الخيال والوجدان يقول : « مَنْ يقرأ في فيراي متلفعاً بمنطق العقل والحا وغداً ، قد لا يعلم أن لي عيالا يشتمل لأتفه المؤثرات اشتعالاً يكتسح أمامه كل ما يعترض طريقه من قوى النفس الأخرى . . »^(٥٧)

- البدايات الأولى للثنائية الاستمولوجية :

يحدثنا في قصة عقل أنه كان في العشرينات من عمره ، وبعد تحفرجه مباشرة ، صاحب لمحة صولية : « نزع إليها صاحبنا منذ فراهه من دراسته ، وأخذت تعالوه حيناً بعد حين وامتدت معه أعضواً جاوزت أعدادها عشرة »^(٥٨) . لكنها لم تنته بعد هذه الأروام العشرة ، كما قد توحي هذه العبارة ، وإنما أعيد تشكيلها

إلى صراع أحياناً أخرى - بين هاتين الشخصيتين بحثاً عن الكيفية التي يمكن بواسطتها التوفيق بين « العقل والوجدان » بحيث يكون هناك إنسجام أو توازن بين هذين الجانبين فلا يطفئ جانب على جانب - يقول الثاني للأول توضيحاً لموقفه : « لست أقل منك حرصاً على مشاعر الإنسان وآماله ومثله العليا . هذه المشاعر والآمال والمثل ألقي زمت في لي خطابك الأخير أنني سائر بملهي نحو جعلها . كل ما هنالك من أمر في هذا الصدد هو أنني أفرق بين لغة العقل ولغة الشعور ، فمن لا يريد أن يتحدث عما يقع في حسه مما يتاح للآخرين أن يراجعوه فيه بحواسهم فهو لا يريد أن يتحدث بلغة العقل . وليس في ذلك رفع ولا خفض للغة المشاعر ، بل الأمر أمر تفرقة بين نوعين مختلفين من الكلام . فإذا كان المجال مجال علم فلا يجوز للشعور أن يتسلل إلى سياق الحديث بالفالغة الدالة على وجدان ، أما إذا كان المجال مجال أدب وفي فليختر ما يشاء من لفظ ليثير في سامعه المشاعر التي يقصد إلى إثارتها فيه . . فلتعط ما للعقل للعقل وما للشعور للشعور »^(٥٩) .

ولعلك تلمح في هذه الوقفة الفلسفية الأثر الواضح الذي تركته الوضعية المنطقية في طريقة تفكيره : فهناك شروط ينبغي مراعاتها في أية جملة يريد لها صاحبها أن تكون ذات معنى مفهوم عن الطبيعة الخارجية ، أو كي جزء محدد من تلك الطبيعة ، وذلك مجال واحد من مجالات الكلام ألا وهو للمجال العلمي . أما ما عداه من

(٥٣) - قصة نفس ص ١٨٢ .

(٥٤) - قصة عقل ص ١٠٨ وتقرن مقدمة الطبعة الثانية من « مراقب من اللياليل »

(٥٥) - تجديد الفكر العربي ص ١٣٦ .

(٥٦) - المرجع نفسه ص ١٧١ .

(٥٧) - عن الحرية المحدث .

(٥٨) - قصة عقل ص ٢٠ .

الأصوام نفسها (الأصوام التي سيطرت فيها النظرة الصوفية) كانت تغلب عليه النظرة العلمية الصارمة التي لم تكن تريد له أن يأخذ بشيء في الوجود كله أن يفت من قبضة العلم ، لا يستثنى من ذلك القيم الخلقية نفسها وما نسميه بالمثل العليا . . »^(٩٧).

وهذه الثنائية الاستيمولوجية التي عانى منها في صغر الشيايب هي التي خصها بوضوح شحيد في « الشرق الفنان » فيما بعد ورأى أن جانباً منها وهو « النظرية الصوفية » يمثل خاصية أساسية في نظرة الشرق الأقصى إلى العالم ، في حين أن الجانب الآخر وهو « النظرية العلمية » يمثل الخاصية الأساسية للفكر الغربي . أما ثقافتنا العربية فهي تحاول - أو ينبغي لها أن تحاول - الجمع بينهما يقول : « هما إذن ، نظرتان ينظر الإنسان بأي منهما إلى نفسه وإلى العالم ، أو ينظر بكنيتهما : بهمة مرة وبثقل مرة أخرى . ذلك أن الإنسان إذ يفقد إزاء الحقيقة الخارجية ، فإما أن ينظر إليها خلال ذاته فيسيبها بنفسه تشبيهاً يدمج الطرفين في كائن واحد ، وتلك هي وقفة الفنان أو المتصوف ومن لفت لفتها . وإما أن ينظر إليها ، وكأنه متفرج يتابع ما يجري أمامه على مسرح الحوادث فيصفه وصفاً يصلح لنفسه ولغيره من الناس على حد سواء ، وتلك هي نظرة العالم ومن يجري مجراه في التفكير . وثالث الفروغ أن يجمع بين النظرتين ليفرق بين أمرين ، فإن كان موضوع النظر وجداناً ينبض به قلبه إزاء الكون نظر إليه بالنظرة الأولى ، فكان فناناً أو متصوفاً ، وإن كان موضوع النظر ظواهر الأشياء الخارجية نظر إليه بالنظرة الثانية فكان عالماً أو ذا نزعة علمية . . والنظرة الأولى هي طابع الشرق الأقصى

لتحول إلى نظرة الفنان التي تحدث عنها فيما بعد. ووصفها بأنها سمة الشرق الصوفي^(٩٨). في هذه الأصوام الأولى نجد أمامنا شاباً يؤمن « بوحدة الوجود » ، ويكتب عنها مقالاً لينشره سلامه موسى في « المجلة الجنديلة » ويكون الدافع إلى كتابة المقال « رؤية ذاتية إلى الوجود » سوف يتحدث عنها بعد ذلك « في الشرق الصوفي » - فهو يسير وحده بين الحقول في الربيع ، ويقف طويلاً أمام مائتة ألقيت أمامها أحواد الليرة لتعلم فتدور في ذهنه صور متلاحقة لألوان من الوجود يعتمد بعضها على بعض ويتحول بعضها إلى بعض ، نبات يتغذى من عناصر الأرض وحيوان يتغذى من النبات ، وإنسان يتغذى من لحم الحيوان تغذية تسري في دماؤه وفي أعصابه ، فإذا هو يخرج غذاءه ذاك علماً وفلسفة وشعراً ، وتملؤه هذه الفكرة فيعود ليكتب مقالة عن « وحدة الوجود »^(٩٩) وعندما تدور الأيام متقلبة به بين سبل الفكر ، فإنه يظل مُبْتَلِياً في أحماقه على فكرة « وحدة الوجود » التي تناوذه بين الحين والحين ، ولعل أجمل ما كتبه فيها بعد ذلك مقال بعنوان « درس في التصوف » نشر في عدد خاص من الرسالة في ٣ مارس ١٩٤١ - وهو عبارة عن حوار بين أستاذ متصوف مؤمن بوحدة الوجود وتلميذه الشاب الذي يظهر في أول الدرس حاسباً تافراً مما يقوله الأستاذ ، ولقد حرص هذا المقال في قصة عقل^(١٠٠).

غير أن هذه النظرة الصوفية التي تجذرت في كثير من المغالات ، والتي كانت تعاوده حيناً بعد حين ، وامتدت معه أعواماً طويلة (والواقع أنها مازالت موجودة حتى هذه اللحظة) - لم تكن قائمة بذاتها ، بل صاحبها نظرة علمية صارمة ، يقول عن نفسه إنه : « خلال تلك

(٩٧) للشرق الفنان ص ١٧

(٩٨) قصة عقل ص ١٨

(٩٩) ص ١٩ - ٢٠

(١٠٠) قصة عقل ص ٢٠

والأديباء ، وعضواً في لجنة المكتبات الفنية ، ولبيت عضواً في تلك اللجان التي جمعت بين الفلسفة والأدب والفن ما يقرب من عشرة أعوام أوزيد عليها . . .^(٩٦) كما أنه ينال التقدير مرتين : مرة جائزة الدولة للفلسفة ، وأخرى جائزة الدولة للأدب^(٩٧) . وفي مقالات الأهرام امتزجت الشخصيتان على حد تعبيره ، في هوية واحدة : فالفكر ذو أعماق وأبعاد ، والانفعال الوجداني ذو حشورة ونض^(٩٨) . لكن ذلك كله لا يعني أن تشخيصه للثنائية المميزة للثقافة العربية - إلما هو « إسقاط » لا أكثر ولا أقل ! فسوف نتبين فيما بعد كيف برزت هذه الثنائية واضحة في الحضارة الإسلامية ، وسوف نلتقي بكثير من الأمثلة التي تؤيد هذه القضية ، فثنائية « العقل والوجدان » - سمعة تجوزت بها ثقافتنا في عصور ازدهارها ، فلما مالت هذه الحضارة إلى الانحدار حدثت التحلل بين الكفتين فرجحت كفة العاطفة والوجدان على نحو صارخ ، ومهمتنا أن نعيد التوازن إلى ما كان عليه أيام الازدهار بأن نعطي ما لم يعصره القصر وما لله^(٩٩) .

ثنائية أنطولوجية :

إذا كانت الفاعلية الفلسفية هي في صميمها حفر تحت أرض الواقع الفكري ، لعلمنا نصل إلى الجلود السفينة التي انبثق عنها هذا الواقع - فقد قام

والثانية هي طابع الغرب^(١٠٠) . وأما تألف النظريتين فهو يميز تجرته به ثقافة الشرق الأوسط في عصور ازدهارها ، عندما بلغت حضارتها أوجها^(١٠١) . انظر إلى العالم من داخل تكن فناناً ، أو انظر إليه من ظاهره تكن من رجال التنجيرة والعلم . انظر إليه وجوداً واحداً حياً تكن من أصحاب الخيال البديع المنشئ والإخلاق ، أو انظر إليه كثر من ظواهر يصحب بعضها بعضاً ، أو يعقب بعضها بعضاً ، تكن من أصحاب النظر العقلي الذي يستدل النتائج وقيم الحجيح والبراهين ، ذلك بطبيعة الحال ، بل ينبغي لك أن أردت لنفسك تكامل الجانبين ، أن تجمع بين النظريتين فتصبح الفنان حياً ، والعالم حياً . ولقد اجتمع الطرفان : العقل والوجدان ، في ثقافة الشرق الأوسط - وهو في قمة مجده - على نحو من التوازن الذي ربما لم يتحقق بالدرجة نفسها في أية ثقافة أخرى . والمشكلة في هذه الثقافة الآن أن كفة الوجدان طايحة ، فليس ثمة توازن وإذا قلنا ثقافة الشرق الأوسط فلما يمتينا منها الثقافة العربية بصفة خاصة^(١٠٢) . وهي ثقافة يمسحها مفكرنا الكبير على نحو صارخ ، ولهذا فلم تكن مصالحة ، كما يقول هو نفسه : « حين أنشئ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أو وجد نفسه عضواً في لجنتين من لجانه : لجنة للفلسفة ولجنة الشعر . كما وقع عليّ اختيار وزارة الثقافة - في الوقت نفسه تقريباً - عضواً في لجنة تفرغ الفنانين

(٩٦) الشرق الفنان ص ١٠٩ - ١١٠

(٩٧) لتصوره هذه الأحكام المعقدة أن أمة الفكر في المشرق والمغرب . . . الفتح - كانت تطلب طبعها الطفرة الصورية ، ومن ثم كانت السمة الغالبة في ثقافة الشرق الأدنى - على حين أن الاستغلال العملي كان يلب على أمة الفكر في الغرب ابتداء من ثقافة اليونان القديمة . . . الفتح . لكن لا يهتد بذلك بالطبع ، أن كل عالم سبيل في الشرق الأقصى كان حروباً ، وأنه لم يكن يومه الفلاح الذي يسحب الكسب والحسنة . والى مثل ذلك في ثقافة الغرب .

(٩٨) قصة عقل ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٩٩) قصة عقل ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(١٠٠) المرجع نفسه ص ١٧٤ .

(١٠١) قصة نفس ص ٢٤٢ .

(١٠٢) المرجع السابق ص ٢٤١ .

والساعة ، العقل والجسم ، للمطلق والخير ، الأزلي والحدث ، أو قل هما السماء والأرض إن جاز هذا التعبير^(٧٢) .

ومعنى ذلك أن ثنائيتنا الأنطولوجية من نوع فريد ، صحيح أنها تشطر الوجود شطرين كما فعلت الثنائية الميتافيزيقية على مر التاريخ ، لكنها تختلف عن المذهب الثنائية في : « أنها لا تسوي بين الشطرين : بل تجعل للسطر الروحاني الأولوية على الشطر المادي ، فهو الذي أوجده وهو الذي يسيره ، وهو الذي يمسد له الأهداف ... »^(٧٣) .

قد يقال : وماذا كانت ثنائية أفلاطون إن لم تكن هي بعينها ما نسميه « بالثنائية المفردة » الخاصة بنا ... ألم يشطر أفلاطون الوجود إلى وجود معقول ووجود محسوس ، وجعل الثاني معتمداً على الأول إن لم يكن مجرد « ظل » له يتصف بالتغير والحسوت والعرضية . . الخ في حين يتسم الأول بالأزلية والروحية ؟ ألم تجعل الأولوية للمطلق المجرى على الأفراد والجزئيات ؟ . ويجب الدكتور زكي نجيب بقوله : « إذا قيل إن الفلسفة الأفلاطونية ، وما جرى مجراها كانت ضريبة من الثنائية التي تجعل الأولوية للمطلق المجرى على الأفراد والجزئيات - قلنا : نعم ! ولكن أفلاطون قد بلغ في ذلك

فيلسوفنا^(٧٤) ، بهذا الحفر في الحياة الثقافية المعاصرة ليرتد بها إلى منابها فتكون هذه المنابت هي ما يمكن أن نسميه بالفلسفة الحرة المعاصرة - « وتدور عجلة الزمن مع صاحبنا ، وإذا هو أمام قضية عقلية خاصة بالرؤية العامة التي ينظر بها الإنسان إلى هذا العالم وطبيعته ، وعلى الرؤية التي يختارها الإنسان وينظر إلى العالم على أساسها تتوقف نتائج فرعية لا حصر لحددها ، فسادا تكون تلك الرؤية التي يختارها . ١٩٠٠ رأى صاحبنا أن أقرب ما يمدنا بالرؤية للملائمة لنا هو الافتراض الذي يرى أن الروح والعقل ليسا أموراً من مادة ، وأن المادة الحاصلة لا هي من روح ولا هي من عقل ، وأن الإنسان قد اجتمع فيه الجانبان الروح والعقل من جهة والجسم من جهة أخرى . . »^(٧٥) تلك هي الثنائية الاستيمولوجية الأساسية عند زكي نجيب محمود ، لكنها سوف تؤدي في الحال إلى ثنائية أنطولوجية يرى أنها كانت في أعماق ضمائرنا جميعاً - « أحسب أن لو تعمقنا ضمائرنا لوجدنا هناك مبدأ واسعاً عنه إنبحثت - وما تزال تنبث - سائر أحكامنا في مختلف الميادين ، وهو مبدأ لو عرضته على الناس في لغة واضحة صريحة ، لما وجدت منهم أحداً يمتنع أو يعارض وأحيى به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجود شطرين لا يكونان من رتبة واحدة ، ولا وجه للمساواة بينهما هما الحقائق والمخلوق ، الروح

(٧٠) عندما أصدر قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت كتاباً تذكاريًا عن أسئلة الكثير لبراد التناقض جعل عنوانه : « التفكير زكي نجيب محمود : « فلسفوا وأهيا ومعلما » مطابع الوطن عام ١٩٨٧ وكتب أحد الزملاء مسترشداً على صفحتين في هذا العنوان ما « الفيلسوف ، و « لعلهم » وأخيراً أن كلمة فيلسوف معنى مختلف ، ونحن نستخدمها هنا بطريق الذي أطلقته على معنى عصر التنوير : « فقد احتل على جماعة التفكير في فرنسا كلمة للفلسفة Philosophes ومكافئ أصبح فورييه ، وديدرو ، وكونتسيمي ، وهريلانغ ونظرناهم يتسمون بالكلمة الفرنسية للفلسفة Philosophes فورا هم من الفلاسفة الحقيقيين Philosophers إلى أصناف المذهب النشط System أفلاطون وأرسطو لديها وكلمة وجعل حديثاً - قرن مثلاً :

1967 The Encyclopedia of Philosophy, Vol. II, P. 519 Macmillan 1967 لما كلمة « مسلم » فقد ظن الزميل أنها مختصراً على لرسط ، والاصح أن لرسط « بلط » بلطام الأول « كما يلقب الفلاني » بلطام الثاني « ... الخ ويمكن أن يطلق لقب « مسلم » على أي مفكر تنبئ في ذلك برجل كان « معلماً ، طوطاً حكيماً ، ١٩٠١ لقرن ماخوذة أسئلة من نفسه . . . « مسلم أذا مهنة وطفاً مد ، قرر في تسري طرف حوكي نحو مهنة التعليم لاخترت بطريق أن كرون سدا ، فاست أحب في هذه الدنيا للظرفية الرهبة طبا أكثر من حب للمعرفة وشرحها وفرضها وتنشرها ، وذلك هو التعليم . . . لهم من التراث من ١٦٥ .

(٧١) « رؤية إسلامية » ص ٤٣ - ٤٤

(٧٢) « تجديد الفكر العربي » ص ٢٧٤

(٧٣) « تجديد الفكر العربي » ص ٢٧٥

وسوف يتفرع عن ذلك بطبيعة الحال ثنائية « المنهج » ، بحيث تجعل للدراسة ظواهر الطبيعة - أي العلوم الطبيعية - منهجاً خاصاً ذا شروط معينة ، ولما يتصل بالحقيقة المطلقة منهجاً آخر . أما منهج العلوم الطبيعية فيقوم على مشاهدة الحواس وإجراء التجارب وعلى سلامة التطبيق ، فلا يعنيها من الدنيا إلا ظواهرها ، بحيث لا يجوز لأنظارنا عندئذ أن تنفذ إلى ما وراء تلك الظواهر . لأنها بالنسبة للعلوم ليس لها وراء ، فهي المظاهر وحدها . . أما منهج ما وراء الواقع الصماء من حقائق كالقيم الخلقية مثلاً فلذلك شيء آخر ، قد لا نلجأ فيه إلى مشاهدة الحواس ، وإلى التجارب العابرة بقدر ما نلجأ فيه إلى إدراك البصيرة أو إلى إلهام الوحي ، أو إلى ما يسري بين الناس من عُرف وثقاليذ . . (٣٦) .

ثنائية ثقافية أو حضارية :

إذا كانت الثنائيات السابقة - إستيمولوجية أو أنطولوجية - تمثل نظرة معرفية إلى العالم ، ولهاً خاصاً لطبيعة الوجود الذي نعيش فيه ، وكانت ، من ثم ، ترتبط بنظرة الإنسان الفرد إلى هذا الوجود ، فإن الثنائية الثقافية أو الحضارية تعكس مشكلة المجتمع العربي الحضارية مثل خروجيه من العصور الوسطى وحتى اللحظة الراهنة . ومن هنا تحولت هذه الثنائية إلى مشكلة تؤرق مفكرنا الكبير - كما تؤرق كل مفكر تنويري ، على مستوى الوطن العربي كله - وهي تلخيص في محاولة الإجابة عن هذا السؤال : « كيف السبيل إلى ثقافة نعيشها اليوم ، بحيث تجتمع فيها

حداً ألقى معه وجود الأفراد الجزئية وجوداً حقيقياً بما في ذلك أفراد الانسان أنفسهم ، فليس للفرد الإنساني الواحد من حقيقة عنده إلا بمقدار ما يشارك في الإنسانية بمتاعها المجرد . ولا أظن أن مثل هذا الالتقاء لحقائق الأفراد متفق مع عقيدتنا التي تلقى على أفراد الناس تبعات خلقية هما يعملون أفراداً ، لا أنواعاً وجماعات ، فهذا معناه اعترافنا الصريح بالوجود الحقيقي هؤلاء الأفراد في حياتهم الدنيا ، وفي حياتهم الآخرة على حد سواء . . . وإذا فها النظرة الثنائية التي تناسبنا هي نظرة متميزة فريدة تجعل الكائن الإلهي الواحد المطلق في جبهة ، وتجعل الأفراد الجزئية في جبهة أخرى . . . (٣٧) .

ومعنى ذلك أننا منجد أنفسنا أمام ثنائية أنطولوجية تتفق مع الثنائية الأستيمولوجية السابقة ، لأنه لو كان هناك ضربان من الوجود : وجود « مطلق » ووجود « حادث » - لكان لابد من وجود طريقتين للمعرفة : وإلى لاتسادل - على أساس نظرتنا الثنائية المقترحة - لماذا لا يكون للمعرفة نطاقان لكل منهما وسيلة خاصة به ؟ فإذا كان الأمر أمر الحقيقة المطلقة جامدتها للمعرفة عن طريق ، وإذا كان الأمر أمر الطبيعة وكائناتها جامدت المعرفة عن طريق آخر ولا يجوز لأي من النطاقين أن يزاحم في وسائله . ولكن نشبت معرك بين أناس أرادوا تطبيق وسيلة العالم الأول على العالم الثاني ، أو وسيلة العالم الثاني على العالم الأول ، فكانوا يهاثون من هذا الحقل شرو ما يصلي من تشتت وسيلة وليس وغموض . . . (٣٨) .

(٣٦) المرجع السابق ص ٢٧٦

(٣٧) مجلد الفكر العربي ص ٢٨٢

(٣٨) مجلد الفكر العربي ص ٢٨٢ - ٢٨٣ . لكن يصعب أن نقول أننا نأخذ . لحقائق المطلقة من العرف والقدار اللهم إلا إذا كان المقصود هنا : لأهمية الاعتراف بالثقافة التي تتجسد في هذه السمات الثقافية والاحساس والتجربة التي والتي يمر منها كل جنس بطريقته الخاصة مع أبداً واحدة وبكلية .

الذي يكون مسلماً يؤدي فرائض الدين ويقوم بأركانه ثم « يسعى إلى قوة العلم في أحدث صوره ، يسعى إليه من أبوابه ، ومن نوافذه ، ومن كل ثقب ابرة يوصله إلى تلك القوة .. »^(٨٧) . وكانت هذه المشكلة هي السؤال الكبير الذي طرحه أستاذنا في مقدمة كتابه « تجليد الفكر العربي » - كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره بفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره نفلت منا هويتنا أو نفلت منها . . . إني لمحال أن يكون الطريق إلى هذه الوامعة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاور بحيث نشير بأصابعنا إلى رلوفنا فنقول : هذا شكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء - فكيف إذن يكون الطريق ؟ كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متمعة يعيشها متقف حي في عصرنا هذا بحيث يتدمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة^(٨٨) ١٩ وفي استطاعتنا أن نقول إن جهوده لا في « تجليد الفكر العربي » ولا في « المنقول واللامنقول » - وحدها بل في كل ما كتبه قبل ذلك وما كتبه بعد ذلك . إنما استهدفت الإجابة عن هذا السؤال الكبير الذي فرض نفسه علينا طوال أسد ليس بقرىب^(٨٩) ، فقد فرضت هذه المشكلة نفسها على متقفي العالم العربي منذ اللحظة التي شرع فيها هؤلاء بوجود ثقافة ذات طابع عالمي يحتاج الجبر الفكري للبلاد العربية ، ويتمين تجليد علاقاتها بالثقافة الموروثة من الأسلاف^(٩٠) . وأن شئتاً تجدبداً أكثر قلنا إنها المشكلة التي أصبحت تمثل قطب الرخي في نهضة الحديثة منذ

ثقافتنا الموروثة مع ثقافة العصر الذي تحيله ، شريطة ألا يأتي هذا الاجتماع بين الثقافتين تجاوزاً بين متنازعين ، بل يأتي تضامراً تتسج فيه خيوط الموروث مع خيوط العصر نسج اللحمة والسلي^(٩١) .

تلك هي المعضلة التي تتحدى المتقف العربي في زماننا ولا يدري حتى هذه الساعة كيف يحلها^(٩٢) . ولهذا يسعى مفكرنا إلى الوصول إلى حل يؤدي بمصر خاصة ، وبالوطن العربي عامة ، إلى بحث جديد نواكب به العصر وفكره وحضارته دون أن نفقد هويتنا التاريخية^(٩٣) . . ولهذا تراه يصف هذه المشكلة بأنها أم المشكلات في حياتنا الثقافية : « لست أتردد لحظة حين أقرر بأن أم المشكلات الثقافية الراهنة هي محاولة الكشف عن صيغة لحياتنا الفكرية والعملية ، تجمع لنا في طيها طرفين ، إذ نحافظ لنا على خصائصنا العربية الأصيلة ، وفي الوقت نفسه نفتح لنا الأبواب على مصاريحها لنستقبل في رحابة صلب أسس الحضارة المصرية كما يحياها اليوم روادها . . »^(٩٤) . وهو يطلق عليها أحياناً اسم « مشكلة الأصالة والمعاصرة » - وربما كان هو أول من استخدم هذين المصطلحين - ويصف قضية الجمع بين أصالتنا وضرورية معاشتنا لعصرنا بأنها كانت أهم ما تعرض له من اهتمامات بالتفكير والكتابة إذا ما استعرض حياته الفكرية من أولها إلى آخرها . . ^(٩٥) . فهذه القضية التي تشغله - قضية الدمج بين الأصالة والمعاصرة - هي التي سوف تشكل لنا « المسلم الجديد »

(٩٧) المنقول والامنقول ص ٧

(٩٨) هموم للظنين ص ١٣

(٩٩) قصة نفس ص ٢٠٢

(١٠٠) ثقافتنا في مراجعة العصر ص ٥٤

(١٠١) قصة عقل ص ٢٢٢

(١٠٢) عن الحرة أبحث ص ٨٥

(١٠٣) د تجليد الفكر العربي ، ص ٦

(١٠٤) للرجع نفس ص ١٠

(١٠٥) د . فؤاد زكريا « تجليد الفكر العربي في الزمان » ص ٩٩ من الكتاب الثقافي السالف الفكر طابع دار الوطن ببيروت عام ١٩٨٧ .

قضايا العصر لكنه غير أصيل لا يرتبط بجلونه الثقافية الأولى . بقي فريق ثالث اهتم بترائه اهتماماً واضحاً ثم راح يطوع فكر العصر بعض التطويع فاستكان له ولولو إلى حين ، وفي رحاب هذا الفريق تقع الكتلة الغالبة من أعلام الأدب والفكر في تاريخنا الحديث : محمد صبه ، ولطفي السيد ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وزكي نجيب محمود . . الخ وغيرهم مما يزيدان بهم مسار نهضتنا ، كما سبق أن ذكرنا بالتفصيل - على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم - لم يرفضوا العصر ، لكنهم حاولوا أن يصوغوه في قوالب الثقافة العربية الأصيلة ، مع تفاوت بينهم في درجة النجاح ومع هؤلاء القادة يلهب معظم المثقفين^(٨٧).

ولقد ركّز هذا الفريق الثالث في حركته الشاملة التي استهدفت النهوض بالحياة الثقافية العربية لكي تواكب العصر من ناحية وترتبط بهويتنا التاريخية من ناحية أخرى - ركّز خلاصة دعوته في فكرتين أساسيتين هما « الحرية » و « التمثيل » ، وهما في الواقع وجهان لحقيقة واحدة أما الحرية فلا تكون إلا من قيد ، والقيد الذي كان قائماً عندئذ ، بل القيد الذي أخذ يزداد صلابه على مر القرون التي سادها الحكم التركي هو قيد الجهل والخرافة في فهم الناس للظواهر والأحداث ، وهو أيضاً قيد النص للمثول الذي يفرض نفسه على الدارسين فرضاً بحيث لا يكون أمام هؤلاء الدارسين من منادى الفكر المستقل إلا أن يملقوا على النص بشروح ، ثم على الشروح بشروح . . وهلم جراً . وهي نفسها الحالة التي جماعت النهضة الأوربية لتجدها جائئة على عقول الدارسين - فكان التخلص منها والخروج عليها هو نفسه معنى النهضة ولها .

جاءت الحملة الفرنسية على مصر ووصلت شواطئها الاسكتندية عام ١٧٩٨ - أي قبل فائقة القرن التاسع عشر بستين - وكان مع الحملة جماعة من العلماء الفرنسيين المتخصصين في ميادين علمية مختلفة ، فكان مما صنعه أولئك العلماء أن استدعوا علماء الأزهر الشريف - جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجليدية ، من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفهم صفاً مشتبكي الأيدي جأراً مع جاره ، ثم يسون الواقف في أول الصف بسلك مكهرب ، فتسري رعدة الكهرباء في جميعهم ، فأنما هم فيأخذلهم الضحك ! وأما العلماء الفرنسيون فيأخذلهم الضحك ! ولقد تحدث يربساً أن اغتاف من تلك الالاعيب الصيبانية أحد الشيوخ فقال لهم ما معناه : هل في علمكم الجليدي ما يجعل إنساناً موجوداً هنا وموجوداً في بلاد الغرب في وقت واحد ؟ فاجابوا بقولهم أن ليس في علومهم ذلك لأنه محال ، فرد هو قائلاً : لكن ذلك ممكن في علومنا الروحانية^(٨٨).

وكان هذه الحادثة التاريخية قد رسمت بوضوح ناصع حجم المشكلة الثقافية التي نعانيناها - حدودها وأبعادها - كما كشفت عن ثلاثة حلول مازال لها أنصارها حتى هذه الساعة : فريق استمر - كالشيخ الذي أسلفنا ذكره - يرفض ثقافة الغرب مكتئباً بأن جلاً أوصيته من كتب التراث فكان أصيلاً لكنه غير معاصر إذ أنه غص النظر عن العصر بكل ما يشطرب به من قضايا ومشكلات فكرية ، ومع هذه الجماعة تلعب عامة الناس من غير المثقفين ، وفريق آخر - وإن كان قلة قليلة - لم يجد بأساً في أن تفسح صفحاتها محوراً لنملاها بشفافة العصر وحده كما هي معروفة في مصادرها ، بفريق تحريف ولا تمديد ، وهكذا كان هذا الفريق معاصراً يعيش

(٨٧) « من الحرية للعلماء » ص ١٤٢

(٨٨) « قرون مثلاً : د قائلاً في مواجهة العصر » ص ١٥ ولاحقاً .

الخرافة ، كما تكفل « تعقيل » السير إلى الهدف الذي تريده ، ومن هنا جاء اهتمام مفكرنا الكبير بالعلم ومناهجه ، والتصدي بكل جهد ممكن لإشاعة التفكير العلمي في كل ما يتعلق بالطبيعة وظواهرها ، ولعل كتبه الأكاديمية كلها ليست سوى لبنت في هذا الصرح ، هكذا كانت أهداف « خرافة الميتافيزيقا » ، و « نحو فلسفة علمية » ، و « للمنطق الوضعي » ، « بحجزية » ، الذي أعلن خطته في مقدمته بكل وضوح « أنا مؤمن بالعلم ، كافر بهذا اللغو الذي لا يعني على أصحابه ، ولا على الناس شيئاً ، وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه .. » (٨٩) .

كان اهتمامه بالعلوم المختلفة نتيجة متطوعة لاهتمامه « بالحرية والعقل » معاً - وهما الدعائتان الأساسيتان لهبشتنا الحديثة - وهو بذلك إنما يكمل الشوط الطويل الذي قطعه المفكرون التنويريون منذ عصر رفاة الطوطوي حتى الآن .

إسهامات خاصة :

إذا ما تسادنا عن الإسهامات الخاصة التي قدمها زكي نجيب محمود في سبيل نهضتنا الثقافية - كان الجواب : إنها كثيرة ، لقد أكمل في بعضها الدعوة إلى المفاهيم التي كانت تتطور في مسار النهضة السابق ، ولا سيما فكرة « الحرية » ، و « العقل » . لكنه هنا كان أكثر تحديداً ، ولهذا فالتنازه لا يكتفي باستخدام هاتين الفكرتين أو الدعوة إليهما ، وإنما يأخذ نفسه بتحليل كل لفظ يريد أن يستخدمه ويطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك « فهو يتشدد في الشروط المفروضة على المتكلم الجاد

وأما « التعقيل » فهو أن نجعل احتكامنا إلى العقل دون النزوة والهورى - وإلا وقعنا مرة أخرى عبيداً لسطوة العاطفة والانفعالات - وإذا قلنا « العقل » فقد قلنا أحد أمرين ، أو الأمرين معاً ، فلما أن يستند الإنسان في أحكامه إلى شواهد الحس والتجربة ، وفلك إذا كان موضوع البحث ظاهرة خارجية من ظواهر الطبيعة والمجتمع ، أو أن يستند الإنسان في أحكامه إلى سلامة الاستدلال في استخراج تلك الأحكام من مقدماتها ، وذلك حين يكون موضوع البحث فكرة نظرية ، وقد يجتمع الطريقتان معاً في بحث واحد بعينه ، فنجمع شواهد من مجاربنا أولاً ، ثم نكوّن فكرة نظرية نستدل منها إلى ما يسعنا من نتائج - وذلك هو سبيل العقل (٨٨) .

على أن الفكرتين - فكرة الحرية وفكرة التعقيل - مكملتان إحداهما للأخرى ، لأنك إذا تحررت من قيود الجهل والوهم والخرافة ، كنت بمثابة من قطع من الطريق نصفه السلي ، وعلى عليه أن يقطع النصف الآخر بعمل إيجابي يؤديه ، كالمسجون تحرجه من عيسه ، فلا يكون هذا وحده كافياً لرسم الطريق الذي يسلكه بعد ذلك ، وكذلك التحرر من خرافة قد يقع في خرافة أخرى ، ولهذا كان لا بد لتكملة الطريق على الوجه الصحيح أن تكون أمام المتحرر بعد تحرره خطة مرسومة يجتدي بها ، وما تلك الخطة المأخوذة إلا خطة « العقل » في طريق سيره ، ومعنى ذلك أن النهضة الثقافية التي جاءت بالدعوة إلى الحرية والتعقيل قد كفلت أسامتنا سواء السبيل بنصفها السلي واللاإجابي معاً .. !

ولا شك أن العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء وطب وهندسة وغيرها ، من شأنها أن تكفل « التحرر » من

(٨٨) من زاوية فلسفية ص ٦ وإيضاح فلسفة وإن ص ٣ - وانظر أيضاً « قدور ولطف » ص ١٤٤ - ١٥٩

(٨٩) « المنطق الوضعي » الجزء الأول - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥١ .

إذا نطق بعبارة أراد بها انتقال فكرة من رأسه إلى رؤس الآخرين^(٩٠).

وإذا كانت الدعوة إلى الدقة في تحديد المعاني هي أهم المموم التي حملها هذا المفكر طوال ما يزيد على نصف قرن ، فقد كان يشعر أن من أوجب واجباته على نفسه أن يتوخى هو مثل هذه الدقة التي يدهو إليها الناس^(٩١).

ولهذا ليس ثمة ما يدهشنا عندما نجد في بداية حديثه عن الحرية يتساءل « ما المقصود بالحرية » ؟ . تلك الكلمة التي تردت على أفلام الكتاب ولغسة الخطباء والمتحدثين منذ أواخر القرن الماضي . . . ثم يروح يضرب بمجس التشرية في هذه الفكرة ليستخرج معانيها المختلفة التي أضحت تزداد مع الأيام اتساعاً وعمقاً ، فقد بدأت وهي تتضمن المساواة بين المواطنين « بحيث يكون للمواطنين حق الشورى في أمور بلادهم ، ثم إذا جاء المستعمر البريطاني تحول معنى « الحرية السياسية » ليصبح محرراً من المستعمر ، وظلت هذه القضية هي الشغل الشاغل إلى أن عبت بها النفوس فضجرت ثورة ١٩١٩ ، فأخذ معنى الحرية يتحمق فلم يعد فقط التحرر من المستعمر بل أصبحت تتحدث عن « حرية الاقتصاد الوطني » ، و « حرية المرأة » ، وحرية الفنان والأديب . . الخ وهكذا أخذ تيار الحريات يتصاعد قوة وتنوعاً إلى أن جاءت ثورة ١٩٥٢ ، ففتحت أبواباً واسعة لحريات اجتماعية : تحرر الفلاح من تسلط صاحب الأرض ، وتحرر العامل من تحكم صاحب العمل . . الخ^(٩٢).

لكن أحداً ، طوال هذا التاريخ ، لم يضع « هذه الحريات » على مائدة التشرية ، وإنما ترك التحليل العقلي لزكي نجيب محمود المنطقي ، لينظر نظرة فاحصة مدققة في تلك الحريات بكل فروعها ليكشف لنا عن حقيقة لها خطرها ، وهي أن أهدافنا السابقة من تلك الحريات كانت تنحصر في الجانب السلبي وحده بمعنى أن تكون المطالبة القومية مقصورة على « التحرر » من قيود تكييلها في هذا الميدان أو ذلك : كالتحرر من الاحتلال البريطاني ، وتحرر المرأة من طغيان الرجل وتحرر العامل الزراعي من استبداد مالك الأرض ، وتحرر العامل الصناعي من تحكم صاحب رأس المال ، وتحكم كذا من كيت . . . وعبارة أخرى أوشكت كل جهودنا المبذولة طلباً للحرية أن تنحصر في تحطيم الأغلال والقيود ، وهو أمر واجب ومطلوب ، غير أن التحرر ليس سوى جانب واحد فقط من الحرية هو « الجانب السلبي » - إنه في حقيقة لا يزيد على أن يفتح باب السجن لينطلق السجين حراً ، أي أنه لم يعد مغلول الحركة مقيد الخطى . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ماذا يصنع « ليحيا ؟ » .

ها هنا تبدأ الحرية بمعناها الإيجابي الذي لا بد فيه من « قدرة » الإنسان على أداء عمل ، ولا قدرة في أي ميدان إلا لمن عرف حقيقة ذلك الميدان وما يتعلق به - إننا نريد « حرية الذين يعملون »^(٩٣).

وهكذا ربط مفكرنا ربطاً وثيقاً بين الحرية بمعناها الإيجابي ، و « قدرة الإنسان على أداء عمل معين » يعرف كيف يقوم به ، فالجانب الإيجابي من الحرية والمعرفة

(٩٠) من مائدة الطلبة الأولى لتكليف ، مؤلفات من البلاطويلا ، ط ٢ عام ١٩٨٣ دار الشروق .

(٩١) « فكتاتيل في مواءمة العصر » ص ١٩٣ .

(٩٢) - غير من التراث ص ٢٢١ .

(٩٣) هذا محور مقال من الأخيرة وقد بحثنا في كبله « قيم من التراث » .

خصائص يمكن تحديدها وتعيينها ، والفعل ضرب من النشاط يعالج به الإنسان الأشياء على وجه معين^(٩٤) . وإذا كان العقل فعلاً فالتأني نستطيع تحديده على النحو التالي : « العقل حركة انتقالية تبدأ سيرها من شواهد وبيانات ومقدمات ، وينتهي عند نتيجة تتولد مما بدأ منه . فليس عقلاً ذلك الذي يدرك ما يدركه بلمحة مباشرة أو بلمعة (كما يقولون) لأن أمثال هذه الإدراكات المباشرة لها أساءة أخرى ، وطابع آخرى . أما العقل فادراكه غير مباشر لأنه فئرة استدلالية ، ومعنى ذلك أنه يتضمن قيام طرفين : طرف بدأ منه ، وطرف آخر هو النتيجة التي تنتهي إليها . »^(٩٥) . والعقل حر في إختيار الطرف الأول الذي يبدأ منه ، ولكنه إذا ما حدد لنفسه نقطة البدء لم تعد له بعد ذلك حرية النتائج ، لأن هذه النتائج تلزم بالضرورة عن نقطة الابتداء^(٩٦) .

« على أن للعقل طريقتين اثنتين ، لا ثالث لهما ، يلتزم منها هذا الطريق أو ذاك ، بحسب الموضوع الذي يفكر فيه ، أما أحدهما فهو الطريق الذي يجعل نقطة ابتدائه كلمات بعينها ، أما الآخر فهو الطريق الذي يجعل نقطة ابتدائه معطيات تعطلها حواسنا الظاهرة . »^(٩٧) . في الحالة الأولى يجد العقل أمامه عبارة مركبة من كلمات أو رموز الرياضة ، فيصعب عليها عمله الفكري . وليس أمامه إلا أن يستخرج من تلك العبارة مضامينها التي تكمن في مفهومات رموزها . إن العقل في هذه الحالة لا يتبرع بفكرة من عنده ، بل مهمته أن يفضي الأغلفة التي تستر المعاني فاعمل رموزها ، فكما أنك إذا وضعت في

وجهان لعملة واحدة . إن الطفل الذي يظفر بقلم وورقة بعد بكاء عنيد « حر » في أن يخط بقلمه ما يشاء . والفنان « حر » في إقامة بناءه اللوني على اللوحة ، لكن ما أبعد الفرق بين حرية وحرية ! لقد أزيلت الموانع التي كانت تحول دون حصول الطفل على ورقة وقلم ، فلما بلغ مراده كان حراً ، وانطلقت تلك الحرية المجنونة « تشخيظ » الخطوط على الورق بلا هدف . وأما الفنان العارف بأسرار فنه ، فقد استطاع بحريته « المقيدة » بقواعد الفن وأصوله أن يُبدع ما قد يضاف إلى كنوز الجمال . وإذا فالتحرر هو الجانب السليبي من الحرية ، أما الجانب الإيجابي فهو يرتبط بالعلم والمعرفة ، ومن هنا كان حق الحرية بمعناها الإيجابي المتجسّد مقصوراً على أولئك الذين يعلمون !

أما الفكرة الثانية - « فكرة العقل » - فقد وقف مفكرنا عنده طويلاً لما لها من أهمية في بناء حياتنا الثقافية : « فإذا كانت الحرية في جانبها السليبي تعني « التحرر » من القيود ، فإنها في جانبها الإيجابي تعني البناء ، وذلك يحتاج إلى خطة مرسومة يتدبّر بها شئ تحرر من القيود ، وهذه الخطة المأدبة هي التي يرسمها « العقل » . »^(٩٨) فما هو هذا العقل ؟ . مهما اختلفت تعريفات الناس للفظ « عقل » فانهم في عصرنا الراهن على الأقل متفقون على إيماد معنى لا يجوز أبداً أن ينصرف إليه مفكر واحد وهو المعنى الذي يتصور أن ثمة في عالم الكائنات كائناً مستقلاً بذاته قائماً برأيه اسمه « عقل » ، كما يشير اسم « هملبا » « مثلاً » إلى جبل معلوم . بل إن العقل اسم يطلق على فعل من نمط ذي

(٩٤) في مغزق الطرق ص ٣٢٠

(٩٥) تجديد الفكر العربي ص ٣٠٩

(٩٦) - عن الحرية أجدت - ص ٢٠

(٩٧) - لراجع نفسه في الصفحة نفسها .

(٩٨) - في مغزق الطرق ص ٣٢١

ويستحيل على العملية العقلية - كائنة ما كانت مادتها - أن تتحرك قيد شعرة إلا إذا كانت بين أيدينا نقطة الابتداء » التي منها نسير ، وقد تكون نقطة الابتداء هذه « وقائع » ، وقد تكون « فروضاً » - فإن كانت الأولى كانت العملية العقلية من الضرب السائد في علوم الطبيعة ، وإذا كانت الثانية كانت من الضرب السائد في علوم الرياضة ، ولا ثالث هذين الضربين في عمليات الفكر ، فهما تنوعت موضوعات البحث ، التيتهما - بعد شيء - من التحليل - إما متممة إلى النوع الذي يبي على الحقائق الواقعة ، وإما متممة إلى النوع الذي يبي على الفروض^(١٠١) .

وهكذا نصل إلى ثنائية « المبدأ » أو ثنائية نقطة البداية^(١٠٢) : التي قد تبدأ فيها من وقائع الطبيعة ، وهو ما تفعله مجموعة العلوم الطبيعية ، كما ذكرنا ، وقد تبدأ من « فروض » كالرياضة : فتكون مبادئ مختارة ليس فيها إلزام لأحد من غير أصحابها فقد يفرض الرياضي أن المكان مستو ثم يبي النتائج على فرضه هذا ، أو قد يفرض أن المكان كروي ثم يستنتج ، أو أن المكان أسطواني .. وهكذا^(١٠٣) .

غير أنه إذا كانت الرياضة هي الشكل الكلاسيكي للبداية التي تبدأ من فروض ، أو مبادئ مختارة ، فإن الديانات المختلفة مثل آخر للنسقات الفكرية التي تبني على « مبادئ » ، فكل منها يضع كتابه أمليه « مبدأ » يسير منه ويستنتج ، بحيث تكون الأحكام الفقهية في

طاحونة الغلال قمحاً ، لم يخرج لك إلا دقيق القمح ، وإذا وضعت في عصارة الحظير والفاكهة عينا لم يخرج لك منه إلا عصير العنب ، كذلك الحال في تركيبات اللفظ أو الرمز تكمن فيها معان ثم يأتي التفكير العقلي ليستخرج تلك الكوامن فيأخذ ما يريد ويرفض ما لا حاجة لنا به ، والتفكير الرياضي كله هو من هذا القبيل ،^(١٠٤) وذلك أول الطريقين ، أما الطريق الثاني فهو حين لا يكون ما بين أيدينا إلا مركبات من ألفاظ ورموز ، بل « معطيات » تلقينا حواسنا من مصادرها . وفي هذه الحالة يكون طريق العقل مختلفاً عن طريقه في الحالة الأولى ، ذلك لأن عمله هنا هو محاولة الكشف عن الروابط القائمة بين مجموعة الأشياء التي رأيناها أو سمعناها أو أدركناها بأية حاسة أخرى من حواسنا ، فافترض مثلاً أن السحاب مطر ، فكل الذي نراه قطرات ماء ، ثم تبدأ في الكشف عن الصلة بين هذه القطرات وبقية المحسوسات ، كأن نرى العلاقة بينها وبين درجة الحرارة ، وبينها وبين درجة الرطوبة ، وبينها وبين درجة ضغط الهواء ، وبينها وبين اتجاه الرياح .. الخ فإذا كشفنا عن تلك الروابط كنا أمام ما يفسر المطر تفسيراً عقلياً^(١٠٥) .

العقل إذن فاعلية تبدأ من بداية معينة : تمحصر الرموز إذا كانت البداية فكرة رياضية لتصل إليها نتيج كما وكذا ، أو تبدأ من وقائع حسية فترقب بينها وبين وقائع أخرى لتستخرج لنا ما قسميه بالقوانين .

(١٠١) لي مفرق الطرق ص ٣٢٢

(١٠٢) للمرجع نفسه ص ٣٢٣

(١٠٣) - لي مفرق الطرق ص ٣٣٣

(١٠٤) - كلمة ومبدأ ، هذا ليست غاية دلائل أملاية لأن الغرض من نشاطها الفكري من حيث هي نقطة ابتداء .

(١٠٥) - تجديد الفكر العربي ص ١٩٢ .

كل دين صواباً بالنسبة الى نص كتابه^(١٠١) . وهاتلفت النظر الى نقطة هامة وخطيرة : وهي أن النظومات الفكرية المختلفة ، وإن تكن كل منها مستقلة عن الآخرين في صواب أحكامها أو خطأ تلك الأحكام ، أممي أن كلا منها إذا استشهد بصواب حكم معين فمرجه هو مبلؤه ، لا مبدأ المنظومة الأخرى ، الا أننا نستطيع المقابلة بين هذه المنظومات الكثيرة المتجاوزة على أساس ما تؤيد كل منها للحجة الانسانية من سعادة أو من تسم أو غير ذلك ، فالأمر هنا شبه بأن ترى يوتا متجاوزة ، لكل منها أساسه الذي أقيم عليه ، ولكل منها اجزأء والداخلية التي بيت على ذلك الأساس ، فلا يكون بيت منها حجة على بيت آخر ، فقد يدم أحدهما لضعف أساسه ، بينما يبقى الآخر بقوة أساسه ، لكن استغلال هذه البيوت المتجاوزة بعضها من بعض لا يمنع من المقابلة بينها من ناسحية ما تؤيد في حجة

أكتابه^(١٠٥) .

ضربنا مثليين للمبادئ المفروضة نختارها ليبدأ منها العقل سيره ، هما « العلوم الرياضية » و « البناءات اللغوية » - نستطيع أن نسوق مثلاً ثالثاً من الفكر السياسي ، فها هنا كذلك نجد النظرية السياسية تبدأ من « مبدأ » معين تقيم عليها بنائها كله ، أخذ مثلاً فيسولفين أنجليزين هما « هوبز » و « لوك » الأول يقيم

[illegible]

(١٠٥) - مجلد الفكر العربي ص ١٩٤

(١٠٦) - د. محمد الفكر العربي - ص ١٩٦

العقل ، إذن ، فاعلية أو نشاط نسريه من أ إلى ب ، وقد تكون « أ » مغطيات الحس ، و « ب » هي القوانين أو أدوات الربط بين الظواهر الطبيعية ، وذلك هو طريق العلم الطبيعي ، وقد تكون « أ » بداية مفترضة هي الرموز الرياضية أو هي « التصوص الدينية » أو « النظريات السياسية » ، أو المبادئ النظرية في المذهب الفلسفية المختلفة . . الخ ويكون أساس المفاضلة بينها هو مدى نفعها لحياة الانسان .

غير أننا إذا نظرنا بهذه الفاعلية « العقلية » إلى أمور الحياة وثقافتها معاً ، كنا كمن يسأل عند كل موضوع مطروح : هل الخطوة التالية إذا خطوتها بلبننا الأهداف ؟ ! ولهذه النظرة تستتبع صفات فرعية كثيرة تنتج عنها كذا تنتج الثمرات من شجراتها ، وهذه الصفات تشكل ما نسميه « بالنظرة العقلية » أو الوقفة العقلية . ويمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - أولى هذه الصفات - وهي نفسها نتائج نابعة من ذلك المبدأ العقلاني أن تتحدد الأشياء بنسبها الصحيحة بعضها من بعض ، فيبدو الكبير كبيراً كذا هو وإتلافه تألفها كذا هو ، فقد تهتم الدولة المتحضرة بمسألة علمية تريد لها أن تستقر في أذهان الناس ، ولكنها تتفاهى عن توافه السلوك التي ربما اختارها هذا الرجل أو ذلك .

٢ - ومن النتائج التي تترتب على الوقفة العقلية أيضاً إثار الأجل على المآجل إذ كان في المآجل خير قليل فد يعقبه شر كثير ، أو كان في الأجل خير كثير قد يسبقه شيء من ألم التضحية .

٣ - ومن أبرز جوانب النظرة العقلية ، وأكثرها أهمية بالنسبة لنا ، أن تُرد الظواهر إلى أسبابها الطبيعية ، فلا يفسر المرض ، مثلاً ، إلا بالجراثيم التي أحدثته ، ولا يعمل سقوط المطر إلا بظروف المناخ ، وهكذا . ويترب على هذا الربط السببي الصحيح أن تلتبس للأشياء أسبابها الطبيعية كذلك . فإذا أردنا غللاً زرعنا لنحصلها ، وإذا أردنا قتلاً حملنا له السلاح بجران واقتدار^(١٠٧) . ومن هنا كان السحر ، مثلاً ، هو الضد المباشر للنظرة العقلية . إنه أنه واللا معقول ، ذلك لأن السحر يعمل الأحداث بغير أسبابها الطبيعية ، فإذا كانت علة المطر الطبيعية ، مثلاً ، هي مقدار ما يتكثف في الهواء من بخار الماء جعلها الساحر ورقة يكتب عليها أحرفاً يختارها أو عبارات يزعم لها القدرة على إزال المطر ، وإذا كانت علة الشفاء من مرض معين هو أن تزال الجراثيم التي تحدثه كانت هذه العلة عند الساحر « عفريتاً » سكن الجسد العليل ، والشفاء من المرض إنما يكون بطرد هذا العفريت بأقوال تقال ، ويخور يعطر جو المكان ، ويظهره الكائنات الشيطانية العابثة بأجساد الناس . . وهكذا^(١٠٨) .

٤ - والنظرة العقلية تنظر إلى الواقع كما هو لتحوه إلى واقع جديد إذا أرادت ، دون أن تقيم بينها وبين الواقع حالاً تتسمج الأوهام ، ثم سرعان ما تنسى أنه أوهام ، فإذا كان البدائي يخلق لنفسه الخرافة لينظر بمنظارها إلى واقع الدنيا ، فإن المتحضر هو الذي يواجه تلك الواقع كما تبلو لبصره وسمعه .

٥ - على أن أبرز ما تتميز به النظرة العقلية إلى الكون هو حب الانسان للمعرفة حيث يلم بأسرار البيت الذي

(١٠٧) - د المنور واللامعول في تراثنا الفكري ، ص ٤٣٧

(١٠٨) - د ثقافتنا في مواجهة العصر ، ص ١٩٨ - ١٩٩ وانظر أيضاً ذرة تطور الحضارة ، ص ٢١ - ٢٢

في ظلها، والأمل في جيل جديد أراه على الطريق إلى اللاعقلية العلمية وضيائها . . (١١١) .

على أننا لا نستطيع أن نغادر هذا الجزء الهام ، مع ما فيه من جوانب عقلية قيمة - قبل أن نشير إلى مسألة قد تختلف فيها مع أستاذنا الكبير وهي « المقابلة » بين المذاهب الفلسفية على أساس نوعها ، ذلك لأن كلمة « النفع » منذ البداية كلمة غامضة وتثير أسئلة كثيرة : ما هو للمذهب « النافع » وبأي معنى ؟ وبأي يكون كذلك ؟ ألا يمكن أن يكون للمذهب « غير نافع » الآن ثم يتضح أنه « نافع » بعد عشرات السنين ؟ ألم يجد للفلسفة النهضة ، مثلاً ، أفكاراً نافعة عند فلاسفة اليونان ؟ أ

ثم ألا يجوز لنا أن نتخذ المذاهب الفلسفية من منظور غير للتطور الضمني ؟ ألم يستمرز أرسطو ، مثلاً ، في كتابه « الميتافيزيقا » الفلاسفة السابقين عليه من طالس حتى أفلاطون نقاداً كل فيلسوف على حده من منظور عقلي لا علاقه له بالنفعة ؟ أ

ثم ألا يمكن أن يكون « نقد » فلسفة ما ، أو تنقيد ملهب معين لا يعني سوى أن للبدا الذي يرتكز عليه قد أصبح عاملاً مساعداً ، أو عنصراً مسلسلاً في الفلسفة التي تليها ، وهكذا تسير المذاهب الفلسفية يعقب بعضها بعضاً في تطور جذلي تندثر قشرتها الخارجية ، ويبقى مبدؤها ليصبح عنصراً مكوناً في ملهب أعلى . . (١١٢)

ألم يقل هيجل إن « الفلسفة » كل متصل تدفعه ضرورة داخلية ، فكل فلسفة كانت ولا تزال ضرورية ،

هو ساكنه ، فالعقلاني في نظريته ثوبهم نحو معرفة الحقائق والطبائع والعقل ، ولا يصده عن ذلك شيء من التحريم الذي يفرضه البدائيون على أنفسهم .

أليكون قريباً بعد ذلك أن نقول أن « سلطان العقل هو مدار القياس لدرجة الحضارة ؟ فقل لي كم عقلت أمة في تدبير أمورها ، أقل لك كم صعدت في مدرج التحضر . . (١١٣) . فالعقلانية في وجهة النظر هي التي تراها ماثلة في كل حضارة مهما اختلف لونها ، ولا تراها في أي جماعة بدائية مهما تعددت بعد ذلك صفاتها ، فلربما اتجهت النظرة العقلية نحو الأخطار المجردة تنظمها وتنسقها في ترتيب هرمي يضع الأهم منها فوق الأخص ، كما حدث عند اليونان الأقدمين أوربا اتجهت نحو تحليل ما نزل به الوحي من تشريع ، كما جدت للعرب الأولين ، أو اتجهت نحو ظواهر الطبيعة تستخرج قوانينها النظرية كما حدث لأوربا في عصورها الحديثة ، أو اتجهت نحو تمهيد تلك القوانين العلمية النظرية في أجهزة يديرها الإنسان أو تدبر نفسها بنفسها كما يحدث لعصرنا القائم (١١٤) .

على ضوء هذا الذي أسلفناه نستدير إلى عصرنا وحضارته ، إنه ليس بدعاً يشد من القاعدة التي سارت عليها المصور ، فالحضارة فيه ما زالت قائمة على نفس الأساس الذي قامت عليه حضارات السالفين والأساس هو « العقل » . . ونسأل بعد ذلك أين تقف الأمة العربية اليوم من المسيرة الحضارية ؟ . . . « وأجيب بجواب يختلط فيه قليل من الأمل وكثير من الأمل - الأمل للهوة اللاعقلية العميقة التي لا تزال تتخبط

(١٠٩) - المرجع نفسه ص ١٩٩ - د. أزمة التطور الحضاري ص ٢٢

(١١٠) - المثلثات في مواجهة العصر ص ١٩٦ - د. أزمة التطور الحضاري ص ٢١

(١١١) - المرجع نفسه ص ٢٠٣

(١١٢) - Hegel: Science of Logic vol. II p. 914 Eng. Trans Log W. Johnston- Allen & Unwin 1951.

وبالتالي فليس منها ما اخفى وزال ، وإنما تجدها عناصر إيجابية في كل واحد . . وآخر فلسفة هي نتيجة لجميع الفلسفات السابقة . . « (١١٦) فلا يكون ، في هذه الحالة ، ثمة « مفاضلة » بين المذاهب الفلسفية التي تشبه الشجرة مع غوها ، ولم يكن في استطاعة أي مذهب أن يرى الثور ما لم يتعلمه المذاهب السابقة كلها !

مشكلة الأصالة والمعاصرة :

كانت قضية الجمع بين الأصالة الثقافية التي تضرب بجلودها الى المقومات الأولية التي جعلت من العري عربيا ، وبين المعاصرة التي تجعله جزءا من زماننا بنشاطه الفكري لا بمجرد وجوده الجسدي - هي قلب الرحى و أم المشكلات - كما سبق أن ذكرنا - في حيلة مفكرنا الكبير حتى إنه يقول عنها إنها أصبحت القضية التي يصح أن نقول حالها قوة هاملت في أزمتها النفسية : أن أكون أو ألا أكون : ذلك هو السؤال (١١٧) . فإذا كان موضوع الإشكال عند أسلافنا هو طريقة اللقاء بين أحكام الشريعة ومنطق العقل ، فقد أصبح موضوع الإشكال عندنا اليوم هو طريقة اللقاء بين العلم والانسان (١١٨) . أو بمعنى آخر طريقة اللقاء بين « العقل والوجدان » (١١٩) . والصيغة التي يقترحها مفكرنا الكبير كحل لمشكلة « الأصالة والمعاصرة » هي الصيغة التي تجمع بين « العقل والوجدان » بحيث يكون واضحا لدينا أن مجال العقل يشمل جميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية . . الخ التي تحتاج الى تفسير « علمي » بالمعنى الواسع لهذه الكلمة - وهو المعنى الذي يسوّي بين

البشر أجمعين ويكون هناك إمكان لعرض خطوات السير عليهم خطوة خطوة حتى نصل من نقطة الابتداء الى النتيجة التي تنتهي اليها . أما مجال الوجدان فهو مجال الفن والشعور بصفة عامة وهو مجال يتميز بأنه « ذاتي » خاص بالفرد ، وليس عاما مشتركا بين الناس ، ففي بدائع الفن نجد أن لكل فنان طابعه الفريد الخاص الذي يستمد من حياته الباطنية التي لا يشاركه فيها إنسان آخر . وعلى ذلك فإن علينا أن ندرك أنه في مقدمة الإصلاح ، اذا أردنا اصلاحا ، أن نرى الأجيال الجديدة على وقفة أخرى يفرق لنفسه فيها تفرقة واضحة بين ما هو عام فيحيله الى العقل وأدواته ، وما هو خاص فلا بأس عندئذ في الركون الى لغة الشعور (١٢٠) . فإذا ما تسامنا : لماذا انقضت على مصر منذ بدأت هضبتها الحديثة حتى الآن مائة وخمسون سنة على الأقل ، ومع ذلك لا نستطيع أن ندعي بأنها تشربت من ثقافة العصر الجديد ساكنات تنمى لها أن تنشرب ؟ ! لماذا أصبح المتعلمون في مصر يعدون بعشرات الملايين ، ومع ذلك فإن نفورهم من رؤية الحياة بنظرة علمية تلتزم منطق العقل لا يقل عن نفور أجدادهم الذين ضربهم موجة الظلام إبان القرون الثلاثة السابقة على بدء النهضة الحديثة . . ؟ . ! إذا طرحنا أسئلة كهذه ، وجدنا لها جوابا واحدا هو : نقص في تربية العقل وإسراف في إشعال الوجدان (١٢١) . كما لو أن شيئا في تركيبنا الثقافي يوسوس لنا دائما بأن العقل وحده لا يكفي سندنا للانسان في حياته ، وأن ظواهر كثيرة تحدث متحيلة العقل أن يفسر حلولها بمنطق العلم ، فلا يسع العقل إزاءها الا

(١١٦) - H.S. Haldane. The History of Philosophy Vol. II. p. 37 Trans by H.S. Haldane.

(١١٧) - قصة عقل ص ٢٢٢

(١١٨) - تجويد الفكر العربي ص ٢٧١

(١١٩) - قصة عقل ص ١٨٩

(١٢٠) - قصة عقل ص ١٢١

(١٢١) - المرجع نفسه ص ١٢٢

عادات جديدة ، في تلك الحياة ، ومعناه إحلال قيم جديدة محل قيم قديمة ، أخذه الملح ، لأنه في عمق نفسه لا يريد من قيمه الموروثة بدلياً . وهكذا تقع في أزمة حضارية من طراز نادر لأننا في الحقيقة بنشابة من مجيئ ثقافتين متعارضتين في وقت واحد : أحدهما خارج النفس والأخرى مدسوسة في حناياها لا ترمي ، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع والأسواق ، بينما تحبس حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع^(١٢٠) .

والواقع أن علينا أن نسلم بضرورة اللجوء إلى العقل وإلى العلم الذي هو في حقيقته تجسيد للعقل في رسم السبل الناجحة . ولا يكفي أن نتفخر سائر الدنيا بأننا أصحاب قلوب عامرة بوجدانها لا فرق في ذلك بين أن يكون الموضوع للمعرض للمعالجة عما نتفع أولاً نتفع فيه القلوب ووجدانها : « ومن ثم كانت دعوتي التي ما فتئت أكررها بوجود الفقرة الواضحة بين مجالين مجال لا يصلح له إلا العقل بكل رصانه ويروده ، ومجال آخر من حق المشاعر أن تشتمل فيه مشاهدات لها حراوتها^(١٢١) » علينا أن نبذل ذلك الرأي الشائع فيما الآن والذي يقول إن العقل وعلموه . وهو لب العصر الذي تعيش فيه - علم للوجدان ومشاعره ، ولما كانت الكثرة الكثيرة منا نصيرة للوجدان فسحقاً للعقل وتنازع^(١٢٢) . كلا ليس العقل تقبضاً للوجدان وإنما لكل مجاله الخاص ، والمشكلة الأساسية عندنا تكمن في خلطنا بين المجالين أو عدم وعينا بالحدود الدقيقة لكل منهما .

وإذا كان من الباحثين من يرى أن « زواج » الأمالة والمعاصرة - أو الصيغة المقترحة للجمع بين العقل والوجدان - أمنية مستحيلة التحقيق ، أو هي تكر

أن يقف عاجزاً ، ومثل هذا الشعور يعجز العقل وتصور العلم ، يتملكنا بدرجة قل أن نجد لها نظيراً في شعوب أخرى وعمل الرغم من يقين بأهمية الجانب الوجداني في حياتنا فلطالما أحسست بواجبي في الاعلاء من شأن العقل - والعقل يتبعه قيام العلم ومناهجه - حتى لو ذهبت في ذلك الاعلاء إلى حد المبالغة ، لأحدث نوعاً من التوازن في حياتنا بين عقل ووجدان ، إذ التوازن بينهما مفقود^(١٢٣) .

إن المشكلة الحقيقية التي تصادفها في حياتنا العملية ليست في قبول صيغة « العقل والوجدان » - وإنما في بيان مجالها من ناحية ، وما يستتبعه الأخذ بها في دنيانا الواقعية من ناحية أخرى : سل من شئت هل تحب أن تتابع العصر في عقلانيته وتقنياته ؟ يبيك في استملاء بأن العقلانية وما يترتب عليها هي جزء من ميراثنا الأصيل ، لكن قل له إنها في عصرنا تستتبع عدة أمور : منها ألا تلقى بزمامك إلى العاطفة أياً كان نوعها ، ومنها أن يتولى العمل من يحسن أدائه ، لا من يتمنى إلى أصحاب الجاه بأواصر القرى ، ومنها أن يكون الارتكاز كله على الواقع المادي الصارم ، ومنها أن نصلطع في حياتنا نظرة علمانية تجعل صورها هنا على هذه الأرض ، قبل أن يكون هناك في عالم آخر . قل له هذا ، يأخذه الفزع ، لأنه عندما أعلن أنه من أنصار النظرة العقلية ، لم يكن قد تخيل لنفسه أنها نظرة تلد كل هذا النسل المعجيب ، فهو عقلان بالاسم ، لا بالمضمون والتأنيج ، أنه يقبل من العصر تقنياته ، لأنه يريد كسائر عبياد الله - أن ينعم بالسيارة والطيارة وأجهزة التدفئة والتبريد ، لكن إذا علم أن إدخال هذه الآلات في حياتنا معناه إدخال

(١٢٠) قصة عقل ص ١٢٢

(١٢١) ثلاثتا لي مراجعة لعصر ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(١٢٢) قصة عقل ص ١٤٠ - ١٤١

(١٢٣) قصة عقل ص ٢٣١

بالتحق فحسب ، فإن مفكرنا الكبير يعتقد أنها قد تحققت بالفعل في تراثنا القديم ، وأن لها أمثلة كثيرة في فكرنا الحديث أيضا - وبالتالي فهي ممكنة التحقق ، بل لا بد من تحقيقها في فكرنا المعاصر .

لقد ألفت الناس قبل ظهور الاسلام ضريين من الحضارة ومن الثقافة ، اختلفا فيما بينها الى حد التنافر ، بل الى حد الدخول في حروب مستعرة ، وهاتان الحضارتان هما حضارة الفرس وثقافتهم من جهة ، وحضارة اليونان وثقافتهم من جهة أخرى ، المحور في الحالة الأولى هو « الوجدان » - أو هو « الاملاء » إملاء القلب أو الوحي أو الحدس - يفرض على الانسان طريقة فكره ونمط سلوكه . والمحور في الحالة الثانية هو عقل الانسان يقيم له الحجة على الباطل فيرفضه ، ويسوق له البرهان على الحق فيرتضيه . . وكان الغن هو ألا سبيل الى لقاء بين « شرق » متمثلا في فارس ، و « غرب » متمثلا في اليونان ، ثم جاء الاسلام في أوائل القرن السابع الميلادي ، ومع فتوحاته انهدمت القواصل بين الثقافتين ، أو قل انها اندجت في خطوة أولى على طريق المواطن العالمي ، وكان ذلك الدمج الباهر هو الذي أخرج الى العالم تلك الصيغة الحضارية الثقافية الاسلامية الجديدة التي ألقت في مركب واحد : صوفية الفرس وعقلانية اليونان . وهذه الطبيعة الثنائية الجديدة قد جمعت بين إدراك الحدس الصوفي وإدراك العقل الاستدلالي بحيث احتملت الحياة الثقافية الاسلامية أن يظهر فيها أعظم المتصوفة وأعظم مناطة العقل في آن معا (١٣٣) .

وتسهل مفكرنا الكبير د لماذا استطاعت ثقافة

المسلمين أن تنقل في عصر المأمون ، بصفة خاصة ، ما نقلته من فلسفة اليونان وعلومهم الى اللغة العربية ، ولم ينقلها أهل الهند أو أهل الصين الى لغتهم ؟ ! ويجب : إن العلة لم تكن في لغة تستطيع ولغة أخرى لاستطيع ، بل العلة هي أن ثقافة تنقبل منطق العقل (الى جانب الوجدان) وتميضمه ، وثقافة أخرى لا تنقبل ولا تمضممه (١٣٤) . كان القرآن الكريم هو كتاب المسلمين (والدين لا يلجأ في أية جهة يظهر فيها الى الاستدلال العقل) وإنما هو يأتي برسالة موحاة من الله أو غير موحاة مثل أنبياء الشرق الأقصى فيقبل الناس نفوح هذه الرسالة فإذا جاهدوا وعقدها ، فهو اذن لمحة قلب ، أو نبضة وجدان أو « حدس » بالمصطلح الفلسفي أو هو إدراك مباشر (١٣٥) .

إنه إيمان لا يستند الى برهان ولا يراه له أن يستند الى برهان ، لأن الانسان لا يريد برهانا على صدق وجدانه ، أو صحة شعوره يشعر به مباشرة في طوية نفسه : إذا كنت جالما وأشعر بالجوع فليست أريد البرهان من أحد على أن جالما أو على أن أحب - تلك حالات وجدانية داخلية يقبلها صاحبها قبولا مباشرا ، لا هو يريد لنفسه أن يبرهن على صدقها ، ولا هو متوقع من سواء أن يبرهن له عليها . وهذه الرؤية المباشرة التي لا وسيط فيها لا تقتصر على الدين فحسب ، وإنما هي مجال كل ما ينتجه الوجدان من فن وأدب وتصوف . الخ .

لكن على أساس هذا الدين الجديد قامت علوم عقلية - فإذا كان الدين ليس علما ولا هو يحتوي على علم لأنه في صميمه رسالة أخلاقية - فإن من أعظم ما يفرجه الدين الاسلامي هو أنه حث الناس على أن يعملوا

(١٣٣) صوم المظفر ، ص ٨٢ - ٨٣

(١٣٤) المرجع نفسه ص ٨٤

(١٣٥) قد لا يوافق البعض على ذلك على اعتبار أن التشريع الذي يرد منه أن يحكم الانسان في كل زمان ومكان ، وبالتالي فهو يستعمل أن يكون د لمة قلب ، أو د لمة وجدان .

يستهدفه بهذا الجهد ؟ ! فهم القرآن فهما سليما . ولنلاحظ هذه الوقفة نفسها ، برجل يبحث في اللغة بحثا علميا ليفهم دينه . ولننظر في هذه الوقفة فقط ، ونسئلهما فمادنا نجد ؟ ! نجد أسامنا رجلا عالما اذا شئت ، متدينا اذا شئت ، لأن كليهما في « صبح واحد » ، بل انه حين أراد العلم إنما أراد من أجل الدين . وهذا الوجود ذو الوجهين للتكاملين هو جمع للنمطين السابقين في نمط واحد^(١٣٦) .

تلك هي الصيغة المقترحة لحل ثنائية الثقافة التي نعيشها الآن وفي استطاعتنا أن نضرب أمثلة أخرى كثيرة على وجود هذه الصيغة في ثقافتنا القديمة أمضى الجميع بين « العقل » و « الوجدان » بين ثقافة اليونان وثقافة الفرس في ثقافة جديلة خلد مثلا « علوم الدين » - وهي بناء علمي أقيم لخدمة الدين : الفقه مثلا ، نحن أمام نص قرآني ، ومجموعة أحاديث نبوية وتريد أن تستخرج الأحكام الشرعية - وهي ليست ظاهرة كلها لكل انسان - وإنما الظاهر منها قليل ، والباقى يحتاج الى عقل وعلم يستخلص من الآيات الكريمة ما قد كمن فيها من أحكام شرعية فهي إذن عملية عقلية - وعلمنا مرة أخرى أن ثمن النظر في « فقيه » يقوم بهذا الدور لنجد أنه إنسان مثلي وعالم في آن معا . وليست المسألة هنا مجرد تجاوز العنصرين وإنما العنصران متشابهان لأن أحدهما جاء ليعلم الآخر ، فإذا كانا كيان واحد ، فكأنما نجد النمطين السابقين في نمط واحد^(١٣٧) .

خذ مثلا ثالثا « علم الكلام » الذي سمي كذلك لأنه نشاط عقل ينصب على تحليل « كلام » الله الذي هو القرآن الكريم . فإله « واحد » ، لكن هذه الذات

عقولهم ليكتشفوا قوانين الكون ، وبمجرد نزول القرآن لم يكد يضي ثلاثة أرباع القرن بعد الرسالة حتى ظهرت حركة عقلية جديدة ، ففى المناخ الذى نزلت فيه الرسالة المحمدية كان الايمان مشتتاً في القلوب ، وتلك هى الخطوة الأولى ، عندما تؤخذ الرسالة الجديدة مأخذ التصديق الذى يؤمن فحسب ، ثم تأتى الخطوة الثانية ، وهو أن يصب أصحاب التحليلات العقلية تحليلهم على ذلك الذى كان موضع إيمان في الخطوة السابقة .

في القرن الثالى الهجرى ظهرت مجموعة من المفكرين . صممت على أن تفهم القرآن الكريم حق فهمه ، كيف ؟ ! كان من المطلق أن يبدأوا بدراسة اللغة العربية نفسها لتجتمع لهم أدوات الفهم الصحيح . فلم يريدوا الوقوف من اللغة موقف للتذوق وكفى ، بل أرادوا أن يجعلوها دراسة علمية بأدق ما يكون للمنهج العلمى . ولم تكن قواعد اللغة قد استخلصت وجمعت حتى ذلك الحين ، فانصرفوا الى استخراجها وجمعها . وهنا تشعب الباحثون الى شعبتين الأولى مقرها البصرة ، والثانية مقرها الكوفة . ومن ثم فأول مانجده من أنشطة عقلية هي هذه الدراسات اللغوية التى رأيناها في مدرسة « الخليل بن أحمد » وتلميذه سيبويه في البصرة ، والكسائي في مدينة الكوفة - وكذلك ما يبلته المدرستان في استخراج الأسس التى لابد من الكشف عنها لكى تفهم اللغة العربية على أساس علمي صحيح . ولنلاحظ جيدا أن هذا الجهد يسدل لأول مرة في التاريخ ، فلم يحدث أن تصدى عالم قبل ذلك لاستخراج قواعد اللغة أو عروض الشعر أو الاشتقاق ، فوضع الخليل بن أحمد المعجم الأول عندما جمع المفردات من أقوال الناس لأول مرة ، فبأى الذى كان

(١٣٦) حمود النمطين من ٨٥ - ٩١ . ونظروا لفرار الذى أجبره الزميل الدكتور صلاح قصود مع الدكتور ركني نجيب السطيل لفرار .

(١٣٧) المرجع نفسه

العقلانية (أما ما هو خاص بالوجدان ، فلا تقدم فيه ، فلا أظن أن الأم المصرية الشكل تبكي فقيدها على نحو أكمل من بكاء الأمهات بالأمس ، ولا أن يغنى عاشق في عشق حبيبته بأكثر عما غنى فيس في عشق ليلاه . . . » (١٢٩) .

وفي ظني أن هذه الفكرة تحمل مشكلة الجماعات الدينية التي تدعونا إلى أن نعود إلى الماضي بوصفه أزهى عصور الاسلام - وذلك يكون ممكنا بالنسبة للمسائل الوجدانية التي لا تتقدم : نقاء القلب ، وإخلاص السيرة وحلاوة الايمان . . . كذلك مافي الماضي من فن أو أديب - أما العلوم والمعارف بجمع أنواعها فلا بد أن تكون هي علوم العصر لأنها مجال « العقل » وهو وحده الذي يتقدم .

فيذا تسامنا : « من الذي أراه ياترى يمسد لنا بشخصه المتعين ذلك الضرب من اللقاء بين تراثنا ومنتجات عصرنا في دنيا الفكر ؟ إن أول من يرد إلى خاطري كلما ألقيت على نفسي هذا السؤال هو : طه حسين ، فإلى جانب مؤلفاته ذات القيمة الكبرى ، أرى في شخصه ما هو أهم منها فيها نحن الآن بصدد الحديث فيه ، وأهني بذلك طريقتي في الجمع بين موروثنا وروح عصرنا ، أما موروثنا فلا أظن أحدا يجادل في سعة إلمامه بذلك الموروث إلماما فيه الدقة وفيه الفهم ، وأما روح العصر فظاهر في منهجه وفي رؤيته وفي تصوره . . . » (١٣٠) . وأسوق مثالا آخر لرجل جمع في شخصه الحسنيين وهو الشيخ مصطفى عبد الرزاق فهو الآخر يلم بالموروث إلماما يجعل ذلك الموروث على أطراف أصابعه ، وهو في الوقت نفسه يحيط بأهم مدار في عقول علماء الغرب في ميدان تخصصه (١٣١) .

الواحدة لها صفات كثيرة من علم وإرادة وقدره ورحمة - فهل تعدد الصفات في الذات الواحدة لا يعطيها شيئا من التعدد ؟ ! نحن نؤمن « بالواحد » لكننا نحتاج إلى عملية عقلية تبين لنا كيف أن تعدد الصفات لا يتناقض مع الواحدية المطلقة . . الخ . لكن انظر مرة ثالثة إلى القائمين بهذه العملية العقلية وحاول أن ترى جوهر الرجل منهم ما هو ؟ أنه دمج للثنتين في شط واحد فهو دين وعقل معا . ولعل مثل ذلك في الفلاسفة للمسلمين : فمن هو الفيلسوف المسلم ؟ هو رجل أراد أن يقرأ نتائج العقل اليوناني بلغة الشريعة ، أو أن يقرأ الشريعة بلغة العقل ، وعنوان كتاب ابن رشد فيه الكفاية : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » - حلل رجلا كهذا نجد أنه أراد أن يدمج العقل اليوناني مع الشريعة الإسلامية في كيان واحد (١٣٢) .

إذا كانت هذه الأمثلة - وغيرها كثير - تنسب التاريخ الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية - أيكون من الصعب أن نوفق من جديد إلى الدمج بين « العقل » و « الوجدان » ؟ ! أيصعب علينا أن نرتبط عن طريق العقل بعصرنا الذي هو جوهر العلم ، ونرتبط بماضينا عن طريق الوجدان الذي هو طبيعته لا يتقدم ؟ ! فالتصديق يبقى كما هو ، في حين تتقدم علوم الدين أو علوم اللغة لأنها نشاط عقل ، كما أن كلمة « التقدم » قد تكون بغير معنى في الأدب والفنون ، فقد لا يستطيع شاعر من شعرائنا اليوم أن يجازي أسرى القيس وقد لا يستطيع أحد من رواة الحكايات في يومنا أن يقترب من الثروة الأدبية التي بلغتها ألف ليلة وليلة ، لا ، إن التقدم لا يكون إلا في معرفتنا العلمية (أو

(١٢٨) للرجع السابق

(١٢٩) كتابات في مراحله العمر ص ٢٠١

(١٣٠) من تجربة لثلاث ص ١٩٢

(١٣١) كتابات في مراحله العمر ٢٠٦ - ٢٠٧

القسم الأول : مجال التحليل العقلي

يمكن إن تقول ان زكي نجيب محمود قدم الكثير لمجال العقل ابتداء من محاولاته لتحديد « مفهوم العقل » نفسه - كما سبق أن أشرنا - مبينا مجالات استخدامه ، الى محاولته إشاعة النظرة العقلية على نحو ما حدثها في النقاط الخمس السابقة . لكن هناك جانباً بالغ الأهمية هو استخدامه للفاعلية العقلية أو النشاط العقلي في تحديد وتحليل كثير من المفاهيم الشائعة والقاه الضوء عليها ، وهي مهمة شاقة في مجتمع اعتاد أن يرسل القول على صوابه ويستخدم الفكرة الغامضة لمجرد أنها موجودة ، أو لأنها تثير وجدانه ، مع أن الحياة الفكرية بمعنى من ألق معانيها هي تحديد الفواصل بين المعاني المتداخلة ، أو المتشابهة : ولك أن تحكم على أمة بدرجتها في مدارج الحياة الفكرية بمقدار ما استطاع أتباعها تحديد المعاني التي يتداولونها . . (١٣٤) . وهذا هو الدور الذي تقوم به : « الفاعلية الفلسفية » فمما توصف به الفاعلية الفلسفية ، أحيانا أنها محاولة لتوضيح المفاهيم التي تقع عند الناس بين الجهل التام والعلم التام ، يعني أنها مفاهيم يتداولها الناس وهم على بعض العلم بها ، فلاهم يجهلون كل الجهل ، ولاهم يعلمونها كل العلم فتتداولها الفلسفة بالتحليل والتوضيح لعلها تبلغ من معانيها مبلغ التحديد الدقيق الحاسم ، فهذه المفاهيم التي تقع عند الناس وسطا بين الغموض والوضوح هي أشبه بمدينة تراها على مجلة فترى بروزا متدا في الأفق (١٣٥) .

وهكذا قل في كثير جدا من المفاهيم والأفكار التي تتداولها في مجرى حياتنا الفكرية ، بل في مجرى حياتنا

والحق أننا نستطيع أن نطبق الفكرة نفسها على جميع أعلام نهضتنا الثقافية الحديثة ابتداء من رفاعة الطهطاوى حتى زكي نجيب محمود نفسه ، فكل واحد من هؤلاء المفكرين الأعلام كان أصيلا من حيث إلمامه بالتراث لكن كان أيضا معاصرا عندما وقف على ثقافة العصر ولذا جاء فكره مركبا من الاثنين معا . أننا لا نريد للثقافتنا أن تبقى في ثقافة غيرنا بحيث نجعل منهم نموذجاً لنا نتخلده ، وإنما نريد أن ينحصر نفردنا الثقافي في تلك الجوانب التي تميز الشعوب ، والتي هي في الوقت نفسه ليست مقياس التقدم الحضارى - هو جانب العقل - وأصغى بها جوانب القصيدة والفن (١٣٦) .

والخلاصة أنه ليس من المحم أن يكون إما الحياة كلها للعلم ومنهج الاستقراى وإما الحياة كلها للاستقراء تحت مبادئ مقبولة سلفا - فليس من المستحيل أن نحيا في ساحة من قسمين لكل منهما منهجه الذى يلائمه : قسم للعلوم وما يضرع عنها من صناعات ، ويكون له منهجه القائم على تقصى الوقائع قبل صياغة القوانين ، وقسم آخر لحياة الوجدان والقيم الأخلاقية والاجتماعية وفيها يكون السبر مهتديا بمبادئ صلبة (١٣٧) .

ولي استطاعت أن تقول ان زكي نجيب محمود نفسه مثل حى متعين لهذه الصيغة التي يترسها لحل مشكلتنا الثقافية - صيغة الدمج بين « العقل » و « الوجدان » - ولهذا فإن من السطحي أن نسال الآن : ساهى الإسهامات التي قدمها هذا المفكر في كل مجال من هذين المجالين .

(١٣٢) للفتا في مواجهة العصر ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٣٣) لم من التراث ص ١٩ .

(١٣٤) لم من التراث ص ١٥٢ .

(١٣٥) هم للفتن ص ٩٦ .

المجموعة الأولى : أفكار سياسية

(١) - المتكفف الثوري : في السنين ظهر تعبير « المتكفف الثوري » وشاع حل أقلام الكتاب وكان على مفكرنا الكبير أن يطرح حل نفسه هذا السؤال « متى يكون المتكفف متكففاً وكفى ، ومتى يكون متكففاً ولتوريا معاً ؟ » ويحجب من خلال منشورين « لئلا سراه والمعراج » . أما الأول فهو حديث للرَسُول ﷺ أورده ابن عربى يقول فيه « ما ابتل أحد من الأنبياء بمثل ما ابتليت به » . مشيراً بذلك الى رجوعه من حالة الرؤية ، « رؤية الحق » الى دنيا الناس ليخاطب فيهم من ضل ليهديه سواء السبيل . والمنظور الثانى : حديث لرواحد من الصوفية يقول « صعد محمد النبى العربى الى السموات العل ، ثم رجع الى الأرض ، فسأ برى لو بلغت هذا المقام لما عدت أبداً . . . ونحن هنا أسام نعطين مختلفين من الوعى : الأول تتميز به حالة النبوة ، والآخر حالة المتصوف الذى يشاهد « الحق » ويتمنى ألا يعود الى الناس ، فإذا عاد كانت عودته غير ذات نفع كبير لأنه سيحصر نفسه في ذاته متشبيها بما قد شاهد (١٣٨) . وهذا نحن أمام رجلين : رجل يرى الحق فتكفيه الرؤية ، ورجل يرى الحق فلا يستريح له جنب حتى يغير الحياة وفق ما رأى ، ولست أرى ما يمنع من التوسع في التطبيق بحيث نجعلها تفرقة بين المتكفف الذى ينعم بثقافته ثم لا يغير من مجرى الحياة شيئاً . والمتكفف الذى لا ينعم بثقافته إلا إذا استخدمها أداة لتغيير الحياة من حوله . وفي هذه الحالة الثانية يكون المتكفف متكففاً وثائراً معاً . » (١٤٠) .

العملية ، والتي نشعر أن الحياة ، فكرية أو عملية متعلمة ، يدونها ومع ذلك فعلنا بها لا يكاد يتعدى علمنا بأن الأق البعيد مدينة كبيرة . وهذا يكون عمل الفلسفة أن تدوننا من تلك المفاهيم لئلاها في تفصيلاتها ودقائقها . والمصعب أن يهتمك الناس نتيجة لهذا التحليل بأنك تعقد البسيط وتعصب السهل ، حين جاعهم الفيلسوف بتحليل يفكك لهم أوصال المفاهيم التى يتداولونها فثأروا في وجهه كأنهم كانوا يجدون النعمة في الفهم الجهم ، ويخشون أن يفسد تحليل الفلاسفة عليهم ما كانوا به ينعمون (١٣٩) .

كانت طريقتة أن يحسك بعمدة مكبرة تكشف للقرى عناصر الفكرة التى هى مدار الحديث ، فذلك وحده كفى أن يزيل شباب الغموض الذى يكتنف المفاهيم المحورية التى عليها تدور ثقافتنا (١٣٧) . فالترسيخ معناه تحليل المفهوم الغامض لاستخراج العناصر الداخلة في تكوينه لكى نفهمه ، تماماً مثل أى عملية كيميائية فلكى نفهم الماء أو الهواء ، أو قطعة القضم ، أو ماشئت ، فهنا علمياً عليك بتحليلها في المعامل ، وكذلك التحليل العقلى للأفكار الغامضة عليك أن تحللها تحليلاً عقلياً لكى تكشف عناصرها ومكوناتها التى دخلت في تكوينها (١٣٨) .

وإذا أردنا أن نقدم نماذج لهذه الأفكار التى قام استاذنا الكبير بتحليلها لوجدنا أنها كثيرة كثره لافنة للنظر ، ولهذا فلا متلوعة لنا عن تقسيمها الى مجموعات ثم نقدم من كل مجموعة أمثلة قليلة .

(١٣٧) المرجع نفسه .

(١٣٨) قصة علي ص ١٣٣

(١٣٩) من حوار لبراد البراديل د

١٩٨٨ مركز دراسات الوحدة العربية - مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٨٨

(١٣٩) في سياتة العلبة ص ١٤٢ - ١٤٣

(١٤٠) المرجع نفسه ص ١٤٤

رغبة ولا عاطفة أبجدي على الانسان من عقله^(١٤٣).
« ومثلنا الثاني للمثقف الثوري هو أفلاطون : ارتسمت في ذهنه صورة عقلية للدولة المثلى كيف تكون بحيث تحمي دولة قائمة على دعامة العدل » وأخط في محاولة « الجمهورية » بفصل القول في صورة هذه الدولة العادلة .. ولو اكتفى أفلاطون بهذه الصورة لمعناه « مثقفاً » يرى الفكرة ويحللها فيستخرج ويستريح ، لكنه كان مثقفاً ثورياً وهو يلتبس طريق التقليد لفكرته التي ارتقلا عند تلميذه ديونيسيوس الشاب الذي آل اليه الحكم في سراقوصه بجزيرة صقلية ..^(١٤٤) . كذلك كان الغزالي في تاريخ الفكر الاسلامي هو خير الأمثلة التي تضرب للمفكر الثوري لأنه غير يفكره حياته وحياته الناس من بعده لعدة قرون . . . وفي حياتنا الفكرية الحديثة يقوم « جمال الدين الأفغاني » بدور سقراط : يجادل ويناقش ويخلق التلاميذ والأتباع ويشعل الروح ويوقظ النفوس . . . كذلك كان تلميذه « محمد عبده » يدور ليصلح ويبني وينشيء ويعلم ويربي ولم يكن « مثقفاً » وكفى بل كان « مثقفاً ثورياً » . وقال مثل هذا في قاسم أمين ولطفي السيد ، الأول يكتب ليغير نصف الشعب « المرأة » ، والثاني ليوصل حياة سياسية حل أصول ديمقراطية .

وهكذا يسير بك في تحليله العقلي لمفهوم ظهر في حياتنا الثقافية إلى آفاق لم تكن في الحسبان . بل لم يتصور من استخدموا هذا المفهوم أنه يمكن أن ينسل هذا النسل كله !

لكن ذلك يحتاج إلى تحديد أكثر : فصفة « الثورية » حين تصاف إلى المثقف أكثر انطباقاً على ميدان العلوم الإنسانية منها على ميدان العلوم الطبيعية : فلا يجوز أن يقال عن عالم الرياضيات الذي درسها وطبقها في بناء الجسور أنه مثقف ثوري لأنه طبق ما تعلم . كلا ! فالضرورة مقصورة على أصحاب الثقافة الإنسانية ، لأنها هي التي تشمل القيم ، والقيم هي التي يصيبها التأثير حين يقال أن ثورة قامت فغيرت وجه الحياة^(١٤٥) .

لكن هذا التحديد لا يزال غير كاف ، لأن الذي يخير وجه الحياة قد يغيرها إلى الوراء لا دالماً بها إلى الأمام ، في حين أن الثورية تصاف إلى المثقف الذي يدفع بالحياة إلى الأمام في مقابل « الرجعية » لمن يريد أن يرد الحياة إلى الوراء . غير أن السدقة تحتم علينا أن نفهم معنى « الأمام » و « الوراء » لأنها لا تكون مفهومة إلا بالنسبة لهدف معلوم ، وهكذا نستطيع أن نحدد « المثقف الثوري » تحديداً أكثر دقة بقولنا أنه من أدرك مثلاً جدلية للمعيار الإنسانية ، وحاول تغيير الحياة وفقاً لها ، شريطة أن يحى هذا التغيير في الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ بحيث تنسج الرقعة البشرية التي تتمتع بما كان مقصوراً على القلة من جوانب القوة والحرية والعلم وسائر أوجه الكمال^(١٤٦) .

والطريف أنه يعمل من سقراط النموذج الأول « للمثقف الثوري » لأنه لا يستريح ولا يطمئن ، حتى يعمل الناس على قبول ما ارتسم في ذهنه من وجوب أن يكون زمام الأمور كلها بيده العقل : فلا نزوة ولا

(١٤٣) في حياتنا العقلية ص ١٤٥

(١٤٤) المرجع نفسه ص ١٤٦

(١٤٥) في حياتنا العقلية ص ١٥١

(١٤٦) المرجع نفسه ص ١٥٢

(ب) ارادة التغيير

لم يكن زكي نجيب محمود في يوم من الأيام متنبياً إلى حزب سياسي معين ، ولكنه كان يتخذ على حد تعبيره « موقفاً سقراطياً » هو أن يكون صاحب رأي مستقل . من حقه لإبداء الرأي وتوجيه النقد لكثير من أوضاع مجتمعه ، دون أن يلتزم بالفكر حزب معين أو بموقف « أبديولوجي » خاص . ولقد أمده هذا الموقف المستقل « بحرية الحركة في نقد وتحليل أي مفهوم يظهر على مسرح حياتنا الثقافية أو السياسية دون أن يجد في هذا التحليل حرجاً ولا ضغاضضة ولهذا تراه قابلاً في قلبه محسباً بموضع التحليل يتلقف كل ما يظهر من أفكار ومفاهيم ليبدأ عمله ! إجمعه بعد ذلك المصدر الذي أطلق المفكرة - رئيس الجمهورية أو جمهور الناس في الشارع - فبعد حرب السويس تحدث الرئيس جمال عبد الناصر في إحدى خطبه داعياً إلى « إرادة التغيير » التي نحن أخرج ما تكون إليها ، ويتلففها مفكرنا الكبير ويضعها تحت عدسته المكبرة فإذا بهذا التعبير يتحول إلى تمصيل حاصل ! فهي مترادفات ! « إرادة التغيير » كلمتان صيغتا عمل صورة المضاف والمضاف إليه كما نقول : قراءة الكتب أو « رؤية الشمس » . . وهما معاً تكونان أحد المباني التي تستهدفها في بناء حياتنا الجديدة ، وهما من ذلك الضرب من المفاهيم التي يكون الناس منها على درجة وسطى بين « الجهل والعلم » ، ومنّ ذا لا يستخدم كلمة « إرادة » وكلمة « تغيير » في حديثه الجاري وهو على بعض العلم بما تعني هذه الكلمة أو تلك ؟ ١ . . (١٤٥) .

ويتتهي من تحليله إلى أنه لا انفصال بين الإرادة والعمل ، حتى ليصبح من اللغو أن نقول عن إنسان أنّ له « إرادة » لكنها لا تجد العمل الذي تؤديه ، ولا كنت كمن يقول إنه يأكل ولا طعام أو يشرب ولا ماء !

الإرادة هي نفسها العمل الذي يحقق الهدف ويزيل ما قد يحول دون تحقيقه شريطة أن يكون الهدف هو هـذلك أنت ، والا كنت آلة مسخرة في يد صاحب الهدف ، أنك في العمل الإرادي أنت الأمر والمأمور ، إنك وأنت تعمل العمل الذي تسعى به إلى تحقيق أهدافك فأنت عندك بجميع سلوكك تجسيد للإرادة وتنفيذها . . (١٤٦) .

وهكذا نجد أن قولك « إرادة التغيير » لا يزيد شيئاً عن قولك « الإرادة » . لأن هذه لا تكون بغير فعل ، ولا فعل بدون تغيير ، فسواء أكان التغيير الحادث شيئاً أم جسيماً فهو تغيير ، لأنك لا تفعل الفعل في خلاء ، بل لتحرك به شيئاً فيتغير مكانه . وباعتصار كل ارادة فعل ، وكل فعل حركة وتغيير ! ومن ثم فلا ينبغي أن نتحدث عن « إرادة التغيير » بل عما نريد تفسيره ، أو الهدف الذي من أجل تحقيقه تغير ما تغير ، وهو يقترح أن يتجه التغيير إلى المبادئ والقيم التي تسود حياتنا ويضرب لها مثلاً بالترتيب بين العلم والخاص « فنحن بما ورثناه من تقليد اجتماعي أحرم ما نكون على « الملك الخاص » ، وأشد ما نكون إيماناً « للملك العام » كما هي الحال في الناية الواجبة بالابن والعناية الواجبة بالمواطن البعيد . والعناية بتنظيف الدار من الداخل

١٧ (١٤٥) لي حياتنا العقلية ص ١٧

١٨ (١٤٦) المرجع نفسه ص ١٨

١ - أبناء القرية في تمسكهم بأخلاق الريف الزراعي يعلون أنفسهم أسرة واحدة أو كالأُسرة الواحدة ، ومن هنا كان مصدر صلاتهم ، لكن من هنا أيضاً كان مصدر التخلف الحضاري عندهم ، ذلك لأن الشعور الأسري هو في الأساس مصدر « المحسوبة » . فيكفي صاحب الحكم أن يعلم أن بينه وبين فلان تلك العلاقة الوثيقة ليجعله « محسوباً » عليه بما يلزمه إلزاماً خفياً أن يسأله ولو بغير حق ، وهي مسألة غالباً ما يجيء ثمنها أن يدين المحسوب لوبي نعمته بالولاء . . . وهكذا تظهر النتائج الضارة . ١

٢ - العلاقة بين أفراد القرية قائمة على ما تقيسه روابط الدم - أهني روابط القرى - وكثيراً ما يكون ذلك صل حساب للمصلحة الضمنية التي تجاوز القرية وأبنائها ، فالخضارة الصناعية أدت إلى أن تجمع ألوف العمال في مصنع واحد ، بل ويسكنون عادة في حي واحد ، مما أدى إلى علاقات اجتماعية من نوع جديد هي العلاقات التي تتمثل في التفانيات وسرعان ما يصبح الهدف المشترك لا خدمة أسرة واحدة ، بل خدمة حرفة صناعية معينة ، وخدمة القائمين بها . وهنا تنبهر معاني طائفة كبيرة من الألفاظ الخلقية كالعدل والكرامة والتعاون^(١٥١) .

٣ - إذا كان في الدعوة إلى أخلاق القرية وروايتها تشجيع الخيال ، فإن فيها الكثير من جوانب القصور :

والعناية بتنظيف الطريق العام ، بين المال الذي تملكه والمال الذي تملكه الدولة ، بين العيادة الخاصة يديرها الطبيب الذي يستغلها ، والمستشفى العام يديره الطبيب نفسه - ولكنه يديره باسم الدولة^(١٤٧) . وقُل مثل ذلك في معاني « إبله » و « الصدارة في المجتمع » والزهر بعمد الخضر للقانون . . الخ^(١٤٨) .

(جـ) أخلاق القرية

وعندما تحدث الرئيس السادات عن أخلاق القرية^(١٤٩) زاعماً أنها الأخلاق المثل ، وأنه يريد أن يعود بالمجتمع إلى مثل هذه « الأخلاق الرفيعة » - تصدى مفكرنا الكبير لتحليل الفهم الغريب لأخلاق القرية . وكان مما قاله « إن أخلاق القرية هي الأخلاق التي أفرزتها الحضارة الزراعية الرفيعة ، ويقدر ما نريد المحافظة على شيء من هذه الحضارة تكون الحكمة في المحافظة على أخلاقها . غير أن الاتجاه العام الذي يسود عصرنا هو تحويل القرية إلى مدينة لا تحويل للمدينة إلى قرية ، فالأقرب إلى التصور أن يتحول الفلاح إلى عامل زراعي بكل ما تحمله كلمة عامل الآن من حقوق في الأجور والتأمينات والانتباه الثقافي وغير ذلك . لقد جاءت قيم الحضارة الصناعية لتبقى وتسود وليس لنا عن ذلك محيص^(١٥٠) .

ثم يستطرد أستاذنا الكبير فيمدد « مساويء » أخلاق القرية التي يشيد بها السيد رئيس الجمهورية :

(١٤٧) في حياته المظلة ص ٧٤

(١٤٨) المرجع نفسه ص ٧٥

(١٤٩) وكذلك لما تحدث رئيس الجمهورية الخال من « الصحة » كتب مفكرنا الكبير « زهداً صريحاً وادعية » لقرى كماله لخدمة الفكر في كل من « الحرة » و « ص ٢٩١ وما بعدها

(١٥٠) أفكار ومواقف ص ٢٦٩

(١٥١) المرجع نفسه ص ٢٧١

والاجتماع والسياسة . . فضلاً عن مضمون الألب دون الشكل ، ومضمون الفن التشكيلي وشكله معاً عند مَنْ يطالبون الفنان بأن يحمل فنه رسالة في الاقتصاد والاجتماع^(١٥٥) .

(هـ) الطاغية :

لست أرى أن أنهي هذا القسم بأفكاره ومفاهيمه السياسية قبل أن أتحدث بسرعة عن تحليل مفكرنا الكبير المولد الطاغية كيف يكون ؟ فهو يراقب عصفوراً جاء يلتمس حبات أرز وضعت في وعاء في الشرفة الخارجية للمنزل ، فها أن حطَّ العصفور على مقربة قريبة من الأرز حتى أخذ يتلفت بحركة سريعة هنا وهنا قبل أن يقدم على التقاط الحبة كما أراد أن يستترق من غيبة الرقيب حتى إذا اطمنن بعض الشيء خطا خطوتين في حذر شديد وأصبحت حبات الأرز على ملقط منه ، لكنه مع ذلك تريت لحظة وراح من جديد يلتفت بئمة ويسر فلياً لم يجد ما يتلذذ بالخطر التقط حبة واحدة بلقطة سريعة ثم سكن لحظة وعاد يلتفت فلياً لم يجد الا الهدوء والأمان انكب على الأرز يلتمس منه ما يملأ حوصليته وطار^(١٥٦) .

وهو هنا يصور لنا كيف يبدأ المتندي بالخن والخوف حتى إذا ما أمن مقبة الاعتداء ملأته الشجاعة ، فاقبل على المدوان بكل قدرته وهو مطمئن آمن أو قل إنه كالطمئن الآمن لا يحول شيء بينه وبين السير في الشوط إلى آخر المدى . أن سكوت صاحب الحق المتهوب

ليس فيها مثلاً مكان لدقة الزمن باعتبارها فضيلة ، فالدق ما تعرفه أن يقال صبح ، ضحى ، عصر ، وغروب ، ولذلك يضيق ابن القرية عندما تطالبه بترويت يلتزم الساعة والدقيقة . فإذا عرفنا أن دقة الزمن من الركائز الأساسية في الحضارة الصناعية القائمة ، علمنا أن أخلاق القرية لم تعد تسعف مَنْ أراد المشاركة في حضارة هذا العصر^(١٥٧) .

(د) بين الفكر ويساره

ومن المفاهيم الغامضة التي استخدمت بدلالات سياسية أيضاً « اليمين واليسار » فهما كلمتان تستعملان على نطاق واسع للفرقة بين الانكسار والمواقف والأشخاص : فهذه الفكرة من اليمين وتلك من اليسار ، وكذلك هذا الموقف وتلك ، وهذا الرجل وتلك . وكثيراً ما يوصف من وضع في زمرة اليمين بالرجعية واللاعلمية ، لأن اليسار وحده هو التقدمي والعلمي ، وليس الأمر من قلة الشأن بحيث تتركه كحصى بغير تحديد . . . (١٥٨) .

ويتهي من تحليله لهذين المفهومين إلى نتيجة : « أراها مخومة حتى وهي أن ليس هناك فواصل فارقة في ميدان الفلسفة بين يمين ويسار ، وكذلك لست أعتقد أنه يطوف لأحد يسال أي يكون في « العلم » يمين ويسار . . (١٥٩) » .

لكن هذه التفرقة تكون واضحة في مجال الاقتصاد

(١٥٧) أفكار ومواقف ص ٢٧١

(١٥٨) دي حبات القليلة ، ص ٨٨

(١٥٩) المرجع نفسه ص ٩١

(١٥٥) المرجع نفسه ص ١٠٠

(١٥٦) أفكار ومواقف ص ١٦٥

المسألة عند هذا الحد لسان الأمر ، لكنه يتقلب « متطرفاً » اذا هو أراد أن يحمل الآخرين بالقوة . كاتبة ما كانت صور القوة على مشاركتها فيها يتخذ (١٥٨) .

ويستهي مفكرنا الكبير من تحليله لفهوم التطرف الى أن هناك أربع خصائص للمتطرف في مجال الدين أو في أي مجال غير الدين هي : -

أولاً : سمة أساسية للمتطرف وهي سمة تؤخذ عليه أن يقوم بلهيب الآخرين لأرغامهم على قبول ما يدعو إليه هو وزمزمته ، وفي ذلك الارهاب يسكن جوهر التطرف ، فليست المسألة أن يختار لنفسه وجهة نظري الألكار والمواقف من خلالها ، وإنما المسألة أنه يريد أن يُرغم الآخرين بالقوة على الأخذ بها . فقد كانت وجهة نظر « الخوارج » مثلاً غالياً عما يؤخذ عليهم ، ومع ذلك فقد نفرت منهم الأمة الإسلامية ، لماذا . . . ١٩ . كانت العلة في تطرفهم هي اللجوء الى القسوة العنيفة إرهاباً لكل من وقعت عليه أيديهم حتى يوافق على وجهة نظرهم ، وإذا لم يفعل قتلوه بأنفطع صدور القتل وأبشعها ، مع أنهم كانوا لا ينقطعون عن عبادة الله لحظة واحدة . ويدعون الصلاة حتى لقد كانوا يعرفون بما كانت تنقرح به جباههم من السجود على حصى الأرض العارية (١٥٩) .

ثانياً : إذا كان اتخاذ الارهاب وسيلة لأرغام الخصوم هو العلامة الحاسمة التي تميز المتطرف عن سواه ، كان عمالاً أن يلجأ إليه إنسان قري واثق بنفسه وعقيدته وإنما

سرعان ما يجعل الناهب صاحب حق في الاعتداء : « والقاعدة التي أريد أن أضمحها بين يديك هي أنه حيثما فرط إنسان في حقه ظهر لذلك الحق طاغية يستبد به (١٥٧) » .

المجموعة الثانية : مفاهيم دينية

(أ) التطرف الديني ،

في تحليله لهذا المفهوم مثال واضح لارتباط التحليل عنده بما يظهر في حياتنا الثقافية أولاً بأول من مفاهيم وأفكار ، فهو يستخدم الفاعلية الفلسفية فيها يظهر على سطح هذه الحياة من أفكار أي كان لونها ، فعندما بدأ الناس يتحدثون عن « التطرف الديني » كتب في الحال « متطرف تحت المجهر » ، يحاول أن يسأل مع الناس عن معنى هذا التعبير وتكون الأجابة عنده على النحو التالي :

ان علينا بادئي ذي بدله أن نفرق بين طرفين : « الدين » كما هو قائم في الكتب السماوية من ناحية ، « والمشتدين » بذلك الدين من جهة أخرى ، فيينا الكتاب واحد فإن المتدينين به كثيرون ، وليس هو من الأمور الشاذة في طبيعة الناس أن يختلفوا في طريقة فهمهم لنص واحد قرأوه . وهذا ما حدث للمسلمين ، فهم متفقون على الكتاب الكريم لكنهم يختلفون في فهمهم لبعض آياته ، ومن هنا نشأت المذاهب المتعددة ، ومن ثم يكون معنى التطرف أن يأخذ المسلم بطريقة معينة في الفهم ، أو يعلجهم معين ، ثم يعلن أنه هو وحده الصحيح ، وقد أخطأ الآخرون ، ولو وقعت

(١٥٧) المرجع نفسه ص ١٦٨

(١٥٨) « رؤية إسلامية » - ص ٣٦٤ .

(١٥٩) « رؤية إسلامية » ص ٣٦٥ .

نراه غداً متطرفاً في رؤية شيوعية ، أو العكس ، مع أن الاسلام والشيوعية ضدان لا يلتقيان (١٦٢) .

(ب) فلسفة الشهادة :

ماذا تعني شهادة : « لا إله إلا الله » التي هي أصل ثابت في حياتنا الدينية والثقافية ؟ ! هي من الشجرة العقلية بمثابة الجذع وجذوره ثم تثبت الفصوص وتنمو وتورق فهي شهادة تدل - من بين ما تدل عليه - على ثلاثة أركان دفعة واحدة تكفي وحدها لإقامة هيكل ثقافي كامل لو كسونه لحماً لأصبح حياة فكرية تحمل طابعاً يميزها عن كثير مما عداها ، فهي تدل على ذات آلمية مشهورة ، وذات إنسانية شاهدة ، وبمجموعة من الأفراد الناس تتم الشهادة في حضورهم :-

(١) - أول ركن تدل عليه الشهادة ، وجود الذات الإلهية ، التي تشهد أن ليس ثمة من آله سواها ، ثم نجد لهذه الذات صفات كثيرة تتوحد في نسق واحد ، هي ما نطلق عليه أسماء الله الحسنى ، وهذه المجموعة من الصفات هي الله على نحو مطلق ، وهي كذلك للإنسان على نحو نسبي ، أي أن المسلم لا بد أن يعمل على أن يكون في حياته علماً فريداً قديراً مهيمناً عزيزاً جباراً .. الخ وكانت شهادته باللفظ دون المعنى .

(٢) - أما الركن الثاني الذي تتضمنه الشهادة فهو وجود الـهيات الانسانية الشاهدة ولا بد من الوقوف المتأمل عند « الذات الانسانية » هذه لنرى متى يتحقق ونجودها وكيف ؟ ! إنه مهما يكن من أمر التشابه

يلجأ إليه مَنْ به ضعف في أي صورة من صوره - لماذا ؟ ! لأن الإنسان إذا أحس في نفسه ضعفاً غلكه الحُرف من أن يطغى عليه أصحاب المواقف الأخرى وكأي خائف آخر ترى المتطرف هلعا جزواً يسرع الى أقرب أداة للفتك بخصمه اذا استطاع قبل أن تسنح الفرصة أمام ذلك الخصم (١٦١) .

ثالثاً : لا يتطرف بالمعنى السابق الا مَنْ حل على كتفيه رأساً فارغاً وخاوياً اللهم إلا أضغاثاً دفع بها الى ذلك الرأس عن فهم أو عن غير فهم . وذلك لسببين :

الأول : أن تكون الأفكار التي شحن بها رأسه غير علمية لأن الفكرة العلمية مقطوع بصوابها ،

الثاني : أن ما يمتلئ به رأس المتطرف ، مادام لا يمت الى العلم بصلّة ، لا بد أن يكون فيه الخصائص المضادة للعلم ، ومنها « حرارة الانفصال » وضموض المعنى واحتمال أن تتعدد فيه وجهات النظر (١٦١) .

رابعاً : السمة الأخيرة أن المتطرف ، في الواقع ، حالة من حالات التكوين النفسي ، ولا نقول إنه وجهة نظر إلا من باب التسامح ، وإنما هو في حقيقته البغينة « حالة نفسية » - تجعل صاحبها على استعداد لأن يتطرف وكفى ! فليس المهم هو الموضوع الذي يتطرف فيه ، بل المهم في تكوينه هو أن يتطرف للمتطرف في حد ذاته ، ومن هنا رأينا أمثلة كثيرة لمتطرفين يفقزون بين يوم وليلة من تطرف في فكرة الى تطرف في الفكرة التي تناقضها ، فتراهم متطرفاً في رؤية إسلامية معينة ثم

(١٦٠) - المرجع نفسه ص ٢٦٦

(١٦١) - رؤية إسلامية ص ٣١٨ .

(١٦٢) - أفكار وبرايد ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

لكن ماذا تعني بكلمة « الضمير » ؟ ! تعني بها ما استخلصناه لأفئتنا عما وعيناه وعشله : إما من خبراتنا المباشرة أو مما علمنا إياه أبائنا وناومعلمونا « فاضمرناه » في نفوسنا لنحمله معنا أينما توجهنا ، فنكون بمثابة مَنْ يعمل معه دليلًا هاديًا يرشده إلى سواء السبيل إذا ما أشكل عليه الأمر^(١٦٥) .

فما هو المبدأ الذي يستخلصه المسلم من أحدية الله ويضمّره في صدره ليكون مرجعه في مسلك حياته ؟ ! كيف نحول عقيدة « التوحيد » بالتربية إلى « ضمير » يكون به المسلم مسلماً فيما يدع وفيما يختار ؟ ! هذا المبدأ هو أن يختار الفعل الذي يتسق مع خبره في بناء شخصية موحدة . فالتوحيد الإسلامي هو في أعماله تناسق في حياة الإنسان الأخلاقية ، بمعنى أن تنظم مجموعة القيم الروحية في ترتيب معين يبين أيها أولى من أيها إذا ما تعارضت في موقف معين ، ومن ثم فعقيدة المسلم إذا ما رسخت في صدره ضميراً يهديه إلى جادة الطريق ، ضمنت له ألا تتعدد معايير الأخلاقية ، فمعيار أمام ولي الأمر ومعيار آخر أمام الناس ومعيار ثالث يقيمه حين يخلو لنفسه ! إننا إذا استطعنا قربة هذا « الضمير » الداعي « عند أبائنا وبناتنا كان ذلك دعواً تحمدهم من أن يذلّ صغيرهم لكبيرهم أو أن يذلّ فقيرهم لغنيهم أو أن يذلّ محكوم لحاكم^(١٦٦) .

(٤) مفاهيم متفرقة :

هناك مفاهيم دينية كثيرة تعرض لها مفكرنا بالتحليل والتشريح ، من ذلك مثلاً التفرقة بين « الفكر

والتجاسس بين أفراد البشر فلن يكون الفرد الانساني ذاتاً » ، الا اذا بقيت له بقية يختلف بها عن جميع مَنْ عدها ، وهي بقية لها كل الأهمية والخطورة لأنها هي التي تجلّد هويته ، وهي التي نعلها مسئلة أمام الله والناس وهذا الجانب الفريد من كيان الانسان هو الذي « يشهد » ألا إله إلا الله^(١٦٧) .

(٣) - يبقى الركن الثالث المتضمن في « الشهادة » أعمى به وجود الآخرين الذي هو ركن أساسي في حياة هذا الانسان ، ولك أن تقدر الفرق الشاسع بين إنسان يتصرف كما لو لم يكن في الدنيا إنسان سواء ، وآخر يضع في اعتباره عند كل خطوة خطوها ، وكل فعل يؤديه أن هناك آخرين اعترف بهم ضمناً حين شهد ألا إله إلا الله ، وهكذا نشأ لنا هن أصل واحد ضروب ثلاثة : الحقيقة الدينية ، والفردية الانسانية ، وروابط المجتمع^(١٦٨) .

(حـ) الضمير الديني :

الغاية التي يجب أن نستهدفها من التربية الدينية هي إيجاد ذلك الضرب من الوجدان الديني الذي من شأنه أن يبدي صاحبه كلياً جُذُءً موقف في الطريق - إلى اختيار السلوك الذي يعينه على تكامل شخصيته تكاملاً ينم عن وحدانية تلك الشخصية ، لأن ما يحقق إسلام المسلم هو في المقام الأول ، أن يجسد في شخصه رسالة الاسلام - و « التوحيد » من تلك الرسالة هو في صميم الصميم .

(١٦٣) - لكثير ومواقف ص ٢٥٩ .

(١٦٤) - المرجع نفسه ص ٣٦٠ .

(١٦٥) - فهم من هزئت ص ١٠٠-١٠١ .

(١٦٦) - المرجع نفسه ص ١٠٣-١٠٥ .

فاعلية عقلية تقوم على الدين . ولقد لبث الإسلام « ديناً » للحؤمنين « يتدينون » بعبادته وتعاليمه قبل أن يظهر الفقهاء ليقموا عليه العلم بمنهج التفكير العلمي . وعندما نزلت الآية الكريمة : « اليوم أكملت لكم دينكم » .. « كان قد كمل دين الاسلام ودخل الناس أفواجاً ولم يكن قد كُتِبَ بعد سطر واحد في أي علم من علوم الدين ، مما يقطع بأن الدين نفسه شيء ، والمتدينون به شيء ثان ، والعلوم التي تقوم عليه شيء ثالث » (١٦٩) .

ولك أن تقرّ مقال « الشيطان الأخرس » لترى كيف كان يتصدى مفكرنا للمفاهيم الدينية الحافظة بالتحليل والتضيق فور ظهورها في الصحف اليومية - فلونشر واحد من أكمة الدين في جريدة الأهرام « أن رجال الشريعة قادرين على أن يقولوا كلمتهم في كل شيء » - يكون تحليل مفكرنا « لو كان الأمر كما قال القائل لوجب منذ الغد أن تغلق الجامعات جميعاً ومراكز البحث وغيرها مما يريد أن يبلغ شيئاً من الحق لا ينبغي إلا على كلية الشريعة لأنها تملئنا « كل شيء » .. » (١٧٠) .

المجموعة الثالثة : مفاهيم قومية وأفكار وطنية

(أ) العروبة

في اعتقادي أن مفكرنا الكبير كان متحمساً لمعمل « العروبة » مفهوماً ثقافياً ، وليس فكرة سياسية ، فقد كتب يقول : « ليست عروبة العربي قراراً سياسياً تصدره مؤتمرات القمم أو مؤتمرات السفوح والوديان .. بل هي مركب ثقافي يعيشه في حياته اليومية ولا يستطيع العربي نفسه أن يسلخ عنه إذا أراد .. وأن يعيده إليه إذا أراد .. لا .. ليست عروبة العربي

الاسلامي » من ناحية ، « وفكر المسلمين » من ناحية أخرى ، فلكي يكون الفكر إسلامياً لا بد أن يكون متصباً على مسائل متصلة بعقيدة الاسلام وشريعته . منها مثل وجود « الله » وصفاته كالأحادية ، والعدل والقدره والعلم .. الخ كذلك فكرة الإمامة ، خلق القرآن .. الخ الخ . لهذا هو الفكر الإسلامي الذي ينصب على موضوعات متعلقة بالعقيدة . إلا أن المسلمين كان منهم علماء ذوو فكر إنساني عام لا يتقيد بصفة - تقصره على ديانة دون ديانة أخرى - وهما هنا ترى للمسلمين فكرة في شق نواحي العلم والمعرفة مما لا يختص بالعقيدة والشريعة وليس فيه من الاسلامية إلا إسلام صاحبه مثل عالم الرياضة ، وعالم الفلك ، وعالم الكيمياء والصريات والطبيب والمهندس بل وتستطيع أن نضيف أنواعاً أخرى مثل كتاب الرحلات ، ونقد الأدب ، وعلم الحيوان والنبات .. الخ كل ذلك ضروري من العلم والمعرفة قام بها مسلمون حتى أصبحت جزءاً هاماً في تسمية بالتراث العربي - إلا أنه لا يتدرج فيها تسمية بالفكر الإسلامي .. » (١٦٨) .

ومن المفاهيم الدينية التي عالجها أيضاً « الدين » و « التدين » و « علوم الدين » ، عندما رأى خلطاً في رؤية الناس لها حتى أهل التخصص منهم « فالدين قائم في نصوصه للمحدث .. ثم يأتي الطرفان الآخران : مَنْ يؤمنون بذلك الدين وهم مَنْ يصفونهم « بالتدين » ثم علوم الدين التي تقام على النصوص كما سبق أن رأينا . فعلم الدين لا هو « الدين » ولا هو « التدين » إنما هو

(١٦٧) - في الحديث الثقافي للعربية ص ٥٨٨ وما بعدها .

(١٦٨) - المرحع السابق ص ١٦٦

(١٦٩) - فهم من التراث ص ١٥٢

(١٧٠) - تفكير وحوادث ص ١٧٩ - ١٨٠ .

ثالثاً : وثالثه الخصائص إيمان العربي بأن الحضارة الصحيحة إنما تدار على محور الأخلاق وليس للمهم فمين هذبت الحضارة أن يكون قوياً بسلحه ولا قادراً بماله ، بل المهم هو أن يقوم التعامل بين الإنسان وربه . والإنسان والإنسان على أنماط رسمتها السهال لأهل الأرض . ومن هنا كان جوهر العروية الاعتقاد بأن الخالق يشاء ويأمر والمخلوق يطيع بغير سؤال !

رابعاً : ليس عند العربي مقابلة بين واقع ومثال ، بل بين « واقع » و « واقع » فكلية مثال العربية تعني كأننا مثلاً أمامنا نراه ونلمسه . وأما كلمة « واقع » فهي تعني « الوقوع » الذي هو المهبوط والسقوط . ومن هنا كان العربي يقصر نظرته على دنيا الكائنات الفعلية يوازن بين بعضها وبعضها الآخر وهي بأجمعها « واقع » سواء في ذلك ما هو أدنى وما هو أعلى !

لكن علينا أن نلاحظ أن تحديد تلك الخصائص لا يعني أن نحاول تغيير ما نريد تغييره منها ، فقد أردنا فقط أن نقول « إن عروية العربي هي وجوده الثقافي التميز - فهي لا تمنع بقرار كما قد يتوهم الواهمون » (١٧٧) .

(ب) الشخصية المصرية

لا تتناقض بين عروية العربي من جهة وبميزاته الإقليمية من جهة أخرى ، فالفلسفي مصري وعروبي معاً ، كما يكون السوداني سودانياً وعروبياً ، والعراقي عراقياً وعروبياً في آن . . . فليس حل هذه الأرض إنسان واحد وحداني الانتهاء ، وإنما الأمر في هذا يشبه الدوائر التي تتدوج اتساعاً (١٧٨) . وإذا صح ذلك فما هي أهم الخصائص المميزة للذات المصرية . . . ؟

قميصاً يلبسه إذا شاء ويخلعه إذا شاء ، بل هي خصائص توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لرون الجلد والعينون . . . (١٧٩) . فما هي هذه الخصائص :

أولاً : أولى خصائص العروية لغتها على أنه لا يكفي في هذا الجانب بأن تكون لغة الكلام والكتابة عربية ، فالأوروبي الدارس للغة العربية قد يتكلمها ويكتبها ومع ذلك لا تدرجه في العروية ابتناً من أبنائها . . . إذ المهم هنا هو اللغات العقلية أو الإدراكية العميقة التي تكمن في كيان العربي ، فتقبل به إلى اكتساب الصفات المختلطة في اللغة العربية . فمن خصائص اللغة العربية مثلاً أنك إذا عرفت الأصل اللاتيني عرفت كيف تفجر منه شجرة المشتقات على كثرة فروعها ، فإذا عرفت كلمة « كتب » فجرت منها كاتب وكتاب وكتابة وكتوب . . الخ فكأنها ألفيلية أو العشرية بتعدد أفرادها لكن هؤلاء الأفراد يمتنون إلى رأس واحد . . .

ثانياً : ثمانية الخصائص ميل العربي إلى الغز السريع من الأفراد الجزئية إلى مجرئها وتعميمها في أنواع وأجناس ، فهو لا يسم هذا الطائر الممين بل يكتفي أن يعرف الطائر في عمومته من حيث هو نوع . . إن العربي في تكوينه العقلي لا يحب كثيراً بالأفراد أو المفردات ، وإنما يريد « الخلاصة » العامة المجردة ليسهل حملها معه وهو مسافر في الفلاة على ظهور الأبل ! ولقد بلغ ميل الشاعر العربي إلى التجريد حداً جعله إذا تغزل في امرأة لا يقصد امرأة بعينها ، بل إن غزله منصب على « نوع » المرأة بأسره ، وكذلك إذا وصف جواداً أو بعيراً أو ما شئت (١٨٠) .

(١٧١) - حرم الخليلين ص ١٢٠ - وأما أيضاً خصائص أخرى للشخصية العربية « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٤٤ وما بعدها . ولأشياء في طرفة العروق ، ص ٣١٠ وما بعدها .

(١٧٢) - حرم الخليلين ص ١٣٣ - وأيضاً « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٦٤ .

(١٧٣) - حرم الخليلين ص ١٣٧ - وأيضاً « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٦٤ .

(١٧٤) - حرم الخليلين ص ١٢٠ .

والوجدان » ، ولقد ساعده على هذا الجمع بين الجانبين في شخصية واحدة متكاملة أنه نموذج فريد يجمع في صيغة حضارية واحدة خصائص فلاح الأرض وبدواة الصحراء ويجتمع المدينة^(١٧٨).

لكن أين يأثر نجد ذلك المصري الذي هو « صانع وعابد » في آن معاً ؟؟ يجيب « أنك تراه فيما صنعت يده ، تراه في كل مسلة قُلت من الصخر العتي بأزمن عبقري جبار ، وارتفعت برأسها نحو السماء ، وكأها كلمة دعاء في صلاة . ! إنك تراه في اختناؤن يشهد أن الله واحد وراء كثرة الظواهر على الأرض في السماء ! إنك تراه في راهب الدير الذي يزرع ويعبد الله في حياة واحدة ، أنك تراه في المساجد ومآذنها ، التي لا تدري وأنت شاخص ببصرك إليها في روعة بنائها ، أي صلاة تجسدت في عمارة أم هي عمارة ذابت في صلاة^(١٧٩) . »

(أ) الولاء للوطن

عندما شاهد في التلفزيون جماعة من الشباب يحضف بالفداء بأرواحها ومآثها « ولاء » لهذا أو ذاك - شعر أن في هذه الصورة شيئاً يشير العلق ويشغل التصحيح^(١٨٠) . فيكتب على لسان سقراط : « إن الولاء لا يكون لشخص ، وإلا فملاذ لو غاب هذا الذي أعلنت له إخلاصك ؟ أتصبح بغير إخلاص لأحد ؟؟ إن الولاء الصحيح بأصله لا يكون لشخص بقدر ما يكون لقضية معينة أو لفكرة أو لمقيدة دينية ، أو غير ذلك مما يحيا من أجله الإنسان ويشعر ألا حياة له بغيره . . »^(١٨١) . ثم يحلل معنى الولاء ليجد أنه في

أهمها عمق الشعور الديني ، وبتوجه عند المصري اتساع النطاق الذي يتعامل فيه مع « الغيب » ، أما بالآمان الرشيد أحياناً ، وإساً بتهاورم الخرافة أحياناً أخرى^(١٨٢).

ثم نحيي بعد ذلك خاصة اتصاله الأسري . وهو انتهى لا يفت معه عند حدود « الأسرة النواة » كما يصفها كثير من كتّاب الغرب اليوم بمعنى والدين والأخوة ، بل يوسع المصري من حدود الأسرة التي يشتد به الانتهاء إليها لتشمل كذلك أبناء العمومة والحزونة ومن يتصل بهم^(١٨٣).

ثم يتميز المصري كذلك بحبه لأرضه ليس فقط من حيث هي أرض يزرعها ، بل من حيث هي كذلك أرض يتصل بها ولادة ونشأة وفدي قري . . ولقد تفرع عند المصري من عمق إيمانه الديني وقوة انتمائه لأرضه وأصله ، حب يشبه الحب الصوفي للعمل الذي يؤديه ، زواجة كانت أو صناعة ، وأعني بالحب بالصوفي هنا حباً للشيء في ذاته ولذاته لا للأجر الذي يترتب عليه^(١٨٤).

ثم يلخص مفكرنا مفتاح الشخصية المصرية في عبارة موجزة هي « المصري صانع عابد » يتعامل مع هذه الدنيا وكأنها بحواسه وجوارحه ، ويتعامل مع الغيب بقلبه وإيمانه ، وهو واقعي في الحالة الأولى صوفي في الحالة الثانية ، هو مادي في أحد جوانبه روحاني الجانب الآخر . وكان مفكرنا يريد أن يقول أن شخصية المصري مثال حديث للصيغة التي اقترحها حلالا لشكلتنا الثقافية المعاصرة وأعني بها صيغة الجمع بين « المعقل

(١٧٨) - في مرقى الطرق ص ٣٧٤ .

(١٧٩) - المرجع نفسه ص ٣٧٩ .

(١٨٠) - المرجع نفسه في الصفحة نفسها

(١٨١) - في مرقى الطرق ص ٣٧٩ .

(١٨٢) - المرجع نفسه ص ٣٨١ .

(١٨٣) - تم من التراث ص ٣٨٥ .

(١٨٤) - تم من التراث ص ٣٨٩ .

بل يكفي أن نقول أنه كان يتلفم ما يظهر في حياتنا الاجتماعية من أفكار وقيم يقوم بشرحه بنفس الفاعلية العقلية التي قلنا لها فيما سبق مجموعة من الأمثلة . ولقد كتب عما أسماه « بالردة في عالم المرأة » ورسم لها صورة في غاية الأهمية ، ذهب فيها إلى أن « أبشع جوانب الردة في حياة المرأة اليوم ليس هو أنها تريد أن تتعلم إلى آخر المدى فيمتعها أحد ، وليس أنها تريد أن تعمل بما تعلمته فيمتعها أحد . . وإنما الجانب البشع من تلك الردة هو أن المرأة اليوم تريد أن تجعل من نفسها ويمض اختيارها حريماً يتحجب وراء الجدران أو يتستر وراء حجب ويراقب ، وكأنها الفريسة السهلة تخشى أن تتخطفها الصقور ، أما أن تحصن نفسها بشوة السروج ، وبالشعور ، بكرامتها وإنسانه وأعية مستترة ، فملك زمن أورشك على الشهاب مع ذهاب رائدات الجيل الماضي . ألا ما أبعد الفرق في حياة المرأة المصرية بين الليلة والبارحة ، ففي بارحتها ألقت بحجابها في مياه البحر عند شواطئ الإسكندرية^(١٨٤) إبدأناً بدخولها عصر النور ، وأما في ليلتها هذه فباختيارها تطلب من شياطين الظلام أن ينسجوا لها حجاباً يرد عنها غيرة النهار . . »^(١٨٥).

(ب) الرأي العام

ولعل من أجل التحليلات التي قام بها في الميدان الاجتماعي تحليله لفكرة « الرأي العام » الذي وصفه بأنه « الإله الزائف الجديد » وقال عنه أنه « ذوجين » وهو يوجه منها لا عيب فيه إذا زعزت عنه شوكه التالي ، ولكنه يوجهه الآخر الذي يتسلح فيه بتلك الشوكه

حقيقته يتضمن أساس الأخلاق كلها . . أما سر الولاء فهو أن الفرد يشعر عن عمق وجدانه أنه لا يستطيع العيش وحده فريداً في هذا الكون الفسح ويريد أن يجد « آخر » يتحد معه ليوسع من وجوده ، فلذا وجد لها « الآخر » تمسك به وأخلص له ، ومن هنا كان الولاء ضرورة حيوية لكل ما من شأنه أن يجعل وجودنا أغزر معنى وأوسع نطاقاً^(١٨٦) . « فالولاء يكون لله لأنه مالك يوم الدين ، والولاء يكون للوطن الذي بغيره نتعلم أهم أركان الحرية في هذه الدنيا ، والولاء يكون لأي مجموعة تمثل فكرة لها دوام ، وانتمى إليها عضواً فيها عاملاً مع غيرها على تحقيق هذه الفكرة . . »^(١٨٧) . وهكذا تندمج الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية كلها . . الخ .

لكن ماذا نحن صانعون إذا تمارس ولاء وولاء ، كان يتعارض في موقف معين ولاء فرد لأسرته وولاءه لأمة ؟ الجواب : أن نختار الطريق الذي يتيح للفرد تكاملاً في شخصيته بدرجة أعلى ، فهل يكون انساناً أكمل إذا هو انتمى إلى أسرة قوية وأمة ضعيفة ، أو إذا انتمى إلى أسرة ضعيفة وأمة قوية ؟ الإجابة تكاد تدل على نفسها وهي أن البديل الثاني أفضل وأكمل وأسمى ، ومن هنا لك أن تسأل نفسك : أم يكون الولاء والتضحية بدمائنا وأرواحنا مصري أم مصر ؟^(١٨٨) .

المجموعة الرابعة :

(أ) وضع المرأة

لا تريد أن تسهب طويلاً في أمر المفاهيم الاجتماعية

(١٨٦) - قيم من التراث ص ٣٨٩ .

(١٨٧) - قيم من التراث ص ٣٩٠ .

(١٨٨) - المرجع نفسه ص ٣٩٢ .

(١٨٩) الأشرة هنا إلى حادثة مشهورة في تاريخ الحركة النسائية المصرية ، ملخصها أن عدلى شعراوي عند عودته من رحلة لها في الخارج ، وكان ذلك عقب ثورة ١٩١٩ . ذهب حشد كبير من النساء لاستقبالها في ميناء الإسكندرية وأرست من الرضعة ، وهي على ظهر السفينة ، ثم ألقت برمها في البحر قبل أن تزولا إلى الشاطئ (١٨٩) في مفرق الطريق ص ٣٩٩ وما بعدها وانظر في وضع المرأة أيضاً « رسالة المرأة » مطبوع في المكتب نفسه ص ٤٤ وما بعدها

بعد أن خرجت أوروبا من العصور الوسطى حيث أقام رجال الدين من حيلة الرهبان مثلاً أعلى ، فالزهد في الدنيا ، لا الإقبال عليها ، هو ما ينبغي للإنسان الكامل أن يتشدد به ، وذلك لأن عقيدتهم تسمح لهم بأن يفصلوا بين الأرض والسما ، بين الدنيا والآخرة ، في الأولى تكون السيادة لقيصر وفي الثانية يكون الأمر لله .

فما لنا نحن بهذا كله وليس في عقيدتنا ما يدعونا إلى إهمال هذا العالم . . ١٩ بل العكس هو الصحيح ، فقد أمرنا بأن نحفظ بالدنيا وكأننا نعيش فيها أبداً ، وأن نعمل للآخرة كأننا منتقلون إليها غداً ! ، تلك هي العلمانية التي لم تكن تحتاج منا إلا أن نفتتح لها العين فإذا هي جزء من حياتنا ، ومقومٌ جوهري من مقومات تاريخنا في فترات عزه وعجده ، فمن الذي يجاربه أولئك الذين ركبوا جيادهم ، وحلوا قسمهم ورواحهم ليقاوتوا « العلمانية » حتى يقتلوه . . ١٩٠ « (١٩٠) . لكن إذا كانت مقاومة من يقاوم العلمانية بفتح عينها مصيبة أعظم فيمن يقاومونها بكسر العين ، لأن عينها إذا كسرت كانت الإشارة عندئذ إلى العلم وعمل الحياة التي تقيمها العلوم : « فهل يرضيكم - أيها السادة - أن نزرع أروغنا بغير علم ، وأن ندير مصانعنا بغير علم ، وأن ننشئ مدارسنا وجامعاتنا بغير العلم ، وأن نعد عدتنا العسكرية بغير العلم ؟ هل يرضيكم أيها السادة أن فنحو أساء العلماء من تاريخنا فلا يكون فيهم بعد اليوم جابر بن حيان ولا إسخوارزمي ولا ابن الهيثم ولا ابن النفيس ؟ وإذا رأيت في هؤلاء موضع « فخر لنا فلماذا لا تربطون لأحفادهم المعاصرين أن يعيدوا سيرهم الأولى ؟ » (١٩١) .

الرهبية ينقلب إلى طاغية يسحق فردية الأفراد مسحقاً ليحولهم إلى أشباح وظلال : « فقد يحدث أن نرى العالم من علماتنا قديراً في علمه وهو في ميدانه ، لكنه ما أن يفرغ واجبه إزاء تخصصه العلمي حتى يسرع الخطى لينخرط مع الرأي العام فيها هو غارق فيه من تهاوم قد تبلغ أحياناً كثرة حد الخرافة » (١٨٧) .

وفشئ مفكراً « عمومية » الرأي العام بقوله : « إن وجود فرد واحد لا يرى الرأي الذي هو عام ينفي عن الرأي العام عموميته ، وحتى لو كان من حق الرأي العام أن يضغط بقوته العددية في اتخاذ القرارات ، وفي استمحاب النواب الذين يتوهم عنه . . وهو حق للناس لا شك فيه - فليس له الحق نفسه في منع الآراء والأفكار التي لا تمجج جمهوره » (١٨٨) . إن الذي يربط أفراد الجمهور بعضهم ببعض في تكوين رأي عام ، يغلب أن يكون هو « الانفعال » ، لا « العقل » فالانفعال ينتقل من فرد إلى فرد بالعدوى ، أما الفكرة العقلية فينتقلها صاحبها إلى متلقيها بالإقناع ، والإقناع يحكم طبيعته عقلية فردية وليست عملية جماعية (١٨٩) .

(جد) العلمانية

من المفاهيم التي شاعت في مجتمعاتنا أيضاً ، وتعرض لها مفكرونا بالتحليل العقلي ، مفهوم « العلمانية » ، وهو يرى أنه ينطلق بفتح العين لا كسرهما ، وأنه في هذا التعريف في النطق يكمن معظم الخلط ، ولهذا يكتب مقالاً عنوانه ، « عين - فتحة - عا » . ليشد انتباه القاريء إلى أن الكلمة لا تنسب إلى « العلم » بل إلى « العالم » - وأنها جاءت بهذا المعنى من اللغات الأوروبية

(١٨٧) مقال « لمرشك من نوع جديد » ١٩ ، في كتابه « رؤية إسلامية » ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(١٨٨) المرجع نفسه ص ٣١٠ - ٣١١ . وقد بلغ القبح بعض النقاد حين جعلهم يصورون أن الرجل يدعو إلى رأي عام معين ، ١١ وأنه بذلك ينتهك ١١ ومكلاً تكون قد غلبت بهم الفكرة من أساسها وهي ألا يصور « الرأي العام » إلى فكر ينتهك حقوق الأفراد في التعبير عن رأيهم .

(١٨٩) - رؤية إسلامية ص ٣١١ .

(١٩٠) - من الحرية تحدث ص ١٨٨ .

(١٩١) - المرجع نفسه ص ١٨٩ .

الأدب وكتابة المقال الأدبي وسوف تعرض لآليه هذا بعد قليل مع غلّج من المقالات الأدبية عنه . لكننا نريد الآن أن نفرق بين الأدب بوصفه عملاً لجانب « الوجدان » ، والعلم بوصفه مبراً عن « العقل » ، فإن يختلفان وكيف يلتقيان ؟ !

أولاً : الأدب والعلم

كثيراً ما عقد مفكرنا مقارنات مطولة بين الأدب والعلم لكي يفرق بينهما من ناحية ، ولكي يباين من ناحية أخرى أصعب « الأدب العلمي » مينا أنهم يغلطون بين أمرين لا يجوز الخلط بينهما . ذلك لأننا نجد أنفسنا ، في حالة الأدب والعلم ، أمام ضربين من الكلام يختلف أحدهما عن الآخر أتم الاختلاف ويستحيل أن يتحول اليه « كما يستحيل أن تتطور الأغنام وتصبح أبقاراً » ، لا لأن الأدب متميز عن العلم بجمال أسلوبه ، مع جواز اتحادهما في مادة القول ، بل لأن الاختلاف أهم من ذلك بكثير بالمعيار العلمية من طراز « والمعيار الأدبية من طراز آخر ولن يستطيع جمال الأسلوب أن يعبر ما يبنيها من فجوة واسعة سحيقة » (٢٠١) .

ونحن هنا إنما نعود بطريقة أخرى الى ثنائية « العقل والوجدان » والى ثنائية المجالين المختلفين من مجالات

ويمكن أن نسوق ، فضلاً عن هذه المجموعات التي ذكرناها ، أمثلة تفوق الحصر لأفكار ومفاهيم قام مفكرنا الكبير بوضعها على مثالة التشريح العقلي منها فكرة « التراث » (١٩٦) و « الثقافة » (١٩٦٦) ، والفرق بين « الفرد والمواطن » والإنسان » (١٩٦٦) . ومعنى التكنولوجيا (١٩٦٥) ، « القيم الثلاث : الحق والخير والجمال » (١٩٦٦) وإرتباطها بأوجه الحياة الواعية للإنسان وهي « الإدراك والسلوك والوجدان » . وعن معنى « الهوية » في مقاله : « نالغ النار » (١٩٦٦) . وعن معنى « الفكر وحريته » ، و « وحدة التفكير » ، و « رجل الفكر ومثكلاته » (١٩٦٨) . و « العقل الحر » ، و « أزمة العقل » ، و « سلطان العقل » ، ومعنى « الروحانية » (١٩٦٩) . وعن معنى الديمقراطية (٢٠٠٠) . الخ لكن تكفي هذه القطرات من هذا البحر الزاخر لننتقل إلى جانب آخر هو « الوجدان » لنسوق كلمة سريعة عما قدمه لدينا الأدب .

القسم الثاني : مجال الوجدان

يشتمل الجانب الوجداني عند مفكرنا في الفن بصفة عامة ، والأدب بوجه خاص ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن زكي نجيب محمود هو واحد من أبرع كتّاب المقالة الأدبية في أمثنا المعاصر ، وهو صاحب رأي خاص في نقد

(١٩٦٢) - « فلسفة للفكر » فترات ثلثين عاماً و « الجيول فترات ثلثين عاماً » ١ ، في كتابه « محفلة الثقافة العربية » ، ص ٢٩٦ وميلاده . ولجسا : فترات أول الطريق ، عن آخره أتممت ص ١٠٣ ميلاده .

(١٩٦٣) - « فلاح » سؤال من الثقافة و « جوابه » ، في كتابه « قيم من فترات » ، ص ٣٢٤ . وثالثه لاند في كتابه « حرم اللغتين » ص ٢٠٠ وميلاده . و « روح الثقافة العربية » في كتابه عن آخره أتممت ص ١٠٤ وثالثه السكون وثالثه آخره . في كتابه « في مفرق الطرق » ، ص ٢٢٠ وميلاده . و « خصوصية الثقافة » . وثالثه ملقى الفصحى في كتابه ، و « حديث الثقافة العربية » . الخ الخ .

(١٩٦٤) - في حياته العقلية ص ١٢٨ وميلاده .

(١٩٦٥) - « النظر مثلاً » هذه المقالة للمسيرة : في كتابه « جميع جديد لركاب » ص ٤٢١ وميلاده .

(١٩٦٦) - مقال « قيمة القيم » في كتابه « د زاوية فلسفية » ص ١٦١ وميلاده .

(١٩٦٧) - « النظر مثلاً » نالغ النار : الأعرام ١٣ أكتوبر ١٩٨٧ .

(١٩٦٨) - « فلاح » هذه المقالات في كتابه « في حياته العقلية » .

(١٩٦٩) - « فلاح » هذه المقالات في كتابه « في مفرق الطرق » و « ثقافة في مواجهة العصر » .

(٢٠٠٠) - « حرم اللغتين » ص ١١٦ .

(٢٠٠١) - « فلاح » وثالثه : مكتبة الإنجاز للنسبة القاهرة عام ١٩٩٧ .

يكون علميا ولا يكون فناً ولا أدباً . أما الفنان أو الأديب فهو ينظر الى حالاته النفسية في حبه ليلقف منها حالة واحدة ، ثم يبرز هذه الحالة الواحدة العابرة ، وهو بذلك يصور لنا مالا يتكرر في سائر الحالات ، ولا حالاته هو الشخصية دع عنك حالات الآخرين ! ان المحب لا يشعر بعاطفة الحب على لون واحد وينعمة واحدة ، وأصدقاء واحدة ، وأثر واحد ، بل نوره ازاء حبيبته الآن بما لم يكنه بالأمس وما لن يكونه غداً ، ومع ذلك فهي كلها مواقف من حبه ، فلا يكفي أن يقول « إني أحب ، أو اني في جحيم أو نعيم من الحب » ليكون أدبيا بل يتحتم أن يخصص لنا خيوط العناصر النفسية التي جعلت حبه صحيحاً أو نعيماً ، ولو أجاد للملاحظة ، وأجاد الوصف ، لملم أن شبكة هذه الخيوط محال أن تلقي على صورة واحدة في خططين متباعدتين^(٢٠٣) .

الواقع أن مجرى العواطف والمشاعر عند الانسان قريبة مما كان يصف به الفيلسوف اليوناني « هيراقليطس الكون كله - تيار متدفق ، كل شيء فيه تتغير حالاته تغيراً دائماً دائماً . ويجادل « العالم » أن يلتبس وسط هذه التيارات الدافقة من الحوادث اطرادات تتكرر على فراق واحد ، فإن وجد جعله قانوناً ثم راح يقيس الأبعاد المكانية والزمانية في ذلك الاطراد لينتهي الى صيغة قانون فيه دقة كمية . . أما الأدب أو الفنان ، فشأن آخر : انه لا يلتبس اطراداً في الحوادث ، بل تستوقفه حادثة واحدة ، أو حالة واحدة فيشغل على اللوحة رسماً أو يثبتها باللفظ أدباً ، أو في أنغام الألحان موسيقى .

وليست كل حالة جزئية في صلاحيتها للفن على حد سواء مع سائر الحالات ، بل ان الفنان الحق ليقع على الجزئيات ذات الدلالة ، أي الجزئيات التي تكون أكثر

القول ينبغي علينا أن نفرق بينها بدقة وعناية فالعلم تعميم والفن تخصيص ، العلم تجميع والأدب تفريد . العلم يلاحظ الاشياء والنظائر ليستخلص منها أوجه الشبه فيصورها في قانون واحد ينظمها ، والفن يلاحظ جزئية واحدة يقف عندها . العلم يستبعد نفس الخصائص التي يستبعد الفن ، فالخصائص الفريدة التي تميز فلاناً من الناس دون سائر الأفراد هي التي يستيقها الفنان ليحللها ويصورها ، وهي نفسها التي يستبعدها العالم لأنها ليست مشتركة بين سائر أفراد النوع الإنساني . يقول عالم النبات عن الزهر ما ينطبق على الزهر كله ما دام متنبأ الى فصيلة واحدة . أما الفنان فيقف عند زهرة واحدة في لحظة زمنية واحدة يلقفها من تيار حوادنها الدافق قبل أن تمضي الى غير عودتها فيصورها رسماً أو أودياً أو ما شابه له مادته التي يستخرجها وسيلة لآليات ما يريد أن يشيه^(٢٠٤) .

وفي استطاعتنا أن نقول ذلك بصدد كل ما يعالجه الفن يشق صنفه ، وعلى أساس هذا المعيار تستطيع أن تقم « النقد الأدبي » هب أنك بصدد قصيدة نظمها شاعر عن الحب ، فانظر الى أي حد قد تفردت العاطفة التي يعبر عنها بحيث أصبحت كائناً وحدها قائماً بذاته ، لا تشاركها لحظة أخرى من لحظات الحب - لا أقول عند سائر المحبين - بل عند هذا المحب نفسه ، فلا يكفي أن يتحدث عن « الحب » بصفة عامة لتقول انه أجاد ، لأن الحب بصفة عامة من حيث هو عاطفة يشترك فيها أفراد البشر أجمعون بدرجات متفاوتة - هو من شأن علم النفس لا من شأن الفنان ، فسالماً النفس هو الذي يتحدث من هذه العاطفة « بصفة عامة » ، أو أنه يتكلم عنها كما تبدو آثارها عند هذا الفرد من الناس ، وهذا وذاك ، في كل زمان ومكان . هذا التعميم في الأحكام

(٢٠٣) توفد ويلف ص ١٠٨

(٢٠٤) الرعب السليبي ص ١٠٩

وكل عاطفة إنسانية أخرى ، فماذا يريد أصحاب الأدب العلمي أن تصنع بالمواقف إذا همنا بكتابة الأدب ؟

ثانيا : النقد الأدبي

هناك مدارس كثيرة في النقد الأدبي يحسن أن نسوق عنها كلمة لتسرف أين يقف مفكرنا من هذه المدارس^(٢٠٥) . فافترض أن أماننا ديوان شعر أخرجه المطابع وراح النقاد يعالجونه كل على طريقته الخاصة ، فكم زاوية للنظر يمكن أن ننظر منها إلى هذا الديوان ؟

١ - هناك الزاوية التي ينظر منها الناقد إلى الديوان المنقود ، نظرة يحاول بها أن ينفذ بصره خلال الشعر الذي يقرؤه إلى « نفس » الشاعر الذي أنشأ الديوان ما طبعتهما ؟ أم هي نفس مرحلة متعائلة ؟ أم هي مكتبة متشائمة ؟ أم هي كيت ؟ فالتنقد في هذه الوقتية يتخذ الشعر « وسيلة » لغاية يتم بها ، وليس الشعر هنا غاية في ذاته بل هو عند ناقد من هذا الطراز وسيلة للكشف عن نفسية صاحبه ، وبعبارة أجلى وأوضح ، المهم عند الناقد هنا هو « علم النفس » لا « الشعر » ، ومن أمثلة ذلك وثقة العقاد في كتابه « ابن الرومي من شعر » . . . وقد تسمى هذا الاتجاه في نقد الأدب والفن بالاتجاه « النفسي » ويمكن أن نقول أن « فرويد » وهو يقرأ مسرحية « أوديب » لسقوكليس كان ناقدًا أدبيًا من هذا الطراز .

٢ - وهناك زاوية أخرى للنظر إلى الديوان المنقود ، وهي شبيهة بالزاوية الأولى في كون الناقد يتخذ من الشعر الذي بين يديه « وسيلة » لغاية تثير اهتمامه في المقام الأول ، وكل الفرق بين الرؤيتين أنه بينما الناقد في الحالة الأولى يبحث من خلال الشعر عن « نفسية »

إعلاء عند القاريء أو الرائي ، فكاتب القصة أو المسرحية ، مثلا ، لا يجيد فنا إذا راح يسرد التفاصيل عن شخصياته سرداً بغير تمييز . بل صحيح الفن هو الاختيار الموفق ، فأني التفاصيل في حيلة هذا الشخص الذي أصوره أهلى إلى حقيقة شخصه وسر نفسه ، وكنه وجوده ؟ . سل نفسك ما سر الجودة الفنية في هذه الشخصيات الأدبية : هاملت ، الملك لير ، دون كيشوت - وغيرهم ؟ تجد أنه اختيار التفاصيل التي يجرىها الأديب كلاماً وسلوكاً بحيث يتكون له في النهاية شخص متكامل فريد ، فهو لا يرسم الإنسان بصفة عامة وإلا كان علما ، بل يرسم « هاملت » أو « لير » فردا واحدا ذا طابع متميز يستحيل أن يتكرره في الوجود مثال يطابقه كل المطابقة^(٢٠٦)

مسيل العلم ، إذن ، وسيل الأدب مختلفان وإن يتطور هذا إلى ذاك أبداً ، ولنا نريد أن نتبع شق الفروق التي تباعد بينهما وتباين ، لكننا نريد أن نضيف خاصية هامة أخيرة وهي أن الأديب بمقدوره ما يكون الكلام فيه وصفا للواقع والحقائق الخارجية بمقدار ما يبعد عن الكمال الفني . أن الصور الفوتوغرافية تصور الحقيقة الواقعية تصويراً أميناً ، ولذلك لم تكن فناً بالمعنى الذي نقصده ، أنك كثيرا ما تقف أمام صورة رسمها « بيكاسو » أو « ما تيس » فلا تدري ماذا أراد المصور أن يصور ، لأنه لم يرد قط أن يصور شيئا خارجيا عن ذاته ، فهذا الخليط الذي قد تردد في خياله كما تردد الأنغام في أذن الموسيقى ، فرسمها على لوحه لتجيء موسيقى للعين في أنغام من ضووه .

إن الآلام والأفراح لا تكون إلا داخل نفوس أصحابها ، وكذلك يكون الحب وتكون الكراهية ،

(٢٠٤) قصور تاليف ص ١١٣

(٢٠٥) قارن كتابه « في فلسفة النقد » ص ٢٢٠ ومايلها وكذلك « قصور تاليف » ص ١١٨ .

النص - فالكلمات المرقومة على الصفحات هي موضوع النقد، وتحليلها وتشريحها وفحصها من جميع وجوهها هو مهمة الناقد. بالأثر الأدبي لا ينبغي أن يعتمد في فهمه على شيء وسواه. « إنني لا أكون ناقدًا أدبيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذا ما اتخذت الأثر الأدبي نافذة أنظر من خلالها إلى شيء سواها، كأن أنظر إلى البيئة والظروف الاجتماعية والسياسية التي هي قائمة وراء الأثر للمدرس، إذ لو فعلت لكنت القطعة الأدبية التي أمامي بمثابة الوثيقة التاريخية لا أكثر ولا أقل - ولا أصل من الأثر الأولي نافذة أنظر منها إلى دخيلة نفسه - أو دخيلة نفس الناقد إذ لو فعلت لكنت أشبه بعالم النفس يحلل لمريضه أحلامه وردود أفعاله وخسائره ومشاعره. . الناقد لا هو عالم اجتماع ولا سياسة ولا عالم نفس ولا طبيعة - وإنما هو ناقد أدبي غاية دراسة قطعة أدبية يختارها للدراسة » (٢٠٧). وتلك وجهة نظر في النقد يدافع عنها كثيرون عندما يدعيون إلى أنه « لا بد من اتخاذ العمل الفني ذاته محوراً لكل ما يقال في ميدان النقد وأساساً لكل تلويح، فالاستطراد في الكلام عن شخصية الفنان، أو وقائع حياته أو ظروف مجتمعه دون أن تربط بين ما تقوله وبين العمل الفني ذاته - لا تعدو أن تكون استطرادات ذات قيمة تاريخية أو نفسية أو اجتماعية، ولكنها ليست نقدًا بل منسج على الصريح » (٢٠٨). هل أن النقد الأدبي يدخل في مجالات أشد تعقيداً كما تفضل النبوة مثلاً - مما يجاوز هذا التحديدات العامة التي وضعها أمستازنا ولذا سنكتفي ببله الفكرة نستنتج إلى أدب المقال .

ثالثاً : - أدب المقال

قلنا ان زكي نجيب محمود يكاد يكون من أبرح كتاب

الشاعر نرى النقد في الحالة الثانية يبحث خلال الشعر عن « الحالة الاجتماعية » التي كانت تحيط بذلك الشاعر، فكأنما شعر الشاعر هنا هو بمثابة وثيقة تاريخية لصورة من صور الحياة الاجتماعية، ويمكن اعتبار كتابه مله حسين عن المثني مثلاً لهذا الاتجاه الاجتماعي في النقد .

٣ - وهناك، ثالثاً، زاوية أخرى للنظر يبحث الناقد منها لا عن « نفسية » الشاعر ولا عن « الحالة الاجتماعية » التي أحاطت به، بل يبحث في نفسه هو - نفس الناقد - عن وقع هذا الشعر فيها، لماذا ترك في جوانحه من أثر ؟ هل خرج من قراءة الديوان وهو على وحي بالغايات العليا التي استهدفها الكون ؟ هل خرج من قراءته راضياً عن نفسه أو ساعطاً عليها ؟ ثم يسطر الناقد وصفا لطموحه نفسه، والأغلب أن يخيء هذا الوصف وكأنه في ذاته « أدب » بني على أدب ويمكن تسمية هذا الاتجاه في النقد - بالاتجاه التأثري، . (٢٠٩).

« - هناك وقفة أخيرة - وربما سبق منطقياً - جميع المواقف السابقة، فنقل أن يقف الناقد من الشعر المنقود وقفة نفسية أو اجتماعية أو تأثريه، كان عليه أولاً يتأكد أن الذي بين يديه « شعر » يستحق للمعالجة بهذا الطريقة أو تلك - ومن هنا فإن الناقد عليه في رأي مفكرنا - وتلك هي وجهة نظره في النقد - أن يفحص الشعر نفسه أي أن ينسب النقد الأدبي على الأثر الأدبي ذاته أو منحصر في النص ذاته، فإمام الناقد ترقم على صفحات من كتاب ومهمته أن يحلل هذه التشكيلات اللفظية التي انتشرت أمامه على صفحات الكتاب - أي النص ولا شيء غير

(٢٠٦) - نشور ولباب ص ١١٩ - ١٢٠ مكتبة المكي عام ١٩٥٧

(٢٠٧) - للغة النقد ص ٢٢٢ - ٢٢٣ طر القنوق ط ٣ عام ٨٣

(٢٠٨) - « قراء زكريا من طقعة ترجمة كتاب : النقد الفني » تأليف جبريم سركار ص ٥٠ - الحية المصرية العامة للكتاب القاهرة عام ١٩٨١ ط ٢ .

الى الأئين الخافت منها الى العويل والصراخ و فان التمس في مقالة الأديب نعمة على وضع من أوضاع الناس فلم يجدها ، وإن اقتضت في مقال الأديب هذا اللون من الفكاهة الخلوقة المستساغة فلم تصبه ، فاعلم أن المقالة ليست من الأدب الرفيع ، في كثير ولا قليل ، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة ^(٢١٠) .

٣ - الشرط الثالث أن تعبر المقالة الأدبية عن ضرب من السريرين الكاتب والقارىء فهو صديق يباحث صديقه عن حادثة شهدا في الترام ، ملاحظة هنا أو هناك مما يقع عليه البصر - بحيث لا يكون القارىء أمام معلم و ينفسه ، ولا أمام واعظ يحط بوق منبره ويميل صلفاً وتهاً بورعه وتقواه ، ولا مؤدب يصطنع الوتر حين يصعب في أذن سامعه الحكمة صبا قليلا . ومن هنا فلا بد أن يشعر القارىء ، وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيف استقبله الكاتب في حديثه ليمنعه بحلول الحديث ولهذا لا بد أن يكون أسلوبها عذبا سلسا دافقا بلا زخرفة ا

أما من حيث المضمون فإن كاتب المقالة الأدبية على أصح صورها هو الذي تكتفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة إبتداء ، ثم يسلم نفسه الى أسلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثر فوري في استدعائها عن عمد وقصد وتدبير . ومن هنا فلا يجوز أن تبحث المقالة الأدبية في موضوع مجرد كان تبحث فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال أو قاعدة في علم النفس أو أصول التربية . بل لا بد أن تعبر عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر الى نفوس قرائه - أما للروضات الاقتصادية أو السياسية أو العقلية ، فلها أنواع أخرى من المسائل الخاصة

و المقالة الأدبية » ، في أدبنا المعاصر ، ولقد كان له تصور خاص لهذا اللون من الأدب تأثر فيه بأدباء المقال الإنجليز يصفه خاصة ، لكن اهتمامه بهذا الطراز من الفنون الأدبية جاء مساهراً لا اهتمام أدباء عصره بالمقال و فادينا قصير النفس ، تكتفيه المقالة الواحدة ليفرغ في أمهرها القليلة كل ما يتأجج به صدره من عاطفة وما يتخلج به رأسه من فكر : فان غضب أديبنا من نقص يلحقه في بناء الجماعة أو أخلاق الفرد ، فزع الى المقالة يصب فيها ثورة غضبه . وإن اقتن أديبنا بجمال الطبيعة الخلاب لما الى المسألة يبت فيها ما أحس من عجب وإعجاب . . . ^(٢١١) و فإلحاق عندنا ملاذ الأديب ، بصفه عامة ، باستثناء قلة قليلة عمدت الى القصة أو المسرحية - الملح و يأس أن يلجأ الأديب الى المقال اذا سار على قواعد الأدب الصحيح فما هي ؟ .

هناك ثلاثة شروط للمقال الأدبي من حيث الشكل :

١ - أول شرط للمقال الأدبي أن يكون له « فورم Form » أي شكل أو صورة معينة يضع فيها الأديب فكرته فهو لا يسرد تحليلاته كما يفعل رجل المنطق ، أهني أن الانتقال لا يكون بحيث تأتي الفكرة الثانية عن طريق الاستدلال من الفكرة الأولى حتى نصل الى النتائج - بل الأديب محكوم بتداعي المعاني بحيث لا يكون لها ضوابط من نظام ، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم فقد نجىء على شكل و حلم « يرى فيه الأديب نفسه مرة في القاهرة وأخرى في أوروبا ولى في أماكن لا رابط بينها سوى ما يريد أن يشيره في نفس قارئه من وجدان .

٢ - الشرط الثاني أن يصدر المقال عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع على شرط أن يجيء السخط في نعمة هادئة خفيفة هي أقرب

(٢١٠) جة المييط ص ٧ دار للشرق ط ٢ عام ١٩٨٢

(٢١١) جة المييط ص ٩ دار للشرق ط ٢ عام ١٩٨٢

كلها مقالات أدبية تنطبق عليها الشروط السابقة ، بل فيها المقالات التي تعالج « أفكاراً » أو « مفاهيم اجتماعية » وتقوم بتحليلها تحليلاً عقلياً مستخدمة الفاعلية الفلسفية على نحو ما أشرنا من قبل . والملاحظة الثانية أن المقالة الأدبية يصعب تلخيصها لأن المهم في القطعة الأدبية إنما هو الأثر الذي يخرجه به القارئ ، ولهذا لا بد أن يقرأها في مكانها وكما عرضها صاحبها ، لكننا سوف نسوق نماذج قليلة على النحو التالي :

أ - بيضة الفيل :

من أمتع المقالات الأدبية التي كتبها أستاذنا الكبير مقالة بعنوان « بيضة الفيل » يسخر فيها من المناقشات « البيزنطية » التي تجتهد بين بعض الناس في موضوعات في غاية التضامنة من ناحية ، ثم هي تخلق مشكلات من عدم من ناحية أخرى . يبدأ المقال على النحو التالي : « قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض - والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة تبيض فماذا يكون لون بيضها ؟ » (٢١٣) . لاحظ أن أول سطر في المقال يقرر حقيقة علمية واقعة هي « أن الفيلة تلد ولا تبيض » لكننا اعتدنا أن نخلق مشكلات من عدم : فافرض أنها تبيض فماذا يكون لون بيضتها ؟ يستمر المقال فيقول : « وفي الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء : يقول عمارة بن الجاحظ ابن عمارة تكون بيضاء . واستدل على صحة قوله بدليل من القياس وحليل من اللغة » (٢١٤) . أما دليل القياس فهو أن كافة مخلوقات الله التي تبيض بيضاء

بالدراسة الأكاديمية تقرباً من البحوث بقدر ما تبدها عن « المقال الأدبي » الذي يميل فيه الأديب الحق إلى أن يخلع القارئ كي يمن في القراءة وكأنه هو يسري عن نفسه المكروية عناد اليوم ، وهو كلما قرأ تسلسل إلى نفسه ما شاع في سطور المقالة من نكتة خفيفة وسخرية هادئة . وقد يعجب القارئ : كيف يمكن أن يكون في النفوس البشرية مثل هذه الفئات والملاحظات ؟ ولكنه لن يلبث حتى يتبين أن هذا الذي عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ، فيسخره أن يكون على هذا النحو السخيف فيكون هذا الضحجر منه أول خطوات الإصلاح المنشود (٢١٥) .

رابعا : نماذج من أدب المقال

علينا الآن أن نستعرض بعضاً من المقالات الأدبية لنرى كيف كان يطبق الشروط السابقة ويتقيد بها فيها . كتب من مقالات أدبية كان يطلق عليها هو نفسه اسم الغنابل المضجرة لأنه أراد لها أن تنسف جزءاً من ألف جزء من الأطلال الخرافي العتيق الذي كنا وما نزال نعيش فيه يقول : « صودت في إسطار أدبي - في أوائل الخمسينات ما انطبعت به نفسي حيثئذ من فوضى القيم في حياتنا ، بحيث انقلبت أهلها على أسفلها فيعاقب المحسن ويكافأ المسيء ، وربما أكون قد أسرفت في القسوة ، لكنها قسوة المواطن يجب وعطه ، ويشره أن يراه قد تنكب عن جادة الطريق .. » (٢١٦) .

سوف أسوق أمثلة قليلة للمقالة الأدبية « وإن كان علينا أن نضع في ذهننا ملاحظتين : الأولى أن المقالات التي كتبها زكي نجيب محمود وهي تبلغ المئات ليست

(٢١٦) جنة الميذب ص ١٣

(٢١٧) قصة طفل ص ١٨

(٢١٨) قصة طفل ص ١٨

(٢١٩) جنة الميذب ص ١٧

يريد الكاتب أن يفتح عين القارئ عليه وهو يعلمنا من مشكلات العصر فيقول إنه حدثت رجفة عنيفة « وزلزلت الأرض زلزلاً ، وقال الشيخ ما لها ؟ . فقيل : يا مولانا قنبلة ذرية ، في لحظة تقضي على الأصل والدلية . فصجب الشيخ أن كان في الدنيا علم غير علمه ! »^(٢١٦) .

ب - جنة العبيط :

وفي استطاعتك أن تقول الشيء نفسه عن مقالة « جنة العبيط » التي تتناول فكر المصير الوسيط الفج الذي ما زلنا نعيش فيه فضلاً عن عدلته الاجتماعية البالية ويبدأ المقال : « أما العبيط فهو أنا ، وأما جنتي فهي أحلام نسجت على مر الأعوام عريشة ظليلة ، تب فيها النائم علية بليلة ، فإذا ما خطوت عنها خطوة إلى يمين أو شمال أو أمام أو وراء ، ولفحتني الشمس بوقدتها الكاوية ، عدت إلى جنتي أنعم فيها بمنزلي ، كأننا أنا الصقر المرم تغفو عيناه فيتوهم أن يثاق الطير تمشاه ، ويفتح عينيه ، فإذا يثاق الطير تغرى جناحيه ، ويعود فيخفو لينعم في غفوته بحلاوة غفلته . . الخ » لاحظ السجع الواضح ذا الدلالة .

ج - نفوس فقيرة :

من أمتع المقالات التي تهزك هزاً عنيفاً مقالته عن « النفوس الفقيرة » الذي يبدأ بتصوير الأنواع المختلفة للفقر :

« الفقر صوره شتى . . .

أبيض ، وليس في طبيعة الفيل ما يدل على أنه لوباض أخذت يبيضته لوناً آخر غير البياض . . لما دليل اللغة فهو أن البضة مشتقة من البياض ، وإذا فالبياض أصل والبضة فرع منه . . وأخيراً تساءل عمارة : ما حكم الشرع في بيضه الفيل ، أميل أكلها للمسلمين أم يحرم عليهم ؟ وهنا أجاب بدقته الموهودة أن بضة الفيل حلال أكلها بشرط ، حرام بشرط . . على هذا النحو الجميل يصور الأديب مشكلتنا التافهة التي نخلقها من لا شيء . وهو يندع القارئ بأن يذكر أسماء الملأ كما لو كانوا من التراث فعلاً ليشعر القارئ أن مناقشتنا لا تزال هي نفسها مناقشات المصير الوسيط . انظر مثلاً إلى المقال يستمر جاداً مع أنه يسخر سخيرة مريرة . . « تصدى معصرة بين المنزر لتنفيذ ما قال عمارة بن الحارث في بضة الفيل من حيث لوبأ ، فقال من دليل القياس الذي ساقه عمارة . . إنه ليس صحيحاً أن كافة الحيوان الذي يبيض لونه أبيض ، فيض البط فيه خضرة خفيفة ، وبيض الدجاج في بعضه حررة خفيفة ، ومن الطير ما يبيض أرقط ، ومنه ما يبيض أزرق . . . أما دليل اللغزة فهو استنتاج معكوس ومغلوط في آن معاً . . . الخ » وكان من بين تلاميذ ابن الحارث تلميذ نجيب فتصدى للرد على نقد معصرة فقال انه زل زلة ما كان ينبغي أن يقع في مثلها رجل مثله وهو شيخ المناطق في زمانه . . . وتسمى المحاورة - وهذا هو « المقصود » أي الشكل الذي اتخذته المقال - بأسلوب ساخر لاذع من إهدار القدرات العقلية في مناقشات لا معنى لها لأنها تتناول موضوعات تخضعها من ناحية وهي أنه من أن تكون موضوعاً لخوار من ناحية أخرى ويختتم المقال بما

منها اليباب القفر الذي تلهب رماله بوقلة الشمس ، حتى تتقلب حبات الرمل على سطحه جرات من نار ...

ومنها الصخر الأجرد الذي صلد عوده وتصلبت أطرافه ، فلا يتفجر جوله عن قطرة أونيته ...

ومنها السياه لا تجرد بالغيث ، تيبس الأرض من تحتها وتشتق ، ويحف الزرع وعوت وتشخص الأبطال إليها ضاربة ، وتصعد الدعوات إليها مسترحة ، لكنها كالخفة مصفرة الوجه لا تجود ..

ومنها الوردة تذبذب وتلوى ، طار عنها الشذى وجف من عرقها الماء .. ومنها الجدول يفيض مائمه ، تعبته مائساً على قدميك ترون أصداء خطاك بين صفوف خلالاته وفراخه .. ومنها الجيوب تحلو من المال ...

لكن لا اليباب القفر الذي تلهب رماله بوقلة الشمس ، ولا الصخر الأجرد الذي صلد صدره ولا السياه اليابسة ولا الوردة الذابلة ، ولا الجدول يفيض مائمه ولا الجيوب الخالية من المال ، بمستطمة أن تعب من القفر بأبلغ مما تعب عنه النفوس الفقيرة .

فقيرة هي تلك النفوس التي يعيش أصحابها فيها نعيش فيه ولا تتأخر ، كأننا ننظر العين ولا ترى ، ونسمع الأذن ولا نسمي ، وكأننا نأخذ القلب من صوان .. صاحب النفس الفقيرة كالنذيع التالف ، فيه للمفاتيح والصمامات والأسلاك ، لكن الهواء من حوله يسج بموجات الصوت وهو أبكم لا يلتقط ولا يلدج .. فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواء ، فتمتد إلى

خارجها لتكتفي ما يسد لها هذا الخواء . فتصيد أناساً آخرين لتخضعهم لسلطانها . إنها علامة لا تخطيء في تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم ، فحينما وجدت طافية - صغيراً كان أو كبيراً - فاعلم أن مصدر طافيته هو قفس نفسه ، أن المكتفي بنفسه لا يطغى فقيرة هي النفس التي لا تستطيع أن تقف موقف سواها ، لتري ما ترى وتحس ما تحس .. فقيرة هي تلك النفوس التي لا يستطيع أصحابها أن ينظروا من وراء الأشخاص إلى حيث ظروفهم ، ولو قد فعلوا لاشتد بهم التسامح واتسع فيهم العفو والمغفرة .

فقيرة هي تلك النفوس التي تبطش بالأشياء والأحياء ببطش الصبيان ؛ فقيرة - يا أبا العلاء - هي تلك النفوس التي لا تخفف الوطء ، لأنها لا تدري أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد .. (٢١١) » .

د - الكوميديا الأرضية :

وهو في مقال عنوانه « الكوميديا الأرضية » يتخيل أن دانتي « قد بُعث حياً وأنه كتب هذه القصيدة الجليلة التي اتخذ فيها أيضاً من أستاذه القديم « فرجيل » دليلاً وهادياً ، ويصور أستاذنا بسخرية مريرة كيف وجد دانتي في الجحيم كل مَنْ فعل غيراً أو قال صدقاً - لأنه أراد أن يصور القيم المقلوبة في مجتمعنا - فماذا وجد الشاعر في أول حلقة من حلقات الجحيم ؟ ها هنا وجد عبدة المبادئ الذين أنكروا قواهم وأضاعوا حيوانهم في سبيل سيادتهم .. ولهذا فقد حق عليهم الحرمان من نعم الفردوس ! » وماذا وجد في الحلقة الثانية من الجحيم

(٢١١) « والوردة على الأبواب ، ص ٧٥ - ٨٢ من طبعة الانتظار للصورة المتغيرة ١٩٥٤ وقد أعاد نشرها في دار الفنون بدمشق د الكوميديا الأرضية . »

على فكر زكي نجيب محمود من منظور الوضعية المنطقية وحدها ، وأن كل من يأخذ بهذا المنظور ، فإنه يكشف عن خطأ أساسي أو قصور شديد لأنه لم يتتبع التطور الروحي لهذا الفكر أو أنه اكتفى بالتوقف عند مرحلة واحدة من مراحل تطوره .

(٢) إن زكي نجيب محمود مفكر تنويري يقوم بمواصلة المهمة التنويرية التي بدأها رفاة الطهطاوي وسار فيها أعلام نهضتنا الحديثة . فهو يستكمل الطريق نفسه الذي سار فيه برؤاد كبار من أمثال محمد عبده ، ولطفي السيد وطه حسين والمعاد وغيرهم من الذين جمعوا بين الثقافة العربية الأصيلة والفكر للعصر في دمج واحد . ومن هنا قلّم مفكرنا صيغة ثنائية هي « العقل والوجدان » والفرقة بين هذين المجالين حلّاً لمشكلتنا الثقافية ، وقد عرض هذه الصيغة في « الشرق والغرب » وجسّدتها هو نفسه بحياته ومؤلفاته .

(٣) في هذه الصيغة الثنائية « العقل والوجدان » حرص على خلق طريقة عقلية جديدة يملأ بها الخلف العربي لنفسه ولجتمعه ، إذا أراد ، مفاهيمه وأفكاره بأن يفكها إلى مكوناتها الأصلية ليلقي عليها الضوء ، فلا نستخدّم مفاهيم غامضة يمكن أن تكون عقبة أكثر مما تكون دافعاً للتطور . ثم قلّم لنا نماذج من اهتماماته الأدبية لا سيما « المقال الأدبي » الذي يسلط إلى إثارة الوجدان عند القارئ .

فأني منبج نطيقه في الحالات التي يتداخل فيها اللا متناهي مع المتناهي ويتصل به ؟ [(٢١٧)] .

و أولئك الذين شغلهم في الدنيا عقولهم عن إشباع شهوات أجسادهم . . . » أما في الحلقة الثالثة فقد أعدّ العقاب لمن عتف فلم يلحف في السؤال عن حقه لدى أصحاب السلطان . وفي الحلقة الرابعة جماعة كانت تشغل نفسها بالإصلاح ففسد على غيرهم نعاسهم وأحلامهم . أما الحلقة الخامسة فقد خصّصت لمن أخذ زمانه بالدقة فلا يؤخر موعداً ولا يؤجل عملاً إلى غد . . . وهكذا نجد في كل حلقة من الحلقات « أفاضل الناس » حتى الحلقة العاشرة تجدد فيها من لم يتشفّعوا بشفع أو يتوسّلوا بوسيط وعملوا في صمت . وفي استطاعتك أن تقول إن خصائص المقالة الأدبية بارزة في كثير جداً من المقالات التي كتبها في كتبه المتقدمة : « جنة العبيط » ، و « الثروة على الأبواب » ، و « شروق من الغرب » حيث تغلب النعمة الأدبية ولك أن تقرّها فيها « ظلم » و « خيوط المنكبوت » و « عروس المواد » ، و « الكراهية للصامتة » ، و « عند السفح » . . الخ وفي كتبه المتأخرة « رؤية إسلامية » ، « عن الحرية أتحدث » و « تحديث الثقافة العربية » . . مقالات « أستاذ يعلم » ، و « ذبابة تعقبتها » ، و « نافخ النار » . . وغيرها كثير .

خاتمة :

بعد هذه الرحلة الطويلة التي قطعناها في فكر زكي نجيب محمود علينا أن نقف في هذه الخاتمة لتأمل مجموعة من الملاحظات أهمها ما يأتي : -

(١) لقد حاول هذا البحث تأكيد القضية التي أثارها في البداية وهي أننا نخطيء كثيراً عندما نحكم .

التعامل معه الا بوجودتنا - مع أننا كثيراً ما نمود إليه بوصفه يشتمل على شائخ كثيرة من ثنائية « العقل والوجدان » معاً !

ثم ألا نستطيع أن نقول أنّ في المعاصرة عقلاً ووجداناً ، وفي الأصالة عقلاً ووجداناً ؟ ! وفي العقل أصالة ومعاصرة ، وفي الوجدان أصالة ومعاصرة ؟ ! ألا يجعلنا ذلك نتهى الى أن مشكلة الأصالة والمعاصرة ربما كانت « شبه مشكلة » أو « مشكلة زائفة » ، لأن المنفص الحصري الحقيقي هو في الوقت نفسه أصيل ومعاصر معاً ؟ !

(٦) لكن أياً ما كانت الانتقادات التي توجه الى هذه الفلسفة الثنائية ، فسوف يبقى لهذا الرجل أنه حمل مشعل التنوير ما يقرب من ستين عاماً بقي به العقل والقلوب معاً في مؤلفاته ومعارضاته وأحاديثه ولقاءاته . . وأنه كان مفكراً حريصاً خالصاً في عروبه ووطنيته كما يقول واحد من أشد معارضيه : « كتابات زكي نجيب محمود ترفض الاستعمار والاحتكار والارهاب بالفكر والسياسة ، إنه يريد الآلات المتقدمة والتكنولوجيا الراقية ، ولا يريد أن يستجلب معها استعماراً ولا احتكاراً ، بل لقد شارك الناس زمناً في الاستماع الى أغنيات الاشتراكية ولم يرفضها ، كما دعا الى حرية إجتماعية وإلى إنصاف العمال والفلاحين وهو يقدم بشخصه نموذجاً نادراً للمفكر الحر . . » (٢٧١) .

(٤) نستطيع أن نقول أيضاً إن « فكرة الثنائية » - لا سيما الانطولوجية - غير مستقرة عند مفكرنا الكبير فهو أحياناً يرى أنها ثنائية لا تسوّى بين الشطرين بل تجعل للخطر الروحاني الأولوية على الخطر المادي فهو الذي أوجده ، وهو الذي يُسبِّره ويعدله الأهداف (٢١٨) - . وواضح أننا هنا أمام واحدة ؟ ! إذ يمكن أن يُرد للخطر المادي الى الروحاني ! ثم يقول في أحسان أخرى « إنها نظرة تجمع بين الثنائية والكثرة ، ثنائية بالنسبة الى الله الخالق والكون المخلوق والكثرة بالنسبة لأفراد الناس الداخلين في حدود هذا الكون المخلوق . . » (٢١٩) ثم هو يميل - بصراحة ووضوح - في مقالاته الأخيرة في جريدة الأهرام الى الوجدانية « ولك أن تقرأ مجموعة المقالات التي كتبها بعنوان « من إشاعات التوحيد . . » (٢٢٠) .

(٥) يتسرح استاذنا الكبير صيغة « العقل والوجدان » - حللاً لمشكلة « الأصالة والمعاصرة » وأن قلنا أنّ هذه الصيغة هي المفتاح « السحري » لحل مشكلتنا الثقافية فسوف نصعدهم بكثرة من المشكلات ، منها مثلاً ان ثنائية « العقل والوجدان » زوجان مختلفان من المقاييلات يختلفان أتم الاختلاف من الأصالة والمعاصرة ! فهل نقول إنّ المعاصرة هي العقل والأصالة هي الوجدان ؟ ! في هذه الحالة نكون قد حكمنا على التراث كله بأنه أشبه بالعمل الفني الذي لا نستطيع



(٢١٨) لمجلد الفكر العربي ص ٢٧٥

(٢١٩) اترجع نفسه

(٢٢٠) جريدة الأهرام ٢١/٢/١٩٨٩ وكتك ٨٩/١/٢١

(٢٧١) في تعميم الاستاذ ابراهيم كحلي تحت الطول الرضوي : دراسة في الأزمة الالهية للفكر زكي نجيب محمود ص ١٧ - ١٨ - دار الطائفة بيروت ١٩٨٠ .

» مراجع البحث «

أولاً : مؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود

- (١) زكي نجيب محمود : في تحليل الثقافة العربية - دار الشروق عام ١٩٨٧
- (٢) زكي نجيب محمود : رواية إسلامية - دار الشروق عام ١٩٨٧
- (٣) زكي نجيب محمود : عن الحرية لأحدث - دار الشروق عام ١٩٨٦
- (٤) زكي نجيب محمود : في مفترق الطرق - دار الشروق عام ١٩٨٥
- (٥) زكي نجيب محمود : قيم من التراث - دار الشروق عام ١٩٨٤
- (٦) زكي نجيب محمود : قصة نفس - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨٣
- (٧) زكي نجيب محمود : قصة عقل - دار الشروق عام ١٩٨٣
- (٨) زكي نجيب محمود : أفكار ومواقف - دار الشروق عام ١٩٨٣
- (٩) زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي - دار الشروق عام ١٩٨٢
- (١٠) زكي نجيب محمود : هذا العصر وثقافته - دار الشروق عام ١٩٨٢
- (١١) زكي نجيب محمود : من زاوية فلسفية - دار الشروق عام ١٩٨٢
- (١٢) زكي نجيب محمود : مجتمع جديد أو الكارثة - دار الشروق عام ١٩٨٣
- (١٣) زكي نجيب محمود : جنة المحيط - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨٢
- (١٤) زكي نجيب محمود : في حياتنا العقلية - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨١
- (١٥) زكي نجيب محمود : هموم الحلقين - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨١
- (١٦) زكي نجيب محمود : للمقول وللأقول في تراثنا للفكر - دار الشروق - ط ٣ عام ١٩٨١
- (١٧) زكي نجيب محمود : مع التسعراء - دار الشروق عام ١٩٧٨
- (١٨) زكي نجيب محمود : أرض الأسلام - دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٧٧
- (١٩) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر - دار الشروق عام ١٩٧٦
- (٢٠) زكي نجيب محمود : الشرق الفنان - المندرقم ٢ في سلسلة المكتبة الثقافية - دار الفلم - القاهرة عام ١٩٦٠
- (٢١) زكي نجيب محمود : المطلق الوشحي - ج ١ ، ج ٢ - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٧
- (٢٢) زكي نجيب محمود : نحو فلسفة علمية - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٨
- (٢٣) زكي نجيب محمود : قصور ولباب - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٨
- (٢٤) زكي نجيب محمود : والثورة على الأبواب - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٤
- (٢٥) زكي نجيب محمود : شرق من الغرب - مكتبة الانجلو عام ١٩٥١
- (٢٦) زكي نجيب محمود : محاولة للتأليف - النهضة المصرية عام ١٩٥٣
- (٢٧) مجموعة مقالات الأهرام - لعام ١٩٨٧ بعنوان : يادو ويطرد .
- (٢٨) مجموعة مقالات الأهرام - لعام ٨٨ - بعنوان : عربي بين ثقافتين .

ثانياً : مراجع هامة :

- (١) أحمد أمين و زهير الإصلاحي في العصر الحديث « - مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٩
- (٢) أحمد أمين و حياتي « - دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٧١
- (٣) د. أحمد ماضي و الوضعية للحلقة والتحليل المنطقي « - ضمن بحوث الفلسفة في الوطن العربي المعاصر - بحوث المؤتمر الأول أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت عام ١٩٨٥
- (٤) د. حسن فوزي النجار و رفاعة الطهطاوي « - سلسلة أعمال العرب - عدد ٥٣ - القاهرة .
- (٥) جورج ستولنيتز و التمدد القوي « - ترجمة د. غواد زكريا - الهيئة المصرية - القاهرة عام ١٩٨١
- (٦) الإمام محمد عبده و الإسلام والتصيرية « - مكتبة صبيح عام ١٩٥٤
- (٧) د. محمد البهي و الفكر الحديث وصلته بالاستعمار المغربي « - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٠ .
- (٨) د. محمد عمارة و رفاعة الطهطاوي « - رائد للتحرير الحديث « - أعمال عدد ٣ - القاهرة ١٩٨٤ .
- (٩) محمود أمين العالم و معارك فكرية « - دار الهلال - ط ٢ - ١٩٧٠ .
- (١٠) طه حسين « في الشعر الجاهلي « - مطبعة دار الكتب المصرية - عام ١٩٢٦ وفي طبعته الثانية « في الأدب الجاهلي « - ضمن المجلد الخامس من المؤلفات العامة التي نشرت في دار الكتاب اللبناني - عام ١٩٧٤ .
- (١١) د. عاطف أحمد و نقد العقل الوضعي « - دراسة في الأزمة المعنوية لفكر زكي نجيب محمود « - دار الطليعة - بيروت - عام ١٩٨٠ .
- (١٢) علي عبد الرزاق و الإسلام وأصول الحكم « - المؤسسة العربية للدراسات - نشرة د. محمد عمارة مع وثائق المحاكمة .
- (١٣) د. يحيى هويدي و الفلسفة للوضعية في الميزان « - مكتبة النهضة المصرية - عام ١٩٧٧ .
- (١٤) « أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي - بحوث ندوة الكويت في ابريل - عام ١٩٧٤ - مطابع دار السياسة والكويت .
- (١٥) « الدكتور زكي نجيب محمود « - فيلسوفاً وأديباً ومعلماً « - الكتاب التذكاري الذي أصدره قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت - عام ١٩٨٧ - مطابع الوطن .



مقدمة :-

في معرض الحديث عن القصة في الأدب العربي الحديث ، يذهب كثير من الباحثين الى أنها نشأت متأثرة بالقصة الغربية ، منذ بداية القرن العشرين حين نشر محمد حسين هيكل روايته (زينب) وأصدر محمد تيمور مجموعته القصصية الوحيدة (ما تراه العيون) متأثرين بالقصاصين الفرنسيين وإنها - أي القصة العربية الحديثة - منبئة الجذور عما يحمله التراث العربي من قصص وحكايات . وتعصب قسم منهم فأنكر وجود القصة في التراث العربي القديم كأحد أمين في (فجر الإسلام) والعقاد في (الفصول) وتوفيق الحكيم في (زهرة العمر) الذين يرون أن العرب لم يعرفوا القصة إلا في عصور متأخرة كالعصر العباسي . ومنهم من بحث عن القصة بمواصفاتها الفنية الحديثة ، فوجد أن ما يحمله التراث لا يرقى إلى المستوى الفني للقصة الحديثة لذا أدارَ ظهوره للتراث . يقول يحيى حقي : « وحلت الرياح التي عهبَّ من أوروبا بذرة غريبة على المجتمع العربي ، بذرة القصة . . . وعلى ضوء المقارنة بين البذرة القادمة وبين ما هو موجود باليد أحسَّ الأدباء أن الفرق بين الاثنين كبير فالوجود في اليد لا يفرج عن بعض السبر ، وقصص ألف ليلة وليلة ، ومقالات لم تدرس إلا باعتبارها وثائق لغوية غرقت في تحف النحو والبديع ، عناصر ضئيلة من قوام القصة بوصفها لشخصية خيالية ، أو ضبطها في موقف معين لا يخلو من الفكاهة أحياناً كما في مقالات الحريري ، هي فتات في تنقصه الوحلة »^(١) .

غير أن التراث بما يحمله من أخبار ونوادير ومسير وحكايات وقصص قصيرة وطويلة ، المترجم منه ككلاية ودمية والأصيل كالمقامات ، الشعبي منه كالسيرة الملالية

فنية القصة في كتاب التجمل والتأليف

ضياء والصديقي

(١) يحيى حقي ، فجر القصة العربية ، ص ٢١ .

وألف ليلة وليلة ، والرسمي كالأخبار والحكايات والنوادر ، يمثل مرحلة طفولة ونشأة وتطور هذا الفن .

إن من يعد إلى التراث في عصره المختلفة يجد أنواعاً كثيرة من القصص بل ويلاحظ تطوراً ونضجاً إلى حد ما في فنية هذه القصص ، فمن حكايات بسيطة ونوادر صغيرة متناثرة تلعب فيها الأساطير والخرافات دوراً كبيراً مثل الغول والعنقاء وحكايات الشراء الصماليك في العصر الجاهلي ، إلى أنواع مختلفة من القصص في العصر الإسلامي والأموي والعباسي من قصص دينية هدفها المغظة والعبرة ، إلى قصص اجتماعية تصور طبقات المجتمع المختلفة ، إلى قصص عاطفية مستوحاة من سير الشراء العليدين ، إلى قصص رمزية كتقصص الصوفية ، إلى قصص فلسفية ومثلها الحي في قصة ابن طفيل (حي بن يقظان) . بل إن التراث العربي عرف أنواعاً من الأشكال الفنية ، كالقصة - الخبر التي تجمع بين التاريخ والفن مع حرص قليلها على تتبع مصادرها وكأنها وقعت فعلاً ، والقصة - النادرة والتي تكون أقصر من حيث الحجم وتندور حول مغزى محدد كتقيد وضع معين أو السخرية منه أو عظة إنسانية ، وأبطالها عادة ما يكونون من الظرفاء أو السكارى أو البخلاء أو المغفلين . وعرف التراث أيضاً قصص الحيوانات التي تنصرف فيها أبطالها من الحيوانات وتحدث كالكائنات مع احتفاظها بسماتها الحيوانية وكلها تهدف إلى مغزى أخلاقي ، كما عرف التراث المجموعات القصصية التي تتلوج تحت موضوع واحد قلما نجد مثيلاً له في

المجموعات القصصية الحديثة مثل كتاب البخلاء للجاحظ والفرج بعد الشدة للتونسي ومصارع العشاق لابن السراج فإن لم ترتبط القصص بموضوع واحد أوجدوا لها رباطاً فنياً آخر كما نجد ذلك في ألف ليلة وليلة في قصة الملك شهريار المروعة الذي يقتل عروساً كل ليلة انتقاماً لامرأته التي خانتته حتى يحتال عليه شهرياد بأن تبدأ كل ليلة قصة لا تنمها إلا في اليوم التالي . وعرف التراث السير الشعبية كالسيرة الملحالية وسيرة عترة . والسيرة قلب فني يجمع بين المجموعة القصصية والرواية ، إذ أن قصص السير الشعبية يجمعها بطل واحد هو بطل السيرة . وهناك قالب قصصي آخر عرفه التراث وهو المقامات التي تقترب في بعض قصصها من فن القصة القصيرة . ولا نود أن نطيل أكثر في تعداد أنواع وأشكال القصة التراثية في هذه المقدمة بقدر ما نريد أن نؤكد أن موضوع القصة في التراث - مهما اختلفت مستوياتها الفنية - موضوع لا يمكن إنكاره . أضف إلى ذلك أن القصة الغربية في نشأتها وبداياتها تأثرت - من بين ما تأثرت به - بحكايات وقصص وسير التراث العربي وذلك عن طريق الترجمة في عهد مبكر إلى الإسبانية أولاً ومنها إلى اللاتينية ، فقد ترجم كتاب كليله وجمته - على سبيل المثال - إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر الميلادي^(١) .

وتذكر الدكتور سهر القلماري في بحثها القيم :
(أثر العرب والإسلام في الفن القصصي في النهضة الأوروبية) أن أهم ما عرفه العرب من هذه الفنون

(١) انظر يوسف الشاروني : القصة القصيرة ، ص ٤٧ ، والطاهر أحمد مكي ، القصة القصيرة ص ٤٦ . وقد ذكر الشاروني أن النص الأصلي العربي لكليلا وجمته ترجم إلى الإسبانية مباشرة منذ عام ١٣٦١ كما أن لغوية تهتم من مجموعة كتب ليلة وليلة قد ترجمت إلى الإسبانية والبرتغالية بدءاً من (عام ١٥٢٤) ، وقد بلغ من شعبية هذه الحكايات ونجاحها في الأدب الأسباني أن عدد إلى خطها إلى عذبة المسرح الكلاسيكي الأسباني (لوبي دي فيجا) تحت عنوان (الجارية ليونور) ، انظر لشاروني ص ٤٧ - ٤٩ . بينما يرى الطاهر مكي أن كتاب (كليلا وجمته) عرف طريقه إلى أوروبا من طريق اللغة الإسبانية عام ١٦٥١) ، وأن أول ما عرف من قصص (ألف ليلة وليلة) قصة (السليمان) التي وصلت لأوروبا من طريق ترجمة يونانية من السريانية التي ترجمها عن العربية ليعرف القرن الحادي عشر ، وهكذا ترجمة أخرى إلى الإسبانية عام (١٣٣٥) انظر الطاهر مكي ص ٤٦ - ٤٧ .

أما كتاب البغلاء للجبل - موضوع الدراسة - فهو نموذج متقدم للقصة التراثية سواء في شكله الفني الذي يضم مجموعة من القصص ترتبط بموضوع واحد وهو البخل ، أو في بناء القصص نفسها وبميزاتها الفنية التي تقترب في بعض جوانبها من فنية القصة الحديثة وهذا ما سنعرضه في الصفحات التالية :

الكتّاب : (١)

هو أبو عثمان عمرو بن بخر الجاحظ . ثمة من القمم الثقافية الشائعة في تراثنا العربي الإسلامي ، وشخصية موسوعية فذة ، وأديب عبقري واقعي ، اهتم بقضايا عصره فكان صورة حقيقية للعصر العباسي بوجوهه المختلفة دينياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وعلمياً ، وثقافياً ، وأدبياً .

ليس لدينا معلومات عن طفولة الجاحظ سوى أنه نشأ في البصرة - مسقط رأسه - يتيماً من أسرة فقيرة ليس له خير أمة ، وأنه كان يبيع الخبز والسكك بسبحان - أحد تيمرات البصرة - كما ورد في معجم الأدياب^(٢) . غير أن فقره لم يمنعه من الاختلاف إلى الكتّاب ليتمكن من بناء القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، وبعض الأشعار ، وشيئاً من النحو والفقه والحساب . وهناك قصة يوردها الجاحظ في كتاب (الحيران) تشير إلى اختلافه إلى الكتّاب ، وتشير أيضاً إلى الصورة العقلية للجاحظ الصبي يقول :

القصصية العربية هو فن المقامة الذي انتقل إلى الإسباني من طريق الأندلس ويتضح تأثيرها في فن من فنون الأدب القصصي الإسباني يسمى (البيكارسيه) وهي قصص الشطارة ، والشاطر أو (البيكار) أشبه ما يكون ببطل المقامة . بل إننا نجد في قصص الحب ومغامرات فرسان القرون الوسطى في أوروبا ، في بطولتهم ومثالياتهم وأخلاقهم ووفائهم في حبهم والتغلب على الصعوبات التي يواجهونها في سبيل الحب تشابهاً مع مغامرات عترة وسيف بن ذي يزن ، والسلي - شد من أزد نزعة الفروسية هذه ما عرفته أوروبا من ثقافة العرب وآدابهم منذ القرون الوسطى ، فتأثرت في أدبها بما أدرسته من مكانة المرأة في الأدب العربي^(٣) .

وتتفق أقاصيص الإيطالي (بوكاتشيو) المعروفة باسم الليالي العشر (الديكاميرون) في شكلها الفني مع كليله ودمته وألف ليلة وليلة في أنها قصة تجمع في داخلها مجموعة من القصص . والأمثلة على هذا التأثير كثيرة ليس بما ثبت علمياً من خلال الدراسات المقارنة فحسب بل بشهادة قصاصي أوروبا وروائييها ومؤرخيها^(٤) .

وفي الحديث عن القصة في التراث لا بد من الإشارة قبل كل شيء إلى القصة في القرآن والتي لا نعدّها من قصص التراث إلا ضمن سياقها التاريخي ، إذ تنفد القصة القرآنية كنموذج منفرد في بنائها الفني المتميز الذي يجنم عليها الأول وهو العبرة والعظة : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)^(٥) .

(١) حمد جويي حلال ، لفظ الأدي الجاحظ ، ص ٥٠٠ .

(٢) انظر على خلس ، في عالم القصة ، ص ١٩٥ .

(٣) سورن يورسف ، الأية ١١١ .

(٤) في تعريفنا للجاحظ أقرنا الإشارة إلى بعض ملامح شخصيته ونكهته وبعده وملائكته ومؤلفاته بما يجد موضوعنا الأساسي وهو القصة في الجبل ، وليس الإحاطة الشاملة بالجاحظ التي كتبت فيه الكثير من المؤلفات .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

حلقات المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ،
ويتردد على سوق البصرة الثقافي المربد الحصب ،
ويجالس علماء البصرة المشهورين من اللغويين والنحويين
والفقهائ والمتكلمين ، ويعتكف على الكتب في شتى فنون
المعرفة يلتهمها التهاماً . نقل ابن النديم في الفهرست
عن أبي هفان قوله : « ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب
اليهم من الكتب والعلوم : الجاحظ والمفتح بن خاقان
واسماعيل بن إسحق القاضي ، فأما الجاحظ فإنه لم يقع
بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأننا ما كان ، حتى إنه
كان يكتري دكاكين الوراقين . وبيت فيها للقراءة
والنظر »^(١٠٠) . ومن بين الحفصات التي استهوت
الجاحظ ، ووجد في نفسه ميلاً لها هي حلقات المتكلمين
بشكل عام وحلقات المعتزلة بشكل خاص التي أثرت فيه
تأثيراً مباشراً فاعتنق مذهبها ، إذ وجد فيه ما يرضي
نوازعه العقلية . ويقف إبراهيم النظام - من أئمة
المعتزلة المشهورين كأكثر الشخصيات التي اتصل بها
الجاحظ تأثيراً عليه حتى لبعد مصدرأ من مصادر ثقافته ،
والجاحظ كثير الإشادة بأستاذته ومكانته ، وبالمعتزلة
وأشهرهم . يقول في كتاب الحيوان : (لولا مكان
المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان
المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل : وأقول لولا
أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام
من المعتزلة فإن أقول إنه قد أصبح لهم سبباً وفتح لهم
أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم
النعمة »^(١٠١) . ويبدو أن النظام هو الذي غرس في نفسه
فكرة الثقافة الموسوعية - كما يرى الدكتور شوقي ضيف -
فإن ما رواه عنه في كتاب الحيوان يدل على أنه كان

(وأنا) - حفظك الله تعالى - رأيت كلباً مرة في الحي
ونحن في الكتاب ، فعرض له صبي مهلباً من
أولاد القضاة ، وهو قائم بمحلولحة فعض وجهه فنتع
ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق
اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده ، فرس به ملقياً
على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة ، وخرج
منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه ، وبقي الغلام
مبهوئاً قائماً لا ينس ، وأسكنه الفزع وبقي طائر
الغلب ، ثم خبط ذلك الموضع ، ورأيت بعد ذلك بشهر
وقد عاد إلى الكتاب ، وليس في وجهه من الشتر إلا
موضع الحيط الذي عيط ، فلم ينس إلى أن يرى ، ولا
هر ، ولا دعا بما ، حتى إذا رآه صاح : ردوه ! ولا بال
جرو ولا علقا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير .
ولم أجد أحداً من تلك المشايخ ، يشك أنهم لم يروا كلباً
قط أكل ولا أفسد طبعاً منه . فهذا السدي
عانت »^(١٠٢) .

هذه الحادثة التي عرضها الجاحظ نقلاً عن صورة
تصورها في طفولته تين قوة ملاحظته ودقة تصويره ،
وتشير إلى عين لافطة حساسة وذاكرة واهية حتى لا يفوته
شيء مما يجري أمامه ، « وفي قوة تكفل لها البقاء في
(خزائن الصور العقلية) ذلك العهد السطويل
المختلف »^(١٠٣) . وإن قوة الملاحظة ودقة التصوير عنصر
سالمحه في قصص البغلاء فيما سيأتي ذكره .

هذا الصبي اليتيم الفقير المذموم الشكل عوّضه الله
بذهن صاف وذكاء حاد وميل نحو التعلم ، فبدأ رحلته
في طلب العلم ، وراح يختلف بعد أن شب عوده إلى

(١٠٠) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج ٢ ، ص ١٤

(١٠١) ده المعجمي - الجاحظ ، ص ٩٣

(١٠٢) ابن النديم - الفهرست ، ص ١٦٦

(١٠٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج ١ ، ص ٣٠٦

الاستشهادات المبثرة في كتبه . أما القصاصون الرصحاء فقد أسهموا ولا ريب في تكوينه اللغوي^(١٢) .

اجتماعياً شهدت البصرة اقتراناً غثليفي الأجناس والأعراف والانتباه والولاء دينياً وسياسياً وحضارياً وثقافياً واجتماعياً . عاش فيها العربي الأصل والمستعرب ، وعاش فيها الموالي من كل جنس ولون : الفارسي والمغربي ، والسروري ، والسندي ... وغيرهم ، ومنهم المسلمون من عرب وغير عرب على اختلاف مذاهبهم : السني والشيعة والخوارجي والمعتزلي والقدري والمرجئة والظاهرية والباطنية ، إضافة الى غير المسلمين من أهل اللغة وأصحاب الديانات الأخرى . وقسمت البصرة طبقات اجتماعية مختلفة من للتفدين أصحاب السلطة والأثرياء كالتجار والملاكين ، ومتوسطي الحال كموثقني الدولة والمعلمين وأئمة المساجد ، ثم طبقة الفقراء والمقربين . هذه البيئة الثرية الخصبة - التي عاش فيها الجاحظ ما يقرب من أربعين سنة من حياته قبل أن ينتقل إلى بغداد في خلافة المأمون - هي التي شكلت وهي الجاحظ وأثرت بعمق في كل مؤلفاته . وإذا كانت بغداد التي أقام فيها الجاحظ بعد سنوات من خلافة المأمون قد شهدت ولادة معظم مؤلفاته ، فقد ظلت البصرة تزوده بالموضوعات . إن مؤلفاته هي حصيلة ثقافته ومعارفه البصرية^(١٣) .

وكتب (البخلاء) - موضوع الدراسة - صورة من صور المجتمع البصري ، ومن خلاله يشير إلى طبقة الأثرياء والصيارفة فيها . غير أن اثر البصرة على الجاحظ لم يقتصر على استمداد موضوعاته منها ، بل إنها طبعته

مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهذه طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يمتنع مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت (الجاحظية)^(١٤) . وبيت المتكلمين - والمعتزلة على وجه الخصوص - هي التي طبع الجاحظ بطابع الجدول والمناظرة التي عرف بها رده على الزنادقة والشعوبيين ، وهي التي صبغت كتاباته بالصيغة الكلامية ، ولونت أدبه باللون العقلي في كل مؤلفاته الجدلية منها والمزلية . على أن بيتاً للمعتزلة جزء من بيئة أكبر كان لها أثرها العميق في تكوين شخصية الجاحظ وثقافته ووعيه ، وهي بيت البصرة . البصرة التي أكمل فيها الجاحظ ثقافته الموسوعية ومعارفه المتنوعة ، كانت مركز إشعاع حضاري لا تضاهيها مدينة أخرى في ذلك العهد باستثناء الكوفة التي كانت مع البصرة قطبي الثقافة الإسلامية والعربية في تلك الفترة ، والوطن الأول للعلم والفلسفة والأدب ، والمصدر الحبيب للحياة الزاخرة التي حفلت بها بغداد في نهاية القرن الثاني . شهد الجاحظ في البصرة حركة علمية مزدهرة ، ونشاطاً ثقافياً متنوعاً ، وعلماء أعلاماً في تخصصاتهم ، من مجاميع اللغويين والنحويين والاختياريين والشعراء ، إلى الفلاسفة والمتكلمين من كل الفرق الإسلامية وغير الإسلامية ، إلى المتخصصين في العلوم الطبيعية كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء ، إلى حلقات الفقهاء والمفسرين ورواة الحديث والوعاظ والقصاصين . ولعل حلقة القصاصين - بنوعها الرصحاء منهم كالحسن البصري ، والظرفاء - من بين الحلقات الثقافية التي اشتهرت الجاحظ وأثرت عليه ، فقد زاد هؤلاء القصاص الظرفاء في تجاربه الإنسانية كما تدل على ذلك

(١٢) شوقي شبيب ، القصور الدياسي اللغوي ، ص ٨٩ .

(١٣) شارل بولا ، الجاحظ ص ١٦٤ - وقد عقد بولا في كتابه فصلاً من القصصيين والوعاظ ص ١٦٦ - ١٦٤ .

(١٤) انظر له الجاحظي ، الجاحظ ، ص ٧٨ ، وشارل بولا ، الجاحظ ، ص ١٧ .

جعلها واضحة في علمه وأدبه . لقد مثل الجاحظ في كتاباته تشعب الحركة الفكرية ، وانطلاق العلوم ، واتساع الأفاق ، والبحث العلمي المؤسس على التجربة والعقل ، فخاض في أبواب شتى وموضوعات متشعبة . كتب في الاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والمقائد ، وكتب في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ، وكتب عن المجتمع وطبقاته المختلفة من العلماء والأدباء وكُتّاب الدواوين والمعلمين والتجار والفقراء والبهلّاء والموالي والنصوص والمكذّبين والنساء والمجراي والرقائق ، صوراً متعلّقة للمجاعة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية رسمها بلغة نثرية أدبية ، في كل مؤلفاته^(١٧) .

وإذا كان الجاحظ قد خاض في كل تلك الموضوعات بشخصيته الموسوعية الفذة ، ويعقلته العلمية وينزعتها النقدية المستندة إلى التجربة والعقل ، فإنه طبع مؤلفاته ، بطابع الفن والأدب . واستطاع أن يزواج بين نزعه الأدبية وصفته العلمية مما خلف شكلاً من أشكال التعبير الأدبي الذي يمتاز برهافة الحس وخصوبة الخيال وقوة الملاحظة ، وقدرته على التغلغل في دقائق الموجودات واستشغاف الحركات النفسية المختلفة ، إضافة إلى عبارات طيبة ، وصور حية نابضة ، وأسلوب لفظي يتسم بالبساطة والدقة والجمال . حتى أصبح أستاذ العصر يروّق الكبير والصغير والعالم والجاهل ، إذ كان كل إنسان يجد فيه ما يطلبه من تنوع يبعد عن السأم ،

بطابعها العقلي ، فقد كانت السمة الغالبة على الثقافة البصرية في ذلك العهد هي العقلانية والنظرة الواقعية ، وميل العلماء إلى تحكيم العقل والمنطق في احتجاجاتهم ومؤلفاتهم ، ونزوعهم نحو الجدل العقلي ، حتى صار الجدل سمة من سمات المجتمع البصري . فقد عبد النيزري في كتابه (نهاية الأرب) تسعة أجناس ، لكل جنس خاصته العقلية أو الخلقية منها أن البصري لا يخلو من جدل^(١٨) . ولعل بيئة البصرة الثقافية كانت من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار النثر العربي ومضاماته للشعر . ذلك أن العصر لم يكن عصر خيال واندفاع ، وإنما كان عصر رؤية وتفكير عقلي . ومصدر هذا إنما هو الحركة العلمية الواسعة والنشاط المعرفي المتنوع والتيارات الفكرية المتصارعة التي شهدت البصرة ، مما دعت الناس إلى أن يتفكروا . وكان النثر هو اللسان الذي يعبر عن هذا كله ، فقد أصبح فناً تؤدي فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها^(١٩) .

ومن طريق القراءة والمطالعة والاختلاف إلى حلقات العلم المتنوعة استطاع الجاحظ أن يكون ذا ثقافة واسعة تجعل منه دائرة معارف حية ، فقد حل في عقله جميع معارف عصره في الأدب والدين والعلم والفلسفة . وعاش الجاحظ عصره وزمانه وكان له دور في مجتمعه ، ومن هنا جاء تفردّه وامتيازّه . وإذا كان عصره قد تميز بحرية الفكر ، فإنه تمكن من تصوير هذه الحرية ، مما

(١٧) طه تاجيحي ، الجاحظ ، ٤١ . وقد عقد الجاحظ في كتابه (الجاحظ حياته وآثاره) فصلاً طويلاً لما تحدث فيه عن العلاقة بين البصرة والفكر ، وقطاع الفنون وفهردها بين المذنبين ، لعل إلى أن البصرة مثل الطابع العقلي ، والكتابة مثل الطابع الفطري أو السري من هنا كانت البصرة مهد الاختزال وبلد الميزنة ، والكتابة مهد التشعب وبلد الرافعة . أنظر مقدمة لكتّاب (البصرة وعصرها الطليعة البصرية) الصفحات ١٥ - ٣٥ . وكذلك أدب الشرق الفرنسي دارك بلال إلى نفس الحقيقة في كتابه (الجاحظ) ص ٣٥٤ .

(١٨) سيد حامد السليح - رسالة الفراف الميري ، ص ٦١ .

(١٩) ترك الجاحظ مؤلفات كثيرة جداً ، قبل أن يأتى على الفتنة والدين كتاباً ، منها على سبيل المثال : البيان والتميز ، البهلاء ، النساء ، البلدان ، النصوص ، رسالة الخرج والفرج ، رسالة الجدل والفرار ، رسالة فصل ما بين الدنيا والآخرة ، الزرع والغسل ، وغيرها . وقد ذكر الجاحظ بعض مؤلفاته في مقدمة كتاب (الجواهر) ، كما عدّ باقيت الحسني في (معجم الأدباء) عدداً كبيراً منها .

البخل موضوع من المواضيع الانسانية ، وصفة من الصفات المضمومة التي يتسم بها بعض الناس . وقد تناول موضوع البخل كتاب عرب قبل الجاحظ وبعده ، كما تناوله الكتاب الإغريق القدماء ، والكتاب الغربيون . أما البخل عند الجاحظ فلا يتفصل عن البيئة المادية التي كان يعيش فيها ، ونعني بها البصرة ، للمدينة الثرية الغنية مادياً ، والتي انتقلت من منطقة بدوية قاسية تحاذي الصحراء إلى مدينة حضرارية تكلمت فيها الاموال الوفيرة لموقعها التجاري الماسم ، إلى جانب رخص المستوى المعيشي فيها . وقد أجل البعوي القول في خطورة البصرة من الناحية التجارية في قوله : والبصرة كانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها ومولها^(١٨) . والجاحظ نفسه يضرب مثلاً على رخص الأسعار في البصرة فيقول : (ولو أن رجلاً ابتنى داراً يتمها ويكملها يبغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في موضع من هذه المواضع ، فبليت نفقتها مائة ألف درهم ، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق حسين ألفاً . لأن الدار إما يتم بثلاثها بالطين والأجر والأجلاء والساج والخشب والحديد والصناع ، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر عما لا يمكن في غيرها^(١٩) . هذه البيئة الثرية الرخصة أوجلت طبقة ثرية مترفة من التجار وكبار الملاكين ، تمتلك المال وتحكم التجارة ، ومعظمهم كانوا من الموالي فشدتهم الحركة التجارية الواسعة في البصرة فشكّلوا الطبقة البصرية البرجوازية كما يسميهم شارل بلان ، ويرى أن البخل الذي أنشأ عليه الجاحظ كتاب البخله كان صفة بارزة

وتصوير أخلاقي العصر وفئات الناس وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح ، مما أوجد صلة بين الناس وبين ما مثله لهم .

للمعارف الاجتماعية التي اتسع فيها الجاحظ ، اتاحت لنزته الأدبية أن تتخذ من الحياة الاجتماعية الواقعية موضوعاً لها ، فأتبع للأدب العربي هذا النوع من الأدب الموضوعي ، الذي لا تطفئ عليه المذات طغياناً كبيراً^(٢٠) . ذلك هو الجاحظ الذي يتمثل فيه النموذج الحلي للأدب ذي الأسلوب المتميز ، والنتج الواضح ، والروايات الاجتماعية ، والنظرة الموضوعية .

كتاب البخله^(٢١) :

بعد كتاب البخله من أمتع كتب الجاحظ التي وصلتنا ، جمع فيه مجموعة كبيرة من أخبار وتناول البخله ، وحلل نفسياتهم تحليلاً دقيقاً في شكل في يقترب من فن القصة ، بل إنه حافظ على وحدة الموضوع بقدر كبير ، متبعداً عن ميزة من أهم سمات كتاباته الأخرى ، وهي ميزة الاستطراد والخروج من الموضوع الرئيس إلى مواضيع مختلفة ، واستطاع أن يجعل (البخل) موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتمعة فنية راقية ، ولوناً من ألوان الفكاهة المغلفة بشوب قصصي ، جاعلاً كل شخصياته وصوره ومواقفه وأحداثه في خلعمة الموضوع . وقبل أن نتناول الشكل الفني في قصص البخله ، نود أن نشير إلى موضوع الكتاب ، وهدف الجاحظ منه ، وغنياته .

(١٨) سيد حميد الشناج ، رحلة التراث العربي ص ٦٢ .

(١٩) حقق كتاب البخله مرات عديدة ، وطبع طبعت هائلة . فقد حققه لأول مرة للشرق الفرنسي (فان فارتان) ونشره عام ١٩٠٠ . حققه أحمد النعماني وعلي الجارم عام ١٩٢٨ . ثم حققته لجنة من أعضاء للبحث العلمي العربي بدمشق . وحققه ده الجاهري عام ١٩٤٨ وطبع عدة مرات . وحققه فوزي سكري ونشره في بيروت عام ١٩٦٩ . إضافة إلى مجموعة من الطبعت المختلفة غير أننا نعتصم في هذه الدراسة على كتاب البخله ، تحقيق ده الجاهري ، طبعة الناصرة ، دار الشؤون ، القاهرة .

(٢٠) ده الجاهري ، الجاحظ ص ٣٨ .

(٢١) كتاب الأوطان والبلدان ، للجاحظ ، خاتمة لتلخيص الرحلان رتبة ١٩٩ تتألف من ده الجاهري ، الجاحظ ، ص ٣٩ .

للطبقة البصرية البرجوازية التي أثرت بفضل اقتصادها المفرط^(٢٢).

إن حركة تجمع رأس المال في هذا العصر ، والثراء الفاحش لهذه الطبقة ، والنقلة المفاجئة في حياة المجتمع المادية كان له دوره في تغيير المفاهيم والقيم والعلاقات الاجتماعية . فبدايات تبرز ظواهر جديدة في العصر العباسي ، منها ما سته د . وديعة النجم (الرومي المالي) وهو إحساس الفرد بقيمته بسبب ما يمتلك من مال^(٢٣) . ويدلت مختلف المقاييس بالنسبة لسكان الحاضرة وتحمل علاقات جديدة مكان العلاقات القبلية ، فلم تعد علاقة الدم والنسب هي التي تقرر كثيراً من معاملات الناس ، بل قد يكون للسائل أهمية أكبر . وبخلاف الجاحظ يؤكسدون هذه الحقيقة ، يقول أحدهم : (لا يقال لرجل بخيل إلا وهو ذوال مال)^(٢٤) ويقول آخر : (إن المال عروس عليه ، ومطلوب في قمر البحار وفي رؤوس الجبال وفي ذغل الغياض ، ومطلوب في الوعرة كما يطلب في السهولة ...)^(٢٥) .

هذه الطبقة الغنية - طبقة التجار والأثرياء - التي حققت بنجاح ذاتها وصورت مثلها ونظرتها إلى الحياة ، كانت بطبيعتها أكثر الناس تقديراً للمال ، وأشدهم مغالاة به ، وحرصاً عليه مع اختلاف أفراده في هذا . وقد ساعد الجو الفكري المذهبي على التمييز عن هذا الحرص مذهبياً ، ويعرض كتاب البخلاء مفهومهم للمال ، ويكشف عن مذهبهم الاقتصادي القائم على (الجمع والنتج) كما يقول الجاحظ^(٢٦) . غير أن مفهوم

البخل والحرص الشديد على المال الذي انتصت به هذه الطبقة يناقض مفهوم الكرم عند العرب ، والعرب معروفون بطبيعتهم السمحة وميلهم الفطري إلى الجود والكرم ، لذا أثار البخل دهشتهم واشمئزهم وبالتالي حقنهم على البخل والبخلاء . وقد عقد الجاحظ في الكتاب فصلاً عن علم العرب في الطعام مشيراً إلى صفة الكرم التي يتصف بها العرب ، وكان الجاحظ أراد بهذا أن يعقد مقارنة بين البخل والكرم ، ناقداً الأول كصفة ذميمة ومادحا الثاني كصفة حميدة .

لكن هل كان الجاحظ يهدف - في البخلاء - إلى الرد على الشوعية التي كانت تأخذ على العرب إسرارهم وتبذيرهم وأطمعهم الجحافة الخشنة ؟ كما كان موقفه منهم في (البيان والتبيين) ورد على مزاعمهم في أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، وأن الفرس أخطب من العرب ، من خلال ما عرضه في الكتاب من صورة واضحة للبلاغة العربية . إذ خصصه لمرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كما يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويشربوا إلى رشدهم^(٢٧) . لا سيما وأن المعتزلة ومنهم الجاحظ وغيرهم ، كالكاتب السني المحافظ ابن قتيبة وقفوا يدافعون بقوة عن العروبة والإسلام ويردون على الشوميين والزنادقة اتهاماتهم الباطلة .

يبدو هذا الهدف مقبولاً في البخلاء بشكل عام فهو - على الأقل - ينسجم مع مواقفه الأخرى تجاه الشوميين

(٢٢) شارل بلا ، الجاحظ ، ص ٣٤٨ .

(٢٣) وديعة النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، ص ١٥٥ .

(٢٤) البخلاء ، ص ٦٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢٧) شوقي شبيب ، العصر العباسي الثاني ، ص ٩٨ .

نفسياتهم ، وكاشفاً عن طبائعهم الداعية بحسب الاجتماعي ونزعة الفئدة . والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بمجتمعه ، فقد صورته بكل إيجابياته وسلباته من خلال استعراض طبقاته المختلفة وظواهره المتعددة . ثم إن الجاحظ جمع شخصيات البخلاء وأحاديثهم وحاورهم في بخلهم بسخرية للمهودة ، ضاحكاً معهم ولهم ، فكانت أمثلة للبخل وغناج للفكاهة . وثالثاً : ما أورده الجاحظ عن طعام العرب وكرمهم جاء في فصل ألحق في نهاية الكتاب تحت عنوان (أطراف من علم العرب في الطعام) بعد أن أكمل الجاحظ سرد حكايات ونوادر وقصص البخلاء من جهة ، ثم ما تحدث به الجاحظ عن طعام العرب وجودهم يؤكد أنه لصفة البخل ، ونقده لطبيعة البخلاء ومذمبهم ، وما استشهاده بالرسول الكريم ﷺ من أنه (لم يضع درهماً على درهم ولا لبنه على لبنه ، وملك جزيرة العرب فتبض الصدقات ، وجبت له الأموال ما بين حذار العراق إلى شحر حُمان ، إلى أقصى خاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، وجرعه مرهونة)^(٣١٦) إلا رد على طبيعتهم في الحرص الشديد وتخزين الأموال .

وأخيراً وإن كنا لا نعلم تلك التلميحات والإشارات - في كتاب البخلاء - إلى موقف الشعوية في هذا الجانب ، ولكن الجاحظ كان مخلصاً لموضوعه الفني في حكايات وقصص البخلاء أكثر من تركيزه على إبراز هذا الجانب .

في بقية مؤلفاته ، بل هو يشير في البخلاء صراحة إلى ما تأكله الشعوية على العرب من خشونة العيش . يقول الجاحظ : « والشعوية والأزاد مربية »^(٣١٨) للبغضون لآل النبي ﷺ وأصحابه ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالاسلام ، تزيد في جشوية عيشهم^(٣١٩) ، وخشونة ملابسهم ، وتنقص من نعمهم ورفاهة عيشهم^(٣٢٠) . وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث ، وأسوأهم حالاً إذا خفت السحاب^(٣٢١) . غير أن الرد على الشعوية ومطاعنتهم على العرب لم يكن هو المهدف الرئيسي في البخلاء ، ولا نذهب إلى ما ذهب إليه جميل جبر في أن الذي استدعى الجاحظ لكتابة البخلاء هو حقد الشخصي عليهم من جهة ، وعلته على الشعوية من جهة أخرى^(٣٢٢) . والتي يذهبون إلى ذلك أولاً : أن الجاحظ صور لنا البخلاء من كل جنس وصف ، فمتم الموالى الشعويون كسهل بن هارون ، ومنهم الموالى غير الشعويين ، ومنهم العرب الاتحاح كالأصمعي ، ومنهم الفقراء ، ومنهم الأذكاء ومنهم السذج البسطاء ، ومنهم حتى من المتزلسة أنفسهم ، وكل هؤلاء تجمعهم صفة واحدة هي البخل .

يعني هذا أنه كان ينتقد البخل كطبيعة من طبائع النفس الإنسانية من جهة ، وكظاهرة أبرزتها ظروف عصره حتى أصبحت مذمومة يدافع البخلاء عنه ويحادلون فيه من جهة أخرى . وثانياً : أراد الجاحظ أن يعطينا صورة من صور المجتمع العباسي بشكل عام ، والمجتمع البصري بشكل خاص ، واصفاً هذه الطبقة وصفاً دقيقاً ، عللاً

(٣١٨) الأزارقية : تسمية فارسية للاستعارة الإيرانية ، تسمية ينتشر بها قصص الشعوية ويصفون بها العرب وفترات العربي . انظر ترجمته في كتاب البخلاء - تحقيق طه

الحاجري ، ص ٤٢٩ - ٤٢٩ .

(٣١٩) جشوية عيشهم : خشونته .

(٣٢٠) رفلة : سعة العيش ورفاهته .

(٣٢١) البخلاء ، ص ٢٢٨ .

(٣٢٢) جميل جبر ، الجاحظ وجميع عصره ، ص ٣١ .

(٣٢٣) البخلاء ، ص ١٥٧ .

اقتحامه والإبداع فيه ، فكان كتاب البخلاء الذي ارتفع فيه عن الأسلوب الاخباري إلى الأسلوب الفني^(٣٤) .

على أن الأدب العربي القديم لم يخل من موضوع البخل والبخلاء ، فالشعر العربي حافل بما يشير إلى نيل هذه الظاهرة لانتفاها مع ما عرف عن العرب من جود وصفا ، ووجدت أيضاً في بعض الكتب الشريفة مثل المقامات ، وبعض النوادر والأخبار الواردة في ألف ليلة وليلة ، والمؤلفات الجامعة مثل (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، و (الاستيعاب والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي ، و (عيون الأخبار) لابن قتيبة ، و (معاصرات الأدباء) للراغب الأصفهاني ، و (المستطرف) للأبشيهي . غير أن معظم الذين تناولوا موضوع البخل بعد الجاحظ تأثروا بكتاب الجاحظ (البخلاء) وساروا على منواله سواء في موضوعه أو أسلوبه أو طريقة معالجته أو لغته أو حواره أو سفرته .

ومن هذه الآثار - على سبيل المثال لا الحصر - رسالة لأبي حيان التوحيدي وهو من أشد تلاميذ الجاحظ تأثراً وإعجاباً بأستاذه - سابقها مساق السخرية والتندر بأبي العباس أحمد بن ثوبان الكاتب ، والتي تعد صورة من أروع صور الفن التصويري الساخر وتبين بوضوح تلمذة أبي حيان للجاحظ وتأثره به في ذلك الاتجاه^(٣٥) . وهناك أيضاً الحكاية التي وضعها أبو علي الحافظي - من رجال القرن الرابع - على أستاذه علي بن هارون ، وصفها الحصري بأنها طويلة في نحو أربع مجلدات ، التزم في كتابتها وصناعتها نفس المنهج الفني الذي « استطاع الجاحظ أن يجعل منهجاً مقراً ، وفناً من الفنون الأدبية معتبراً »^(٣٦) . وأخيراً فإن الهذلي في مقاماته قد استفاد

زيعد فقد اعتمد الجاحظ في عرض قصص البخلاء على التحليل النفسي الاجتماعي لنفسية البخلاء ، ملاحظاً سلوكهم وتصرفاتهم في مختلف المواقف ، مركزاً على إبراز اهتماماتهم وعلاقاتهم بالآخرين ، متعرضاً لنظرياتهم في البخل ، ناقلاً حواراتهم ونصائحهم ووصاياهم بكل دقة وتفصيل وواقعية وبأسلوب فني سائر فكه . إن كتاب البخلاء شكل من أشكال (أدب الطبايع) الذي يعتمد على الملاحظة الدقيقة ، والتحليل النفسي والبعد الاجتماعي ، والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بأدب الطبايع ، ويعد شارل بللا ذلك مزية « من مزايا الجاحظ - وليست أقلها - إدخاله نوعاً جديداً وهو تصوير أخلاق الناس ، والمجتمع الإسلامي في حياته العادية »^(٣٧) .

ينبغي ونحن نتحدث عن كتاب الجاحظ أن نشير إلى بعض من تناولوا موضوع البخل والبخلاء في مؤلفاتهم من الكتاب العرب والأوربيين ، وهو ما يعطي بخلاء الجاحظ قيمة حقيقية وتقديراً مقبولاً . فالجاحظ ليس أول من تناول موضوع البخل وليس آخرهم ، فقد أشار هو نفسه في (البخلاء) إلى بعض الأساء التي تناولت حكايات البخلاء وأخبارهم ، مثل أبو عبد الرحمن الثوري ، وسهل بن هارون ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبي الحسن اللذان^(٣٨) ، كما ذكرها ابن النديم في الفهرست أيضاً . غير أنها كانت كتابات إخبارية لا فنية لها ، وتعرض صوراً من الحياة الماضية دون الحياة الحاضرة ولكنها مع ذلك كانت بما لفت الجاحظ إلى هذا الموضوع - كما يرى طه الحاجري - ونبه نزعة الفنية إلى

(٣٤) شارل بللا . الجاحظ ، ص ٣٠٢ .

(٣٥) البخلاء . الصفحات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٨ .

(٣٦) البخلاء . طه الحصري ، ص ٣٢ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣٨) المصدر السابق .

فيه صوراً من الحياة العربية كما أراد الجاحظ ذلك في البخلاء .

أما بالنسبة للكتاب الغربي فقد عالجوا موضوع البخل على أساس الوحدة الروائية الطويلة (قصة أو مسرحية) . منها ما ورد في الأدب الأجنبي قبل الميلاد مثل مسرحية (أريستوفان Aristophane) للسماة (بلوتس Ploutos) سنة ٣٨٨ ق.م والتي ظهرت فيها أول شخصية للبخل في الأدب ، وهي شخصية (كرمييل Chremyle) . وهناك شخصية البخل (اكليون Eucleon) بطل مسرحية (قدر الذهب) التي كتبها (بلوت Plaute) حوالي ١٩٥ ق.م ، وغيرها من الأعمال المسرحية اليونانية الكثيرة ، التي حفلت بشخصية البخل وبظاهرة البخل . ومنها ما ظهر في الأدب الأوروبي في العصور الوسطى والحديثة مثل مسرحية (البخيل) لموليير ، حيث يقف بطله (هارباجون) كأشهر بخل في الأدب الأوروبي ، وفي مسرحية (بيوتي مالمط) ١٦٣٠ (لكريستوفر مارلو C. Marlow) حيث نجد فيها نموذجاً جديداً للبخل (بارباس) وكأنه ممدد لأنموذج (شيلوك) لشكسبير في مسرحية (تاجر البندقية) ١٦٩٥ ، وغيرها من المسرحيات الكثيرة . حتى نصل إلى القرن التاسع عشر حيث تعرضت القصة التاريخية للبخل في قصة (أيفنبر) سنة ١٨١٨ للكتاب الإنجليزي (والتر سكوت) . وفي (الفارس البخل) ١٨٣٠ للكتاب الروسي بوشكين نجد صورة للبخل الجشع القاسي الذي لا يعرف إلا جمع الثروة مستيحاً كل شيء في هذا السبيل . وفي قصة (أوجيني جيراندييه) ١٨٣٣ للكتاب الفرنسي

من قصص بخلاء الجاحظ ، بل إن في شخصية بطل المقامات ملامح كثيرة من خالد بن يزيد أو (خالويه الكندي) إحدى شخصيات بخلاء الجاحظ ، وهذا الصمد يقول شارل بللا : إن « المستشرق آدم متر قد لاحظ ذلك عند ما قال : إن طريق الجاحظ يقود إلى المهداني ماراً بالأحشف الكبير شاعر المكدين الكبير ، فهو بذلك قد تناول الموضوع الذي أوجده الجاحظ في فصله الذي عقده عن خالويه ، فخلق بطلك نموذج شخصية أضفى عليها المهداني شكلاً جليداً » (٣٧) .

عل أن تأثير الجاحظ وكتابه البخلاء ظل قوياً ممتداً على الأدباء العرب حتى العصر الحديث ، فله حسين على سبيل المثال من أكثر الأدباء المحدثين تأثراً بالجاحظ وأسلوبه ، وهو شديد الإشادة بفكر الجاحظ وعقله وأسلوبه وسفرته وطريقته في الحوار والجدل ، « وليس ثمة من ينكر إعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ وتقليده إياه في تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية ، بل إن السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التي يكشف عنها التأمل الدقيق في كتابات طه حسين موردها كتاب البخلاء للجاحظ » (٣٨) . وتوفيق الحكيم نموذج آخر - لا ينبغي إعجابه بكتابات الجاحظ وكتابه البخلاء بشكل خاص ، فهو يرى أن الجاحظ قد أنشأ فناً جديداً بالنثر أقرب إلى فن الكاريكاتير بالرسم قبل وجوده في القرن السادس عشر عند رابليه في كتاب (الأحلام المضحكة) وإيراسم في كتابه (تمجيد الحماسة) فهو من أسبق الكتاب إلى التصوير الكاريكاتيري (٣٩) . وكتاب البخلاء هو أحد الكتب التي جعلت الحكيم يفكر في كتابه (أشعب أمير الطفيلين) الذي حرص أن يرسم

(٣٧) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٧٧ .

(٣٨) سيد حطت السج ، رحلة فترات العربي ، ص ١٣٢ .

(٣٩) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص ٣٦ .

(بنزائك) يعرض من خلال شخصية الأب (جراندب) صورة نفسية للبلبل . وهناك إضافة لما ذكرنا عدد كبير من المسرحيات والروايات الإغريقية تناولت موضوع البلبل بما لا يسمح لنا المجال هنا بإحصائها^{٤١٠} .

بقي هناك قطعة أخيرة نود الإشارة إليها قبل تصفح حكايات البخله وقصصهم ، نطرحها على شكل تساؤلات وهي : إذا كان الجاحظ يتنازل في كتاباته بشكل عام وفي بخلاته بشكل خاص بصفة الواقعية والموضوعية والالتزام الحياتي فيما ينقل من الواقع من أختبار وحكايات وصور ، فهل كان الجاحظ مجرد ناقل حر في الواقع ؟ وهل كانت الشخصيات بأشكالها وتصرفاتها وحوارها ولغتها وأحاديثها صورة طبق الأصل لما هم عليه في الواقع ؟ أم أنه كان يعمل بخياله ويكذب ذاته فيما ينقل ؟ هذه التساؤلات هي قضية الكاتب الواقعي بين واقعه ولغته ، بين واقع يتخلده مادة لموضوعاته وبين فن لا يريد له الإسفاف . أما الجاحظ في بخلاته فقد كان حريصاً على نقل صور من الواقع بكل أمانة وموضوعية ودقة فهو ينقل نواذر وحكايات مستقاة من بيئته البصرية ، ويصرح بكل أمانة ببعض أسماء أبطال قصصه التي لا يرى ضرورة من ذكرها ويخفي بعضها الآخر إكراماً لأصحابها أو خوفاً من إهانة^{٤١١} . بل ويذهب بعد من ذلك حين يؤكد أنه ينقل كلام البخله كما هو في "واقعهم" بل موضوعية ، يقول (وإن وجدتم لنا أو كلاماً غير معرب ولقظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يفضض هذا الباب^{٤١٢}) . ومع ذلك ، ينقل الجاحظ قصصه وشخصياته من الواقع دون

انتقاء واختيار وتشذيب ، كان يتدخل فيها ينقل من الواقع ، تدخل الفنان الواقعي الواهي لفنه . لم يخلق الجاحظ شخصيات من خياله كأغلب شخصيات القصص الخيالية ، بل هي شخصيات حقيقية عاش معها وعاشها ، ولم يخلق المواقف التي زج بها شخصياته من خياله ، بل هي أحداث وقعت لهم بالفعل ، ولم يلصق بهم أفكاراً غريبة عليهم ، بل هي أفكارهم ونظرتهم إلى الحياة وطريقتهم ومنهجهم فيها . لكن يبقى للجاحظ فضيلة حسن اختيار الشخصيات وحسن اختيار الأحداث والحوار والمواقف وإدخالها بقالب في قصصي شيق ، دون أن يمسحهم من الحياة فتشرد شخصيات خيالية بعيدة عن الواقع ، إنه حرص الكاتب الواقعي على فنه من الاسفاف والابتذال . لم يكتب سهل بن هارون رسالته المذكورة في البخله بل كتبها الجاحظ على لسانه لكنها لم تخرج عما يؤمن به سهل بن هارون ، ولم يتحدث الكندي بنفس المنطق الذي نجده في البخله ، لكن الجاحظ لم يخرج بملاحظات الكندي مع مستأجره عما ورد في رسالته وهكذا في بقية القصص والحكايات . إن الشكل الفني الذي صب فيه الجاحظ حكايات بخلته هو قالب جاحظي ، وكما يقول أحمد العوامري وعلى الجارم (الديباجة دياباجة^{٤١٣}) ، هذا العنصر الفني هو العنصر السائد في الكتاب سواء في انتقاء الأحداث أو في رسم الشخصيات ، أو في إدارة الحوار :

غير أن هذا المنحى الفني الذي اتبعه الجاحظ في وضع الأحداث وتوليدها قد يثير بعض المتزمتين ، والجاحظ

٤١٠- في موضوع بحث في أدب العربي حشر مع بخله الجاحظ للفروق سعد ، وسطه التراث العربي للذكور سيد محمد السليح ، الجاحظ لشكر بللا ، الجاحظ والمناصرة حامية للمكتبة وبيدة شحيم

١٢٦- بخله . ص ٩

٤١١- العنصر السبق . ص ٥٠

١٢٧- بخله . تحقيق أحمد العوامري وعلى الجارم . ص ٦

من أهله ورسالة الكندي الى مستاجر بيته ورسالة ابي المعاص ورؤا ابن التوام عليه وحديث خالد بن يزيد . أما القسم الثالث فقد أبود الجلاظ فيه أطرافاً من علم العرب في الطعام ، متعرضاً للطعام عند العرب وأنواعه وولائمهم ومناسباتهم وما يتماحدون به في هذا الباب ، مستشهداً بجملة من النصوص مستقلة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة والسلف الصالح ونصوص من الشعر والنثر العربي . والذي ييمنا في دراستنا للشكل الفني في كتاب البخلاء هو القسم الأول ، وهو مجموعة من القصص الواقعية السانعة تنضج فيها مواصفات كثيرة من فن القصة من خلال التصوير الدقيق للمشاهد والشخصيات والتحليل الفني للشخصيات والحوار المتنوع للحكم ، والهمز والسخرية المتقنة ببنائية ، واللغة البسيطة المفعمة بالحياة المثارة بالجمع والمستمدة من الحياة ، وتشل الجلاظ الدقيق لتجارب الآخرين المختلفة ، مع ابعاده عن مسرح القصة ، إضافة الى عنصر التشويق والمفاجأة وغيرها من العناصر الفنية في قصص البخلاء والتي ستوردها مفصلة بعد أن نحلل بعضاً من قصصه .

في قصة (زبيدة بن حميد) - وهو صيرفي كبير من اشرىاء البصرة أشهر البخلاء^(٤٤) - يهدف الجلاظ للتعريف بهذا البخل قبل أن يزجّه في الموقف الرئيسي في القصة ، فيروي لنا بعضاً من سلوكه وتصرفاته إزاء الآخرين ، راسياً بذلك أبعاد هذه الشخصية كي لا يفساجاً الفاريء بطريقة تصرفها في الموقف الذي تواجهه . يجلنا الجلاظ عن (زبيدة) أنه استلف من يقال كان على باب داره درهمين وقيراطاً وبعد ستة أشهر

نفسه كان يعني ذلك ويدرك أنه قد يتهم بالكلب والتزوير على الواقع لهذا تحدثت في مقدمة البخلاء عن التوليد فقال : (ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جبين ، وألحيشم بن مطهر ، وعزيد ، وابن أحر ، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون ، ولو ولدت نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها الى صالح بن حنين ، وإلى بعض البغضاء لمادت باردة ولصارت فاترة ، فإن الفاتر شر من البارد^(٤٥) . وما ذلك الوضع والتوليد إلا نزعة الجلاظ الفنية التي تدفعه إلى استبطان النوازع النفسية المختلفة ، وتصوير الخبجات الذهنية بأسلوب فني جميل ، « ليس بالتقرير العلمي الجاف ولا السرد الواقعي المجرد ، وإنما هو تصوير حي يقرؤه القارئ فلا يكاد يحس أنه يقرأ كلاماً بل يغمره شعور بأنه يشهد صورة من الحياة النابضة ، كما تتمثل في هؤلاء الأشخاص الذين يتكلم الجلاظ بلسانهم ، على ما هو معروف عنهم ، واشتهروا به عند خلطائهم^(٤٦) » . ان واقعية الجلاظ تكمن في تلك الصور التي يفتارها من الواقع ثم يجعلها تنبض بالحياة من خلال عرضها بأسلوب طبعي جميل أشبه شيء بحياة الحياة نفسها .

القصة في كتاب البخلاء :

يمكن تقسيم كتاب البخلاء الى ثلاثة أقسام : قسم يحتوي على مجموعة من النواذر والحكايات والقصص عن البخلاء وهو القسم الأكبر من الكتاب ، وقسم ثان يحتوي على مجموعة من الرسائل والنصائح المتبادلة بين البخلاء كرسالة سهل بن هارون على من عاب مذهبه

(٤٤) البخلاء ، ص ٧ . أما الحارث بن جبين ، وألحيشم بن مطهر ، وعزيد ، فهم من أصحاب النواذر للشهيدون أما صالح بن حنين فكان معكفاً سجيناً بارداً نادراً ، لما ابن التوام لهو أحد زعماء الرافضة . انظر ترجمتهم في البخلاء - تحقيق طه الخفاري - الصفحات ٢٦١ - ٢٦٤

(٤٥) البخلاء ، مقدمة طه الخفاري ، ص ٤٢ .

(٤٦) انظر ترجمة (زبيدة بن حميد) في البخلاء ، تحقيق طه الخفاري ص ٢٦٨

(زبيدة) وراح يلاحظه من بعيد : (وسكر زبيدة ليلة ، فحسا صديقاً له قميصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البسوات . وعلّم أن ذلك من هفوات السكر . قمضى من ساعته إلى منزله ، فجمعه برنكاناً لامرأته . فلما أصبح ، سأل عن القميص ، وتفقده . فقيل له إنك قد كسوته فلائاً . فبحث إليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه ويومه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فاني أكره ألا يكون لي حد ، وإن يوجه الناس هذا مني على السكر ، فردّه علي حتى أهبه لك صاحباً عن طيب نفس ، فاني أكره أن يلعب شيء من مالي باطلاً . فلما رآه صمم أقبل عليه فقال : يا هناء ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : ابي والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جئته لأمرائي . وقد زدت في الكمين وحللت المقادير فان أرتعت بعد هذا كله أن تأخذ فخله . فقال نعم أخشاه ، لأنه يصلح لأمرائي كما يصلح لأمرائك . قال : فانه عند الصباغ . قال : فهائه . قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع ، قال : بابي وأمي رسول الله ﷺ - حيث يقول : جمع الشر كله في بيت ، وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر) (٥٠) .

هذه الحكاية تقترب إلى حد بعيد من القصة وتجمل عناصرها الفنية ، فنحن هنا نراه حادثة وموقف وحوار ، بل بداية ووسط ونهاية أو ما يسمى في فن القصة بلحظة

من مدخلية في رد الدين دفع للبقال ناقصاً (قيراطاً وثلاث حبات شعير) فاعتناظ البقال وذكره بأنه غني يملك آلاف من الدراهم ، ويرد الدين ناقصاً ، بينها هو - (القيراط) - الذي يعيش بكنهه وتعبه قد صنع به معروفاً حين سد عنه في غيبته مبلغاً كان مطلوباً . فقال زبيدة : يا مجنون أسلفتني في الصيف ففسيكت في الشتاء وثلاث شعيرات شتوية نسيمة ، أوزن من أربع شعيرات صيفية . وما أشك أن معك فضلاً) (٤٧) . هذا جانب من جوانب الشخصية ، وهو بعد تنطلق منه الشخصية في تعاملها مع الآخرين . ثم يكشف لنا الجاحظ بعداً آخر في تعامل (زبيدة) مع غلمانها ، فهو يضربهم بحجة أنهم يأكلون (الجوارشن) وهو دواء خصص للهمم . ويستكر صديق له هذا الضرب المبرح فيسأل رئيس الغلمان عن حقيقة الضرب فيحتاج به يتلوى من الجوع وأنه لا حاجة به إلى ما يضم . . . (ولا يحتاج إلى الجوارشن ، ونحن الذين انما نسمع بالشيخ سمعاً من فواء الناس . ما ننتع بالجوارشن) (٤٨) . وجانب ثالث يكشفه الجاحظ أيضاً في تعامل (زبيدة) مع زواره حين يشتد على غلمانها لأمهم بتصفية للاء وتبريده وتزويده . فقال له أحد الزوار : (مر بتزويل الخبز وتكبيره فان الطعام قبل الشرب) (٤٩) . وهذا الشكل متكامل الجاحظ لتقديم شخصيته المحورية (زبيدة) بن حيد (كيف أنه يميل في الطعام ، ولا يرد الدين الا ناقصاً ومتأخر) وكيف يضرب غلمانها بخللاً وظلماً ، حتى يصل الجاحظ إلى الحادثة الرئيسية الذي يواجهه

١٧٠ . الجلاء . ص ٣٥

١٧١ . صمد نكر . ص ٣٩

١٧٢ . صمد نكر

١٧٣ . صمد نكر

١٧٤ . فموت ما يولد من الرجوع بعد أن يصغر من السكر

١٧٥ . صمد نكر

١٧٦ . صمد نكر

١٧٧ . جعلت له جيباً . والجيب ما يتبع من أهل الصغر .

١٧٨ . تعليم القمص : ما يولد منه أولاً .

الطائف ، ولم يأمن المستنفي . فقال : لو دقت الباب على أبي مازن ، فبت عنده في أحدى بيت أو في دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنثي شيئاً ، حتى إذا تصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين . فدق عليه الباب دقاً مدلّ ودقّ من يخاف أن يدركه الطائف أو يقفوه المستنفي ، وفي قلبه عز الكفاية والثقة باسقاط المؤنة . فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعاً . فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت . فلما رآه جبل واجماً لا يحير كلمة ، قال له : إني خضت معرفة الطائف وصحبة المستنفي فملت اليك لأبيت عنذك . فتسأكر أبو مازن ، وأراه أن وجوهه إنما كان بسبب السكر . فخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، أنا والله سكران . قال له جبل : كن كيف شئت . نحن في أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح فأعمّ عيالك بلخر ، ولست أحتاج إلى لحاف فأكفلك أن تؤثرني بالفتار . وأنا كما ترى ثمل من الشرب ، شبعان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أنصب الناس رجلاً . وإنما أريد أن تدعني أغقي في دهليزك إغفامة واسعة ، ثم أقوم في أوائل المبكرين . قال أبو مازن : وأرض عينيه ولكيه لسانه ، ثم قال : - سكران ، والله ، أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إن أنهم ما تقول .

ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر حتى حل هذه الحيلة^(٥٦) .^(٥٧) في هذه القصة شخصيتان وحوار ،

التوير ، وأمعنا شخصيتان رئيسيتان تصارعان . أما الشخصيات الأخرى كالبقال والصديق ورئيس المعلمان فهي شخصيات ثانوية أضفت على الشخصية الرئيسية أبعاداً تحلّم الموضوع الرئيسي ، والكتاب لا يزع نفسه في هذا الصراع بل يرقبه ويصوره من بعيد ويمكس الحوار الدائر بين الشخصيتين أفكار كل شخصية ونوازعها وطموحها ومشاعرها ، ولكل شخصية قدرة على التصرف والتحايل . والجناح يتعد هنا عن كل استطراد أو شرح أو تفصيل أو تعقيب ، كما أنه استغنى عن كثير من الجزئيات والتفصيلات إلا ما يندم للموقف الرئيسي ويكشف الشخصية من الداخل ، دون تدخل من الكاتب لأنه وعد بعدم التدخل سواء بالتعليق أو بالفرض أو بالاحتياز . « » كنا نلاحظ أنه في النهاية وعندما يش زبيدة بن حيد الصيرفي نسب ما أسماه بالشرا إلى السكر . الشر في نظره هو الكرم ، لأن البخل هو الخير الوحيد المأمون عند البخلاء . وإذا كان ثمة نقیصة في سلوكه فلما تكمن في إقدامه هذه المرة على إكرام لديه بإهدائه ذلك القميص^(٥٨) . إن تمهيد الموقف الأساسي في هذه القصة لم يأت اعتباطاً فقد مهدت له اللوحات التي سبقت الإشارة إليها .

وفي قصة أخرى بطلاها (أبو مازن وجبل الذمر) يرسم الجناح صورة لتصرف البخل في المواقف المفاجئة ، لذا ينقلنا - دون تمهيد - إلى الموقف مباشرة . تقول القصة : -

(وكان جبل يخرج ليلاً من موضع كان فيه ، فخاف

(٥٦) سيد محمد النديج ، رحلة الفرات العربي ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٥٧) الطائف : هو الذي يطوف بالبلدية ليلاً بأمر الحاكم لينفذ أوامره .

المستنفي : هو الذي يخفي الأثر للسلب .

المدلجون : السارين آخر الليل .

ألطف النظر : أتم النظر .

(٥٨) البغلاء ، ص ٣٩ .

جوارحه أعماء .

إن أنهم ما أنهم

دق مدل : في دق واقف من منزله عند من دق عليه

تسأكر - تظهر بالسكر .

تقول القصة :

(ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، وذلك : أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يبيع ويتجر ، ويتزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤتة . ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي ليت أني قد رأيتك بمرو ، حتى أكاشفك ، لقديم إحسانك ، وما تجتهد في من البر في كل قلعة . فلما همنا فقد أغناك الله عني . قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان مما هوّن عليه مكاييد السفر ووحشة الاختراب ، مكان المروزي هناك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليعط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بقلته وموضع أنسه . فلما وجدته قاصداً في أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العراقي في نفسه : لعن إنكاره إليّ لي مكان القناع فرمى بقناعه ، وابتدأ مسامحته ، فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أن من قبل العمامة ، فزعهما ثم انتسب ، وجدد مسامحته ، فوجه أشد ما كان إنكاراً . قال : فلعله إنما أن من قبل القلنسوة . وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتفاؤل والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أهرقك^(٥٤) .

في هذه القصة مقدمة سردية توضح علاقة الرجلين ، وإكرام العراقي لزميله المروزي ، ودعاء الثاني ببرد جيل الأول لو رآه بمرو . ويقع الحدث ويتقابل الرجلان في مرو ويسقط في يد المروزي فيدعي الانكار ، وهي سيلة من حيل البخلاء الكثيرة التي أوردها الجاحظ في الكتاب . يستغني الكاتب عن الحوار مستخدماً أداة

ووجهتنا نظراً وبداية ونهاية . وفيها تصوير نفسي لشاعر شخصية (جبل الغمر) الذي يخالف العسس والشعور ويبحث عن مأوى بيت فيه . ثم رآه الفعل عمل الشخصية الثانية (أبو مازن) الذي تجسد في صناعات البلاء والسذاجة والمبالغة في السكر كحيلة من حيل الخيل للتهرب من المواقف المحرجة التي يقع فيها . وقد اعتمد الجاحظ في تصوير رد الفعل وانكاساته على أبي مازن على الرسم الكاريكاتيري للشخصية : (أرضى عينه ، وفكه ، ولسانه) الشكل الخارجي المضحك وهو لون من ألوان الضحك الذي يزرع به كتاب البخلاء .

إضافة إلى وحدة الشخصية ووحدة الحدث ، ووحدة الأثر من عناصر القصة الفنية والتي تحققت في هذه القصة ، فإن للموقف إطاراً زمانياً محدداً الجاحظ في البداية : (خرج ليلاً من موضع كان فيه) بمعنى وحدة الزمان والمكان التي لها أثر بلائي شك في تحديد الموقف وربط القصة بالواقع .

قدم الجاحظ أجناً متنوعة من البخلاء . وخص بخلاء مرو بعدد من الحكايات والقصص من أهلها ويخلفهم الشديد الذي يراه الجاحظ طبيعة جيلوا عنها .

يقول : (إن البخل طبع منهم وفي أصرارهم وفيهم)^(٥٥) . ومن هذه القصص قصة (المروزي والعراقي) التي جاءت بعد مجموعة من الحكايات من بخل أهل هذه المدينة ، مما أعطى القارئ صورة واضحة جلية عن بخلاء مرو .

٥٣. نحمد الله . ص ١٩

٥٤. نحمد الله . ص ٢٢

الحواريته وبين الجاحظ . يسأله الجاحظ بتعجب في أنه يطعم الطعام وينفق عليه المال ويكرهه رغبة منه بالذكر والشكر ، ولكن طعامه لا يكفي عدد الأكلين على مائته فينقلب للدخول ذمّاً ويطلبه بزيادة الخبز فإن (تلك الزيادة القليلة يتقلب ذلك اليوم شكراً وذلك اللحم مدحاً)^(٥٦) . ويرد ابن أبي المؤمل ذلك بأن كثرة الطعام على الثلاثة تقلل الشهية وتغلقها ، ويرى أن ما يصنعه يدل على سخاء النفس بالأكول . أما ضيوفه فما بين طيب الخلق كريم يفكر الدهوة لذاتها بغض النظر عن الطعام للقدم وكيمته فلا يذم ، وأما السيء الخلق فانه لاكم ذم في الحالين : كثرة الطعام وقتله . ويواصل الجاحظ أسئلته ، ويواصل البخيل المدعي تبريراته ، حتى إذا شعر أنه حوصر بالأسئلة كشف عن طبعه المتأصل فيه .

(فإن الخبز إذا كثر على الحوان فالفاضل عما يأكلون لا يسلم من التلطيف والتعظيم . والجسرة الخسرة ، والرققة المتلطفة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحي أيضاً من إعادتها . فيذهب ذلك الفضل باطلاً ، والله لا يحب الباطل)^(٥٧) . رغم ذلك يصر الجاحظ على أن يجد له سبيلاً في تكثير الخبز على الثلاثة ، فيقترح البخيل طريقة للحل وهي أن يجعل الزيادة من الخبز في طبق قريب من متناول اليد (فلا يحتاج أحد مع قربه منه إلى أن يدعوه ويكون قربه من يده كثرة على مائته)^(٥٨) . ولكن حين يحضر وقت الغذاء يأمر غلامه أن يحضر من الخبز ثمان عدد الرؤوس ، فيرى الجاحظ أن كل المناقشة كانت هباء . وينهي البخيل مناقشته بقوله : (لا أعلم إلا ترك الطعام البيتة أهون علينا من هذه

أخرى للكشف عن الشخصيتين المتناقضتين : الكريم والبخل من خلال الدخول إلى خيلة العراقي وإصراره على تعريف نفسه . ويستخدم الجاحظ هنا عنصر التشويق ، إذ أن القاري يريد أن يعرف بمدى كل حركة يقوم بها العراقي من خلط قناعه ثم عمامته ثم قلنسوته وانعكاس ذلك على الروزي . وعنصر التشويق وإن كان ضئيلاً في قصص البخله إلا أن الجاحظ يجيد توظيفه حين يستخدمه فهو يرسم المواقف ويؤخر الحلول حتى يعلق القاري به^(٥٩) . وتقع المفاجأة في النهاية بعد ما أدرك الروزي إصرار زميله العراقي في عبارة واحدة تبين كذب ادعاء الروزي الذي كان يذّعيه في بداية القصة : (لو خرجت من جلدك لم أهرلك) .

ويشتمل (محمد بن أبي المؤمل) وهو أحد البخله البصريين - مساحة طيبة من الكتاب ، والجاحظ نفسه يعرفه عن قرب - فيها يبدو - إذ يمكنه عنه مباشرة ، بل هو الشخصية المحاوره لابن أبي المؤمل فيها يرويه من قصص عنه . وقد أراد الجاحظ من قصص هذا البخيل أن يعطي صورة عن بعض البخله اللين يذّعون الكرم ويدعون الناس إلى موافقتهم رغبة منهم في الشاء والشكر . وكان الجاحظ أراد أن يقول إن البخيل يدرك في قرارة نفسه أن البخل صفة ملمومة تثير كراهية الناس للبخل مبها حاول تبرير هذه الصفة وإلباسها لباساً منطقياً مقنعاً ، وسماها تسميات مختلفة : اقتصاداً مرة وإصلاحاً مرة أخرى . ويحدد ابن أبي المؤمل نموذج لهذا النوع من البخله فهو يحاول أن يظهر بمظهر الكريم بدعوة الناس إلى مائلته ، غير أن مائلته ما كانت لتشبع ضيقه . القصة الأولى من قصص هذا البخيل تقوم على

(٥٥) مفاخرات للرسم التتلي ، ص ٢٣٠ .

(٥٦) البخله ، ص ٩٤ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

التشويق والتكثيف وتركيز الضوء في تصوير الشخصية من الداخل .

وفي قصة الدارديشي يقدم الجاحظ - قبل أن يحكي لنا قصته مع أخيه - لوحة صغيرة تدل على حرص هذا البخیل وخوفه على ماله من الضياع وذلك حينما سأله سائل انتهره فلما أنكر جاره عليه انتهاره للسائل قال له : (كل هؤلاء لو قدروا على داري هدموها ، وعلى حياتي لنزعوها . أنا لو طاعتهم فأعطيهم كلها سألوني ، كنت قد صرت مثلهم منذ زمان . فكيف تظن بغضي يكون لمن أرادني على هذا)^{٩٧} . هذه إذن هي الشخصية التي سيعرض لنا الجاحظ قصته مع أخيه : شخصية البخیل الخائف من الفقر ، ويبدأ تبدأ القصة بمقدمة وصفية موجزة تتعرف بها على أخ للدردريشي الذي لا يختلف عن أخيه في البخل وهو شريكه في تجارتهم . ثم يأتي الحدث الرئيسي الذي أثار حفيظة الدارديشي على أخيه ، وهو الحدث الذي بنيت القصة عليه . فقد وضع هذا الأخ في يوم جمعة طبقاً من الرطب يقدمه لثلاثين أمام أصدقائه وهم على بابهم فدهامهم إلى الأكل ، فلما حضر الدارديشي لم يسلم ولم يتكلم حتى دخل الدار بما أثار تعجب أخيه واستنكار أصحابه ، وزاد تعجب الأخ وحيرته واستنكار أصحابه أن تكرر التصرف من أخيه لجمعتين متتاليتين حين تكرر وضع طبق الرطب أمام الأصفياء . فكتب الدارديشي إلى أخيه يقول : (يا أخي كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف . ولست آمن أن يخرج ولدي ووليدك إلى مكروه . وهامنا أموال باسمي ولك

خصوصة)^{٩٨} . هذه القصة يلعب فيها الحوار دوراً كبيراً في الكشف عن الشخصية وتحليل دوافعها العميقة وموسوكها ومشاعرها ، بل إن الحوار في هذه القصة - وبخاصة شديد العناية بالحوار - جعل البخل يكشف عن طبيعته بشكل صاخر حين أعته الحيلة . والجاحظ يسرد بعد هذه القصة مجموعة من القصص والحكايات عن البخل نفسه ومحاولاته في ستر أدهانه الكرم بسخيلة ، كان يقضي ضيوفه أو شراباً يقلل من شهيتهم مدعيًا أنه يقتل البهتان ويقتض الشهية وغيرها من الحيل .

أما القصة الأخيرة من قصص (ابن أبي المؤمل) حين اشترى شبوطة وهي من أطيب الأسماك وجهازها لنفسه واستعد لانتقامها ، فدخل عليه الجاحظ ومعه السدري وهو أحد الشعراء المغموسين زمن الجاحظ فكانت المفاجأة العظيمة على البخل . . . (فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف ، ورأى الحتم المقضي ورأى قصصة الظاهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتل بثنتين)^{٩٩} . فشمّر السدري عن ساعده ونزل قطعياً وتمزيقاً وانتهاماً في السمكة ، والبخل ينظر إليه وهو يغلي في داخله حتى إنه لم يتحمل الموقف فمروض أو كما يصفه الجاحظ . (فخبثت نفسه ، فمأزأ يقيء ولسع . ثم ركبته أخفى)^{١٠٠} . هذه القصة تصلح أن تكون - لوحدتها قصة فنية مستقلة لما فيها من وحدة الموضوع ووحدة الخلف بل إنها بلغت الغاية في التصوير النفسي لمبخل وسنوكه وهو يرى طعامه السليل الذي أهد نفسه بينهم من قبل الآخرين . إضافة إلى عنصر

٩٧ . قصص السدري . ص ٩٧

٩٨ . قصص السدري . ص ١٠٠

٩٩ . قصص السدري . ص ١٠١

١٠٠ . قصص السدري . ص ١٠٢

الذي يشد القاري من بداية القصة حتى تنكشف الأمور ، وفيها يسلط الجاحظ الضوء على الحدث الذي ينمو حتى يصل الذروة حين يطلب الأخ فسح شراكته مع أخيه مدحياً أسباباً ليست هي السبب الرئيسي ، ثم تتعقد الأمور في حيرة الأخ الذي راح يتأكد من دهاوى أخيه . وأخيراً نصل إلى نهاية القصة أو لحظة التنوير فيكشف الأخ عن السبب الحقيقي مصراً على فسح الشركة . بمعنى آخر كان في القصة بداية ووسط ونهاية ، ولحدث فيها مرتبط بحبكة فنية متقنة . إن قصة الدارديشي تفلو - مع شيء بسيط من التعديل - قصة قصيرة من وحدة المذهب ، ووحدة الانطباع أو الأثر ، والتركيز والتكثيف في السرد والحوار دون حشو أو إطالة حتى أننا لا نجد فيها جملة واحدة لا تتحدد الموضوع الأساسي . وبعد ، فهذه نماذج مفرقة متناقة من قصص الجلاء التي تحقق فيها الكثير من عناصر في القصة ، عرضتها على سبيل المثال لا الحصر ، وهناك قصص أخرى تشابه في فيتها مع ما عرضناه من نماذج قصة أبي سعيد المدائني البخل الرافض للذل والمهانة ، وقصة أحمد الخاركي البخل الفخ الذي يدعي ما ليس فيه ، وقصة معاذة العنبرية وما صنعت في أصحبه أعلبت لها ، وقصة قاسم التمار الفضولي النهم وغيرها . إضافة إلى مجموعة رسائل ونصائح الجلاء التي لا تدخل ضمن نطاق القصة . ولعل الجاحظ كان يهي ذلك فيما وضعه من تسميات ثانوية داخل الكتاب ، فكان يستخدم كلمة (قصة) حين يشعر أن ما يورده هو قصة ، ويقول في المقدمة : (وأما ما سألت من احتجاج الأصدقاء ونوادير أحاديث الجلاء ، فأوجدك ذلك في قصصهم - إن شاء الله تعالى - مرفقاً في احتجاجهم بجملاً)^(١٤٥) . بينما يستخدم كلمة (رسالة) كرسالة سهل بن هارون ،

شطرها ، وأموال باسمك ولي شطرها . وصامت في منزلي وصامت في منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض . وإن طرقتنا أمر الله ، رككت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة . فالرأي أن نتقدم اليوم فسبا بحسم عنهم هذا السبب)^(١٤٦) . فاستغرب الأخ هجة أخيه وهاله الأمر وجمع ولده وأهله واستجوبهم إن كانوا قد أساءوا لأخيه فوجدهم براء مما يدعيه أخوه ، وظل يناشد أخاه أن يغيره بلبنة وأنه على استعداد أن يجعله وكيلاً لكل هذه الضمياح . فلما طال عليه الأمر وبلغ منه الجهد كشف الدارديشي عن السبب الحقيقي وهو حادثة أطباق الرطب ، ويكشف الجاحظ من خلال حوار الآخرين . بخل الدارديشي وحرصه وقلقه من الفقر وضياح الأموال بالتبذير ، ذلك الغلق النفسي الذي يسيطر عليه ويحلي عليه كل تصرفاته وسلوكه ، فطبق الرطب يحتاج إلى فرش البسط أمام الدار ، ويتبعه لئلا يبارد ويجمع الناس حوله مما يزيد في طمعهم فيه ، فيتحول الطبق إلى أطباق ، ثم يصير ذلك في سائر أيام الأسبوع ، ويتقل الرطب إلى غذاء ، والغذاء إلى عشاء ، ثم إلى كساء ، وهكذا تتطور وجوه الصرف حتى يعود البخل الثري فقيراً . فقال لشعوه : جعلت فداك تريد أن لا آكل فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبداً . قال (إياك أن تخطف مرتين : مرة في إطماعهم فيك ، ومرة في اكتساب عداوتهم . انخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه . وتسلم تسلم)^(١٤٧) .

هذه قصة يتجلى فيها بوضوح الكثير من عناصر القصة القصيرة فيها حدث ، وشخصيات تتصارع ، وفيها تجسيد للزمان والمكان ، وفيها عنصر التشويق

(١٣) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٥ .

الثال، وما لم تعرضه عما يجمع به كتاب البخلاء متحاول أن
تتبن للمميزات الفنية في هذه القصص .

المميزات الفنية

١ - الوصف والتصوير :

لعل أول ما يلتفت النظر في قصص البخلاء هو عنصر
الوصف والتصوير ، والجاحظ له قدرة على الوصف
والتصوير الخارجي للحدث والشخصية أو الدخلى في
انعكاس الموقف على الشخصية المحورية في تصوراتها
وتعبيراتها . ولعل عنصر التصوير هو من أكثر العناصر
سيادة في الأدب الذي يصور الطبايع ، ذلك أن الوصف
والتصوير والحوار « وسائل يستخدمها الكاتب في تحليل
شخصية البطل وتصوير مزاجه وطبيعته واستجاباته
ومظاهر سلوكه . حتى نصل - من ذلك - إلى (العقدة)
الأصلية التي تلتف حولها شخصيته في الأعماق السحيقة
من (اللاشعور) » (١٩٩) . وقد أجاد الجاحظ في توظيف
هذا العنصر بمستويات مختلفة حسب ما يستدعيه الموقف ،
فأحياناً يقتصر تقديم الشخصية أو الحدث من خلال
الوصف العادي كما في تقديم شخصية قاسم التمار . .
(وكان قاسم شديد الأكل شديد الخبط ، قلدر
لواكلة . وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل
الناس على طعام نفسه) (٢٠٠) . وأحياناً يبلغ التصوير حد
الرسم الكاريكاتيري للشخصية كما في صورة علي
الاسوداري على الطعام وهي من الصور التي حرص
الجاحظ فيها على تحريك الشخصية تحريكاً مضحكاً
نابضاً بالفرحة . يقول الجاحظ : (وكان إذا أكل ذهب
قلقه وجحظت عينه ، وسكر وبدر وانهر ، وتربد

أو (حديث) كحديث خالد بن يزيد ، حين يكون ما
يورده هو مجموعة من النصائح والأقوال . ويطلق عبارة
(طرف شق) على مجموعة من التوارد البسيطة الساخرة
لبعض البخلاء . ولم يكتف الجاحظ بهذا بل كان يفسر
بعض ما يرد في قصص وطرف وأحاديث بخلائه بعد
الانتهاء من سردها ، ويورده تحت كلمة (تفسير) مثل
(تفسير كلام أبي فالك) الذي ورد في كلامه بعض
السميات التي تطلق على الأكلين ، مثل (التثال)
الذي يتناول من القدر ويأكل قبل التثجج ،
(وللفساص) الذي يمس جوف قصبة العظم بعد
استخراج عظم مستأثراً به دون أصحابه ، وغيرها من
السميات (٢٠١) . وقد لا يخصص عنواناً ثانياً بل يفسر
مباشرة بعد انتهاء القصة ما جاء فيها من المصطلحات
التي قد لا تكون معروفة حتى للكثيرين من أهل زمانه ،
كالسميات التي تطلق على أنواع للكدين مثل
(المخطري ، والفريسي ، والكاهاني ، والمزبدي
وغیرها) (٢٠٢) . وقد جاء هذا التفسير بعد أن روى
حديث خالد بن يزيد عن الكدية وجمع المال ، لأن خالد
هذا كان مكدياً اتبع أساليب مختلفة لجمع المال فأتى ،
وكان يدعى (خالوية المكدي) . ثم يتم الجاحظ
شرحه وتفسيره بتأكيده على أن هناك أنواعاً أخرى من
الكدين . لكنه حرصاً منه على أمانة النقل يشرح ما جاء
فقط في حديث خالويه . يقول الجاحظ : (هذا تفسير
ما ذكر خالويه فقط . وهم أضعاف ما ذكرنا في العدد .
وإن يكن يجوز أن تتكلف شيئاً ليس من الكتاب في
شيء) (٢٠٣) .

وبعد فمن خلال ما عرضناه من قصص على سبيل

١٩٩ - « طهر البخلاء » تفسير كلام أبي فالك (المصطلحات ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ .

٢٠٠ - « طهر البخلاء » المصطلحات ٥١ - ٥٢ - ٥٣ .

٢٠١ - « طهر البخلاء » ص ٥٣ .

٢٠٢ - « طهر البخلاء » المصطلحات ٥١ - ٥٢ - ٥٣ .

٢٠٣ - « طهر البخلاء » ص ١٩٩ .

ومن الجدير بالذكر أن عنصر الوصف والتصوير الذي أجاد الجلظ استخدامه في قصص البخله كما رأينا - بما يتمتع به من دقة الملاحظة وقوة التصوير وخصوصية الخيال الذي يمدّه بالتفاصيل الدقيقة والملاحظات الصغيرة - يقي وصفاً حسيّاً ، لا يلجأ فيه إلى التشبيهات والاستعارات إلا بالقدر الطبيعي الذي يمينه على توصيل الصورة ، إذ قد نجح الاستعارات والتشبيهات بالكاتب إلى صورة أخرى غير التي يريد إقرارها في خيلة الكاتب . ولأن الجلظ حرص في قصص البخله - على النقل الواقعي للموضوعي من جهة ولأنه فنان يمي - من جهة أخرى - أدواته الفنية ، يدرك تماماً أن ذلك الجزء الخفي في المشاعر والأحاسيس والمواقف الإنسانية يصعب نقلها إلى الأخرين من طريق الكلمات مهما بلغ الأديب من المهارة في وصفها وتصويرها ، لذا نراه يقول في نهاية إحدى قصصه : (وهذا وشبهه إنما يطلب جداً إذا رأيت الحكاية بعينيك ، لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كفه . وعلى حدوده وحافته)^(٧٦) . إن أسلوب الجلظ في الوصف والتصوير هو جانب من جوانب ميزة الواقعية الغالبة في أدبه كله .

٢ - الشخصيات :

صوّر الجلظ في كتابه ما يقرب من ستين شخصية من شخصيات البخله ، يختلفون في منزلتهم الاجتماعية والتضامنية وقدراتهم العقلية وأخلاقيهم وسلوكهم واهتماماتهم وتوجهاتهم ، كالبخيل المتخف والبخيل الساذج والبخيل الثري ، والبخيل الفقير ، والبخيل العالم ، والبخيل الأديب ، والبخيل

وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يحتره وما يعترى الطعام منه صرت لا أذن له إلا ونحن نأكل التمر والجنوز والباقلي . ولم ينجاني قط وأنا أكل تمرأ إلا استغته سقاً ، وحساء حسواً ، وزاد به زدواً . ولا وجده كثيراً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضبتها ويقلها من الأرض . ثم لا يزال ينهشها طويلاً وعرضاً ، ورفعا وخفضا ، حتى يأتي عليها جيعاً^(٧٧) .

وأحياناً يأتي الحدث في صورة وصفية نابضة بالحياة وكأننا نشاهد الحدث عملاً أمامنا في فيلم سينمائي ، كما في حادثة الشيخ الأهوازي الذي كان يأكل طعامه على ظهر السفينة وليس معه غير رجل واحد - هو راوي القصة فطلب الشيخ من الراوي أن يصرف عنه عن الطعام لأنه يخاف الحسد . قال الراوي : (فوثبت عليه ، فقبضت على لحيتة اليسرى ثم تناولت اللدجاجة بيدي اليمنى . فمأزلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي . ثم تحول إلى مكائي . فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل عليّ فقال : (قد أخبرتك أن عينك مألحة وأنتك مستصبيتي بعين^(٧٨)) .

ويتخذ الجلظ التصوير أداة لاستشفاف الحركات النفسية للبخيل واستبطان الأحاسيس واستكشاف طبيعة البخيل من خلال مظهره الخارجي وسلوكه وتصرفاته إزاء المواقف المختلفة . والجلظ « مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة » من كلمة عابرة ، أو إشارة طائفة أو لفظة سريعة معجلة^(٧٩) .

(٧٦) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٧٧) البخله ، ص ١٤٨ .

(٧٨) البخله مقدمة الجابري ، ص ٥٠ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

كان يراعي ظروف كل شخصية لأن الشخصيات التي اختارها تحترف عدداً من الحرف والمهن المختلفة ، كالتاجر ، والملاك ، والكاتب ، والمعلم والمكدي واللص ، فكان يورد على ألسنتهم من المصطلحات والتعابير التي تنبئ بمهنتهم وثقافتهم وإن لم تشر إلى حرفة بعضهم صراحة .

وقد استلهم الجاحظ في تقديم شخصياته أساليب مختلفة : منها أن يعتمد على تقديم البخيل بطريقة الوصف قبل أن يسرد قصصه وطرأه ، كاشفاً عن بعض أبعاد الشخصية مثل قصة أبي سعيد المدائني . . (كان أبو سعيد المدائني إماماً في البخل عندنا في البصرة . وكان من كبار المعتنين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، وكان شديد المعارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الروية)^(٧٦) . ومنها أن يهجد للتعريف بالشخصية قبل أن يروي الحدث الرئيسي في القصة بلوحة أو لوحتين يسرد فيها بعض تصرفات الشخصية ، « وكأنما ليروي بعض الأبعاد النفسية حتى لا يفاجأ القارئ بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل »^(٧٧) ، كما صنع في قصة (زينة بن حميد) و (الدارديشي) المار ذكرهما . وأحياناً نرى الشخصية داخل الحدث مباشرة دون تعريف أو تهديد ، ومن خلال الأحداث والحوار نستكشف الأبعاد السلوكية والأخلاقية للشخصية ، مثل قصة (أبي عبدالله المروزي) التي تبدأ بالحدث مباشرة على هذا النحو (دخل أبو عبدالله المروزي على شيخ من أهل خراسان ، وإذ هو قد استصحى في مسجدة تحرف ، من هذه الحزنية الحضر ، فقال الشيخ : لا يحىء والله منك صالح أبداً ...)^(٧٨) .

نصوني . ولينحلي نهم ، والبخيل الشيخ ، والبخيل نثرة ، والبخيل انقى . . . بعبارة أخرى صور الجاحظ سحيل الإنسان .

هذه الشخصيات التي صورها الجاحظ في الواقع شخصيات حقيقية عاشت زمن الجاحظ ، منهم شخصيات مشهورة في التاريخ مثل سهل بن هارون الكاتب ، وشامة بن أشروس المعتزلي ، ومنهم المروفون في زمة ويته مثل المدائني التاجر ، وخالوه المكدي ، وبني عينه المعلم ، ومنهم من المغمورين مثل قاسم بن القزولي ، والسدي الشاهر ، وأحمد الحاركي نفعج .

وقد كان الجاحظ شديد الحرص أن يوفر لشخصياته من المعلومات والمعارف والحجج ما يساعدهم على الإقناع ، حل أنه يراعي ظروف كل شخصية ، بل ويجعل الشخصية تستند في محاولة لتبرير سلوكها - إلى أسباب منطقية توهم الآخرين بمقوليتها ، مثل رد علي لأسوري حين عيب عليه استلاب اللقمة من يد الأمير . فقال : (لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك ولكن أهونا ألدنا معاً ، فوقع يدي في مقدم شحمة . ووقع يده في مؤخر الشحمة ، معاً . وشحمت منبس بالأمعاء . فلما رفعا ألدنا معاً ، كنت أسرع حركة وكانت الأمعاء متصلة غير متباعدة ، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجليفة إلى لقمتي ، لا اتصال . نحن بنين بنين ونجوه بن الجوه)^(٧٩) . ومثل هذه الصور كثيرة في قصص البخل . وهي بلا شك تدل على نبرة الكلامية لنجاحه نفسه . حل أن الجاحظ

٧٥ - حصر لسائق - ص ٦٩

٧٦ - حصر لسائق - ص ١٣٧

٧٧ - حصر لسائق - ص ١٣٧

٧٨ - حصر لسائق - ص ١٣٧

من الجلاء يصل إلى حقيقة إنسانية تنفرد بها شخصية البخيل الإنسان مهما انحطت بيته وثقافته ومنزلته الاجتماعية ، وهي أن البخيل منغل على نفسه يتباه بالخوف والقلق ، الخوف من الناس وسوء الظن بهم ، والخوف من الفقر وضيق أمواله ، والخوف من المستقبل وما يجتبه له ، والخوف من الموت جوعاً . فالجرائي يصل به الخوف بالآخرين أن يسيء الظن بأقرب الناس له ، حين رد على زميله ورفيق سفره الذي ألح عليه أن يأكل في قصة واحدة أثناء السفر - ففي الاجتماع بركة - قال له : (يا عبد الله معك رغيف ومعني رغيف ولولا أنك تريد الشّر ما كان حرصك على مؤاكتي . تريد الحديث والمؤانسة ؟ أجعل الطبق واحداً ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه)^(٨٠) . والدارجريشي الذي مر ذكره يخاف أن يعطي الشحاذين حسنة تلتا تنتهي أمواله - وهو الثري - فيعود شحاذاً مثلهم^(٨١) . والجرازي لا يتبخّر بقميص جديد خائف أن يسود دخان العود بياض قميصه ، (فإن أتسخ فألّ بالبخور ، لم يرض بالتبخّر واستقصاه ما في العود من القنار حتى يدعو يدهن فيمسح به صدره ويطهه وداخل إزاره . ثم يتبخّر ليكون أهلق للبخور)^(٨٢) . وأحمد بن خلف الذي يتخذى ويتشقى في بيوت أصحابه ولم يدهم يوماً إلى داره فلما لاسوه دهامهم مرة ، وبعد أن أنبوا طعامهم سألهم : (أنا الساعا إيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا : ما نشك أنك حين كنت والطعام ملكك - أغنى وأيسر . قال : فانا الساعا أقرب إلى الفقر ، أم تلك الساعا ؟ قالوا : بل أنت الساعا أقرب إلى الفقر . قال : فمن يلومني على دعوة قوم قريبوني من الفقر ومساعدوني من

أما الشخصية المحورية في معظم قصص الجلاء فإنها تأخذ مساحة أكبر ، والجلاط يسلط عليها الضوء كله حتى لتختفي الشخصيات الثانوية الأخرى في الظل ، وكأنها انحلت لتظهر الشخصية الرئيسية ، وتعين على إبراز سلوكها ، وتساعد على تطوير بعض المشاهد وتوجيه الأنظار إلى الشخصية المحورية ، ولعل الجلاط كان يدرك سلامة إحساسه الفني الحدود التي يجب أن تقف عندها أدوار هذه الشخصيات في تصوير الأبطال^(٨٣) . مثل الشخصيات الثانوية في قصة (زينة بن حيد) الأتفة الذكر ، وهي الصديق والبقال ورئيس الغلمان الذين استخدمهم الجلاط ليضفوا على الشخصية الرئيسية أبعاداً تحمّل الفكرة الأساسية للقصة ، وحين تحقق ذلك انتهى دورهم واختفوا . أما الجلاط فهو مبدع العمل ورواي القصص فقد كان حريصاً على الابتعاد عن مسرح القصة ، شغفياً في الشخصيات التي يصورها وينطقها ، ولا نجد له صورة مفردة في الكتاب إلا في قصص شارك شخصياتها أدوار البطولة فيها ، وحتى في مثل هذه المواقف كان يدرك أنه أداة لظهور الشخصية الرئيسية وبالتالي كان يفعل بنفسه ما يفعل بالشخصيات الثانوية الأخرى . أما في القصص التي يتخذ فيها دور الراوي ، فكان يترك شخصياته تتحرك وتتصرف وتتصارع وتحدث بحرية دون أن يتدخل أو يميل عليها حوارها ، أو يحمي عليها سكانها ، بل كانت الشخصية تتحرك بشكل منطقي ضمن إطار الموقف العام .

غير أن الجلاط من خلال عرشه للنماذج المختلفة

(٨٠) عاقرات الفرس القتال ، ص ٢٤٣ .

(٨١) البخل ، ص ١٩ .

(٨٢) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٨٣) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

تقوله : (كان أبو الهذيل أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة)^(٨٦) . ويقول عن أبي سعيد المدائني : (كان أبو سعيد هذا ، مع بخله ، أشد الناس نفساً وأحماهم أنفاً)^(٨٧) . إن موقف الجاحظ من البخلاء جزء من موقفه من الحياة التي أحياها ، ومن الناس الذين انشغل بقضاياهم في أدبه .

٣ - اللغة والحوار :

اهتم الجاحظ بالحوار اهتماماً كبيراً ، واتخذ أداة للكشف عن نفوس شخصياته وتوجهاتهم وتحليل دوافعهم العميقة ، وتصوير أخلاقهم ومشاعرهم وإحساسهم ، وطريقة تفكيرهم . وتأتي بعض القصص حواراً كلها وفيه تكمن قوة النادرة كما في قصة الأصمعي مع جلسائه^(٨٨) .

ويلعب الحوار دوراً كبيراً في تطوير الأحداث ورسم المواقف واتجاهاتها في بعض القصص . يقول الجاحظ في إحدى قصصه (كان أبو الهذيل أهدى إلى موسى دجاجة . وكانت دجاجة التي أهداها دون ما كان يتخذ لموسى ، ولكنه بكرمه وحسن خلقه أظهر التعجب من سمها وطيب لحمها)^(٨٩) . هذه الحادثة استبقت موقفاً نفسياً خاصاً من موسى فهو يبدي التعجب من سمن الدجاجة واكتناز لحمها لكنه يفتي في نفسه أنها لم تكن شيئاً ، ثم يأتي الحوار كله ليلعب بهذا الوتر النفسي حتى المشهد الأخير . بل إن الجاحظ أحياناً يقتصر انفعال بسطه إذا سكر وتعلمش في حوار أو ادعى الجنون

الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد ؟)^(٩٠) . والأشلة على خوف البخل وقلقه النفسي كثيرة في الكتاب ، ولعل أضرب موقف للخواص ، خوف سليمان الكثيري من الضحك ، فلما عوب في قلة الضحك وشدة القطوب قال : (إن الذي يمنعي من الضحك أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل إذا ضحك وطلبت نفسه)^(٩١) . هذه الحقيقة الإنسانية في تحليل شخصية البخل قد وصل إليها معظم الذين كتبوا في تصوير البخلاء وتحليل نفسياتهم من الكتاب العرب والفربيين . فيبخل مولر على سبيل المثال يخاف على أمواله حتى من ولاده ، متصوراً أنهم سيخونونه ويصبجون أعداء له .

وأخيراً ما موقف الجاحظ الإنساني من بخلائه ؟ إنه رغم رفضه لمنطقهم وسلوكهم ، وتصويره لسليبياتهم وشدة بخلهم ، إلا أنه لم يرفضهم ، ولم يعطنا كقراء إحساساً يرفضهم والحقده عليهم ، بل على العكس كان الجاحظ حائناً عليهم ، متعاطفاً معهم ، يضحك لهم ويناقشهم ويستمع إلى حججهم ، ويتركهم يهرون عن قواعدهم وموقفهم من الحياة بحرية كاملة ، وكان يجمع لهم صفات الخير التي يعرفها فيهم لتبرز لنا النفس الإنسانية بجوانبها المضيء والمظلم . لقد كانت شخصيات ظريفة ، استطاع الجاحظ أن « يحميها إلينا » لأنه هو نفسه أحياها^(٩٢) . بل إنه كثيراً ما كان يمدح بخله صراحة رغم ما يستهجنه من حرصه وتقترعه ،

(٨٣) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٨٤) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٨٥) محاضرات المرسم لانتقال ، ص ٢٤٢ .

(٨٦) البخلاء ، ص ١٣٥ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

من آثار فرقه المعتزلة التي يقف الجاحظ عليها من أعلامها . إن بيئة المعتزلة كان لها أثر كبير في صقل مواهب الجاحظ الفنية في الحوار لما عرف عنهم من قوة المجادلة ، لهذا نجد معظم البخلاء أصحاب منطق وجدل ، يدافعون عن مذاهبهم في البخل كما يدافع المتكلمون عن عقيدتهم ، ويجادلون من يحيب عليهم تفتيرهم ، كما يجادل المعتزلة أصحاب الفرق الأخرى . ويتضح الجدل والمنطق من السطور الأولى للقصة الكتاب حين يذكر الجاحظ منطق البخلاء . . (ولم سموا البخل إصلاً ، والشح اقتصاداً ولم حاموا على المنع ونسبوه إلى الخرم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع . . . ولم احتجوا - مع شدة عقولهم - لما أجمعت الأمة على تقييده)^(٩٠) .

ففي رسالة الكندي إلى المستأجر بيته يطالبه فيه بزيادة الإيجار لزيادة عدد الساكنين في الدار ، نجد التفكير الفلسفي النقيطة ، والحوار العميق وتوليد المعاني ، وترتيب الأفكار ، واختيار الكلمات بدقة ، والأسلوب المنقح ، والإيمان القوي بنظرية الجدل ودفاع قوي عنها ، بل استطاع الكندي أن يجعل الساكن متهاً ، جانياً ، حقوداً ، لصاً ، مختلاً ، يتوسل بشئ الطرق والوسائل غير الحميدة لاستغلال الدار^(٩١) . هذا المثال من بين أمثله عديدة تؤكد قدرة الجاحظ على التوليد والتخريج وتقديم الأسباب والعلل واستخلاص النتائج ، بل إنه يذهب بوضوح على أن الجاحظ عايش البخلاء طويلاً وعرف الأوضاع إلى بخلهم وأدرك الأبعاد النفسية لذلك . على أن المسألة « لا تقتف عند حد ثقافة الجاحظ ، ومعرفته باللغة والمنطق ، والفلسفة والجدل .

فاضطرب في حديثه ، فهو يحكي حالة السكران أو المجنون كما في قصة أبي مازن وجبل الغمر الآتفة الذكر .

والحوار عند الجاحظ شديد الصلة بالحلية والمجمع ، يراعي فيه ثقافة الشخصية ومنزلتها الاجتماعية ، لذا اختلف مستوى الحوار باختلاف مستوى الشخصية . ولأن الجاحظ كان واقعياً في اختيار نماذجه من الحياة فقد أعطى لكل شخصية حوارها ولغتتها كما هو في الواقع ، لذا يترك اللفظ العامي أو الكلام غير العرب كما هو اعتقاداً منه بأن الإعراب قد لا يتسق مع الموقف أو الشخصية ، أو أنه لا يستقيم مع محاولة تصوير الواقع بحدائره ، ويرى أن التعمق والتعقيد اللغوي قد يفض هذا الباب ويخرجه عن حده ، ويلجأ بالقراء إلى التفسير . أما حينما تكون الشخصية من اللغويين والمتكلمين والمفلسفين يكون حديثه بكلام معرب ، وهو يقرر ذلك في الكتاب ، فيقول : (وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا إننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يفض هذا الباب ويخرجه عن حده . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاطلي البخلاء وأشعاه العلماء كسهل بن هارون ، وأشباهه)^(٩٢) . فالأصمعي - مثلاً - صور الجاحظ لنا حواراً تصويرياً حياً تكاد نشم منه رائحة البادية . بينما يستخدم حتى الألفاظ الفارسية في حوار الشيخ المروزي مع زميله العراقي ويترجمه إلى العربية^(٩٣) .

ويعتاز الجاحظ في حواراته بالجدل ، والجلد سمة رئيسية في ثوره ، فهو يحاكم عقله دائماً ، وما ذاك إلا أثر

(٩٠) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٩١) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٢ - ١ .

(٩٣) النظر لقصة الكندي في البخلاء ص ٨١ - ٩٣ .

الاهتمام بانتقاء الكلمة والابتعاد عن المبتذل والوحشي من الألفاظ في نفس الوقت ، وهو وإن لم يتخرج عن إيراد الألفاظ العامة على ألسنة العوام من البخلاء ، والألفاظ الغريبة على ألسنة المتعاقلين من البخلاء كما يسميهم ، كجزء من موضوعيته في نقل حديث الآخرين ، إلا أنه يقول في البيان والتبيين : (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذا لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدياً أضرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي)^(٩٧).

٤ - السخرية :

عنصر بارز من عناصر كتابات الجاحظ ومن أكثرها شيوعاً ، فقد كان مطبوعاً على الطرف والفكاهة ، ميلاً إلى التناول ، يبدو عليه السرور وجب الذعابة وخفة الروح ، وكان لطيف المعشر ، حلو الحديث ، مرح النفس ، مهمل الحاطر ، سريع البدنية ، سريع النكتة ، ويمتاز كتاب البخلاء بشكل خاص بالسخرية المبثوثة في كل قصة من قصصه ، وكل صورة من صوره .

والجاحظ في بخلائه يدعو دعوة صريحة إلى الضحك والمزاح والفكاهة ويدافع عنها ، فخصص جزءاً من المقدمة تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجهه النظر المختلفة ، وقارن بينه وبين البكاء . وقد حدد فيه فلسفته الخاصة للضحك ، ومرواضه ومدى حاجة الإنسان إليه ، حتى ليصبح ضرورة من ضرورات حياته . يقول الجاحظ : (والمضحك موضع وله

إنها أبعد من ذلك . خيرة معقنة بيوطن النفس البشرية ، وما يحتمل في داخلها من صراعات . ويأن السلوك الذي يسلكه الإنسان ليس إلا بلورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات وخاتمة لمطاف طويل ارتضاه لنفسه^(٩٨) . وإذا كان الجاحظ قد استطاع أن يعرض حجج البخلاء ومنطقهم بالجد مرة ، وبالسخرية المبطنة مرة أخرى وبالسخرية الصريحة مرة ثالثة ، وبلغه طيبة ، ومبارات رشيقة مشوقة في معظم قصصه ، إلا أن يبنته الفكرية طبعته من ناحية أخرى يطابعها حتى ليصعب عليه أحياناً التخلص من تأثيرها في تفكيره وتعبيره ، فانقلب الحوار في بعض قصصه إلى مناظرة كلامية مما قد يسيء إلى صفة الكاتب الفنية ، مثل قصة الحزامي في تفصيل اسم (عبدالله البخيل)^(٩٩) .

أما لغة الجاحظ في البخلاء فهي لا تتفصل عن لغته في كتاباته الأخرى والتي تتميز بالجزالة والمعلوية في التعبير ، ودقة اختيار الألفاظ ، والابتعاد عن التكلف والتعقيد ، والتصنع في السجع والتزيق اللفظي ، إضافة إلى حسن انتقاء العبارات وجملها ، والتوازن الدقيق بين العبارات مما يمنحه تمازجاً صوتياً ، ويعتق ضرورياً من الإيقاع . ويرى الدكتور طه الحاجري أن ذخيرة الجاحظ اللغوية الضخمة أدت إلى الإسهاب وترجيح المعنى ، وقد لا يروق هذا لبعض الناس ، غير أنه يرجعها إلى « طبيعة الجاحظ الفنية المعنية بالجمال ومظاهره المختلفة . والجمال اللفظي - إن صح أن يكون هناك جمال لفظي بحت - من أقوى عناصر الأدب ، وهذه الزاوية اللفظية ليست إلا مظهر من مظاهر هذا الجمال اللفظي »^(١٠٠) . والجاحظ نفسه يؤكد على

(٩٦) سيد حامد السراج ، رحلة الفترات العربي ، ص ١١٣ .

(٩٧) لابخلال ، ص ٦٢ .

(٩٨) البخلاء ، مقدمة طه الحاجري ، ص ٣٧ .

(٩٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإني رأيت الأسماح على الأصوات نظرية والأغاني الحسة والأوتار القصبة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أوزنت الغفلة^(٩١١) . وفي هذا ملحق نفسي ، فهو يجشي على القارئ للخل إذا ما استمر بجده في موضوع واحد ، لذا جاء حرصه على التنوع في موضوعاته . إن موضوع التنوع أو مزج الجلد بالجزل منهج سار عليه الجاسط في معظم مؤلفاته حتى ليعده المستشرق الفرنسي شارل بلا (ميزة جاسطية مهمة)^(٩١٢) . وهو يؤكد في كتابه القيم (البيان والتبيين) في رسائله الهزلية (التريح والتدوير) . بل إن نزعة التنوع تراكفه حتى في كتاب البخله وهو أكثر مؤلفاته سخرية واضحا ، فنراه يبدأ الكتاب برسالة طويلة لسهل بن هارون في دفاعه عن نظريته في البخل ، وهو دفاع مليء بالجندية والاستشهادات من النصوص القديمة لكاتب متقف جاد ، تأخذ ثماني صفحات من الكتاب ، ينتقل بعدها إلى مجموعة من النوادر والطرف لبخله خراسان ، ويتبعها بقصص أهل البصرة من المسجلين ثم يأتي بقصة بطلها بخيل واحد هو (زينة بن حيد) وهكذا يظل ينتقل من قصة إلى مجموعة من النوادر إلى أحاديث متنوعة إلى تجربة أحد البخله في الكدية ، وغيرها من الموضوعات المتنوعة .

عل أن السخرية في كتاب الجاسط لها دلالة أخرى إضافة إلى الإضحك والإمتاع ، إنها لون من ألوان النقد ، فالجاسط ناقد لطبعه ، غير أن لون جانبه وحيه

مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازمها أحد وقصّر عنها أحد ، صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا . فالتناس لم يعيوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح الضح ، والضحك الشيء الذي له جمل الضحك صار المزح جددا والضحك وقارا^(٩١٣) . ويعتمد في دفاعه عن الضحك على القرآن الكريم ، فيورد الآية الكريمة ﴿ وأنه هو أضحك وآبى ﴾ . وأنه هو أمات وأحيى ﴿ ويعقب عليها بأن الله وضع (الضحك بحذاء الحياة ووضع اليكاح بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح)^(٩١٤) . ويستمر في دفاعه عن الضحك في أن العرب تسمي أولادها بالضحك ويستأنس ويطلق ويطبق ، وأن الرسول صل الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح قد ضحكوا ومزحوا ، وأن العرب إذا مدحوا قالوا : هو ضحكوك السن ويسام العشيات ، وحش إلى الضيف . بل إن الجاسط يجد الهدف في الكتاب في ثلاثة أشياء : (تبين حجة طريقة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نافذة عجيبة . وأنت في ضحكك منه ان شئت ، وفي نحو إذا ملكت الجلد^(٩١٥) . إن دعوة الجاسط في البخله إلى الضحك هو جزء من نظريته العامة إلى النادرة والدعابة التي استخدمها في كتاباته الجدية كما استخدمها في كتاباته الهزلية . فهو يرى أن العقل يتعب من الجلد ويحتاج إلى الترويح ، وحرصاً منه على ربط القارئ بكتبه عمد إلى الانتقال من الجلد إلى الهزل ومن الهزل إلى الجلد مما أكسب كتاباته ميزة الاستطراد . يقول الجاسط في كتاب الحيوان (قد عزمت - والله الموفق - أن أوشع هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشمر وضروب

(٩٨) البخله ، ص ٧

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٩ .

(١٠٠) المصدر السابق ، ص ٥ .

(١٠١) الجاسط ، كتاب الحيوان ج ٣ ، ص ٧ .

(١٠٢) شارل بلا ، الجاسط ، ص ٣٨٥ .

سينسر أو دوجا أو شاييرو عن درسوا الفكاهة والمضحك قراءة كتاب البخلاء ، لوجدنا كتاباتهم عن المضحك والمضحك تزخر باستشهادات منه (١٠٤) . أما مضحك الشكل فتجده في شكل البخيل وملابسه ووجهه حين يأكل فتجسط عينيه ويثيب وحمه كصورة علي الأسواري على الأكل ، ويبدو مضحك الشكل في وجه البخيل حين يحل ضيف على مائدته فهو ينظر إلى يدي ضيفه ، فتتحرك عيناه معها بألية في صعودهما وهبوطهما من وإلى الحفوان . وليس أصناف الأكولين الذين صنفهم أبو قاتك كاللثام والمصاص وغيرهما إلا من طائفة مضحكي الأشكال ، وقميص ليل الناعاطية صورة أخرى لمضحك الشكل ، (فلما مازالت ترقع قميصاً لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاق ، وذهب القميص الأول) (١٠٥) . أما مضحك الحركات فيظهر في الصور النابضة بالحياة والحركة التي يرسمها الجاسط للبخيل في موقف من المواقف كصورة الشيخ الفراساني الذي لم يدع رفيقه للاكل وهما على ظهر السفينة فتعرض للضرب (١٠٦) . وصورة اسماعيل بن غزوان الذي سهر عنده المكي ، ولما غلبه النوم رمى له اسماعيل بمخدة لينام عليها . قال المكي : (فتمتعي من النوم إنكاري للموضع ، ويس فراشي ، وتظن إني قد كنت ، فجاء قليلاً قليلاً حتى سل للمخدة من تحت رأسي . فلما رأيته قد مضى بها ضحككت وقلت : قد كنت عن هذا غنيا ، قال : إنما جئت لأشوي رأسك ، قلت : إني لم أكلمك حتى وليت بها ، قال كنت لهذا جئت ، فلما صارت للمخدة في يدي تسيت ما جئت له) (١٠٧) .

للحياة والناس جعلاه يتعد عن طريق الجد الصارم في انقذ . فكانت السخرية في يده أداة نقدية مؤثرة فعالة لكل المظاهر السلبية في المجتمع والجيواتب المظلمة في انفس الانسانية . والجاسط نفسه يمي تأثير هذه الأداة وفعاليتها ، فهو لم يرفض نظرة البخلاء للحياة صراحة ولكن السخرية الملاذعة التي صور فيها منطقتهم كانت مرآة عاكسة لعيوبهم وتخطأ نظريتهم . غير أن هناك نقطة جديرة بالتنبه ، وهي أن سخرية الجاسط ومزاحه ودعاباته ، وميله الفطري إلى الضحك ، ليست سخرية مبتذلة هدفها التهريج والضحك على الناس ، بمعنى آخر ليس هدفها الضحك للمضحك لذاته ، بل هي سخرية أجيء بمفكر عاقل ، تمتاز بالموازنة بين الإمتاع والترؤيع عن النفس والفائدة في نفس الوقت ، إنها سخرية ذكية راقية تنهئ الأذواق وترفع الأحاسيس . ومن هنا كان لا يرضى عن الجالعة في السخرية وخروجها عن حد المعقول ، لرفض السخرية في قصة البخيل الذي يتألم بجبنه عنده بالسح عليها بالخيز ، فلما مات كان ابنه أكثر بخلاً منه ، فكان يشير إلى قطعة البجين من يمينه دون أن مسح . يقول الجاسط : (ولا يمسحني هذا الحرف الأخير لأن الإلزام لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يحس أن يكون فيهم مثله) (١٠٨) . أما السخرية في كتاب البخلاء فقد حوى كل ما للمضحك من وجوه ، ففيه مضحك الشكل ، ومضحك الحركة ، ومضحك الكلمة ، إضافة إلى كون البخل يحد ذاته مدخلة للسخرية ، فهو يدخل في باب مضحك الطبايع . « ولو قيد هنري برجسون أو غريت

(١٠٣) البخلاء ، ص ١٣٢ .

(١٠٤) فريدل ساند ، مع البخلاء ليليل ، ص ٩٧ .

(١٠٥) البخلاء ، ص ٣٧ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(١٠٧) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

رجل وسلم عليه دعاء إلى الطعام ، فلما هم الرجل
انتفض الخراساني لينتفع من مشاركته طعامه^(١١١) .

٥ - الواقعية :

يتسم الجبل في كتاباته عموماً بالواقعية التي تنضج
في انتقاء موضوعاته ومعالجتها ، وفي تصوير البيئات
والطبقات المختلفة ، وفي دقة ألفاظه واختيارها بحيث
تلائم ما يصفه أو يصوره ، وفي الابتعاد عن التشبيهات
والاستعارات إلا ما جاد عفواً الخاطر ، وفي ملاحظاته
الدقيقة ، وفي منهجيته الموضوعية ، وفي إيمانه بالتجربة
العلمية والتطبيقات العقلية مستنبطاً بالعقل والحواس
والتجربة كما يتضح في كتابه (الحويان) وفي رفضه كثيراً
من غرافات الناس ومعتقداتهم الخاطئة في العديد من
رسائله . وليسته العلمية والثقافية بشكل عام ، وبيسته
المتنزلة بشكل خاص ، أشرها على اتجاهه العقلي
وموضوعيته .

وفي كتاب البخلاء تأخذ الواقعية شكلاً واضحاً من
خلال ربط القصص بالواقع المعاشي ، أو ما يسمى في
النقد الحديث بالصدق الفني وهو أن يجري التفاضل
بين الأبطال والأحداث كما يجري في منطق الحياة
الواقعية ، حتى يشعر القارئ أن الكاتب لا يتفادها ولا
يشط به ولا يؤخره عن محيط الحياة^(١١٢) . ويتضح هذا
الربط في رسم الشخصيات وتصوير الأحداث ، وإدارة
الحوار ودقة التفاصيل والوصف السردي ، وتحديد
الزمان والمكان . فالشخصيات التي يختارها الجبل
شخصيات معروفة في بيته ذكر أسماها بعضها وأبقى
بعضها الآخر إكراً أو خوفاً كما يقول في المقدمة^(١١٣) .

أما مضحك الكلمات ، فيزخر به احتجاج البخلاء
وأحاديثهم ومراسلاتهم ، التي يوردها الجبل بجدية
مبينة بسخرية مرة ويسخرية سافرة مرة أخرى مراعيّاً
ظروف التكلم . وكثيراً ما يجملنا على الاعتقاد بمقولة
دفاعهم وتبريراتهم المضحكة وحججهم السانحة .
فالكاتب سهل بن هارون يستحسن ترقيع الثوب لأن
(ترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف
ذلك يجمع مع الإسراف التكبر)^(١١٤) . والثوري ينصح
بأكل الباقل بقشوره ، (فإن الباقل يقول : من أكلني
بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بقشوري فانا الذي
أكله . فما حاجتك لي أن تصيروا طعاماً لطعامكم ،
وأكلنا لما جعل أكلاً لكم ؟)^(١١٥) . ويمرّج ثالث من
العبارات المضحكة ترد على لسان أبي قطبة - أحد
البخلاء السذج ، يقول (إياكم والفساء في ثيابكم التي
تخرجون فيها ، وفي لحفكم التي تنامون فيها ، فإن
الفساء يسلّ القمل . . إني والله ما أتول إلا
بعلم)^(١١٦) . وتبلغ السخرية قمته حين تجتمع الوجوه
الثلاثة للإضحك : معاً ، كما في قصة (أبو مازن وجبل
الغمر) التي استشهدنا بها سابقاً ، حيث يتجلى فيها
مضحك الشكل في رعب جبل الغمر ، ومضحك
الحركات في تصرفات أبي مازن ، ومضحك الكلمات في كل
الحوار الدائر بينهما . وهذه الصورة نجدها في كل
القصص التي تتضمن شخصيات تتصارع وأحداثاً تنمو
فتتعد ثم تنحل ، كقصة (زبيدة بن حميد) ، وقصة
(العمري والمروزي) المار ذكرهما ، وقصة الشيخ
الخراساني الذي كان يأكل وحده في بيتان فلما مر به

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(١٠٩) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ١١١ .

(١١١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١١٢) مغامرات الرسم الفل ، ص ٢٢٢ .

(١١٣) البخلاء ، ص ٧ .

ومن الأسماء من سمع عنها وعرف أخبارها فنقلها عن سمع منه ، ومنها من عايشها واتصل بها فكان يروي رأيه فيها ، كقوله عن أحد البخلاء : (وأبو عبدالله هذا كان من أطيب الخلق ، وأصلحهم بخلاً وأشهرهم رياء)^(١١٤) . ومن هنا فقد صورها بواقعية متناهية لا تخرجها عن حدودها المعقولة ، فكانت الشخصية كما هي في تصرفها ، وسلوكها ، وعلاقاتها ، وحواراتها وأحاديثها ، بل كان حرصاً أن تظل حكاياته وقصصه مرتبطة بالحياة فلا تخرج عما هو متعارف عليه بين الناس . لذا رفض بعض الحكايات التي رأها قد خرجت عن حدود المعقول . يقول الجاحظ بعد أن روى حكاية الابن البخیل الذي كان أكثر بخلاً من أبيه : (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يميز أن يكون فيهم مثله)^(١١٥) . وتبدو موضوعية الجاحظ إزاء شخصياته في أنه صورهم بجوانبهم المختلفة ، في خيرهم وشهرهم ، في جهنمهم وشرهم ، في طيبتهم وبخسهم ، في وداعتهم وعنفهم ، في طيبتهم وسداجتهم ، في غيبتهم وتخليتهم . إنها شخصيات إنسانية نابضة بالحياة ، مرتبطة بالواقع بكل ما تحمله النفس الإنسانية من إيجابيات وسلبيات . وارتباطاً بموضوع الواقعية في البخلاء يأتي تركيز الجاحظ على رسم الصور بكل دقائقها وتفاصيلها ، يصل في بعض القصص إلى حد التعمد التجهيزي ، للدرجة أننا نشعر

« وكأننا أمام نص إخراج مسرحي أو سيناريو سينمائي »^(١١٦) . مثل صورة الشيخ الخراساني ، (إذا كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلاً فيه جردقتان ، وقطع لحم سكياب مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال)^(١١٧) . وأحياناً يركز الجاحظ على الحركة فيصفها بكل جزئياتها ، كصورة الأكل على الطعام وحركة يده وعينه وفمه وتعابير وجهه . مثل صورة علي الأسواري على الطعام^(١١٨) . ويدخل في هذا الباب تصوير العادات والتقاليد في عصره ، كتجهيز العروس في قصة مريم الصانع التي زوجت ابنتها (فحللتها الذهب والفضة وكستها المروي والوشى والقز والخز وعكفت المصفر ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها في عين الحنن ، ورفعت قدرها عند الأسماء)^(١١٩) . أو ما كان من بلال بن أبي بردة الذي خاف من الجذام فوصفوا له الاستنقا بالسم^(١٢٠) ، وغيرها من العادات والأعراف والتقاليد . إضافة إلى الإسهاب في وصف الآلات والأدوات المادية ، وتسميات الأطعمة والأشربة وأنواعها في عصره ، كما ورد في حديث أبي فاتك مثلاً^(١٢١) .

أما على صعيد حوار البخلاء وأحاديثهم ، فلنكتل شخصية ألفاظها وتعابيرها ومنطقها وصيغها المطابقة لما هي عليه في الحياة ، فلتكلم يتحدث ويناقش بكلام

(١١٤) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(١١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(١١٦) الفروق سعد ، مع بخلاء الجاحظ ، ص ٤٧ .

(١١٧) البخلاء ، ص ٢٤ .

(١١٨) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(١١٩) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(١٢٠) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(١٢١) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

إذا سمعت بنادرة من نواذر العوام ، وملحة من ملح الحشرة الطغام ، فلياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو تنخيرها لفظاً حسناً أو نجساً لما من فيك نغزاً سريراً ، فإن ذلك يفسد الامتاع بها ونغزها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استمتاعهم إياها واستلاحهم لها (١٧١). وإضافة لذلك فهو لا يتخرج من نقل الكلام الأعجمي بلفظه وترجمه كما في قصة المراتي والمروزي الألفه الذكر (١٧٢).

وهكذا نطل الواقعة في كل صورة من صور كتاب البخلاء ، وكل شخصية من شخصياته ، وبنادرة من نواذيرهم ، وحديثاً من أحاديثهم ، وحواراً من حواراتهم ، حتى ليحس القارئ أنه يعرف تلك الشخصيات حتى المعرفة . فقد رأها وعاش معها وسمع حوارها ، بل واشترك معها في نواذرها . إنها نماذج حقيقية تعيش في كل زمان وفي كل مكان .

٦ - الإطار الزماني والمكاني :

إن تجديد الزمان والمكان عنصر من عناصر القصة ، وله دور في ربط القصة بالواقع من جهة ، كما أنه يساعد - من جهة أخرى - على فهم سلوك الشخصية وتصرفاتها ، ويساهم في تفسير الكثير من الأحداث . أما في كتاب البخلاء فيقسم هذا العنصر إلى قسمين : عام وخاص . فالإطار الزمني العام هو العصر الذي عاش فيه الجاحظ . أما الخاص فقد يحدد الجاحظ وقت وقوع الحادثة في بعض القصص ، كأن نلوه الحادثة في الليل مثل (المروزة الذين اشتروا في شراء

المتكلمين ، والفاضي ترد على لسانه التعابير الفقهية ، والتاجر يستعمل الألفاظ المتداولة في السوق ، والمكدي يستعمل الألفاظ التي يستعملها المكدون ، واللص يستعمل تعابير اللصوص ... وهكذا مع بقية الشخصيات . فخالويه المكدي مثلاً يتحدث عن تجربته في الكد فيقول : (سل عني صعايك الجبل ، وزواقيل الشام ، وزط الأجام ، وزؤوس الأكراد ، ومردة الاعراب وفئتاك نهر بط ، ولصوص القفص ... كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حياطي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة) (١٧٣). وقد ذهب الجاحظ أكثر من ذلك حين أباح نفسه رواية اللحن والخطأ في النادرة إذا ورد كذلك في كلام قائلها ، مراعيًا وضع المتكلم ومناسبة الكلام ، وفي ذلك يقول في البخلاء : (وإن وجدتم في هذا الكتاب خطأ أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الاعراب يفيض هذا الباب ونغزها عن حده . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعالي البخلاء وأشحاء العلماء) (١٧٤). والجاحظ يذهب هذا المذهب في كل مؤلفاته إمعاناً منه بالواقعية في نقل الأخبار وسرد الحكايات والنوادر ، وله في ذلك نظرة ، إذ يرى أن تدخل الكاتب في تغيير الكلام المنقول يبعده عن الواقع من جهة ، ويفقد القارئ المتعة فيه من جهة أخرى . يقول في (البيان والتبيين) : (متى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب فلياك أن تمسكها إلا مع إصرارها وخارج ألفاظها ، فلياك إن غيرتها بأن تلحن في أعرابها وأخرجتها خارج كلام المولدين والبليدين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كثير . وكذلك

(١٧١) المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(١٧٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(١٧٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٧٤) البخلاء ، ص ٢٢ .

توضيح طبيعة شخصية البخيل في مواقف متعددة . ومع ذلك فإن استخدام الجاحظ لإطار الزمان والمكان الخاص - على قلته - يدل على وعي الجاحظ بقيمة هذا العنصر ، فهو يستخذه حين يشعر أنه يضيف شيئاً ما للقصة ، ففي قصة (جبل الغمر وأبي مازن) التي مر ذكرها على سبيل المثال ، حيث يطرق (جبل) باب أبي مازن ، وكان الوقت في ساعة متأخرة من الليل ، والأزقة مظلمة ، والعمس يلفقون الطرقات . فتعيد الزمان هنا له دوره في تفسير هلع (جبل الغمر) (١٣٣) .

ويعد فهذا هو كتاب البخلاء ، وتلك هي حكاياتهم وقصصهم . كتاب من الكتب التراثية الخالدة الذي لا يزال يعيش بنماذجة الحية وصوره المشرقة ومواقفه الساخرة ، في قالب قصصي شيق تمتع ، ولأزال يتمتع بالحياة رغم مرور أكثر من اثني عشر قرناً على وضعه ، ولأزال يمثل مادة غنية لكتاب القصة والمسرح ، ولرسمي الكاريكاتير .

مصباح (١٣٦) . أو قد تقع الحادثة عند الظهور مثلاً (الشيخ الخراساني الذي يتغنى في البستان بعد صلاة الجمعة) (١٣٧) أو قد تقع في الغروب مثل (مأدبة بلال بن بردة وقت الاقطار في رمضان) (١٣٨) . . . وغيرها من الأوقات . أما الإطار المكاني فهو الجبل الجفراي المتمثل بمدينة (البصرة أو بغداد ، أو خراسان ، أو واسط ، أو مرو . . .) . أما الخاص فيشير إليه الجاحظ في بعض القصص مثل (اجتماع المسجلين في مسجد البصرة) (١٣٩) ، أو حادثة (الشيخ الأهوازي وهو مسافر في جعفرية - مركب نهري) (١٤٠) ، وحكاية (زقاق الحبس في مجاس السواني داود أبي داود) (١٤١) ، أو اجتماع (الجاحظ والنظام وهمرين نهري في ظل حائط) (١٤٢) . وغيرها من الأماكن . غير أن الجاحظ لم يعزل كثيراً على تحديد الإطار الزماني والمكاني الخاص ، لأن الذي كان يعنيه أكثر المواقف وتصرف الشخصيات تجاهها ، هادفاً من كل ذلك إلى



(١٣٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٣٧) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١٣٨) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(١٣٩) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(١٤٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٤١) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(١٤٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(١٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

المصادر والمراجع

- (١) توفيق الحكيم ، فن الأندلس ، مكتبة الآداب ، بلون تاريخ .
- (٢) الجاسط ، البخله تحقيق طه الحاجري ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .
- (٣) — ، البخله ، تحقيق أحمد المواوي وعلي الجارم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩ .
- (٤) — ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخديجي ، القاهرة .
- (٥) — ، الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- (٦) جميل جبر ، الجاسط ومجتمع عصره ، الطبعة الكاتوليكية - بيروت ١٩٥٨ .
- (٧) حسن السندي ، أدب الجاسط ، الطبعة الأولى ، للمكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٣١ .
- (٨) د. سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، الطبعة الأولى ، دار للمعارف ، القاهرة ١٩٨٤ .
- (٩) شارل بللا ، الجاسط ، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، دمشق ١٩٨٥ .
- (١٠) شافق جبري ، الجاسط - معلم العقل والأدب ، ١٩٣٢ .
- (١١) د. شوقي ضيف ، العصر المماليكي الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار للمعارف - القاهرة .
- (١٢) طه الحاجري ، الجاسط - حياته وآثاره ، الطبعة الثانية ، دار للمعارف - القاهرة .
- (١٣) د. الطاهر أحمد مكي ، القصة القصيرة - دراسة واختارات ، الطبعة الثانية ، دار للمعارف - القاهرة ١٩٧٨ .
- (١٤) علي شلش ، في عالم القصة ، الطبعة الأولى ، مطبوعات الشعب ، القاهرة ١٩٧٨ .
- (١٥) فاروق سعد ، مع بخله الجاسط ، الطبعة الرابعة ، دار الأناضول الجديدة ، بيروت ١٩٨٣ .
- (١٦) محاضرات الموسم الثقافي (١٩٦٣ - ١٩٦٤) الجزء السابع ، مطبعة الوزارة ، دمشق ١٩٦٤ (فن القصة في كتب البخله للجاسط) ، د. عبدالكريم الأشتر ، ص ٢١٩ - ٢٥٢ .
- (١٧) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ .

- (١٨) ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة - بيروت . بلون تاريخ .
- (١٩) د. وديعة طه النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٥ .
- (٢٠) ياقوت الحموي ، معجم الأديباء ، طبعة دار الموعون .
- (٢١) يحيى حلي ، فجر القصة المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ .
- (٢٢) يوسف الشاروني ، القصة القصيرة - نظرياً وتطبيقياً ، كتاب الهلال - العدد ٣١٦ ، القاهرة - ١٩٧٧ .

(تحت يحمده الله)



من الشرق والغرب

أطلقت تسمية الرواية الجديدة في فرنسا على موجة من روايات مختلفة . دفقت في منتصف الخمسينيات من هذا القرن وأثارت ، ولا تزال ، عاصفة من الدراسات والمقالات والأبحاث بين مؤيد ومعارض وناقد . ولقد حاز أحد روادها ، كلود سيمون ، على جائزة نوبل للادب عن عام ١٩٨٥ بينما لم تكد تمر سنة بين ١٩٥٤ و ١٩٧٠ إلا ونال عمل منها أو أكثر جائزة أدبية .

اهتم النقاد كثيرا بهذه الظاهرة منذ نشأتها وأخذوا يتسابقون في تحديد أطرها ووضع برامج ومخططات - وحتى تسميات - لها . لم يجد بعضهم فيها أكثر من «روايات بيضاء» خالية من المعنى ، «روايات فراغ» يؤلفها كتاب قاهمون في وصومعة منتصف الليل ، منقطعون عن العالم وهمومه .^(١) ورأى بعض معارضها الآخرين أنها «مدرسة النظر» ، بمعنى أن رواياتها تصور ببرودة وجفاف بعض الأشياء والأماكن والتصرفات العادية ، دون أي تدخل عاطفي أو فكري من قبل الكاتب .^(٢) ونهب آخرون إلى تسميتها «أدب اللل» ، تلك التسمية التي يجعلها جان بولك ميشال عنوانا لأحد فصول كتابه «المضارع» والذي يخصصه لمهاجمة ذلك التيار الأدبي .^(٣) أما المضارع فهو ، برأي الناقد ، «زمن الفعل الذي لا يعبر إلا عن الوجود ، ولكنه خالٍ من أي معنى أو دلالة» .^(٤)

تلك كانت آراء بعض المعارضين . أما مؤيدو والرواية الحديثة فيرون فيها «أدب الطليعة» و «مدرسة التغيير» وأحد أبرز تيارات تحديث الرواية بعد ركرد طعى عليها منذ أواخر القرن التاسع عشر وبعد

الرواية الفرنسية الجديدة وتقنيات التجريد

مصباح احمد الصمد *

* استاذ مساعد في كلية الآداب والعلوم الإنسانية . الجامعة الزيتية - طرابلس

Ludovic Janvier, Une parole exigente, p. 23

Pierre de Bois deffre, La Cafetière est sur la table, p. 15-18

Jean-Bloch Michel, Le Présent de l'indicatif.

- ١

- ٢

- ٣

- ٤ - نفس المصادر . ص ٥٤ .

ويكتب في النقد ، في حين انحط ميشال بوتور طريقاً آخر متعدد الأوجه وغزير الانتاج .

من جهة أخرى ، فلقد نشأ تيار جديد حول جان ريكاردو ومجلة « قتل كل » Telquel دعا نفسه تميزاً « الرواية الجديدة الحديثة » (Neo - nouveau roman) أمام كل هذا التنوع والتنازع يكون من الصعب ، إذا لم نقل من شبه المستحيل ، إعطاء تعريف محدد لهذا التيار الأدبي ، بل أكثر من ذلك ، فإن هؤلاء الكتاب يرفضون جميعاً الاعتراف بوجود مدرسة مؤطرة ومنهجية . ولكن ذلك لا يمنع من وجود قواسم مشتركة ومنطلقات متقاربة . يقول ميشال بوتور :

« من وجهة نظر تاريخية ، أصبح لتعبير «الرواية الحديثة» معنى واضح نوعاً ما : فهو يدل على مجموعة روائيين أصبحوا فجأة معروفين أكثر حوالي العام ١٩٥٦ . هؤلاء الكتاب ، المختلفون جداً ، كانت بينهم بالتأكيد نقاط مشتركة ، وليس من قبيل الصدفة أبداً أن تكون أعمالهم قد ظهرت من دار نشر واحدة . ولكن هذا التقارب لم يسمح أبداً بتشكيل مذهب أدبي موحد » .^(١٧)

تلك «النقاط المشتركة» التي يتكلم عنها بوتور وغيره من كتاب الرواية الحديثة ، يحددها الآن روب - غرييه في إحدى مقالاته^(١٨) ، ونلخصها كما يلي :

اجتذاب وسائل الاعلام للرئية والمسموعة نسبة كبيرة من القراء . لقد هلل لها واستبشر بها كثير من النقاد والأدباء من أمثال جان بول سارتر^(١٩) ورولان بارت^(٢٠) وجان روسيه^(٢١) وغيرهم في فرنسا ، أو آخرون خارجها ، منهم مورتون يول ليفيت^(٢٢) وجون ستورك^(٢٣) في امريكا وكلاوس نيتزر^(٢٤) وكورت ويلهلم^(٢٥) في ألمانيا ، وكثيرون غيرهم في بلدان مختلفة .

ولكن ماهي «الرواية الجديدة» ولهم تكمن حداتها ؟

١ - محاولة تعريف

نقول ومحاولة لأن كتاب هذا التيار لا يشكلون مدرسة أدبية متماسكة ومعدلة النظرية والمنهجية والقوانين والأهداف بالرغم من المعرفة الوثيقة والصدقة التي تجمع بين أغلب القائلين عليه . فلقد ابتدأت رواياتنا بالظهور عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية مع الفشاش (Le Tricheur) لكلود سيمون . و «الثرثار» للموس ريتيه ديلافور سنة ١٩٤٦ ، ثم توالى غزيرة بين ١٩٥٢ و ١٩٦٠ تشعب اتجاهاتها بعد ذلك ، حيث أخذ البعض يكتبون مع استمرارهم في ميدان الرواية ، أعمالاً مسرحية أو شعرية ، كما فعل كلود سيمون وروبير بينجيه ، وكلود اوليه وهوير اكون ، وأضاف الآن روب غرييه الإخراج السينمائي الى نشاطه الأدبي . بينما كان جان ريكاردو يؤرخ لهذه الحركة .

cf. Madeleine Chapsal, Les Ecrivains en personne, Ed. Juillard, 1960

Roland Barthes, Essais critiques, Ed. Seuil, 1964

Jean Rousset, "Trois romans de la mémoire" cahiers internationaux du symbolisme, no 9-10, 1962

Morton Paul Levitt, From a new point of view, Ann Arbor University press, 1966

John Sturrock, The french New Novel, Oxford University press, 1968

Klaus Netzer, Der Leser des "Nouveau Roman", Frankfurt am Main, Athenäum, 1970

Kurt Wilhelm, Der "Nouveau Roman", Berlin, E. Schimatt Verlag, 1969

M. Butor, Réponses à Tel Quel, n° II, 1962

A. Robbe-Grillet, "Nouveau Roman, Homme nouveau", La Revue de Paris, Sept. 1961.

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

(٢٥)

(٢٦)

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

الإنسان ما زال هنا ، بحراسه وخياله وفكره ، يتحرك في زمان ومكان محلوطين ويروي تحوية محلوطة وغامضة في أكثر الأحيان ، نالقا لنا نظرتيه وتصرفاته وانطباعاته .

هـ- لا تقدم الرواية الجديدة معالي وتفسيرات جاهزة : يرى هؤلاء الكتاب أن نظرتنا للأمور ولهمنا لها ما هي الا جزئيان أو مبتوران ، إذ أن ومعاني العالم من حولنا هي جزئية ، مؤقتة وحتى متناقضة ، وهي دائما عرضة للمناقشة والخلاف . فكيف يستطيع العمل الفني ان يدهي اذن تقديم تفسيرات مسبقة ، مهما كان نوعها ؟^(١٤)

و- الأدب هو الالتزام الوحيد الممكن للكاتب : القصة تبدأ عند كتابتها ، الرواية تتكلم عن أشخاص ومواضيع ، ولكنها تعرض أيضا مراحل كتابتها . فهي مخاض وولادة مع كل آمالها وآلامها ، ومع كل ما يرافق ذلك من تحضير وتجهيز وما يعترضه من مشقات وعوائق .

ز- الرواية ليست وقصة فقط ، بل هي أيضا خطاب أدبي : ليس المهم فقط ما يروى ، بل كيف يقال ، بلية لغة وبأي أسلوب . الكلمة هي ما ترويه شهرزاد ، ولكنها هي شهرزاد أيضا ، هي المفنة والمخالعة ، تسرد أحداثا وتنقل خطابا ، وغاية هذا الخطاب أن يفعل ويقبل ، أن ينطلق من ذات تحد لديها ما تقوله لا ليدخل عقل وقلب قارئ فقط ، بل ليتردد لديه ما يقوله بدوره . هكذا تصبح القصة نوما من التناخيل ، والفرغات الملوكة فيها عمدا هي دعوى مفتوحة للقارئ ، أيا كان مستواه وثقافته ، لينلي بدنيوه ويملاها بطريقته الخاصة .

١- الرواية الجديدة ليست نظرية ولكنها بحث وتقييم ، فلم يكتب أحد من إعلامها أي مؤلف نظري الا بعد أن ظهر له عدد من الروايات كشفت كل منها عن نظرة مختلفة الى طريقة رواية الاحداث ونوعيتها والشخصيات والأماكن والأزمنة . جاءت النظرية إذن بعد التجربة ، وعندما ظهرت لم تكن موحدة القوالب .

ب- تابعت الرواية الجديدة التطور المستمر للنوع الروائي ، لم تدع اذن لمحو الماضي أو للتنكر لما قام به رواد كثيرون في عصور مختلفة ، ولكنها أرادت أن تشكل قفزة نوعية في هذا النوع الأدبي تكون حلقة في سلسلة التغيير المتواصل . ونذكر هنا أن جميع كتابها أبدأوا إعجابهم وتأثرهم بكبار الروائيين من مختلف الجنسيات والمدارس من فيكتور هوفز الى فلوريو ويلزك ومرسيل بروست وأندريه جيد وفرانز كافكا ووليم فولكرت وجيمس جويس وغيرهم ، كما عبروا جميعا عن إعجابهم الشديد بألف ليلة وليلة .

ج- لا تهتم الرواية الجديدة سوى بالإنسان ووضعه في العالم بالرغم من تسمية البعض لها «مدرسة الأشياء» أو «مدرسة النظر» ، والإنسان موجود في كل صفحة وفي كل سطر وكل كلمة وحتى لو وجد فيها كثير من الأشياء المصورة بدقة ، فهناك أولا وقبل كل شيء النظرة التي تراها والفكر الذي يستميدها والانفعال الذي يبعث تشكيلها .^(١٥)

د- تنشأ الرواية الجديدة ذاتية مطلقة : صحيح أن الكاتب لم يعد يدهي أنه وكلي للمعرفة ، بمعنى أنه يعلم كل شيء عن شخصيات القصة وما يدور حولهم وفي ذاتهم ، وصحيح أن البطل كاد يفقد هويته وحتى اسمه ، الذي فقدته بالفعل في قصص كثيرة - ولكن

(١٤) نفس المصدر .

(١٥) نفس المصدر .

٢ - بين الرواية الجديدة والرواية التقليدية :

قد لا تظهر من هذا العرض المنتصب أبعاد التغيير الذي أحدثه هذا التيار الأدبي في نظرة الكاتب إلى الرواية وموضوعها وشخصياتها وفي العلاقة بينه وبين القارئ. ولبيان ذلك، علينا أن نلقي أولاً نظرة سريعة على الرواية التقليدية وكاتبها.

من المتعارف عليه أن الرواية هي «عمل خيالي ثوري، يعرض لنا أشخاصاً نفترضهم حقيقيين، يجعلهم يعيشون في محيط معين ومعرفنا على نفسياتهم ومغامراتهم ومصيرهم»^(١٦).

يتضح لنا من هذا التعريف الموسوعي للرواية - والذي يلتقي حوله أغلب النقاد الأدبيين قبل ظهور «الرواية الجديدة» - أن على الكاتب أن يعرف كل شيء عن الشخصيات التي يصورها لنا، أن يلم بكل ما يدور حولها، وأن يخصصها بطابع وسياق مميزة، وأن يلاحقها في أغلب مراحل وجودها ليتوصل إلى تحديد مصيرها. ذلك ما يفترض بالتالي أن القارئ سوف ينسجم مع ما يعرض أمامه ويعرف ما يحدث وأين وكيف، وسوف يسترسل مع مغامرات الأبطال. وهو يتأثر بها ويعجب فيقلد أو ينفّر فيمتظ.

إن كل كتاب «الرواية الجديدة» يتفوق على معارضة هذه النظرة السائدة وينظرون بشكل مختلف إلى كاتب القصة وقارئها وأبطالها وموضوعاتها، إذ أن الرواية، بالنسبة لهم، هي «التعبير عن مجتمع يتغير، ويجب أن تصبح عاياً قريب تعبيراً عن مجتمع يترك أنه يتغير»^(١٧).

أ - الكاتب

يتساءل آلان روب غرييه عن الدور الشائع للروائي التقليدي فيقول: «من هو هذا الروائي الكلي للمعرفة والشمولي الوجود، الذي يتواجد في كل مكان وفي نفس الوقت، والذي يرى مظاهر الأشياء وتجلياتها، والذي يتتبع في الوقت ذاته تعابير الوجه وكوامن الفكر، والذي يعرف حاضر وماضي ومستقبل كل مغامرة؟»^(١٨)

ويتنقل، بعد أن ينكر على الكاتب هذه القدرة الخارقة على معرفة الأشخاص والأشياء، إلى تحديد رؤيته للكاتب أو الروائي، قائلاً: «في كتبنا، هنالك على العكس، «رجل» يرى ويشعر ويتصور، رجل محدد المكان والزمان، توجهه عواطفه، إنسان مثلي ومثلك. والقصة لا تقدم أكثر من تجربته الشخصية، المحدودة وغير المحققة».

من كاتب خارق إذن، إلى كاتب عادي. وسواء أتكلم الروائي مباشرة أم بواسطة راوي، فالمطلوب منه أن يتواضع من الناحية المرحلية. وهذا التواضع يعني أن يضع جانباً دور المعارف بكل شيء أو الموجه للقصة وشخصياتها، وأن يتحول إلى ناقل تجربة أو حدث يقدم للقارئ بطريقة شبه سينمائية، أي بتصوير الحدث نفسه من زوايا مختلفة.

ولكن ذلك لا يعني أن كاتب «الرواية الجديدة» قليل المعرفة أو هزيل التفاهق. بل على العكس، فجميعهم يمتلكون ثقافة واسعة ويتمتعون باطلاع عميق على نتائج حضارات وشعوب مختلفة. وجميعهم

LeRobert, Dictionnaire de la langue française, article: "roman."

Michel Butor, Répertoire II, p. 80.

Alain Robbe-Grillet, op. cit.

(١٦)

(١٧)

(١٨)

كما خرجت العادة ، بل يطلب منه ان يكون مستكشفاً للنص وللأحداث .

«إن سر سعادة الروائيين التقليديين وقرائهم ، كما تقول ناتالي ساروت»^(١٧) ، أنهم ركزوا مرادهم في نفس المكان الذي يقف فيه القارئ» . ثم تابع : «وبفضل تلك الوضعية المريحة يسهون لقائهم بالثقة ، إذ يعطونهم انطباعاً بأنهم في منازلهم ، بين أشياء مألوفة . وهكذا يتولد شعور بالتعاطف والتعاون والرفق بين القراء وذلك الراوي الذي يشبههم والذي يعرف ما يشعرون به . وبما أنه أكثر وعياً وانتباهاً وخبرة منهم ، فإنه يكشف لهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم وعن الأمور والمشاكل المحيطة بهم ، ثم يقدمهم ، دون أن يتعبهم كثيراً أو يبطئ من عزائهم ، ودون أن يعطيهم مسرعهم أو يوقفهم ، نحو ما يتوقون إليه عند بلوغهم بقرعة الرواية : عزناً في وسعهم ، وصفاً لأوضاعهم ، كشفاً عن خفايا حياة الآخرين نصالح مليحة بالحكمة ، حلولاً لمشاكل وخلافات يشكون منها ، إغناء لتجاربيهم أو انطباعاً بأنهم يعيشون حياة مختلفة .»^(١٨)

هذا الدور القوي للكتاب يجعل من القارئ برأي الكاتبة وزملائها الآخرين ، مجرد متلقٍ لا تفكر ونتاج عمل عليه وتستحوذ على تفكيره وعواطفه فتجعله غاملاً كسولاً «يسترسل» مع رواية تدغدغ مشاعره ويكون أشبه بطفل يمسك بيد والده ليقوده في نزهة جميلة .

اما القارئ الذي ينشده «الروائيون الجدد» فيجب أن يكون مستعداً لمشاركة الكاتب مغامرة الرواية والاستكشاف والنتيجة : عليه أن يدرك أنه ، مثل الكاتب ، شبيه بهزارد التي تجهد في ابتداء كلام

النقاد ان ميشال بوتور ، مثلاً ، هو من أغنى الكتاب المفسرين نقسافة ، إن لم يكن اغناهم على الإطلاق»^(١٩) . كما أن أغلب هؤلاء الكتاب هم أساتذة جامعات وباحثون ومحاضرون مشهورون . وذلك أمر يدهي ، فدهوتهم الى تغيير الرواية وتغييرها تقتضي معرفة معمقة بها وتاريخها وتطورها وتأثيرها أو تأثيرها ببغية الانسواء الأدبية وبمجملة الفنون وتتطور المجتمعات . ان غالبية رواياتها تطرح مواضيع حوار الثقافات وتلاقي الحضارات ، وذلك ما لا يستطيع القيام به سوى اشخاص واسعي الأفق والمعرفة .

اما دور هذا الكاتب ، فتحلده ناتالي ساروت بأنه يكمن في وتجريد ما يشاهده من كل الأفكار المسبقة والصور الجاهزة التي تغلفه ، من كل ذلك الواقع الظاهري الذي يمكن لكل الناس ان يروه دون جهد وبان يتوصل أحياناً الى شيء مجهول يبدو له أنه أول من يكشفه ، وهو يدرك دائماً ، عندما يحاول توضيح هذا الجزء من الواقع الذي اكتشفه هو ، أن كل الطرق التي استخدمها سابقوه ، والتي أوجدوها لغاياتهم الخاصة ، لم تعد صالحة بالنسبة له ، فيلقي بها جانباً دونما تردد ويجهد في ايجاد بدائل لها ، تتناسب والغاية التي ينشدها . وليس من المهم كثيراً إذا رأى أنها تخيب آمال القراء أو تزعجهم»^(٢٠)

ب - القارئ

ان تغير دور الكاتب وموقفه من الرواية ومن فعل الكتابة ذاته يقتضي تبديلاً في نظريته الى القارئ وتعامله معه . فهو لم يعد يقر باسترسال القارئ مع الرواية ،

cf. Jean. Paul Sartre, in, *Les Écrivains en personne*, Jan Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, Georges (١٩)

Railard, Butor, et Michel Zeraffa, in *La Grande encyclopédie Larousse*, article Butor, Michel. (٢٠)

Nathalie Sarraute, *L'Ère du Soupçon*, p. 141-142.

(٢١) قس المصدر من ١٢٢

(٢٢) قس المصدر من ١٢٢ - ١٢٤

ما بعد فترة المطالعة ، أو يبدأ بالاحرى عندما يضع الرواية جانباً .

نسارع الى القول أن المشاركة لا تعني الموافقة والتأييد . فلقد عنونت ناتالي ساروت كتابها الذي تعرض فيه نظرياتها حول الرواية : « عصر الريبة » (L'ère du sourçon) وهي تقول في إحدى صفحاته : « بعد أن كان بطل الرواية يشكل الأرضية المشتركة التي يتفاهم من خلالها الكاتب والقاري ، أصبح موضع ريبتهما المتبادلة ، أصبح منطقة مدمرة يتجلبهان فيها . هذا الموقف الراهن يجسد بشكل رائع كلمة ستندال : « لقد وصلت عبقرية الشكل الى العالم . ولقد دخلنا فعلاً عصر الريبة »^(١٧)

ج - البطل

نستشف من القول السابق أن بطل الرواية كان أحد مجالات التغيير التي إنطلقت منها الروائيون الجدد . والحقيقة أن تعديل اسماها قد لحق بمفهوم الشخصيات الروائية .

لقد اعتدنا أن نجد في كل رواية شخصيات محددة الملامح والتصرفات ، تتحرك كل منها بشكل متناسق مع خلفياتها الفكرية والاجتماعية والنفسية . ولطالما درسنا ، ولم نزل ، مزايا تلك الشخصيات وتفاعلها مع بيئتها وعصرها ، وإنكب باحثون على التفتيش عن اسماها الحقيقية وعن واقعها التاريخي والجغرافي ، وتأثرنا بها فعاثت في مخيلتنا اسما مثل جان فالجان وسيرانو دويرجواك و « بول وفيرجينى » وغيرهم .

كل ذلك لم يعد موجوداً في « الرواية الجديدة » التي ترفض حتى اسم « بطل الرواية » ، لان مجرد التسمية تعني ان الرواية تركزت وتمحورت حول هذه الشخصية الواضحة ، وهذا ما لم يعد ممكناً ، فعالمنا فقد مركزه منذ أمد بعيد وأصبحنا نعيش في زمن متحرك متغير لا يسمح بتشكيل أفكار واضحة ومحددة حتى عن شخصيات البشر . وحتى لو كان ذلك متيسراً ، فالرواية يجب الا تقدمه جاهزاً .

ينقلها من السيف السلط فوق رأسها . لم يعد الوقت المخصص لقراءة الرواية فترة استرخاء ، ولكنه أصبح وقتاً للتفاعل والتفتيش ، ويعود ذلك لكون الرواية معقدة متشابكة ولكنها فقدت ترابطها وتسلسلها ، مما يستدعي جهداً كبيراً لتجميع شتاتها وفك رموزها وملء فراغاتها . وهذا ما يتطلب بدوره غوصاً في أعماق اللغة التي كتبت بها ، مع ما يفترض ذلك من مصاحب وعقبات .

يتبادر الى الذهن هنا سؤالان :

١ - ألا يعني كل ذلك ان « الرواية الجديدة » تتوجه الى فئة قليلة من القراء ؟

٢ - وحتى لو توجهت الى جمهور عريض ، ألا يكون التفتيش والتفاعل اللذان تدعياه نوعاً من العينية ؟

للإجابة عن السؤال الاول لابد من الاعتراف بأن جمهور القراء في فرنسا لم يكثر في البداية لهذه الروايات ، حتى أن بعضها لم يسجل سوى مبيع ثلاثين نسخة فقط خلال عام كامل . ولكن لم يطل الوقت حتى اقبل عليها القراء بأعداد كبيرة . صحيح أن جمهورها لم يعادل بعد من يقرؤون الروايات التقليدية وأن اسماها كتابها باستثناء كلود سيمون - لم تصبح « شعبية » كاسم فرنسوا موريك مثلاً ، ولكنها اتخذت خطأ صار معروفاً واكتسبت مؤيدين ومتابعين نشاطها .

أما السؤال الثاني فجوابه لا يقتصر فقط على الرواية الجديدة وقراءتها ، بل يتجاوزها الى كل عمل أدبي وفني ، إذ أن كل كاتب يتوجه بالضرورة الى قاريه يتظلم منه ردة فعل معينة ، من إثارة أو تشويق أو حيرة وتعليل . ولكن ما تغير هنا أن للكاتب أصبح يتظلم من قارئه أكثر من ذلك ، أي أن يكون شريكاً له في مغامرة الكتابة والبحث ، وأن يكمل ، إذا أمكنه ذلك ، الكتاب الذي يقرأه . دور القاريه يمتد إذن الى

هذه الروايات لا تقدم اذن معاني جاهزة يشهدها القارئ يسر وطمانينة ، بل تقف على نوع من شدة التي يتطلب اجتيازها كثيرا من الجهد والوعي واليقظة ذلك ما يدفع حتى بعض كبار النقاد على انكار ثري عدم فكري أو موضوعي، هنا : ولم تعد الرواية مبنية على فكرة أو طرح محدد ، حتى ولا على موضوع أو قضية^(٢١).

تلك مبالغة دون شك ، فالمواضيع موجودة دوماً ويكثر ، ولكن في الاعاقل ، واستخرجها تسيه باستخراج الافكار من الشعر ، خاصة السريالي . نشر هنا على عهد أن إحدى عينات هؤلاء الكتاب التقريب بين الشعر والرواية ودم المسافات التي تفصل بينها .

أما نوعية الموضوعات التي تنطرق اليها «نروية» الجديدة فهي كثيرة ومتنوعة ولكن اغلبها يتناول وضع الانسان المعاصر المرئي في مناهات اشد الحديثة مع كل ما يطرع عن ذلك من عسوفات ومتطلبات وريذات فعل ، بينما تأخذ الرحلة مكان الصدرة ، الرحلة بكل مظاهرها وبمختلف الاتجاهات : جغرافية وتاريخية وعلمية وفنية ونحالية ، ذلك لأن الرحلة هي الموضوع الأكثر تجسيدا لاهداف الروائيين الجدد : هروب من واقع جامد واستكشاف لآفاق جديدة .

٣ - تقنيات التجديد

تتردد كلمة تقنية على السنة هؤلاء الكتاب للدلالة على المنهج أو المنظومة (Systeme) أو الآلية (mecanisme) التي يعتمد على كل منها في بناء رواياته . ويتبين من هذه المقولات ان تجهيز نروية وسردها يتطلبان بيانات ومخططات وتصانيف تمهيدية تشكل اساس البناء الروائي ومادته .

لقد فقدت الشخصية الروائية ملامحها ووحديتها وأحيانا اسمها . أصبحت وفئات شخصية صعبة التعريف والتحديد . «فالشخصية الرئيسية هي وأنا» مجهولة أو غامضة ، والشخصيات الثانوية ليست سوى رؤى وأحلام وكوابيس وأوهام وانمكاسات أو ملحقات بها^(٢٢) وجميع هذه الشخصيات عرضة لتبدلات غير محللة ، فهي تغير مظهرها وسنها ومهتها وجنسيتها لدرجة انها تصبح «أطارا فارغا لمحتوى متغير»^(٢٣).

ان رواية الشخص ، برأي روب فرييه^(٢٤) ، تنتمي الى الماضي ، الى فترة تميزت بسيطرة الفرد وتميزه ، بينما عصرنا الحاضر يتميز برقم التسجيل .

هل يعني ذلك ان «الرواية الجديدة» تحمل الناحية النفسية او تلفظها ؟ ان القارئ هو من يقرر ذلك ويجب عليه من خلال المعطيات والمعالم التي يقدمها له الكاتب .

د - الموضوع

كما حدث مع شخصيات الرواية ، فان موضوعها تفتت بدوره . والتفتت يستيع التفتت . فلا تلتقط الفكرة ، أو الافكار ، التي يطررها الكاتب ، علينا للممة فئاتنا من مختلف جوانب وزوايا العمل الروائي . وهذه العملية ليست سهلة بالطبع . ذلك ما يعيدنا الى الجهد المنتظر من القارئ .

ان كثيرا من الروايات الجديدة تبدو كشكليات لافكار أو مواضيع دالة التغير ، فالفكرة لم تعد تتوسع فيها حسب مسلسل زمني أو استنادا الى سببة نفسية أو وظيفية ، بل تستخرج اجزائها تباها حسب قوانين التشابه والتناقض والتجمع والتبادل .

J. Thoral. N. Boutharel F. Dupont. Les Nouveaux-romanciers, p. 83

(٢٤)

Alain Robbe-Grillet. "Nouveau roman, homme nouveau". dans La Revue de Paris, Sept. 1961.
R M Albérès. Histoire du roman moderne, p. 416

(٢٥) نفس المصدر ص ٨٧

(٢٦)

(٢٧)

لان ما تسمح باكتشافه هذه المخططات التي استخدمها والتي لولاها لم اكن لاجرؤ على بدء طريقي ، يجبرني على تطويرها . ذلك ما قد يحدث منذ الصفحة الاولى ، وما قد يستمر حتى آخر تصحيح للمخطوطة .

هذا ما يراه بيوتور الذي يني روايته «درجات» (Degres) على استعادة احداث عدة اسابيع في مدرسة ثانوية باريسية يرويها على التوالي ثلاثة اشخاص : استاذان وطالب ، وكل بأسلوبه الخاص ونظرة مختلفة الى الامور . اما عند كلود مورياك وناتالي ساروت ، وخاصة عند روب - غرييه فمن الصعب جدا ، اذا لم نقل من المستحيل ، ان نجزم بوجود حقيقة واضحة محددة في أي من رواياتهم ، ذلك ان كلا منها تظهر وكأنها لعبة اختلالات او صور واشكال التغير والتبدل ، كتلك التي تظهر في آلة للمشكال (Kaleidoscope) . وهم ينطلقون في ذلك من ان للحقيقة وجوها عديدة وانها تظهر في اعيان مختلفة .

ودراسة بنوية للروايات الجديدة تظهر لنا :

- ان البنى التي تعتمد التسلسل الزمني للاحداث تترك مكانها لبنى تنطلق من توزيع الاماكن وتعددها ، او من الاطلالة على مكان واحد من روايا مختلفة .

- ان البنى المنطقية والتفسيرية تستبدل ببنى التبدل والتكرار والتبطين .

- انه ليس هناك من تنظيم لاحداث الرواية ، فبعض الروايات تظهر كنوع من الالعب التركيبية التي يطلب الى القارئ ان يجمع اجزائها المبعثرة ليعطيها الشكل الذي يراه مناسباً .

قد يتكر بعضهم اللجوء الى هذه التحضيرات ، حيث يقول الان روب - غرييه : «وقبل الرواية لا يوجد شيء»^(٢٨) ، ويشرح ذلك في مكان آخر قائلاً : ان دور الفن ليس تجسيد حقيقة او اجابة عن تساؤل معروفة مسبقاً ، بل تقديم تساؤلات تظهر خلال كتابة الرواية»^(٢٩) ولكن أكثرهم يحتفلون بوجود تقنية تبني عليها اعمالهم ، يتحدث عن ذلك ميشال بيوتور في إحدى محاضراته فيصرح : «لا استطيع البدء بكتابة رواية إلا بعد ان اكون قد درست تنسيقها خلال اشهر عديدة ، بعد ان اكون قد امتلكت مخططاتها . . . ثم ابداً استكشافي مزوداً بهذه الاجهزة ، بهذه البوصلة ، او بالاحرى بهذه الحافطة المؤقتة»^(٣٠)

سنحاول فيما يلي لقاء بعض الاضواء على الميادين التي تتناولها تقنيات التجديد .

١ - البنى المتحركة

اذا كان من النادر ان تقدم الرواية سرداً او قصة متسلسلة ، فانها تظهر دائماً كنسيج يحاك بمنأى ودقة . فالروائي هو ، حسب قول ميشال بيوتور^(٣١) ، «ذلك الانسان الذي يدرك ان بنية معينة تتشكل عما يحيط به فيتبع تلك البنية ويصنعها ويدرسها حتى يصبح بإمكان كل انسان ان يقرأها» لكل رواية بنية اذن ، ولكنها بنية لدنة ، قابلة للتشكل والتعديل ، فالمخططات التي يضعها الكاتب ، على اهميتها ، لا تعني تقيداً له بشكل رواي محدد سلفاً أو سجنه ضمن هيكلية مسبقة . التصانيم تحدد الاطار العام الذي يتحرك الكاتب ضمنه بناء على اكتشافات يولدها النص الروائي ويمكن ان تدخل احياناً تعديلات اساسية على ما قام بتحصيره في البداية . لا يوضح هذه النقطة نعدو لنكسل ما يقوله ميشال بيوتور في محاضراته^(٣٢) : «أبداً استكشافي ، وأبداً مراجعي»

Alain Robbe-Grillet, op. cit.

A. Robbe-Grillet, pour un nouveau roman, p. 87

M. Butor. Intervention à Royaumont, in *Essais sur Le roman*, p. 19

M. Butor. Entretiens avec Georges Charbonnier, p. 43

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢) نفس المحاضرة ص ١٩٠

« السطيب يلق باب منزل الرهاسي . تفتح والدتها .

تنهض جزئود متأنقة ، تحد باب المطبخ مفتوحاً يا لعلم الأتية . أم أن هناك لها ؟ تيسر . متقدم نحوها العبد .

مدام فيليس تفتح عينها ، الرابيت المحور تصعد السلم . . .^{٣١}

إن الشخصيات التي تتحرك هنا تسكن على التوالي الأدوار : الأول والخامس والثالث من 'بني' . وبذلك لا يكتشف بسهولة . ولكن الكاتب يعتمد ذلك ليطلقنا ، ليس على شريط للأحداث ، بل على أكثر عدد منها بصورة متزامنة أو متوازنة .

٢ - السرد المتعدد^{٣٢} أو المتعاقب : تعرض

الأحداث من وجهة نظر معينة ، ثم تستعاد من وجهة نظر ثانية لتتلقى مع الأولى في نقطة ما من الرواية . وهكذا دواليك . وهي بذلك تشبه الأشعة التي تأتي من جهات مختلفة لتلتقي في نقطة واحدة . هذه الطريقة تجسد عند ميشال بوتور في « درجات » (Degres) وعند آلان روب - غرييه « في الشاعة » (Dans le labyrinthe)

٣ - السرد المتقاطع : وهو شبه باناسك ، إلا أنه يختلف عنه في كون نقاط الالتقاء مؤقتة ومتعددة ، أي أن الأحداث تمر فيها لتتابع سيرها . لتوضح ذلك نعطى مثلاً « معركة غراسلا » (La Bataille de Pharsale) لكلاود سيمون حيث يُعرض في البداية عدد من المواضع أو « للحركات » ، ثم تقدم متوعات روائية تمر كل منها بهذه النقاط المحلدة « معركة .

- إن النص المكتوب يصبح أهم من الأحداث المروية .

- إن بنية الرواية تتضمن نصوصاً غريبة عنها ، مأخوذة إما من كتاب آخرين أو من أحوال أخرى للكاتب نفسه .

وهكذا فإن « الرواية الجديدة » لا تكتفي بما الوقوف في مكان مرتفع نرى فيه ما يجري حولنا أو بسلك درب يقضي بنا إلى مكان يقصده كاتب الرواية التقليدية ، بل تدعونا إلى اكتشاف أحشاء الواقع ، وذلك بوضعنا في طرقات وعرى ، كثيرة التشعبات والمنعطفات لا يمكن لسالكها إلا أن يتأني ويتمهل وينرس ما حوله قبل أن يحدد اتجاهها أو يتوصل إلى محطة .

ب - السرد

لقد أشرنا فيما سبق إلى الفرق بين السرد التقليدي وبين الطريقة أو التقنية التي يمتدحها هذا التيار الأدبي في عرض الأحداث ، وزيانا أن مجرد استعمال تعبير « السرد » لا يتوافق مع توجهاته . ولكننا نمتدح هنا ، مع تحفظ أصبح واضحاً على ما قد ينحو إليه من تسلسل للأحداث والأزمنة ، لتبين فيما يلي الاتجاهات الكثيرة والتعديلات الأساسية التي أدخلها الروائيون الجدد على هذا المفهوم .

١ - السرد المتساق أو المتوازي : أوضح مثال على

هذا الأسلوب هي رواية « عمر الخطاف » حيث يتقارن ميشال بوتور بسرعة مذهلة ودون مقدمات بين أدوار الجاني الذي تدور فيه الأحداث :

Michel Butor, *Peusage de Milan*, p. 284-285

(٣١) يشرح ابن منظور لعل سئل فيقول : « السائل مليناً لئلا ، في خرجوا من موضع واحد بعد أن دأبوا مشاكلي . ونسأل الله عنه بصحة في (٣٢) أثر بطي . . . لسان العرب » جزء ٢٢ ، طبعه دار الفنون وبعث . فني بالسائل فإن تابع أحداث تروي كلاً في حراً على أنسة شخصيات مختلفة ثم يتبع لشعوب جميعها أو تكملها

سنة من حياته - أم توأدية - كما هي الحال في «التعديل» (La modification) حيث يتوصل في نهاية رحلته الى نتيجة مغايرة تماماً لما كان يتوقعه - فإنها تنطلق من مراكز متعددة ومتحركة ، وتتداخل وتتشابك لدرجة يصعب فصلها ، ولكنها تعكس مساراً فكرياً وبحيثاً جليداً بالاهتمام .

٧ - السرد التشكيلى : وهو يعتمد على « وضع البطل » في مواجهة العالم الموضوعي وتصوير هذا العالم وهو ينهار أمام عينيه (واعيننا) ليبدأ تشكيله بصورة مختلفة وبشكل افضل^(٣٧) هذه التقنية هي التي يعتمدها كلود مورياك في «خرجت المركبة الساعة الخامسة» (La Marquise sortit à cinq heures) حيث يستعرض المارة في إحدى ساحات باريس ، مستشرفاً ما في أعينهم وجاعلاً أفكارهم «تطفو وتتلاقى وتلعب وتمتزق وتتكون من جديد كالغيوم في السماء»^(٣٨) .

٨ - السرد المتداخل أو المزجي : هنا تبلغ اللعبة أوجها ويصبح السرد خليطاً والقراءة إعادة تركيب . يشبه ميشال بوتور بعض نصوصه بـ « طبق سلطة » ولأن روب - غرييه بعض رواياته بـ « خلط ورق اللعب » . وكما يتبين من الاستعاريين فإن التقنية تكمن هنا في تجهيز نصوص عديدة ثم تفكيكها وتوزيع أجزائها على أقسام وفصول وصفحات الرواية ، ويفترض بالقارئ أن يحدد نهايات الجمل وبداياتها كي يتمكن من إعادة وصل أجزائها وتشكيل نصوصها . ذلك ما يعتمد كلود سيمون في « صلاة الموت » (Le Libera) وكلود مورياك في « العشاء في المدينة » (Le Dîner en ville) وروبير بينجيه في

محارب ، آله ، قيصر ، رحلة - فيتولد عن ذلك منظومة متحركة يعاد تشكيلها باستمرار حول نقاط ثابتة أو مراكز الثقل »^(٣٩)

٩ - السرد المتناسخ : حيث تتعدد روايات قصة واحدة بشكل ينسخ بعضها بعضاً ويجعلنا نشك بحقيقة ما يجرى ، وتتردد كثيراً قبل اعتماد رواية ما ، حتى إننا ننهى قراءة الكتاب دون أن نتأكد مما حصل بالفعل . هذه التقنية هي التي نعتمدها ناتالي ساروت في روايتها «مارترو» (Marterau) التي تعرض لنا أحداثاً ترى بأربعة أشكال مختلفة ، ولعل هذا الأسلوب مستوحى من قاعات المحاكم حيث يتقدم كل من المحامين والشهود برواية تختلف عن الأخرى .

١٠ - السرد المتناوץ : يتحدث كلود سيمون عن هذا النمط من السرد فيقول : « إن روايتي التي تحمل عنوان « قصة » (Histoire) يمكن أن تصور بشكل عدة خطوط متعرجة يختلف طول موجتها وتتراص أحياناً فوق وأحياناً تحت خط متواصل ... وهي تظهر وتخفي وتلاصق وتتقاطع وتتداخل أو تتباعد . والخط هو في الواقع عبارة عن قوس بشعاع كبير ، من دائرة تعود الى نقطة انطلاقها (الراوي المستلقي على سريره) بينما تقصر لفترات تليح الخطوط المترعة شيئاً فشيئاً ، وتتداخل ذراها أو تتلاحق بإيقاع يسرع شيئاً فشيئاً »^(٤٠)

١١ - السرد اللولبي : ينطلق الكاتب من نقاط محددة ليوسع بحث اللولبي عن خلفيات أحداث معينة . وسواء أكانت هذه الخطوط اللولبية ارادية - كما يحصل في رواية « استعمال الوقت » (L'Emploi du temps) التي يحاول فيها الراوي استرجاع أحداث

(٣٧) Claude Simon, "La Fiction mot à mot," dans *Nouveau Roman, Hier, aujourd'hui*, II, pratiques, p. 94.

(٣٨) هس لاندسوالدسنة .

Claude Mauriac, *Le dîner en ville*, p. 69

R-M. Albères. *Métamorphoses du roman*, p. 419.

(٣٩)

(٤٠)

(٤١)

في نفس المجال : « إذا استطعنا ان تصور هذه الأماكن بديناميتها ، اذا تمكنا من ادخال التقلبات والتداخلات والابعاد والسرعة التي تعمل بينها ، فكم يصبح عملنا عظيما وعميقا عند ذلك »^(١٠٦)

والشيء نفسه ينطبق عل الزمن ، فكم هي اللحظات التي نعيشها صافية ، دون ذكريات أو أحلام أو توقعات أو حتى تخيلات وأوهام ؟ أضف الى ذلك الأزمنة الأخرى التي تجعلنا نعيش فيها ، ولو لقترات قليلة ، كتب التاريخ والروايات والمطبوعات والأفلام - تاريخية أم وثائقية أم خيالية - والأزياء وغيرها . نحن لا نعيش انسياب الزمن أو مسيره ، بل نعيش متقطعا . ان كل قطعة منه تبدو لنا موجهة ، ذات مدّة معينة ، وموجهة نحو قطع أخرى ، ولكنها تبدو لنا دائما كقطعة ، ترسم فوق نسج من الشبان أو عدم الانتباه . فلكني نستطيع دراسة الزمن في استمراريته ، أي لكي نستطيع اظهار شفراته ، من الضروري ان نطبق على مسافة مكانية ، ان نعتبره مسارا أو مسافة^(١٠٧) .

لتجسيد هذه النظرة الى الزمان والمكان ، يعتمد هؤلاء الرواة مجموعة تقنيات نوجزها بما يلي :

- تقريب ومجاورة وموازاة الأزمنة والأماكن ، وذلك ما يضع القارئ في جو مترافق ومتعدد الأماكن بدل وضعه أمام تسلسل زمني للأحداث ضمن مكان واحد أو أماكن متلاحقة .

- عملية الانتقال الفوري من منطقة أو لحظة لأخرى ، أو من الواقع الى الخيال ، تتم دون مقدمات

« أحد هم » (Quelqu'un) وآلان روب - غرييه في « الغيرة » (La Jalousie)

ج - الزمان والمكان :

نستخلص مما تقدم أن بنية الرواية وطريقة عرضها أو سردها تمكسان التقطع والتفتت والتنازع وهذا ما يمثله في نفس الوقت مفهوم الزمان والمكان اللذين لا يظهر منهما في الرواية سوى نقاط ، سوى لحظات أو معالم متفرقة متباعدة تحاول القراءة ان تعيد اليها التواصل والتوحد .

وبما ان « الرواية الجديدة » تنطلق من اعادة نظر بالمفاهيم الروائية ، فمن الطبيعي ان يتغير فيها مفهومها الزمان والمكان بدورها ، متأثرين على الأرجح بنظرية اينشتاين النسبية من أن الزمن لا يجري بنفس السرعة في جميع الظروف . « المحيط الذي نعيش فيه لم تعد تنطبق عليه نظرية اقليدس بأن لكل مكان مميزه واستقلاليته عن الأمكنة الأخرى . فكل مكان هو ملتقى لافاق أماكن أخرى ، هو نقطة ارتكاز لسلسلة من التقلبات الممكنة التي تمر في مناطق محددة أولا . في المدينة التي أسكنها توجد مدن أخرى كثيرة ، من خلال وسائل عديدة : لوحات الاعلانات ، وكتب الجغرافيا ، والأشياء المستوردة منها ، والجرائد التي تتكلم عنها ، والأفلام التي تصورها ، والذكريات التي يحملها البعض منها ، والروايات التي تجعلنا نتجول فيها »^(١٠٨) ، عدا عن وسائل النقل والاتصال التي تنقلنا اليها بسرعة فائقة .

هذا التداخل في الأمكنة هو بعض ما يحاول الروائيون الجلود التقاطه وتصويره . يكتب ميشال بوتور

Michel Butor, l'Espace du roman, dans Répertoire II, p. 49.

(١٠٦)

M. Butor, Essais sur le roman, p. 119.

(١٠٧) نفس المصدر ص ٤٨ .

(١٠٨)

ودون استعمال أي من التعبير الطريفية للمهدة لذلك .
من النادر جدا أن نجد مثلا : « في ذلك الوقت ، أو
« حينذاك » ، أو « قبل ذلك » أو بعده ، أو أية كلمة
قد تحدد زمانا أو مكانا بالنسبة لآخر .

- إلغاء البداية والنهاية التي قد تسمح بتحديد دقيق
لأية فترة أو وصف مكاني .

- الإنكار من استعمال المضارع الذي يخلق نوعا من
اللازمية ، ومن الحال والمصدر اللذين يضعان
الأحداث خارج إطار الزمن .

- جعل الأشخاص يتحركون في أماكن متشابهة
يصعب التمييز بينها ، وذلك ما يعكس الجلو المتأني
لكثير من المدن الحديثة .

لا شك أن القارئ قد لاحظ شيوع المقردات
الهندسية فيما سبق وذكرناه ، وذلك ليس صدفة بل هو
نابع من مصمم توجهات هذا التيار الأدبي . « إن
محاولة تطبيق الصور الهندسية على المحيط الذي نعيش
فيه يسمح لنا بكشف كل خصائص هذا المحيط ، التي
لا نعيها عادة الاهتمام الكافي .

هكذا نتوصل بمنهجية إلى اكتشاف كثافته وتوجهاته
وأشكال تأثير مختلف الأماكن على بعضها . . . ثم إن
كل انتقال من مكان لآخر يقتضي إعادة تنظيم للبنية
الزمنية . تنبأت في الذكريات أو للمشروع في ما يأخذ
مكان الصدارة ، ما يصبح أعمق أو « أهم » .^(٩٦)

د- التفاهت والتروال

إذا كان الزمن قد فقد وحدته واستمراره وتحول
إلى فئات ، وإذا كان المكان قد فقد خصوصياته
واستقلاليته وأصبح نقطة وصل - أو جدار فصل - بين

أماكن أخرى ، فذلك لأننا نعيش في عالم مفكك يحيط
كل بلد فيه نفسه بأسوار منيعة من الإجراءات
والتعقيدات التي تمنع الدخول إليه إلا بعد صعوبات
واستثناءات ، ويجهد كل شعب في نبش أساطيره
الخاصة وتكريس أبطاله الوطنيين ، ويكاد الإنسان
يسلم زمام أموره لالة تجرى تحته وفوقه ، وتجري به
إلى مصير مجهول . في عالمنا هذا ، وفي الغرب منه
خصوصا ، طال التفكك أفراد المجتمع الواحد ففتوقع
كل منهم ما بين منزله وعمله ، حتى كاد التواصل
يتعلم بينهم إذا استثنينا بعض عبارات المجاملة أو
التعامل اليومي .

مقابل هذا الجلو العام الذي تطرح فيه تساؤلات
كثيرة حول الماضي والحاضر والمستقبل ، يلعب الفن
عموما ، والأدب خصوصا ، دور التريب والتواصل ،
تلعب الكلمة - مقروية وسموعة - والصورة - مرسومة
أو متلفزة - دورا حاسما في التأثير . هنا يطرح
« الروائيون الجدد » تساؤلا أساسيا حول موقع الرواية
ودورها ضمن وسائل الاعلام وأدوات الثقافة : هل
يمكن لنص متهاك أن يعبر عن هذا الواقع المتهاك ؟
وهل يمكن لرواية متسلسلة أن تستمر في لعب دور مؤثر
بين وسائل الاعلام الحديثة بتقنياتها المتطورة وصورها
وشعاراتها ولفظاتها ؟

لقد كان للرواية التقليدية ، يجيب هؤلاء ، دور
لعبته في فترات طويلة من تاريخ الأدب . ولكنها لم تعد
اليوم كافية أو مؤهلة للمنافسة في ميداني تصوير الواقع
وتغييره . من هنا جاء تهافت النص كرمز لشكل روائي
تجارزه الزمن أولا ، ولتصوير الواقع المفكك ثانيا ،
وللايقاع على دور الرواية كنوع أدبي ثالثا ، وللدعوة
القارئ إلى المشاركة في بناء نص مستقبل جديد
أعيرا .

ذلك يقول جان ريكاردو : « ان على الكاتب ان يأخذ بعين الاعتبار العلاقات المعقدة التي يمكن لكل مقطع من النص ان يقيمها مع النصوص الأخرى . وهذا ما يخرجه من عزله »^١

هـ - تقنية المصغرات

تعتمد « الرواية الجديدة » اذن الى تفكيك النص وتقنيته ، وعرض الأحداث بطرق وأساليب متنوعة وفي تنوع من وراء ذلك ، اضافة الى ما ذكرنا ، لتقديم الواقع المعاش بحركيته وقوموه ، ليس كحكاية ، بل كلفز يثير الفضول ويحفزه باتجاه التغيير والتحسين . من هنا نشأ فيها ما نسميه وتقنية المصغرات « (La mise en abyme) التي ترتبط من خلالها بالرواية البوليسية وتجعل منها نوعا من متحف هادف يضم لوحات ونقوشا وكتبا ويعرض أفلاما وثائقية تساهم جميعها بإلقاء أضواء على الأحداث والأماكن والأشخاص .

مستطرق بعد قليل الى علاقة الرواية بالفنون الأخرى ، ولكننا نكتفي هنا بإلقاء نظرة سريعة على طبيعة هذه المصغرات ودورها في الرواية .

أما هذه المصغرات فهي : الرواية البوليسية ، الكتب ، الرسم والتصور ، المحتويات ، المقطوعات الموسيقية ، الأفلام السينمائية والوثائقية . وأما دورها فهو أن تشكل « نايح مصغرة ومشابهة » لبعض أو لكل ما تمثله الرواية ، وإن تكون عبارة عن معدات الاستكشاف وعن العبارات السحرية التي تسمح بإيجاد طريق الخرج من المتاهة .

لقد شرح أغلب الروائيين الجدد طريقة استخدامهم لهذه المصغرات ، ولكن أكثر من ركز عليها هو جان

بهايت اذن على طريق التوالد ، ليس تدعيرا ، بل بناء . وليس ثورة بل تغييرا مُفَعَّلًا لا يقتصر فيه الدور على الموهوب والمبصري ، بل يمكن لكل انسان أن يساهم فيه .

ولكن ، كيف يتوالد النص ؟

لقد لحنا سابقا الى أن الكاتب يستعيد موقفا أو حدثا أو حتى جملة ، ذكرها سابقا ويعيد روايتها أو عرضها بتعديل بعض أجزائها . وقد يلجأ أحيانا الى احتداد كلمة أو أكثر كنواة للنص ، ثم يقوم بتوليدها ، وذلك بإبدال بعض حروفها أو تغيير أماكنها ، مع ما يفتححه ذلك من آفاق أمام النص وتعدليه وتطوره . قد يبدو ذلك لعبا على الكلمات للوهلة الأولى ، ولكن بعض هؤلاء الكتاب توصل فعلا ، من خلال هذه التقنية ، الى ايجاد نصوص غنية وعميقة ومفيدة . أما طريقة التوالد الأكثر اعتيادا فهي اللجوء الى نصوص كتاب آخريين ، قداماء ومحدثين ، أجنباب أو فرنسيين ، واقتطاع أجزاء منها يدخلها الكاتب ضمن نصه . ذلك ما يجعل القارئ يطلع على أكثر من نص في آن واحد ، وما يحفزه على الرجوع الى الكتاب المأخوذ عنه ، للاطلاع على النص الكامل ، أو لقراءة أعماله أو بعضها . ولكي لا يبدو الأمر وكأنه ورقة أدبية ، فإنهم غالبا ما يقدمون النص المقطع بطريقة لافتة للنظر ، وذلك بوضعه بين معترضتين أو بطلعته بحرف يختلف عن الحرف المطبوعي للرواية .

يتبين لنا اذن أنه ، قبل « الرواية الجديدة » ، كانت السمة الشخصية للإبداع هي الغالبية ، عند الكاتب ، وإن هذا التيار جعل ميدان الأدب بكامله ، أنواعا وكتبا وقارئا ، يشارك في بناء الرواية ، ففتح النص أبوابه أمام النصوص الأخرى والاضافات للممكنة ، من

« زجاليات قابيل ، تلك العلامة الكبرى التي نظمت كل حياتي خلال سنتنا هذه » . المصفرة الأولى تجعل المدينة مبنية على جريمة قابيل ، وذلك ما يحيلها جحيا يكون فيه النار والماء عنصري التعليب الاساسيين .

.. فيلم وثائقي عن البحر الميت يعرض في إحدى دور السينما ويخرج المدينة البريطانية مع سدوم وصمورة ضمن قائمة المدن الملعونة .

.. مجموعة من ثنائي عشرة لوحة « تروي جميعها حكاية تيزيوس (Thesee) معروضة في متحف المدينة ، وهي توازي بالطبع بين ضياع البطل الاسطوري في متاهة كريت ووضع الشاب الفرنسي الذي يحمل اسم جاك ريفل .

.. لوحتان اخريان ، منقوشتان بالصدفة على طاولاة الغرفة التي استأجرها ، « مركب على شاطئ اوقيانيا وملك مخلوع ، هارب متدلثا بمعطفه ، خلال غابة كثيفة مليئة بذئاب تلعب اعينها »^(١٥) .

ولا يخفى ما للصورة الأولى من دلالة اغترابية وللغاية من دلالة مناهية .

.. افلام سينمائية عديدة تصور روما والشواطئ اليونانية ومدنا شرقية منها اسطنبول ويعطيك . منارات خلاص تلعب من بعيد .

.. رواية بوليسية واقعية يطالعها الشاب ثم يتعرف ، بعد سلسلة من المصادفات ، بكتابتها - الذي يتعرض لمحاولة اغتيال - وبشخصياتها . يتكلم الشاب عن هذه

ريكاردو الذي خصص لها فصلا من حوالي ثلاثين صفحة في كتابه « الرواية الجديدة »^(١٦) . وفصلا من عشرين صفحة في « مسائل الرواية الجديدة »^(١٧) .

في خضم أحداث الرواية ، نجد الكاتب يتوقف أمام أحد الأعمال الفنية والأدبية التي ذكرنا ، محلا أو عارضا ، ونجد أن ما يقدمه العمل متساوق أو مواز أو متمم أو مناقض لما في الرواية التي ما نكاد نعود الى مجرياتها حتى نطالعنا مصغرات أخرى تلعب نفس الأدوار ، وهكذا دواليك .

يرى جان ريكاردو في هذه التقنية نوعا من الترجسية ، وفي القصص المعترضة التي تقدم من خلالها مرایا للشخصيات والأحداث ومعالم توجيهه للفأري .

لإيضاح هذه التقنية نعطي مثالا من رواية ميشال بوتور « استخدام الوقت (L'Emploi du temps) »^(١٨) التي يحاول فيها شاب فرنسي ، بصحوة كبيرة ، أن يسترجع أحداث سنة تدريبية أمضاها في مدينة انكليزية . وتنشأ هذه الصعوبة في الدرجة الأولى عن أن تلك للمدينة تبو له عبارة عن متاهة هائلة تكثر فيها الحرائق التي تلتهم كثيرا من أبنيتها ، بخاصة مراكز التسلية فيها ، بالرغم من أمطارها التي تهطل بصورة شبه مستمرة وتزيد بالتالي من مظهرها المخفي . ما يساعد هذا الشاب على استعادة الأحداث وتشكيل صورة واضحة عن المدينة :

.. مجموعة رسومات على زجاج كاتدرائيتها تمثل قصة قابيل ومابيل والتي يقول عنها في نهاية الرواية :

J. ricardou, le nouveau Roman, PP. 47-74

J. Ricardou, Problemes du Nouveau Roman, PP. 171 — 190

Michel Butor, l'Emploi du temps, p. 295

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨) نفس المصدر ، ص ٥٢

لذلك أجد نفسي مجبراً على أن أوقف النظام الذي كنت أتبعه منذ شهر في كتابتي، مازجا بانتظام كل أسبوع مع ذكريات نوفمبر ملاحظات عن الأحداث الراهنة، النظام الذي كنت أتبعه مساء ذلك الاثنين الذي ادخلت فيه خلال الصفحات التي تستعيد الخريف البعيد بينما عن سهرة اليوم السابق، خلال تلك الصفحات التي كنت أحاول فيها، لكنني أوصّل جهد التوضيح والتنبؤ إلى غايته، أن أراجع بقدر ما أستطيع من الأمانة، بين تتابع الأيام القديمة واستعادة أحداث أسية الأحد، الأول من نيسان، عند آل بايلي، التي ظهرت مجدداً خلالها نسخة «اغتيال بلسون» التي كنت قد أعرجها ليها منذ زمن طويل. بعد أن استمعتنا من جيمس، تلك النسخة التي كنت اعتقد أنني اضمتها لأنني نسيت أنها لم تصلها لي، تلك النسخة التي حلت مكانها أخرى توجد الآن على زاوية طاوتي اليسرى. «١١»

إن هذا جزء يسير من تشابك وتداخل الأحداث في ذهن الكاتب الذي يحاول بصعوبة بالغة أن يتلمس طريقه بينها، وإن يختار منها عادة ما يراه مناسباً. ولكن الروائيين الجديده لا يختارون بل يقدمون تجربتهم كما هي، بكل إبداعها وتعقيداتها، وهكذا، فإن الكتاب، بدل أن يقدم رواية لقصة، يجعلنا نعيش قصة الرواية. «فالرواية هي الميدان الظواهري التالي، هي المكان الذي ندرس فيه بأية طريقة تظهر لنا الحقيقة أو يمكن أن تظهر لنا، ولذلك فإن الرواية هي مختبر القصة»^(١٢).

الحكاية تشكل إذن امام أعيننا، وبمثل عملية الشكل كاتب يتمتع إفراداً عن لعب دور الواعظ أو

الرواية ذات العنوان اللافت للنظر - «اغتيال بلسون» (اسم المدينة) - فيقول: «لقد وجدت في كتابها سنداً لي ضد هذه المدينة، سحراً تعود على هذا النوع من المخاطر، واستطاع أن يمدني باصناف قوية من السحر ليساعدني على تحديها، ليساعدني على أن اخرج منتصراً من هذه السنة، من هذه الإقامة التي لم أكن أدرك وقتها كم هي خطيرة وصامة، وكما يتطلب التغلب عليها من جهد وصبر»^(١٣).

نكتفي بهذا القدر من المصغرات التي تحويها الرواية - مثلها في ذلك مثل كل «الروايات الجديدة»، لاعتمادنا بأنها تعطي فكرة عن الدور الذي تلعبه، مشيرين إلى أن التركيز على الرواية البوليسية يعود إلى جو الغموض والخبرة الذي يكتنفها وإلى حفزها القاريء للمشاركة في إيجاد الحل أو تصوره، وذلك ما هو من أساسيات «الرواية الجديدة».

و - قصة الرواية :

الرواية بحث واستكشاف، لقد ذكرنا ذلك مرات عديدة. ولكننا نستعرض هنا كيف تقدم «الرواية الجديدة» قصة ومراحل كتابتها. «الرواية ليست نتيجة البحث، بل هي البحث بذاته، يقول مؤلفو كتاب «الروائيون الجديده»^(١٤)، «الرواية هي مغامرة الرواية، وعلى القاريء أن يشترك بهذه المغامرة». والمثل الذي سبق وقدمناه يبين ذلك. تضيق هنا أن جاك ريفل يروي لنا مراحل وصعوبات الكتابة، ومن خلال ذلك يقص علينا الأحداث التي يتذكرها من مسه الإنكليزية. يقول مثلاً في بداية الفصل الثالث :

تموز، أيار

الثلاثاء أول تموز (يوليو)

(١٤) لانس الصادر في ٥٧.

J Thoreval, N. Bochorrel, F. Duguet, Les Nouveaux romanciers, p. 42

M. Butor, L'Emploi du temps, p. 133

M. Butor. Essais sur le roman, p. 9

(١٩)

(٢٠)

(٢١)

« تدخل من الفتحة الصغيرة وانت تحتك بجانبها ، ثم ، حقيقتك المغطاة يجلد حُبيبي قائم ذى لون قنبلة سمكية ، حقيقتك الصغيرة كرجل معتاد على الاسفار الطويلة ، تنزعها بمقبضها اللزج ، باصابعك التي مسخت ... »^(٥٦)

عن ضمير المخاطب هذا ، يتحدث كاتب الرواية فيقول : « عندما يكون هنالك شخص تروى له قصته الذاتية ، أو شيء عن نفسه لا يعلمه أو على الأقل لا يعرفه بعد على مستوى الكلام ، عندما تروى حكاية بضمير المخاطب ، وتكون دائما حكاية « تعليمية » ... وهكذا ، ففي كل مرة نريد أن نصور تقريبا للوعي ، وتشكلا للكلام أو لكلام ما ، يكون ضمير المخاطب هو الأنسب »^(٥٧) .

نبقى قليلا مع هذا الكاتب لكونه ، مع جان ريكاردو ، أكثر من توسع في شرح تقنيات « الرواية الجديدة » وانتقل معه الى الضميرين الآخرين :

« ال » هو « يتركنا في الخارج ، وال » « أنا » يوصلنا الى الداخل ، ولكنه يكاد يكون داخلا مغلقا مثل الغرفة السوداء التي يظهر فيها المصور سلبياته . هذه الشخصية لا يمكنها ان تخبرنا ما تعرفه عن نفسها »^(٥٨) .

يعود بنا هذا المقطع الى المتكلم الذى يبدو عاجزا عن تلبية تطلمات هؤلاء الكتاب . ولكن ، لكونه ضروريا لحمل تجربة الروائي ومغامرة الكتابة ، فانهم يحاولون اخراجه من غرفته السوداء . وذلك بجعله متعددا ، مترددا ، مشتتا أو تألها ، ويكون في كل الاحوال « جمعا بصيغة المفرد » بالأذن من ادونيس .

العالم أو..الفيلسوف، مكشفا بالبحث والتنقيب عن حقيقة ما ، وداعيا إيانا لمواكبته في تلك العملية . ومع ان بعض النقاد يرون ان «الكاتب لم يعد يكتب روايته بناء على تصميم مسبق ، بل ان الرواية هي التي تقود مؤلفها وتلج عليه موضوعها وقصتها»^(٥٩) ، فذلك لا يقلل من اهميتها البحثية والاختبارية .

ز- الرواية والضمائر

من أبرز تقنيات التجديد في هذا التيار الادبي، التغير الذي طاول دور الضمير (بالمعنى اللغوي) في الرواية، فلقد درجت العادة، كما نعلم جميعا، ان يكون البطل الحقيقي للرواية ضمير المفرد الغائب «هو» أو «هي» الذي يمثل بالطبع الشخصية الاساسية في القصة التي تروى، ونادرا ما يستبدل هذا الضمير بالتكلم المفرد «انا» عندما يتعلق الأمر بسيرة ذاتية أو بمذكرات أو بتخصص الكاتب لشخصية بطله .

ولكن، رغبة في صدم القارئ وحزه على المشاركة من خلال ادخاله في صلب ما يجري، فلقد تخلوا في الغالب عن ضمير الغائب، وفي المرات النادرة التي ابقوا فيها عليه، جعلوه متحركا مبهما بشكل يجعل القارئ يتردد كثيرا قبل ان يقرر، وأحيانا لا يستطيع التقرير الى أي من الشخصيات يعود هذا الضمير .

بدلا من ذلك، لجأ ميشال بوتور في «ال تعديل» (La Modification) الى ضمير المخاطب، بادئا روايته كما يلي :

«لقد وضعت قدمك اليسرى على المزلق النحاسي، ويحكك الأيمن تحلول دون جدوى ان تدفع باب القاطرة المزلق :

Pierre de Boisdefre, *Où va le roman?* p. 233

M. Butor, *La Modification*.

M. Butor, *Repertoire*, PP. 66-67

M. Butor, *Essais sur le roman*, p. 122.

(٥٦)

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩)

لقد اراءت ان تثبت ان مفاهيم « الألفاظ » و « اسرار الأبداع » ليست وحدها القادرة على الانتاج الأدبي ، وإن كل نوع أدبي وفي يحتاج ، لكي يستمر أن تغور مستمر ، وإن الأدب والفن يجب أن يتجه نحو التلاقي والانتاج المشترك .

٤ - الرواية والفن :

« إن كتاب « الرواية الجديدة » هم فنانون قبل كل شيء ، يتأثرون بما يجري داخلهم ومن حوهم . ويتجهون لما يتغير في فكر وحياة معاصريهم . ويتألف مع هذا التغير ، يحاولون ايجاد أشكال فنية جديدة ، وأخلفين بالاعتماد ما هو موجود وصالحين عن تطويره »^(١٠٠) .

هذا ما يقوله أحد أعظم النصوص التي نحمد مضطرا للتسليم بأهمية هذا التيار الفني والتجديدية وسنحاول هنا أن نستعرض علاقته ببقية النصوص - غير الأدبية - مفردين للشعر مكانا مستقلا .

أ - الرواية والرسم

بدرك هؤلاء الروائيون عمق الروابط بين الرواية والرسم ، أو بالأحرى بين الرسم والكتابة شكل عام وإذا كان كل عمل روائي أو شعري ، أو حتى مسرحي ، يحرص ، منذ القدم ، على تكوين صور ذهنية لدى القارئ من خلال استمارة أو كناية أو محار وما إلى ذلك من صور شعرية وبائية . وإذا كان كثير من الكتاب قد انصروا في أعماقهم الروائية أو الشعرية

لقد سبق وإشرنا إلى روايات^(١٠١) يسرد فيها الأحداث أكثر من شخصية روائية تعرف كل منها عن نفسها بـ « أنا » ، مما يوزع نفس الضمير عليها جميعا ويفتحه بالتالي أمام احتمالات جديدة ، كما وجدنا ، أحيانا أخرى^(١٠٢) ، أن الأحداث تروى من قبل شخصية واحدة بأشكال متعددة ، مما يجعل من الـ « أنا » متحركة وزيقية ، ومرت أخرى^(١٠٣) تشتت وتعمم لتصبح ضائعة مبهمة ، ولكن قابلة لاحتواء عدد لا مثله من الشخصيات .

هكذا يتعدى دور الضمائر ويتوسع ، إذ أن « لعبة الضمائر لا تسمح فقط بتمييز الشخصيات بعضها عن بعض ، بل هي أيضا الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا لكي نميز بلغة مراحل الوعي أو الكمون التي تشكل كلا منها ، وأن تحدد أمكنتهم بين الآخرين وبيننا »^(١٠٤) .

« الرواية الجديدة » هي إذن حركة إعادة نظر بالرواية التي اعتدنا قراءتها ، إعادة نظر من مختلف الجوانب : الكاتب والموضوع والإيطال والتفنيات ، جعلت من عملية الكتابة همها الأول وموضوعها المفضل ، جاهدة بذلك تحرير الرواية من قيود فرضت عليها لأمد طويل : وحدة الزمان والمكان والموضوع . ولما كانت عملية التحرير هذه قد طالوت ، من قبل ، الأنواع الأدبية والفنية الأخرى ، وخاصة المسرحية والشعر ، فإن أحد الأهداف الرئيسية كان تقريب هذه الأنواع من بعضها وفتح الحدود التي تفصلها عن بعضها .

(١٠٦) دوجريس (Dogres) مثلا ليشال بونارد .

(١٠٧) دمارترو (Martrean) لتاتالي سكرت .

(١٠٨) للنصص (Le Voyeur) آلان روب - خرمه .

(١٠٩)

(١١٠)

M Bator Essai sur le roman. p. 123

Jean-Bach Michel. Le Présent de l'indicatif. p. 43-44

و « القصر » (Le palais) و « حكاية » (Histoire)
والقصة التي سترها ، ولدت من رغبة وحيلة ، هي
ان « اخترع » شيئا من خلال بعض الرسوم التي
احبها .

يشرح ميشال بوتور هذه العملية فيقول : « تحيلني
لوحة ما ، اعيد اليها ، اريد ان انتزع سر قدرتها . ما
الذي يعرفه هذا الرجل او أولئك الرجال ، واجهله
انا ؟ . ولذلك احاول ان اضع نفسي في مدرسته ، في
مدارسهم ، حتى اجد بصيقي ، عندها يتملكني شعور
رائع . وكل اكتشاف ، كل حل للغز يولد سحرا
جديدا ، فالروائع فيها دائما يتابع لا تنضب ، ثم انني
لا اتوصل لان اوضح لنفسي الاشياء الا عندما اوضحها
للآخرين »^(١١) .

ما ان تتسائل : ولماذا الرسامون بالتحديد ؟ حتى
يجيب الكاتب نفسه بكل تواضع : « ان الرسامين
يعلمونني كيف ارى اقرأ وأؤلف ، وبالتالي كيف
اكتب ، كيف اوزع المعالم على الصفحة ... انتا
نعيش اليوم عصر تنسيق الكتاب »^(١٢) ولقد ذهب
ميشال بوتور بتنسيق الكتاب الى درجة انه طبع « السهم
المرتد » (Boomerang) بثلاثة ألوان : ازرق واحمر
واسود ، ووزع الاسطر على الصفحات بشكل
مستطيلات ومربعات ، وجعل الهوامش احيانا في اهل
الصفحة ، وحيانا في وسطها ، وحيانا في اسفلها ، مما
يدفع بالقارئ الى تأمل شكل الصفحة قبل قراءتها ،
ثم الى التوقف عند كلمات كتبت بالأحرف العريضة ،
وعند أخرى كتبت بها يشبه خط اليد ، وبعد كل ذلك

مجالات واسعة لروائع الفن ، وإذا كان كثير من
الاعمال الادبية قد ارتبط عضوا بلوحات فنية^(١٣) ،
وإذا كان تدخل جميع انواع الفنون قديما قدم الفن
ذاته ، فان ما حارل الروائيون الجدد اضافته في هذا
الميدان هو التفاعل العفوي بين الرواية والرسم ،
بمعنى الاستفادة من تقنيات هذا الفن في طريقة
الكتابة .

و اول ما يلتفت نظرنا بهذا الخصوص ان التعابير التي
استعملت عند تفصيل تقنيات السرد تنتمي في غالبيتها
الى مفردات الرسم . وهذه العبارات لم ترد بالمصادفة ،
واقيا بالتقاء الفنين :

« عندما يركز الروائي منصب الرسم او آلة التصوير
في نقطة ما من البعد الذي يصوره ، فانه سيواجه كل
مشاكل التركيز والتركيب والبعد التي يواجهها الرسام ،
وسكون عليه ، مثل هذا الأخير ، ان يختار واحدة من
طرق عديدة ليعبر عن العمق ، واحدى اسهل هذه
الطرق هي الشخصيات الجلسي لعدد من المشاهد
الجامدة »^(١٤) .

التقنية اذن هي نفس ما يستعمله الرسام والمصور ،
وهي ترافق كاتباً لرواية في جميع مراحل كتابته ، فكثيرا
ما تكون اللوحة هي البداية ، اذ ان الان روب - غرييه
الف رواية « الاسيرة الجميلة » (La belle Captive)
من خلال مجموعة من لوحات الفنان ما غريت ، بينما
يحدثنا كلود سيمون عن بعض رواياته فيقول في مقدمة
« اوريون الاعمى » (Orion Aveugle)^(١٥) : « هكذا
ولدت » طريق الفلاندر (La Route des Flandres)

(١١) انظر بهذا الخصوص كتاب الدكتور جديفيل مكارتي وقصيدة ومورو (الشمس بالتصوير غير المصون) الصادر عن سلسلة «عالم المرآة» ، الكويت ، العدد ١١٩ ،
نومبر / تشرين الثاني ١٩٨٧

(١٢)

(١٣)

(١٤) ميشال بوتور ، عن المصدر ، ص ٢٢٦ .

(١٥) عن المصدر والصفحة .

M. Butor, Répertoire II, p. 46

Claude Simon, Orion aveugle, p. 12

« ويقوم الموسيقي بتأليف قطعه في فضاء ورقته المخططة، تمثل المخطوط الاقفية حريان الوقت، بينما تحلّد العمودية توزيع العازقين. والروائي، من جهته، يمكنه ان يوزع قصصا فردية متنوعة في مجسم مقسم الى طبقات، مبنى بباريسي مثلا، تكون فيه العلاقات العمودية بين مختلف الاشياء والاحداث مشابهة في تعبيرها للعلاقة بين الناي والكمان^(٦٦) ».

واذا كانت آذاننا قد اعتادت سماع الالات الموسيقية تعزف سوية لحنا واحدا، فان هؤلاء الروائيين يحاولون جعل آذاننا واعيتنا تألف اشتراك عناصر قد تبدو متباعدة، بل متنافرة، للوهلة الاولى، في اداء عمل روائي واحد.

هذا التأثير بالموسيقى هو في الواقع عودة الى اصول الفن للنهل من ينابيعها: أليست الموسيقى، لحنا واغنية، بالإضافة الى الرقص الذي يصاحبها، هي أم الفنون؟ لو ليس الشعر سابقا للرواية والسرحة في كل توارخ الادب؟

« من الناحية الطواهرية، الموسيقى اقدم من الكلام المترابط، ولقد استخدعت للتعبير قبله، كما انها تبقى دائما الاداة التي تجعله ممكنا، حتى ولو كنا نميل الى نسيان هذا الاصل. ان مجرد لفظ كلمة هو غير ممكن دون ادراك وامتلاك لصوت وابقاع، دون تشكيل ومراقبة لاستمرارية وتميز رنة الصوت. هكذا يبدو الكلام المترابط حالة خاصة من البنى الموسيقية. فالموسيقى تحفر مجرى النص، وتبني وتشكل ذلك المدي الذي يحدث فيه ويتحدّد من خلاله شيئا فشيئا^(٦٧) ».

ندخل في النص وتفصيله. ليست تلك طريقة تأملنا للوحة وقراءتنا لها؟ الا نتوقف عند ألوانها وخطوطها العريضة قبل النصوص في تفصيلها الدقيقة؟

ولكن لوحاتهم الروائية - الفنية ليست سهلة القراءة، نقول ذلك من قبيل التذكير، فهم لا يقدمون لوحات لتأملها ونستمرّل معها، بل لنستكشفها ونسرّ اغوارها. يقول رينيه - مارييل بيريس: « هادمين، كما فعل سابقا في ميدان الرسم التكمييون وما قبل التجريدين، كل تناسق اصطلاحي ويصرى للوحة، فان كتاب « الرواية الجديدة »، اللّحن هم وريثو ما فوق الانطباعيين الانكليز، واقارب الخياليين الفكريين للقصة العلمية المحولة الى لغز، او الجماليين الذين يعمدون اكتشاف الفن الباروكي، ليس من غاية مشتركة بينهم الا ان يجعلونا نشعر بالتفاوت بين الرؤية والواقع، بين الذوق المادي والجمالي^(٦٨) ».

ان ما يهمننا من هذا الرأى هنا ليس صحة حكمه على هذا التيار بقدر ادراجه للكتاب الذين يمثلونه ضمن مدارس للرسم قام حولها، وما يزال، جدل ودراسات عديدة. ذلك الربط بين « الرواية الجديدة » والرسم هو ما عرضناه بصورة مقتضبة وسريعة.

ب - الرواية والموسيقى

وللموسيقى ايضا دورها الكبير في تقنيات التجديد. ولا نعني بالموسيقى زين الكلمة او نغم العبارة او ايقاع الجملة او غنائية بعض المقاطع او النصوص، فذلك اشياء متلازمة والكتابة. ان ما نعنيه هنا ان التقنيات المستعملة في الكتابة والاداء الموسيقيين، هي جد مناسبة للرواية:

R-M. Alberts, *Métamorphoses du roman*, p. 422

(٦٦)

M. Butor, *Répertoire II*, p. 28

(٦٧)

(٦٨) نفس المصدر من ٣٣ - ٣٤.

إخراج الفيلم السينمائي كمجموعة مشاهد يتألف كل منها من «لقطات» متلاحقة، وبين سرد الرواية المتقطع والتداخل. وهناك تقنية شائعة في المونتاج السينمائي يحاول الروائيون الجسد الافادة منها واستخدامها في كتاباتهم. ما نعينه هنا هو «تداخل اللقطات»، أي تركيب صورتين أو أكثر فوق بعضها بشكل يجعلنا نرى عدة مشاهد في نفس الوقت، كأن يعرض الفيلم شخصا يتذكر أحداثا معينة، فيجعلنا نشاهد في وقت واحد الشخص المتذكر والواقع السالفة.

العلاقة مع السينما هي اذن علاقة اصطلاحية للدنيائية - ونسجل هنا التقارب الكبير بين لفظتي سينما (Cinema) وحركية (Cinematique) أو حركي (Cinetique) في اللغة الفرنسية - مع الإشارة الى التباين الاساسي الذي يصير الروائيون الجدد على وجوده - ولوجوده فعلا - بين فني السينما والرواية. فبالرغم من مجالات انتشارها الواسعة (في صالات السينما وعلى شاشات التلفزيون وإشرطة الفيديو) ومن تقنياتها الهائلة، تقدم الأولى حركية سلبية في احيان كثيرة، أي انها تضع المشاهد في موقف المتلقي من الناحيتين الفكرية والانفعالية، كما انها تجعله يعيش في وهم الواقع، واضحة، من خلال تسارع المشاهد وتلاحقها، حواجز عديدة بينه وبين فعل النقد أو التخيل. وكما رأينا، فإن «الرواية الجديدة» تنهض في جعل القارئ مؤثرا أكثر منه متأثرا، ولها فلا منفلا.

«ان النجاح الذي حققته السينما يدفع ببعض الى التساؤل بقلق عن مستقبل الرواية. ولكن تفوق الفيلم

وعل لذلك علاقة مباشرة بالرواية؟ يسأل قارئ. نقول ان ما سبق يعطي أكثر من جواب على سؤال كهذا، ويقدم اضافة توضيحية من ميشال بوتور: «اذا كانت الرواية مختبرا للقصة، فإن الموسيقى هي المورد الذي نستمد منه اسلحة وادوات ادب جديد»^(١٩).

انطلاقا من مصدرية الموسيقى، تحاول الرواية اذن تطوير ذاتها. هذا ما جعل بعض الروايات الجديدة تتحول الى براصع اذاعية، ليس تمثيلا، بل قراءة مصحوبة بمقطوعات موسيقية تؤلف خصيصا لها، أو يختارها الكاتب بنفسه من روائع الاعمال الموسيقية الكلاسيكية أو الحديثة. فرواية «حول موتيرين» Autour de Mortier لروبير بينجيه، مثلا، اذيعت بالطريقة المذكورة، على حلقات، من راديو شتوغارت، كما ان عددا من اعمال ميشال بوتور اذيع من محطات مختلفة. وهذا ايضا ما جعل علاقة وثيقة تنمو بين هؤلاء الكتاب وبين مؤلفين موسيقيين وبين رسامين ومصورين، علاقة أثمرت في احيان كثيرة، ومما تزا، عددا من روائع الاعمال الفنية التي تشترك فيها الكلمة والصورة واللحن.

«ان الشعر ليس ترفا، والرسم ليس ترفا، لا، ان الموسيقى ليست تسلية الكسائي أو الهواة، فللموسيقى ضرورة حياتنا، حياة الجميع، ونحن نأمن الحاجة اليها اليوم»^(٢٠).

ج - «الريشة والكاميرا»^(٢١)

نلاحظ مما سبق ذكره ان هناك تقارباً لافتاً للنظر بين تقنيات هذه الرواية وبين السينما، ومصورة خاصة بين

(١٩) نفس المصدر ص ٣٥.

(٢٠) نفس المصدر ص ٤١.

(٢١) اقتبس هذا العنوان كترجمة حرفية لـ (Plume et caméra) من كتاب جان ريكاردو وعبدالله الرواية الجديدة Jean Ricardou, *Problemes de la nouvelle roman*, PP. 69-79

لعب دور ثلاثي بالنسبة لأحراكتنا للواقع : ان تعرف اليه ، وتكتشفه ، وتناقض معه ^(٧١) والروائي الذي يرفض هذا الدور ، دون ان يدخل بعض البلبلة فيما حوله ، ودون ان يطلب من القارئ . جهدا اضافيا ، ان يعيده الى نفسه ويجعله بعيد النظر بعبادات ومواقف اكتسبها منذ امد ، ذلك الروائي قد يصيب نجاحا سهلا وشهرة سريعة ، ولكنه يكون قد فشل في اخراجه من حالة ركود ، او على الاقل في فتح بعض النوافذ التي يطل منها على آفاق جديدة .

يبقى ان هذا التيار ليس اول من انتج التعبير سبيلا . فلقد حاول اليساروكيون والرومانسيون والسراليون وغيرهم تجديد اطر وتوجهات الفن والادب . ولكن التجديد الحالي طاول ، كما رأينا ، ميادين اشمع وأصغر .

وهذه الاعمال الغريبة . . . تريد ان تبين اتنا نعيش في فترة اعادة نظر ، وان الرواية بدورها هي في طور اعادة نظر بذاتها ^(٧٢) .

٥ - بين الرواية والشعر

نتطرق في هذه المقالة من مقالين لواحد من اكبر النقاد والسميكتيين الفرنسيين بين الخمسينات والستينات من هذا القرن ، وهو رولان بارت (Roland Barthes) والمقالان وردا في كتابه « الدرجة الصفر للكتابة » ^(٧٣) Le Degre Zero de L'écriture بعنوان « كتابة الرواية » و « هل من وجود لكتابة شعرية ؟ » .

ليس مستمرا بالضرورة . فنحن امام « مشاهدة » فيلم او « فك رموز » كتاب . ومن المؤكد ان الجمهور العريض الذي تجلبته السينما يتألف من اقلية مشاهدين تبهرهم الصورة ، ومن اقلية نشطة ، شبيهة بتلك التي يستحوذ عليها الادب ، تتقن تحليل الاشارات . ان مستقبل الرواية والسينما يكمن في تحديد نوعياتها ، او بالأحرى في التفتيش المتواصل عن تعريف بها يكون دائم التغير والتطور ^(٧٤) .

نسارع الى القول هنا ان النقد الموجه للسينما لا يهدف بالى حال الى التقليل من اهميتها الفنية والثقافية ، فذلك ما لا يستطيع احد انكاره ، وذلك على الأرجح ما جعل عددا من هؤلاء الروائيين يكتبون للسينما ، وما دفع بالان روب - غرييه الى كتابة عدد من رواياته على شكل سيناريوهات تتحدد فيها بدقة متناهية وضعية الشخص وحركاته ، وحتى الزاوية التي يجب ان تسلط عليه الكاميرا منها ، وما حدا به بعد ذلك ان ينصرف بشكل شبه كلي الى الاخراج السينمائي . ان المقصود هنا ان يحاول كل فن الاستفادة من تقنيات واتجاهات الفنون الاخرى ، وان يعمل في نفس الوقت على سد الثغرات التي يصعب عليها تجاوزها .

« عندما أصر على عدم تفضيل السينما أو الرواية ، فذلك لأنني أربأُ بهما عن الاكتفاء بمهمة التصوير وأنني أريد لهما أن تكونا كتابتين خلاقيتين ، أن تكون كل منهما جذرية بحمل رسالة الفن » ^(٧٥) .

تلوح « الرواية الجديدة » نفسها اذن كعملية تفتيش عن تقنيات واشكال وآفاق رواية جديدة وذلك « بهدف

(٧١) نفس المصدر ص ٨٨ .

(٧٢) نفس المصدر ص ٧٩ .

(٧٣)

(٧٤)

(٧٥)

Michel Butor, *Essais sur le roman*, p. 10

Jean-Paul Sartre, *in les Ecrivains en personne*, p. 63

Roland Barthes, *Le Degre Zero de l'écriture*, Ed. du Seuil, Paris, 1953

الشاعرية المعاصرة تتجج نوعاً من الاستمرارية الشكلية التي ينبع منها شيئاً فشيئاً ثقل فكري أو شعوري هو مستحيل بدونها ، العبارة إذن هي الفترة الصعبة لحمل أكثر فكرية تتشكل خلاله الأفكار وتنمو بفعل الكلمات . هذه الصدف الكلاسيكية التي تولد منها ثمرة المعنى الناضجة ، تقتضى بالتالي زمناً شعرياً ما هو بزمناً لصناعة بل لغامرة ممكنة ، مغامرة التقاء العلامة والقصد^(٣٣)

قبل أن تنتقل إلى الغاية التي انطلقنا من أجلها من آراء رولان بارت ، نتوقف لحظة لنشير أن مقاله المذكور ينتهي باتكار قدرة الكلمات المجردة من فكرة وتقنية مسبقة على توليد الألكار ، فعندما يمدد الكلام الشعري النظر بالطبيعة ، بشكل عام ، وذلك من خلال نسيجه فقط ، دون الاهتمام بمحتوى الخطاب ، ودون الانطلاق من خلفية فكرية معينة ، عند ذلك لا يعود هنالك من كتابة ولا يوجد إلا أسلوب يلتفت الشاعر من خلاله ليواجه العالم الموضوعي دون المرور بأية صورة للتاريخ أو للعلاقات الاجتماعية^(٣٤) .

هذا الكلام لا يعني بالطبع أن بارت ينادي بالعودة إلى الشعر الكلاسيكي فهو من أكثر المتحمسين للتجديد في العصر الحديث ، ومن القائلين أن ذلك الشعر يفترض بكل بساطة أن الطبيعة والمجتمع يتفادان بسهولة للعبارة ويستسلمان لها تصويراً وتعبيراً ، وبخاصة إذا كانت موزونة مقفاة .

لا ضير في أن نتوقف برهة أخرى لنقدم مقطعاً ، ولو مطولاً بعض الشيء من مقاله « كتابة الرواية » ، نصل بعده إلى الموضوع الذي نحن بصدده :

يبدأ بارت مقاله الثاني باستعراض الفرق بين الشعر والشعر في العصور الكلاسيكية ليخلص إلى المعادلة التالية :

« إذا سميت الشعر خطاباً أدنى ، أي مركبة الفكرة الأقل كلفة ، وسميت أ ، ب ، ج ، ملحقات خاصة للغة ، غير مفيدة ولكنها زخرفية ، مثل الوزن والقافية ومجموعة الصور ، فإن كل مساحة الكلمات تتلجج ضمن المعادلة المزوجة :

الشعر = (أ + ب + ج)

الشعر - (أ + ب + ج)

ويتجج عن ذلك بالضرورة أن الشعر يختلف دائماً عن الشعر . ولكن هذا الاختلاف ليس في الجوهر ، بل في الكمية^(٣٥) .

هذا من وجهة النظر التقليدية ، ولكن المعادلة تغيرت فيما بعد ، بل ألغيت بكاملها مع تيارات الشعر المعاصر ، وبصورة خاصة مع بولير (Baudelaire) ورامبو (Rimbaud) حيث « لم يعد الشعر نثراً مزداناً بزخرفات وبتور الحرية ، بل أصبح صفة قابلة للتجزئة أو الوراثة . لم يعد ملحفاً ، ولكنه أصبح مادة ، وأصبح بالتالي قادراً أن يستغني عن الإشارات ، لأنه يحمل جوهره في ذاته ، وهو ليس بحاجة للإعلان عن هويته^(٣٦) »

هذا من ناحية الشكل ، أما المضمون فلقد تغير هو الآخر في نظر الشعر المعاصر . « في الفن الكلاسيكي ، كانت الفكرة المجاهرة تلد نصاً يعبر عنها » و « يترجمها » ... في حين أن الكلمات في

(٣١) نفس المصدر ص ٣٣ .

(٣٢) نفس المصدر ص ٣٤ .

(٣٣) نفس المصدر ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣٤) نفس المصدر ص ٤٠ .

هذا التلاقي، دون ذويان، ومن خلال تقنيات التجديد، هو الذي ينادى به ويطبقه عدد من الروائيين الجدد.

ما هو الشعر بنظر هؤلاء ؟

« يتطرق الشعر دائماً من حين إلى عالم مقدس مفقود، والشاعر هو ذلك الإنسان الذي يدرك أن اللغة، ومعها كل الأشياء الإنسانية، هي في خطر. أن الكلمات الشائعة لا تمثل ضيافة، فإذا ما فقدت معناها بدأ كل شيء يفقد معناه. والشاعر يحاول أن يمسكه إليها.

... الشعر أذن هو قبل كل شيء تلك الضميمة لاستعادة معاني الكلمات ولحفظ الانفاذ، هو الفتاح السحري، وتفرع عن ذلك فضاءات عديدة.

... والشعر الذي هو ناقد الحياة المعاصرة، يقترح علينا تغييرها»^{٨١} لكونه حافظاً لثراث اللغة والمجتمع، متفاعلاً مع حاضرها ومستشرفاً لمستقبلها، يبدو الشعر عنصراً ضرورياً. وإسبانياً في نسج الرواية، ولا يعنى بالشعر هنا تقديم مقاطع شعرية أو شاعرية، فذلك غير كاف، عدا عن كون تلك المقاطع موجودة في أغلب الروايات التقليدية التي اعتاد كتابها أن يطلقوا العنان لخياهم وشاعريتهم لجعلوا القارئ يعيش بين القيتة والأخرى في جو من الإيقاع والوزن والصورة تتغنى فيه المشاعر وتتراقص الكلمات.

« ولكن ليس فقط من خلال بعض المقاطع تستطيع الرواية - ويتوجب عليها - أن تكون شعرية (بل من

سواء في تجربة الشاعر الصعبة، وهو يتحمل مسؤولية التصديق الاضطراب، تصدق اللغة الاجتماعية، أو في كذب الروائي المطلوب منا تصديقه، فإن الصدق بحاجة هنا إلى علامات كاذبة لكي يستمر ويستهلك. وفيه ان الكتابة هي نتاج هذه الازدواجية ومنبعها. ويعد اللغة الخاصة التي يحمل اسمها الكاتب مهمة ظافرة ولكن مراقبة، تتطوى على نوع من العبودية الخفية في خطاها الأولى، والملازمة لكل مسؤولية: الكتابة، الحرة في بداياتها، هي القيد الذي يربط الكاتب بتاريخ هو مقيد بدوره، لأن المجتمع يطبعه بعلامات الفن الواضحة التي تجعله مرتباً أمره»^{٨٢}.

هكذا يتوضح موقف رولان بارت من الكاتبين، الشعرية والرواية، بحيث يتحد لها دور مشترك في عملية التجديد اللغوية والاجتماعية والتاريخية، مع احتفاظ كل منها بخصوصه وتمييزه. ولكن مثلاً تنوع النظرة إلى النوع الأدبي الواحد وتحدث فيه تعديلات وتغييرات داخلية، كذلك يحصل بين الأنواع المختلفة التي تتباعد وتتقارب وتتداخل حسب التيارات والمدارس فلقد عرفنا الشعر المتنور والحرف والرسول، كما عرفنا النثر الشعري والمسجع، ولطالما تكلمنا عن نضجة شاعرية عند روائي ونعتنا نصاً أو مقطعاً بالشاعري، وكم حاولنا تجميع خيوط قصة من بين أبيات قصيدة أو استخرجنا رواية من مجموع قصائد ديوان، ثم كم من حكايا رواها الشعر صراحة تاريخاً أو حكمة أو رمزاً أو ملحمة أو أسطورة.

ولكن ذلك لم يمنع الشعر من البقاء والرواية من الاستمرار، لقد تلاقيا وتداخلوا مع بعضهما ومع بقية الفنون دون أن يفقد كل منها هويته.

(٨١) نفس المصدر ص ٢٢.

M. Butor, Répertoire II, PP. 17-19

(٨٢)

لحظة ، سوى انسان موجود في موقع مميز تمر من خلاله الاشياء لتتحول ألفاظا وكلمات^(٨٤) .

قد نكون ، في هذا المقال ، اكثرنا من النظريات دون ان نقدم امثلة تدعمها وتخفف من جفافها في نفس الوقت . ولكننا كنا مجبرين على ذلك بحكم عمومية المواضيع المطروحة . اما هنا فسوف نعرض بعض الامثلة ، التي قد تكون مطولة بهدف اعطاء صورة واضحة عن شاعرية النص الروائي - وليس بعض مقاطعه فقط .

نبدأ من « عمر الخطاف »^(٨٥) .

« كل ما يبغيه ان يوقف كل شيء (الحديث والمجاملات والنكات والاصوات) ، ان يدفع الحشد كالفطير ، القاصة بها فيها ، الجدران والاثاث والراقصون ، تبدو كأنها تغيب في مسافة رمادية ، تتطير كل الاصوات ، وحدها انجيل تبدو مشمسة في فستانها الزاهي .

دوي الباب المصفوق يدهشه وكأنه ليس المسؤول عنه يتكلم جيران :

« ما اسم ذاك العاشق الوسيم ؟ »

يحمر وجه فيولا خجلا ، ومارتين تضطرب ايضا .

« متعبتان حتى انهما لا تستطيعان الكلام » .

« الفسائين التي تجر على درجات السلم في النور الخافت .

(تعتمد هنا نفس طريقة كتابة الروائي . نتابع في الصفحة ذاتها)

الاسلوب بشكل عام) ، اى بالتحديد بما يتيح لنا ان نتعرف الى كاتب ، ان نميزه ، من مبدأ الاختيار الذي يعتمد ضمن احتمالات اللغة ، من المفردات ، من القواعد ... والاسلوب لا يتحدد فقط من طريقة اختيار الكلمات وتنسيقها داخل الجملة ، بل تلك التي تجعل الجملة تتوالى ، والمقاطع والوقائع . على كل مستويات ذلك النسيج المائل الذي هو الرواية ، يمكن ان يوجد الاسلوب ، اى الشكل ، او بالاحرى اختيار الشكل وتحليله ، النظم ، العروض . هذا ما نسميه في الرواية الحديثة بالتقنية^(٨٦) .

يعيدنا هذا القول الى حيث بدأنا ، الى تقنية الرواية ، ولكن العودة توصلنا الى اكتشاف رائع : ان كل تقنيات السرد التي سبق وتحدثنا عنها هي تقنيات لنظم الرواية ، لبنائها الشعري واعادة النظر بالبنى والمفاهيم الروائية تهدف الى اغناء موضوعات الشعر ، باكتشافات العلوم الحديثة ، وإلى تنويع بنائه انطلاقا من الخطوط والأشكال الهندسية ونظرية النسبية ، ثم الى اغناء الرواية بالشعر ينسب فيها وجعلها وسيلة لانفاذ الادب من ثغراته واختراج الروائي من صميمته وإيقاظ القارئ من سباته . تطوير من داخل الانواع الادبية يطمح الى تطوير العلاقات الانسانية والاجتماعية .

« ان الرواية الشعرية هي ذلك الشيء الذي يدرك الواقع نفسه من خلاله فيبتدئ ذاته ويتغير . ولكن هذا الطموح مصحوب بالتواضع ، لان الروائي يعرف ان إلهامه لا يمكن ان يأتي من خارج العالم ، وتلك قناعة دالمة عند الشاعر الاصيل . انه يعرف ان إلهامه الحقيقي هو العالم في طور التغير ، وبانه ليس سوى

(٨٣) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٨٤) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٨٥)

احتكاك العنق بالغطاء (هذه الذقن يجب ان تحلق)
تعد على سلطان النوم ؟ وتجاويد البيجاما . أه . لم انت
بعد . لم انت بعد .

وكان للصفة الاخرى مظهر صحراء وعلمية ، ترسو
عليها مراكب محملة برجال مقبلين . فك الحراس
فيهم ، اوثقوا اذرعهم جيدا وراء ظهورهم ثم
انزلوهم . كانوا يحاولون التخلص ، ولكن المراكب
تركهم ...

لقد اوردا هذا النص ، رغم طوله كاستشهاد ،
لئين من خلاله امرين :

- الأول اعطاء صورة واضحة بعض الشيء عن
شاعرية الرواية باكملها ، وليس مقاطع منها ،
فالقصة - أو بالأحرى القصص - التي اقتطعنا أجزاء
منها لا تقدم بشكل مباشر ، بل تختفي وراء شاعرية
الكلمة التي تجبرنا على الدوران حولها والتعمق فيها
قبل استشفاف الاحداث التي تتم عنها . وهنا لا بد من
ايراد ملاحظة اساسية : ان ترجمة النص الشعري
لا يمكن الا ان تفقده كثيرا من خصائصه اللغوية
والبنوية . فمهما حاول المترجم أن يكون أميناً ، يجد
نفسه مضطراً ، بحكم ثقله للنص من بيئة لغوية الى
أخرى ، أن يتجاوز الكثير من بلاغته ، وخاصة من
الناحية الابداعية . ونحن نهدف من وراء هذه الملاحظة
أن نقول أن شاعرية النص للمترجم - سواء ذاك الذي
نحن بصده أو أي نص آخر - لا يمكن أن تظهر كاملة
لانه يفقد كثيراً من جمالياته بتغيير هويته اللغوية .

- والأمر الثاني ينطوي على عودة الى الرواء ، الى
تقنيات السرد الروائي التي يظهر النص المذكور بعضا
منها . فهو يبدأ بوصف حالة أحد شخصو الرواية
الذي يستيق من حلم جميل ليخرج غاضبا . يدهه
يفتر ويعود ليلسل الاضواء على محادثة بين شاب

« وصل قارب الشمس الى مستنقع ملتهب حيث
كانت طيور كبيرة تنفي بكلمات بشرية . كانت وجوهها
شبيهة بوجوه البشر ، وكانت لها اذعة مفرقة عن
اجنحتها ومنتهية بأبواب حقيقية تصفق لتواكب وقع
الشعر .

« يجب الانوظ فيليكس ، ولا الجلود » .

« وتدخل فيولا بخطى حريية كبيرة ، محسكة
فستانها وكانها تنهيا للتحية ، وتلجلج وهي تمض على
شفقتها لكي لا تنفجر ضاحكة . جيار ، باتزان مرح ،
يرجوها بحركة من يده ان ترتقب . ارتعاش . ثم
همس :

- يا اهي ، انه الفراق .

- لقد نال كل منا ما يستحق .

- لا تتكلم بصوت مرتفع .

- هل أتيك بكأس ماء ؟

- رفض يصاحبه اختناق . ضحكة مجنونة .

- وهيا ، نامي ايتها الأميرة ، سوف تهدئين في
سريرك » .

« وكان علي أن أفقد رسالي ، لأنني أصبحت بعيدا
عن الجسر ، وأن أسمع حفيف السمك النائم تحت
قاربي » .

- « سمع فيليكس صوت باب الرهايت يغل ،
ووقع أقدام الرهبان وهم ينصرفون . ولكنه لم يقرر فتح
جفنيه ، أو إخراج يده في البرد ليضيء للمصباح .
يداعب الصفحة المطبوعة ، الساخنة بملامسة غطاء
السري . يمد قدميه المرتاحتين من تحتهما ، ويجلا
وسبعيدا في نفس الوقت : كم قد تكون الساعة الآن ؟
ولماذا يفتح هاتين العينين المبهاتين جيدا في مغارتين من
المخمل المشع ؟ لماذا يحرك راسه عندما يكون مجرد

ان اعمان التفكير في ما يقوله بوثور بين ان التناقض غير موجود على الاطلاق ، اذ ان «التجلي» هو نتيجة للكتابة وليس لها . فالكتاب لا يبلغه الا «بمنهجية» . نتاحم فنونا عديدة وترفعها خلقية ثقافية واسعة تمكنه من «نظم» احداث روايته بمباريات تستخرج من اعماق كنوز اللغة ، ثم هندستها وتوحيها أنغاماً تتجاوب وتتكامل لتؤلف سمفونية الكلمة واللحن والصورة ، أما معرفة الأحداث والشخصيات وكرام النفوس ، فلقد حلت مكانها معرفة اللغة وتقنيات الكتابة . يوضح رولان بارت هذه النقطة فيقول :

«الادب هو لغة ، ووجوده هو في اللغة ، واللغة في الاساس ، قبل كل الانواع الادبية ، هي منظومة معان : فهي تنطوي ، قبل ان تصبح ادبا ، على مواد خاصة (الكلمات) ، وصل عملية تفكير وانتقاء وتصنيف ، وصل منطق خاص . . . وزيادة على ذلك فان هذه الكلمات البسيطة هي مدلولات بعد ذاتها ، ولما تاريخ ومحيط . أما معانيها فهي لا ترتبط بالشيء الذي تدل عليه بقدر ارتباطها بكلمات أخرى ، قريبة ومختلفة في نفس الوقت ، وفي هذه المنطقة بالتحديد منطقة «ما فوق المعنى» ، أو المعنى الثانوي ، ينشأ الادب ويترعرع»^(٨٦) .

ومنطقة ما فوق المعنى، هذه هي التي يحاول الروائيون الجدد ولوجها ، ولكن ليس فقط من خلال مدلولات الكلمات ، بل من خلال الاسلوب والبنية الروائية ايضا . وإذا كان تعبير «ما فوق المعنى» يذكركنا على الفور بالسريرية ، فان ما ذكرناه سابقا يظهر البون الشاسع بين التيارين ، فنحن هنا يمشدون عن التلقائية واللاوعي المتحررين من رقابة العقل وعن النفسانية التي يرضي لها السرياليون العنان . ربما نجد التقاء في

وفتاتين ما زالوا في الاحتفال الذي ما يلبث ان ينتهي بساعنا وقع اقدام الخارجين . انتقال بعدها الى حلم يعيشه شخص آخر ينام في طبة اخرى من المبني . ثم مواكية اثنين من المحتفلين الى منزلهما ، فالانتقال مرة اخرى الى حلم يعيشه شخص آخر ، ثم الى تصوير شخصية تردد بين النوم واليقظة ، تعود بعدها الى الحلم الاول . واذا ما اكملنا وجدنا قفزات كثيرة مشابهة لا يفصل الواحدة منها عن الاخرى سوى مجال سطر يترك فراغا . وهذا النوع من السرد هو ما اسمناه سابقا بالتوازي .

نعود الى شاعرة الراوي للثقي ، مع ميشال بوثور ، بعض الاضواء على كيفية التوصل اليها :

واذا ما توسعنا بمعنى كلمة اسلوب ، وهذا ما يفرض نفسه من خلال تجربة الرواية المعاصرة التي تتم الكلمة وتأخذها على كل المستويات ، فمن السهل ان نرى اننا باستخدمنا لبنى قوية بما فيه الكفاية ، شبيهة بما يدخل في نظم الشعر ، وشبيهة بالتصاميم الهندسية والموسيقية ، وجعلنا العناصر تتناغم بمنهجية مع بعضها البعض حتى تتوصل مجتمعة الى حالة التجلي التي ينتظرها الشاعر من نظمه ، نستطيع أن ندخل بشكل كامل ، حتى ضمن وصف الاشياء المادية أو الثقافية ، قدرات الشعر الحارقة»^(٨٧)

هل أوصلنا هذا الرأي الى تناقض؟

الم نقل سابقا ان هؤلاء الروائيين لا يقرون المعرفة الشمولية للكتاب ولا الالهام الشعري او الفني ، وان هذا ما جندلهم يلجأون الى التركيز على التقنية وصل الصناعة ؟ فكيف يحسن لاحدهم ، والحال هذه ، ان يتكلم عن «التجلي» وعن «قدرة الشعر الحارقة» ؟

M. Butor, *Essais sur le roman*, P. 16

(٨٦)

Roland Barthes, *Essais critiques*, p. 164.

(٨٧)

منها ، نادرة ، أنيقة ، أرواتها وألقها أوضح ، أنغلما أجمل وأشجى وكأنها مزروعة بآلات عبيدة ونادرة . . إنها اللحظة المناسبة للتوقف . عليه أن يرتاح قليلا . لقد بلغ مرحلة جديدة»^{٨٨}

يعرض لنا هذا النص إحدى لحظات العشق والغزل واللداعية بين الروائي - الشاعر والكليات ، وصاله الوجد التي يعيشها وهو يسبح في أحياق اللغة ، ثم النشوة التي يلغها عندما يشعر أن الكلمات اسلمته زماعها . الشعر كتصوير يصبح هنا تعبيرا عن حالة الكتابة مع ما يكتنفها من قلق وتردد واضطراب ولذة وعطاء .

«يستجمع كل قواه ، يحاول أن يعد تلك الموجات الشريرة التي تبثها . . ولجأة يظهر في تلك الكلمات ، في تلك الجمل انتفاخ صعب تبيته . . يخفق يرفق ، يصمم ، يتضخم صوته . . ولكن الكلمات ، ما أن يلتفتها ، حتى تنفخ وتضخم وتطارد مثل فقاعات تنفخ في هواء كثيف . . .

ولقد أصاب كل شيء ، إنه وحيد ، محروم ، لقد جذب خارج ذلك الحصن الذي كان يحتمي به ، خارج ذلك السور القوي التي كانت تشكله أعماله ، كتبه ، مقالاته ، أسلوبه القوي ، المترابط ، المحكم ، جملة المصقولة كمدافع برتوزية ، دقيقة الرماية تخيف المهاجمين .

ولكنه قرر أن يخرج . لقد قبل التحدي وهو يتقدم وحيدا في أرض مكشوفة . . .»^{٨٩}

دور الحلم في عملية الكتابة ، ولكن الاختلاف واضح حتى في هذه النقطة ، إذ يرى روائيونا أن الحلم جزء من الواقع^{٩٠} ، جزء مهم دون شك ، ولكنه ليس أساس الواقع أو تجسيده كما يعتقد فرويد والسراليون من بعده . .

أكثر من كونها فعلا للحلم أو للوعي في اللغة ، الكتابة هي فعل ينطلق من الواقع ، بشقيه ، اليقظة والحلم ، الوعي واللاوعي ، للتعقيد في معرفته ومن ثم لتغييره وتحسينه . وهذه الكتابة هي ، كما رأينا ، الرواية الشعرية ، أو الشعرية ، بتعبير أدق ، أي التي تعتمد بنى الشعر وأنغامه وروحيته ، حتى ولو لم تكن تروي أحيانا سوى عملية تشكل النص :

«تبسط الكلمات ، يشتد الحيط الذي يخترقها ، تبتز . . . يصغي الى رنينها ، الذي ينتشر . . وحيدا معها ، يتعصب هو بلسوره ، خارج المادة الزخوة والباهتة التي كان منغمسا فيها ، تسحره حركاتها ، يرتبها ويغير أمكنتها لكي تشكل زخارف منقوشة ببنائية أكبر . . . يتسع رنينها ، إنه الآن موسيقى ، غناء ، سير موقع ، تتوالد الاقناعات بعضها من بعض ، كلمات كان شيئا يجذبها ثاني من كل جذب وصوب . . يتبع حركاتها مسحورا ، تصعد ، تهبط ، تنطلق من جديد وتهبط . يوجهها بحذر . أنظر إليها الآن وقد تمردت وغضمت طاعة لا يطاق معين . . . تحت الخطى ، تطير . . . ينتظر اللحظة التي تصل فيها الى ارتفاع محدد ثم تعود الى المهبوط بملء إرادتها .

وللكليات الآن يريق أكثر ، تأتي أهداد أخرى

(٨٨) و أن الحلم هو حيلة لآلية يمكنها بالتأكد أن تلعب دورا في الأولى ولكنها يجب أن تميز عنها بعلامات القرباء ثم إن واحدة من رواياتها ، من حكاياتها ، أن تعرف أكثر إلى العالم وإلى نفسها ، وبعض شامد الأحلام نتج لنا ذلك ، حتى أن بعض الاكتشافات العلمية أو الشعرية قد تحدثت في الحلم ،

Michel Butor, *Repertoire* V, PP. 24-28.

Nathalie Sarraute, *Entre la vie et la mort*, PP. 66 — 67.

Nathalie Sarraute, *Les fruits d'or*, PP. 112-113

(٨٩)

(٩٠)

«وداعاً ، صرخت لما وهي تركز مرفوعة الرأس ، رائحة ، وشعرها كعاج من اللهب الأسود ، تلهث وتبتسم ، كنت تفكر يومها : لقد اعتقدت انني اضعمتها ، ولكنني وجدتها ، لقد مشيت على حافة هاوية ، الآن أعرف كيف احتفظ بها ، أتمسك بهاء»^(٩١)

الأمثلة كثيرة والمواضيع مختلفة ، والشعر موجود في حنايا الرواية ، ليساهم في تحديثها شكلاً ومضموناً ، وذلك ضمن إعادة نظر شاملة بمفهوم الأدب ذاته الذي لم يعد يميلو تسلياً أو ترفاً ، بل حاملاً لدور أساسي في حاضر المجتمع ومستقبله .

٦- بين «الرواية الجديدة» الفرنسية والرواية الليتوانية المعاصرة

لم تكن تقنيات التجديد في الرواية الفرنسية غالية عن الرواية العربية التي يربط أكثر النقاد نشوءها - وتطورها - «بالمثل الذي تفسره الروايات الغربية» ، فهذا الفن «ليس جزءاً من تراثنا الأدبي»^(٩٢) . ولكنه «مقتبس عن الغرب أو - على الأقل - متأثر به تأثراً شديداً»^(٩٣) .

هذا بالنسبة للرواية بصورة عامة ، اما بالنسبة لهذا التيار التجديدي ، فلقد ظهرت في مختلف أرجاء العالم العربي كثير من الأعمال الروائية المتأثرة به أو المتأثلة معه . ولكن اللافت للمنظر ان ظهور هذه الأعمال كان متزامناً مع الرواية الفرنسية الجديدة أو متأثراً عنها بضع سنين ، فمنذ أواخر الستينات من هذا القرن أصبحنا نقرأ عن «الرواية الجديدة» في المغرب أو مصر

الشعر يحكي الرواية ، والرواية تكتب بالشعر ، ولكن هذا التفاعل ليس الغاية القصوى ، وهو ان شكل المادة الأساسية لبعض أعمال ناتالي ساروت ، ثم فيليب سولر وجان - بيير فاي ، فاته يهدف الى ابعاد بكثير من ترجية الكتابة عند اغلب الروائيين الجدد . ففي (الاستجواب) لروبير بينجيه^(٩٤) لا يتوصل الشخص المستجوب الى تحقيق ذاته الا بعد اجاباته المطولة على اتهامات توجه اليه ، هكذا لتصبح اللغة وسيلة للخلاص وتجسيدا للوجود . وهي تصبح في الغالب ، كما سبق وتكرنا ، وسيلة اكتشاف للواقع وتأثير فيه الواقع بإبعاده الذاتية والاجتماعية والتاريخية والمستقبلية :

«نقول لنفسك : ما الذي حدث منذ مساء ذلك الاربعا ؟ منذ آخر سفر هادي الى روما ؟ وكيف تغير كل شيء ؟ وكيف وصلت الى هنا ؟

«إن القوى التي كانت تتجمع منذ زمن طويل تفجرت في تزار هذه الرحلة ، ولكن نتائج الانفجار لم تتوقف هنا ، لانك بتفني هذا الحلم الذي داعيته طويلا ، اجبرت نفسك على اكتشاف ان حيك لسييل هو جزء من حيك لروما ، وإذا كنت ترغب في الإثبات بها إلى باريس فلذلك لجعل روما حاضرة كل يوم ، ولكنها لو جاءت الى مركز حياتك اليومية تفقد دورها كوسيط ، وتصبح امرأة مثل كل النساء ...

«ولكن ، ليس ذنب سييل اذا كان النور الروماني الذي تمكسه وتشره ينطفئ عتماً تأتي الى باريس ، انه ذنب الأسطورة الرومانية ذاتها التي ما ان تهجد في تجسيدها بصورة قاطعة وبطريقة خجولة ، تكشف تناقضاتها وتدينك ...

Robert Pinget, *L'Inquisiteur*. Ed. Minuit, Paris, 1962

Michel Butor, *La Modification*, PP. 277 - 279

(٩١)

(٩٢)

(٩٣) الياس حوروي تجربة البيت ص ١٠٩ و ١١٠

(٩٤) بطرس حلال - مثاقفة الرواية العربية بين النقد والادبيات ، الفكر العربي ، بيروت ، السنة الثانية ، العدد ١٤ ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٥ - ١٤٠ .

نظرة مقارنة على تقنيات التجديد التي ظهرت في الرواية اللبانية المعاصرة على وجه التحديد. ونستعمل مصطلح «المعاصرة» بدل «الجديدة» لأن وجود هذه الأخيرة يقتضي وجود تيار أو مدرسة لم يتضح أي منها بعدا وعلى الأقل لم تظهر حتى الآن دراسات تحدد الملامح للميزة له.

إذا كان أغلب الكتاب العرب ما زالوا متمسكين بمعرفتهم الشمولية لما يدور في أعقاب أبطالهم وما يجري حولهم، وإذا كانوا مستعربين في رسم شخصيات محدلة بياض وحاضر ومؤثرات نفسية واجتماعية، فذلك لا يحجب التصدع الذي أصاب الكتاب وشخصياته على السواء والذي كان من نتائجه ارتجاج في معرفة الكاتب وفي شخصية البطل، وكان من مميته، عدا عن التأثير بتجديد العرب، هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها، يضاف إليها، عند كتاب المشرق العربي خصوصا، واللبنانيين منهم بوجه أخص، الحرب اللبنانية^{٩٥}، ويسبقها في وهي الجميع مأساة فلسطين وشعبها.

بدأ التصدع بخدوش خفيفة ظهرت على سطح البناء الصلب، المتناسك، لبعض الروايات التي تشكل «طور أيلول» نموذجا لها. ففي هذه الرواية التي تبدو فيها الكاتبة عسكة بوضوح شخصياتها المعللة بين الريف واللبنية، ملمة بتاريخهم وحاضرهم، ومطلمة على دقائق شعورهم وعلى خفايا نفوسهم، مسترجعة حكلياتهم وعلاقاتهم من خلال ذكرياتها

أو لبنان أو العراق أو في الأدب الفلسطيني، ووصلت تطالعا تسميات «رواية الطفولة» و «الأدباء الشباب» و «جيل الستينات» و «جيل السبعينات» و «تيار الوعي»، في الروايتين المصرية واللبنانية على التوالي، وغير ذلك من التسميات والمصطلحات التي تقترح منها رائحة ما أطلق على الروايتين الفرنسيين الجدد أو على من تأثروا بهم من أمثال جيمس جويس وليزا باوند وغيرهم^{٩٦}.

من المؤكد أن الرواية العربية الجديدة قد استقت من تقنيات مثيلتها الفرنسية التي تسنى لعدد من الروائيين العرب أن يطلعو عليها بشكل مباشر وأن يتمثلوا بنى التجديد فيها ويطبّقوها في رواياتهم. ولقد ظهرت، من جهة أخرى، ترجيات لبعض الأعيال - النظرية فقط - للروائيين الفرنسيين، إذ ترجم فريدانفونوس كتاب ميشال بوتور «بحوث في الرواية الجديدة» (Essais Sur Le Roman) وترجم مصطفى إبراهيم مصطفى «نحو رواية جديدة» (Pour Un Nouveau Roman) لآلان روب غرييه، بينما كتب عدد آخر عن بعض أعلام الرواية الفرنسية، منهم لويس عوض في «دراسات عربية وغربية» ومحمد منثور في «النقد والنقاد المعاصرون»، كما يستشهد كثير من النقاد بأرواء أولئك الروائيين أو بالترجمات عنهم.

من البديهي أننا لن نتمكن هنا من الإحاطة بكل المبادئ التي يظهر فيها تأثير الرواية الفرنسية الجديدة على الرواية العربية المعاصرة، ولكننا سنكتفي بالقول

(٩٥) ينحصر هذه التسميات نظر العدد الثاني من الجريدة التي من مجلة أصول (القاهرة، يناير/فبراير مارس ١٩٨٢) التي يعمل حيويا (الرواية ولان القصر، وبيروت خاصة دراسات: ساهي حشبة، جيل الستينات في الرواية المصرية، ص ١٧٧ - ١٧٤، محمد بدوي، صنفرة للشكل عند روائي الستينات - ١٢٥ - ١٤٢، سوزا لاسم، للفرقة في النص العربي المعاصر، ص ١٤٣ - ١٥٢، ويحيى حيدان، تيار الوعي والرواية اللبنانية المعاصرة، ص ١٥٣ - ١٧٢.

(٩٦) ينقل كثير من النقاد العرب على تعدد هذه التسميات، ومنهم على سبيل المثال: الياس خوري، تجربة البحث عن الحق، (الذي يحمل عنوان آخر هو «مطلعة للدراسة الرواية العربية بعد لغزيتها») مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤، والناقد للفرقة، ص ٢٥ - ٤٢، علي شكري، سوبوليتا النقد العربي الحديث، ص ١٩٣ - ٢٠٢، أحمد محمد حطّ، الجدل الثوري في الرواية العربية الحديثة، ص ٢٠ - ٢٩.

المروية بصيغة المتكلم ، فإن الزمان يفلت من يدها بين الفنية والفنية . وسواء حصل ذلك عمدا أم نتج عن عدم قدرة الذاكرة على لمة نطف الماضي ، فإن هذا التراجع - وإن بقدر يسير- عن المعرفة الكاملة والشاملة عند الكاتب هو أمر لافت للنظر^(٩٧) .

قبل أن ننقل إلى مراحل أخرى في معرفة الكاتب ، تجدر الإشارة إلى أن وضعية البطل المتأرجح بين مكانين أو عقليتين كانت قد ظهرت منذ أواسط الخمسينيات في ثلاثية سهيل ادريس - «الحي اللاتيني» ١٩٥٤ ، «الحندق الغميق» ١٩٥٨ ، و «أصابنا التي تحترق» ١٩٦٢ . وفي روايات ليل بعلبكي و «ليل عسيران» ١٩٦٢ في أوائل الستينيات^(٩٨) . وضعيات متشابهة ، وطريقة عرض متقاربة لا تتطلب من القارئ كبير جهد لتتبع الأحداث أو لمعرفة ما يريد الروائي . ولكن حتى الحي اللاتيني التي هي أقدمها تنتهي بخدش معرفي - يطال القارئ هنا بدل الكاتب - عندما يتنقل البطل في آخر كلمات الرواية ، «الآن بدأنا» ، من ضمير المتكلم المفرد إلى الجمع تاركا بذلك للقارئ أن يحدد ماهية هذا الجمع وتوعية البداية وغايتها .

بعد بضع سنين ظهرت موجة جديدة من الروايات التي حلت فيها الشروع مكان الخلدوش ، واختلت الكتابة تمثل القلق والتصدع . واللافت للنظر أن هذه الموجة قد طغت بين ١٩٦٨ و ١٩٧٤ وانها تعكس «هذا القلق العام الذي يحاول أن يكشف بنية جديدة للثر يمكن أن نعطيهما صفة عامة هي محاولتها تأسيس أبعاد الحياة اليومية في شكل روائي مفتوح . وفي هذا

الشكل تتحل صورة الكاتب - المؤلف في التفاصيل أو في الشهادة لها ، ويصبح الشكل الروائي وكأنه مختبر اللغة الجديدة . مختبر يحاول أن يصيغ علامات الزمن المتقطع وأن يكشف شكلا خاصا لا يعكس في الأبداع ولكنه يحاوله . القاسم المشترك الذي يوحد المحاولة الروائية الجديدة هو الوصول إلى هذا الشكل الذي يستطيع أن يحاور الأزمنة العربية المتداخلة (يتحدث الياس خوري عن الرواية العربية بشكل عام) دون أن يدعي لنفسه القدرة على صياغة آفاقها واحتيااتها^(٩٩) .

كان أكثر الكتاب تمثيلا لهذه الموجة أمل نصرالله في «شجرة الدفل» و «الرحمة» و «ليل عسيران» في «عصافير الفجر» وحنان الشيخ في «انتحار رجل ميت» و «فرس الشيطان» ، وتوفيق يوسف عواد في «طواحين بيروت» ويوسف جشي الاشرقي في «لا تثبت جذور في الساء» وافتتحت برأينا في «ليل الغرياء» لغادة السان و «عودة الطائر إلى البحر» حلوم بركات^(١٠٠) . قد يترس البعض هنا هل تصنيف «ليل الغرياء» كرواية بينما هي ، برأي الكثيرين ، مجموعة قصص . ولكننا نرى أن خيوطا عديدة تجمع بين أجزاء الكتاب وتشكل منها وحدة وواحدة ، رواية جديدة .

ومنذ أواسط السبعينات ما زالت الموجة الثالثة مستمرة ، موجة تفتت فيها الشخصيات والنصوص وانتقل السرد من التردد والقلق إلى التدهام والابهام والتهاوت ، لكانتا تقنيات الرواية الفرنسية الجديدة قد وجدت في رعب الحرب اللبنانية وتخبث المثقفين في دوايمها وضياهم في متاهاتها واحتراقهم في أتونها ،

(٩٧) تشير هنا إلى أن رواية طوبى لبلبل قد ظهرت للمرة الأولى سنة ١٩٦٢ كما تذكر عدد من الدراسات التي كتبت عنها .

(٩٨) ليل بعلبكي ، لها أسما ١٩٥٨ ، الألفة للوسوعة ١٩٦٠ ، ليل عسيران . أن صوت هذا ١٩٦٢ ، الحرف الأخير ١٩٦٣

(٩٩) الياس خوري . الذكرة المفقودة ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(١٠٠) تجدر الإشارة إلى أن لغادة السان وحلوم بركات قد ولدا في سورية ولكنها عاشتا فترة طويلة في بيروت حيث نشرت أغلب أعمالها .

«وهي ليست سفينة حلمه ، لذلك يطرحها للموج ، للبحر الكبير ، ليضيئها في دفق لجته ، او في عيون التجمهرين على الشاطئ»

«ثم يعود الى الحلم»

«الى التصميم»

«الى البناء الجديد»^(١٠١)

بناء تشكيلي اذن ، وهو تشكيلي ايضا عند فؤاد كنعان ، «على انهيار بابل» ، حيث يكفي تصفح بدايات فصول الرواية - ولن اقول قصصها - لكشف البنية الكوكبية التي تراوح بين استرجاع الماضي - «الى ضفاف الماضي مضيت» - وأمسيت قلبي على دفترتي»^(١٠٢) وتصوير الحاضر من خلال شيوع تنفح حيناً وتكاثف أحياناً ، أما «طواحين بيروت» فيحدث عنها ابراهيم السعافين قتالا : «ان من يمثل الرواية يلاحظ انه قام على تصوير التقاضيات والتضاللات التي ترسم الملامح الاساسية للبناء الاجتماعي ، اذ تتحرك الاحداث حركة لولبية ، لا تتجه الى امام حتى ترد الى الخلف ، فقد نظى ان هذه الحركة تسمى الى تضيق الهوة التي تفصل بين الشخصيات أو الى دمعها ، فتعاجبا بانها ترد بشكل حاد لتوسيعها . من خلال تأزم المواقف أو تجميعها»^(١٠٣) وتتخذ البنية أكثر عند حلم بركات ويوسف حبشي الأشقر والياس الديري وغادة السيان حيث بشكل تقاطع وتشابك وتداخل الاحداث والأمكنة والأزمنة بنى متاهية تتوقف فيها كل الفتيات ليس فقط لتصوير الجو المثالي ، بل لاجبار القاري على التوقف بين الغيبة والغيبة ، أو لتقلل عدوى القلق والرعب اليه . وحتى الشكل فانه يلعب دورا في ذلك . لا تنصف فقط «كوبيس بيروت»

الأرض المخصبة التي تثبت فيها وتنضج . غادة السيان بين «بيروت ٧٥» و «ليلة المليار» ، الياس الديري بين «الفارس القاتل يترجل» و «عودة الذئب الى العرتوق» ، يوسف حبشي الأشقر بين «أربعة أفراس حمراء» و «المظلة والملك وهاجس الموت» . وحلم بركات في «الرحيل بين القروس والوتر» ، وحنان الشيخ في «حكاية زهرة» ، ولؤاد كنعان «على انهيار بابل» - بالرغم من لجوء هذه الرواية الأخيرة الى قرية يبدو ان الحرب لم تصلها - ومطاع صفدي في «اصابع القدر» ، وفيهم كل هؤلاء يتماثلون ، وان بنسب متفاوتة ، مع الروائيين الفرنسيين الجدد .

ان المراحل الثلاث التي اشرنا اليها في محاولة تصنيف أولية لروايات فترة تاهز ثلاثين عاما تتجسد بشكل خاص على مستوى البنية والسر . وإذا كنا سنركز هنا على المرحلتين الثانية والثالثة فقط ، فذلك لانها تمكسان بوضوح ما نحن بصدده من تماثل مع الرواية الفرنسية الجديدة وتأثر بها .

لقد تعرضت بنية الرواية اللبنانية المعاصرة لتغيرات جذرية ، فاختفى فيها ، أو كاد ، تسلسل الاحداث الزمني وتواترها واصبح أكثرها يلقي بنا منذ اللحظة الأولى في متاهة الاحداث ويؤامنها أو يجول بنا في طبقات متفاوتة العمق من استيطان الشخصيات واستدكارها واستشرافها وكوابيسها . واخذنا ننزل ونحن نقرأها الى مناطق وفترات أخرى من خلال بنى تكرارية أو تبديلية أو تبطينية . هكذا تلتفت نظرننا أمل نصرالله في «تمهيد الرهينة الى ان كتابتها وليست سوى قارب من ورق» يصنعه «طفل واقف عند شاطئ البحر» .

(١٠١) أمل نصرالله ، لخمسة ، ص ٦

(١٠٢) لؤاد كنعان ، على انهيار بابل ، ص ٧٨ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١٨٧ .

(١٠٣) ابراهيم السعافين ، طواحين بيروت بين الرؤية والتشكيد ، مجلة المعرفة ، العدد ٣٦ ، الصفحة ٣٠٦-٣٠٧ ، ١٩٨٨ ، ص ٨٨

الزنجي» التي سبق وعرفناها في الرواية الفرنسية الجديدة). أما الثاني، وهو الأكثر شيوعاً، فهو الذي ينكسر فيه تسلسل حدث ما بشكل مفاجيء، ليبدأ قص حدث آخر ينكسر بدوره، وهكذا تتداخل في الرواية «أصوات متنوعة متفاوتة الزمان والمكان، وتتخلط هذه الأصوات بصوت الراوي وتتفاعل معه معطية أبعاداً متناهية، القصة محدودة الزمان والمكان»^(١١٠)، كما في رواية «الفارس القاتل يترجل» ولي روايات حلليم بركات^(١١١). وتقنيات السرد التوازي والمتقاطع ليست غالبة عن هذه الرواية، ففي «بيروت ٧٥» تقدم لنا خادفة السهان عرضاً متوازناً للشخصيات وروايتها ومشاكلهم وإماتهم وتطور مأساة كل منهم. وتنطلق هذه التوازيات في الغالب من إشارة إلى حالة الطقس تحمل أكثر من مجرد تسجيل وضع مناخي أو تحديد زمني :

أ- «والشمس شرمة وملتهية» (ص ٥)، «ولقد أيقظت الشمس جسدها» (ص ١٣).

ب- «حين استيقظ أبو مصطفى السياك من نومه كان الظلام دامساً» (ص ٢٥)، «كانت هنالك نقطة مضيئة ساكنة في البحر» (ص ٣٧).

ج- «انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة» (ص ٤٩، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٦، ٦٨).

د- «ساح البحر واهنا الورق وجفت حلق الرجال في وقوة الليل» وابتلوا بالمطر حتى قاع عظامهم (ص ٥٧)، «تمطر تمطر» (ص ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤).

أو وليلة المليار. سوف نجد أنفسنا أمام صفحات مقلقة من الزوايا الأربع لا تفصل بين مقاطعها سوى كلمة «كايوس» المتبعة برقم في الرواية الأولى، أو ثلاث دوائر صغيرة في الثانية. إلا يدخلنا ذلك في جو من الرعب المتواصل، في ليل قلق طويل لا تبدو فيه بارقة من أمل أو ريس من نور؟ «لم تنته الخلودة بعد...» ولن تنتهي قبل زمن طويل... «بعد هاتين العيارتين بسطر واحد تصال الكاتبة» «تمت؟» «ولكن الرواية لا تم، بل تفتح من جديد على «مشاريع كوايس» تعيد القارئ إلى جو القلق والرعب. أما وليلة المليار، فإن كثرة حواراتها ترسم على الصفحة المقلقة ولقماً مهلهلاً، عزقاً، مهشهاً، يزيد في تصويره النقاط الثلاث التي تتكرر بعد كل عبارة أو جملة، والتي تلعب دور الفصل، والوصل، في الوقت نفسه.

لن نتوسع أكثر في إعطاء الأمثلة، بل ننتقل إلى السرد. والواقع أن ما ذكرناه عن البنية يلقي بعض الضوء على تقنيات السرد في الروايات التي نتحدث عنها. وللملاحظ، كما سبق والمحا، أن أسلوب السرد الغالين هما الاسترجاعي، والمتداخل أو المتشاك. والأول هو الذي تتميز به بشكل خاص روايات أملي نصرالله وفؤاد كتمان، وإذا أردنا تحليله بشكل أدق لقلنا مع سيزا قاسم بأنه «استرجاع داخلي: وهو الماضي السابق لبداية الرواية، والذي يُبخر تقديمه في النص»، وهو يستحيل في الغالب «مزجياً»^(١١٢) يجمع فيه زمن الكتابة مع زمن الذكر مع زمن الذكريات (والزنج هنا يختلف، كما نلاحظ، عن تقنية «السرد

(١٠١) ملحة السلا، كوايس بيروت، ص ٣٣٧.

(١٠٢) هذا السؤال نفسه انتهى رواية ليله الليل للكاتبة نفسها، كما انتهى رواية بيروت ٧٥، مجموعة من الكوايس (غير مرقمة).

(١٠٣) سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٤٠-٤١.

(١٠٤) تيم تيم، باقتراح والتعاطف في رواية حيلة القلب إلى المترجم الأليس الفوري، مجلة الفكر العربي للعصر، العدد ٣٤، ربيع ١٩٨٥، ص ١٠٣.

(١٠٥) اختار، أليس حوي، الفكرة المقلقة، ص ١٣٤-١٤٣، عطفة سويد، سرية الأبدان، ص ٣٧٢-٣٧٣.

وهكذا... الرواية هي قبل كل شيء رواية أصنام وإعادة نظر، تضيء من الأوضاع والملاقات ما كان عمها ومقما بأعداد وشعارات ومبادئ عباوت أمام الحرب فبدلت الأشياء عارية (الأوضاع العائلية، البنية السياسية، والتركيبية الطائفية)^(١٠٧)

والضباب التي تعبر عن هذه الشخصيات تعرضت بدورها للتعددية والابهام، بمعنى أن ضمير المتكلم أو الغالب يتنقل مداورة من شخصية إلى أخرى، فيصبح راوي «حكاية زهرة» متعددا حيث تتكلم زهرة في بعض فصول الرواية، بينما يتحدث في فصول أخرى خلالها وزوجها. وعند فؤاد كتمان يتنقل الـ «أنا» من فم لآخر حتى يتحرك بها لسان الكنيسة:

وقيل أن يمر النسيان ويعفو كنسيتهم، كنت أنا كنسيتهم، وكنت أسمى كنيسة مار قريبا قوسى، وتحييا ماركنياكي، كيا ساني فؤاد كتمان^(١٠٨).

أما في «كوايس بيروت» فيخيل للقارى أن مثات الشخصيات - مثات النسوة على الأقل - تعيش هذه الكوايس الرهيبة، وإن هذا آخر مرشح لأن يرى ويرى - ويعيش - كوايس عائلة، بل وأشد هولاً، وذلك من خلال «المشاريع» التريصة به بعد أن يعتقد أن الرواية قد «تمت»؟

وقبل إتمام هذه الجولة المقارنة مع «الرواية الجديدة» في فرنسا، نشير إلى تقنية استعملتها هذه الأخيرة بكثرة، وهي «تقنية الصغرات».

وتظهر هذه التقنية أيضا عند حنان الشيخ في «حكاية زهرة» حيث يظهر التوازي على مستوى تبدل الرواة من فصل لآخر^(١٠٩).

أما السرد المتقاطع، فإنه يظهر بصورة خاصة في «عودة الذهب إلى العرتوق»، وهو ما يسميه نبيه قنبر بالمبشر، إذ يقول: «وصعوبة الرواية تكمن في كونها لا تتبع تسلسل الأحداث وترباطها، وإنما تجزئها وتبعثرها تاركة للقارى مهمة للمتها وجمعها. وسبب ذلك أن حاضر الرواية لا يشكل إلا أجزاء يسيراً من الأزمات المتعددة المتشابكة التي تحويها الرواية والتي تظهر مفككة مشتتة»^(١١٠).

إن تقنيات السرد هذه تحاول أن تشكل النسيج الفني الذي يعكس بواقعية ضياع الشخصيات في متاهات الحرب والغربة والاستلاب. ونشير هنا إلى أن أبا من هذه الروايات لا تقدم «بطلاء» بالمعنى الروائي أو الاجتماعي، أو السياسي للكلمة، بل هي تعرض شخصيات ضالعة، حائرة، قلقة، تتعرض لأنواع مختلفة من الضغوط والكبت والعنف، ولعل ما نقوله خالدة سعيد عن «عودة الطائر إلى البحر»، ينطبق على أغلب الروايات اللبنانية المعاصرة، وخاصة روايات المرحلة الثالثة: «الأبطال هنا - وكان أفضل لو قالت والشخصيات» - لا يظهرون إلا من الزاوية التي تضفيها الحرب ولا يقومون بأفعال بصورة مفصلة عنها، وليسوا موجودين في الرواية إلا لأنهم تفاصيل في لوحة الحروب كما تمت على الجبهة الداخلية وعلى دروب النزوح المحرقة، أو ميادين المقاومة والمظالمات...

(١٠٧) انظر تفصيل ذلك في مجلة هورول، القاهرة، العدد الثاني، ١٩٨٢: يحيى مبراهيم «ديار الرمي» ص ١٦٥ - ١٧٣.

(١٠٨) نبيه قنبر، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٠٢.

(١١١) عائدة سعيد، «حركة الأبعاد»، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(١١٢) حل النهار بلال، ص ١٢١.

وها أنا بشرى في زي ولادة . . .

«ولادة تتأهل في غلالة أندلسية شمافة، وتروح في القصر وتجي»، وتقول لشاعرها ابن زيدون:

«إن يظل بعسك ليلي فللكم
بت أشكرو قصر الليل معك»^(١١٦)

وهي تصبح مكشوفة تماماً عندما يقدم توفيق يوسف عواد أو غادة السمان ثبنا للمراجع التي استخدموا نصوصاً منها في «طواحين بيروت» و«ليلة المليار»، بعد أن يكون كل منهما قد وضع تلك النصوص بين مزدوجين في سياق الرواية.

ويبلغ تقاطع النصوص وامتزاجها أوجه عند حلوم بركات الذي تنطلق كتاباته من خلفية ثقافية واسعة والذي تتداخل في رواياته نصوص ورموز وأساطير تتكامل من خلالها الصورة التي رسمها. ففي رواياته التي هي «دون حدث رئيسي»، دون مشكلة خارجية^(١١٧) يستكمل عالم الشخصيات الحفارجي والدخلي بمجموعة المصغرات التي يستخدمها. هكذا ترى خالدة سعيد^(١١٨) أن «عودة الطائر إلى البحر» هي «موشور مثقف نطل من خلاله على عالم حزينان ١٩٦٧. وتبدو الحرب عبر هذا الموشور في صيغ وألوان متعددة: فهي مطهر دائني يعبرها العربي طريقاً إلى الخلاص. وهي عودة المولندي الطائر إلى البر في محاولة أخرى، وهي ارتفاع سيزيف بالصخر في محاولة لبلوغ القمة. أما العربي فيبدو عبر هذا الموشور لايساً وجه الكنعاني الذي غدر به أبناء يعقوب وأخرجوه من أرضه، ووجه العريس الذي خلف الضيق عروسه

قلماً تخلو رواية لبنانية ظهرت بين الستينات واليوم من هذه المصغرات التي تشمل رموزاً وأساطير وشخصيات ونصوصاً ذاتية أو مأخوذة من كتب آخرين.

في «الفارس القليل يترجل» يتداخل نص الكاتب مع نصوص أخرى من بينها العهدان القديم والجديد:

«وضع عواد السلة أمامها.

وترجل الفارس وقدم سيفه مشهوراً إلى الأميرة للنبهة. أخذ عقداً وأهداه إليها: الحبيبة.

وسرت مهمة بين أفراد الحاشية».

«وهي لا ياء».

«وابتسامها غمرت الآي إلى ضجر المدينة من قريضة معلقة في أعلى الضيعة».

«أنكأ حل موعداً في الحال. شمت العينان بالوعد عاد إلى الركن القصي وهذا كمن اجتاز سباق الألف ميل ركضاً. فليكن ليل وليكن نهار. اتخذ الكون ملامحه النهائية».

«ولكن لا ياء».

«قامت الدبابير وقطعت الزهرة»^(١١٩).

من الصعب أن نتبين في هذا النص المجلود التي تفصل أقوال الكاتب عن غيرها. تتداخل النصوص والأصناف - ولكن ذلك يصبح أسهل عند آخرين:

«إلى ضفاف الماضي مضيت . . مضيت إلى قرطبة».

(١١٦) فارس القليل، الفارس القليل يترجل، ص ٩٨ - ٩٩.

(١١٧) علي أحمد باخل، ص ٨٨.

(١١٨) فارس حوري، الفكرة للعودة ص ١٤٢.

(١١٩) حركة الأبداع، ص ٣٣.

«تترلق من بين أصابعي كحفنة رمل ملونة عينا أسرقها عن شيطان الزمن... تترلق هاربة كالعمر، كالعافية، كالشباب، ككل الأشياء التي أعجز عن شرائها بملائيني... أدور حول قلعتها الحصينة بالصمت واللامبالاة الزلعدة... أفتش عن ثغرة أنفذ منها إلى ذلك البنيان المحكم لأخلخله، فلا أجد إليها سبيلا... وشقيقي اللحية لا تجدي مع ربحام سكوتها...»

«لعله آن الأوان لكسر طلسم سحرها عني... إذا تركتها تستولي على روسي، دمرتي»^(١١٧).

عن هذا التغلغل الشعري إلى أصباق الرواية المعاصرة يتحدث جيرا إبراهيم جيرا فيقول: «^(١١٨) و إن العربي اكتشف وقد دخل الآن عصر المدينة بعد ألف سنة من عصر القرية إن حياته بحاجة إلى شكل إبداعى لغوي لمل الشعر قاصر عنه. والموضوع هو موضوع اشكال للتعبير عن طريق اللغة. والرواية نفسها وعاء مذهل بقدرته على احتواء الشعر مضافا اليه الأشكال التعبيرية الأخرى التي تبقى مجسدة بالشعر ولكنها باستعمال التثر في صيغ لم تستعمل في ما مضى تجعل من نفسها أداة ماضية لن يكون لنا غنى عنها في التعبير عن عصرنا من ناحية وعن ذواتنا كقوى فاعلة في هذا العصر من ناحية أخرى».

إذا كان جيرا قد رأى في الصياغة الشعرية للرواية بقولاب ثثرة جديدة اختيارا قام به الروائي العربي المعاصر للأسباب والغايات التي ذكرها وجعل بالتالي من هذا الاختيار التفسير الوحيد للأشكال الروائية الجديدة فالتا نرى أن الموضوع أشد تعقيداً وأن أسباب هذا التجديد أكثر تنوعاً. ما يخص دراستنا هنا هو

(فلسطين) في الحكايات الشعبية. تتوالى هذه الصور يرافقتها صوت الكاتب الملمب للمسائل الغاضب. ويأتي صوته نهرا يتلاقى بأنهار غاضبة أخرى في العالم. هكذا يهتف مع ديلان طوماس «وإن تكون للموت سيطرة»، أو يردد صوت تي. اس. اليوت بحرقه: «نحن الرجال الجوف»، أو يغني مع الزنوج في أميركا صارخا: «مثل شجرة نمت قرب الماء / لن نقتلع من مكانها».

تلعب الرموز والأساطير والحكايات الشعبية إذن، إضافة إلى النصوص دور مصفرات تعطي للرواية أبعادا مكانية وزمانية وثقافية مختلفة، وتمددها بطلاقة تنوع وتحليل وتفسير هائلة. هذا البعد الرمزي والأسطوري والفولكلوري يظلمنا في كثير من عناوين الروايات، من «شجرة اللؤلؤ» إلى «طيور ليلول» إلى «فرس الشيطان» و«عودة الطائر إلى البحر» و«طواحين بيروت» و«على أنهار بابل» وغيرها. أما في داخل الروايات، فمن البديهي أنها أكثر من ذلك بكثير.

وكل هذا وذاك يصاغ بلغة شعرية، أو على وجه الدقة، بلغة الشعر الحديث، نستطيع القول إن الشعر لم يغيب يوما عن الرواية العربية وإنه شكل دوما لحمتها أو سداها أو على الأقل بعض غرزات نسيجها. ولكنه في الرواية المعاصرة يشكل وعاء القلق أو يشيد مدلولج الاحلام، يطلو في ثرون الحرب والرهب والظلم وفي متاهة القرية والحرم، أو يعزف - وإن قليلا - لحن الخلاص والتحرر وحنين العودة. الأمثلة أكثر من أن تحصى حتى في الروايات الأقل شاعرية مثل «لا تنبت جلود في السه» أو «ليلة الملاير»:

«وبخية المستحيل».

(١١٧) غداة السان، ليلة لليل، ص ٣١٥ - ٣١٦.

(١١٨) جريدة النهار، بيروت، الثلاثاء، ٣١ أيار ١٩٨٨.

يبقى ان نقول ان المحيطين اللذين نشأتا فيها يتأثلان في تغير كثير من المعطيات الاجتماعية والسياسية والعلمية وفي حلول القلق والضيق مكان وهم الاستقرار والمعرفة الشاملة.

نبلغ هنا نهاية هذا البحث، بل قل بدايته، اذ انه جهد ان يقدم في صفحات قليلة صورة عن تقنيات وتفاعلات فنية يتطلب كل منها بحثا مطولة ودراسات معمقة. ونختتم بقول بليرار جينيات:

« ان انسان اليوم يحس بوقته حالة قلق وبداعليته هوسا وغشيانا، يشعر انه فريسة العنينة والتمزق، فيحاول تثبيت اقدامه بترجيحه تفكيره نحو الأشياء، بتشكيل صور وتصاميم تستعير من الأبعاد الهندسية بعض صلابتها وثباتها. وفي الحقيقة ان هذا البعد - الملجأ - ما هو الا انسي ومؤقت، لأن العلم والفلسفة والادب المعاصرين يجهلون في محو ثوابت هذه «الهندسة المريحة» وابدالها بطوبولوجيا متاهية، زمان - مكان، مسافات متداخلة، او منحنية، البعد الرابع، وجه غير اقليدي للكون يشكل مدى دواري مخيفا يتي، فيه بعض الكتاب الجلد متاهاتهم»^(١١٦).

متاهات أدبية تنشأ ان تكون مصفريات عن متاهات علمنا الكثيرة وان تعلمنا كيفية اخروج منها جميعا.

العلاقة بالرواية الجديدة في فرنسا. واللافت للنظر ان أغلب الروائيين اللبنانيين الذين ذكرناهم بل قل جميعهم - باستثناء حلهم بركات ذو الثقافة الانغلو-اميركية - هم على اطلاع واسع على الثقافة الفرنسية، وان عددا منهم أنام - أولا يزال - في باريس لفترة أو فترات مختلفة. نذكر ذلك كملاحظة أولية لا تخلو من الدلالة، ونذكر ما يقوله الياس خوري عن الأشكال الروائية الجديدة والذي نراه أكثر شمولية من رأي جبرا:

« الرواية العربية في تجربتها وتجاربها حاولت ان تستعير جميع الاشكال الممكنة والمحتملة. عادت الى الموروث الشعري ومزجته بالحياة، حاولت الرواية التسجيلية شبه المباشرة أو استعارت شكل الرواية الغربية وشيئتها. ولكنها بقيت وكأنها على أبواب اقتحام مغفرتها، أو كأن مغفرتها الخاصة لا تزال تنتظر انفجارا ما في بنية التعبير، انفجارا داخل المزاوجة بين الموروث الشعري والتأثير بالتجارب الأدبية الغربية»^(١١٧).

مهما يكن من امر، فهذه كانت محاولة للتعريف بالرواية الجديدة في فرنسا - وكما سبق وقلنا - بأوجه تأثيرها في الرواية اللبنانية المعاصرة أو تماثلها معها.



المصادر

بالعربية

- الأشقر ، يوسف حبشي ، لا تكتب جلودور في السباه . دار النهار، بيروت ١٩٧١ .
- المظلة والملوك ومجلس الموت ، دار النهار، بيروت ١٩٨٠ .
- بركات ، حليم ، سنة أيام ، بيروت ١٩٦١ .
- عودة الطائر إلى البحر، دار النهار، بيروت ١٩٦٩ .
- الرجل بين القوس والوتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩ .
- حلاق، بطرس، والرواية العربية بين النقد والأيدولوجيا، مجلة الفكر العربي، بيروت، السنة الثانية العدد ١٤ ، ١٩٨٠ .
- خوري ، إلياس، تجربة البحث عن الحق، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤ .
- الذاكرة المفقودة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٢ .
- الديري ، إلياس، القلوس للقتل يترجل، دار النهار، بيروت ١٩٧٩ .
- عودة الذهب إلى العروقت، دار النهار، بيروت، ١٩٨٤ .
- السمانين، إبراهيم، وطواحين بيروت بين الرواية والتشكيل، مجلة للفرقة، السنة الثانية، العدد الرابع عشر، دمشق ١٩٨٠ .
- سعيد ، خالد، حركة الأبدان، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩ .
- السمان، غادة، ليل الغرياء، منشورات غادة السمان، بيروت، ١٩٦٦ .
- بيروت ٧٥، منشورات غادة السمان، بيروت ١٩٧٥ .
- كوايس بيروت، منشورات غادة السمان، بيروت ١٩٧٦ .
- ليلة الليل، منشورات غادة السمان، بيروت ١٩٨٦ .
- شكري، غالي، سوسولوجيا النقد العربي الحديث، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣ .
- الشيخ، حنان، حكاية زهرة، بيروت ١٩٨٠ .
- عبدالنديم، يحيى، « تيار الوعي والرواية اللبنانية المعاصرة »، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، مارس، القاهرة، ١٩٨٢ .
- العيد، يحيى، في معرفة النص، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣ .
- هراد، توفيق يوسف، طواحين بيروت، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤ .
- لاسم، سوزا، بناء الرواية .
- فخر، نبيه، « التناثر، والترابط » في « عودة الذهب إلى العروقت » للديري، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٣٤، بيروت، ربيع ١٩٨٥ .
- كتمان، فؤاد، على أنهار بابل، دار جلد عاطف، بيروت، ١٩٨٧ .
- مكاي، عبدالغفور، قصيدة وسورية، سلسلة «عالم للفرقة»، العدد ١١٩، نوفمبر / تشرين الثاني، الكويت، ١٩٨٧ .
- نصرالله، أملي، « طيور أبولون، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٦٢ .
- شجرة الغلغل، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٦٨ .
- الرهبة، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٧٤ .

٢ - المراجع الأجنبية :

- Alberes, Rene - Maril, Metamorphoses du roman, Ed. Albin - Michel, Paris, 1967.
- Alberes, Rene-Maril, Histoire du roman moderne Ed. Albin-Michel, Paris, 1970.
- Barthes, Roland, Le degre Zero de l'écriture, Ed. du Seuil, Paris, 1953.

- Barthes, Roland, Essais critiques, Ed. Seuil. 1964.
- Boideffre, Pierre de, Ou va le roman? Ed. Mondiales, Paris, 1962.
- ———, La cafetiere est sur la table.
- Butor, Michel, Passage de Milan, Ed. Minuit, Paris, 1954.
- ———, L'Emploi du temps, Ed. Minuit, Paris, 1956.
- ———, La modification, Ed. Minuit, Paris, 1957.
- ———, Degres, Ed. Gallimard, Paris, 1960.
- ———, Repertoire I, Ed. Minuit, Paris, 1960.
- ———, Repertoire II, Ed. Minuit, Paris, 1964.
- ———, Essais sur le roman, Ed. Gallimard, Paris, 1964.
- ———, Entretiens avec Georges Charbonnier, Ed. Garnier, Paris, 1967.
- Chapsal, Madelaine, Les Ecrivains en personne, Ed. Juilliard, 1960.
- Genelle, Gerard, Figures I, Ed. Seuil, 1964.
- Janvier, Ludovic, Une parole exigeante.
- Le Robert, Dictionnaire de la langue française, article: "Roman".
- Mauriac, Claude, Le diner en ville.
- Michel, Jean-Bloch, Le present de l'indicatif.
- Netzer, Klaus, Der Leser des "Nouveau Roman", Frankfurt am Main, Athenaum, 1970.
- Nouveau Roman: Hier, Aujourd'hui, 2tomes, Ed. 10 / 18, U.E.G. 1972. (ouvrages collectifs).
- Paul Levill, Morton, From a new point of view, Ann Arbor University Press, 1966.
- Ricardcau, Jean, Problemes du Nouveau Roman, Ed. Seuil, Paris, 1967.
- ———, Le Nouveau Roman, Ed. Seuil, Paris, 1978.
- Robbe, Grillet, Alain, Le voyeur, Ed. Minuit, Paris, 1955.
- ———, "Nouveau Roman, Homme Nouveau" La Renne de Paris, Sept. 1961.
- Robbe-Grillet, Alain, Pour un nouveau roman, Ed. Minuit, Paris, 1963.
- Roudaut Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, Paris, 1964.
- Rousset, Jean, "Trois romans de la memoire", Cahiero internationaux du symbolisme, n°. 9-10-1962.
- Sarraute, Nathalie, Nortereau, Ed. Minuit, Paris. 1953.
- ———, L'Ere du Soupcon, Ed. Gallimard, Paris, 1955.
- ———, Les fruits d'or, Gallimard, Paris, 1963.
- ———, Entre la vie et la mort, Gallimard, Paris, 1968.
- Simon, Claude, Nouveau Roman, Hier, Aujourd'hui, II, Pratiques.
- ———, Orion aveugle, Ed. Skira, Paris, 1970.
- Sturrock, John, The French New Novel, Oxford University Press, 1968.
- Thorayal, Bothorel, Dugast, Les Nouveaux Romanciers.
- Wilhelm, Kurt, Der "Nouveau Roman", E. Schimatt Verlag, 1969

صَدْرُ حَدِيثًا

توطئة :

ينظر إلى تقارير معهد المراقبة الدولي عن التقدم العالمي نحو مجتمع قابل للبقاء، والمسألة بسلسلة (أوضاع العالم) كأحد أنواع المساعدة العلمية المقدمة إلى مجتمعات العالم، يفرض إعانتها على تفادي المصاعب الخطيرة المحتملة قبل الوصول إليها، ونظرا لأهمية هذه التقارير فقد ترجمت كتب (أوضاع العالم) - بعد نشرها على نطاق واسع باللغة الإنجليزية - إلى عدة لغات أخرى، وتوجد ترجمات لها الآن باللغات الأسبانية والصينية واليابانية، إلى جانب بعض اللغات التي يتكلمها عدد أقل من الناس كالأندونيسية والبرلونية والرومانية والتايلاندية، ويقدر مؤلفو هذه السلسلة بأن السوق العالمي للكتاب تطلب ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نسخة في العام الماضي وحده.

وبالنسبة للغة العربية فقد شرع في ترجمة هذه السلسلة إليها ابتداء من الكتاب الثالث (أوضاع العالم ١٩٨٦)، الذي قام بترجمته الدكتور فوزي سهاونة رئيس قسم الدراسات السكانية بالجامعة الأردنية، بالتعاون مع لفيف من زملائه، وقد شجع القبول الكبير الذي قوبلت به الترجمة العربية لكتاب (أوضاع العالم ١٩٨٦) على ترجمة الكتاب الرابع (أوضاع العالم ١٩٨٧)، والذي نحن بصدد عرضه الآن. ويفصح الدكتور سهاونة في تقديمه له عن أمله في أن يتمكن من ترجمة هذه التقارير في السنوات القادمة كليا صدرت ليشارك القارئ العربي في فهم أوضاع العالم في فترة حرجية من تاريخ الإنسانية.

ويقع كتاب (أوضاع العالم ١٩٨٧) في ترجمته العربية في حوالي ٤٩٠ صفحة من القطع الكبير، تتضمن أحد عشر فصلا في مختلف الموضوعات الهامة التي عني المؤلفون بالكتابة فيها، والتي تشير في مجملها، وبمداخل مختلفة، إلى مخاطر أخطأ معينة

أوضاع العالم ١٩٨٧م

تقرير لمعهد المراقبة الدولي عن التقدم نحو مجتمع قابل للبقاء.

تأليف : لسترر . براون - ساندرا بومتل - جود جيكسون - غوستوفر فلافن - سينيثا بولوك - ادوارد م. وولف - وليم يو. شاندرلر .

ترجمة : د. عبدالرحمن شاهين - د. فوزي سهاونة - د. عيسى شاهين - د. الياس صليبا - د. سمير سياري .

عرض وتحليل : أبوالمجد مره

من السلوك الإنساني المعاصر بالنسبة لبقاء الإنسان ذاته على كوكب الأرض، وتقترح بعض الحلول الممكنة لمواجهة هذه المخاطر على المدى البعيد.



ففي الفصل الأول : (حدود التغير)، من تأليف كل من لستر . براون وساتلدا بوستل، وترجمة د. عبد الرحمن شاهين، يطالب المؤلفان بإجراء مراجعة قاسية لأفكارنا وأساليب تعاملنا مع الأرض ونظمها الطبيعية، حيث ينتج عن السعي الحثيث نحو التقدم اختراق حدود الأمان في التعامل مع تلك النظم، وتهدد بذلك فرص بقاء الإنسان ذاته فوق كوكب الأرض.

ويضرب المؤلفان المثل بملاحظة الانخفاض الحاد في مستوى الأوزون الجوي فوق القطب الجنوبي، واحتلالات الحطار الداهم من وراء ذلك، وارتفاع درجة حرارة الجو نتيجة تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الهواء الجوي، والآثار الخطيرة لذلك على مستوى العالم، وتسجيل زيادة سكانية كبيرة في مناطق عديدة بالعالم وما تسببه من ضغط متزايد على موارد الأرض المحدودة.

إن المجتمع القادر على البقاء هو الذي يمد حاجاته دون تقليص إمكانيات التقدم للجيل القادم، ولكن الاقتصاد العالمي الذي يتوسع باستمرار بدعمه للأسف نظم طبيعية لم تتوسع، فتتلاشى مثلاً مساحات كبيرة من الغابات بسبب التوسع في قطعها، أو يتأثر التلوث في الدول الصناعية، وتراجع الثروات السمكية والكائنات الحية في العديد من البحيرات والأنهار بسبب الأمطار الحمضية، تلك التي تؤثر أيضاً على التربة الزراعية فتضعفها، مع أن التربة للأهمية قد تحتاج إلى قرون من الزمن لتستعيد عافيتها.

ومن المألوف التي تواجهها الإنسانية نتيجة ازدياد اعتمادها على الطاقة في إنتاج الغذاء بروز علاقة وطيدة

بين أسعار الحبوب وأسعار النفط، وهي علاقة خطيرة لأن احتياجات العالم من الحبوب في تصاعد مستمر، بينما النفط أخذ في الانسحاب. ويرى المؤلفان أن المحكن الوحيد أمام بلدان العالم الثالث المهددة أكثر بمخاطر هذه الوضعية هو العمل على الحد من الاستهلاك بوقف نمو السكان، مع العمل على إنتاج غذاء أقل اعتماداً على النفط.

إن كثيراً من النتائج الاقتصادية المترتبة على التدهور البيئي نتيجة اختراق الحدود الطبيعية لا يدركها الإنسان إلا بعد حلولها، وحيث تكون تكاليف التكيف مع الأوضاع المستجدة باهظة. فعلى سبيل المثال يقدر الخبراء أن تكاليف التكيف مع تسخين جو الأرض في القطاع الزراعي وحده ستصل إلى مئات البلايين من الدولارات للحفاظ على الأمن الغذائي العالمي، هذا غير تكاليف التكيف مع الأوضاع المستجدة الناتجة عن ارتفاع مستوى مياه البحار نتيجة ذوبان أنهار الجليد وقمم الجبال القطبية، ومنها تهديد المناطق الساحلية على مستوى العالم، خصوصاً المناطق المكتظة بالسكان في البنجلاديش وأندونيسيا وغيرها، وبعض المدن الكبرى مثل شانجهاي ولندن ونيويورك مثلاً.

إن الغابات والأحيرة والأعلة في التلاشي، والمناخ المتغير والتلوث بالأحماض، وإسدادات البترول المتضائلة، وغير ذلك من الإجهادات والاضغوط، خاصة إذا ما صحبها صراعات عسكرية، يمكن أن تسوق بعض الأمم أو المناطق في النهاية خلف الحدود الحرجة للاستقرار. وهو أمر يمكن البرهنة على صحته باستقراء عبر الماضي، حيث يثبت تاريخياً أن المجتمعات المتحضرة التي تخطت حدود الاستقرار الطبيعي والاجتماعي في الماضي قد اندثرت حضارتها وانتهت.

ويعبر المؤلفان أن الإحساس بمسؤوليتنا تجاه المستقبل يتطلب وضع أسس علمية وتعاون دولي لمراقبة

الأولى مرة أخرى بارتفاع معدلات الوفيات نتيجة انخفاض مستويات المعيشة.

ويركز المؤلف على ضرورة الوعي بالاتجاهات المتباعدة في الدخل والغذاء، ويعلج إلى هذا الموضوع بالدخول المعتاد لدى كتاب الغرب الذين يربطون بشكل مباشر بين انخفاض معدل نمو الاقتصاد العالمي بعد سنة ١٩٧٣م وارتفاع أسعار البترول في تلك السنة ثم الارتفاع الثاني آخر عام ١٩٧٩م.

إن تزامن انخفاض معدل نمو الاقتصاد العالمي مع ظهور أثر العوامل الأخرى على الزراعة، كالجفاف والتربة، وإزالة الغابات، وغيرها. أدى إلى انخفاض معدل نمو إنتاج الحبوب، وبالتالي معدل النمو في نصيب الفرد من إنتاج الحبوب على مستوى العالم، ويرى المؤلف أن هذه النتيجة هي التي دفعت العديد من دول العالم الثالث إلى الاستدانة للمحافظة على استقرارها، ولكنها مع الوقت أصبحت غير قادرة حتى على دفع القوائد للقرتية على ديونها الفخمة.

إن معظم هذه الدول المدينة تتمتع بمعدل نمو سكاني سريع يعمل على تخفيض الدخل فيها، ويزيد من عدم قدرتها على إدارة اقتصادها بشكل جيد.

إن تزايد معدل النمو السكاني مع عدم إجراء المزيد من تقسيم الحيازات الزراعية مثلاً، لا يعني إلا المزيد من لا أرض لهم في الريف، والمزيد من الماطلين عن العمل، والمهاجرين إلى مدن الأكوخ حول مدن العالم الثالث، والمبارين للحدود السياسية بحثاً عن عمل، وكل هؤلاء يكونون مصدراً خطيراً لعدم الاستقرار.

إن النزاع الاجتماعي لا بد أن ينشأ من تناقص الأعداد السكانية الكبيرة على المورد الطبيعي المتقلص أو الثالث، وقد يقضي في نهاية الأمر على الانسجام الاجتماعي في المجتمع.

نض نظم دعم حياة الأرض حتى لا نياغت بنتائج خطيرة للمارسات نظنها عادية في حياتنا.



وفي الفصل الثاني : (تحليل الشك الديموغرافي)
من تأليف : لستر. براون، وترجمة د. فوزي سهاونة، يعتمد المؤلف على تحديد طبيعة المشكلة السكانية، وحجمها، وتأثيراتها الخطيرة على مستقبل العالم الثالث الذي لن يقلح في كبح جماح الزيادة السكانية في المدى القريب.

فحسب نظرية الانتقال الديموغرافي لفرانك نوتستين مرت معظم بلدان العالم بالمرحلة الأولى من نمو المجتمعات، التي تكون فيها معدلات المواليد ومعدلات الوفيات عالية، بحيث لا ينمو عدد السكان إلا ببطء شديد، وبلي ذلك دخول المجتمعات في المرحلة الثانية التي تقل فيها معدلات الوفيات نتيجة تحسن ظروف المعيشة والرعاية الصحية، بينما تواصل معدلات المواليد ارتفاعها، فينمو عدد السكان بسرعة كبيرة، وفي المرحلة الثالثة - حيث تقل الرغبة في الإنجاب كما هو الحال الآن في بعض المجتمعات الأوروبية - يحدث نوع من التوازن التقريبي بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات، وتحقق المجتمعات استقراراً ملحوظاً في عدد سكانها.

إن مشكلة الكثير من الدول النامية الآن هي الوقوع في شرك المرحلة الثانية، مع عدم القدرة على الانتقال إلى المرحلة الثالثة، وذلك بتكرس تقسيم العالم إلى مجموعتين متضادتين من الدول، حيث تدفع معدلات النمو السكاني نصف العالم إلى مستقبل أفضل، والنصف الآخر نحو تدهور بيئي وانحطاط اقتصادي، وفي هذا النصف الثاني ربما تؤدي العلاقة المتدهورة بين السكان والأنظمة البيئية أو الحياتية المساندة إلى تخفيض مستويات المعيشة، وقد تمنعها من إتمام الانتقال الديموغرافي أبداً، بل قد تعود بها إلى المرحلة

وتعكس جزئياً فشل الزراعة في الريف، وتكرس الفروق للتزايد في مستويات المعيشة داخل المدن .

ويقترن التحضر بازدياد كبير في استهلاك الطاقة، وفي حين تمتد التجمعات الريفية على الموارد المحلية من الغذاء ولحاء والوقود، فإن المدن لا تستطيع إلا أن تستورد احتياجاتها هذه من خارجها. وفي المناطق الريفية يمكن استيعاب الفضلات محلياً، بينما تستهلك المدن طاقة كبيرة في جمع القمامة وتنقية ما تجلبه المجاري، وفي المحصلة يحتاج سكان المناطق الحضرية في العالم الثالث إلى طاقة أكبر مما يحتاجه سكان الريف للوصول إلى نفس مستوى المعيشة .

ويسبب النمو الحضري تستهلك مدن أفريقيا وآسيا نصف صادرات أمريكا الشمالية من الحبوب بعد أن كانت الثارتان في الماضي مصدرين للغذاء . ومع ذلك يمكن لتلك المدن توفير الكثير من احتياجاتها الغذائية من تنظوم استعمالات الأرض وإعادة استعمال الفضلات وتسويق المنتجات، كما حدث في شنغهاي وهونغ كونغ وغيرها .

إن إعادة تدوير ومعالجة المجاري في مزارع محيطية بالمدن في الدول الصناعية والثابتة على السواء يعزز الاكتفاء الذاتي في تلك المدن، وقد حدث هذا بالفعل في الصين وفي الكويت والمند وتايلاند وليتنام، لإنتاج المحاصيل والحضروات وتربية الأسماك بشكل واسع .

إن إعادة تدوير المواد المغذية إذا تمت من خلال استراتيجية صحية عامة وشاملة يمكن أن تساعد مدن العالم الثالث في تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، مع تخفيض التلوث البيئي في نفس الوقت .

ويتبين الآن بوضوح أن معالجة تلوث المياه وتلوث الهواء في المدن يحتاج إلى الجزء الأكبر من تمويل

وتثبت الدراسات وجود علاقة أكيدة بين الازدحام والعنف، لما يتسبب فيه الازدحام من إشاعة التوتر الذي تزداد به احتمالات السلوك الشاذ، وتتأثر من جرائه الفروقات الدينية والقبلية والإقليمية .

وفي حقيقة الأمر ليس أمام دول العالم الثالث المزدحمة إلا أن تنجح في وضع سياسات اقتصادية جيدة وبرامج لتنظيم الأسرة، لأن الفشل في ذلك سيؤدي بها لا محالة إلى المرحلة الأولى من التحول الديموغرافي . ويتنبأ لسترو . براون بأن إغراق الدول النامية في محاولتها لتخفيض معدل المواليد قد يؤدي بها إلى الانحلال عن طريق التدهور الاقتصادي الناتج عن تدهور الظروف الحية، أي كما حدث للحضارات القديمة عندما لم يكن بالإمكان تلبية حاجات السكان .



وفي الفصل الثالث : (تقييم مستقبل التحضر)
من تأليف لسترو . براون وجود جيكيسون ، وترجمة د . فوزي سهارنة ، يلين المؤلفان الاتجاه الديموغرافي للمهيم في أواخر القرن العشرين والممثل في سكني المدن (أو التحضر) .

فتسارع عملية التحضر في بلدان العالم الثالث، بما يتبع عنه من تركيز السلطة السياسية في المدن، قد أدى إلى سياسات تفضيل في الأسعار والخدمات في المناطق الحضرية على حساب المناطق الريفية .

وزيد معدل نمو المناطق الحضرية في العالم الثالث بما يساوي ثلاثة أضعاف معدل نمو مناطق الحضر في دول العالم الصناعي، مما يترك الإدارة المحلية في تضاماً من أجل توفير الخدمات الضرورية، كمشيكات المياه والصرف الصحي وغيرها .

إن التنمية الحضرية التي كانت تحدث في الماضي نتيجة النجاح الزراعي، تحدث الآن بشكل مختلف،

ومن جهة أخرى تكلف الإتحاد السوفيتي مبالغ كبيرة جداً للسيطرة على الآثار المباشرة للحادث، تقترح ما بين ٣ بلايين و٥ بلايين دولار، هذا غير خسائر البلدان الأخرى.

وبمع ذلك كانت الجهود المبذولة بعد الحادث للتقليل من الآثار الضارة بالصحة العامة في الإتحاد السوفيتي وفي شتى الدول الأوروبية دون المستوى المطلوب بكثير، مما هز ثقة الناس بالسلطات الحكومية، وثقة المجتمع بالتقنيات.

بينما جاءت ردود الفعل القوية من الشعوب نفسها، حيث عادت المظاهرات الضخمة المعادية للطاقة والنسلح النوويين تجوب أوروبا كلها، وامتدت المعارضة لتشمل كل الانجازات الأيدولوجية، بل شملت المعارضة بعض دول أوروبا الشرقية والإتحاد السوفيتي نفسه.

ومن جهة أخرى برزت الطاقة النووية كمصدر هام للثروة بين البلدان المتجاورة، ففي أوروبا - التي يوجد بها ٦٠ محطة نووية ضخمة على بعد يقل عن ١٠٠ كيلومتر من الحدود الدولية - ظهرت الخلافات بين الدنمارك والسويد، وفرنسا وألمانيا الغربية، وألمانيا والنمسا، والمملكة المتحدة وإيرلندا.

إن كثيراً من المقترحات المطروحة لحل هذه المنازعات تبدو مثيرة للجدل بسبب الحساسية المرتبطة بالسيادة القومية، ولكن لا بد أن يُلحظ في حال من اتفاقيات تنازع في الاعتبار الآثار التي قد تصيب الدول المجاورة من جراء إنشاء مشروع نووي.

ما يجري حالياً هو إعادة نظر بالفعل في الحلم النووي حتى أن التوقعات القوية والدولية للقذرة الإنتاجية النووية قد هبطت باستمرار خلال الخمس

الاستثمارات الضرورية للإبقاء عليها، إلى درجة أن اقتصاديات بقاء المدن تتغير الآن وتميل نحو المدن الأصغر.

إن النمو الحضري المكلف هو أحد نتائج التحيز القوي للمناطق الحضرية في مجال الخدمات والرعاية الاجتماعية، وبالتالي هجرة الريفيين لموطنهم لأسباب عديدة، متجهين إلى المدينة، فينخفض الفاقد الغذائي المنتج في الريف، ويزداد اعتماد سكان الحضر على الغذاء المستورد، وتضطر الحكومات إلى الاستدانة، وتعرض لضغوط البنك الدولي وصندوق النقد لإلغاء الدعم الغذائي الذي يفيد منه سكان المدن، ولتبنى سياسات تسعيرية زراعية تنشط إنتاج الغذاء المحلي، ولكن ما تحتاجه الدول النامية في الواقع للسيطرة على نمو مدن اليوم هو زيادة الاستثمارات في الريف، لتوفير فرص العمل فيه، ولرفع إنتاجيته.



وفي الفصل الرابع : (إعادة تقييم الطاقة النووية)

من تأليف غرستور فلانن، وترجمة د. عيسى شاهين، يستعرض المؤلف الآثار المباشرة وغير المباشرة لحادث انفجار مفاعل تشيرنوبل السوفيتي في ٢٦/٤/١٩٨٦م.

لقد قامت الريح ببثرة ما تتراوح كميته بين ٥٠ و١٠٠ مليون كيري من الإشعاعات الخطيرة طوال ستة أيام استمر خلالها اشتعال النار في المفاعل المنكوب، وتساقطت هذه الإشعاعات على مناطق تبعد أكثر من ٢٠٠٠ كم من المفاعل، وتشمل ٢٠ بلداً على الأقل.. ويتسبب الصلحاء بحدوث ما بين ١٥,٥٠٠ و١٣٥,٠٠٠ حالة سرطان إضافية، و٣٥,٠٠٠ وفاة إضافية، غير أن الكثيرين من علماء الطب في الولايات المتحدة وأوروبا يتباون بأن إصابات السرطان نتيجة الحادث متفوق كثيراً جميع التقديرات المتفق عليها.

طريق الاقتراض الخارجي بالفوائد العالية، ومع ذلك فإن توقعات الزيادة في استهلاك الكهرباء في المستقبل تضاعف من فائز مصاريف الكهرباء، وتؤكد أن أحد العوامل الرئيسية - إن لم يكن العامل الرئيسي فعلا - في تقاوم أزمة مديونية العالم الثالث سربح إلى الحاجة إلى استثمارات جديدة في مجال الطاقة الكهربائية لمجاراة معدل النمو المتزايد في طلب الكهرباء.

ولواجهة هذا الطلب أصبح من المحتم ادخال تغييرات أساسية على مستويات أخرى في إجراءات الصيانة، وزيادة الفاعلية، وإنقاص الفاقد في القدرة الكهربائية المنقولة.

إن رفع فاعلية الأجهزة الكهربائية بحيث تؤدي نفس الأغراض باستهلاك طاقة أقل هو أحد الأساليب الجديدة التي تستطيع الدول النامية الأخذ بها لمواجهة تزايد الطلب على الكهرباء فيها، إلى جانب وضع نظام تسعير للكهرباء يعكس الكلفة الحقيقية لها من أجل توفير الحافز اللازم لترشيد الاستهلاك، أي للاستخدام الفعال للكهرباء.

إن كهرية المناطق الريفية تشكل أحد الاهتمامات الرئيسية التي تشغل دول العالم الثالث حاليا، ولكن لسوء الحظ فإن العديد من برامج كهرية الريف ضعيف الإدارة أو خاطيء أو ضعيف التمويل. وغالبا ما يوجه للكهرية الريف كهمل بحد ذاته، أكثر منه وسيلة لتحقيق أهداف أهم. في حين أن الكهرباء لن تكون أبدا علاجاً سحرانيا لمشاكل الحياة في الريف.

إن الريفيين يستخدمون الكهرباء أساسا في الطبخ، والكهرباء آمن من أن تستخدم في ذلك، وفي البدائل المحلية كالأخشاب وبقايا المزروعات وروث الحيوانات كفاية لهذا الغرض، كما يمكن إنجاز عمليات ضخ

عشرة سنة الماضية، لأسباب متنوعة حسب ظروف كل بلد، كالتكاليف الباهظة، والمشاكل الفنية، وسوء الإدارة، والمعارضة السياسية.

إن الشيء المفرح حقا هو أن يمتلك العالم حوالي ٤٠٠ محطة نووية مع عدم وجود خطة مقننة واحدة لمعالجة الفضلات النووية الناتجة، في الوقت الذي يؤكد فيه الجيولوجيون أن تخزين الفضلات تحت الأرض قد يؤدي يوما إلى حدوث مشاكل صحية عامة وخطيرة.

ويشير معدل وقوع الحوادث النووية إلى احتمال وقوع ثلاث حوادث أخرى بحلول عام ٢٠٠٠، ولا ينظر إلى حادثة تشيرنوبل كحد أعلى للخسائر الممكن حدوثها من حادثة نووية، فهناك محطات نووية أصخم بكثير، ومن الممكن أن تكون الظروف الجوية غير مساعدة أكثر مما كانت عليه عند وقوع حادث تشيرنوبل، وهناك من البلدان ما لا تسمح له إمكانياته بالتعامل مع الحادث يمثل استطاع الإتحاد السوفيتي عمله.

ويخلص المؤلف إلى القول بأن التخلي عن الطاقة النووية لم يعد خيارا اقتصاديا فحسب، بل يظهر كأفضل طريق عملي يمكننا سلوكه.



وفي الفصل الخامس : (كهرية دول العالم الثالث)

من تأليف خريستوفر فلاخن، وترجمة د. عيسى شاهين، يعالج المؤلف مسألة كهرية العالم الثالث المثيرة للقلق، لشدة الحاجة التنموية إليها من جهة، ولتكلفتها الباهظة من جهة أخرى بالنسبة للموارد والقدرات المحلية.

وتصل مصاريف كهرية العالم الثالث حاليا إلى ما يقرب من ٥٠ بليون دولار سنويا، ويمول معظمها عن

بلاستيكية تحتوي على مركبات بتروليماوية على درجة كبيرة من النقاء، ولهذا كل هذا هو بمثابة تديد لمستقبلنا.

ويساهم النمو السكاني وارتفاع مستويات المعيشة وأنماط الاستهلاك المعاصرة في تركز فيض القيامة، حتى إن عددا متزايدا من المدن يعاني بشدة من ارتفاع حجم الفضلات، وعدم القدرة على استيعابها والتخلص منها لتقص الإمكانيات.

وتعتبر معالجة القيامة الصلبة عن طريق الطمر تحت الأرض أو الحرق أكثر الطرق شيوعا حتى الآن على مستوى العالم، وإن كان لكل من الطريقتين محاذيرها. فالطمر يزيد من احتمالات تلوث المياه الجوفية ويتطلب البحث الدائم للكلف عن أماكن جديدة بدل التي امتلأت، والحرق يتطلب تكلفة عالية لإنشاء المحارق وتسبب في تدهور نوعية الهواء بمنطقة المحرقة.

وبالرغم من مساعدة التقدم التكنولوجي في الاستفادة من حرق الفضلات الصلبة في الحصول على الطاقة البخارية أو الكهربائية، فإن الاعتراضات تتزايد على فكرة الحرق هذه، فإلى جانب المخوف التقليدي من تلوث الهواء تنور المخاوف من المشاكل الكامنة في احتراق قيامة تحتوي على مواد كلورينية (البلاستيك والورق الأبيض مثلا)، إذ تتجمع جزيئات هذه المواد بالاحتراق مكونة مجموعة من الفينولات والأكسيدات الشائبة التي تعتبر من أخطر المواد الكيميائية على الصحة العامة، وهذه المخاوف هي التي تجعل من التدوير الحل الأمثل من نواح عديدة، فإلى جانب الفوائد الاقتصادية ينطوي التوسع في تدوير القيامة على فوائد بيئية كبيرة، كخفض الطاقة، وخفض تلوث الهواء، وخفض تلوث المياه، إلى جانب خفض نفايات التعدين واستهلاك المياه.

المياه وطحن الحبوب، والعمليات الميكانيكية الأخرى بطاقة الفضلات العضوية أو الطاقة العضوية للإنسان والحيوان عوضا عن استخدام المحركات الكهربائية. وفي كل الأحوال يجب عدم إعطاء الكهرباء الأولية المطلقة. لأن كلفة الریف خارج إطار استراتيجية عامة للتنمية مآلها الفشل.

ومن المعضلات التي تواجهها كلفة الریف لإيصال الكهرباء إلى المناطق الوعرة والجبلية والمناطق النائية التي يصعب توصيل الشبكة القطرية إليها، مما يجب اتباع سياسة لا مركزية في كلفة هذه المناطق بالاعتدال على مصادر متجددة للطاقة لا تحتاج إلى وقود عضوي، كالمحطات المائية الصغيرة، أو المحطات للتمتع على مصادر نباتية كالخشب والفضلات الزراعية، أو استخدام قوة الريح أو أشعة الشمس المتوفرة على نطاق واسع في غالبية الدول النامية.



وفي الفصل السادس : (تحقيق إمكانية إعادة

استثمار الموارد وتدويرها) من تأليف سيشيا بولوك، وترجمة د. إلياس صليبا، نلاحظ التركيز على إثبات الفوائد المتعددة لتدوير المهملات (القيامة).

فاستخراج الألمنيوم من الفضلات بدل إنتاجه من البوكسيت يخفف من استهلاك الطاقة وتلوث الهواء بنسبة ٩٥٪، وأما إعادة تصنيع الورق المستعمل فلا تحفظ لنا الغابات الناعمة لحطب، بل وتقلل إلى حوالي $\frac{3}{4}$ كمية الطاقة الضرورية لإنتاج طن من الورق، كما تخفف كمية المياه المستعملة لإنتاج الورق بحوالي النصف.

إن جرد مكونات نفايات العالم يبين وجود فضلات معدنية أثمن من أفضل الخامات، وفضلات ورقية تعادل ملايين الهكتارات من الغابات، وفضلات

وفي الفصل السابع : (المحافظة على الزراعة في العالم) من تأليف لسترد . براون ، وترجمة د. فوزي سهاونة ، يحلر المؤلف من حالة القوضى التي تتسم بها الزراعة في العالم ، والتي يمكن التنبؤ عليها بالاطلاع على الأسباب الحاطة التي أدت الى حدوث فائض في حبوب الغذاء في اواسط الثمانينات ، وهي : زيادة الأرض المحروقة (الغابلة للانجراف) ، والدهم للقرط للإنتاج ، وانخفاض استهلاك الاقاليم الجالعة من الغذاء .

إن زيادة مساحة الأراضي الزروعة بالحبوب قد تسببت في العديد من المناطق في انجراف كميات من التربة أكبر من المتجدد منها ، حتى بدأت بلدان هامة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين باصدار تشريعات للعودة الى زراعة الأراضي الغابلة للانجراف بالأعشاب أو الأشجار بدلا من الحبوب . ومن ذلك فبن غير للتوقع زيادة منطقة المحاصيل في العالم حتى نهاية القرن الحالي على الأقل ، رغم توقعات الزيادة الكبيرة في سكان العالم .

من جهة أخرى أدت إضافة ملايين الهكتارات إلى المساحات المروية في العالم إلى استعمال عال لموارد المياه السطحية والجوفية ، ولا يمكن ضمان استمرار هذا التوسع ، حيث إن جفاف الآبار ، وانخفاض مستوى الماء في طبقات الأرض ، والمنافسة المتزايدة على الماء من مصادر غير زراعية كتوليد الكهرباء مثلا ، تشير جميعها إلى محدودية الزيادة في مياه الري في المستقبل ، ولذا فإن أرباح الزراعة المروية ستكون معتمدة على الفوائد الناتجة عن الاستعمال الأكثر كثافة للمياه بدلا من الموارد الجديدة .

ومن الأسباب الحاطة في إنتاج الحبوب . الزائد الاعتماد الكبير على السداد في زيادة الإنتاج ، حتى

إن تدوير الفضلات هو حل العكس مما يتصوره البعض أكثر جدوى من الناحية الاقتصادية من حرقها لتوليد الطاقة ، وذلك إذا تم حساب التوفير في الطاقة اللازمة لإنتاج المواد المدورة من خاماتها .

ويتوقف نجاح برامج التدوير على إشراك المستهلكين أنفسهم في العملية ، حيث يمكن لهم تصنيف المواد القابلة للتدوير ، وفرزها قبل جمعها ، والسباح للآخرين بالحصول منها على الأجزاء المفيدة لهم ، حل أن تقوم الحكومات بتشجيع جامعي النفايات والشركات التي تقوم بتدويرها والاستفادة منها ، ويمكن للحكومات تشجيع المواطنين على المشاركة بزيادة عدد مرات الجمع من المنازل ، وتشجيع الاتجاه إلى التدوير بفرض رسوم مناسبة على جمع النفايات والتخلص منها بالطرق الأخرى - كالطمر والحرق - بالعمل على خلق طلب مضمون على المنتجات المصنعة من مواد مدورة .

إن القوانين المشددة الهادفة إلى منع تلوث الهواء والماء تجعل التدوير أكثر قبولا ، كما يمكن فرض ضرائب على الحواري التي تستعمل مرة واحدة للحد من استعمالها ، أو منح إعفاءات للمنتجات التي تزيد نسبة مكوناتها المصنوعة من نفايات مدورة على ٥٠٪ .

إن فضلات النازل تصلح سaida لتحسين التربة ، وتصلح الصحف للتحول إلى مواد عازلة في مجال الإسكان ، كما تصلح إطارات السيارات في تعيد الطرق ، وهكذا بتنوع الاستخدامات يمكن خلق سوق للنفايات والمواد المدورة ، ويؤمن لنا ذلك فوائد كثيرة في عالم يعاني من نقص الأموال ومحدودية الموارد ، ويدفع عشرات الملايين من الدولارات سنويا للتخلص من نفايات سكانه .



وفي الفصل الثامن : (رفع الإنتاجية الزراعية) من تأليف إدوارد س. وولف، وترجمة د. فوزي سهاينة، يطلع المؤلف من تقدير كبير للتأثيرات الطيبة التي حققها استعمال أنواع محسنة من الحبوب ذات إنتاجية عالية، مع استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية والمعدات الزراعية، ولكنه يخلص إلى أن كل ذلك قد لا يكون كافياً لمسايرة الطلب المتزايد على الحبوب في المستقبل، ويرى أن إعادة اكتشاف طرق الزراعة التقليدية من الممكن أن تساهم بشكل أفضل في حل إشكالية الغذاء للأجيال القادمة.

إن إنتاج الحبوب في بعض المناطق المتقدمة زراعياً قد أصبح قريباً جداً من سقف الإنتاج الحوي لهذه الحبوب، فيبقى مفتاح الزيادة المستقبلية لإنتاج الغذاء في العالم بأيدي فلاحي دول العالم الثالث، أولئك الذين يبلغون حوالي ١,٤ بليون إنسان، والذين لا يعتمدون على استخدام أساليب الثورة الخضراء إلا عدم قدرتهم على تحمل تكاليفها.

إن الإفراط في استعمال السباد دون مراعاة الاستخدام الأكفأ له قد لا يكون نافعاً بالقدر الكافي، أو تقلل منفعته. كما لوحظ في عدة دول أوروبية - مما يكون متوقفاً من استخدامه.

أما دول العالم الثالث فتعيش مشكلة بديون خارجية كبيرة تجبرها على الحد من استيراد الأسمدة، مما يستدعي البحث عن بدائل أقل تكلفة مع الاستفادة من الأبحاث الزراعية حول استعمال الطرق الحيوية لزيادة الإنتاجية.

ويرى المؤلف أن استعمال التوزيعات المجمدة من الحبوب لا يقدم حلاً نهائياً لمشكلة الغذاء في العالم، بل يؤثر فقط وسيلة لكسب الوقت إلى أن يتمكن العالم من إعطاء معدل النمو السكاني، لأنه لا يمكن للمحاصيل أن تزيد إلى ما لا نهاية.

ووصل استعمال السباد إلى مستوى التشبع في كثير من البلدان الغربية، وبدأت فوائده استعمال السباد في التراجع، أما بلدان العالم الثالث فلا زالت تدعم استعمال السباد للوصول إلى اكتفاء ذاتي في الغذاء، ولتشجيع تبني تقنية جديدة، ولتنشيط عملية إنتاج المحاصيل للتصدير، ولكن التوسع في استعمال الأسمدة يعمل على زيادة حاجة الزراعة إلى الطاقة المكلفة، ويقلل من اعتمادها على الأيدي العاملة الرخيصة، ولا يشجع على استعمال الأسمدة العضوية المتوفرة محلياً.

لقد شهدت الزراعة اعتماداً متزايداً على الطاقة منذ بداية القرن، نتيجة التوسع في استخدام الوقود الحفري لإدارة مضخات الري وتشغيل الجرارات وصناعة الأسمدة، وغير ذلك من الاستخدامات، ولكن انخفاض إنتاج البترول، سيرغم علماء الزراعة في العالم على تصميم طرق لتخفيض استهلاك الطاقة في عالم يحاول زيادة إنتاج الغذاء من أجل تحقيق الأمن الغذائي.

ويعتبر الدين الخارجي المتزايد في العديد من دول العالم الثالث مصدراً من مصادر الخطر على الأمن الغذائي، فبينما يزداد النقص في الغذاء مستجد بعض الدول نفسها مضطرة لخفض السوردرات بسبب المديونية.

ويخلص المؤلف إلى التأكيد على ضرورة الملاحظة في تقدير الإنتاج الغذائي القابل للبقاء ألا يكون ارتفاع الإنتاج في وقت ما على حساب استنفاد قاحلة الموارد التي يعتمد عليها الإنتاج في المستقبل، وبالتالي لا بد من استبعاد الغذاء المنتج على أراض قابلة للانجراف مثلاً، واستبعاد أية أراض مروية بمياه جوفية تزيد كميتها على كمية المياه الواردة إلى البحر.

وقت مناسب ، وخصوصاً النتائج المعقدة التي لا يمكن الرجوع فيها .

لقد أثبتت القياسات ارتفاع نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو بشكل مستمر، ويتوقع العلماء وصول نسبة الكربون في الجو إلى ضعف مستواها قبل المرحلة الصناعية حوالي منتصف القرن القادم ، وسترتفع درجة حرارة الجو بسبب ذلك ما بين ١,٥ و ٤,٥ درجة مئوية ، متسببة في ارتفاع مستوى المياه في البحار والمحيطات بحوالي المتر .

وإلى جانب الكربون يتلوث الهواء الجوي نتيجة النشاطات العصرية بملوثات الكبريت والرواصص والزئبق والكاديوم والنحاس والزنك إلى درجة أثبت ضررها على العنبد من الكائنات الحية وعلى صحة البشر .

كما تعمل مجموعة الملوثات من الكلوروفلوروكربون على تدمير طبقة الأوزون الحامية للحياة في طبقات الجو العليا .

وتؤثر كثافة جو الأرض بفعل زيادة ثاني أكسيد الكربون تأثيراً كبيراً على الأمن الغذائي ، إذ تعمل على خفض رطوبة التربة في بعض المناطق التي تضم أماكن إنتاج الحبوب الرئيسية في العالم كالتي في أمريكا الشمالية والإتحاد السوفيتي .

كما تواجه الأراضي الزراعية المنخفضة - حيث يزرع معظم أرز العالم - خطر الغرق نتيجة ارتفاع مستوى مياه البحار، ومنها مناطق مكتظة بالسكان في أقاليم دالات الأنهار الآسيوية الخصبة .

وتشكل التهديدات المتزايدة من التغيرات في كيمياء الجو على الغابات مشكلة أخرى مكلفة في العقود القليلة القادمة، وقد ظهر أن نتيجة الضغوط الكيميائية على الغابات الأوروبية كانت أكثر سوءاً من كل

إن توفير أنواع من المحاصيل وتكنولوجيا جديدة للمزارعين في البلاد النامية هو أمر ضروري في السنوات المقبلة، ولكن يجب أن يتم ذلك مع تجنب الثمن الاجتماعي والبيئي المصاحب للجبل الأخضر من التكنولوجيا الزراعية .

ودعو المؤلف إلى إعادة اكتشاف الزراعة التقليدية التي ساعدت المزارعين في المحافظة على خصوبة الأرض لقرون عديدة، كما يدعو إلى الاهتمام بالتقنيات الحيوية الزراعية الحديثة التي تمكن العلماء من التلاعب بجينات النباتات والميكروبات والحيوانات، ومن توفير طرق لتعديل الصفات الوراثية من جيل إلى آخر، غير أن تكاليف هذه التقنيات تعتبر حتى الآن فوق طاقة الكثير من بلدان العالم الثالث، كما أن تزايد تدخل القطاع الخاص في الأبحاث يجعل مخاطر احتكار علمي، ومنافسة شديدة، خصوصاً في مجال تحسينات محاصيل رئيسية كالقمح والذرة، حيث يسهل الاتجار بها على نطاق واسع .



وفي الفصل التاسع : (استقرار الدورات الكيماوية) من تأليف ساندرا بوستل ، وترجمة د . فوزي سهارنة ، يلاحظ الاهتمام الكبير بالكشف عن مخاطر تعطيل الدورات الكيماوية نتيجة السلوك اليومي لإنسان العصر ، الذي وصل إلى درجة كافية لتقويض الأنظمة الطبيعية التي تطورت على مر ملايين السنين .

تقلص الأمن الغذائي نتيجة التغير المناخي ، وموت الغابات نتيجة تلوث الهواء بالأمطار الحمضية، والأخطار الصحية الناتجة عن التعرض للملوثات الكيماوية في الطبيعة، هي أخطار يحيط بها جميعاً الكثير من الغموض العلمي ، حتى أن المشكلة المثارة الآن هي مشكلة تغيرات لا يمكن استباق حدوثها في

سيكون ؟ لأن الاقتصاد القادر على الثبات هو الذي يتم مع حفظ المولود التي لا يمكن استبدالها .

ويرى شاندلر أن أمثل تقسيم للأمم إنما يأتي من مقارنة درجة اعتماد اقتصادها على السوق، والطريقة التي تتبعها في استعمال الموارد، وإذا كانت معظم دول العالم الثالث قد اختارت بعد الاستقلال نمط الرقابة المركزية على الإقتصاد أكثر من تبني اقتصاد الاعتماد على السوق فإنه من الواضح أن العالم يمر الآن بنقطة تحول في الإدارة الاقتصادية، ويبرز مثال على ذلك التحول الصيني للقاضي، نحو آليات السوق، ليس فقط لأن عدداً هائلاً من الناس تأثر من جراء ذلك، ولكن أيضاً بسبب النجاحات الأولى التي حظي بها الإصلاح المثير .

إن إنتاجية الأرض مع إنتاجية الأيدي العاملة هما معياران هامان في الأداء والتنفيذ، ويكشفان دائماً عن مزايها أنظمة التعامل مع السوق والاعتماد عليه . كما أن ترتيب الأمم وفق إنتاجية العمالة الزراعية يظهر ميزة فعالة لاقتصاديات السوق، حتى إن استمرار تدني الإنتاجية للملاحظ في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية يجعل من العسر على هذه البلدان أن تكون قادرة على الثبات اقتصادياً .

كما أن عدم كفاية الطاقة (بمعنى الاستعمال غير الكفئ لها) يساهم في إضعاف قدرة المجتمع على التبت، وهو ما يلاحظ في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، حيث تبين الإحصاءات أنها سيجتاجان إلى ضعف كمية الطاقة للفرد الواحد كالتوفرة في الدول الغربية للوصول إلى مستوياتها نفسها في الحياة ومستوى الخدمات .

ويرى المؤلف أن الحكومة عندما تسيطر على الإنتاج الصناعي بشكل مباشر، تكون الكفاءة منخفضة، قبل

التوقعات ولم يستطع العلماء مطلقاً التنبؤ بحجم التلف الذي أصاب الأشجار .

وتمثل التغيرات في التربة أصعب المشاكل، لأنه لا يمكن عكسها في المستقبل القريب، ويصفه علماء يحدث المزيد من الدمار كلما زاد تراكم الضغوط الكيماوية على مر الزمن، وفي النهاية يمكن أن تصل الأنظمة الطبيعية إلى نقطة حرجية من الضغط لن تكون قادرة على تحملها بعد ذلك .

وكما هو الحال بالنسبة للأشجار تعمل الملوثات على تهديد صحة الإنسان وتقصير حياته، حتى إن مكتب التقييم التقني قدر أن خلطة الكبريت الحالية للمواد الأخرى في الهواء قد تسبب ٥٠ ألف حالة وفاة في الولايات المتحدة سنوياً .

هذا غير ترسيبات المعادن الضارة بالجسم البشري، والتي يمكن أن تفصل عن طريق الأغذية كالأسماك والمحطرات المعرضة للتلوث، ويتحقق الضرر بزيادة تركزها في الجسم بمرور الوقت .

ولذا تبرز الحاجة الملحة إلى وضع استراتيجية لتقليل أضرار الكيماويات على بيئة وصحة الإنسان، مع ملاحظة أن الإجراءات المطلوبة فوراً تحتاج إلى تعاون دولي حقيقي، لإنقاذ مستقبل الأرض . ويستطيع العديد من المعاهد أو المؤسسات المساعدة في بناء هذا التعاون اللازم، مثل برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة، واللجنة الاقتصادية لأوروبا التابعة للأمم المتحدة أيضاً، والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، ومنظمة الأرصاد العالمية، وغيرها .



وفي الفصل العاشر : (التخطيط لاقتصاديات قادرة على الثبات) من تأليف وليم يو . شاندلر وترجمة د . عبدالرحمن شاهين ، يذكر المؤلف بالأجيال القادمة عند الإجابة عن السؤال : كيف ينتج الشيء ؟ ولأن

إن التحدي العلمي يثبت لنا أن الأرض لا زالت بعد كل هذا التقدم محاطة بجهل يستغرق تبديله وقتاً طويلاً ، ويحتاج إلى مجهود فكري كبير . والحقيقة أن البحث العلمي لا يزال يعاني من قيود الالتزام الصارم بالتخصص ، والتجزئة الجغرافية ، وعدم الالتزام ببرامج بعيدة المدى ، في حين يمضي العالم في سباق مفروض عليه يحتم العمل على ثلاث جبهات عريضة على الأقل : الالتزام الدولي لإنهاء التحول الديموغرافي ، والحد من انبعاث الكربون ، والقيام بثورة ثانية في مجال الطاقة . ويرى المؤلفان أن هذه الجبهات الثلاث توفر مقياساً يقاس به مدى التقدم العالمي نحو حياة مستقرة .

إن إنهاء التحول الديموغرافي في العديد من بلدان العالم الثالث أصبح شرطاً لنجاحها من الانهيار البيئي ، والتدهور الاقتصادي ، وبالتالي التفكير الاجتماعي .

أما مسؤولية إعادة التوازن لدورة الكربون في الطبيعة ، فيوزعها الكاتبان على البلدان الصناعية والنامية على السواء ، لأنهما معاً كانتا مسؤولتين عن اختلالها ، حيث تطلق البلدان الصناعية خمسة بلايين طن من ثاني أكسيد الكربون إلى الجو من حرق الوقود ، كما أن إزالة الغابات وإحراقها في الدول الاستوائية النامية يطلق ما بين ٦ ، ١٠ إلى ٢٠ ، ٢٠ بليون طن .

وأولى الخطوات في سبيل تخفيض الكربون المنبعث إلى الجو هي العمل على تخفيض استهلاك الوقود الحفري ، بالإضافة إلى إمكانية زيادة فعالية الطاقة في الاقتصاد العالمي ، واستعمال مصادر الطاقة المتجددة حيثما أمكن ذلك ، إلى جانب الحد من انحسار الغابات والعمل على زراعة الأشجار بشكل واسع لموازنة الضغط الناتج عن إزالة الأحراج .

إن الاستقرار في انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون من الوقود منذ عام ١٩٧٩م بسبب ارتفاع أسعاره هو في

أن يستدرك قاتلاً إن الأسواق وحدها لا تستطيع أن تحفظ الأمم داخل حدود تنمية قادرة على الثبات ، أو أن تحل مشاكل الظلم التي تلحق بالإنسان وتقوم بسد حاجاته .

إن الوضع على مستوى العالم يشير إلى توقف الاتجاه نحو رقابة حكومية أكبر على الاقتصاد ، والعديد من الأمم قررت ترك النشاطات الاقتصادية الداخلية تحت تصرف آليات السوق ، وبدأت تجني ثمار هذا التحول ، كما هو واضح في الصين وهنغاريا وزمبابوي ، أما الأمم التي لم تتحول ، مثل البرازيل والمكسيك ومصر ، فهي متجهة نحو التناهب .

ويعتقد المؤلف أن الإنتاجية الزراعية قد تدهورت في كل بلد تتبع سياسة التخطيط المركزي على مدار العشرين سنة الماضية ، في حين أنها تستمر في الازدياد في البلدان المعتمدة على السوق ، حيث يتمتع سكان هذه البلدان بمتوسط عمر أعلى مع معدل وفيات أقل في الأطفال ، وهي مؤشرات تدل عموماً على رفاهية أعظم .

ولكن على الرغم من مزاي الاقتصاد المعتمد على السوق فلا سبيل إلى إنكار ضرورة تدخل الحكومات على مستوى اقتصادي كلي من أجل حفظ توازن النظام الاقتصادية ورقابة التكاليف الخارجية .



وفي الفصل الأخير : (رسم مسار قابل للبقاء) من تأليف ليستر د . براون ولودار س . وولف وترجمة د . سمير سايدي ، يقرر المؤلفان أنه لم يعد ممكناً ترك رجال الاقتصاد وحدهم للقيام بمهمة رسم مسار التنمية ، فالاعتبارات الاقتصادية البحتة ، التي لا تأخذ في الاعتبار خطورة الضغوط المتزايدة على أنظمة الدّم الطبيعية ، تؤكد أن تدفع بمستقبل الحياة فوق كوكب الأرض إلى الهاوية .

حتى بدا السيلق الى حد كبير وكأنه مؤلف واحد، وهو ما يعني نجاح المؤلفين في التنسيق فيما بينهم أثناء الكتابة والمترجمين أثناء الترجمة.

وتمتاز الترجمة العربية التي نحن بصدها بأسلوب شيق مناسب، يزيد من تشويق الكم الهائل من المعلومات المتدفقة عبر الصفحات.

والكتاب مزود إلى جانب ذلك بالكثير من الأشكال والجداول التوضيحية، والإبراجاعات البيولوجرافية والفهرس التفصيلية، ويبدو جلجا حرص مؤلفيه على مخاطبة المثقف العادي والمتخصص على السواء، وإثارة الاهتمام لدى الجميع بالقضايا المطروحة.

أما من حيث الموضوع فيكسب أهميته من طبيعة القضايا التي يثيرها الكتاب، وتعلفها بمستقبل الحياة فوق كوكب الأرض، والمقترحات المطروحة لتدعيم قدرتنا وقدره أصفادنا على البقاء.

ولقد التزم المؤلفون بحرص شديد على إثارة قلقنا حول المستقبل من جراء الممارسات البيوية التي تيلو عادية للكثيرين منا، ويبلغ بهم هذا الحرص مداه، لسانت في الكتاب نزعة من التشاؤم العام بخصوص معظم المسائل المثارة، إبتداء من مشاكل الطاقة، إلى مشاكل النمو السكاني، إلى مخاطر التغير المناخي. . . وغيرها، غير أن الصواب في رأينا هو عدم الإلءاء بأحكام قاطعة على هذا النحو فيما يتعلق بالمستقبل.

إن العقل البشري لازال قادرا على صنع المفاجآت، وليس من الحكمة مصادرة المستقبل أمامه، بقطع الطريق على ما يمكن أن يقدمه من اكتشافات وانتكارات لمواجهة تحديات البقاء في القرون القادمة. ومن المعروف تاريخيا أن شغلنا علمية في أواخر القرن الماضي كانت تؤكد استحالة انتقال الصوت عبر

نظر المؤلفين ثورة طاقة أولى. ويطلبان ثورة ثانية للعمل على تخفيض انبعاث ذلك الغاز، وليس فقط استقراره، من أجل دره مخاطر التغير المناخي وتقليل نسبة التسمم، والإقلال من تكاليف التكيف مع المتغيرات.

إن الالتزام بإعادة التوازن للدورة الكربون يستوجب مشاركة جميع البلدان نظرا للمسؤولية المشتركة في الإخلال بتلك الدورة، وأيضا لأن الآثار الناتجة عن ذلك لن تفرق بين دولة وأخرى.

ولكن السؤال المهم الذي يثار مرة بعد مرة هو عن كيفية توزيع المسؤولية تجاه المشاكل العالمية على المجتمع الدولي. ويجب المؤلفان بأن عددا محلوينا من الدول هي التي تحمل مفتاح النجاح في هذا المجال أو ذلك، ويجوز تسميتها (بمراكز القرار).

لغني مجال النمو السكاني تعتبر الصين والهند مركزين للقرار في آسيا، ونيجيريا ومصر في أفريقيا.

وفيما يتعلق بإعادة التوازن للدورة الكربون بالحد من إحراق الوقود فإن القرار هو في يد مجموعة قليلة من البلدان على رأسها الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي والصين.

وفي وقف انحسار الغابات تكون البرازيل وإندونيسيا وزائير مراكز للقرار المطلوب.



تقديم الكتاب :

إن اشتراك سبعة من المؤلفين في تأليف هذا الكتاب، ثم خمسة من المترجمين في ترجمته، كان كفيلا بالقضاء على تجانس فصوله وإفكاره، غير أن الغاريه لا يشعر بانتقالات عنيفة في مطالعته إياه،

ضاغطا على الاقتصاد والبيئة، متجاهلا الآراء الأخرى التي ترى أن الثروة البشرية هي طاقة يصعب حسابها من الموارد إذا أمكن إتاحة السبل للإنسان كي يتيج أكثر مما يستهلك

ذلك أن الأصل هو كون الإنسان عنصرا أساسيا من عناصر التنمية، لا تقوم إلا به، ولا يجب أن تكون إلا من أجله. أما الوضع الطارئ الذي يصبح فيه الإنسان معوقا للتنمية فللمفروض أنه وضع شاذ لا يحدث إلا في ظروف سقيمة على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي .

ولا ننفي بذلك أن الزيادة السكانية يمكن أن تشكل عبئا ثقيلا على مسيرة التنمية في بعض المجتمعات، وفي مراحل معينة من مراحل تطورها مما يوجب على الحكومات التعامل معها بالقدر اللازم للحفاظ على ثمار الجهود التنموية ورفع مستوى معيشة السكان. ولكن تعميم هذه الصورة بحيث لا تكون الزيادة السكانية إلا عائقا للتقدم، وبشكل مطلق، لا يعبر في رأينا عن التزام دقيق بمنهج علمي في تناول المشكلة .

أما القضية التي يثيرها الكتاب حول المسؤولية المشتركة للبلدان الصناعية والتنمية في تلويث البيئة فقد سبق إنلونها على نطاق واسع، ويجب عدم المساواة المطلقة في تحميل هذه المسؤولية بين الدول الغنية والدول الفقيرة، فأولا حجم المسؤولية نفسه مختلف، إذ أن مساهمة قطع غابات العالم النامي في انبعاث الكربون هي تقريبا نصف مساهمة حرق الوقود في العالم الصناعي، إلى جانب أن الدول الصناعية تملك من الامكانيات المادية والعلمية ما تستطيع به القيام بدور أكبر، في حين أن الدول النامية لديها أولويات أخطر بكثير في سعيها لتطوير مجتمعاتها ورفع مستوى

الأسلاك، واستحالة تشغيل مصباح كهربائي، وأعلن عالم فيزياء بريطاني سنة ١٨٩٧م أنه لا مستقبل للراييو. وفي العام الأخير من القرن الماضي (١٨٩٩م) طلب تشارلي هـ. دويل مقوض مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة من الرئيس ماكينلي إلغاء مكتبه لأن كل ما يمكن اختراعه قد اخترع، ومنذ الإذلاء بهذا القول تم ابتداء ما يزيد على ٤ ملايين براءة اختراع في الولايات المتحدة وحدها حسبما ذكر ريتشارد نيكسون في كتابه الأخير (١٩٩٩ - نصر بلا حرب) .

كما أن توقعات توماس مالتس للشائمة حول زيادة السكان في القرن العشرين بمعدل أكبر من الزيادة في الغذاء قد ثبت عدم صحتها حتى الآن.

الحقيقة أن هذه الخلفية التاريخية بمعضدها الآن كونا على عتبات عالم جديد تلعب فيه الإلكترونيات دورا متزايدا الفاعلية، وتبشرنا بإمكانات الجيل الخامس للحاسبات الإلكترونية بما هو فوق الخيال، إلى جانب الأبحاث الثمرة في مجال زراعة المحيطات والبحار بالنباتات والطحالب الغذائية، وانفتاح أبواب الأمل في مستقبل التقنيات الحيوية الجليلة، إلى آخر ما يمكن أن تكون به الأجيال المقبلة - ريبا - أسعد حظا من الجيل الحالي.

إن أسباب التفاؤل هذه قد لا ترسم لنا حدود الأمان بالنسبة للمستقبل، في ظل مشاكلنا الحالية وسلوكنا مع نظم الأرض الطبيعية، ولكنها مع ذلك كافية لموازنة تحفظنا على الشائعات المفرط الذي لاحظناه في الكتاب، وعلى إصدار أحكام قطعية بالنسبة للمستقبل، دون أن نقصد. بذلك مواجهة المشاكل التي أثارها بشيء من اللامبالاة وعدم الاهتمام .

وبخصوص مشكلة النمو السكاني يقدم الكتاب وجهة نظر واحدة لا يرى تزايد السكان بها إلا عبئا

الشاك. والمعروف أن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي يضغطان باستمرار على تلك الحكومات لإلغاء الدعم دون النظر إلى مجمل النظريات الاجتماعية والاحتلالات السياسية في البلاد، وفي المرات التي حاولت الحكومات فيها الاستجابة لضغوط صندوق النقد الدولي تفجرت الفلاقل السياسية والاضطرابات الاجتماعية، وانسلخت المظاهرات وأعمال العنف الشعبية، كما حدث في مصر (يناير ١٩٧٧م)، وفي تونس (يناير ١٩٧٨م)، وفي الدار البيضاء ومدن المغرب عموماً (في صيف ١٩٨١م)، وفي تركيا (١٩٧٩م)، وفي السودان (١٩٨٥م)، وفي برون (١٩٧٨م)، وفي بنسما (١٩٨٥م)، والأرجنتين (١٩٨٥م)، وشيلي (١٩٨٥م)، وجمهورية السودان (أبريل ١٩٨٤م وفبراير ١٩٨٥م) واشتهرت هذه الاضطرابات باسم (اضطرابات صندوق النقد الدولي) .

إن فكر المؤسسات المالية الدولية هو فكر محاسبي لا شأن له بالأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلد المدين، أي لا شأن له بحقوق الإنسان في توفير حاجياته الأساسية أو عدم توفرها، ولكن كتاب (أوضاع العالم ١٩٨٧م) يهتم بالإنسان، جيله الحاضر وأجياله المقبلة، والأجدد بمؤلفيه أن يحاولوا اقتراح إجراءات وسياسات تمين على تخطي الأزمة أو تخفف منها بعيداً عن آراء تلك المؤسسات الدولية، على أساس أن الحل ليس في مجرد إلغاء الدعم، بل في علاج الحلال ما بين هيكل الأجور والأسعار والإنتاجية، ولا يصلح معالجة مشكلة الدعم على حساب تفاقم المشكلات الأخرى .

ويتأثير الفكر المحاسبي نرى في موضع آخر شبهة تنكّر لحقوق الإنسان الرفيعة في المجتمعات النامية، حيث يستنكر المؤلف عليه التمتع بمزايا دخول

معيشة مواطنيها، وهي بالكاد قد بدأت في تصنيع نفسها. ولقد أبرزت المناقشات الدولية حول ضرورة الحفاظ على البيئة ضرورة توسيع مفهوم البيئة، ليشمل البيئة الاجتماعية إلى جانب البيئة الطبيعية، ومنذ عام ١٩٧٢م رفع شعار (الفقر هو أكبر ملوث للبيئة) .

وفي المرات التي تطرق فيها المؤلفون إلى مشكلة مديونية العالم الثالث تم إسناد هذه المديونية الثقيلة إلى سوء الإدارة في البلدان النامية وقلة الموارد وميراث التخلف، أي أسندت المسؤولية إلى البلدان المدينة نفسها، مع إغفال مسؤولية الدول الغنية التي نهبت لقرون ثروات البلدان النامية وهنمتها من تراكم رأسهاها الإلزام لانطلاق نهضتها الصناعية، وإغفال الظلم الذي تكرسه القوانين الاقتصادية الحاكمة لملاقات التبادل التجاري الدولي، حيث تحدد الدول الصناعية الغنية من طرف واحد أسعار المنتجات الأولية التي تستوردها من بلدان العالم الثالث، وتحدد من طرف واحد أيضاً أسعار منتجاتها الصناعية التي تستوردها تلك البلدان، وما بين الأسعار هنا وهناك من فارق متزايد لا يمكن تسميته بغر النهب الحقيقي الحديث لبلدان العالم الثالث، وفي النهاية بإغفال الدور الذي لعبته بنوك تلك الدول الغنية حين ألحت على بلدان العالم الثالث في فترة من الفترات لتقترض، وتزيد من الاقتراض بما يشبه الغواية، حتى أوقعتها في مصيدة الديون بما لا تستطيع معه فكها، لتتواصل عمليات النهب عن طريق الفوائد المركبة والاقساط إلى الحد الذي تتدفق فيه الأموال في اتجاه عكسي من البلدان الفقيرة إلى البلدان الغنية .

وفي المواضيع التي تناول فيها المؤلفون قضية الدعم الذي تقدمه بعض الحكومات إلى مواطنيها من خلال أسعار منخفضة للسلع الأساسية، نلاحظ تبني المؤلفين لوجهات نظر المؤسسات المالية الدولية في هذا الموضوع

ذلك على انجراف التربة وعلى زيادة ثاني أكسيد الكربون في الجو . والحل الأمثل في رأينا ليس في منع الفلاح من استخدام الكهرباء، ولكن بتوفير الكهرباء من مصادر محلية متجددة كاللآه والرياح وأشعة الشمس .

وفي تقييمنا للكتاب نود أخيراً الإشارة إلى بعض مواضعه التي بدت - على غير الحقيقة - كما لو كانت جزءاً من دعاية سياسية ، خصوصاً في الفصل العاشر الذي كتبه ولیم یو . شاندرل معلقاً مزايا الاقتصاد المعتمد على السوق ، مستخدماً عبارات جازمة كان من الممكن معالجة الفكرة فيها دون الوقوع في شبهة التحيز ، خصوصاً وأن الإتجاه نحو اقتصاديات السوق وتدعيم القطاع الخاص الذي أصبح ظاهرة عالمية لا يعبر عن انتباهات أبديولوجية بقدر ما يعبر في الأساس عن الأهل بدووس التجربة والاستجابة لتطلباتها .

الكهرباء، كان حق التمتع بهذه الزايا حكر على أهل المدن، ولقد عبر بعض الكتاب الآخرين في مرات عديدة عن أسفهم لتعود الفلاح على السهر أمام التليفزيون منذ دخول الكهرباء إلى القرية، وأنه يستهلك الكهرباء ليصبح متأخرًا، ولتقل إنتاجيته، كان السهر أمام التليفزيون لا يجوز إلا للمتخضرين من سكان المدن، أو أن التليفزيون ليس في الحقيقة إلا إحدى وسائل التثقيف الذي هو حق للفلاح ، وواجب على الدولة، وذو دور في نجاح التنمية ورفع مستوى للميشة وراث التوعية الصحية والاجتماعية المقيدة .

إن أحد مؤلفي الكتاب ينصح الفلاح باستخدام الحشاشات المحلية من الأخشاب وروث البهائم والمخلفات الأخرى في الطبخ لأن الكهرباء أئمن من أن يطبخ بها ، دون أن يلتفت إلى التحذيرات الأخرى من خطورة التوسع في حرق الأخشاب وخلافها، ومن أثر

أولاً : موضوع بحث الكتاب :

تمثل ظاهرة الثقافة العربية الإسلامية العالة منذ عصر التنوير حتى عهد ابن خلدون موضوع الكتاب الثاني في سلسلة نقد العقل العربي الذي أصبح محور اهتمام الفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري . وتشمل كلمة العالة هنا التراث الثقافي المغربي المكتوب والذي أنتجته شخصيات ومذاهب ومدارس فكرية عربية إسلامية ذات مكانة مرموقة في عالم المعرفة . ومن ثمّ « فنية العقل العربي » ليس بكتاب وتحليل ونقد لعقل سواد الشعب للأمة العربية الإسلامية ، وإنما هو نقد وتحليل لآليات العقل العربي المتخلف حتى عصر ابن خلدون . فالكتاب بهذا الاعتبار يمكن وصفه بأنه بحث متعمق يتسب إلى عالم الاجتماع الثقافي بالمعنى المعاصر لهذا المصطلح . وهكذا فهو يختلف حل عدة مستويات عن بعض الكتب الأجنبية التي اهتمت بدراسة العقل العربي The Arab mind في الحفريات الأخيرة .

ثانياً : الأنظمة المعرفية للثقافة العربية الإسلامية العالة :

كما لا شك فيه أن مؤلفات الثقافة العربية الإسلامية العالة تمثل تراثاً معرفياً ضخماً . وإن مشروع الجابري يمثل في الحقيقة خطوة جادة لعلمنة هذا التراث المغربي وجعلنا نفترّب أكثر من فهم مُنظم لظاهرة الثقافة العربية الإسلامية العالية .

فيعرض وتحليلاته وتعليقاته الضافية على أمهات كُتب وأطروحات هذه الثقافة بين عصر التنوير وعهد صاحب القلمة توصل المؤلف إلى تحديد ثلاثة أبعاد من

بنية العقل العربي نقد العقل العربي^(١)

تأليف : محمد عابد الجابري
عرض وتحليل : محمود الذواوي^(٢)

(١) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) أساطير الاجتماع بجامعة لوزيان ، الجزائر ، ٢٠٠٤ .

ثالثاً : أمثلة لطبيعة العقل البياني :

إن واحدة من الأطروحات الرئيسية التي شغلت بال العقل البياني هي بالتأكيد - في نظر المؤلف - إشكالية اللفظ والمعنى . فسيبويه ، عالم النحو العربي المعروف ، يُشير بوضوح إلى وجود هذه الاشكالية في اللغة العربية الفصحى . فيلاحظ سيبويه أن المتكلم باللسان - العربي الفصيح لا يمكن أن يُعبر بهذا الأخير بطريقة صحيحة إلا إذا أعطي الاهتمام اللازم للمعنى . أي أن المتحدث بلغة الضاد القصصية ينبغي عليه أن يفكر وهو يتكلم أو يتكلم وهو يفكر فمناطق المعاني متداخل حتماً مع اللفظ اللغوي عند سيبويه (ص ٤٨) .

ويسوق الدكتور الجابري هذا الصدد المناظرة الشهيرة التي جرت في بغداد بين المنطقي أبي بشر مكي بن يونس من ناحية وأبي سعيد السيرافي النعوي المعتزلي من ناحية ثانية. والمسألة المطروحة هنا هي في رأي الكاتب مسألة منطقية بحثة ورغم ذلك فإن أبا سعيد السيرافي لجأ إلى منطق النحو في القضية المطروحة بين المتناظرين . فالنحاة على العموم طالما ربطوا بين منطق اللغة ومنطق العقل في تفكيرهم وأبحاثهم . وهكذا تتبين إشكالية اللفظ والمعنى عند العقل كما يراها مؤلف الكتاب .

أما علماء أصول الفقه فإن النص القرآني أو الحديثي يبين عندهم على استعمال واستيعاب العقل . إن الدلالة والاستدلال عندهم عمليتان مترابطتان : أي أن تصرف العقل في معنى اللفظ محدود إلى حد كبير . وبعبارة أخرى فإن صاحب الكتاب لا يتردد في القول بأن وظيفة العقل عند علماء أصول الفقه وظيفة ثانوية بالنسبة لمداول النص . (فالاجتهاد هو إذن عبارة عن استعمار للنص . وإن المقول هو أيضاً مقول النص) (ص ٥٣) .

الأنظمة المعرفية التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية المائلة ، وهي النظام البياني (البيان) والنظام المعرفي (العرفان) والنظام البرهاني (البرهان) .

فينسب إلى النظام المعرفي البياني كل من اللغويين والنحاة وعلماء البلاغة وأصول الفقه والكلام . ويستند هذا النظام المعرفي أساساً إلى النص (القرآن والحديث) والإجماع والاجتهاد كسلطات مرجعية في تشييده لتصوره للعالم ومن ثم خدمة العقيدة الإسلامية وبالأحرى فهمها (ص) (٣٨٤) .

أما العرفان فهو في نظر الكاتب (جملة التيارات الدينية التي يجمعها كونها تعتبر أن المعرفة الحقيقية بالله وأصول الدين هي تلك التي تقوم على تعميق الحياة الروحية واعتماد الحكمة في السلوك ، مما يمنح القدرة على استعمال القوى التي هي من ميدان الإرادة فالعرفان يقوم على تجنيد الإرادة بديلاً عن العقل) ص (٢٥٣)

وأخيراً فإن النظام البرهاني يرى أن اكتساب المعرفة بالكون ككل أو كاجزاء لا يتم إلا بواسطة قوى الانسان الطبيعية من حس وتجربة وحكمة عقلية (ص ٣٨٤) . ويؤكد الدكتور الجابري أن لأرسطو دوراً كبيراً في نشر منهج النظام البرهاني في تراث الثقافة العربية الإسلامية المائلة .

وهكذا يتضح أن عقل هذه الثقافة ليس بالعقل التجانس ، وإنما يتفرع في الحقيقة إلى ثلاثة عقول كما رأينا . ونتجت عن ذلك مصاصمات غير هينة بين هذه الأنظمة المعرفية كان أخطرها في رأي صاحب الكتاب تراجع العقل البرهاني أمام العقل البياني الذي عرفه العالم العربي الاسلامي منذ عهد الانحطاط حتى العصر الحديث .

لذلك . إن هذه النظرية مزدوجة الطبيعة : نظام الخطاب ونظام العقل . لكن علاقة هذين الأخيرين الواحد بالآخر تضامني علاقة اللفظ بالمعنى ، إذ أن النظم هي تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل .

وباختصار ، فإن تكوين العقل البياني يركز اهتمامه أساساً على نظام الخطاب وليس على نظام العقل . وذلك يعني أن البياني لا يعتمد على نظام السببية كما هو الأمر في نظام العقل . ومن نتائج طبيعة العقل البياني ، كما يُشير صاحب الكتاب ، على ظاهرة الاهتمام من جهة ، بتجنب التنازع بين الكلمات في الثقافة العربية الإسلامية العالة ومن ناحية أخرى ، عرفت هذه الثقافة ظاهرة التنازع بين الأفكار . وما الاهتمام بقن البديع في الخطاب (خاصة في العصر العباسي) إلا ملمح من ملامح هيمنة اللفظ على المعنى ، الأمر الذي أدى إلى إغفاء عقلي في هذه الثقافة في رأي الدكتور الجابري (١٠٨) .

وبالإضافة إلى إشكالية اللفظ والمعنى التي عرقلت تحرر للعقل البياني وصفاء تفكيره العقلي فإن المؤلف يرى أن « القياس البياني » زاد الطين بلة . إذ أن هذا القياس « لا يعني استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمات أو أكثر بل يعني إضافة أمر إلى أمر آخر بنوع من المساواة . إنه ليس عملية جمع وتآليف بل هو عملية مقابلة ومقاربة . إن القائل لا يعدل حكماً من عنده لا يبتله بل يمدد حكم الأصل إلى الفرع ، ابتداءً أو نقيضاً اعتماداً على ما يجده هو من شبه بينها يبدد القياس » (ص ١٣٨ - ١٣٩) .

إن لزوم قياس العقل البياني لزوم غير ضروري ، إذ أن العلة غير مصرح بها بل يلتبسها المستدل من ملامح (إشارات) يعتقد أن الشرع انطاط الحكم بها من أدلة في

تنضج هيمنة القواعد اللغوية أو أبواب الخطاب ، كما كانت تُسمى ، على مؤلفات علماء أصول الفقه . فأبواب الخطاب هذه تشغل ما لا يقل عن ثلث حجم الكتاب . وكمثال على ذلك يمكن ذكر كتاب « المعتمد في أصول الفقه » لأبي الحسين البصري الشافعي في صام ٤٣٦ هـ . علماً أن هذا الكتاب يعد أهم أربعة كتب في أصول الفقه المعتزلي الممثل الرسمي والمخلص للنظام المعرفي البياني . ومن ثمَّ يخلص الدكتور الجابري إلى القول بأن النشاط العقلي في علم أصول الفقه هو نشاط وحيد الاتجاه : الانطلاق من اللفظ إلى المعنى كما هو الشأن في علوم النحو واللغة والبلاغة : بذلك أصبح - في رأي المؤلف - الاجتهاد في علم أصول الفقه اجتهاداً في اللغة التي نزل بها الذكر الحكيم وهذا الانشغال بالمسائل اللغوية لدى هؤلاء العلماء تم على حساب اهتمامهم بقضايا مقاصد الشريعة (ص ٦٣) .

يرى المؤلف أن علم الكتاب كجزء من النظام المعرفي البياني لم يتحرر هو الآخر من سطوة إشكالية اللفظ والمعنى ، فقد وضع المتكلمون المسلمون ، والمعتزلة على وجه الخصوص ، حدوداً لا ينبغي تجاوزهها في توليد الخطاب القرآني . إن كتاب للغة في أبواب التوحيد والعدل لأبي الحسن القاضي عبد الجبار يُفصح عن تأثير علم الكلام في إشكالية اللفظ والمعنى إلى حد كبير . وهذا مثال آخر يسوقه الدكتور الجابري للتدليل على أن العقل العربي تم إغفاله عن الممارسة الفعالة العقلية المستقلة عن الخطاب الشرعي (ص ٧٤) .

إن حال البلاغيين من قضية اللفظ والمعنى تشبه وضعية المتكلمين والنحاة المشار إليها أعلاه ، أي أن علماء البلاغة بقوا سجنين في إشكالية اللفظ والمعنى ونظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني مصداق

المعارفون . والمقل العرفاني بالتأكيد متأثر هو بالنظرة الهرمسية عند صاحب الكتاب .

ويحتل إشكالية الظاهر / الباطن فيه مكانة ماثلة للفظ / المعنى في العقل الباطني . وهكذا أصبح الزوج : الظاهر / الباطن أداة رئيسية لتأويل الخطاب القرآني . لكن تدخل العامل السياسي في عقلية التأويل هذه لعب دوراً مهماً خاصة عند الشيعة والمتصوفة .

ويعتقد أهل العرفان أن معرفتهم أفضل من المعرفة الباطنية والبرهانية ، إذ أن طريق العرفان هو طريق الاصفاء ، خاصة الأولياء والأئمة .

إن أهم شخصية تمثل النظام المعرفي العرفاني هو في رأي صاحب الكتاب - ابن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) : الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر . فهذا الأخير يقول بأن الله جعل في كل شيء من مخلوقاته ظاهراً وباطناً . وأن من يسميهم بأصحاب الإشارات مُعَفَّنُون من التصيد بحدود اللغة (اللفظ والمعنى) ، إذ أن فهم القرآن الحق هو فهم بالقلب . المؤمن ينبغي أن يضع نفسه في منزلة الرسول لسمع مثله القرآن في قلبه ، كما يسمعه الرسول من جبريل . لموقف المعارفين هذا موقف خطير جداً . إذ أن ذلك يجعل فهم الصحابة أقل من فهم المعارف الصوفي أو الشيعي . أما القياس العرفاني فيصفه المؤلف بأنه قياس بدون جامع ، وبدون حد أوسط ، وبدون وقاية عقلية . (ص ٣١٥) . فجعل الشيعة مكانة الولاية أفضل من النبوة مصداق لعدم ترابط وتناسق بنية القياس العرفاني فالقول في عند المتصوف والإمام عند الشيعي لها السلطة الدينية الكاملة التي لا تنافسها أي سلطة أخرى بخصوص مصداقية المعرفة .

لا يتردد الدكتور الجابري في إصدار نقله اللاذع . للموقف العرفاني المشار إليه هنا . فهو في نظره موقف

الشاهد يتخذها مَرشداً إلى مطلوبه . ومن ثم يتضح أن الزوم الباطني هو لزوم يقرب على مجرد الجواز وفي أحسن الأحوال على الترجيح . وبالتالي ، فالقياس الباطني ليس له قوة منطق الزوم الضروري التي يستند إليها القياس المنطقي الإغريقي المتمثل في العبارة المنطقية : كل إنسان فاني ، سقراط إنسان ، إذن فهو فاني .

ويرجع الكاتب طبيعة القياس الباطني (التجريزية أو الترجمية) إلى البيشة الصحراوية التي عاش فيها الإنسان العربي بالجزيرة العربية (فالبدأ الذي يؤسس وهي سكان هذه البيئة لن يكون السببية ولا الحتمية بل سيكون الجواز : كل شيء جاز . الاطراد قائم فعلاً ، ولكن المنبر القاطني الحارق للمادة ممكن في كل لحظة (ص ٢٤٣) .

وبعبارة أخرى ، فإن الرؤية القائلة على الانفصال وعدم الاقتران الضروري بين الظواهر والأشياء هي في نظر الدكتور الجابري رؤية تجعل الجهد العقلي محصوراً في المقارنة بين الأشياء ، بعضها مع بعض ، لا يتعداها . ومن ثم يلخص المؤلف خطأ البيانيين على اختلاف أصنافهم بأنهم (قرأوا النص القرآني بواسطة سلطة مرجعية أخرى هي عالم الأعرابي و عالمه الطبيعي والفكري الذي تحمله معها اللغة العربية التي جعلوا منها حكماً بدعوى أنها اللغة التي نزل بها القرآن) (ص ٢٤٨) .

رابعاً : طبيعة خاصيات العقل العرفاني

إن آليات النظام المعرفي العرفاني تختلف أساساً عن تلك التي رأيناها عند النظام للمعري الباطني . فوسائل كسب المعرفة هنا تتمثل في طرق الإلهام والكشف ، والرياضات والمجاهدات التي يتلقاها ويمارسها

الأرسطي . ولم يكف مؤلف المتقدّم من الضلال بالدعوة والتبشير بالمنطق بل ذهب إلى بيان عدم صلاحية الاستدلال بالشاهد على الغائب في المقليات (علم الكلام) إذ أن صلاحية هذا المنهج مقصورة على الفقه حيث لا يطلب اليقين وإنما يكفي بالظن .

ومع ذلك ، يعيب الدكتور الجابري على الغزالي أن المنطق كمنهج تحول معه « إلى مجرد آلية ذهنية شكلية مثل آلية قياس الغائب على الشاهد » (ص ٤٤٥) .

أما مساهمات ابن سينا في الدفع بالعقل البرهاني إلى الأمام فلها في نظر المؤلف مساهمات سلبية ، إذ أن فلسفته هي عبارة عن تلفيق بين آليات الفارابي وأخريات الإسماعيلية . وبذلك يدشن كل من الغزالي وابن سينا ما أطلق عليه صاحب الكتاب اسم أزمة الانظمة المعرفية الثلاثة . إنها أزمة « اختلطت فيها المفاهيم واشتكت المسائل وتصادمت الرؤى والاستشرافات داخل الثقافة العربية الإسلامية ، مما جعل الحاجة إلى إعادة التأسيس والتبنيّة ضرورة ملحة » (ص ٤٨٢) .

وهي أزمة حادة مست البان والعرفان والبرهان وأدت إلى ما سماه الكاتب « بالتدخل التلغيفي » بين أجزاء النظم المعرفية المذكورة هنا . ومن هنا جاءت أهمية دور مشروع ابن حزم . فمشروع هذا الأخير يصفه صاحب الكتاب بأنه « مشروع فكري فلسفي الأبعاد يطمح إلى إعادة تأسيس البان وإعادة ترتيب العلاقات بينه وبين البرهان مع إقصاء العرفان إقصاء تاماً » (ص ٥١٤) . وتتلخص معالم هذا المشروع الحزمي في المبادئ التالية :

١ - فهم الشريعة اعتماداً على حجة العقل .

هروب من عالم الواقع إلى عالم « العقل المستقل » الذي يلجأ إليه المعارف كلما اشتدت وطأة الواقع عليه وعجز عن تجاوز فريته .

إن النظم العرفاني يلغي الاستيعاب بالعقل . الموقف العرفاني موقف سحري يُلغى العالم ليُجعل من « أنا » المعارف الحقيقة الوحيدة . إن النظرية العرفانية ذات رؤية سحرية في التصميم . إنها تخلق كل شيء برأيه المعارف من لا شيء » (ص ٣٧٩) .

خامساً : البرهان في الثقافة العربية الإسلامية المللة

في محاولة لكسب المعرفة يستعمل العقل البرهاني وسائل مختلفة أساساً عن تلك التي يلجأ إليها كل من النظم المعرفي البياني والعرفاني . فالبرهان يعتمد على قوى الإنسان الطبيعية مثل الحس والتجربة واستعمال العقل في اكتساب معرفة الكون ككل أو كجزء . ويرى المؤلف أن العقل العربي البرهاني بدأ رحلته مع الفيلسوف العربي الكندي الذي دعا إلى وجوب تعلم الفلسفة . وتلاه الفارابي بالتأكيد على أسبقية الفلسفة زمنياً عن الملّة (الدين) (ص ٤٢٤) ، وأن ما في الملّة مثالات لما في الفلسفة . ويشير المعلم الثاني إلى أن المنطق كفكر فلسفي تنطبق مبادئه وتعميماته على جميع الناس ، بينما بعض العلوم الأخرى مثل علم النحو يعطي قوانين تخص ألفاظ كل لغة . وفي نظر الدكتور الجابري أن الفارابي كان يتوجه ببلدك إلى البيانيين على العموم والنسبة على وجه الخصوص .

إن التأثير بالمنطق لم يفلت منه الإمام أبو حامد الغزالي رغم تصوفه ، فلقد بقي مناصراً له حتى آخر أيامه . ففي كتابه التسطّاع المستقيم يحصر الغزالي طرق الاستدلال في القرآن في ثلاثة تؤول كلها إلى القياس

- ٢ - العلة هي علاقة طبيعية ضرورية بين الأشياء .
- ٣ - السبب صفة خاصة بالكائنات التي تتمتع بحرية الإرادة .
- ٤ - قياس الفقه باطل لأهم يقيسون عل أشياء تختلف في النوع .

ويشأ ابن حزم في كل ذلك بطبيعية أرسطو ومفاهيمها ونظرياتها البرهانية في تأسيسه النظام المعرفي البياني عل رؤية البرهان . وهذا لا يعني أن ابن حزم لا يترك مجالاً للنص في خدمة الشريعة . إن التمسك بالنص أمر وارد لا جدال فيه . لكن ما ورد فيه نص واضح هو قليل ومحدود . وعليه فإنه يجب استعمال العقل في باقي الأمور غير المحصورة ويمكن القول إذن إن رؤية ابن حزم هي رؤية تؤسس البيان عل البرهان تصوراً ومنهجاً .

وجاء ابن رشد بالأنليس لكي يرفع بالمشروع الحزمي إلى الأمام . وتتمثل مساهمة صاحب كتاب « تهافت التهافت » في أنه أصبح شديد الالتزام بنظام السببية . وهو القائل بأن من رفع الأسباب فقد رفع العلم (ص ٥٣٦) . إن التوجه الحزمي الرشدي البرهاني (العقلاني) أثر تأثيراً عميقاً خاصة عل كل من الشاطبي وابن خلدون . فالشاطبي مثل قصة الفكر العربي الإسلامي في ميدان الفكر الأصولي ، أو علم الشريعة . أما ابن خلدون فقد بلغ بمقدمته أوج الفكر البرهاني في الفكر التاريخي والاجتماعي والسياسي . لكن حركة الفكر البرهاني لم يكن لها الاستمرار بعد ابن رشد والشاطبي وابن خلدون . « ولكن النقلة التي بشر بها الشاطبي في ميدان علم الشريعة مثلها مثل النقلة التي بشر بها ابن رشد في ميدان الحكمة بدون قابلة ، بدون مستقبل ، تماماً مثل النقلة التي بشر بها ابن خلدون في ميدان ثالث بقي يُنظر إليه داخل الثقافة العربية

الإسلامية عل أنه يقع خارج شجرة العلوم التقليدية منها والعقلية » (ص ٥٤٧) .

سادساً : تعاطف المؤلف مع العقل البرهاني

لقد نجح الدكتور الجابري في هذا الكتاب الضخم (٦٠٠ ص) في معالجة وتحليل تراث الثقافة العربية الإسلامية في صياغة مبسطة سوف تجعل تراث هذه الثقافة في متناول غير المختصين من مثقفي الوطن العربي اليوم وفي المستقبل .

لقد أنجز الكاتب هذا الهدف بأسلوب ومنهج ولغة تتسم كلها بكثير من السهولة والوضوح كما أن المؤلف تفهيد بروح التحليل والنقد التي تُشير إليها عنوان الكتاب . فللؤلف كان أكثر قسوة وأشد نقداً للعقل العرفاني ، وفي المقابل فقد كان أكثر انبهاراً وحساساً وتعاطفاً مع العقل البرهاني . أما حنة نقده للعقل البياني فهي تميل إلى الأوصاف بشيء من القسوة . ومن ثم فؤلف الدكتور الجابري هو لاء وتعاطف يتّيان مع العقل البرهاني المستند إلى أسس المنطق الأرسطي عل الخصوص . إن مثل هذا الموقف من البرهان يصطب على قول المتنبي بعد تصرف :

العقل البرهاني قبل البياني والعرفاني
هو الأول وهما في المحلل الثاني

إن هذا التحمس للبرهان دفع - في رأينا - بالمؤلف إلى نوع من التحيز لصالح العقل البرهاني فهو من جهة يمجّد قياس المنطق الأرسطي المنفعل لكونه قياساً تتسم استنتاجاته باليقينية أو لزوم الضرورة كما هو الشأن في العبارة المنطقية المشهورة : كل إنسان فان - فسقراط إنسان إذن فسقراط فان .

ومن جهة ثانية فإن الدكتور الجابري يحقر من مكانة القياس البياني الذي طالما يستعمل علاقة الأصل بالفرع

الأمور هي دعوة غير واقعية ومناقضة للروح العلمية نفسها . والواقع أن كل ما يروجوه المشرع الذي يلزم إلى المنهج القياسي هي تشريعات احتمالية أو ترجيحية . ولعل كل التشريعات التي اجتهد فيها البشر بأعمالهم المتعلقة والمتنوعة لا يمكن أن تكون مصداقاً لها إلا احتمالية أو ترجيحية بالنسبة لأصحابهم . فالقياس هو عملية اجتهد . والجهت يُخطئ . وصيب . إن الدكتور الجابري يضرب عرض الحائط بالقياس الذي يمكن أن يخطئ . ويطلب قياساً يكون دائماً مصيباً . إن طلباً مثل هذا يخرجنا من عالم الإنسان . وهو في رأينا موقف غريب للمؤلف الذي عرف عنه التزامه بالواقع الاجتماعي للإنسان . ومن الغريب في هذا المضمحل أن صاحب الكتاب لا يُشير ، لا من قريب ولا من بعيد ، إلى تحلي العلم الحديث كلياً تقريباً عن منطق أرسطو في كسب المعرفة . وإن المنطق التجريبي للعلم طالما يستعمل منهجية تشبه القياس البياني للمستعمل لنموذج الأصل / الفرع . فعل مستوى العلوم الدقيقة ، تستعمل العلوم البيولوجية أو الطبية مثلاً الحيوانات (الأصل) كمدان لتجارها لبعض المخدرات أو الأدوية والتلفحات ضد الفيروسات كفيروس مرض الإيدز ، نظراً لأن إعلاقيات هذه العلوم تمنع ممارسة مثل هذه التجارب على بني الإنسان . وطالما ينساق العلماء المجرمون إلى تعميم نتائج الأصل (الحيوانات) على الفرع (الإنسان) . وهذه التعميمات هي تعميمات احتمالية أو ترجيحية بالنسبة للمدى تأثر الإنسان (الفرع) بتلك الأدوية والمخدرات لوجود بعض الاختلافات - وإن كانت ضئيلة - بين الإنسان والحيوان . أما استعمال منهجية الأصل / الفرع في العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة فهو واقع لا يمتنع إلى إثبات فعليه الاجتماع والسياسة والاقتصاد الغربيين يعممون كثيراً من نظرياتهم حول التنمية والتحديث على مجتمعات العالم

كمنهجية للتوصل إلى استنتاجات وتشريعات كما هو الأمر في تحريم الفقهاء للنبيذ (فرع) قياساً على الأصل الذي هو الخمر .

سابعاً : العقل البياني أقرب إلى روح العلم الحديث

إن نقد الكاتب للقياس البياني يعود في نظره إلى كون استنتاجاته ليست إلا احتمالية أو ترجيحية في أحسن الحالات ، وبالتالي فهي غير دقيقة ولا يقينية مثل تلك التي يتوصل إليها المنطق الأرسطي . إن التمثيل في مدى التعاطف الذي يكنه صاحب الكتاب إلى القياس الأرسطي لا يسمح إلا أن يهد بعض المخاض في مثل ذلك الموقف . يقينية استنتاج أن سقراطاً فإن ثم التوصل إليها بسبب أن القدمتين : كل إنسان فاني - وسقراط إنسان تصفان باليقينية المطلقة بخصوص الفناء النهائي لبني البشر . إن الدكتور الجابري يدعو إلى إيجاد قياس شرعي إسلامي يتمتع بنفس درجة اليقينية التي يعرفها قياس للمنطق الأرسطي . نحن نرى أن دعوة مثل هذه هي دعوة غير واقعية وتتعارض مع طبيعة الأشياء . فقياس الفقهاء والمشرعين المسلمين طالما تتناول قضايا اجتماعية وإنسانية لم يرد فيها نص واضح ، لا في القرآن ولا في السنة ، وبالتالي فالمسائل والقضايا الجديدة هي نتيجة حركة تغير وتطور المجتمعات الإنسانية مع مرور الزمن .

فالقياس البياني المستند إلى نموذج النص / الفرع يمثل منهجية واقعية لمعالجة ما يجيء من قضايا ومشاكل في صلب المجتمعات الإسلامية المتطورة . نعم إن ما يتوصل إليه الفقهاء عن طريق القياس بخصوص الفرع لا يتصف باليقينية التي يتصف بها الأصل . إته لضرب من اللاواقعية والتبسيط أن ننشد اليقينية المطلقة من استنتاجات قياسية حول قضايا ومسائل إنسانية معقدة لم يبينها الشرع . فالدعوة إلى معرفة يقينية في مثل هذه

العقل البياني العربي الإسلامي مسألة وقور هذا الأخير في سجن النص على حساب استعمال العقل البرهاني . إن إشكالية النقل والعقل إشكالية مطروحة منذ العهد الأول لنشأة الثقافة العربية الإسلامية . فموقف علماء المسلمين الأوائل من هذا كان يؤمن بعدم وجود التناقض بين اجتهاد العقل وروح النص . وبهذا الصدد فإن الدكتور الجابري - تحت انبهاره بالبرهان ، يكاد يعطي الانطباع بأن التفكير العقلي البرهاني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا ما جعله مفرط التحمس في جعل هذا النوع من التفكير الأول والأخير في كسب معرفة موثوقة بها حول ظاهرات الكون المتنوعة وهو موقف يتطلب الوقوف عنده . في رأينا ينبغي الإشارة هنا إلى ملمحين لهذا العقل :

١ - إن المعرفة المكتسبة عن طريق البرهان تبقى في النهاية معرفة محدودة المصادقية خاصة فيما يتعلق بالظواهر الأكثر تعقيداً ، وهذا باعترااف الكاتب نفسه .

٢ - إن التفكير العقلي البرهاني في معناه العام الحديث ، لا يمكن له أن يفكر ويتأمل في فراغ . وإنما هو يقوم بعملية التفكير والبرهان في إطار اجتماعي ، ثقافي ، سياسي ، ديني ، أيديولوجي . . . ومن ثم فتحرره المطلق من هذه المؤثرات غير وارد على مستوى الواقع والموضوعية . فمسألة إبادة تعاطي الكحول مثلاً في المجتمعات الغربية لا يمكن إرجاعها إلى برهان عقلائي بحت . فالأدلة الموضوعية على سلبية إبادة الكحول تفوق بكثير إيجابياتها . ورغم المعرفة بذلك فإن أكثر ما قامت به بعض هذه المجتمعات هو القيام بحملات توعية لتعاطي الكحول باعتدال (كما هو الشأن في فرنسا) ، أو منع تعاطيها عند قيادة السيارة ، كما هو الحال في بعض المقاطعات الكندية اليوم . فالعقل

الثالث ، علماً بأن منبت هذه النظريات هو واقع المجتمعات الغربية (الأصل) وليس واقع المجتمعات النامية (الفرع) . ودلت الدراسات في هذا الميدان على أن أكثر ما يمكن أن تصنف به مصادقية العلوم الاجتماعية ونظرياتها هي الاحتمالية أو الترجيحية لا اليقينية بخصوص العلاقة بين الأصل والنوع .

وبشأن هذه النقطة بالذات فالعلوم الاجتماعية والنفسية الغربية تعيش منذ السبعينات تحولاً إبيستيمولوجياً بخصوص طبيعة قوانين الظواهر النفسية والاجتماعية . فللمتدبة الاجتماعية (السوسولوجية) المتصلة التي دعا إليها عالم الاجتماع دور كايم Durkheim وأتباعه ، أو الحتمية السلوكية القاهرة التي قادها عالم النفس سكينر Skinner أصبحت مفروقتين اليوم بين عدد كبير متزايد من علماء الاجتماع والنفس . وبعبارة أخرى ، فإن استنتاجات هذه العلوم أو تكتهناتها هي في النهاية ذات طبيعة احتمالية أو ترجيحية لا يقينية فتعتمد العوامل التي تؤثر في الظواهر النفسية والاجتماعية تجعل من الصعب الحديث عن استنتاجات يقينية على مستوى الفرع كذلك التي يتوصل إليها المنطق الارسطي بخصوص يقينية فناء سقراط الإنسان . وبكل صراحة ، فإن طلب اليقينية التامة من القياس البياني في كل استنتاجاته هو مطلب غير مشروع ، ومن ثم ، غير واقعي وغير علمي . وفي رأينا أن الذي ينبغي أن نعيه على العقل العربي ليس هو استعماله للقياس البياني وإنما هو توقفه عن الاجتهاد - بالقياس وغير القياس - في قضاياها ومشاكله بالرجوع إلى تراثه وبياديه حضارته ، بدل سقوطه في دوامة التقليد والتفلسف بين أيدي المهيمين على مصيره .

ثامناً : حدود العقل البرهاني

من القضايا الأخرى المركزية التي يتخذ فيها المؤلف

لتبرير شرعية وجودها في هيكل الثقافة العربية الإسلامية العالمة . فاستناد العقل البياني إلى التصلة - في رأينا - ما يبرره إذا نظرنا إليه بمنظور علم اجتماع المعرفة . فمما لا شك فيه أن القرآن هو المؤثر الأول على طبيعة الظاهرة الإسلامية العربية بما فيها ثقافتها العالمة . إن أول ما يتميز به القرآن على المستوى البياني هو إيجاز لفته ، وإن هذا الكتاب يعان في وضوح التبرار أن فيه إشارات ومعلومات عامة حول كل شيء . . . ما فرطنا في الكتاب من شيء . . . كما أن الإسلام يؤكد أنه عاتم وأكمل الرسالات السماوية . فليس بالعجيب إذن أن تحتل المعرفة باللفاظ ومعاني اللغة التي نزل بها القرآن الصدارة في التكوين الثقافي والتفكير العربي عند عدد كبير من المفكرين العرب والمسلمين . وبالتالي فنحن نرى أن اهتمام هؤلاء باللفظ والمعنى - وهو أكثر ما يعنيه المؤلف عليهم . هو نتيجة حتمية - لا غرابة فيها - لهذه الرسالة الدينية الجليدة التي تمثل فيها لغة الرحي السماوي ملمحاً رئيساً من ملاح إصهارها . وبالتأكيد ، فإن الإيجاز اللغوي القرآني هو سمة تتميز بها الإسلام كدين عن الرسالات السماوية السابقة ، كما تتميز بها الحضارة العربية الإسلامية - إلى حد كبير - عن الحضارات الإنسانية الأخرى .

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن معظم الحضارات الإنسانية عرفت البرهان والعرفان . . فالحضارة العربية الإسلامية تشترك فيها مع الحضارات الإنسانية الأخرى . إن ما يميز هذه الحضارة إلى حد كبير هو أساساً العقل البياني . فالنظام المعرفي هو إذن حصيلة منتطرة لمثل تلك الخلفية التي يمتزج فيها تأثير العامل اللغوي بآليات التفكير في فهم النص كمرجع رئيسي لجلود طبيعة نشأة الحضارة العربية الإسلامية وتطورها .

إن سكوت الكاتب على جلود الظروف التي أنتجت

البرهاني ليس إذن بكامل الحضور بخصوص الفضاءيا التي تتصف بتعقيدات ثقافية وأيديولوجية وسياسية واقتصادية . . . وهنا يأتي - في رأينا - دور النص القرآني والحديثي في البت في المسائل الشائكة مثل إياحة أو منع تعاطي الكحول بالمجتمع ، وهو ما جاء فيه القول الفصل في القرآن بالنسبة للمجتمع الإسلامي الحق . وهذا يعني أن المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية العالمة تستند إلى مصدرين : المعرفة البرهانية والمعرفة النصية . إن الواحدة مكمل للآخرى في للتظور الإسلامي .

تاسماً : مدى شرعية موقف المؤلف من العقول الثلاثة

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هي شرعية مثل هذا النقد الذي ترد في صفحات النصف الأول من هذا الكتاب الضخم ؟ إن المنهجية التي استعملها المؤلف لتحديد طبيعة العقل البياني هي من نوع تحليل الخطاب البياني . أي أن صاحب الكتاب درس وحلل المؤلفات العربية الإسلامية البارزة لعلمه النظام المعرفي البياني منذ عصر التدوين حتى عهد ابن خلدون . وبعد القيام بالوصف المنهجي التفصيلي والمنظم لآليات العقل البياني الذي سطا على الثقافة العربية الإسلامية العالمة أصدر المؤلف حكمه المتشدد على هذا العقل .

فالمؤلف يبدو وكأنه كتب الكتاب ليصف العقل العربي ولينقده في المقام الأول وليس ليحلل ويقيم الظروف الموضوعية التي أفرزته وشكلت طبيعته . فلا يكاد المرء يجد في القسم الذي خصصه المؤلف في كتابه لمناقشة العقل البياني أي محاولة جادة لفحص هذا العقل في ضوء ما يُمس اليوم بعلم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge of مفركية إشكالية اللفظ / المعنى في بنية العقل العربي البياني لم تلق اهتماماً من صاحب الكتاب

ودعوة الاسلام إلى التدبر والتفكير والتعلل من جهة ثانية (وهذا حسب مقولة المؤلف) تُشابه إلى حد كبير العقل العربي السياسي . فهذا الأخير لم يتأثر بعد فترة الخلافة الراشدة القصيرة ، ولا بمبادئ الشيورى الإسلامية القديمة حديثاً ، ولا بمبادئ الشيورى الإسلامية قديماً وحديثاً . إن صمت المؤلف عن إثارة مكانة العقل في الإسلام (وهو العاشق للعقل والبرهان وآليتهما) لا بد أن تثير بعض التسؤلات ، عند البعض على الأقل . هل يدل ذلك على أن الكاتب لا يؤمن بأن ما يعطيه الإسلام للعقل من حرية غير كاف لإعطاء العقل وظيفته الكاملة في تحقيق عمليات البرهان الناضجة ؟ وفي انتظار الاجابة عن تلك التسؤلات يبقى انهيار الدكتور الجابري بالعقل البرهاني وآلياته - قبل أي نظام معرفي آخر - حقيقة لا جدال فيها . ولعل شدة هذا الانهيار هي التي جعلته لا يولي اهتماماً كبيراً إلى أسباب ظهور النظام للمعري البياني والعرفاني في الثقافة العربية الإسلامية العالمة . ولعل ذلك الانهيار نفسه هو الذي جعله غير قادر على الحديث عن العقل العربي الاسلامي الذي تواجد فيه البرهان مع النص (أو البيان) ، جنباً إلى جنب ودون أن يضر هذا بمسيرة العلوم باختلاف أنواعها التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية حتى عهد ابن خلدون . فالصراع بين البيان والبرهان ، أو التناقض بينهما ، في الثقافة العربية الإسلامية ليس إذن قضية حتمية كما عرف ذلك تاريخ العلوم الغربية الحديثة منذ عصر النهضة . وخاصية العقل العربي الإسلامي العالم هذه لم يعن المؤلف بإيرادها وشرح حثيائها . وهي تستحق - في نظرنا - اهتماماً أكثر في كتاب يركز على أنظمة المعارف للثقافة العربية الإسلامية .

العقل البياني أدى - في رأينا - بالدكتور الجابري إلى فقدانه تقيده المعروف بقوانين الحتمية الاجتماعية التي أكدها في مناقشته للتفكير الفلسفي العربي الإسلامي في كتابه « نحن والتراث » ففي هذا الأخير أبرز حتمية اجتماعية ثقافية قسرها وقد بها بصورة أكثر إقناعاً الفرق بين الفكر الفلسفي الإسلامي العربي ، في كل من المشرق والمغرب ، حتى عصر ابن خلدون . أما صمته هنا عن الإفصاح عن حتميات العقول الثلاثة فيعكس في رأينا خللاً منهجياً ويضعف بالتالي قوة الأسس لشرعية نقده .

إن شدة ارتباط العقل العربي الإسلامي بالنص مثل خصوصية لا جدال فيها حتى عند أصحاب العقل البرهاني مثل ابن خلدون . فصاحب المقدمة لا يتجاهل النص القرآني في تحليلاته الاجتماعية التي حفلت بها فصول هذا الكتاب . فيخصوص ظاهرة التعرف واتحلال الحضارات يسوق ابن خلدون الآية المناسبة لتأكيد العلاقة الوثيقة بين البرهان والبيان في الثقافة العربية الإسلامية العالمة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

من المتأخذ الأخرى التي تستحق الإشارة إليها هنا نسيان الكاتب مناقشة سبب عدم تأثر كل من العقل البياني (حسب اعتقاد صاحب الكتاب) والعقل العرفاني بدعوة الإسلام الصريحة إلى مدى أهمية الاعتناء بشور العقل بالنسبة للكانن الإنساني . إن تأكيد القرآن على ذلك لا يحتاج إلى بيان . إن عدم تأثر نظامي العرفان والبيان بكل من المنطق الأرسطي العقلاني من جهة ،

العدد التالي من المجلة
العدد الأول - المجلد الواحد والعشرون
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الطاقة النووية

ترحب المجلة بأسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

- (أ) الطاقة النووية
- (ب) الإعلام المعاصر
- (ج) الفكر العربي المعاصر
- (د) مدارس اللغــة الألبــنى

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو تجماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثرى ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبيا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجا معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

| | | | |
|----------|---------|-----------|---------------|
| ٥ ليرات | سوريا | ٧ دراهم | ليرة الإمارات |
| ٤٠ قرشا | القاهرة | ٦ ليرات | عمانية |
| ٣٠٠ مليم | السودان | ٤ ليرات | مصر |
| ٥٠ قرشا | ليبيا | ٥٠٠ فلس | تونس |
| ٥٠٠ بيعة | مسقط | ٥٠٥ ريال | يمن الشمالية |
| ٦ دنانير | الجزائر | ٤٠٠ فلس | يمن الجنوبية |
| ٦٠٠ مليم | تونس | ٤٠٠ فلس | مراكش |
| ٧ دراهم | المغرب | ٥٠ ليرة | سنگاپور |
| | | ٢٠٠ فلستا | هند |

اشتراكات:

كلاد العربية ٥ دنانير

كلاد الاجنبية ٦ دنانير

لقيم الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف، يندج الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى:

ارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبوعة حكومية الكويت

الشمس
٤٠٠ فلس

